٤ صفحات من تاريخ مصر

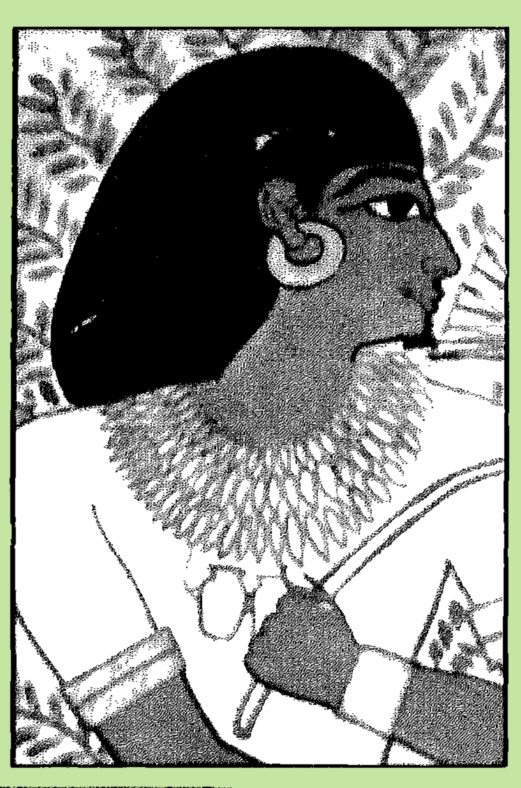
تاريخ مصر

من أقدم العصور إلى الفتح الفارسى

تأليف
الأستاذ جيمس هنرى برستد

ترجمة
الدكتور حسن كمال

راجعه وصححه : محمد حسنين الغمراوى بك





الناشر: مكتبة مدبولي بالقاهرة

تاريخ مصر

من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي

الطبعة الثانية

١٤١٦هـ - ١٩٩٦م

الناشر

مكتبة مدبولي

ميدان طلعت حرب بالقاهرة - ج م ع

تليفون ٥٧٥٦٤٢١

صفحات من تاريخ مصر

(٤)

تاريخ مصر

من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي

تأليف

الأستاذ جيمس هنري برستد

أستاذ علم الآثار المصرية وتاريخ الشرق بجامعة شيكاجو، ومدير دار التحف الشرقية بمدينة هاسكل، والعضو المراسل للمجمع العلمي ببرلين

ترجمة

الدكتور حسن كمال

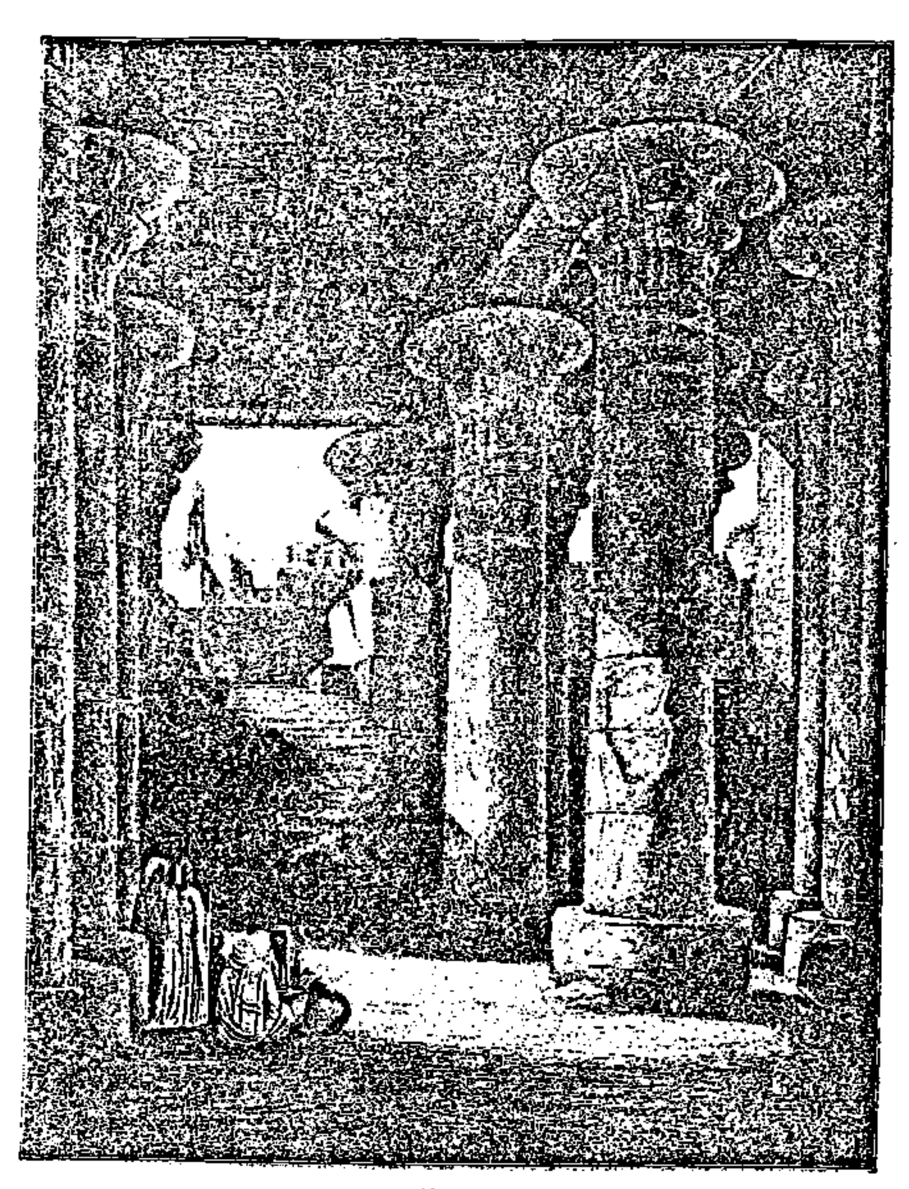
راجعه وصححه

محمد حسنين الغمراوي بك

مكتبة مدبولي

القاهرة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ



الساحة ذات العُمُد بمعبد إسنا



الملك فؤاد الأول

مقدّمة المترجم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله القديم المتعال . وبعد : فلما اشرأبت نفوس المصريين الى الاطلاع على أسرار تاريخهم الجليل ، رأيت أن أقدم لهم سفرا يروون به ظمأهم ، ويثقفون به أذهانهم ؛ ومن دواعى الأسف أنه لا يوجد بين مصنفاتنا العربيــة الحديثة ما يسدّ فراغ هذا السفر . نعم ان المرحومين أحمد كمال باشا وأحمـد نجيب بك وضعا كتابين قيمين فى هـذا الموضوع سمياهما " العقد الثمين " و"السفر الجليل" منذ نحو ثلاث وأربعين سنة ، غير أن تقادم العهد عليهما ، أفقدهما ما كان لهما من المنزلة السابقة ، لكثرة توالى الاستكشافات الأثرية منذ ظهورهما .

ولمـا أردت القيام بهذا العمل سألت «الأستاذ برستد» مدير القسم الشرقى بجامعة شيكاجو ليسمح لى بترجمة سفره الى العربية ، فأظهر جنابه فى ذلك ارتياحا واستعدادا للساعدة . ولا يخفى أن هذا الكتاب فذ فى نوعه باعتراف المؤرخين الغربيين ، فهو لذلك مرجع علمى قيم . وعلى كل حال فاننا نؤكد للقارئ مقدّما أنه سيجد فى هذا السفر ضالته المنشودة . وفقنا الله للصواب ؟

الدكتور حسن كمال

مقدّمة المؤلف

كانت الزيادة المطردة للسياح الوافدين الى القطر المصرى فى شتاء كل سنة باعثا لى على وضع كتاب فى تاريخ هذا القطر، يتفق تماما هو والاستكشافات العصرية ، والمعلومات الأثرية الحديثة؛ وليس هؤلاء السياح السعداء وحدهم هم الذين تاقت نفوسهم الى مصر، بل هناك فريق آخر من رجال العلم اشرأبت أعناقهم لمعرفة أهمية الشرق القديم، وتأثيره فى التاريخ البشرى. ولا يخفى أن العالم الغربى مدين بكثير من علومه وآدابه الى أهالى وادى النيل ، كيف لا وهم الذين زودوا أوربا الجنوبية بالمدنية والمعارف، فأخذت هذه تنتشر شمالا متبعة سير النيل الى أقاليم البحر الأبيض المتوسط . والعقبة الواحدة التى حالت دون وصول حضارة بابل الى أوربا هى عدم اتصال الفرات بالبحر الأبيض المتوسط، إذ لولا ذلك لأصبح العالم الغربى مدينا لبابل بمقدار ما هو مدين لمصر القديمة . وهكذا صارت مصر أقدم وأهم المراكز التى على شاطئ البحر الأبيض المتوسط ، كيف لا وقد اجتمعت فيها السيادة الحربية والمدنية، من أقدم عصور التاريخ الى ظهور مدنيتنا وحضارتنا الحديثتين . ولقد كان من أهم واجباتنا المقدسة ونحن من سلالة سكان أوربا الأقدمين، أن نرفع الستار ونزيل الحواجز التى تحجب عنا حوادث العصور السالفة، تلك العصور التى تسلم فيها أجدادنا وديعة هذا التمدين الحديث . وهناك فريق ثالث وهم العلماء الروحانيون يهمهم معرفة تاريخ مصر القديم ، ليتبحروا فى دراسة العهد القديم من الكتاب المقدّس . لذلك جعلت نصب عينى عند وضع هذا الكتاب ، استيفاء أغراض قارئيه على اختلاف ماربهم، لتعم فائدته فلا تقتصر على فريق دون سواه .

فى وضع هذا الكتاب اتبعت طريقة معينة ميزته عن أمثاله من كتب تاريخ مصر القديم . ولا يخفى أن معلوماتنا عن التاريخ القديم لسكان وادى النيل ضئيلة ومن الصعب علينا التوفيق بينها كما سيأتى الكلام فيما بعد (راجع صحيفة ٢٣ والفقرات ٣ — ٢٢ من الجزء الأول من كتابى المسمى "نصوص مصرية قديمة") . ومن السهل الحصول على معظم هذه المعلومات لأنها مطبوعة ومعروضة فى كل المكاتب الأثرية ، لكن معظم هذه المطبوعات ظهرت قبل التحقق من محتوياتها، والتأكد من أخبارها وقصصها المنقولة عن القدماء[1] . وليسمح لى القارئ أن أذكره بأن نسخ النقوش الأثرية بدقة ليس بالأمر الهين ، اذا أريد تجنب الخطأ والاحتراس من النسيان . خذ مثلا ما أتاه الأستاذ «رسكن» (Ruskin) من الخطأ الفاحش لما دوّن فى كتابه الفريد المسمى "أيام بمدينة فلورنس" (Mornings in Florence) بعض نصوص وجدها على لوح من الرخام بمقبرة استحسنها فى كنيسة "سانتا كروسى" ومع أن هذه النصوص قليلة لم تتجاوز الثمانية الأسطر لما قارنتها بالأصل، وجدت بها

---

(١) ما يلى هذا المكان من الكلام منقول من كتابى المسمى نصوص مصرية قديمة " Ancient Records of Egypt " (جزء ١ من الفقرة ٢٧ الى الفقرة ٢٨) .

خطأ فى هجاء احدى الكلمات واسقاط كلمتين (et magister) من النصوص اللاتينية الأصلية التى يرجع تاريخها الى القرون الوسطى للعهد اللاتينى . ولا يخفى أن حصول مثل هذا الخطأ من عمدة فى فنه كالأستاذ «رسكن» برهان كبير على جواز ما يقع فيه غيره من العلماء المدققين وقت قراءتهم لأى نصوص قديمة. واليك مثلا آخر يزيدك تأكيدا : ذلك أنه بالرغم من طبع نصوص «بولتارخ» (Politarch) عدة مرات واختلاف كل طبعة عن الأخرى فى نقط مهمة متعددة، فاننا لم نصل الى معلومات صحيحة إلا بعد ظهور الطبعة المنقحة . وهاك مثلا ثالثا يتناول نسخ النقوش اليونانية واللاتينية التى وجدت على قطعة البرنز فى قاعدة مسلة نيويورك، فان هذه النقوش قرئت أولا خطأ من زمن بعيد، واستمر الأثريون يتداولونها بهذه الصورة حتى أتى «مومسن» (Mommsen) واتخذ تلك القراءة غير الصحيحة أساسا بنى عليه احدى نظرياته بشأن ولاة الرومان الأول فى مصر . لهذه الأسباب قلت ثقة القوم فى النقوش الهيروغليفية التى نسخت وقت حل غوامض ذلك الخط ، ما لم يكن الناسخ لها رجلا أثريا مشهورا بدقته وعنايته . والسبب فى ذلك يرجع الى عدم التدقيق بادئ الأمر، ولولا ذلك الاهمال ما بقى الخطأ أثرفى مؤلفات هذا الفن، ولكن استمرار الحال كما ذكرنا أكثر من الخطأ فى المصنفات الأثرية . والحق يقال ان بعضا من المصنفات الحديثة خلا من الخطأ والسهو لشدة العناية والدقة اللتين بذلتا فيها . ومن دواعى الأسف أنه ليس فى كتب اللغات القديمة من الخطأ أو السهو مثل ما زخرت به مؤلفات اللغة الهيروغليفية وآثار مصر القديمة .

لهذه الأسباب الجوهرية كنت دائما أرجع فى كل ما أكتبه عن تاريخ مصر القديمة الى المظان الأصلية ، لأقترب من الحقيقة جهد الاستطاعة . ولا يخفى أن هذا العمل تطلب منى سنوات عدة، أمضيتها فى الفحص عن المجموعات الأثرية فى عواصم أوربا جميعها . وكان أعظم مساعد لى فى ذلك ما قامت به البعثة العلمية التى صورت جميع النقوش المصرية القديمة المحفوظة بمتاحف أوربا ، والتى كلفت هذا العمل من قبل أربعة معاهد علمية ملكية ألمانية (هى معاهد برلين وليبتزج وجوتينجن وميونيخ) للتمكن من عمل معجم تام للغة المصرية القديمة . ثم تعطف جلالة امبراطور ألمانيا بمساعدة هذا المشروع من الوجهة المالية لسرعة انجازه . ومن النسخ التى جمعتها هذه البعثة راجعت جميع النصوص التاريخية المصرية التى بأوربا . أما من حيث النصوص الهيروغليفية المحفوظة بمصر، فقد اعتمدت على ما نسخته من نقوشها التاريخية، ولاسيما نصوص طيبه وتل العمارنة ودار التحف المصرية . وأما النصوص المحفوظة بمصر، التى تعذر على نسخها، فقد اعتمدت لأجلها نسخ الأستاذ «ليبسيوس» المحفوظة بدار التحف ببرلين . وتمكنت من معرفة النصوص الأثرية التى فى جهات أخرى، باطلاعى على نسخ تلك النصوص، التى جمعها أعضاء البعثة الأثرية الألمانية، القائمة بعمل المعجم الهيروغليفى الضخم المشار اليه سابقا. ونسخ لى بعض الأصدقاء الأثريين نقوشا هيروغليفية كان من الصعب على الوصول اليها . وطلبت كذلك صورا شمسية مكبرة لنصوص أثرية بعيدة الوصول ومستحيلة النسخ . وفى حالة تعذر وصولى الى بعض النصوص الأثرية بالطرق السالفة، كنت أعتمد على المطبوعات الحديثة الدقيقة الحاوية لها، لأن الخطأ فى مثل هذه الكتب غير منتظر. هكذا تمكنت من جعل مؤلفى مطابقا لما ورد بصحيح الآثار المعروفة للآن .

وبالرغم من تقدم علماء الآثار فى اظهار غوامض اللغة المصرية القديمة، فان معلوماتنا التاريخية لم تتأثر بذلك، لأن هذا التقدم اللغوى لا تنتظر منه أية ثمرة تاريخية، ما لم تراجع جميع النصوص المصرية القديمة بدقة تامة ، ثم تترجم ترجمة جديدة .

ولقد قمت بهذه المجهودات فترجمت جميع النصوص التاريخية التى توصلت اليها بالطرق المذكورة، وراعيت فى ترجمتها أحدث المعلومات، متخذا طريق الحياد التام ، فلم ألجأ الى ترجمة سابقة لأحد النصوص إلا بعد فراغى من ترجمته .

بعد ذلك جمعت هذه التراجم ورتبتها على حسب القدم، مبتدئا بأقدمها عهدا، ومنتهيا بنصوص العهد الذى فقدت فيه مصر استقلالها عندما غزاها الفرس عام ٥٢٥ قبل الميلاد ، وشفعت هذه المباحث بمقدمات تاريخية وملاحظات تفسيرية ، وسميتها "نصوص مصرية قديمة" [1] بعد طبعها . هكذا تَيَسَّرُ لكل ملم باللغة الانجليزية الاطلاع على تراجم جميع النصوص الأثرية المشتتة فى مئات المطبوعات التى لا يتيسر اقتناؤها ، وسهلت عليه معرفة مرجع كل حقيقة تاريخية يريد استجلاءها . وقد جاءت هذه التراجم فى أربعة أجزاء، وانى أحيل القارئ الى الملاحظات التى بأسفل كل صحيفة ، كلما تطلب الأمر ذلك ، والأرقام السوداء تشير الى الأجزاء والصغيرة التى تليها تشير الى الفقرات .

بهذه الطريقة أمكننى أن أحيل القارئ الى مراجع الكتاب الأصلية، الموجودة بكتابى المسمى "نصوص مصرية قديمة" متجنبا ذكر المصادر التاريخية بالطرق العقيمة المتبعة فى بعض الكتب ، ومجتهدا فى الوقت نفسه أن أصل ذهن القارئ بسلسلة المباحث التاريخية اللازمة .

ومن رأيى أن قراء هذا الكتاب ينقسمون الى ثلاثة أقسام : قسم يطالعه بلا اهتمام الى مراجعه المدونة فى أسفل صحفه، فيفهم مضمونه بدون أن يستفيد من مراجعه . والقسم الثانى كثير الاهتمام بمراجع الكتاب فقط، قليل الاهتمام بما حواه من الاستنتاجات والملاحظات. أما القسم الثالث فكثير الاهتمام بالتحقق والتثبت من تلك المصادر ، وبمراجعة الأصول ومقارنتها بمحتويات هذا الكتاب . وبديهى أن القسم الأخير هو الأكثر استفادة مما بذله المؤلف من جهود الجمع والترجمة فى كتابه "نصوص مصرية قديمة" لكن قراء القسم الأخير أقل عددا من القسمين السالفين. واذا أراد القارئ أن يتأكد من عظم الفائدة من جمع تلك النصوص الأثرية وترجمتها ترجمة جديدة، وتأثير ذلك فى معلوماتنا الأثرية الحديثة، فليقارن هذا الكتاب بكتابى المسمى " نصوص مصرية قديمة " ليتحقق أن النتائج الجديدة التى اهتدى اليها المؤلف من مباحثه العلمية ، كافية وحدها لإظهار قيمة هذا العمل الفذ .

ولم أتعرض كثيرا فى مؤلفى هذا لطرق باب علم العاديات بالإقدام والصبر اللذين بذلتهما فى نسخ ترجمة النصوص التاريخية القديمة ، لأن علم العاديات لايزال فى حداثته والكتب العلمية المؤلفة فيه

---

(1) See *Ancient Records of Egypt: The Historical Documents*, by James Henry Breasted, University of Chicago Press, Chicago, 1906. Volume I, *The First to the Seventeenth Dynasties.* Volume II, *The Eighteenth Dynasty.* Volume III, *The Nineteenth Dynasty.* Volume IV, *The Twentieth to the Twenty-sixth Dynasties.* Volume V, *Indices.*

قليلة جدا بالنسبة لمبحثه العظيم السامى . وعلى كل فقد دونت المعلومات التى استنتجتها من النصوص القديمة . ونفس كل باحث متضلع فى علم العاديات واللغات الشرقية القديمة تتمشق الوصول الى نتائج باهرة ومعلومات قيمة عن قدماء المصريين. أما من جهة الديانة المصرية فلقلة معلوماتنا عنها لم أتمكن من استيفاء مراجعة التراجم لنصوصها القديمة . واعلم أن البحث فى هذا الموضوع حديث العهد ولا بد أن تمضى مدة طويلة قبل الوصول الى حقائق ثابتة تمكن من التبحر والتغلغل فى ثناياه. ولم أسهب الكلام عن الديانة المصرية الا فيما يتعلق بعهد تل العمارنة وعبادة الشمس ، لأنى نسخت النصوص المتعلقة بهذين الموضوعين وترجمتها ، وأوردت منها ما أمكننى استنتاجه . وانى أغتنم هذه الفرصة لأظهر اعجابى بكتاب الأستاذ «إرمن» (Erman) الذى وضعه فى الديانة المصرية القديمة المسمى (Handbuch) والذى سأحيل اليه القارئ مرارا لأنه مرجع وثيق فى هذا المبحث ولا يزال كتاب (Aegypten) الذى وضعه الأستاذ «إرمن» أيضا عمدة الكتب فى وصف قدماء المصريين وأحوال معيشتهم، ولو أنه مر على ظهوره عشرون سنة، فكان هذا المجلد خير معين لى فى وضع كتابى هذا. وهأنذا أتقدم بالشكر فى هذا المقام الى الأستاذ «إداورد ماير» (Eduard Meyer) على مساعدته العظيمة فى ضبط مواقيت التاريخ ولا سيما القديمة منها، وعلى بياناته القيمة التى ساقها بخصوص العهد الصاوى ، الواردة فى كتابه المسمى (Geschichte des alten Aegyptens). ولقد كانت مؤلفات الأستاذين «ماسپرو» و «ڤيدمان» خير معين لى أيضا من الوجهة التاريخية والعادية ، حتى اضطررت أن أثبت ذلك فى مقدمة كتابى "نصوص مصرية قديمة" . وبديهى أنى كسواى من المؤرخين مدين كثير المباحث الأستاذ «وينكلر» (Winckler) المتقنة الفذة الخاصة بخطابات تل العمارنة .

هذا وانى أتقدم بالشكر الجزيل الى أصدقائى وزملائى لما أرسلوه لى من الصور الشمسية والأشكال التخطيطية وغيرها، وأخص بالذكر منهم صديق الأستاذ «شيفر» ببرلين والأساتذة «بورخارت وشتيندورف وپترى وزان وسبرشمت والقس ماكريجر بمدينة تامورث والدكتور كارولين رانسوم» . ولقد سمح لى أصحاب محل « أندروود و أندروود » لأثبت فى هذا الكتاب الصور الأستريوسكوبية للآثار المصرية التى استعرتها منهم فاستحقوا على ذلك شكرى الجزيل. والحق يقال ان هذه الصور جزيلة الفائدة لكل سائح تسنح له الفرص بزيارة وادى النيل لأنها تساعده كثيرا على درس تاريخ ذلك الوادى درسا لا يقل أهمية عن مباحثه العلمية . وأخيرا أرانى مضطرا لأن أعترف بما أسداه لى المستر «جون وورد» من مدينة لينوكس ڤيل جهة بلڤاست بارلنده من الصور الشمسية البديعة لحفائر الحديثة التى عملت بالكرنك، والتى أثبت بعضها فى هذا الكتاب. وهى رسوم جميلة اذكر منها على سبيل المثال صورة الشارع الفسيح المنصوب على جانبيه تماثيل الكباش ذات الرقم ١٢٩ فى هذا الكتاب .

ويرجع الفضل فى وضع الخريطتين ٦ و ١١ فى هذا الكتاب الى «الهر كارل بيديكر» بليبزيج لأنه سمح لى باستعارتهما من كتابه الفذ "دليل مصر" الذى لا يمكن أى سائح لمصر أن يستغنى عنه اذا أراد زيارة

وادى النيل والوقوف على آثاره من الوجهة العلمية ، وانى مضطر فى هذا المقام أن أبدى جزيل تشكراتى لموظفى دور التحف ببرلين ولندره (كدار تحف لندره ودار تحف جامعة لندره ومجموعة الأستاذ پترى) و پاريز (اللوڤر والمكتبة الأهلية ودار تحف جو يميه) وڤينا (هوف ميوزيوم) وليدن وميونيخ وروما (دار تحف الڤاتيكان ودار تحف الكاپتولين) وفلورنس وبولونياونا پولى وتورين و پيزا وچنيف وليون وليڤر پول وغيرها لما قدموا لى من المساعدة فى مباحثى العلمية ، وهناك شخصان تكرما علىّ بمراجعة تجارب الطبع لهذا الكتاب وهما المستر « ر . س يدان » و « المس إيموجن هارت » ، فاستحقا لذلك جزيل الثناء ، أما زوجتى فقد قامت بمساعدتى خير قيام فى كل ما أمكنها أداؤه نحوى .

وانى ليسرّنى أن أتمدح بالعناية العظيمة والحرص المتناهى اللذين قام بهما متعهدو نشر هذا الكتاب ، فقد بذلوا من المجهود فى تحسينه وابداع صوره وأشكاله ما لا يحتاج الى بيان وايضاح مما

خليج وليمز بمقاطعة ويسكونسن   جيمس هنرى برستد

أول سبتمبر سنة ١٩٠٥

مباحث الكتاب

الكتاب الأول — المقدمة

الكتاب الثانى — المملكة القديمة

الكتاب الثالث — المملكة الوسطى ، عهد الاقطاعيات

الكتاب الرابع — الهيكسوس : بزوغ شمس الامبراطورية

الكتاب الخامس — الامبراطورية فى دورها الأول

الكتاب السادس — الامبراطورية فى عهدها الثانى

الكتاب السابع — دور الاضمحلال

الكتاب الثامن — دور الاصلاح والنهاية

تفسير ما يلي كل صفحة من الملاحظات

الأرقام السوداء (١ و٢ و٣ و٤) تشير الى أجزاء كتاب "نصوص مصرية قديمة". أما الأرقام الصغيرة (١ و٢ و٣ و٤) التى تليها فتشير الى رقم الفقرات بذلك الكتاب .

(ب) تشير الى كتاب الأستاذ بروكش المسمى "Thesaurus."

(م) « « ماسپرو « "Receuil de Travaux."

(ر) « « ده روچيه « "Inscriptions Hiéroglyphiques."

بيـان أشكال الكتاب

حلية صدر الكتاب ، الساحة ذات العمد بمعبد إسنا

شكل — صفحة

شكل		صفحة

جدول خرائط هذا الكتاب

الكتاب الاول

المقــدّمة

تاريخ مصر القديم

الفصل الأول – أرض مصر

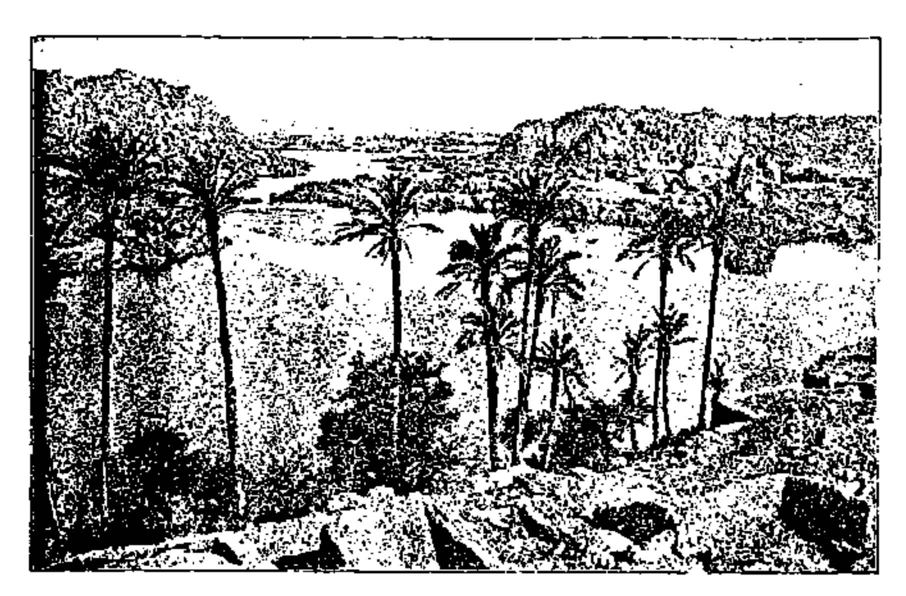
يرجع أصل المدنية الحديثة الى الأمم التى نشأت على شواطئ البحر الأبيض المتوسط الشرقية والى البلاد المجاورة لتلك الجهة وذلك منذ نحو ستة آلاف سنة تقريبا . وكانت بلاد العراق مركزا ثانيا لمدنية قديمة لكنها لم تشترك فى تكوين حضارتنا الحديثة لعدم اتصالها بسكان شواطئ البحر الأبيض المتوسط ، ويعزى ذلك الى عدم اتصال هذا البحر بنهر الفرات مع أنهما كانا متصلين قديما قبل ظهور هذه الحضارة . لذلك أعتبر المؤرخون أن حضارتنا الحالية نشأت على شاطئ البحر الأبيض المتوسط من المحيط الأطلانطى الى الأراضى الصحراوية شمالى إفريقية والى الخليج الذى كان متصلا بالبحر الأحمر ثم الى الشمال فى القارة الأسيوية . ويخترق هذا الاقليم الشاسع واديان عظيمان متجهان شمالا وجنوبا يعرف أولهما بوادى الدجلة والفرات وهو فى القارة الأسيوية . أما الثانى فبافريقية ويقال له وادى النيل. وهذان الواديان هما منشأ المدنية القديمة فصارا لذلك الجهتين اللتين يبحث فيهما عن تاريخ الانسان القديم حتى ظهور الحضارة الأوربية الحديثة . وقد كانا أيضا المهدين الوحيدين لحضارتين مختلفتين عمتا تدريجيا البلاد المجاورة حتى التقتا معا بآسيا الصغرى ثم انتشرتا الى جنوبى أوربا .

ومعلوم أن وادى النيل مسقط رأس قدماء المصريين يبدأ جنوبى خط الاستواء بثلاث درجات ويتجه شمالا نحو البحر الأبيض المتوسط فيبلغه على بعد ٣١,٥° درجة شمالى خط الاستواء ، ويقدّر طوله بأربعة آلاف ميل تقريبا فهو لذلك من أطول أنهار الدنيا وأضخمها . وينبع هذا النهر من عدة بحيرات بمنطقة خط الاستواء حيث يعرف بالنيل الأبيض . وبجوار الخرطوم وبالقرب من منطقة خط العرض السادس عشر وعلى بعد ألف وثلثمائة ميل من البحر الأبيض المتوسط يلتقى النيل من جهته الشرقية بفرعه الأكبر المعروف بالنيل الأزرق الذى يجلب اليه الغرين والمياه الغزيرة من جبال بلاد الحبشة الشاهقة . بعد ذلك بمائة وأربعين ميلا يصب فيه نهر الأتبرة وهو أصغر حجما وأقصر طولا من النيل الأزرق . ومن ثم يتعرّج النيل تعرّجا عظيما أشبه بحرف « S » اللاتينى وسط صحراء قاحلة (شكل ٨٤) وهناك تعترضه عدة شلالات صخرية غير منتظمة يبلغ عددها ستة لكنها ليست شاهقة الارتفاع كشلال نياجارا بأمريكا بل منخفضة ومكوّنة من عدة صخور متفرقة شاخصة أمام تيار النيل الجارف وقد شق مجرى عميق الغور فيها كما فعل بالأراضى الرملية المجاورة (شكل ١) وهذه الشلالات تعوق الملاحة النهرية . وأهم هذه الشلالات الأوّل والثانى والرابع . وبالقرب من جزيرة أسوان يعترض النيل شلاله الأوّل المعروف بشلال أسوان وهو عبارة عن صخور شاخصة من الجرانيت تعترض طريق ذلك النهر العظيم ثم يسير حتى يصب فى البحر الأبيض المتوسط .

أما القطر المصرى فهو جزء وادى النيل شمالى الشلال الأول . والنيل سهل الجريان بهذا القطر لعدم وجود صخور رملية فى تربته . ويلاحظ فى اقليم ادفو — الذى يبعد عن الشلال الأول ثمانين ميلا تقريبا ، والذى يكوّن الحد الشمالى لمسطح الصحراء الصخرى — أن الصخور الرملية تتبدّل تدريجيا الى حصى صغير مستدير الشكل رقيق السمك أشبه كثيرا بالعملة . وبما أن هذا الحصى قليل المقاومة لتيار النيل الجارف سهل على هذا النهر العظيم أن يشق لنفسه فى ذلك الاقليم مجرى عميقا واسعا مخترقا القسم الشرقى من صحراء إفريقية العظمى الى البحر الأبيض المتوسط (شكل ٣ وشكل ٧). ويأخذ وادى النيل فى الاتساع تدريجيا ابتداء من الشلال الأول حيث يبلغ اتساعه عشرة أميال تقريبا وعند مصبه يبلغ اتساعه واحدا وثلاثين ميلا تقريبا . أما قرار النيل فتكوّن من مواد طينية رملية يجرى فوقها تيار المياه بسرعة تبلغ أحيانا ثلاثة أميال فى الساعة . وأقصى عرض يبلغه نهر النيل هو ألف ومائة ياردة تقريبا وذلك فى موضعين اثنين على طول مجراه . وبالقرب من أسيوط يتفرع من شاطئه الغربى بحر يوسف البالغ طوله مائتى ميل تقريبا ويسير شمالا الى اقليم الفيوم . ويعرف هذا الفرع قديما ببحر «الشمال» ثم الى الشمالى الغربى من منف حتى يدرك البحر الأبيض المتوسط قرب الاسكندرية[1] . وعلى بعد نيف ومائة ميل من البحر الأبيض المتوسط يتفرع النيل الى عدة أفرع بشكل مثلث أطلق عليه اليونان اسم الدلتا نسبة الى أحد أحرف هجائهم المثلث الشكل . ولا يخفى أن الدلتا كانت سابقا خليجا بحريا امتلأ تدريجيا بغِرْيَن النهر الذى أخذ يتفرع وقتئذ الى سبعة أفرع تصب مياهها فى البحر الأبيض المتوسط ، لكن لم يبق الآن من هذه الافرع الا اثنان يحدّدان الدلتا هما فرع رشيد (الغربى) وفرع دمياط (الشرقى) .

وكان مسطح الوجه البحرى منخفضا فى مبدأ تكوينه ثم علا تدريجيا برسوب الغِرْيَن عليه فتوارت آثار مدنه الكثيرة القديمة تحت الطبقات الطينية المتجدّدة . ولا بد أن مستنقعات الدلتا وقتئذ كانت شاملة معظم مساحته ثم أخذ حجمها يقل تدريجيا برسوب الغِرْيَن حتى اقتربت شواطئها من البحر الأبيض المتوسط . ويتراوح سمك طبقة الأرض الطينية بمصر العليا من ثلاثة وثلاثين الى ثمانية وثلاثين قدما ، ويبلغ أقصى عرض لها حوالى عشرة أميال . وتقدّر مساحة الأراضى المزروعة فى القطر المصرى من الشلال الأول الى البحر الأبيض المتوسط بأقل من عشرة آلاف ميل مربع ، فهى بذلك تقرب من مساحة أرض ولاية مارى لاند وتقل عن مساحة بلاد البلجيك بنحو عشرة فى المائة . ويبلغ متوسط ارتفاع سلسلتى جبال وادى النيل بضع مئات من الأقدام لكنه يبلغ أحيانا علوا شاهقا يقدّر بألف قدم (شكل ٣) . ويلى هذه الجبال صحار قاحلة اخترقها النيل منذ القدم . ففى الجهة الغربية صحراء ليبيا المعروفة بالصحراء الكبرى المترامية الأطراف الكثيرة التلال والرمال والصخور ويتراوح ارتفاع مسطحها عن مسطح النيل بين ستمائة وخمسين الى ألف من الأقدام . وفى وسط هذا المسطح الرملى القاحل العظيم عدة أراض صغيرة منخفضة تروى بعيون الماء الأرتوازى تعرف بالواحات وهى على خط متقطع مواز تقريبا لمجرى النيل الذى تستمد منه مياهها الراشحة بين طبقات

(١) ٤ : ٢٢٤



شكل ١ – منظر لأحد مجارى الشلال الأول مأخوذ بآلة التصوير الشمسية من جزيرة فيله فى اتجاه الشمال . وشاهد اسفل الصورة بعض الآثار



شكل ٢ – فيضان النيل كما يشاهد من طريق أهرام الجيزة . ويرى الطريق المذكور الى اليمين والأهرام المشيدة فوق الهضبة الصحراوية فى الوسط وكفر "نزلة السمان" أسفل الأهرام

الرمال . وأعظم هذه الواحات حجما هو اقليم الفيوم ، وكانت تفصله سلسلة جبال ليبيا ثم اخترقه بحر يوسف حاملا اليه ماء النيل حتى بلغه فأخصبه وأحسن تربته . وفيما عدا ذلك كانت الصحراء الغربية عديمة الفائدة الاقتصادية لقدماء المصريين . أما الصحراء الشرقية المعروفة بصحراء العرب فيقطنها الأعراب المعروفون بالعبابدة وموارد الحياة بها لا تكاد تسدّ رمق سكانها القليلين . وبهذه الصحراء سلسلة جبال جرانيتية موازية لشاطئ البحر الأحمر يكثر بين صخورها الصلبة معدن الذهب النفيس . ولا يقتصر وجود هذا المعدن على هذه السلسلة الجبلية بل عثر عليه أيضا فى عدة جهات بين النيل والبحر الأحمر بالصحراء نفسها . ولكثرة الأحجار المرمرية والصخور الصلبة النارية بتلك الصحراء وجّه قدماء المصريين همتهم الى حفرها وكشفها . ولوجود هذه المناجم على الطريق الموصل من موانئ البحر الأحمر التجارية الى وادى النيل أنشأ المصريون عدة طرق توصل هذه المناجم بالطريق التجارى المذكور . وقديما عثر على مثل هذه المعادن والأحجار بطورسيناء فاهتم للأمر قدماء المصريين ودرسوا جغرافية ذلك الاقليم وقاموا بالحفائر والأعمال المنتجة فيه .

والقطر المصرى فى عزلة عن البلاد المجاورة، ذلك لأن الجزء الآهل بالسكان ينفصل شرقا وغربا بصحراوين شاسعتين وهو شمالا يحدّه شاطئ الدلتا البحرى الخالى من الموانئ والمرافئ الآهلة . وأما فى الجنوب فشلال أسوان الصخرى العظيم يفصل القطر فصلا تاما عن أواسط إفريقية . وتبع ذلك أن الغزوات الأجنبية كانت تشنّ على مصر عادة من طرفى الحدود الشمالية ، فمن الطرف الشرقى دخلت مصر الأجناس السامية مخترقة صحراء طورسيناء الشاسعة ، ومن الطرف الغربى دخل الليبيون وهم قوم يحتمل أنهم من أصل أوربى . والشلال الأول وان كان منيعا لم يحل دون تدفق المصنوعات والنتاج السودانى الى القطر المصرى، فقد تأسس بالطرف الأسفل منه سوق سمى «سوان» (وهى كلمة معناها السوق) ويعرف الآن بأسوان لتشجيع التجارة بين مصر والسودان . بعد ذلك أخذت التجارة النيلية بين هذين القطرين تزيد باطراد . ومن ثم يرى أن حدود مصر الطبيعية كانت حدا منيعا صعب الاختراق تمكن به المصريون من مقاومة مهاجميهم مدة كانت تكفى أن يحشدوا فى أثنائها جيشا لتلافى خطر الهجوم الأجنبى .

ولموقع مصر الجغرافى أيضا تأثير كبير فى رقيها السياسى ، لأنها عبارة عن اقليم مستطيل ضيق (ماعدا الوجه البحرى) يبلغ طوله سبعمائة وخمسين ميلا تقريبا فهو لذلك فى أشد الاحتياج الى الوسائل اللازمة لبسط نفوذ حكومته على سائر أقسامه المتطرفة . وكل قسم من هذه الأقسام يتصل شمالا وجنوبا بالأقسام الأخرى المجاورة . ولقد كان تباين الشعور وتنوع الأفكار فى تلك الأقسام عاملين شديدين مستمرين يميزان كل قسم عن الآخر . كما أن اختلاف اللهجات الكلامية كان متمدّدا لدرجة تعذر فيها على ساكن الوجه البحرى أن يفهم كلام ساكن الوجه القبلى . لذلك لم تكن هناك سبيل لاتحاد أقسام القطر اللهم الا نهر النيل الذى سهل المواصلات والتعاون بالرغم من بعد المسافة بين أقسامه .

فنهر النيل هو السبب الأعظم لتوطيد العلاقة بين سكان مصر وضمان سعادتهم ورفاهيتهم وعليه الاعتماد في انتقالهم وترويج تجارتهم . زد على ذلك أن كمية الأمطار التى تهطل على القطر المصرى ليست كافية لإرواء الصعيد. من ذلك يتضح أن ثروة القطر وحياته مترتبتان على نيله . ثم ان خصب الأرض وقوتها الزراعية مترتبتان أيضا على غرين النيل وفيضانه السنوى ، لأن الفيضان الذى يأتى من بلاد الحبشة منحدرا الى النيل الأزرق نتيجة ذوبان الجليد وهطول الأمطار الربيعية على تلك البلاد الإفريقية .

ويبدأ فيضان النيل السنوى بهطول الأمطار الغزيرة على جبال الحبشة الشامخة فتنحدر منها المياه جارفة معها مواد طينية تعرف بالغرين ومحدثة في سيرها تيارا شديدا مخترقا بلاد النوبة . ويلاحظ عادة في أوائل شهر يونيه جهة الشلال الأول ارتفاع يسير في منسوب النيل هو نتيجة ذلك الفيضان . ثم يرتفع المنسوب تدريجيا فيبلغ أقصاه في أواخر شهر أكتوبر أو أوائل نوفمبر . لكن العادة أن هذا الفيضان يقف قليلا مدة شهر تقريبا ابتداء من آخر سبتمبر من كل سنة ، بعد ذلك يستمر في زيادته على الطريقة المذكورة . ويقدر الفرق جهة الشلال الأول بين أقصى ارتفاع للنيل وقت الفيضان وارتفاعه وقت التحاريق بخمسين قدما . أما في القاهرة فالفرق بين هذين المنسوبين يبلغ نصف ذلك المقدار . والسبب في حفر الترع واقامة الجسور وغير ذلك من مشاريع الرى الجسيمة في تلك الأزمنة يرجع الى رغبة أهالى وادى النيل في حجز مياه النيل وتصريفها الى حيضان الأراضى المزروعة حيث تغمرها وتمكث فيها مدة يرسب في أثنائها على الأرض غرين النيل فيكسبها خصبا . وما أجمل منظر الأراضى وقتئذ وهى مغمورة بالماء في وسطها الغرس وأشجار النخيل الخضراء التى لا يصل اليها الانسان الا بجسور الترع (شكل ٢) . بهذه الطريقة تستعيض التربة المصرية عزمها وخصبها من كل زراعة سنوية فتبقى الأرض يانعة خصبة على ممر السنين والدهور .

فاذا جاء وقت هبوط النيل انخفض منسوب مياه النهر والترع المستمدة منه عن مسطح الأراضى المزروعة فتهدد وقتئذ البلاد بالعطش لبعد مياه النيل عنها . وهذا هو السبب الذى جعل الأهالى يقبلون على انشاء الترع لإرواء الأراضى أيام التحاريق (شكل ٦)[1] . من ذلك يتضح أن أراضى وادى النيل الخصبة الفتية تستحث زارعيها منذ العهد القديم على ابداء المهارة في توزيع مياه النيل الحيوية فلا غرابة اذا لاحظنا أن هؤلاء برعوا في هندسة الرى منذ أقدم العصور ، والحاجة أم الاختراع ، ولما كانت مصر أم الفنون الآلية وجب علينا أن نذكر في هذا المقام أن نهر النيل كان أهم الأسباب التى أنجبت ذلك الفن في القطر .

---

(١) وهذه الطريقة هى المعروفة بالشادوف الواردة صورته بشكل ٦ وهو عبارة عن عرق خشبي طويل مرتكز على عمود خشبي آخر من الوسط ومثقل في أحد طرفيه بكتلة حجرية أو طينية ومعلق بالطرف الآخر اناء جلدى أو معدنى ينقل به الماء في النهر أو البئر الى مكان أعلى وفى حالة انخفاض مسطح الماء كثيرا عن الأرض المراد ريها تستعمل لذلك عدة شواديف للتغلب على تلك الصعوبة . وتتراوح كمية المياه اللازمة لرى الفدان الواحد لمدة ما٢٤ يوم بين ألف وستمائة وألفى طن .

ولما كان هـذا القطر زراعيا بطبيعته مستعينا على اخراج خيراته بمياه النيل التى تكسبه خصبا بفيضانها السنوى فلا غرابة اذا وجدنا أن مصر لا تزال باقية كما كانت بلادا زراعية على رغم التطورات والانقلابات . وسيأتى الكلام على ذلك فيما بعـد . أما مزروعات هـذا القطر فكافية لتغذية سكانه العديدين الذين بلغوا أيام الرومان حوالى سبعة ملايين نسمة والذين يزيدون الآن على تسـعة ملايين نسمة وهى كما لا يخفى نسبة عظيمة ليست فى أى بقعة بالقارة الأوربية[1]. ولما كان من الأصوب الآن عدم التعـرض لموارد القطر المصرى الأخرى أرجأت ذلك الى فرصـة أخرى عند الكلام على التدرج التاريخى لهذه الموارد .

معلوم أن من ميزات مصر جفاف طقسها الذى يأخذ بألباب السياح العديدين فى شتاء كل سنة. أما هواؤها فصحراوى لوقوعها وسط الأراضى القاحلة فهو لذلك نقى جاف. وبالرغم من شدة ارتفاع الحرارة أحيانا لايشعر الانسان إلا بضيق يسير لسهولة تبخر العرق وقتئذ . ويبلغ متوسط درجة حرارة الوجه البحرى شتاء ٥٦° فهرنهايت والوجه القبلى ٦٦° فهرنهايت . أما فى الصيف فتوسـط حرارة الوجه البحرى ٨٣° فهرنهايت وأقصاها فى الوجه القبلى ١٢٢° فهرنهايت .

وبالرغم من ارتفاع حرارة الصيف بهذه الكيفية فالمعيشة بمصر محتملة وقتئذ بنسبة ما يعانيه الانسان فى مثل هذه الظروف بالبلاد الأخرى. ويصحب ليالى الصيف نسيم عليل بارد آت من المزارع والحقول الشاسعة يخفض حرارة الجو . وما أكبر الفرق فى مصر بين البرد القارس الذى يحس به الانسان أيام الشتاء قبيل الفجر والحرارة الجيلة وقت الظهيرة فى الفصل نفسه. وقد ألمعنا سابقا الى ندورة الأمطار، لكن هطولها بالوجه القبلى أحيانا نتيجة اضطرابات جوية جنوبى البحر الأبيض المتوسط أو شمـالى صحراء إفريقية العظمى، فيترتب عليه طرد السحب الثقيلة الى مصر شرقا . أما الاضطرابات الجوية الشرقية فلا تأثير لها فى طقس مصر لأن الجبال الشاهقة التى على شاطئ البحر الأحمر الغربى تقاوم السحب وتشتتها فتطاردها الى أعلى. وعليه فشمالى الوجه البحرى واقع ضمن منطقة الأمطار الشمالية .

وبالرغم ممـا يتركه الفيضان من البرك والمستنقعات بوادى النيل فالهواء الصحراوى الجاف الذى يهب عليها باستمرار سرعان ما يجففها فتتلاشى بذلك وسائل تفشى الملاريا بجميع جهات الوجه القبلى ومعظم جهات الوجه البحرى . فمصر المتاخمة للنطقة الحارة تمتاز بنقاوة هوائها المعتدل العديم النظير الخالى من برد الشتاء القارس وقيظ الصيف الصعب الاحتمال المشاهد عادة بالمنطقة الحارة .

لا شك أن منظر القطر المصرى عموما كان ولا يزال أمام المصرى ثابتا لايتغير لأن وادى النيل الذى هو هدية ذلك النهر عبارة عن أراض طينية يكسوها الزرع على طولها وعرضها تحده على الجانبين صخور صفراء عديمة الجبال والغابات اللهم إلا اذا استثنينا بعض النخيل النابت على شاطئ النيل وحول القرى ذات المسـاكن الهادئة السوداء (شكل ٤) وكذا بعض أشجار الجميز والأثل والسنط . وتتخلل هذه الأراضى شبكة من الترع أشبه كثيرا بالدورة الشريانية فى الجسم الحيوانى . وقد تتعدى أحيانا رمال الصحراء حدود وادى النيـل الصخرية فتحتل بعض تربته الخصبة وحينئذ يتمكن الانسـان من الوقوف باحدى قدميه فوق أرض وادى النيل المزروعة وبالأخرى فوق الأرض الرمليـة .

(١) ديودور الصقلى جزء أول صحيفة ٣١

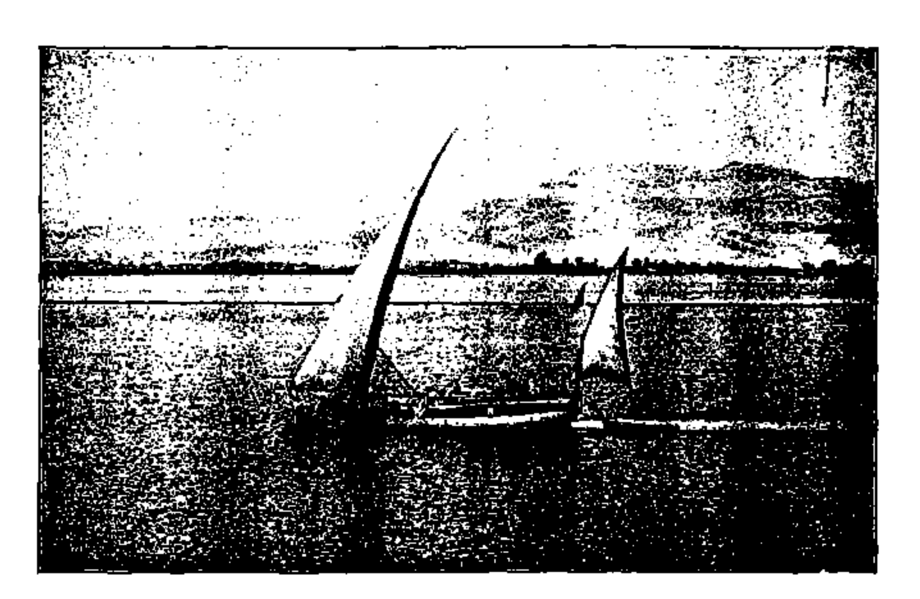
بهذا الوصف ثبت فى مخيلة المصرى القديم منظر معيشته الدنيوية التى تتلخص فى واد منخفض ضيق كثير الخصب والتعريج تحده الصحارى المقفرة القاحلة العديمة النظير التى تفصله عن جهات العالم كلها ، وما كان أعظم تأثير هذه العوامل فى ذاكرته وأفكاره الخاصة بالعالم وبقوته المدبرة . لذلك ترى المصرى شب متخذا مجرى النيل مرشدا له فى غدواته وروحاته فقال "صعد أو نزل مع النهر" بمعنى سار جنوبا أو شمالا . لكنه لما بلغ نهر الفرات ببلاد العراق سمى ذلك النهر بذى المياه المنعكسة المجرى التى تنزل مع النهر (أى تسير جنوبا) بدلا من (تجرى شمالا)[1] . وقد قسم قدماء المصريين العالم الى "الأرض السوداء" وعنوانها وادى النيل و"الأرض الحمراء" وأرادوا بها الصحراء . ثم أطلقوا على الأولى اسم "الأرض المنخفضة" وعلى الثانية "الأرض العالية" عانين بذلك وادى النيل المنخفض وأراضى الصحراء الجبلية المرتفعة وجرت العادة وقتئذ أن يدعى الأجنبى "برجل الأرض الجبلية" وأن يقال "صعد الى كذا" بمعنى هاجر من وطنه الى مكان آخر و"هبط كذا" بمعنى آب الى بلده من الخارج . تلك أمثلة لفظية تثبت درجة تأثر الذهن المصرى القديم فيما يحيط بوطنه من الصحارى الواسعة ومنها يستدل على مقدار التأثير الذى عم أحواله المعاشية والدينية .

وقسم المصرى الأفق الى أفق شرقى وأفق غربى وتصور لكل منهما شمسا ثم تخيل عدة معبودات مدبرة لهذا الكون أملاها عليه ضميره وصورها له ذهنه .

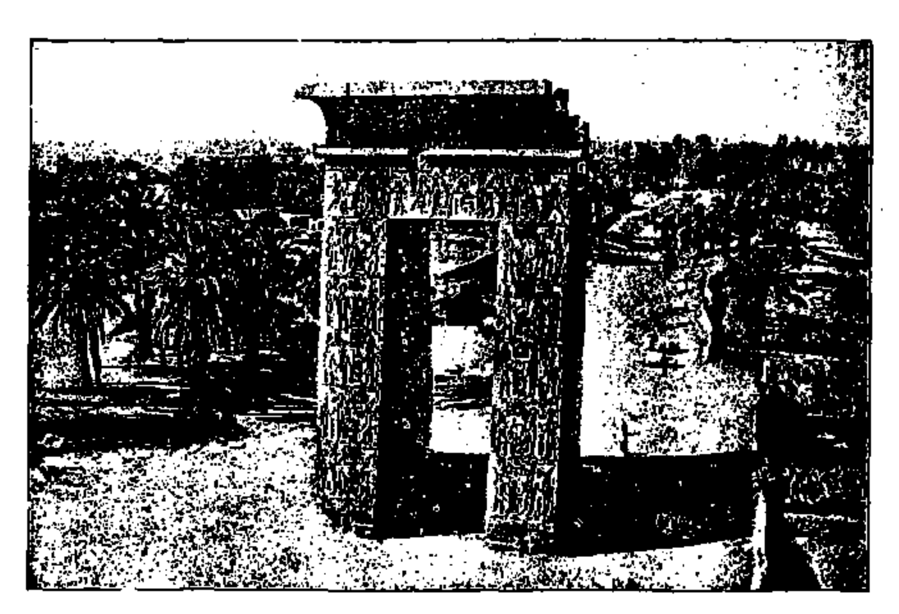
هذا وصف اجمالى لأهالى وادى النيل الذين كانت لهم اليد الطولى فى انشاء المدنية بشرقى البحر الأبيض المتوسط لما كانت أوربا ساعية فى التملص من وحشيتها وجهالتها ، جارية وراء الحضارة والمدنية التى استضاءت بها البلاد الشرقية . وبديهى أن وادى النيل هو المكان الوحيد فى العالم الذى يحوى آثارا لمدنية عظيمة قديمة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار . وقد كانت الدلتا موطنا لحروب وغزوات عدة أكثر من الوجه القبلى، ومقرا لرسوب غرين النيل على مدنها الفرعونية القديمة ، ومع ذلك فان آثارها لا تزال شاغلة مساحات عظيمة بشكل كل جرانيتية ضخمة وأحجار جيرية ورملية وأجزاء مسلات وقواعد صروح شامخة، مما يثبت تماما عظم ثروة وقوة سكان تلك العصور الغابرة. أما الوجه القبلى فكثيرا ما يؤمه السياح العديدون الذين أخذوا يزدادون كل سنة لكثرة آثاره الشامخة فى كل بقعة حتى يخيل للرائى أنها تحييه أينما ذهب وحيثما حل على امتداد الوادى . والحق يقال انه لا يوجد فى هذا العالم جهة كمصر تحوى مثل هذه المبانى الحجرية الشامخة ومثل هذا الطقس البديع الجاف المصحوب بندورة المطر، وهو الذى ساعد كثيرا على حفظ أحسن وأعظم آثار العالم القديمة، تلك الآثار التى هى دليل العز والرفاهية والتمدين القديم . ومما لا جدال فيه أن المدنية الأوربية مدينة بكثير من آدابها الى المصريين الأقدمين . ولما أخذت أنظار الشرق والغرب تتجه الى هذا القطر التعس الغنى بآثاره القيمة تدفقت عليه أهالى تلك الجهات من كل صوب حتى أوشكت تبتلعه . ومن الواجب فى هذا المقام أن نعترف بتأثير مدنية القطر المصرى فى ذلك القطر وفى البلدان الأجنبية، وبما كان لهذه المدنية من الفضل العظيم والمنزلة السامية . وسنتكلم فيما بعد على خيرات مصر المعاشية التى جعلتها للسابقين واللاحقين إرثا يتغنى به المادحون .

---

(١) ٢ : ٧٢



شكل ٣ – منظر النيل والصخور غربى طيبه (الأقصر) . وفيه يشاهد ساحل النيل الواطئ الواصل الى تلك الصخور



شكل ٤ – أكواخ الأهالى وأدغال النخيل بجوار الكرنك بطيبه كما تشاهد من سقف معبد خونسو ويرى وسط الصورة صرح بطليموس الثالث (أفرجيت) الذى حكم القطر من سنة ٢٤٧ الى سنة ٢٢٢ قبل الميلاد . ويبتدئ من هذا الصرح شارع كبير مقامة على جانبيه تماثيل كباش شيدها أمنحتب الثالث . ويصل هذا الشارع معبد الكرنك بمعبد الأقصر

الفصـــل الثـانى

نظرة عامة فى تاريخ مصر القديم ، توقيت التاريخ ، مراجع التاريخ

قبل الكلام على تاريخ الفراعنة بالتفصيل يجب أن نبحث بالاجمال فى تاريخهم لنجعله فى ذهننا أساسا تُبنى عليه المعلومات والأخبار التى ترد تباعا فى فصولها وأبوابها بلا تعب ولا عناء . ولا يخفى أن تاريخ هذه العصور يضم حوادث أربعة آلاف سـنة أى منذ ابتدأ ظهور الحضارة على سواحل البحر الأبيض المتوسط لمـا كان العالم عائشا فى ظلمات الجهل والوحشية . ولعل أهم ما يلفت نظر الباحث فى هذا الموضوع ما انتـاب البلاد من غزو الأجانب واختلاطهم تدريجا بالمصريين وتأثير ذلك فى الأذهان والأخلاق الوطنية . أما أوّل عصر ذُكر فيه الأوربيون فى الآثار المصرية فهو القرن الثالث عشر قبـل الميلاد . ومن ثم أخذت سلطة الفراعنـة تضعف تدريجا وأخذ شرف الحضارة وصولجان القوّة ينتقلان من أيدى هؤلاء الحكام الى أهالى القارة الأوربيـة الفتية حتى صارت مصر فى آخر تاريخها القديم طعمة التهمها أوّلا الفرس ثم اليونان ثم الرومان .

وينقسم تاريخ سكان وادى النيل الأقدمين الى عدّة عصور متباينة مرتبط بعضها ببعض بانقلابات وتطوّرات . ولمـا أتى مانيتو المؤرّخ المصرى القديم قسم هـذه العصور تقسيما عرفيا مفيـدا مبتدئا بالعصر التاريخى وسمى هذه الأقسام بالأسرات الملكية . ومانيتو كاهن سمنودى عاش أيام بطليموس الأوّل الذى حكم مصر من سنة ٣٠٥ الى سنة ٢٨٥ قبل الميلاد وصنف تاريخا عن وطنـه باللغة اليونانيـة لم تصل الينا منـه سوى مقدّمته التى نقلها يوليوس أفريكانوس (Julius Africanus) ويوسيبيوس (Eusebius) ولخصها جوسيفوس (Josephus) . وتاريخ مانيتو هذا قليـل الأهمية لارتكانه على روايات عامية وخرافات متداولة وقتئذ خاصة بالملوك الأقدمين . وقد قسم مانيتو ملوك مصر الى ثلاثين أسرة ملكية ومع أن هذا التقسيم اصطلاحى وأنه كثيرا ما حصل نزاع بين ملوك الأسر اعتبرهم هذا المؤرخ أسرة واحدة ولقد ساعد تقسيمه كثيرا على فهم تاريخ مصر القديم . لذلك وافقه على رأيه كل من خلفه من المؤرخين حتى الحديثين منهم فلم نجد نحن بدا من اتباع تقسيم ذلك المؤرّخ القديم .

كان القطر المصرى فى مبدأ مدنيته منقسما الى عدة إمارات صغيرة مستقلة أخذت تلتئم تدريجا حتى تكوّن منهـا مملكتان عظيمتان احداهما بالوجه القبلى والأخرى بالوجه البحرى وامتازت المملكة الأخيرة منهما بسرعة تقدّمها فى الحضارة وقد ألهمت سـنة ٤٢٤١ قبـل الميلاد أن السنة الشمسية تتكوّن من ثلثمائة وخمسة وستين يوما . وهذا التاريخ (أى سنة ٤٢٤١ قبل الميلاد) هو أقدم تاريخ ثابت معروف للآن على ظهر البسيطة[1] ومن ذلك الوقت لقبت مصر "بأرض القطرين" نسبة الى جزأيها البحرى والقبلى . وفى عام ٣٤٠٠ قبل الميلاد انضم هذان الوجهان تحت سلطة الملك مينا فكان هذا

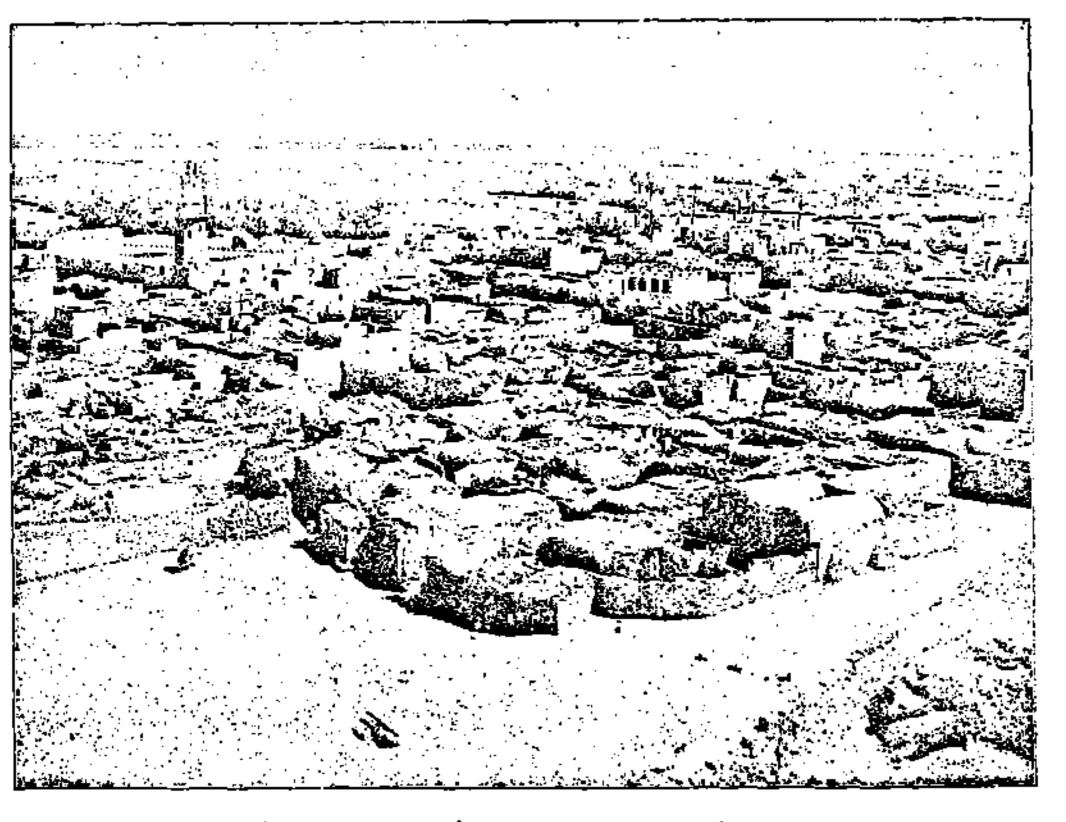
(1) ١ : ٤٤ — ٤٥

الملك أول من حكم أرض مصر مجتمعة وأول ملوك الأسرة الأولى المصرية . واعتـبر المؤرخون عهد مينا هــذا حدّا فاصلا فى تاريخ مصر القديم قسمه الى عهدين : العهـد الأول يرجع تاريخه الى زمن ما قبل الأسر والعهد الثانى الى حكم الأسر. وقد أثبتت لنا المباحث والحفائر الأثرية التى أجريت مدة العشر السنوات الأخيرة أن زمن حكم الأسر جاء نتيجة مباشرة لرقى وتقـدم تدريجى فى حضارة الزمن السابق .

والفضل فى رقى القطر المصرى مدة حكم الأسر الأولى التى تقدر بحوالى أربعة قرون يرجع الى ضم سائر جهاته تحت حكم الملك مينا وسلالتـه الذين اتخذوا مركزهم فى بادئ الأمر مدينة طينة بالقرب من العرابة المدفونة ثم انتقلوا بعد ذلك إلى منف. فى هذه المدّة ارتقت حضارة البلاد وزاد عمرانها وقوى نفوذها فسمى الأثريون هذا العهد "المملكة القديمة" . وصارت مدينـة منف عاصمة البلاد فى عهد ملوك الأسر الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة الذين تربعوا فى دست الحكم من سنة ٢٩٨٠ الى سنة ٢٤٧٥ قبل الميلاد تقريبا . ويمتاز هذا العصر بارتقاء آدابه وعلومه الآلية اللذين بلغا درجة عظيمة لم تبلغها البلاد قبل ذلك العصر أو بعده . وفى هذا العهد أيضا تجلت حكومة البلاد وادارتها الداخلية بأجلى مظاهر الكمال بدرجة لم تكن معهودة . وأخذ النفوذ المصرى يمتد الى ما بعـد حدود المملكة وبلغ المصريون شـبه جزيرة طورسيناء . ثم واصلوا عمل الحفائر والكشف عن المعدن الذى بدأ به ملوك الأسرة الأولى بهمة ونشـاط . أما التجارة المصرية وقتئذ فبلغت شواطئ فينيقيا وجزر البحر الأبيض المتوسط شمـالا ثم توغلت أساطيل الفراعنـة حتى وصلت الى ساحل بلاد الصومال جنوبى البحر الأحمر . وتمكن فرعون مصر من بسط نفوذه على أسفل بلاد النوبة واقرار الأمن على طريق التجارة هنـاك وذلك باستمرار شن الغارات والحروب . ولمـا تولت الأسرة السادسة الحكم سنة ٢٦٢٥ قبل الميلاد ساست القطر حتى عام ٢٤٧٥ قبل الميلاد،وفى عهدها أخذ يدب فى نفوس حكام الأقسام شعور الاسـتقلال والكبرياء وقد كانوا احتفظوا بمراكزهم الادارية لأسرهم من زمن الأسرة الخامسة التى تولت زمام الحكم من سنة ٢٧٥٠ الى سنة ٢٦٢٥ قبل الميلاد . بهذه الطريقة مهد هؤلاء الحكام الطريق لتجزئة القطر المصرى الى امارات مستقلة صغيرة وشل نفوذ السلطة المركزية بالبلاد .

هكذا تمكن حكام الأقاليم المصرية من اسقاط بيتهم الفرعونى المـالك فى أواخر حكم الأسرة السادسة حوالى سنة ٢٤٠٠ قبل الميلاد . بعـد ذلك أخذت أهمية منف الادارية تضعف تدريجا بمرور الزمن . ومن دواعى الأسف أننا لم نهتد الى كيفية تطور تلك الأمور وغاية ما وصـل الينا عن ذلك العصر قائمة بأسماء ملكية اعتبر مانيتو أصحابها ملوك الأسرتين السابعة والثامنة المنفيتين وقال انهم حكموا مدة لا تزيد على ثلاثين سنة .

ولمـا أتى زمن الأسرتين التاسعة والعاشرة قويت سلطة حكام الفيوم فاغتصبوا عرش مصر وحكموا القطر جاعلين مركزهم مدينة اهناس المعروفة عند اليونان باسم هيراكليوبوليس (Heracleopolis) ويبلغ عدد ملوك هاتين الأسرتين ثمـانية عشر ملكا تقريبا .



شكل ٥ — منظر لوادى النيل من مدينة إدفو يشاهد فيه انحناء مجرى النهر وحضيض الوادى الغربى

بعـــد ذلك أخذت شمس طيبة تبزغ تدريجيا لأول مرة فى أفق التـــاريخ فأخذ حكامها ينافسون ملوك اهناس ودار بين الطرفين نزاع طويل انتهى بفوز طيبة وانتقال مقاليد الحكم الى سكان الصعيد. ولم نهتد بالضبط الى معرفة طول المدة التى مضت منذ سقوط المملكة القـــديمة الى ابتداء حكم طيبة لكننا نقدرها تقريبا بنحو مائتين وخمسة وسبعين أو ثلثمائة سنة[1] وهذا تقدير لا يبعد أن يكون فرقه بالزيادة أو النقصان أكثر من مائة سنة .

ولمـــا تولت الأسرة الحادية عشرة الطيبية مقاليد الحكم حوالى سنة ٢١٦٠ قبل الميلاد وجدت القطر فى حالة شقاق ونزاع بين أمرائه العديدين فوجه ملوك هذه الأسرة معظم همهم الى نزع السلطة من أيدى هؤلاء الأمراء . ولمـــا تولت الأسرة الثانية عشرة الحكم (ومؤسسها أمنمحعت الأول الذى يظن أنه اغتصب الملك قهرا) أخذت تسوس الامارات الصـــغيرة بالحلم والدهاء فتقدم القطر كثيرا ولبست البلاد ثوب التمدين والنعم لمدة تنيف على مائتى سنة تقريبا أى من سنة ٢٠٠٠ الى سنة ١٧٨٨ قبل الميلاد . و يعرف هذا العصر عند الأثريين "بعصر الآداب" لأنها بلغت فيه أعظم شأوها ، فالشعر والنثر بلغا أقصى درجاتهما من حيث المتانة والجودة كما أن الحفر والعمارة تقدما بدرجة مدهشة . وفاقت المصنوعات الفنية أمثالهـــا فى العصور الغابرة وزادت خيرات البلاد كثيرا لمـــا اعتنت الحكومة بأمور النيل وفيضانه وقامت بمشروعات الرى العظيمة جهة الفيوم فاستخلصت أقاليم شاسعة من الأراضى الزراعية الخصبة بالقرب من مواطن الملوك المسمى اثنان منهما أمنمحعت وسيزوستريس المنتميين الى الأسرة الثـــانية عشرة . أما شـــبه جزيرة طور سيناء فتطلعت اليها النفوس للاستكشاف والحفر بجد ونشاط وشيدت بها القلاع الحصينة وأقيمت على أرضها المعابد الهائلة وخزانات المياه الكبيرة . وشرعت مصر فى هذا العصر تشن الغارات على سورية وتكثر من معاملتها ومعاملة قبائل تلك الجهات السامية . واتضح لنا أن المعاملات التجارية كانت ســـائرة أيضا بين مصر وأهالى جزر البحر الأبيض المتوسط الذين أسسوا المدنية اليونانية فيما بعد . أما التجارة مع الصومال فزادت وربت عما كانت عليه . وأما النوبة فضم منها الجزء الواقع بين الشلال الأول والثانى الى مصر وصار يدفع لفرعونها الجزية سنويا . بهذه الكيفية تمكن المصريون من تثمير منـــاجم الذهب شرق ذلك الاقليم فتدفقت منهـــا ثروة عظيمة فى الخزانة الفرعونية .

وفى سنة ١٧٨٨ قبل الميلاد سقطت الأسرة الثانية عشرة واشتعلت فى البلاد نار ثورة داخليـــة انتهت بانقسامها وتفرق كلمتهـــا وتطاحن أمرائها على العرش وقد اعتلى عرش مصر وقتئـــذ بعض حكام أقوياء لم يعيشوا طويلا ، تمكن أحدهم من اخضاع أعالى النوبة وابلاغ نفوذه الى أعلى الشلال الثالث ولكن هذه الثمـــار قد عطبت بعد وفاته وبقيت الحال سيئة مدة قرن تقريبا . بعد ذلك استولى على البلاد قوم من مملكة أسيوية شاسعة سماهم مانيتو الهيكسوس حكموا القطر المصرى مدة قرن تقريبا اتخذوا فى أثنائه مدينة هوارة الواقعة شرق الدلتا مركزا لهم .

ثم أخذ حكام الوجه القبلى يشاكسون ملوك الهيكسوس وينازعونهم فانتزعوا منهم السلطة والحكم بالصعيد . ثم أعلن أحد أمراء طيبة نفسه ملكا على الوجه القبلى واستمر خلفاؤه يحاربون الهيكسوس حتى طردوهم من القطر المصرى وأبعدوهم الى سورية .

(1) ١ : ٥٢

كان حكم الهيكسوس وطردهم من مصر عظة كبيرة للمصريين أفهمتهم لأول مرة معنى الاستعمار وسياسة البطش فأنشأوا جيشا عظيما منظما استعملوا فيه العجلات الحربية مستعينين على جرها بالخيل التى جلبها الهيكسوس الى القطر المصرى وقت غزوتهم له ، فتحولت مصر بذلك الى امبراطورية حربية. واعلم أن أمراء الأقاليم المصرية قد انمحوا وقتئذ من الوجود تقريبا نتيجة غزوة الهيكسوس والمنازعات الشخصية التى نشبت بينهم ولذلك لم يبق من هؤلاء الا اليسير انضموا بعد ذلك تحت لواء ملوك طيبة الذين أسسوا الأسرة الثامنة عشرة . وتعتبر الامبراطورية المصرية فى عهد هذه الأسرة من أكبر امبراطوريات العالم لأنها امتدت من سورية وأعالى نهر الفرات شمالا الى شلال النيل الرابع جنوبا. وكان تشييد هذه الامبراطورية المعتبرة الأولى فى العالم مصحوبا بثروة باذخة وعز باهر فى جهاتها الشاسعة بدرجة لم تبلغها مصر فى عصر آخر حتى صارت طيبة مركز التمدن العالمى وصاحبة الآثار الشامخة . وعظمت التجارة المصرية مع البلاد الشرقية وشواطئ البحر الأبيض المتوسط ثم كثرت المصنوعات اليونانية بالقطر المصرى بعد اتصباغها كثيرا بالصبغة المصرية . ويقدر حكم هذه الامبراطورية بنحو مائتين وثلاثين سنة (أى من سنة ١٥٨٠ الى سنة ١٣٥٠ قبل الميلاد) . أما سقوط هذه الامبراطورية فيرجع سببه الى منازعات داخلية وخارجية إثر ثورة دينية عظيمة شنها الفتى النابغة الملك إخناطون على عبادة الأصنام ثم أخذ النفوذ المصرى يضعف تدريجا على آسيا الصغرى تحت ضغط الحيثيين . وفى هذا الوقت نفسه هجمت قبائل بدوية على شمالى وجنوبى ممتلكات مصر الأسيوية فزادت الطين بلة . وليلاحظ أن بعض هذه القبائل انضم فيما بعد الى بنى اسرائيل ولكن المعروف أنها اتحدت وقتئذ مع الحيثيين الذين استقروا يزحفون على مستعمرات مصر حتى انفصمت عرى الامبراطورية المصرية بآسيا الى حدود مصر الشمالية الشرقية، على أثر ذلك هبت فى البلاد ثورة داخلية عظيمة انتهت بسقوط الأسرة الثامنة عشرة حوالى سنة ١٣٥٠ قبل الميلاد وأسدل الستار على الدور الأول من تاريخ الامبراطورية المصرية .

ثم ظهر على مسرح السياسة قائد مصرى يدعى حَرمْحَب كان فيما سبق موظفا فى الجيش فى عهد الأسرة الثامنة عشرة استعمل قوته وشدته فوطد النظام وأرجع الأمن للبلاد وأسس الأسرة التاسعة عشرة التى تسلمت مقاليد الحكم من سنة ١٣٥٠ الى سنة ١٢٠٥ قبل الميلاد وأخذت تسترجع ما فقدته مصر من ممتلكاتها الأسيوية. لكن يلاحظ أن سلطة الحيثيين بسورية كانت عظيمة لدرجة عجز عن سحقها هجوم المصريين . نعم ان هجوم سيتى الأول وحروب رمسيس الثانى استمرت حوالى عشر سنوات لكنها لم تجاوز حدود ممتلكات مصر الشمالية الى ما بعد أرض فلسطين وهكذا استحال على المصريين أن يحكموا سورية حكما مستمرا ثانية . وعظم النفوذ السامى بمصر وقتئذ . ثم ظهر الأوربيون لأول مرة فى تاريخ مصر القديم فأنزلوا جنودهم على ساحل غربى الدلتا واتحدوا مع الليبيين على اقتحام الوجه البحرى فصدهم جيش مِنفْتاح وأبعدهم الى بلادهم الأصلية . ثم اضطربت أحوال القطر المصرى بعد ذلك ودبت فيه الفوضى وفشا بين أهله الانقسام فسقطت الأسرة التاسعة عشرة حوالى سنة ١٢٠٥ قبل الميلاد .



شكل ٦ – ثلاثة شواديف مستعملة لرى الأراضى
(مأخوذة عن محل أندروود وأندروود بنيو يورك)



شكل ٧ – صخور وادى النيل غربى طيبه ويشاهد أمامها الوادى
(تصوير أندروود وأندروود بنيو يورك)

فى هذا الوقت ظهر فرعون سِتْنَخْت وابنه رمسيس الثالث واسسا الأسرة العشرين التى حكمت البلاد من سنة ١٢٠٠ الى سنة ١٠٩٠ قبل الميلاد وحافظت فى أثنـاء ذلك على كيان الامبراطورية المصرية على رغم غارات القبائل الشماليـة (التى أبادت الحيثيين) وعلى رغم الهجرة الليبية المستمرة داخل البلاد . ولمـا توفى رمسيس الثالث سـنة ١١٦٧ قبل الميلاد فقدت مصر سائر ممتلكاتها عدا النوبة وأسدل الستار على الدور الثانى من عهد الامبراطورية .

وبقيت مصر محكومة بعدّة رماسسة ضعاف وأخذت تتقهقر فى أثناء حكمهم حتى اغتصب منهم قسس آمون عرش مصر . لكن هؤلاء الكهنة سرعان ما خضعوا لخصم آخر بمدينة تنيس التى هى شرقى الدلتا أسس الأسرة الحـادية والعشرين المبتدئة من سـنة ١٠٩٠ الى سنة ٩٤٥ قبل الميلاد . وفى منتصف القرن العـاشر قبل الميلاد دخل الليبيون خدمة الجيش المصرى وصـار منهم قواد ورؤساء حربيون . وفى سنة ٩٤٥ قبل الميلاد اغتصب أحد هؤلاء القواد المسمى شِيشُنْق الأول عرش مصر وأسس الأسرة الثانية والعشرين ، وفى عهده ارتقت البلاد نوعا وحاولت استرجاع فلسطين . لكن قواد الجيوش المأجورين قووا مراكزهم تدريجيا فى مدن الوجه البحرى العظيمة فانقسم القطر المصرى الى عدة امارات حربية صغيرة واضمحلت البلاد وتقهقرت فى أثناء الحكم الليبى أى مدة حكم الأسرة الثانية والعشرين والثالثة والعشرين والرابعة والعشرين (أى من سنة ٩٤٥ الى سنة ٧١٢ قبل الميلاد) .

فى ذلك الوقت ظهرت بلاد النوبة فى التاريخ تدريجيا نتيجة هجرة بعض أعضاء الأسرة المـالكة الطيبية على الأرجح الى مدينة نَبَتَه جهة الشلال الرابع حيث أسسوا مملكة مستقلة غزت بعد ذلك مصر وحكمتها من سنة ٧٢٢ الى سنة ٦٦٣ قبل الميلاد وبقى هؤلاء الأمراء مقيمين بمدينة نبته طول هذه المدّة ، ولكنهم لم يتمكنوا من اخضـاع أمراء الأقاليم العديدين بمصر فاستمر لذلك النزاع بين الطرفين . وبينما هم كذلك أغارت جيوش اشور على القطـر المصرى وأخضعته وفرضت عليه الجزية فيما بين سنة ٦٧٠ وسنة ٦٦٢ قبل الميلاد . ثم ظهر بسَامْتيك الأول القائد المصرى المـاهر جهة صا الحجر غربى الدلتا سنة ٦٦٣ قبل الميلاد فطرد جيوش نينوى (الأشورية) وانفرد بالحكم وبدأ عهد الاصلاح والرقى . وساعده على ذلك عدم وجود النوبيين بالقطر المصرى لأن الأشوريين طردوهم سـابقا . ويطلق الأثريون اسم "دور الاضمحلال" على المدة التى بين سنة ١١٥٠ وسنة ٦٦٣ قبل الميلاد التى تقرب من خمسمائة سنة . وينقسم دور الاضمحلال هذا فيما بعد سـنة ١١٠٠ قبل الميلاد الى العهد التنيسى الآمونى (المبتدئ سنة ١٠٩٠ قبل الميلاد والمنتهى سنة ٩٤٥ قبل الميلاد) والعهد الليبى (المبتدئ سنة ٩٤٥ والمنتهى سـنة ٧١٢ قبل الميلاد) والعهد الإتيوبى (المبتدئ سنة ٧٢٢ والمنتهى سنة ٦٦٣ قبل الميلاد) والعهد الأشورى الذين بدأ فى أواخر العهد الإتيوبى .

وما أقل معلوماتنا عن "عهد الاصلاح" الذى كان مركزه صا الحجر بالوجه البحرى ، والسبب فى ذلك يرجع الى انعدام معظم آثار تلك الجهة . وبالرغم من أن هيرودوت وغيره من المؤرخين اليونانيين لم يخبرونا الا بالقليل من تاريخ القطر وقتئذ وأن العهد الصاوى كان زاهيا بهيجا عظمت فى أثنائه قوة مصر وكثرت اصلاحاتها لآثارها القديمة رغبة فى الوصول الى "عهد الاداب" السابق

الذكر . وليلاحظ أن ملوك عهد الاصلاح استعانوا على بسط نفوذهم بجنود يونانية مأجورة . أما سياسة الملوك الصاويين فكانت راقية متمشية مع سياسة العهد اليونانى ، وفى خلال هذه المدة قامت مصر بدور سياسى خطير مراعية فى ذلك بعض سننها القديمة . أما أحوال البلاد الداخلية فقد ساءت حتى حالت دون نجاتها من مطامع الفرس ولذلك بعد ما حكم القطر المصرى عدة أسر أغلبها مصرية تغلب عليها قمبيز عام ٥٢٥ قبل الميلاد .

الى هنا انتهى ما أردنا سرده من تاريخ مصر القديم على سبيل الاختصار ومنه يظهر للقارئ العوامل الخارجية التى كان لها أعظم تأثير فى تاريخ مصر المستقلة واليك بيان أهم مميزات ذلك التاريخ :

تاريخ اعتبار السنة من خمس وستين وثلثمائة يوم واستعمالها فى المواقيت سنة ٤٢٤١ قبل الميلاد .

تاريخ نهاية عهد ماقبل الأسر سنة ٣٤٠٠ قبل الميلاد .

تاريخ جلوس الملك مينا على عرش مصر سنة ٣٤٠٠ قبل الميلاد .

مدة حكم الأسرتين الأولى والثانية سنة ٣٤٠٠ الى سنة ٢٩٨٠ قبل الميلاد .

مدة حكم المملكة القديمة من الأسرة الثالثة الى الأسرة السادسة سنة ٢٩٨٠ الى سنة ٢٤٧٥ قبل الميلاد .

مدة حكم الأسرتين السابعة والثامنة سنة ٢٤٧٥ الى سنة ٢٤٤٥ قبل الميلاد .

مدة حكم الأسرتين التاسعة والعاشرة الاهناسيتين سنة ٢٤٤٥ الى سنة ٢١٦٠ قبل الميلاد .

مدة حكم المملكة الوسطى الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة سنة ٢١٦٠ الى سنة ١٧٨٨ قبل الميلاد .

تاريخ الاضطراب الداخلى وحكم الهيكسوس (الرعاة) سنة ١٧٨٨ الى سنة ١٥٨٠ قبل الميلاد .

مدة حكم الامبراطورية : الجزء الأول — الأسرة الثامنة عشرة سنة ١٥٨٠ الى سنة ١٣٥٠ قبل الميلاد .

مدة حكم الامبراطورية : الجزء الثانى — الأسرة التاسعة عشرة وجزء من الأسرة العشرين سنة ١٣٥٠ الى سنة ١١٥٠ قبل الميلاد .

مدة حكم دور الاضمحلال : وهى السنوات الأخيرة من حكم الأسرة العشرين سنة ١١٥٠ الى سنة ١٠٩٠ قبل الميلاد .

مدة حكم دور الاضمحلال : العهد التنيسى الآمونى ويشمل الأسرة الحادية والعشرين سنة ١٠٩٠ الى سنة ٩٤٥ قبل الميلاد .

مدة حكم دور الاضمحلال : العهد اللوبى من الأسرة الثانية والعشرين الى الأسرة الرابعة والعشرين سنة ٩٤٥ الى سنة ٧١٢ قبل الميلاد .

مدة حكم دور الاضمحلال : العهد الإتيوبى وتدخل فيه الأسرة الخامسة والعشرون (سنة ٧١٢ الى سنة ٦٦٣ قبل الميلاد) سنة ٧٢٢ الى سنة ٦٦٣ قبل الميلاد .

مدة حكم دور الاضمحلال : العهد الأشورى سنة ٦٧٠ الى سنة ٦٦٢ قبل الميلاد .

مدة حكم دور الاصلاح : ويدخل فيـه العهد الصاوى زمن الأسرة السادسـة والعشرين من سنة ٦٦٣ الى سنة ٥٢٥ قبل الميلاد .

غزوة الفرس سنة ٥٢٥ قبل الميلاد .

ويجد القارئ فى آخر هذا الكتاب جدولا لمدد حكم فراعنة مصر بشكل أوفى وأوضح من الكشف المذكور هنـا . وقد استعملنا لضبط تواريخنا الأولى طريقتين : الطريقة الأولى تتلخص فى جمع مدد حكم الملوك والطريقة الثانية فلكية أساسها فرق ربع اليوم بين السـنة الشمسية والسنة المصرية القديمة . أما الطريقة الأولى فهى جمع أقل مدد يمكن اعتمادها لحكم الملوك ثم وضـع كل منهم فى العهد الموافق له بالنسبة الى وقت معين . فاستعمال هذه الطريقة مثلا لتقدير المدة بين مبدأ الأسرة الثامنة عشرة وغزوة الفرس التى حصلت سنة ٥٢٥ قبل الميلاد يرشدنا الى مدة تبلغ ١٠٥٢ سنة على أقل تقدير[1] مع مراعاة أحدث معلوماتنا الأثرية المذكورة فاستنتجنا من ذلك أن الأسرة المذكورة جلست على العرش المصرى حوالى سـنة ١٥٧٧ قبل الميلاد على الأقل ان لم يكن قبل ذلك . ولـما استعملنا الطريقة الثانية وهى الفلكية المبنية على شروق الشعرى اليمانية ومبادئ الأشهر القمرية وفرق ربع يوم بين السنة الشمسية والسنة المصرية القديمة اتضح لنا أن الأسرة الثامنة عشرة المذكورة جلست على كرسى الملك حوالى سنة ١٥٨٠ قبل الميلاد[2] . ولكن الطريقة الأولى لا يمكن استعمالها وحدها لمعرفة تواريخ الحوادث التى حصلت قبل عهد الأسرة الثامنة عشرة لندورة الآثار المساعدة على ذلك التقدير. ومن حسن الحظ أن مبـدأ حكم الأسرة الثانية عشرة المذكورة ذكر على الآثار مصحوبا بشروق نجم الشعرى اليمانية وباستعمال الطريقة الفلكية لذلك اتضح لنا أن هذه الأسرة تولت الحكم فى مصر حوالى سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد مع فرق طفيف يقدر بنحو سنة . بعد ذلك أمكننا معرفة تواريخ حوادث الأسرة الحادية عشرة باستعمال طريقة الجمع . ولعدم التأكد من طول مدة حكم اهناس تعذر علينا معرفة المدة التى مضت بين عهدى المملكة القديمة والمملكة الوسطى . ومع ذلك لو قدرنا لكل من الملوك الثمانية عشر الإهناسيين مدة ست عشرة سنة وهى مدة الحكم لأغلبية ملوك البلاد الشرقية لبلغت مدة حكم ملوك اهناس ٢٨٨ سنة[3] .

---

(1) ١ : ٤٧ – ٥١ (2) ١ : ٣٨ – ٤٦ (3) ١ : ٥٣

اذا اعتبرنا هذه المدة ٢٨٥ سنة انحصر الخطأ فى مدة لا تزيد على قرن واحد على وجه التقريب . أما مدة حكم المملكة القديمة فيمكن معرفتها بآثار عصورها وقوائم أسماء ملوكها الواردة على الآثار مع خطأ بين الزيادة والنقص لا يزيد على مدة جيل أو جيلين . وقد بينا فيما سبق أن غموض مدة حكم ملوك اهناس يؤثر فى التواريخ السابقة له بمدة تقريبية . واستدل من النقوش التاريخية التى على حجر بالرمو أن الأسرتين الأولى والثانية حكمتا مدة تقرب من ٤٢٠ سنة[١] وأن جلوس مينا على عرش مصر وانضمام قطرى هذه المملكة حصلا حوالى سنة ٣٤٠٠ قبل الميلاد . لكن يلاحظ أننا لا نزال نجهل بالضبط طول مدة حكم المملكة القديمة كما أننا نجهل مدة حكم ملوك اهناس . وعلى كل حال فهذه التواريخ جاءت موافقة لآثار عصورها التى ترجع الى ما قبل سنة ١٢٠٠ قبل الميلاد . ويرجع السبب فى المبالغة فى المواقيت التى يجدها الباحثون فى بعض الكتب التاريخية الى اتباع ما أوردته المجلدات الأثرية القديمة التى صدّقت توقيت مانيتو العظيم الخطأ الكثير الاهمال والتعقيد الذى لا يتفق مع معظم آثار عصوره . زد على ذلك أننا لو جمعنا مدد حكم الأسر التى أوردها مانيتو لوجدناها تبلغ عددا عظيما لا يصدقه العقل ولا يستحق الالتفات لحظة لأنه يقرب من ضعف التقدير المستنتج من الآثار التاريخية . لذلك كانت تواريخ مانيتو ضعيفة لا تحتمل المناقشة والجدل ومن ثم قل اعتداد الآخذين بها كثيرا حتى صاروا يعدّون على الأصابع .

وكما أننا اضطررنا بحكم الحال فى أثناء توقيتنا لحوادث مصر التاريخية الى الرجوع الى الآثار كذلك اضطررنا عند البحث عن تاريخ المملكة القديمة أن نلجأ الى آثار تلك الأزمنة الغابرة[٢] لكن المعلومات الممكن استيفاؤها بهذه الكيفية قليلة من حيث الحوادث والمآثر . أما البحث فى الآثار عن المدنية فسهل لوضوحها كثيرا فى كل ما وصل الينا من أعمال الحفر والرسم والنقش والهندسة . وأما الاستعلام عن حياة الأفراد والطوارئ الخارجية القصيرة المدة فأمر يكاد يكون مستحيلا لشدة ندورة أخباره على الآثار . من ذلك يتضح لنا أن كل مؤرخ يحاول وضع تاريخ لمصر القديمة من آثارها الباقية فقط يجد نفسه فى شدة الحيرة لنقص هذه الآثار وقلة اخبارها . وهو فى هذا الموقف على نقيض زميله الذى يحاول وضع تاريخ لأوربا لأن معلومات الموضوع الأخير كثيرة . وبديهى أن قدماء المؤرخين الأوربيين عانوا مشقات عظيمة أولا تعادل مايعانيه مدوّنو تاريخ مصر القديم الان .

وما أقل ما وصل الينا من المخاطبات السياسية والمجلات والتواريخ والسجلات الرسمية والتقارير التى يرجع تاريخها الى العصور المصرية القديمة . من ذلك يتضح للقارئ ما يقاسيه المؤرخون الذين يريدون وضع تاريخ لمصر القديمة كالذى يعانيه المؤرخ الذى يحاول وضع تاريخ الدولة اليونانية القديمة من نصوص آثارها الباقية الآن . وليعلم أننا لم نحصل للآن على تاريخ مصر القديمة لمؤرخ مصرى الا ما كتبه مانيتو وبناه على خرافات أهل عصره فى القرن الثالث قبل الميلاد . والحقيقة أن كتابة هذا المؤرخ لا تستحق أن تسمى تاريخا . وعلى كل حال فالمؤرخ القديم لم يدر بخاطره ما ستصل اليه نفوس القوم من الأخبار فى الأجيال القادمة . والمعروف أن الأخبار التاريخية كانت تسجل بايجاز

(١) ٨٤١ – ٨٥ (٢) ١٢١ – ٣٧

من قديم الزمان لكننا لم نهتد للا ن الا على سجلين من هذا النوع أولها حجر بالرمو[1] الشهير الحاوى لمختصر تاريخ ملوك الأسرة الأولى الى الأسرة الخامسة وثانيهما تاريخ حروب تحوتمس الثالث التى شنها فى سورية . عدا ذلك لم نعثر الا على النزر اليسير من الآثار ذات المعلومات التاريخية . ونحن فى هذا الموقف لا يسعنا الا أن نورد وصفا تقريبيا لمدنية المملكتين القديمة والوسطى مع بعض اشارات الى حوادث قليلة . أما عهد الامبراطورية فقد وصلتنا عنه معلومات قديمة أمكننا بها معرفة حوادثه الخطيرة دون الطفيفة . ومع ذلك فهناك نقط عديدة بشأن تلك العصور لا نزال نجهلها ولا نعرف كيف نؤولها . وقد تمكنا من وصف نظام الحكومة وتأليف الاجتماع وأهم أفعال براطرة تلك العصور مع ذكر طرف من الروح السائدة فى هـذا العصر بقدر ما سمحت به الآثار . أما دورا الاضمحلال والاصلاح فراجعنا الأثرية بخصوصهما تكاد تماثل فى القلة مراجع العصور القديمة لذلك صار المؤرخ يتردد بين التأويل والاحتمالات وقد اضطر المؤلف أن يتبع فى كتابه هذا خطة التحفظ الشـديد لقلة المراجع التاريخية الخاصة بموضوعه .

(١) انظر شكل ٢٩ و ١ : ٧٦ — ١٦٧

الفصـــل الثـالث

مصر قبل حكم الأسر

فى ذلك الجزء الصحراوى القاحل الشاسع الذى يخترقه نهر النيل عاش فى قديم الزمان عنصر آدمى وساعدت الأمطار الغزيرة على خصب الأرض وزيادة نتاجها . ثم تغيرهذا الاقليم فقلت أمطاره وشحت زراعته وانعدمت طبقته الطينية تدريجيا فهجره أهله . ويرجع ذلك التغيير الى آلاف السنين قبل ظهور المدنية المصرية القديمة التى سنتناول بحثها الآن . ولم يصل الينا من هؤلاء الأقوام الأقدمين الذين قطنوا الصحارى المصرية قبل اقفارها سوى عدة أدوات من حجر الظرّ[1] وجدت مبعثرة فوق الصحراء أثرتا كل الطبقة الصخرية التى كانت تغطيها . ويعتبر أقوام العهد الحجرى المذكور أقدم أناس سكنوا القطر المصرى . أما علاقة هؤلاء الأقوام بمدنيـــة مصر وقت الأسر أو قبلها فلا تزال مجهولة جهلا تاما ولذلك اعتبرت آثار تلك الأقوام ضمن مباحث علم طبقات الأرض ورقى الانسان .

أما القوم الذين سنتناول الآن تاريخهم فهم سلالة الليبيين (سكان شمالى إفريقية) وقبائل الجالّا والصومال والبيجا (سكان شرقى إفريقية) . والمعروف أن أقواما ساميين من عرب آسيا غزوا وادى النيل وعمموا فيه لغتهم فصبغوه بصبغتهم كما هو ظاهر من النقوش المصرية القديمة . وبالرغم مما اعترى اللغة من تغيير وتحريف باختلاط السكان فقد حافظت على ساميتها بمرور الزمن . ومما يجدر ذكره فى هذا المقام أن هــذه اللغة وجدت كاملة على الآثار منذ أقدم عصورها . واستمر الليبيون وسكان إفريقية الشرقية يختلطون بسكان وادى النيل مدة طويلة فى العصور التاريخية، وأهم اختلاط حصل بين الليبيين وأهالى وادى النيل هو الوارد ذكره فى النقوش الأثرية منذ ثلاثة آلاف سنة تقريبا .

أما تاريخ الهجرة السامية الأولى فيرجع بلا مراء الى ما قبل العصور التاريخية المعروفة ، لكن الثابت أن هذه الغزوة تكررت بعد ذلك مرارا فى العصور التالية ، ومحال أن نعرف تاريخ تلك الغزوة السامية والطريق الذى سلكه هؤلاء الغزاة ولكن الأقرب للذهن أنهم أتوا من برزخ السويس كما فعل العرب فى بداية الاسلام . ولما دخل هؤلاء الغزاة مصر عمموا لغتهم السامية لكنهم سرعان ما تطبعوا بطبائع المصريين ودانوا بدياناتهم ودليلنا على ذلك أن ديانة وادى النيل حافظت على مصريتها تماما فلم يدخلها عوامل بدوية من الخارج . ومما يعزّز رأينا بأن هؤلاء الغزاة نشروا لغتهم فقط وجود علاقة أثرية متينة بين صناعة الأوانى الخزفية المستعملة الآن بين قبائل ليبيا الحديثة والتى استعملت سابقا بوادى النيل فى مبدأ حضارته . ورسوم الصوماليين الأقدمين الواردة على الآثار المصرية كثيرة الشبه بالمصريين . لكن من دواعى الأسف أن فحص الجثث المصرية القديمة أسفر عن عدة نتائج متناقضة بين علماء جسم الانسان وانتهى بعدم الوصول الى حقائق ثابتة نحو أصل المصريين الأقدمين . أما الرأى القديم القائل بأن قدماء المصريين من العنصر الزنجى الإفريقى فقد نبذ ولم يعتد به وكل ما يمكن أن يقال عنــه انه اذا وجدت مثل هذه العلاقة فهى نتيجة اختلاط قدماء المصريين بزنوج إفريقية بدرجة طفيفة تماثل اختلاطهم بسائر العناصر الأخرى .

---

(1) الظرّ : حجر له حد كحد السكين وهو المشهور بالصوّان .

الكلام على المصريين قبل حكم الاسر

لوحظ على هؤلاء القوم شعر أسود وبعض مبادئ الحضارة فرجالهم كانوا يلتحفون أحيانا جلود الحيوانات فوق أكتافهم أو يصنعون منها ألبسة قصيرة وتارة يلبسون المآزر الكتانية البيضاء القصيرة . أما النساء فكن يلبسن الملابس الطويلة المنسوجة غالبا من الكتان مبتدئة من الكتفين وواصلة الى القدمين . وقد وجدت عدة تماثيل صغيرة لتلك العصور تمثل الذكور والاناث عراة واستعملت النعال أحيانا وكذا الوشم . وكان القوم يتزينون بالحلى كالخواتم والأساور والأقراط المصنوعة من الحجر والعاج والعظم والحب المصنوع من الظر والبلور والعقيق والحجر السماقي . وكان النساء يسرحن شعورهن بالأمشاط ويستعملن لذلك الدبابيس العاجية المزخرفة . أما أصباغ الوجه وأكحال العيون الخضراء فكانت تستعمل مسحوقة موضوعة على ألواح صغيرة من الأردواز المحفور . واعتاد القوم وقتئذ تشييد مساكنهم بالمساليج[١] الممزوجة أحيانا بالطين أو بناءها باللبن . أما أثاث المساكن فبسيط تتجسم فيه الفنون الجميلة والمهارة الآلية . واستعمل القوم الملاعق العاجية المنقوشة التقاعير والأيدى . وبالرغم من جهلهم بالآلة التي يستعملها الخزاف الآن فقد صنعوا أواني خزفية عديدة مختلفة الأشكال . وما أكثر ما تحويه دور التحف بأوربا وأمريكا من هذه الأواني الحمراء أو السوداء المزخرفة بالرسوم الهندسية المختلفة ذات الرسوم الممثلة لمراكب وحيوانات وطيور وسمك وأشجار وأناس من تلك العصور القديمة (شكل ١١) ومع جهل هؤلاء القوم بصناعة الزجاج فقد فقهوا طريقة لمعان الحب والألواح الخزفية وما شاكل ذلك . وقد عثرنا على تماثيل

شكل ٨ — أقدم رسوم معروفة الآن ملونة بالألوان المائية وجدت على حائط قبر يرجع تاريخه الى قبل عهد الأسر الفرعونية ويشاهد في هذا الرسم صور سفن وحيوانات وحشية وصيادين وغير ذلك

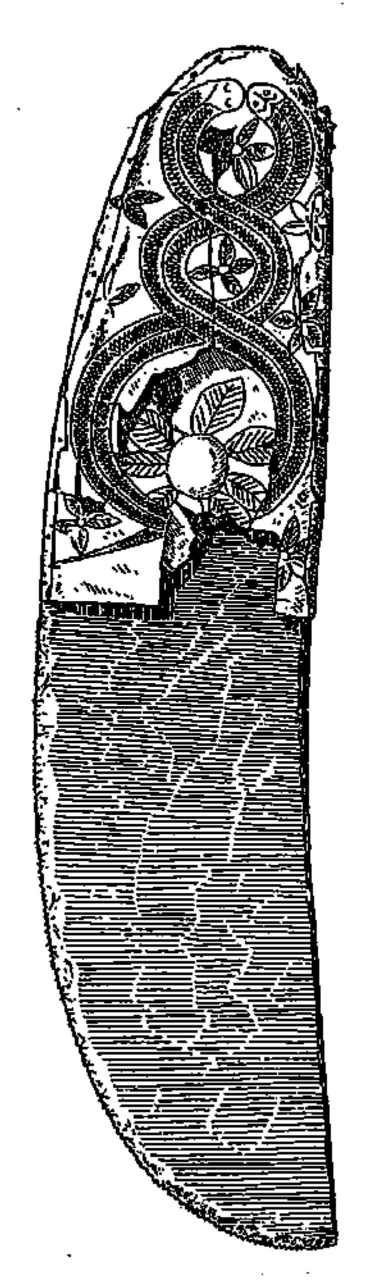
(١) المساليج واحدها مسلوج وهو ما لان واخضر من قضبان الشجر والكرم .

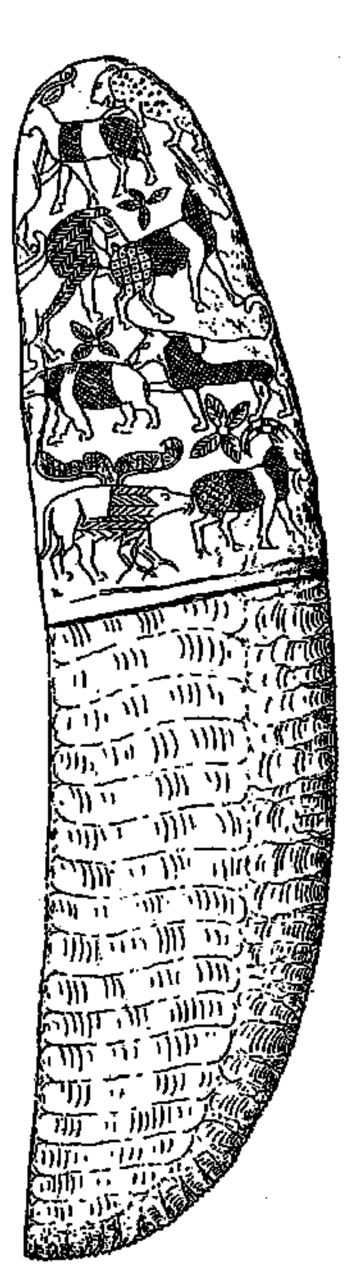
خشبية وعاجية وحجرية غير متقنة الصنع يتبين منها مبادئ تلك الفنون الجميلة فى عصور الأسر الأولى .
ووجد الأستاذ بترى ثلاثة تماثيل للعبود مين جهة قفط تتجسم فيها حضارة ذلك العهد السحيق الذى يرجع تاريخه الى ما قبل حكم الأسر. بعد ذلك استبدلوا بصناعة الخزف تدريجا صناعة الحجر المتنوعة فتمكن القوم حينئذ من صناعة الأباريق والأكواز والزلع وما شاكلها باتقان زائد مستعملين لذلك أصلب الأحجار كالصوان والسماق . وأقصى درجة بلغتها صناعة حجر الظر يرجع تاريخها الى هذا العهد . وفيه أيضا تمكن القوم من عمل الآلات المعوجة كالمقابض العاجية المنقوشة والفؤوس الحجرية والصوانية ورماح الأسماك ذات الرءوس الظرية والصولجانات والنبابيت ذات الرءوس الضخمة المماثلة فى الشكل لثمرة الكمثرى والتى استعملت قديما فى الحروب المصرية والبابلية. وتمكن القوم أيضا من عمل الأسلحة والأدوات النحاسية . لذلك كان هذا العصر عصر الانتقال من العهد الحجرى الى العهد النحاسى .
أما المصنوعات الذهبية والفضية والرصاصية فكانت معروفة لكنها نادرة .

ولما كانت الزراعة الحرفة الرئيسية لسكان وادى النيل الخصيب ظهر هؤلاء القوم زرّاعين ماهرين وتدينوا بديانة مملوءة بروح الزراعة. أما حقول وغابات وادى النيل غير الآهلة بالسكان فكانت مأوى لكثير من الحيوانات . واستدل من كثرة المصنوعات العاجية وتعدّد رسوم الفيل على آثار تلك العصور أن هذا الحيوان كان موجودا بالقطر المصرى. أما الزرافة وجاموس البحر والذئاب الوحشية (التى اعتبرها القوم بعد ذلك رمزا للعبود ستْ) فكانت تأوى الغابات أيضا لكنها تلاشت الآن .
لذلك برع قدماء المصريين فى صيد البر والبحر فافترسوا أشدّ الحيوانات بأسا كالسباع والثيران الوحشية بالأقواس والرماح وخرجوا فى سفينة صغيرة مسلحين بالرماح والحراب لصيد جاموس البحر والتمساح ، وأثبتوا ذلك بالرسوم على صخور بوادى النيل مكسوّة بطبقة أوكسيدية تعرف بالباتينا نتيجة تأثير الهواء فيها ، وهذه الرسوم تعتبر أقدم وأجمل ما وجد من نوعها فى التاريخ القديم .

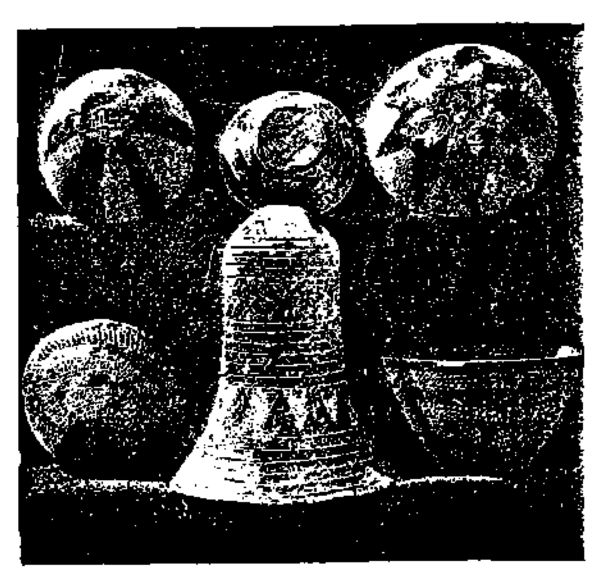
ولما زادت صناعة مصر انتشرت تجارتها فى البلاد المجاورة . فقد رؤى على الآثار غير سفينة الصيد الصغيرة صور أخرى لسفن كبيرة ماخرة فى مياه النيل تدفعها الى الأمام سكاكين[1] ضخمة ومجاديف عديدة . أما السفن الشراعية فكانت معروفة لكنها قليلة العدد. وعلى كل سفينة علم عليه رسوم تشير الى محل معين فمن هذه الرسوم قوسان متقاطعان يرمز بهما دائما الى المعبودة نيتْ الصاوية ومنها أيضا صورة الفيل يقصد بها غالبا جزيرة الفيل الواقعة جنوبى أسوان. والغالب أن هذا الحيوان كان كثير الوجود بالقطر بدليل كثرة استعمال العاج ورواج تجارته فى الأسواق الجنوبية المصرية .
وبفحص هذه الأعلام لوحظ أنها كثيرة الشبه بأعلام أقسام مصر التى تجزأت اليها فيما بعد ، لذلك لا يبعد أن تكون أعلام هذه السفن دليلا كافيا على تقسيم القطر المصرى وقتئذ الى عدة أقسام كالتى سماها اليونانيون فيما بعد (Nomes) وسيأتى الكلام عليها بعد . فان صح هذا الرأى كان الوجه القبلى مقسما وقتئذ الى نيف وعشرين قسما . وعلى كل حال فحضارة تلك العصور كانت راقية بدليل كثرة

(١) السكاكين : واحدها سكان وهو دفة المركب .

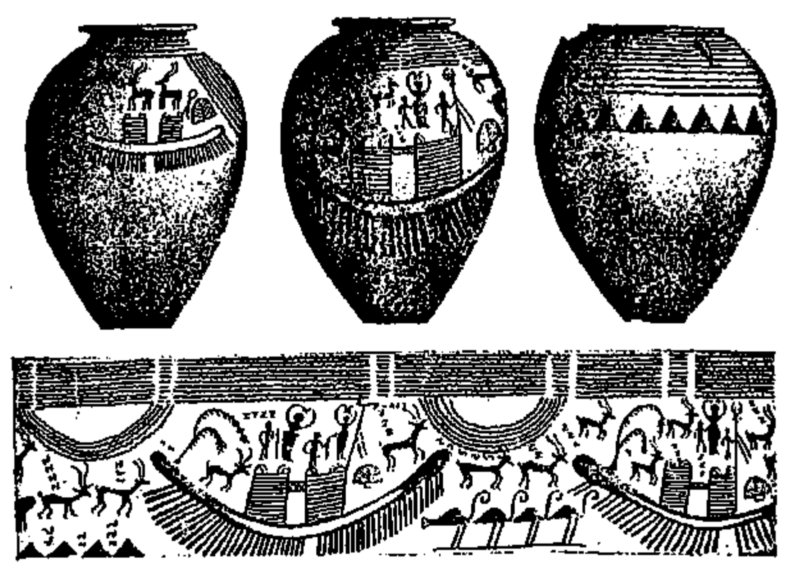




شكل ٩ — أسلحة من الصوّان يرجع تاريخها الى عهد سابق لحكم الأسر ، أياديها
مموّهة بالذهب ومزينة بالرسوم النافرة (مأخوذة عن دى مرجان)



شكل ١٠ – أوان خزفية منقوشة يرجع تاريخها الى عهد سابق
لحكم الأسر (مأخوذة عن بترى)



شكل ١١ – أوان خزفية يرجع تاريخها الى عهد سابق لحكم الأسر تشاهد عليها نقوش
محفورة لسفن وحيوانات و رجال ونساء (مأخوذة عن دى مرجان) .

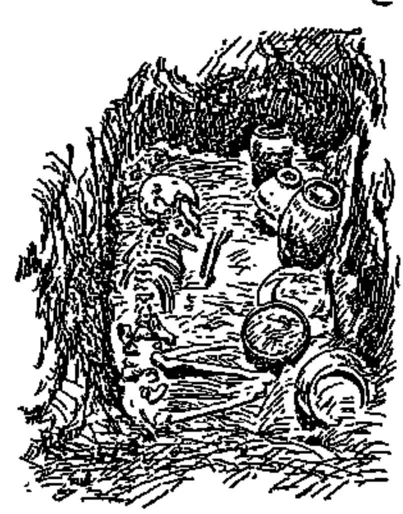
مدنها الكبيرة وعواصم اقطاعها كما كانت الحالة فى بلاد بابل. وكان لكل مدينة وما جاورها من القرى حاكم قوى ومعبود مستقل ومعبد ساذج وسوق عام تتعامل فيه أهالى البلاد المجاورة. أما كيفية تكوين وترتيب أقسام مصر وقتئذ فتشبه غالبا ما هو حاصل بالبلدان الأخرى. ويرجع تاريخ تكوين الامارات الصغيرة والمدن الكبيرة المستقلة التى نشأت منها المملكة المصرية الى زمن بعيد جدا يصعب الاهتداء اليه بخلاف الحال فى مملكة بابل الحديثة .

واتحاد هذه الامارات الصغيرة والمدن الكبيرة بعضها مع بعض وتكوين مملكتين منهما بالوجهين البحرى والقبلى شىء لا يمكننا البحث فيه الآن أو فى المستقبل . والمرجح أننا لن نسمع شيئا عن أبطال تلك العصور وغزاتها وحروبها وفتوحاتها وأزمانها والغالب أن هذا التطور الحكومى العظيم تم قبل سنة ٤٠٠٠ قبل الميلاد . وما أقل معارفنا عن المملكتين البحرية والقبلية اذ كل ما يمكننا ذكره عنهما أن الوجه البحرى كان دائما عرضة لهجوم الليبيين القاطنين غربيه وأنه لكثرة هجرة هؤلاء القوم اليه انصبغ الجزء الغربى منه بالصبغة الليبية التى بقيت ظاهرة حتى زمن هيرودوت المؤرخ اليونانى الشهير . وتشير أقدم أخبار الوجه البحرى الى منازعات ومشاحنات مستمرة مع الليبيين لذلك لا يبعد أن كانت المملكة البحرية وقتئذ تحت حكم ملوك ليبيا وأنها لذلك انصبغت بصبغة هؤلاء القوم ودليلنا على ذلك أن معبد مدينة صا الحجر (سايس) الواقعة غربى الدلتا والمعتبرة مركز النفوذ الليبى سمى قديما "بقصر ملك الوجه البحرى" ثم ان رمز معبودة ذلك المعبد وهى نيت استعمل فى الوشم كثيرا على أذرع الليبيين . ولا يبعد أن صا الحجر كانت وطنا لملك ليبى قديم . ووجدت رسوم بارزة على جدر معبد هرم ساحورع ببو صير تمثل أربعة أمراء ليبيين واضعين على جباههم أصلال الفراعنة يغلب أنها وصلت اليهم لصلة دموية بينهم وبين ملوك ليبيا الذين حكموا الوجه البحرى سابقا . واتخذت المملكة البحرية نبات اللوطس رمزا لها لكثرة وجوده بمستنقعات ذلك الاقليم ورمزت لملكها بالزنبور وتوجته بالتاج الأحمر ذى الشكل المخصوص . وتشاهد هذه الشارات بكثرة فى النصوص الهيروغليفية الحديثة . بعد ذلك اعتبر اللون الأحمر خاصا بمملكة الوجه البحرى فأطلق على خزانته اسم "البيت الأحمر" .

واختفت آثار الوجه البحرى بتغلب رسوب الغرين عليها سنويا فضاع بذلك أملنا فى العثور عليها لسمك الطين الذى يعلوها . والمظنون أن سكان الوجه البحرى سبقوا سكان الوجه القبلى فى الحضارة لأنهم تنبهوا فى القرن الثالث والأربعين قبل الميلاد الى أن السنة الشمسية تكون من ثلثمائة وخمسة وستين يوما وأرخوا مبتدئين بالسنة التى ظهر فيها نجم الشعرى اليمانية مع شروق الشمس . ودلتنا المباحث الفلكية أن هذا الحادث حصل حوالى سنة ٤٢٤١ قبل الميلاد . ويعتبر هذا الاستكشاف الميقاتى واستعماله فى الشؤون الدنيوية خطوة كبيرة نحو الرقى وشرفا عظيما للوطن الذى كشف فيه . ولم تستكشف دولة من دول العالم منذ أقدم الأزمنة حتى مبدأ العصر الأوربى المتوسط توقيتا سنويا مثله يتخطى الصعوبات الناتجة من استعمال السنتين القمرية والمصرية الشمسية وعدم تقسيم الأشهر القمرية للسنة المصرية الشمسية بالتساوى . لذلك قسم سكان الدلتا سنتهم الى اثنى عشر شهرا

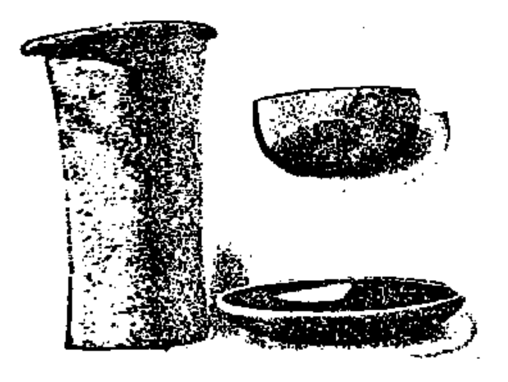
وجزءوا كل شهر ثلاثين يوما حفظا للنظام وتسهيلا للمداولات . وهكذا اعتقد سكان الدلتا أن التوقيت شيء عرفي يصطلح عليه القوم بلا مراعاة لتغييرات الطبيعة عدا الأيام والسنين . فقسموا السنة الى أشهر وأيام كما ذكر ثم أضافوا الى آخر ذلك خمسة أيام قدسوها وأقاموا فيها الأعياد مع العلم بأن تاريخ استعمال الســنة المصرية القديمة ابتدأ بظهور نجم الشعرى اليمانية مع شروق الشمس . وقد بحث عنه فلكيا فوجد أنه حصل فى التاسع عشر من شهر يوليه سنة ٤٢٤١ قبل الميلاد[1] ولما كانت السنة المصرية أقل من الســنة الشمسية الحقيقية بربع يوم لوحظ أن الفرق يبلغ يوما كاملا كل أربع سنوات ويبلغ سنة كل ١٤٦٠ سنة وأنه بعد مرور هــذه المدة (أى ١٤٦٠ سنة) يتفق ظهور الشعرى اليمانية مع شروق الشمس . من ذلك يتضح للقارئ أنه لو عثر على أخبار لهذا التوافق الفلكى (بين شروق الشعرى والشمس) أمكننا معرفة تاريخ تلك الأخبار باستعمال الطرق الفلكية فلا يزيد الخطأ فيه على نحو أربع سنوات. وليعلم أن يوليوس قيصر الرومان هو أول من أدخل التوقيت المصرى امبراطوريته ثم عم استعماله العالم . من ذلك يتضح أن اســتعمال التوقيت المصرى عمر مدة ســتة آلاف سنة تقريبا وأن الفضل فى ذلك يرجع الى سكان الوجه البحرى الذين عاشوا فى القرن الثالث والأربعين قبل الميلاد . وليلاحظ أن تقسيم التوقيت المصرى أفضل كثيرا من التوقيت الرومانى لأنه أسهل استعمالا فهو يقسم الى اثنى عشر شهرا والشهر الى ثلاثين يوما أما الثــانى فيقسم الســنة الى اثنى عشر شهرا غير متساوية الأيام .

ومملكة الوجه القبلى أكثر امعانا فى المصرية من الدلتا وعاصمتها مدينة الكاب ويقال لها بالمصرية نخب وشعارها نبات البردى وتاج ملكها أبيض لذلك أصبح البياض اللون الرسمى للصــعيد . أما الملك فكان يقطن احدى ضواحى مدينة الكاب المسماة نخن وهى على الشــاطئ الغربى للنيــل والمعروفة عند اليونان باسم (Hieraconpolis) . أما عاصمة الوجه البحرى فيقال لهــا بوتو ولها ضاحيــة يقال لها پ . ولكل من هاتين العاصمتين معبودة تدرأ عنهــا الضرر والمصائب . فمعبودة بوتو كان يرمز لهــا بأفعى تدعى بوتو أيضــا . أما معبودة نخب أو الكاب فترسم نسرا وتدعى نخب كذلك . وقد عبــد فى كل من هاتين العاصمتين المعبود حوريس مناضلا عن المملكتين الشمالية والجنوبيــة . واعتقد أهالى تلك العصــور فى البعث والحياة الأخروية بشكل يماثل الحياة الدنيوية ، واتخذوا مقابرهم عادة فى سلسلة الجبال الغربية على حافة الصحراء . وقــد كشفت حديثا آلاف من هــذه المقابر فوجدت

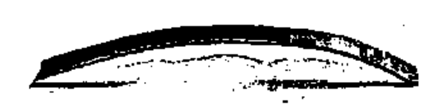


شكل ١٢ — قبر يرجع تاريخه الى زمن سابق لحكم الأسر

(١) جوليان .



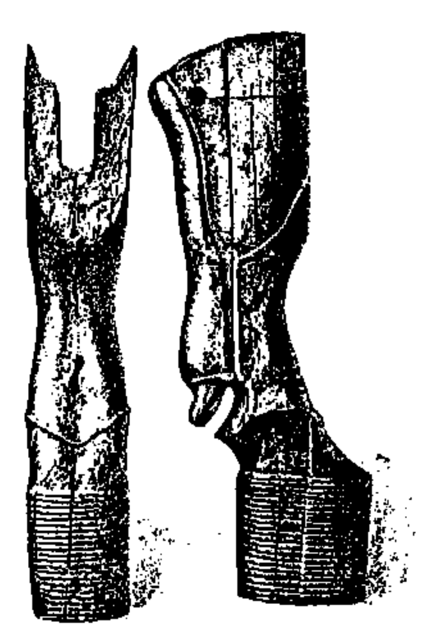
شكل ١٤ – أوان مرمرية يرجع تاريخها الى عهد الأسرة الأولى (مأخوذة عن بترى)



شكل ١٣ – قضيب من الذهب منقوش عليه اسم الملك مينا (٣٤٠٠ قبل الميلاد) وهو أقدم حلى منقوش



شكل ١٦ – أوان نحاسية يرجع تاريخها الى زمن الأسرة الأولى (مأخوذة عن بترى)



شكل ١٥ – أرجل كراسى مصنوعة من العاج المنحوت يرجع تاريخها الى زمن الأسر الأولى (دار تحف برلين) (المعروفة الآن دار تحف هاسكل)

بيضية أو مستديرة الشكل مسطحة القرار حاوية لجثث منحنية انحناء الجنين فى رحم أمه . وأقدم هذه الجثث ملفوفة فى جلود الحيوانات ثم استبدل بهذه اللفائف الجلدية أقمشة منسوجة . أما التحنيط فلم يستعمل وقتئذ . ووجد تحت هذه الجثث حصير من القش المضفور وعثر فى أيديها وعلى صدورها على ألواح أردوازية صغيرة لسحق الحجر الملكى الأخضر بقصد استعماله لتحسين الوجه والهيئة فى الآخرة ووجد هذا المسحوق محفوظا فى أكياس صغيرة بجوار الجثة مع أدوات العطر والزينة وشوهدت حول ذلك أوان خزفية وحجرية حاوية لبقايا أغذية أو أشربة أو أدهان تخص الميت فى الآخرة . ووجدت أيضا فى قبور تلك العصور أسلحة من الظرّ وأسهم ملبسة بالعاج يستعملها المتوفى للصيد الذى يقتات من لحمه . ولوحظ أيضا مع هـذه الجثث أنموذجات خشبية لمراكب عديدة تسد حاجات صاحبها بعد وفاته . أما أسقف تلك القبور فمصنوعة من أفرع نباتية تعلوها طبقة رملية أو حجرية تبدو منها معالم الحضارة . بعد ذلك استعمل اللبن فى تشييد المقابر . وعثر فى بعض الجهات على أوان خزفية كبيرة مقلوبة فوق جثث الموتى تؤدى وظيفة السقف .

ويرجع معظم معلوماتنا التاريخية والأثرية عن عصور ما قبل حكم الأسر الى هذه المقابر . ففيها عثرنا على الدعوات الدينية والعزائم السحرية التى اتخذت صيغة مخصوصة بمرور الأيام . وقد اهتدينا الى صيغ هذه الدعوات والعزائم فى نقوش أهرام الأسرتين الخامسة والسادسة اللتين يرجع تاريخهما الى ألف سـنة تقريبا بعد ابتداء حكم الأسر . وقد أخبرنا ببى الأول أحد ملوك الأسرة السادسة أنه شـيد معبدا جهة دندره مماثلا لمعبد هناك أقامه سابقا أحد ملوك الوجه القبلى قبل حكم الأسر ومنه استنتج أن أهالى تلك العصور العتيقة شيدوا معابد على نمط المعبد المذكور .

وزيادة على مابلغه هؤلاء القدماء من مبادئ المدنية والرقى فانهم نجحوا فى اختراع الكتابة والقراءة . واستدل من المباحث التى عملت لكشف طريقة التوقيت المصرية أن قدماء المصريين استعملوا الكتابة منذ نحو خمسة آلاف سنة وأن كتاب الأسرة الخـامسة الذين أتوا بعد ذلك بألف سنة دوّنوا طائفة كبيرة من أسماء ملوك الوجه البحرى وبعض ملوك الوجه القبلى من الذين يرجع تاريخهم الى ما قبل حكم الأسر (شكل ٢٩) كما نسخوا أيضا عدّة نصوص دينية من كتاب الموتى يرجح أنها نقلت سابقا عدّة دفعات . ولا يخفى أن الخط الهيروغليفى الذى استعمل فى الوجه البحرى لاجراءات الحكومة والملك والخزانة لم يكتشف بغتة وقت اعتلاء الملك مينا العرش المصرى بل كان مستعملا قبل ذلك بمدة طويلة ، ودليلنا على هذا أن الخط الهيراطيقى كان مستعملا فى مبدأ الأسرة الأولى وهو كما لا يخفى اختزال لخط الهيروغليفى فلابد اذن أن يكون هذا الأخير مستعملا قبل حكم الأسر بزمن طويل ولكن لم تصل الينا معلومات تاريخية عن مآثر ملوك الوجه البحرى والقبلى الذين يرجع تاريخهم الى ما قبل القرن الرابع والثلاثين قبل الميلاد ، والسبب فى ذلك هو عدم عثورنا على نقوش تاريخية بمقابرهم . وغاية ما اهتدينا اليـه من تلك العصور هو مقابر فقراء القوم العاطلة من الآثار والنقوش المفيدة . ولا نعرف من أسمـاء هؤلاء الملوك الأقدمين سوى سبعة من ملوك الوجه البحرى أمثال : سكا و خايو و تيش . أما ملوك الوجه القبلى فلا نعلم من أسمائهم شـيئا لكن يقال إن هنـاك ملكا

كان يلقب بالعقرب اعتبره بعض الأثريين ذا نفوذ عظيم على الوجه القبـلى لكثرة وجود اسمه على الآثار خلافا لغـيره من ملوك تلك الأوقات[١] . والظاهر أن كتاب الأسرة الخامسـة لما أرادوا إحياء ذكرى هؤلاء الملوك بعد وفاتهم (بحوالى ثمانمائة سنة) ولم يتمكنوا من سرد أعمالهم اقتصروا على ذكر الأسمـاء فقط[٢] . ودلتنا الآثار على أن هؤلاء الملوك نعتوا بأنهم "عباد حوريس" ثم قدّسوا فنسبت اليهم كثير من الصفات الإلهيـة ثم قربوا من منزلة المعبودات فاعتبروا وزاثا للعبودات التى حكمت مصر قديما . وهذا يعنى أن المصريين القدماء اعتبروا حكم هؤلاء الملوك وسطا بين عهد الآلهة القديم وبين حكم الأسر البشرية . ونعت مانيتو فى تاريخـه هؤلاء الملوك "بالموتى" ومنه يتضح أن أهميتهم التاريخية تلاشت تدريجيا وتبدلت وقامت على أنقاضها أهميتهم الدينية فاعتبروا آلهة فى عواصم أقسام مصر .

والمعروف أن التقدّم البطىء المطرد فى المملكتين الشمالية والجنوبية تكلل فى آخر الأمر باتحادهما . وقد أثبتت لنا الآثار المصرية صدق الرواية اليونانية القائلة بأن الملك مينا هو أول ملك مصرى ضم الى حكمه الوجهين القبلى والبحرى . ومنه يتضح أن هذا الملك الذى كان معتبرا حتى عهدنا هـذا فردا من "عباد حوريس" هو فى الحقيقة رجل ذو مركز تاريخى عظيم . والظاهر أنه كان حربيـا ماهرا لأنه ضم موارد الوجه القبلى فى قبضته بقوّة وأخضع بهـا الوجه البحرى فأتم بذلك مجهودات أسلافه وكوّن للقطر المصرى قوة مركزية حكومية . ومينا هـذا من مدينة طينة وهى بلدة قريبـة من العرابة لا تكاد تعرف . قال هيرودوت ان عدم حلول هذه المدينة فى منتصف القطر المصرى دفع مينا الى انشـاء خزان عظيم حوّل به مجرى النيل الى شرق منف ليتمكن من تخطيط هذه المدينـة فى محلها الحالى . فاذا صحت هذه الرواية كانت هذه المدينة مركزا لمينا ومقر ادارته ومنها استمد نفوذه بسهولة على سائر أنحاء القطر . وقد بسط سلطته فى الخارج فأرسل جيشا الى الجزء الشمالى للنوبة[٣] الذى هو بين الشلال الأول ومدينة ادفو . قال مانيتو ان هذا الملك تنعم بحكم طويل وسجل له التاريخ ذكرا مخلدا وهو أمر واضح جلى . ودفن بالصعيد بالقرب من طينه مسقط رأسه (جهـة العرابة) أو شمالى ذلك بقليل جوار قرية نجاده الحديثة حيث عثر على مقبرة مشيدة باللبن يحتمل أنهـا له وفى هـذه المقبرة وفى أمثالها بالقرب من العرابة عثر على عدّة آثار من عهد الأسرة الأولى كبعض الحلىّ الواردة صورتها بهذا الكتاب والمنقوش اسم الملك مينا مؤسس الدولة المصرية القديم عليها (شكل١٣) .

لقد عرفنا الآن كثيرا من أخبار ملوك الأسر الأولى المصرية بعد ما كنا نجهـل عنهم كل شىء سوى أسمـائهم . أما معلوماتنا عنهم فعمومية لكنها قيمة وليس منتظرا أن نصل يوما من الأيام الى تاريخ كل أفراد هذه الأسر ولا يسع الباحث فى مآثر هؤلاء الا أن يعترف بأنهم صرفوا كل همهم نحو تأسيس المملكة المصرية واصلاحها وتقدمها . أما الملك فكان يلقب وقتئذ "حوريس" نسبة الى ما ورثه من هذا المعبود فى عرش مصر . وقد رسم الباز (رمز حوريس) فوق الآثار الملكية بشكل

---

(١) ويحتمل وجود اسم آخر على حجر بالرمو وبمقبرة متن (Methen) راجع ١ : ١٦٦

(٢) ١ : ٩٠ (٣) Newberry Garstang, History, 20 (from unpublished evidence?)

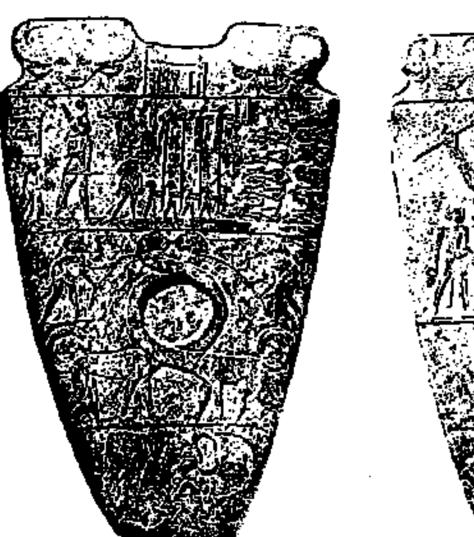


شكل ١٧ — أربع أساور على ذراع سيدة يرجع
تاريخها الى زمن الأسرة الأولى . عثر عليها الأستاذ
بترى بجهة العرابة . محفوظة الآن بدار تحف القاهرة



شكل ١٨ — أحد ملوك الأسر الأولى يشق الارض
احتفالا بحفر قناة جديدة (مأخوذة عن المستر كويبل)





شكل ١٩ — لوح بديع النقش يعرض فى الاحتفالات مصنوع من حجر الأردواز
أهداه الملك نارمر (من الأسرة الأولى) الى معبد مدينة نخن (هيراكونبوليس)
(مأخوذة عن كويبل)

مستطيل يمثل باب القبر الوهمى (الذى تخرج وتدخل منه الروح) وبداخله اسم الملك الرسمى . أما اسم الملك الشخصى فيكتب مسبوقا برسم الزنبور (رمز الوجه البحرى) وفرع البردى (رمز الوجه القبلى) اشارة الى أن هذين القطرين قد خضعا له . ويصحب هذه الرموز غالبا رمزان آخران هما العقاب (وهو رمز نخبيت معبودة مدينة الكاب عاصمة الوجه القبلى) والصل (رمز بوتو معبودة عاصمة الوجه البحرى) . ويشاهد النسر على رءوس التماثيل للملوك تلك الأزمنة مرفرفا بجناحيه ليحميهم من الأذى . ثم أخذت الملوك بمرور الزمن تضع فوق الجباه صلا (معبود المملكة البحرية) مشيرين بذلك الى بسط نفوذهم على الدلتا . ويرسم أحيانا المعبود ست مع المعبود حوريس قبـل اسم الملك الشخصى اشارة الى ضم القطر المصرى تحت معبودى وجهيه البحرى والقبلى . وجرت العادة أن يتوج الملك أحد تاجى الوجهين ويطلق عليه اسم "صاحب السيادتين" . ومنه يتضح أن قدماء المصريين لم يجدوا وسيلة للدلالة على حكم ملوكهم لقطرى مصر الا اتبعوها . وقد عثر على ألواح حجرية بها رسوم تمثل بعض الملوك مشتركين فى احتفالات رسميـة يتقدمهم أربعـة أشخاص حاملين الأعلام أما الملك فيصحبه فى هذه الاحتفالات مستشاره وخادمه الشخصى أو أحد كتابه أو اثنان من حاملى المراوح . ويشاهد جلالته أحيانا متوجا تاج مصر العليا أو السفلى أو التاج المزدوج . أما الزى الملكى فهو رداء يثبت فوق الكتف وينتهى من الخلف بذيل أسد . بهذه الكيفية احتفل الملوك بانتصاراتهم الحربية أو بحفر الترع (شكل ١٨) أو تشييد العمارات العمومية . وجرت العادة أن يحتفل الملك احتفالا عظيما بمرور ثلاثين عاما على جلوسـه فوق العرش وأن يعرف هذا الاحتفال باسم سـد أى الذنب اشارة على الأرجح الى مرور تلك المـدة على ارتدائه الثوب ذا الذنب . واشتهر ملوك تلك العصـور بالصيد وبرعوا فيـه وباهوا بصيد جاموس البحر واستعملوا لذلك الأسلحة الثمينة المتقنة كما سـترى بعد . وأطلق على القصور أسمـاء مخصوصة وأحيطت بالبساتين اليانعة والكروم الكثيرة المختلفة الأسمـاء وتعهد خدمتها ومحصولاتها موظفون اخصائيون . أما أثاث هذه القصور فكان غاية فى الأبهة والجمال وسلامة الذوق فمنه الأوانى البديعة المتقنة المصنوعة من أحجار ذات عشرين نوعا ومن أهمها المرمر (شكل ١٤) ولم تعق القوم صلابة بعض الأحجـار كالصوان فصنعوا منهـا الأوانى الشفافة التى تأخذ بالألباب وقد عثرنا على أوان عديدة مصنوعة من أحجار بلورية غاية فى الجمـال . أما صناعة الخزف فانحطت عما بلغته قبل حكم الأسر لكثرة استعمال الأحجار فى صنع الأوانى وغيرها . وعثر على صناديق صغيرة من الآبنوس والعاج وبعض المقاعد ذات الأرجل العاجية المصنوعة على مثـال أرجل الثيران (شكل ١٥) . وكفى بمـا ذكرناه دليـلا على تقدم عظيم فى مصـنوعات ذلك العصر . أما الأثاث الهش فبلى معظمه . والمعروف أن أهل ذلك العصر برعوا فى تلميع الأوانى الخزفية ونجحوا فى ترصيع ألواح الحلى الحجرية والعاجية وصناعة الأوانى والطاسات والأباريق النحاسية للقصر الملكى (شكل ١٦) وكذا الآلات النحاسـية العديدة التى سـاعدت الصناع كثيرا على اتقان الأوانى الحجرية . وبلغت الصـياغة شأوا عظيما من حيث سـلامة الذوق وبراعة الاتقان كما هو ظاهر فى حلى الملك ونسـاء

الأسرة الملكية حيث تشاهد جمال الصنع وكثرة الترصيع بالأحجار الكريمة (شكل١٣) و(شكل ١٧)[١] بشكل يحاكى أعمال صاغتنا الحديثين . أما المصنوعات اليدوية فتقدمت كثيرا لأن فنى الحفر والرسم تحسنا بعد ما كانا فى مبدئهما قبل الأسر فظهرت الرسوم البارزة البديعة والتماثيل الجميلة التى تشهد لصانعيها بالمهارة والاجتهاد .

وعثر فى معبد حوريس بمدينة الكاب على ألواح حجرية للزينة وصوبجانات وأوان بارزة النقوش أهداها الملوك وقتئذ الى المعابد تتجسم فيها مهارة الصانع وطول باعه (شكل ١٩)[٢] . وبالامعان فى صور الحيوانات والآدميين من رسم تلك العصور يتضح لنا مهارة هؤلاء القوم فى الرسم ودرجة رقيهم التى بلغوها فيه والتى تمرنوا عليها عدة سنوات . ولما حكمت الأسرة الثالثة أخذت المصنوعات المصرية تتحسن على مرور الزمن فنجم عن ذلك أن تقيدت حرية الصانع فى فنه حتى اضطر أن يتبع فى ذلك أسلوبا واحدا لا يحيد عنه . ويشاهد هذا الأسلوب الفنى فى تماثيل الملك خاسخم التى روعيت فى صناعتها هيئة الجلوس وسحنات الوجه وهى نقط فنية احتذيت فى التصوير بعد ذلك (شكلى ٢٠ و ٢١) .

ويرجع الفضل فى اظهار معظم آثار تلك الأزمنة القديمة الى الأستاذ فلندرس بترى الذى قام بعدة مباحث جهة العرابة بذمة شريفة وهمة صادقة فكشف مقابر ملوك الأسرتين الأوليين . وبفحص هذه المقابر اتضح لنا أن هندسة العمارة تقدمت كثيرا فأخذت المقابر شكلا مستطيلا وكبرت فى الحجم وكسيت أرضها باللبن ثم غطيت بعد ذلك بطبقة خشبية . وأحجم القوم عن وضع أوانى الغذاء والشراب حول الجثة فشيدوا لذلك حجرا صغيرة مجاورة ومتصلة بحجرة الميت . ومن دواعى الأسف أننا لم نعثر على جثث ملوك تلك الأزمنة لعبث اللصوص بها (شكل ٢٢) و (شكل ٤٢) . لكنا وجدنا بالجهة الشرقية لمقابر العرابة الملكيه شاهدين طويلين كتب عليهما اسما ملكين مدفونين هناك . ويوجد على أحد جانبى الغرفة الوسطى بهذه المقابر سلم مبنى باللبن يوصل الى الخارج (شكل ٢٣) . وجرت العادة أن يدفن مع الملك حاجاته من الأثاث المزخرف والأوانى الثمينة والخوابى والدنان والأوعية والأباريق المعدنية وأدوات الزينة الشخصية وغير ذلك مما يقتضيه المقام الملكى فى الآخرة . واستعملت الحجر الصغيرة المحيطة بلحد الجثة لتخزين كل ما يحتاج اليه المتوفى من غذاء وخمر فى أوان خزفية كبيرة مسدودة بصمامات محكمة من طين النيل الممزوج بالقش والمختوم وقت رطوبته باسم الملك

(١) الدمالج المرسومة فى شكل ١٧ مصنوعة من الذهب المطعم بالجمشت والفيروز ويلاحظ فى الدملج العلوى رسم وردة من الذهب بديعة للغاية . ولم نهتد للآن الى فائدة القوس الذهبى الوارد رسمه فى شكل ١٣

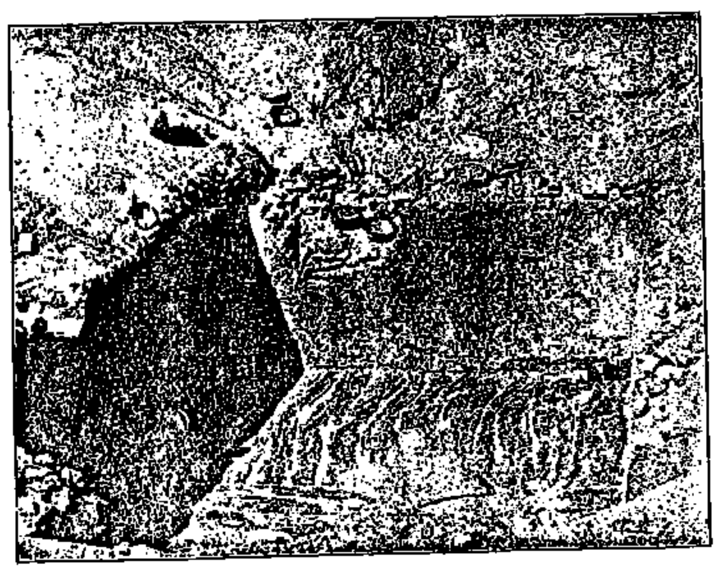
(٢) يشاهد فى شكل ١٩ رسم وجهى أكبر هذه الألواح الأردوازية . ففى الصف الأول بالصورة اليسرى يشاهد الملك متبوعا بحامل نعليه ومسبوقا بأربعة من حملة الأعلام وبوزيره وقد أقيم هذا الاحتفال بمناسبة الاطلاع على رءوس الأسرى المقطوعة . أما الصف الأوسط فيحوى رسمين لحيوانين خياليين لا ندرى كنههما . وأما الصف الأسفل فيحوى رسما للملك على شكل ثور يحطم مدينة مسورة ويدوس عدوه . ويشاهد فى الصورة اليمنى الملك يصعق عدوا له . ثم رسم باز (الملك) قابضا باحدى ذراعيه على اشارة الوجه البحرى الحاوية رأس انسان موثوق الفم . ويلاحظ أسفل الصورة رسم الأسرى ساقطين .



شكل ٢٠ – صورتان شمسيتان لرأس تمثال الملك خاسخم مأخوذتان من ناحيتين مختلفتين . ويرجع تاريخ هذا الملك الى زمن الأسرة الأولى (مأخوذ عن كويبل)



شكل ٢١ – تمثال الملك خاسخم المصور رأسه فى شكل ٢٠



شكل ٢٢ – حجرة قبر الملك إنزيب المغطى أرضها بالخشب والمشيد جدرها باللبن . موجودة بجهة العرابة المدفونة ويرجع تاريخها الى الأسرة الأولى (مأخوذة عن پترى)

وعنوان المصنع . واعتاد الملوك أن يقفوا جزءا كبيرا من مزارعهم لشراء غذاء ونبيذ وقربانات تقدم لهم بعد الوفاة على موائد القبور كى يأكلوا منها هم وأهلهم وأتباعهم المدفونون حولهم والبالغون أحيانا مائة أو مائتين . وكان المتبع وقتئذ أن يدفن فى جوار الملك أقرانه الدنيويون كزوجته وحرسه حتى مضحكه القزم ظنا منهــم أن هؤلاء سيقومون بخدمة سيدهم فى الآخرة كما فعلوا فى دنياهم . هكذا صار نظام المقابر الملكية من قديم الزمان وهو كما لا يخفى مقام على أساس ضمان النعيم الأخروى .

ورغب القوم فى الاحتفاظ بمسكن أبدى لجثث ملوكهم فأثر ذلك كثيرا فى فن العمارة . فمقـابر الأسرة الأولى تثبت استعمال الجرانيت بلاطا ويشاهد ذلك بأرض مقبرة الملك يوسفَّايس . وفى نهاية الأسرة الثانية استعمل الحجر الجيرى المنحوت فى تشييد الحجرة الوسطى من مدفن الملك خَاسِخِمْوِى ولذلك اعتبرت هذه الغرفة أقدم بناء حجرى معروف للآن (شكل ٢٥) . وورد فى الآثار أن سلف هذا الملك (ويرجح أنه والده) شيد معبدا حجريا وقد عثرنا على عضادة باب من الجرانيت لمعبد بمدينة الكاب شيده الملك خاسخموى ومنه يتضح أن فنى الهندسة والعمارة بلغا فى تلك العصور درجة عظيمة . وجاء فى الآثار أن القصر الملكى خصص لعمارته مهندســون عديدون ولكننا لا نزال نجهل الكثير عن ذلك لضآلة آثار تلك الدهور .

وكان مستشار الملك أعظم مساعد له فى الحكم فُرِسَم عادة تابعا له فى الاحتفالات الرسميــة كما ألمعنا سابقا . وكان للحكومة موظفون عديدون على اتصال بالقصر الملكى بمدينتى (ب) و(نخن) بالوجهين البحرى والقبلى عهد اليهم فى حفظ العدالة والنظام فى الدولة . وشغل الأمراء فيما بعد هذه الوظائف وسيأتى الكلام على ذلك . واستدل من أختـام الموظفين على صمامات أوانى المقـابر ومن قائمة حســاب أحد الكهنة التى وجدت بمقابر العرابة الملكية أنه كان هناك موظفون ملكيون مهمتهم الاشراف على مصروفات الموتى . وكثيرا ما يشاهد هــذا التدقيق والاعتناء فى أوقاف مقابر المصريين ومنه استدل على شدة المراقبة المـالية على خيرات وقرابين الموتى وقتئذ . ووجد بأختام تلك القرابين ما يشير الى وجود عدة ادارات "كادارة التموين" غرضها الأول التأكد من صحـة توزيع الأوقاف الخيرية بالطرق المشروعة . ولمـا كانت مالية الدولة المصرية تتكون من مالية الوجه البحرى المعروفة "بالبيت الأحمر" ومالية الوجه القبلى المسماة "بالبيت الأبيض" فان الباحث يجد بين النقوش الملكية ما يشير مثلا الى "حديقة البيت الأحمر من الأملاك الملكية" . والظاهر أن ضم الوجه البحرى للقبلى كان تحت اشراف الملك مباشرة . ثم أبطلت ادارة "البيت الأحمر" وأتبعت "للبيت الأبيض" فأصبح هــذا الأخير فى ذلك الوقت مركز البلاد المـالى الحقيقى . أما مالية الوجه البحرى فكانت تذكر على الآثار اسميا من قبيل الرسميات فقط . ومنه يستنتج أن ضم الوجه البحرى تحت ادارة الوجه القبلى كان متعذرا فى بادئ الأمر على الملك مينا وأن ذلك تطلب مدة طويلة . واعتبر القوم ملكهم صاحب الحق المطلق فى التصرف بأراضى الدولة المصرية لذلك كان يقسمها ويوزعها على الأمراء ليشرفوا عليها ويديروا أعمالها كما كانت الحال فى العصور التالية لكننا لا نزال نجهل نوع السلطة التى منحت لهؤلاء الأمراء . والمظنون أن معظم أهـالى تلك المقاطعات (عدا الصناع والتجار)

اعتبروا عبيدا للامراء يعيشون فى مدن مسورة باللبن الثقيل ويخضعون لأوامر رؤسائهم . وأهم مدن ذاك الوقت الكاب و بوتو وضاحيتاهما نخن المعروفة عند اليونان باسم (Hieraconpolis) و (پ) وكذا مدينة الحائط الأبيض المعروفة فيما بعد بمنف ومدينة طينه (Thinis) مسقط رأس ملوك الأسرتين الأوليين ثم العرابة ومدينة عين شمس واهناس وهى المعروفة باسم (Heracleopolis) وصا الحجر (سايس) وغيرها من المدن أخذت تزداد فى الأهمية منذ حكم الأسرة الثالثة .

وجرت العادة أن يقوم موظفو الحكومة الماليون باحصاء عام للأملاك الفرعونية كافة كل سنتين وأن يتخذ هذا الاحصاء وسيلة لتوقيت الحوادث فكان يقال مثلا ان حادثة كذا وكذا حصلت فى "سنة الاحصاء الأول" أو فى "السنة التالية للاحصاء الأول" أو "سنة الاحصاء الثانى" وهكذا على حسب ما تقتضيه الحال . واعتاد المصريون أن ينسبوا شؤونهم الى وقت معين ذى حوادث هامة كسنة قتال الأعداد المعروفين عند الأثريين باسم (Troglodytes) وهذه القبائل سحقت اثر قتالهم مع المصريين . ولما كان الاحصاء يعمل سنويا سهل على القوم توقيت شؤونهم بالنسبة اليه . أما الأعمال التجارية والمالية فكانت تصفى كل شهر بحساب الشهر القمرى رغم عدم استعمال السنة القمرية فى الشؤون الرسمية . ولا يخفى أن مثل هذا النظام الادارى استلزم تدوين كل كبيرة وصغيرة فلا عجب اذا بلغ الخط الهيروغليفى وقتئذ درجة كبيرة من حيث الدقة والاتقان وقد اختزل هذا الخط يسيرا فسهل تداوله بين الكتاب (شكل ٢٧) . ورغما عما يحتويه الخط الهيروغليفى من الحروف المركبة فهو يحوى أيضا حروفا هجائية بسيطة . والفضل فى كشف حروف الهجاء يرجع الى قدماء المصريين الذين توصلوا الى معرفتها منذ نحو ألفين وخمسمائة سنة قبل سائر الأمم . ولما كان المصرى بطبيعته شديد التعلق بالعادات ثابر على استعمال الحروف الهيروغليفية المركبة على الرغم من وجود أربعة وعشرين حرفا هجائيا لذلك الخط ومرور ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة على كشف هذه الحروف . والحق يقال ان ترجمة نصوص تلك العصور ليست بالأمر الهين لأننا لا نزال نجهل معنى معظمها . وقد دوّن أبناء ذلك الوقت بعض معلومات طبية ودينية صار لها فيما بعد تأثير عظيم عند العامة وسجلوا أيضا حوادث تلك العصور باختصار فى كل سنة الى آخر أيام كل ملك . لكننا لم نعثر الا على صورة واحدة من تلك السجلات مدونة على حجر أثرى يعرف بحجر بالرمو[1] (نسبة الى دار التحف بمدينة بالرمو المحفوظ بها)[2] (شكل ٢٩) .

ولما كانت معلوماتنا عن العقائد الدينية لأبناء تلك العصور لا تذكر لقلتها أصبحت معارفنا مقصورة على ديانة الحكومة وقتئذ ومن دواعى الأسف أنه لم يصل الينا الا النادر من عقائد الأهالى فى زمن الأسر التالية لعدم اعتناء القوم بتدوينها تدوينا ثابتا . والمعروف أن معبد الملك مينا الرسمى

---

(١) ١ : ٦٠ ب — ١٦٧ (٢) أوردنا بشكل ٢٩ صورة لمقدم هذا الحجر ومنها يتضح أن النصوص الواردة بعد السطر الأول تقع فى أشكال مستطيلة كل مستطيل يمثل سنة . ويرى أعلى كل سطر اسم الملك الذى يخصه صف السنوات المذكورة أما مقدم الحجر فيحوى تواريخ ملوك مصر قبل عهد الأسر (السطر الأعلى) وملوك الأسر الأولى والثانية والثالثة . وأما المؤخر فيحوى تواريخ الملوك حتى الأسرة الخامسة .

كان بسيط التركيب مكونا من حجرة خشبية لاقامة شعائرالدين يحيط بها حاجز من الحصر (شكل ٢٧) وكان للعبد حوش ينصب فيه سار تعلوه شارة المعبود . ثم ساريان يظن أنهما أصل المسلات التي شيدت فى الأزمنة التالية أمام المعابد . وفى النصف الأخير من حكم الأسرة الثانية شيد الملوك معابدهم بالحجر[1] وسجلوا على آثارهم اهتمامهم بتلك المعابد وشدة عنايتهم باقامتها ووضع أساسها وتخطيطها . أما آلهة ذلك الوقت فاهمها أزوريس وست وحوريس وأنوبيس وتحوت وسوكار ومِن وآبيس (أحد أشكال بتاح) . وأما الإلهات فاهمها حاتحور ونيت . وبقيت منزلة هؤلاء الآلهة شامخة فى نفوس القوم حتى العصور التالية . وترجع عبادة بعض هذه الآلهة مثل حوريس الى ما قبل عهد الأسر الفرعونية وتكوين مملكتى الوجه البحرى والقبلى . وحوريس أكبر الآلهة مقاما وشأنا عند المصريين أيام الأسر الأولى وقبلها ، ويليه فى المنزلة المعبود رع . وكان لحوريس جهة الكاب معبد له روعة يقيمون فيه كل ستين احتفالا عظيما يعرف "بتقديس حوريس" ورد ذكره فى النصوص الملكية (شكل ٢٩)[2] واستمرت عبادة حوريس مدى التاريخ فلقب الفراعنة أنفسهم " خلفاء حوريس" مدة حكم العهد الطينى . لكن لما تولت الأسرة الثالثة المنفية انحطت عبادة حوريس وأهملت . أما كهنة تلك العصور فكانوا عمالا وفعلة مقسمين الى أربعة درجات واستمروا كذلك الى العصور التالية .

وكانت مدة حكم الأسرتين الأوليين التى تقرب من أربعمائة سنة مقرونة بنمو مطرد فى قوة المملكة الداخلية وحضارتها . وللآن لم نعلم شيئا عن تاريخ الملوك السبعة الذين خلفوا مينا فى الحكم لمدة مائتى سنة تقريبا الا ما يخص اثنين هما مِيبِيس و يوسفايس وكذا بعض آثار لاثنى عشر ملكا من بين الثمانية عشر ملكا الذين حكموا تلك المدة وكان كل هم هؤلاء الملوك ارضاء الوجه البحرى والاحتيال على ضمه نهائيا للصعيد . لكن هذا الأمر لم يكن بالهين فقد ألمعنا سابقا الى أن هذين الوجهين كانا فى الحقيقة مستقلين استقلالا داخليا تحت اشراف ملك الوجه القبلى . بعد ذلك أخذ الملوك يحتفلون بتتويجهم بعيد " ضم الأرضين " (أى الوجهين البحرى والقبلى)[3] وأطلقوا هذا الاسم على السنة الأولى من حكم كل منهم . ومع ذلك فلم يتمكنوا من اقناع الأمة بهذا الضم بسرعة لحداثته فى الأذهان وقتئذ ولهذا السبب شق الوجه البحرى عصا الطاعة على الوجه القبلى مرارا ، مثال ذلك ما ورد على الآثار من أن الملك نارمرْ الذى يرجع تاريخه غالبا الى مبدأ حكم الأسر شن الغارة على الليبيين غربى الدلتا وأسر منهم حوالى مائة وعشرين ألف نسمة عدا مليون وأربعمائة وعشرين ألفا من الأغنام وأربعمائة ألف من البهائم . وكانت هذه الغارة بمثابة طرد عام لهم . وعثر أيضا بمعبد مدينة الكاب على لوح أردوازى لهذا الملك (شكل ١٩) مصحوبة برأس صولجان بديع الصنع مرسوم عليه احتفالات فى مصر قام بها الملك . وورد أيضا على الآثار أن الملك نترِءو حارب مدينة " شِمرَعْ " ومدينة "بيت الشمال"[4] الموجودتين بالوجه البحرى . وجاء أيضا أن الملك خاسخم من الأسرة الثانية حارب

(1) ١ : ١٣٤ (2) ١ : ٩١–١٦٧ (3) ١ : ١٤٠ (4) ١ : ١٢٤

الوجه البحرى فى سنة سماها "عام حرب وقصاص الوجه البحرى" أسر فيها حوالى سبعة وأربعين ألفا ومائتين وتسعة أسرى ودوّن ذلك فى معبد حوريس بمدينة الكاب حيث قدم اناء مرمريا[١] نقش عليه اسمه الملكى واسم ذلك العام وكذا تمثالين يدعين له سجل عليهما عدد أسراه[٢] (شكلى ٢٠ و ٢١). بعد ذلك ورد فى الآثار الدينية أن الوجهين البحرى والقبلى اتفقا نهائيا أمام المعبود أزوريس[٣].

ورغما عمــا أصاب ماليــة الوجه البحرى من النقص والضعف أثر حملات الوجه القبلى فان موارد القطر عامة زادت وتقدمت بدليــل زيادة الأوقاف الملكية وكثرة المعابد والقصور والقلاع والاحتفالات بحفر الترع (شكل ١٨) واقامة أسوار للمدن كنف . كل ذلك يثبت بلا مراء مابلغه القطر من الرقى العظيم فى الهندسة والادارة . ولا يخفى أن المصريين أول من زاول التعدين اذ ورد على الآثار أن الملك سمرخت الذى يرجع تاريخه (غالبا) الى الأسرة الأولى أوفد بعثة لاستخراج النحاس من مناجمه بوادى مغارة بشبه جزيرة طورسيناء رغما عن أخطار البــدو المتوحشين التى اعترضت تلك المشاريع وقد أخبرنا الملك المذكور أنه عاقب هؤلاء البدو وأثبت ذلك على صخور وادى مغارة (شكل ٢٨)[٤] واستــدل من نقوش قطع عاجية أن الملك يوسفايس من الأسرة الأولى أغار على سكان وادى مغارة المذكور وانتصر عليهم انتصارا باهرا ورسم نفسه قاتلا أحد أبناء تلك الجهة الملقب (بشرق) جاثيا على ركبتيه (شكل ٢٦) . وممـا جاء فى هذا اللوح أن هذه الغزوة أول غزوة للشرقيين ومنها فهم ضمنا أن هذه الغارة تكررت فى عهد فرعون وأن الملك يوسفايس انتظر القيــام بغزوة ثانية . ووجد على نقوش حجر بالرمو[٥] ما يشير الى أن الملك مايبيس (Miebis) من الأسرة الأولى شن الغارة على أهالى سكان تلك الجهات المعروفين لدى الأثريين باسم (Troglodytes) ولم يقتصر نفوذ الأسرة الأولى على طورسيناء بل تعداه بدليل ما وجد فى مقابر هؤلاء القوم من أجزاء أوان خزفيــة أجنبية كثيرة الشبه بمصنوعات جزر البحر الأبيض المتوسط . فلو صح أن هذه الأوانى صنعت حقيقة وقت دفن هؤلاء الملوك لثبت أن العلاقات التجارية بلغت أرخبيل اليونان فى الألف الرابع قبل الميلاد . ورغما عما قام به ملوك الأسرة الأولى من الغزوات الشرقيــة والتجارة الشمالية فقد وردت نقوش على أسطوانة من العاج[٦] تفيد أن الملك تارمر اضطر أن يغزو الليبيين القاطنين غربى مصر كما ذكرنا سابقا . ووجد ما يدل على أن الملك يوسفايس شن الغارة على سكان جنوبى الصحراء الشرقية لبسط الأمن فى تلك الجهة كى يتمكن من استخراج الجرانيت من محاجرها ليبلط احدى حجر قبره بالعرابة .

(١) Hierac. I. pl. XXXVI-VII.
(٢) Ibid., pl. XXIX-XLI.
(٣) Louvre Stela C. 2.
(٤) Weill, Rev. Arch., 1903, II, p. 231, and Recueil des Inscr. Égypt. du Sinai, p. 96.
(٥) I, 104.
(٦) Hierac, I, pl. XV, No. 7.



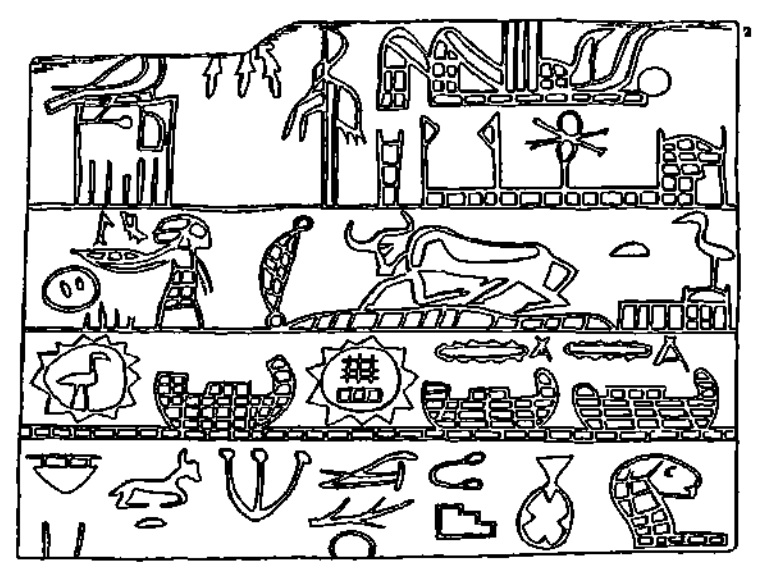
شكل ٢٣ – قبر الملك يوسفايس المشيد باللبن بالعرابة المدفونة من الأسرة الأولى (مأخوذ عن پترى)

شكل ٢٤ – جرات مختومة لحفظ المأكل والمشرب وجدت بقبر من نبت من عهد الأسرة الأولى بجهة العرابة المدفونة (مأخوذة عن پترى)

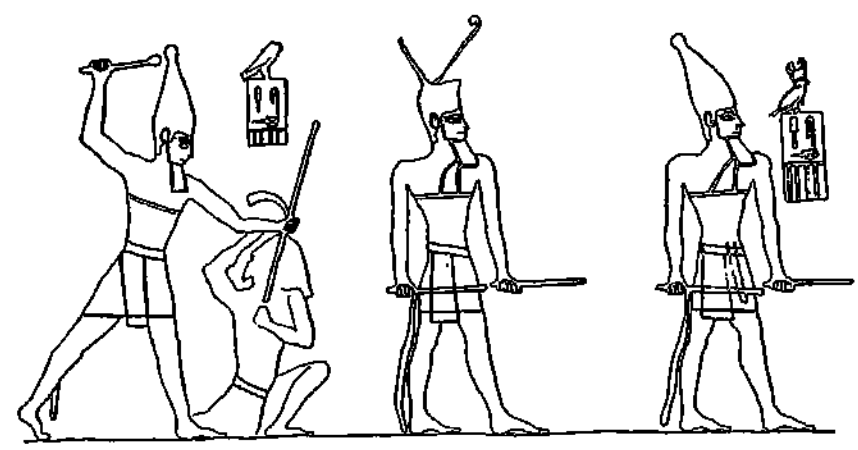
شكل ٢٥ – أقدم بناء حجرى فى العالم ، حجرة مشيدة بالطوب الجيرى بقبر الملك خاسخموى من الأسرة الثانية بجهة العرابة المدفونة (مأخوذ عن پترى)



شكل ٢٦ – لوح من العاج للملك يوسفايس باسم "تيرقيا" من الأسرة الأولى (مجموعة آثار ماك جرجور)



شكل ٢٧ — لوح من العاج للملك مينا أول ملوك الأسرة اولى وجد بالعرابة يرجع تاريخه الى حوالى سنة ٣٤٠٠ قبل الميلاد تشاهد عليه نقوش تعتبر من أقدم النقوش الهيروغليفية المعروفة للآن . وهو مقسم الى أربعة أقسام : فالقسم العلوى يحوى فى طرفه الأيسر رسم الباز الملكى الخاص بالملك مينا وفى طرفه الأيمن رسم معبد منصوب فى حوشه رمز المعبودة نيت وتعلو هذا الرسم سفينة . أما القسم الثانى فيشاهد فى طرفه الأيسر الملك مرسوما قابضا على وعاء يميز باسم "مزيج الذهب والفضة" ومقدما القرابين أربع مرات ويشاهد فى الطرف الأيمن رسم ثور داخل حوش يعلو أحد أطرافه طائر (الفنيكس) . والقسم الثالث يحوى رسم النيل تمخر فيه السفن وتشرف عليه المدن وتعترض مجراه الجزر . والقسم الرابع يحوى رسوما هيروغليفية قديمة غير مفهومة



شكل ٢٨ — الملك سمرخت من الأسرة الأولى يهاجم "بدو يا" من طورسيناء . وجدت هذه النقوش محفورة على صخور وادى مغارة وهى أقدم آثار تلك الجهة وأقدم الرسوم الكبيرة المعروفة الآن (مأخوذة من فيل)

هكذا أسس الفراعنة الطينيون بناء المملكة المصرية ووقوا أخلاقها ومدنيتها ورغما عن قلة آثارهم فان أعمال ملوك الأسرتين الثالثة والرابعة كافية لاثبات ما بلغته حالة البلاد الاقتصادية من العظم والقوة مدة حكمهم. وقد كشف الى الآن فى جهة العرابة تسعة مقابر لملوك هاتين الأسرتين ومنها لاحظنا أنه بعد انقضاء نحو ألف سنة على دفنهم نسى القوم تاريخ تلك المقابر وتفرسوا فى مقبرة زرْ أحد ملوك الأسرة الأولى فظنوها مقبرة أزوريس[1] لذلك وجدت أوان كثيرة بتلك المقبرة قدّمها القوم هدايا وقربانا الى المعبود أزوريس . ومن دواعى الأسف أن جثث هؤلاء الملوك انتشلها لصوص شرهون بتروا أعضاءها كى يحصلوا على مصاغها وأحجارها الكريمة. وكل ما وصل الينا منها هو ذراع جافة لزوجة الملك زر وجدت بحفرة داخل حائط قبرها حيث أخفاها أحد اللصوص وقت ارتكاب الجريمة قصد انتشالها فيما بعد فى الوقت المناسب . ووجد على هذه الذراع حلى بديع وأثواب جميلة تكسوها (شكل ١٧) ولا يبعد أن سارق هذه الذراع اتضح أمره وقتئذ فأعدم لذلك وبقيت الذراع شاهدة على جنايته الشنيعة . والفضل فى العثور على هذا العضو يرجع الى الأستاذ پترى الذى وجده بمساعدة عماله المهرة عام ١٩٠٢ ميلادية .

---

(١) ١ : ٦٦٢



شكل ٢٩ — حجر بالرمو . منقوش عليه بعض تاريخ الملوك الأقدمين الذين يقع زمنهم قبل حكم الأسر الفرعونية ومنتصف حكم الأسرة الخامسة . ويرجع تاريخ هذا الأثر الى منتصف الأسرة الخامسة

الكتاب الثانى

المملكة القديمة

الفصـــــل الرابع

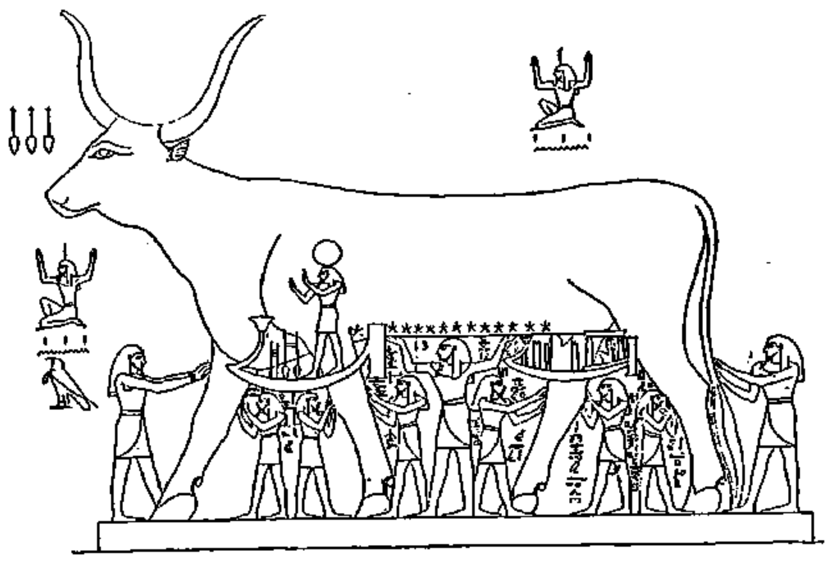
الديانة القديمة

الدين أعظم العوامل تأثيرا فى نفوس قدماء الآدميين لأنه يفسر لهم سر هـذا الكون بتعاليمه الجذابة ويردعهم بزواجره الرهيبة ويشجعهم بآماله المستديمة ويؤرخ لهم أوقاتهم بأعياده ويقدمهم فى الفنون والآداب والعلوم بارشـادهم نحو الطريق المستقيم . والمصرى القديم كغيره من الأقوام المعاصرين له رأى قوة آلهته مجسمة فيما حوله من المخلوقات كالأشجار والأعين والصخور والتلال والطيور والوحوش فاعتقد هذه الكائنات رموزا للقوة العجيبة والسلطة الخالقة البعيدة عن ادراكه والحال أنها مخلوقة مثله . ثم نظر أيضا الى أرواح بعض هذه المخلوقات نظرة صديق فظنها مدافعة تدرأ عنه الأذى والضرر . وأعتقد أن أرواح البعض الآخر أعداء له تعمل لخداعه والكيد له وتتنسم الفرص للاضرار به وتوجيه الأمراض اليه ولذلك سهل عليه تأويل سبب كل ضرر يصيبه أو مرض يعتريه . وأعتقد أيضا أن كل مكان فى القطر المصرى تسكنه أرواح معينة معروفة من السهل ارضاؤها والانتفاع بمساعدتها بطرق سهلة . وما أندر ما وصلنا عن هذه الاعتقادات أيام المملكة القـديمة لكننا سنتكلم عنها يسيرا فى عهد الامبراطورية . وليلاحظ أن المصرى لم يقتصر على اعتقاده وجود الأرواح على الأرض بل تخيلها أيضا فى السماء وفى الأرض . ولمـا كانت المعيشة فى وادى النيل على نسق واحد بديعة المنظر أحيانا كانت تخيلات المصرى وقتئذ مقصورة عليها . والمصرى بطبيعته بطىء التأثر بمحاسن الطبيعة على عكس اليونانى الذى أثرت فيه محاسن بلاده أعظم تأثير . لذلك نرى أن بعض قدماء المصريين من الرعاة والزراع الذين يرجع تاريخهم الى مبـدأ حكم الأسر تخيلوا السماء على شكل بقرة كبيرة قائمة فى الفلك على أرجلها الأربع متجهة الرأس نحو الغرب ، ثم تصوروا الأرض بين رجليها الأماميتين والخلفيتين واعتبروا السماء بطن البقرة مزدانة بالنجوم (شكل ٣٠) . وتخيل فريق آخر السماء على شكل امرأة منحنية الجسد مستندة الى الأرض شرقا بطرفى رجليها وغربا بطرفى يديهـا (شكل ٣١) . وتراءى لطائفة أخرى أن السماء محيط مائى عظيم مرفوع فوق أربعة عمـد فى أركانه الأربعة . ولمـا اختلط الناس بعضهم ببعض تبادلوا الآراء فانبهمت عليهم حقيقة الأمر وصعب على الباحث الاهتداء الى الأصل . وأعتقد الذين تخيلوا السماء بقرة أن الشمس تشرق بهيئة عجلة واعتقد الذين تخيلوا السماء امرأة أن الشمس تشرق بشكل طفلة مولودة تجوب السماء فى سفينة سماوية ميممة نحو الغرب حيث تأفل بشـكل رجل هرم موشك على الهلاك (شـكل ٣٢) . ورأى البعض سرعة طيران النسر فأعجب به وتخيل للشمس جناحين مثله تطير بهما فى الأفق ، لذلك صار قرص الشمس رمزا دينيا هاما .

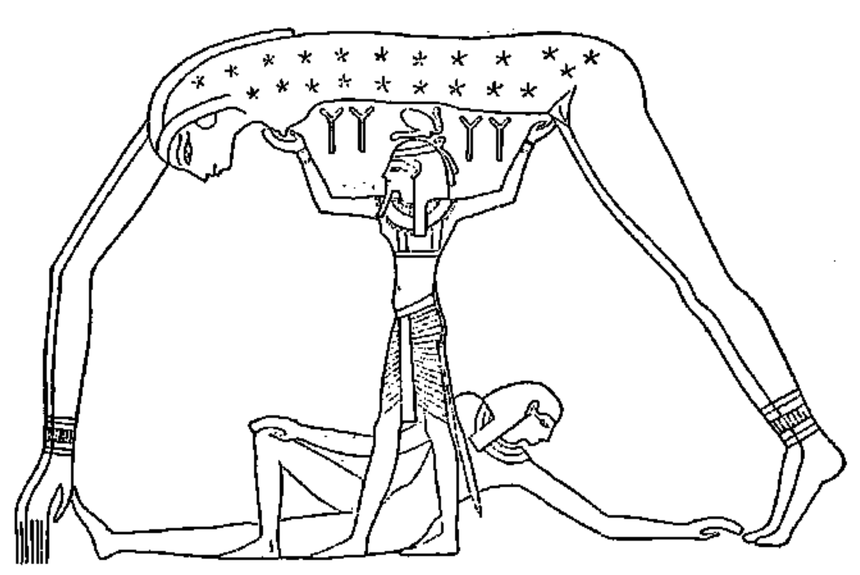
أما الأرض — التي تحصر في نظر المصريين الأقدمين في وادي النيل — فتخيلها القوم بشكل رجل منبسط على بطنه ينمو على ظهره النبات ويتحرك الحيوان ويعيش الانسان . والذين تخيلوا السماء محيطا مائيا تمخر فيه الشمس واللآلئ السماوية غربا تصوروها طريقا مائيا شبيها بالنيل واصلا طرفي المحيط السماوي الشرقي والغربي بعضهما ببعض مسهلا بذلك انتقال الشمس من الغرب الى الشرق. وتخيلوا أيضا أن هذا النيل الأسفل يخترق في سيره عدة مغارات ومفاوز وعرة وأنه يمد النيل الأرضي بالمياه اللازمة لحياة المصريين آتية من كهفين كبيرين جهة الشلال الأول. من ذلك يتضح أن أصحاب هذا المذهب اعتقدوا أن الدنيا تنتهي عند الشلال الأول حيث يبدأ اليم العظيم المتصل بالنيل جنوبا وبالبحر الأبيض المتوسط شمالا. من أجل ذلك لقبوا هذا المحيط "بالحلقة العظمى"[1] . ولما سرى هذا الرأى الى اليونانيين أطلقوا على المحيط المذكور اسم أقيانوس (Okeanos) وهو لفظ يقابله بالانجليزية (Ocean) . ويتلخص اعتقاد قدماء المصريين في منشأ معبوداتهم أن هذا الكون كان في ابتداء الأمر يما عظيما ثم ظهرت فوقه بيضة (في اعتقاد البعض) أو زهرة (في اعتقاد الآخرين) ومنها خرج المعبود الشمسي الذي ولد بعد ذلك أربعة آلهة هم : (شو) و (تِفْنوت) و (كَب) و (نوت). وعاش هؤلاء الآلهة الخمسة نائمين فوق المحيط مدة ثم توسط كل من شو وتفنوت (اللذين يمثلان الجو) بين كب ونوت ففصلاهما بعضهما عن بعض واطئين بقدميهما كب ورافعين بذراعيهما نوت فصارت نوت سماء وكب أرضا . ثم حملت نوت من كب وجاءت بأربعة آلهة وهم أزوريس وإزيس وست ونِفْتيس فأصبح جميع الآلهة مع عدّ الشمس منهم تسعة. لذلك لقبوا بالتسيع المقدس وهو المعروف عند الافرنج باسم (Ennead) . ويشاهد هذا التسيع ممثلا بشكل من الأشكال في كل معبد من المعابد المصرية القديمة. ثم انتشرت فكرة التثليث بين المعبودات على توالى الزمن وأصبح لكل مكان بالقطر تثليث ثانوي مقدس ركب منه بعد ذلك تسيع على الطريقة المعروفة آنفا . لكن تشعب الآراء عن مبدأ الخليقة لم يقتصر على ما ذكرناه بل تعداه بدليل ما ورد عن بعض المصريين أنهم اعتقدوا أن هذه الدنيا سكنها في بادئ الأمر أناس تحت سلطة المعبود رع . وطال حكم هذا المعبود فكبر وهرم فأخذ عبيده يكيدون له فسلط عليهم المعبودة حاتحور التي فتكت بهم فتكا ذريعا . لكن رع ندم على ذلك في آخر الأمر فوقف المعبودة المذكورة عن الفتك بالخلق بحيلة ابتكرها بعد ما أفنت عددا عظيما من البشر. ثم ان البقرة السماوية رفعت المعبود رع فوق ظهرها فتخلى هـذا عن الدنيا الناكرة للجميل طالبا النعيم في السماء العلوي .

وزيادة على هذه الآلهة الأرضية والهوائية والسماوية تخيل المصري القديم آلهة أخرى ساكنة الدنيا السفلى المظلمة ومسيطرة على النيل الأسفل الذي يعبره قرص الشمس مبتدئا من الغروب ومنتهيا الى الشرق. واعتقد المصريون قديما أن أرواح الموتى تقطن هذه الدنيا السفلى محكومة بأزوريس . وأزوريس هـذا معبود حكم الأرض بعد رع وساعدته إزيس زوجته وأخته في الوقت نفسه فأحبه الخلق كثيرا لعدالته وشفقته ، لكن حكمه لم يدم طويلا لأن أخاه ست كاد له حتى قتله . فاجهدت

(١) ٢ : ٦٦١



شكل ٣٠ — البقرة الفلكية ، يسند أعضاءها عدة آلهة ويرفعونها ، فى الوسط إله الهواء شو وقد تخيل المصريون بطن البقرة أفقا ذا نجوم عديدة تجتازه سفينة رع الحاملة فى مقدمتها قرص الشمس



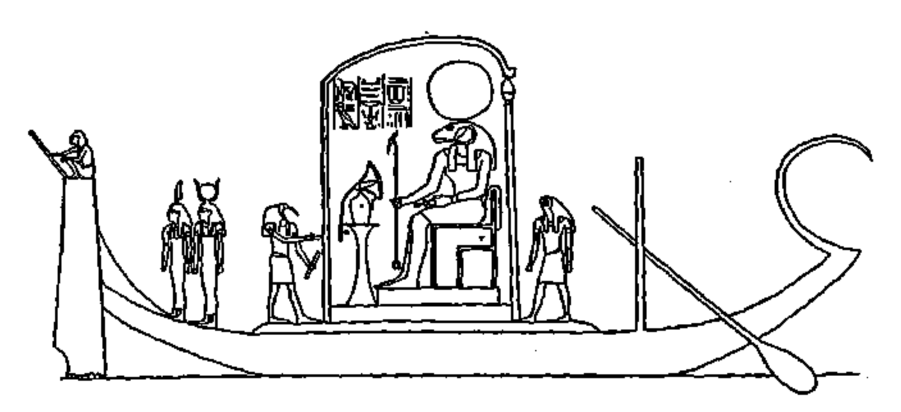
شكل ٣١ — إلهة السموات مثبتة فى جسمها النجوم يحملها معبود الهواء شو وأسفلها معبود الأرض كب منحنيا يسيرا

إزيس نفسها حتى أنقذت جثــة أزوريس ثم حنطتها بمساعدة أنوبيس أحد آلهة الآخرة الذى يرسم دائما بشكل ابن آوى والمعتبر عند المصريين إله التحنيط . بعد ذلك تلت إزيس كثيرا من التعاويذ السحرية القوية على جثة أزوريس فأحيتها ثانية وحركت أعضاءها ، الا أن أزوريس عجز عن استرجاع مركزه الدنيوى فعكف على الآخرة محترما . فى ذلك الوقت حملت إزيس من أزوريس بابن سمته حوريس ربته فى الخفاء بين أعشاب مستنقعات الوجه البحرى على أن يثأر لأبيه ، فلما بلغ رشده ناضل ست نضالا شديدا امتد من أول القطر الى آخره أصيب فيه كل منهما بجروح بليغة ، وانتهى القتال بانتصار حوريس واعتلائه عرش أبيه. بعد ذلك اتهم ست المعبود حوريس أمام محكمة الآلهة بأنه ليس ابنا شرعيا لأزوريس فلا حق له فى الوراثة . ودافع المعبود تحوت إله العلم عن حوريس وأخيرا حكمت المحكمة بأن حوريس " صادق القول " " منتصر " .

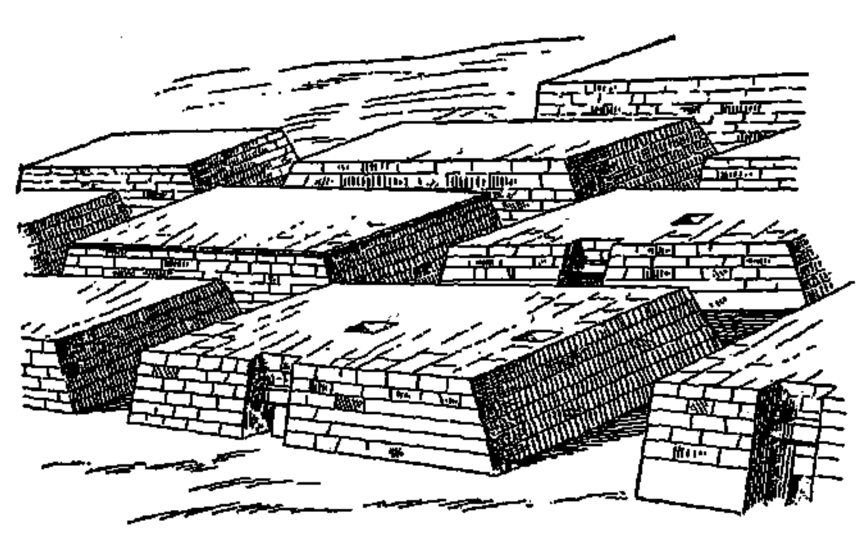
وجاء فى رواية أخرى أن الحكم المذكور صدر لحق " أزوريس " على خلاف المذكور آنفا .

ومن هذه المعبودات من مثلها المصريون بتماثيل عديدة واعتبروها آلهة مصر العظمى ومنها من بقى محفوظا فى مخيلتهم فقط فلم تشيد له معابد لتقديسه بها . ولمـا كان القطر المصرى ممتازا على سواه بقلة أمطاره كانت لشمسه دائما مكانة عظيمة فى نفوس أهله طول حياتهم ولذلك شاعت عبادة الشمس فى القطر وتركزت فى مدينة عين شمس المسماة عند اليونان هليوبوليس وهناك أطلق المصريون على قرص عين الشمس اسم رع ثم لقبوه باسم أتوم وقت الغروب وصوروه بشكل رجل هرم قا مه فى القبر . أما وقت الشروق الذى يظهر فيه هــذا الكوكب فى ريعان شبابه فكانوا يسمونه خِبْرا ويمثلونه بجُعْلٍ فى اللغة الهيروغليفية . وتصور القوم لهذا الكوكب سفينتين يطوف فيهما الأفق تستعمل احداهما صباحا والأخرى مساء حتى المغيب . بعد ذلك تدخل الشمس الأقاليم السفلى فتخترقها لتشرق على الأرض ثانية جالبة معها النور والفرح والسرور الى سكان الدنيا . وكان يرمز للمعبود رع فى مدينة عين شمس بمسلة . أما فى ادفو التى هى مركز عبادته بالصعيد فكان يرمز له بنسر يقال له حوريس .

ولمـا كان المصريون يرتبون مواقيتهم على حسب سير القمر صار لهذا النجم منزلة كبيرة عندهم فاعتبروه إله الحساب والآداب والحكم . وتركزت عبادته بمدينــة الأشمونيــن التى سمـاها اليونان هرمو بوليس نسبة الى معبودهم هِرْمِس القمرى . وجرت العـادة أن يرمز للقمر بالطائر إبيس المعروف بأبى منجل . أما السماء فكانت تعبد فى كل جهات مصر باسم نوت كما ذكرنا سابقا لكنها لم تخرج عن عالم التخيلات واعتبرها القوم رمز الحب والفرح النسوى ورسموها بشكل البقرة حاتحور بمعبد دندره ولقبت نبت الفرحة فى صبا الحجر ومثلت بالهرّة بَسْتْ فى تل بسطة . أما فى منف فرسمت بشكل لبؤة عارية عن العطف والشفقة شيمتها احداث الزوابع . ولمـا كانت عقيدة أزوريس آدمية فى حوادثها وتطوراتها انتشرت بسرعة بين الخلق قاطبة لكن إزيس بقيت لم تتعدّ مخيلات المصريين الذين اعتبروها مثال الزوجة والأم الواجب الاقتداء بها . وأما حوريس فيرجع أصله حقيقة الى الشمس دون أزوريس فاعتبره القوم مثال الابن الطيب المنتصر على الباطل . وسيأتى الكلام عن عبادة أزوريس تفصيلا وعن تأثيرها فى أذهان المصريين فى المقام المناسب . وكل ما يجدر بنا ذكره الآن هو أن أزوريس يرجع فى الأصل الى مدينة ددُو المعروفة عند اليونان باسم بوسيريس بالوجه البحرى .



شكل ٣٢ — السفينة الفلكية للمعبود الشمسى . يشاهد فى هذا الرسم المعبود الشمسى ممثلا فى جسم آدمى ورأس كبش حاملا فوق رأسه قرص الشمس وجالسا فى أحد المعابد على العرش . وأمامه وزيره المعبود تحوت (له رأس الكركى) واقفا يخاطبه كاله أرضى



شكل ٣٢ — صورة تمثل عدة مصاطب (مقابر) كاملة البناء يرجع تاريخها الى عهد المملكة القديمة (مأخوذة عن پروشيپه) . يلاحظ أمام كل مصطبة بابها وفوق كل منها ثغرة البئر الواصل الى حجرة الموميا أسفل البناء

ولما اعتقد المصريون أن رأس هذا المعبود دفنت بالعرابة بالصعيد صار لهذه المدينة الأخيرة شهرة عظيمة من قديم الزمان . ويرسم أزوريس على الآثار عادة بشكل انسان ضيق الملبس نحيف القوام جالس على العرش كأحد الفراعنة . ويرمز له أحيانا بعمود غريب الشكل يرجع تاريخه الى مبدأ عبادته استعمله القوم حجابا سحريا لاستخدام الأرواح فى مصالحهم . وقبل الفراغ من ذكر الآلهة يجدر بنا أن نثبت هنا أن المعبود پتاح الذى لا علاقة له بخلق الكون هو من أقدم معبودات مصر وأعظمها شأنا وكانت منف مركز عبادته ، ويعتبره القوم أنموذج المثال أو الرسام ولذلك كان أكبر كهنة هذا المعبود رئيس مثالى القصر الملكى .

هذه أشهر معبودات مصر فى العهد القديم . وهناك معبودات كثيرة أخرى أقل أهمية من التى ذكرناها لايسمح لنا ضيق المقام بذكرها مع أن المعابد المصرية حوت كثيرا من تماثيلها .

واستدل من بساطة هيئة الآلهة المصرية ورموزها أن المعيشة وقتئذ كانت بسيطة أيضا . فمن هذه الآلهة من يمثل قابضا على عصا كالتى يستعملها بدو الصحارى أو على فرع قصب وتزين رءوسها أحيانا بنسيج الغاب أو ريش النعام أو قرنى الأغنام . ولما اعتبر المصريون حيواناتهم المحيطة بهم رموزا للآلهة احترموها وثابروا على ذلك حتى فى أرق العصور مدنية وحضارة . وليلاحظ أن هـذه الحيوانات لم تعبد كآلهة الا فى آخر التاريخ المصرى وقتما دخلت البلد فى دور انحطاطها فلم تكن عبادة الحيوانات موجودة فى العصر الذى نحن بصدده وغاية ما فى الأمر أن المصريين اعتبروا وقتئذ بعض الحيوانات كالنسر رمزا لمعبوداتهم كالشمس مثلا ، ومن ثم اعتبر القوم هذا الحيوان كثيرا وأكرموا مثواه فى المعابد لكنهم لم يعبدوه ولم يقدموا له القرابين كما حصل فى الأزمنة التالية[1] .

وبديهى أن العقائد الدينية فى وادى النيل كثيرة التباين والاختلاف ، فعبادة الشمس مثلا كانت ذات مراكز عديدة وأشكال متعددة واعتبارات متباينة حتى أن أهل كل مركز اعتبروا معبودهم الشمسى مخالفا لنظيره فى المراكز الأخرى ، كما اعتقد أهل مدن ايطاليا أن عذراء كل مدينـة تخالف عذراء المدن الأخرى . لكن لما نمت التجارة بين سكان القطر وعمت القوانين السياسية سائر جهاته امتزجت هذه العقائد الدينية بعضها ببعض فنجمت عقائد أخرى مركبة متباينة كما ألمعنا سابقا وكما سيتضح آجلا . ومما زاد الطين بلة أن القسوس لم يختزلوا تلك العقائد الى ما هو أبسط وأقرب للفهم بل تركوها تتغير وتتبدل بتقلبات الدهر فأنجبت مزيجا دينيا مركبا صعب الادراك . ولا يخفى أن من أهم العوامل المساعدة على ذلك تفوّق احدى البلدان على سواها لأن ذلك يعقبه عادة القبض على زمام الحكم ثم بسط ديانة البلد المنتصر على غيره .

وقد تكلمنا سابقا عن معابد المصريين الذين يرجع تاريخهم الى ما قبل حكم الأسر . أما الآن فنذكر القارئ أن تلك المعابد اعتبرها القوم وقتئذ مساكن لمعبوداتهم . لذلك لا يبعد أن نظم تلك المعـابد كانت كثيرة الشبه بنظم منازل ذلك الزمن السحيق . وقد أثبتنا سابقا أن المعابد شيدت أولا من الخشب

---

(1) Erman, Handbuch, p. 25.

ثم من الحجر بدون تغيير فى هندسة عمارتها . وبقى القوم يعتبرون معابدهم بيوتا لآلهتهم رغما عن جهلهم السبب الأصلى لذلك. ويتلخص وصف المعبد وقتئذ بأنه حوش أمامى غير مسقوف يليه ساحة ذات عمد تتفرع منها عدة حجرات لحفظ الأثاث والأدوات اللازمة . وسيأتى الكلام عن بناء هذه المعابد وزينتها . أما الآن فسنذكر للقارئ أن أوسط الحجرات المتصلة بساحة العمد والمسماة بقدس الأقداس حوت عادة ناووسا مصنوعا من قطعة واحدة من الجرانيت المنحوت جيدا فيه تمثال المعبود الخشبي المطعم بالذهب والفضة والأحجار الكريمة يتراوح طوله بين قدم ونصف وستة أقدام . وتنحصر أشغال موظفى هذه المعابد فى تقديم القربان الى المعبود من مأكل وملبس بما يتناسب مع الغنى والجاه المصرى وقتئذ وكذا القيام باحتفالات الطرب كالموسيقى والرقص . ويؤتى بجميع المصروفات اللازمة لهذه الاحتفالات من خيرات الأراضى ومن الهبات الملكية من قمح وشعير وزيت وعسل وما الى ذلك[1] . وكان القصد من هذه القرابين فى بادئ الأمر ارضاء المعبود بلا احتفالات لكن بمرور الزمن أخذ تقديم هذه القرابين شكل حفلات رسمية اجبارية فى كل معابد القطر فى أوقات معينة . وجرت العادة أن يقام فى الحوش الأول من المعبد مذبح كبير يجتمع حوله الخلق فى الأعياد فيأكلون من الهدايا الكثيرة والقرابين العديدة التى يتمتع بها عادة كهنة وخدم المعبد . وأصل اقامة الأعياد وقتئذ يرجع الى الاحتفال بمرور فصول معينة أو بحوادث مهمة ذات علاقة دينية . وتتلخص هــذه الاحتفالات فى أن يُخرِج القسوس تمثال المعبود ويضعوه فى ناووس على شكل مركب نيلى يسير الى حيث يرغب القوم. وليلاحظ أن الرهبانية المصرية كانت احدى واجبات الحاكم الذى كان معتبرا فى ذلك الوقت رئيسا لكهنة اقليمه . أما فرعون فكان معتبرا الكاهن الأكبر للمعبودات، ومنذ أوائل التاريخ كان الرئيس الأعظم لدين الدولة الرسمى والشخص الوحيد الذى يقدس الآلهة . وكان له فى كل معبد نائب يدعى رئيس الكهنة يقدم القربان والخيرات داعيا بطول العمر والسعادة والصحة لفرعون مصر . ويرجع تاريخ بعض وظائف هؤلاء الرؤساء الدينيين الى عهد سحيق جدا وأهمهم المنتمون الى مدينة عين شمس حيث لقب رئيسهم "بالرئيس الأعظم" ، أما فى منف فكان رئيس الكهنة يدعى "سيد المثالين الأكبر" ، وتسند هاتان الوظيفتان الى رجلين من عظماء الأمة . أما رؤساء كهنة المعابد الأخرى الذين أتوا فى الأزمنة التالية فكانوا يلقبون "رؤساء أو مديرى القسوس" فقط . وتتطلب وظائف هؤلاء الرؤساء ادارة الاحتفالات الدينية والاشراف عليها ومراقبة ايراد المعابد الذى يعيش منه الموظفون ثم قيادة الفرقة الحربية الخاصة لكل معبد زمن الحرب . أما الكهنة الصغار فكانوا عادة من العمال المتطوعين لخدمة المعابد فى أوقات الفراغ وبهذه الطريقة تمكن العمال من الاشتراك فى عبادة المعبود ولو أنهم يعتقدون أن فرعون هو الشخص الوحيد المقدس للمعبودات . أما النساء فكن يتطوعن لخدمة المعابد أيضا كراهبات للمعبودتين نيت و حاتحور مؤدين واجبهن الدينى راقصات ممسكات الصوالجة فى أعياد مخصوصة أمام الآلهة . وهكذا كانت خدمة الآلهة مباحة للجميع . ولما كان المعبد فى اعتبار القوم مأوى المعبود لقب القسوس "بخدم الإله" .

---

[1] ١ : ١٥٣ — ١٦٧ و ٢١٣

ثم أخذ هــذا التقدم الديني يبرز فى تشييد المعابد الشامخة وازدادت الكهنة وحبست العقارات لتزويد الأموات بمــا يلزمهم فى الآخرة حتى فاق المصريون فى ذلك غيرهم مــن الأمم . والمجهود الجسمى العظيم الذى قام به هؤلاء القوم لحشد المقابر بالحاجيات الدنيوية يعتبر أقدم دليل على اعتقاد الانسان فى البعث بعد الموت . وكان المعتقد وقتئذ أن الأجساد تحركها أشباح حيثما وجدت فى الدنيا أو فى الآخرة . وهذا الشبح كان يدعى " كا " وهو فى اعتقاد القوم مصحوب بروح يرمز له بطائر آدمى الرأس محلق بين الأغصان أو بزهرة أو بنبات اللوطس أو بثعبان أو بتمســاح سابح أو غير ذلك . وتخيل القوم أيضا لكل انســان ظلا اعتبروه جزءا ملازما له . ثم كثرت هــذه العقائد فصعب على المصرى فهم حقيقتها وعلاقة بعضها ببعض كما صعب على المسيحى فى الجيل السابق فهم العلاقة بين الجسد والروح والشبح . واجتهــد المصريون فى تفسير المعيشة الأخروية فاتبعوا فى ذلك الطرق التى راعوها فى تفسير السماء والأرض ولذلك اعتقدوا أن الموتى يقطنون عالمــا غربيا يهبط فيه المعبود الشمسى كل يوم بعــد الغروب وعلى ذلك لقبوهم " بالغربيين " واجتهدوا فى تشــييد مدافنهم فوق الجبال الغربية . واعتقد البعض وجود عالم آخر أسفل هذه الدنيــا تقطنه الأموات منتظرة ظهور قرص المعبود الشمسى سائحا فى سفينته المقدسة كى تتمتع بأشعته وتشــد حبال سفينته لتنقذها من المأزق الطويل فى ذلك العــالم المظلم . وهناك فريق ثالث تأثر كثيرا بصفاء سماء بلاده فاعتقد أن الأموات تتحوّل طيورا بعد وفاتهــا وتعلو فوق طبقات الهواء حتى تبلغ رع أى الشمس فتتقابل هناك مع اتباع ذلك المعبود وتعيش كنجوم أزليــة . ثم ازداد المصرى تخيلا فى الحياة الأخروية فتوهم فى الجهة الشمالية الشرقية فى السماء حقولا يانعة خضراء سماها "حقول يارو" أو حقول الخيرات كثيرة العدس قمحها أطول من قمح النيل عميمة الرخاء والطمأنينة والسلام والسكون ينال فيها كل فرد نصيبه مما يقدم لمعبوده فى الدنيا من خبز وجعة وملبس زيادة على ما ذكر . ثم استصعبوا الطريق الى حقول الخيرات فتخيلوها محاطة بالمــاء ، ولذلك ابتكروا طرقا مختلفة للوصول اليها فكان بعضهم يناجى النسر أو الطائر أبى منجل (إيبس) ليحمله فوق طرف جناحه الى تلك الحقول وربما البعض الآخر أولاد المعبود حورس الأربعة ليحضروا له قاربا يستعين به على عبور المياه وتوسل فريق ثالث الى رع لينقله فى سفينته الى تلك الجهة . لكن العــادة المتبعة فى معظم تلك الأحوال أن الميت كان يناجى ربانا لسفينة هناك يدعى " النــاظر خلفا " نســبة الى اتجاه وجهه وقت الجدف ليجتاز المــاء الى "حقول يارو" . وليس لهذا الربان أن ينقل من يريد بل كان يحتم عليــه أن يتحقق أن كل شخص ينقله فى سفينته لا بد أن يكون قد صدر عليه حكم المعبودات بأنه "برىء مــن السيئات" أو بأنه "طاهر لا سفينة له" أو بأنه " تقى ورع عادل أمام السماء والأرض وأمام الجزيرة " (١) التى تحوى النعم والرفاهية لكل آهل بها .

(1) Pyramid of Pepi I, 400; Mernere 570, Erman, Zeitschrift für Aegyptische Sprache. XXXI, 76-77.

هكذا تشعبت عقائد المصريين فى فهم الآخرة لكنها لم تتجاوز شؤون معيشتهم الدنيوية . واعتقد القوم أولا أن الوصول الى حقول الخيرات الأخروية يكون بالاهتمام بالشعائر الدينية والاعتناء بها . وبتوالى الأيام اعتقد النـاس أن النعيم الأخروى يكافأ به من يحافظ على طهارة الذمة والشرف والأعمـال الصالحة فى الدنيـا . من ذلك ما ورد فى مقبرة أحد أمراء الأسرة الخامسة مترجمـا "لقد شيدت مقبرتى هذه بغاية العدل والحق فلا شىء فيها يستحقه غيرى ... ولم أؤذ أى شخص"[1] . وما ورد أيضا من النقوش على جدر مقبرة لأحد أبناء تلك العصور مترجما "أنا لم أعاقب قط فى حياتى أمام رجال الحكومة ولم أسرق شيئا من غيرى بل فعلت كل ما يرضى غيرى"[2] . ولم تقتصر نقوش مقابر تلك العصور على أفكار السيئات بل شملت أيضا فعل الخيرات كما ورد على جدر مقبرة وجيه فى الأسرة الخامسة مترجما " كنت أقدم الخبز لفقراء اقليمى .... وأكسو عراته ولم أؤذ أحدا طمعا فى أملاكه حتى اشتكانى الى معبود بلده ولم أسمح لضعيف أن يخشى بأس قوى فيتظلم من ذلك للإله"[3] .

وفى هـذه العصور القديمة انتشرت بين الخلق عقيدة أزوريس ووفاته واحلال ابنه حوريس محله على عرش مصر حتى صار لهـا مكان عظيم فى نقوش الموتى ، فلقب أزوريس بأول الغربيين "وسلطان الصالحين" . ثم اعتقد القوم أن كل فرد بعـد وفاته يحصل له ما حصل لأزوريس فيشبهه ويلقب حينئذ باسم أزوريس أيضا . وكثيرا ما ورد على الآثار ما معناه "ليعش هذا الميت كما عاش المعبود أزوريس . وليدرأ عن هـذا المتوفى الفناء كما درأ عن أزوريس الفناء وليحفظ من التلف كما حفظ أزوريس"[4] . ولـما اعتقد المصريون أن أزوريس قطعت أعضاؤه بعد وفاته ثم جمعت وأحييت بمعرفة المعبودات دعوا للميت أن ترد روحه لأعضائه كما حصل لأزوريس . وهكذا أصبح للمتوفى عندهم منزلة المعبود أزوريس فى الآخرة حيث يكون حاكما بين الخلق كما كان فى الدنيا . واليك ترجمة ما أورده الأسـتاذ أدولف إرمان فى كتابه[5] من الدعوات لأحد الأموات " لقد فتح لك باب السماء وأقفالها اكراما لك وتبجيلا . هنـاك ستجد المعبود رع فى انتظارك فيقودك بيدك الى المحل المقدس فى السماء ويجلسك على عرش أزوريس النحاسى فيصبح عرشك وتحكم الأموات الموقرين .... ثم تقف خلفك خدم المعبود وتصطف أمامك رؤساء الآلهة صائحين مهلا أيها الإله ! مهلا أيها الإله ! مهلا أيها القابض على عرش أزوريس ! إزيس تحادثك ونفتيس تحييك . الأموات تأتى اليك ساجدة تقبل الأرض بين قدميك . هانت ذا قد صارت اليك المنزلة والشرف الإلهيين وأصبحت ممـاثلا لأزوريس جالسا على عرش رئيس سكان الغرب . أنت العامل لأعماله نحو الأموات والشهداء ...... أنت الرافع منزلك بعـد حياتك والدافع الأذى عن أطفالك" . ولـما اعتقد المصريون أنهم سيتمتعون بعد وفاتهم كالمعبود أزوريس أو أنهم سيصيرون أزوريس نفسه لم يعودوا ينظرون الى الموت بخوف ووجل فقالوا عن موتاهم "انهم لا يتركون هذه الدنيـا أمواتا بل أحياء"[6] . ومنه يتضح أن القوم وقتئذ أخذوا يعتقدون بوجود محاكمة فى الآخرة أمام أزوريس

(١) ١ : ٢٥٢ (٢) ١ : ٢٧٩ (٣) ١ : ٢٨١ (٤) Pyramids, Chap. 16. (٥) Erman, Handbuch, pp. 96–99,
(٦) شرحه

وأن هذه المحاكمة ستتناول كل ما أتاه المتوفى فى دنياه من صالح وطالح . وليلاحظ أن محاكمة أزوريس أحدثت تأثيرا أدبيا عظيما فى نفوس المصريين . ولو أنهم كانوا حقيقة منذ قديم الزمن ذوى ضمائر ونفوس رادعة الا أنهم كانوا فى احتياج الى زاجر قوى كالوارد فى عقيدة أزوريس . لذلك نشاهد بين نقوش دهاليز أهرام أمراء الأسرتين الخامسة والسادسة تحذير كل من يستولى على مقابرهم بأنه "سيحاكم على أفعاله أمام المعبود الكبير"[١] كما ورد فى مقبرة أخرى ما يشير الى تجنب الكذب كلية "رغبة فى رضاء المعبود وقت الحساب"[٢] .

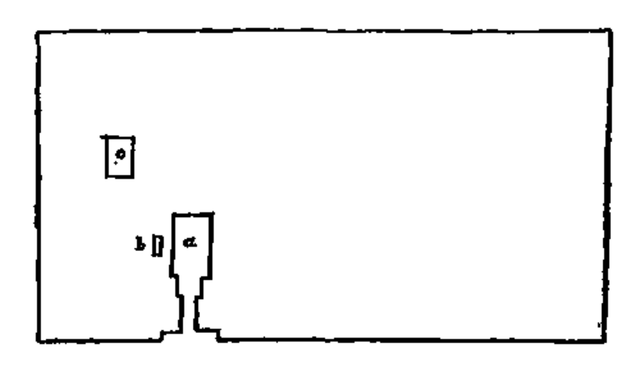
كل هذه الحقائق وجدت مدونة بين أقدم نصوص الموتى المعروفة الآن بمصر . وكان الغرض من هذه النصوص ضمان الراحة والنعيم للمتوفين وبالأخص نعيم أزوريس . وقد نقشت هذه النصوص على جدار دهاليز أهرام الأسرتين الخامسة والسادسة بكمية كبيرة ومنها استخلصنا ما أوردناه هنا بخصوص الآراء المصرية عن الحياة الأخروية[٣] . وبمناسبة وجود معظم هذه النقوش فى الأهرام المذكورة آنفا أطلق الأثريون عليها اسم "نصوص الأهرام" . ولا يخفى أن كثيرا من هذه النصوص ما يرجع تاريخه الى ما قبل حكم الأسر وأن بعضه غُيِّر وبُدِّل بمرور الزمن كى يتمشى مع عقيدة أزوريس وان لم يكن له بها علاقة بالمرة . وليلاحظ أن هذا التغيير سبب خلط العقائد الدينية كثيرا حتى صعب فهمها بعد ما كانت منفصلة بعضها عن بعض ومتباينة تمام التباين .

لقد كان لرسوخ العقيدة أو بالأحرى العقائد الخاصة بالحياة بعد الوفاة تأثير كثير فى نفوس المصريين منذ أقدم عصورهم ، فتولدت عندهم عناية كبيرة واهتمام عظيم بأمور موتاهم . ومن الواضح أنه رغما عن كل العقائد الثابتة بأن الحياة الأخروية بعيدة عن الدنيا فان قدماء المصريين لم يستطيعوا فى وقت من الأوقات أن يفصلوا بين جسم الانسان ونعيمه الأخروى ، لأنه كان من الصعب عليهم أن يصدقوا بالحياة بعد الموت اذا تلفت جثثهم وبليت . وقد بذل المصرى مجهوده تدريجيا فى ابتكار وسائل ثابتة أمينة لصيانة قبره حتى استعمل فى تشييد لحده الأحجار وزاد فى حجمه فصيره شامخا ، وهكذا أصبحت أهرام الجيزة أكبر مقابر العالم حجما ، وهذه الأهرام محاطة بمقابر أمراء المملكة القديمة ذات البناء الضخم الذى لو حازه ملك قبل تلك العصور ببضعة قرون لافتخر به أيما افتخار . واليك وزير الملك پپى الأول الذى يرجع عهده الى الأسرة السادسة فان مقبرته تحوى ما ينيف على احدى وثلاثين حجرة يعلوها بناء عال مربع الشكل مائل الأضلاع بما يقرب من خمسة وسبعين درجة ، وهذا البناء أصم تقريبا الا فى بعض جهاته حيث تشاهد حجرة أو أكثر ، وهو كثير الشبه بالمصطبة التى يتربع عليها الفلاحون أمام حوانيتهم ومساكنهم ، لذلك أطلق الأثريون اسم "مصطبة" على هذا البناء . وأبسط هذه المصاطب هى الصماء التى لا تحوى الا بابا وهميا فى جهتها الشرقية لمرور المتوفى وقت مجيئه من مأواه الغربى . بعد ذلك استعاض القوم عن هذا الباب الوهمى هيكلا صغيرا

---

[١] ١ : ٢٥٣ ، ٢٣٠ ، ٢٣٨ و ٢٥٧ [٢] ١ : ٣٣١ [٣] See Erman, Handbuch.

فى المصطبة نفسها مرسوما على حائطه الغربى باب وهمى ومزين الجدر بمناظر بارزة تمثل الخدم والعبيد الذين كانوا يعملون فى خدمة صاحب القبر يحرثون ويبذرون ويحصدون ويرعون الأغنام ويذبحونها ليقدموها الى مائدة سيدهم . ويشـاهد هؤلاء الأشخاص فى مناظر أخرى يصنعون الأوانى الحجرية تارة أو يبنون سفنا نيلية تارة أخرى . والقصد من هذه الرسوم اظهار خدم وأتباع صـاحب القبر منهمكين فى الحقل والمصانع مؤدين ما هو ضرورى لراحة سيدهم فى الآخرة. ويشاهد فى بعض الرسوم رسم كبير لصاحب القبر يمثله مشرفا على عماله متفقدا أشغالهم كما كان يعمل قبل "رحيله للغرب". من هـــذه النقوش جمعنا معلوماتـــا عن عادات المصريين وكيفية معيشتهم فى تلك العصـــور . أما اللحد فيرى فى أسفل المصطبة منحوتا فى الصخر وبينه وبين الخارج بئر يخترق بناء المصطبة . وفى يوم الدفن تحضر جثة الميت محنطة على حسب العادة لتقام لها شعائر الدين التى تمثل ما جرى للعبود



شكل ٣٤ – رسم سطحى لاحدى المصاطب . يشاهد فيه معبد القبر مرموزله بحرف (a) ثم السرداب المرموز له بحرف (b) وهو عبارة عن غرفة سرية تحوى تمثال الميت . ثم موضع البئر وهو المرموز له بحرف (c) . وينتهى هـــذا البئر من أسفل بحجرة الموميا . ويمكن معرفة ارتفاع تلك المصاطب بمراجعـــة شكل رقم ٣٢

أزوريس بعد وفاته . وأهم هـــذه الشعائر تلاوة العزائم والدعوات لفتح فم وأذنى المتوفى كى يسترد كلامه وسمعه فى الآخرة . بعد ذلك تنزل الجثة فى بئر المصطبة الى اللحد وتوضع نائمة على جانبها الأيسر اتباعا للعادات القديمة فى تابوت جميل مستطيل مصنوع من خشب الأرز موضوع داخل تابوت آخر من الجرانيت أو الحجر الجيرى . وجرت العادة أن القوم كانوا يتركون بعض الغـــذاء والشراب بجوار الميت ، وكذلك بعض أدوات الزينة وعصـــا السحر وعدة أحجبة لحماية الميت من أعدائه خصوصا الأفاعى . وقد وجد فى نقوش الأهرام عدد كبير من العزائم الخاصة بوقاية المتوفين من أفاعى الدار الآخرة . بعد ذلك تملأ البئر حتى حافتها بالرمال والأحجـــار ثم يترك القوم ميتهم فى حياته الأخروية التى سبق الكلام عليها .

ولم يقتصر واجب الأصدقاء نحو متوفيهم على ما ذكرنا سابقا بل كان يحتم عليهم أيضا أن يجهزوا تمثالا للمتوفى يوضع فى حجرة صغيرة منعزلة بقرب الهيكل المشيد داخل المصطبة، وقد يوصلون أحيانا هذا الهيكل بحجرة التمثال المذكورة التى يلقبها الفلاحون "بالسرداب" . ولما كان هذا التمثال كثير الشبه بالمتوفى تصور القوم امكان دخول شبح ميتهم هذا التمثال كى يتمتع بقرابين الطعام والشراب التى تقدم فى هيكل القبر . وليلاحظ القارئ أن قرابين الموتى كانت بسيطة جدا فى بادئ الأمر اذ كان ابن المتوفى أو زوجه أو أخوه يقدم عادة رغيفا صغيرا فى اناء على حصير من القش بجوار القبر، لكن بتوالى الأيام ازداد عدد هذه القرابين وغلا ثمنها حتى شابهت ما كان يقدم للميت قبل وفاته فى هذه الدنيا . ثم أصبح لهذا العمل الذى كان أصدقاء المتوفى يقومون به سواء أكان ذلك رغبة أم رهبة أهمية كبيرة حتى استلزم وجود عدة خدم للعناية بالقبر غير عدد الكهنة اللازم لقراءة الدعوات والصلوات على الميت . وبلغت عناية القوم بهذا الأمر أن عقدوا الاتفاقات[١] قبل وفاتهم مع أشخاص ينتخبونهم للخدمة فى قبورهم بعد الوفاة بمرتب ثابت يصرف لهم قانونا من الأوقاف المحبوسة على مقابرهم قبل وفاتهم . خذ مثلا ما ورد على الآثار من أن مقبرة الأمير نِكُورع ابن الملك خَفْرع من الأسرة الرابعة حبس عليها ايراد اثنى عشر مدينة[٢] . وأن صاحب قصر الملك أُوسِرْكاف عين قبل وفاته ثمانية قسوس لخدمة مقبرته[٣] . وأن أحد أمراء الوجه القبلى وقف على مقبرته ايراد احدى عشرة قرية وعزبة[٤] . ومما جاء عن هؤلاء القسوس أن مرتب أحدهم كان باهظا تمكن به أن يرتب لمقبرة ابنه ما يماثل المرتب للمقبرة الموظف هو بها[٥] . وكانت همة القوم منصرفة الى العناية بمقابرهم، لكن بمرور الأجيال عظم العبء على النسل فأهملت خدمة مقابر الأجداد رغبة فى تنفيذ مطالب الأحياء أو الموتى الحديثين . وكما أن القرابين التى كانت تقدم لآلهة المعابد كانت تعطى لموظفى ذلك المعبد ليقتاتوا منها كذلك رأى بعض الملوك أن يكافئ بعض أمرائه بأن يحوّل الى مقابرهم جزءا من القرابين التى تقدم لمقبرة ملكية قديمة أو لمقبرة أحد أقاربه[٦] . ثم جرت العادة أن يساعد الملك سراته وأمراءه المقربين منه بهذه الكيفية[٧] . واعتاد القوم أن يبدءوا دعوات مقابرهم بعبارة معناها "هبة ملكية الى فلان ...." واستمرت الحال كذلك مدة من الزمن كانت الهبات الملكية قاصرة فى أثنائها على الأمراء والموظفين فى القصر الملكى . وبمرور الزمن اقتدى القوم بأمراء البلاد من حيث العناية بموتاهم فكرروا استعمال العبارة المذكورة بين دعواتهم رغما عن عدم حظوتهم بالهدايا الملكية . ومن ثم استعمل القوم الديباجة على جدر وصفائح قبورهم فى جميع العصور مع عدم وجود

---

(١) ١ : ٢٠٠–٢٠٩ و ٢٣١–٥ (٢) ١ : ١٩١ (٣) ٢٢٦–٧ (٤) ١ : ٣٧٩
(٥) Erman, Handbuch, p. 123. (٦) ١ : ١٧٣ و ١–٥ و ٢٤١ (٧) ١ : ٢٠٤ و ٢٠٧ و ٢٠٩ و ٢١٣ – ٢٢٧ و ٢٤٢–٢٤٩ و ٢٧٤–٧ و ٢٧٠

أية علاقة بينهم وبين ملوكهم من هذه الجهة . ولم يقتصر الأمر على ذلك بل كثيرا ما يجد الشخص هذه الديباجة مكررة عدة دفعات فى المقبرة الواحدة . وقد يساعد الملك أحيانا بعض محظيه فى تشييد مقابرهم، من ذلك ما ورد من عبارات الافتخار بين نقوش مقابر الأمراء أحيانا ومنها يستدل أن الملك أهدى أحدهم بابا وهميا لمقبرته أو تعطف عليه بتـابوت أو ببعض رجال فنيين يساعدونه على بنـاء قبره[1] .

ولمـا كان تقديم القرابين لروح الفقيد من أقدم المقاصد فى تشييد المقابر يجد الباحث فى مقابر ملوك الأسرة الأولى ما يشـير الى شدة العناية بذلك . ولمـا كانت الأسرة الثالثة لم يقنع ملوكها بقبر واحد بل شيدوا لأنفسهم قبرين نسبة لحكمهم لقطرى مصر، كما شيدوا قصرين . ثم صارت مقبرة الملك كبيرة الحجم كثيرة الحلية لا تقارن بمقابر الأمراء . فبينما كانت الدعوات والصلوات من أجل الأمراء تقام فى هياكل مشيدة بالجهة الشرقية للمصطبة كانت هذه الاجراءات الدينية نفسها الخاصة بالملوك تقام فى بنـاء شامخ بديع منفصل عن القبر . ولمـا استبدل القوم بمقابرهم أهراما شيدوا فى مقابلة جهتها الشرقية معابد مخصوصة للغرض نفسه وخصصوا لكل منهـا أموالا كثيرة تدفع منها مرتبات الكهنة ورتبوا لها باستمرار القرابين والمأكل والمشرب والملبس . وبديهى أن كثرة موظفى هذه المقابر تطلبت الاكثار من المنازل الخاصة بهم حول كل هرم ، وجرت العادة أن كل هرم وما يتبعه من مساكن وهياكل وغير ذلك يحاط بسـور خاص، وكثيرا ما كانت تتكون فى وادى النيل فى البقعة التى يشرف عليها الهرم المشيد عادة على هضبة مرتفعة مدينة مسورة يصلها بمعبد الهرم جسر حجرى محكم البنيان ينتهى فى طرفه الأسفل ببنـاء عظيم ضخم من الجرانيت أو الحجر الجيرى ويكسو أرضه أحيانا بلاط من المرمر ويظهر عليه شكل مدخل رهيب لقبر عظيم (شكل ٣٥ وشكل ٦٩) . أما الاحتفالات التى كانت تقام فى الأعياد فكانت تمتاز بالزى الأبيض وتبدأ من مدينة الهرم أسـفل الجسر المذكور ثم تسير فوق هذا الجسر الطويل حتى تصل الى الهيكل الذى يشرف عليه الهرم العظيم الشامخ. ولا يستبعد أن القوم كانوا ممنوعين من اختراق حائط الهرم وعليه فكانوا يقنعون بمشاهدة هذا البناء الأبيض الناصع من أعلى سور مدينتهم بين أشجار النخيل المترنحة فيتذكرون جثـة معبودهم الذى حكمهم مدة من الزمن . وبمرور السنين يرى القوم هرما آخر مماثلا له بالقرب من الهرم الأول معدا لجثة ابن ملكهم المقدس الذى يشاهدون عظمته بين حين وآخر أيام الأعياد . وليلاحظ أنه رغما عن التكاليف الباهظة التى كانت تنفق من مالية البلاد على ذمة الفراعنة وأمرائهم على حسب الأصول المتبعة

---

(١) ١: ٢١٠–٢١٢، ٢٣٧–٤٠، ٢٤٢–٩، ٢٧٤–٧، ٣٠٨

فانها لم تكن ذات تأثير كبير لقلة عدد هذه الاحتفالات أما السواد الأعظم فاكتفوا بدفن موتاهم بدون تحنيط فى مقابر أجدادهم التى يرجع تاريخها الى ما قبل حكم الأسر والتى هى على حافة الصحراء الغربية.



شكل ٣٥ - صورة تمثل أهرام أبو صير وما جاورها من الأبنية الأثرية كاملة الترميم (مأخوذة عن بورخارت) . وفيها يلاحظ معبد خاص لكل هرم يجاوره له وطريقان مشيدان بالأحجار يبدآن من اثنين من هذه المعابد بمدخل شاهق واقع فى الحد الفاصل بين الصحراء وأرض الوادى (راجع شكل ٦٩) . ونشاهد أمام المدخل درجات سلم حيث ترسو السفن زمن الفيضان

الفصـــــل الخـامس

المملكة القديمة

الحكومة ، المجتمع ، الصناعة ، الفنون

يرجع مبدأ الحكم الملكى ومنشأ العادات اللذين تمتاز بهما مصر القديمة عن سواها من الأمم الى عهد بعيد يصعب تقديره الآن إزاء ما لدينا من الأخبار اليسيرة . لكن المعلوم أن حكومة الملك مينا كانت منظمة وعريقة فى الوجود وأن ادارة البلاد فى فجر المملكة القديمة الذى تقرب مدته من أربعة قرون كانت مصحوبة بهيبة كبيرة ومقام رفيع واحترام شديد نحو مليك البلاد من جميـع أفراد الرعية على اختلاف مراتبهم ودرجاتهم . فكان الملك وقتئذ معتبرا إلهـا وملقبا " بالمعبود الطيب " ولذلك عظم مقامه بين رعيته حتى صاروا يجتنبون ذكر اسمه شخصيا اذا أرادوا الاشارة اليه . فكان الحاجب الملكى مثلا يستعمل فى كلامه الضمير الغائب كلما ذكر شيئا خاصا بجلالة سيده فيقول مثلا " هو " اذا أراد الملك ومثلا "لنبسط له الأمر" بمعنى لنخبر جلالة الملك بالأمر ، وهكذا وبمرور الزمن أخذ القوم يلقبون الحكومة أولا " بالبيت الكبير " ثم أطلقوا ذلك على الملك . وهذا اللقب يقال له بالهيروغليفية "پِرْعُو" وحرّفه بعد ذلك الاسرائيليون الى "فرعون" وبقى مستعملا كذلك حتى عهدنا هذا . وما أكثر العبارات والمجازات التى كان يستعملها موظفو القصر الفرعونى فى الاشارة الى مليكهم المقدس . واعتقد القوم أيضا أن ملوكهم اذا ماتوا ينضمون الى طائفة المعبودات وعليه تجوز عبادتهم كآلهة فى الهياكل الكبيرة المشيدة أمام مقابرهم الهرمية الشامخة .

أما الحاشية الملكية فقد بلغت درجة عظيمة فى معاملاتها الرسمية التى كانت تراعيها بكل دقة وعناية فأعضاء الحاشية كانوا من الوزراء العظام والضباط الكبار المتزيين بأنفس الملابس علاوة على الأمناء الملكيين الذين كانوا يقومون بخدمة الملك فى القصر . من ذلك يتضح أن حياة القصر الملكى وقتئذ كانت كثيرة الشبه بما يماثلها فى الممالك الشرقية . وقد حفظ لنا التاريخ بعض الرتب وألقاب الشرف التى كان ينعم بها على كبار موظفى القصر فى تلك العصور السحيقة . وليلاحظ أن رجال الحاشية الملكية كانوا كثيرى الفخر برتبهم وألقابهم حتى نقشوها على جدر مقابرهم مثبتين درجاتهم ووظائفهم التى حازوها فى الحضرة الملكية فى أثناء معيشتهم الدنيوية . وهذه الرتب والوظائف تختلف بعضها عن بعض من حيث الأهمية والجدارة ولها نظام ثابت يشرف عليه قواد القصر الحربيون بدقة فى وقت الاحتفالات الرسمية والمثول بين يدى السدّة الملكية . أما خدمة الملك الشخصية فكان يعهد بها الى كبار موظفى القصر كل على حسب وظيفته ولقبه فكان بينهم طبيب الملك الخاص ورئيس جوقة الموسـيقى الملكية وغير ذلك . أما شخص الملك فكان قليل الحـلى ومع ذلك فكان فى القصر نفر ليس باليسير يصنع الشعور والنعال والروائح العطرية ويقوم بالغسل والتبييض وحراسة الأمتعة . وكل من هؤلاء كان يتحدث

بألقابه مفتخرا بهـا ومؤيدا لها على صدر مقبرته، فمن ذلك ما ورد على شاهد قبر موجود بدار التحف بالقاهرة مترجما : "أنا الرئيس المتعهد بصندوق دهانات الملك . كنت أقوم بأموريتى فى دهان سيدى بغاية الرضا والقبول . أنا المتعهد بادارة زينة الملك الحامل لخف جلالته الصانع لنعال جلالتـه بما حاز منه الرضا والقبول"[١] . وجرت العادة أن الملوك كانوا يقترنون بأكثر من واحدة ويختارون من بينهن أقربهن وأحبهن لقلوبهم فيلقبونها رسميا بجـلالة الملكة ويعتبرون ابنها ولى عهد المملكة الذى يتسلم مقاليد الملك بعد وفاة أبيه . وليلاحظ أن تعدد الزوجات امر مشاهد كثيرا فى البلدان الشرقية وأنه فى الوقت نفسه سبب لكثرة التناسل ، لذلك ترى المصريين يرسمون على الآثار اطفالا عديدين حول ملوكهم آخذين نصيبا كبـيرا من دخل القصر . وجاء فى الآثار أن أحد أولاد الملك خفرع الذى يرجع تاريخه الى الأسرة الرابعـة خلف تركة بعد وفاته تقدر بأربعة عشر قرية علاوة على منزل حضرى ومزرعتين بجوار القصر الملكى بالقرب من هرمه وعلاوة على ما وقفه على قبره من ايراد اثنتى عشرة قرية أخرى[٢] . ومما هو جدير بالذكر أن الملوك كانوا يعينون أولادهم فى ادارة البلاد ولذلك لم تكن معيشة هؤلاء الأمراء هنية خصوصا وأن بعضهم كان يشغل مراكز حكومية صعبة شاقة .

ورغما عن رفعة منزلة فرعون مصر واعتبار قومه له إلٰها فقد كان متين الصلة بأمراء بلاده لأن فراعنة مصر كانوا يتلقون علومهم مع أولاد الأمراء ويتمرنون معا على الألعاب الرياضية كالعوم[٣] . ولا بد أن هـذه الرابطة كانت شديدة التأثير فى نفوس الفراعنة لأن أحدهم سمح بزواج ابنتـه لرفيق له فى الدراسة[٤] فتمكن هـذا الأخير بذلك من تقبيل القدم الملكى وحيازة الشرف الكبير بعد ما كان يتعذر عليه تقبيل الأرض بين قدمى مليكه[٥] . وليلاحظ أن علاقات الملك الرسمية كانت مخالفة لعلاقاته الشخصية مع الرعية . فالأولى كانت تحتم على كل شخص أن يظهر احترامه وولاءه للشخص الملكى، أما الثانية فكانت عارية عن الكلفة . لذلك كان الملك مع جلاله يتحادث بغاية الحرية مع أصحابه مدة من الزمن ويسمح لعبيده أن يدهنوا جسمه وأجسام أصحـابه بالروائح العطرية الطيبـة الذكية[٦] . وقد تتوطد العلاقة أكثر من ذلك فيتزوج فرعون مصر بابنة أحد رعاياه ولا يبعد أن يساعدها الحظ فتصبح ملكة البلاد الرسمية ويتولى ابنها الملك بعـد أبيه[٧] . ومما يظهر لنا شـدة تعلق ملوك تلك العصـور بوزرائهم وحاشيتهم ما ورد فى الآثار عن حادثة حصلت وقتما كان أحد الفراعنة يتفقد بناء شامخا مصحوبا بوزير العمارة ، فبينما كان جلالة الملك يمتـدح البناء ويشكر وزيره المخلص على حسن صنيعه لاحظ أن وزيره لايعى مايلقى اليه فصاح الملك متألما بين حاشيته فنهضت لوقتها وحملت الوزير الى القصر الملكى حيث استـدعى الملك رؤسـاء الكهنة والأطباء واستحضرت اللفائف الطبيـة اللازمة فلما حضر الأطباء قرروا أن حالة المريض لايرجى منها فتكدر الملك لذلك كثيرا واختلى فى حجرته متضرعا للمعبود رع راجيا شـفاء وزيره . وبعـد أن فارق الوزير الحياة أمر الملك بعمل الاحتفال اللائق لدفن هـذا الأمير ووضع جثته فى تابوت من خشب الآبنوس وأظهر رغبته فى الحضور شخصيا وقت دهان الجثة . ثم عهد لابن المتوفى فى بناء مقـبرة كبيرة لوالده ووعده

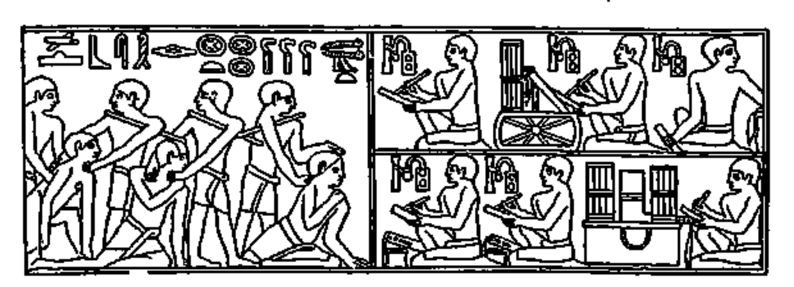
(١) Cairo stela, 1787. (٢) ا : ١٩٠–٩ (٣) ا : ٢٥٦ (٤) ا : ٢٥٤ ملاحظة (٥) ا : ٢٦٠
(٦) ا : ٢٧٠ (٧) ا : ٣٤٤

بالمساعدة الملكية[١] . هذا كله يكفى أن يظهر لنا متين الاخاء والصحبة التى كانت بين الفراعنـة ورعيتهم . واجتهد ملوك الأسرة الرابعـة وأوائل الأسرة الخامسة فى توطيد العـلائق بينهم وبين حاشيتهم حتى صاروا كأسرة واحدة مرتبطين ارتباطا كبيرا فكان الملوك يساعدون رجال حاشيتهم فى بناء مقابرهم وتجهيزها باللازم ويهتمون براحتهم ونعيمهم فى الدنيا والآخرة . وليـلاحظ أن سلطة فرعون كانت مطلقة نظريا فيما يتعلق بادارة القطر ، وفى الحقيقة كانت مقيدة بعـدة عوامل مختلفة كالقرابة والحزبية والشخصية والنسوية وهو أمر كثير الحصول فى البـلاد الشرقية . ومن الصعب علينا أن نتتبع هذه العوامل الى أبعد من هذا العصر الذى تتجلى فيه بوضوح أحوالها السياسية الداخلية على مرور الأجيال . ورغما من وسائل الراحة والترف التى كانت موفورة وقتئذ فان الفراعنة لم تعش معيشة الكسل والاستبداد كما فعـل المـماليك ، بل عينت ملوك الأسرة الرابعة أبناءها رؤساء لبعثات الحفائر الحجرية أو المعدنية أو وزراء أو رؤساء وزارات قبل استلامهم مقاليد الحكم ، ولذا كان ملوك ذلك العصر متعلمين مستنيرين عارفين للقراءة والكتابة ولأصـول المجاملة والتحية . خذ مثـلا ما ورد عن أحدهم أنه خط بيده خطابا شكر فيـه أحد موظفى حكومته على جدارته وكفايته[٢] . وكثيرا ما كان الملوك يدعون وزراءهم ومهندسيهم للتداول معهم فيما يلزم البلاد وعلى الأخص ما يتعلق بتوزيع المياه وأمور الرى . ثم ان رئيس المهندسين كان كثيرا ما يعرض مشروعاته الزراعية المختلفة الخاصة بالضياع الملكية على مليكه ، فقد ورد أن أحد هؤلاء الرؤساء ناقش مرة مع الملك بشأن حفر بحيرة كبيرة طولها ألفا قدم تقريبا فى احدى المزارع[٣] . وجرت العادة أن الفراعنة كانوا يطلعون على أوراق حكومتهم الرسميـة ثم يملون على كتابهم الأوامر لارسالهـا الى القواد المصريين بطورسيناء وبلاد النوبة و بونت التى هى جنوبى البحر الأحمر . أما ملخص دعاوى الوراثة المرفوعة من الرعية فكانت تعرض أحيانا على الملك ، لكن العادة أن الوكلاء الملكيين هم الذين يتصرفون فى مثل هـذه الأمور . وبعد الفراغ من الأشغال اليومية كان الملك فى جلاله يركب هودجه الملكى مصحوبا بوزيره وحاشيته ليتفقد المبانى والأشـغال العمومية . لذلك كانت سلطة جلالته ممتدة الى كل مشروعات القطر الهـامة .

وجرت العادة أن تشيد الفراعنة أهرامهم بالقرب من قصورهم على حافة وادى النيل الغربية بجوار الصحراء وأن تحاط هذه القصور بمنازل أفراد الحاشية والخدم الملكى . ولمـا كان فن البناء فى مهد الأسر الأولى بسيطا تيسر للملوك اختيار أية بقعة من الوادى مقرا لهم بجوار أهرامهم . وفى مدة الأسرة الثالثة اتخذ الفراعنة مدينة منف عاصمة لهم واستمروا فى تشييد قصورهم بها مزدوجة البناء أو مزدوجة المدخل — على الأقل — مشيرين بذلك الى ضم الوجهين القبلى والبحرى تحت حكم واحد ، ومطلقين على كلا المدخلين اسما خاصا ، فأحد مدخلى قصر سنفرو مثلا كان يدعى "تاج سنفرو الأبيض المحترم على الباب الجنوبى" أما المدخل الآخر للقصر نفسه فكان يدعى "تاج سنفرو الأحمر المحترم على البـاب الشمالى"[٤]. وليلاحظ أن وجه القصر الملكى عرف وقتئذ " بالوجه المزدوج " ورسم هذا

(١) ١ : ٢٤٢-٩ (٢) ١ : ٢٦٨ - ٢٧٠ ، ٢٧١ (٣) شرحه . (٤) ١ : ١٤٨

القصر على شكل منزلين متلاصقين . أما ديوان الحكومة داخل القصر الملكى فكان يعرف "بالادارة المزدوجة" على رغم عدم احتمال وجود ادارتين كما يشير اليه هـذا الاسم . ويرجح أن تجزئة ادارة القطر المصرى بين وجهيه لم تذهب الى أبعد من التجزئة الاسمية وان كثرت الاصطلاحات الادارية "كالشونة المزدوجة" اشارة الى الشونة الملكية و"البيت الأبيض المزدوج" اشارة الى ديوان المالية وكأنهم حافظوا على هذا الازدواج الاسمى فى مصالح الحكومة مع أن وجهى مصر منضمان معا تحت ادارة واحدة احتراما للقديم الراسخ فى الأذهان . أما القصر الملكى ودواوين الحكومة المحيطة به والتى تتفرع منه ادارة أقاليم المملكة فكانت تعرف "بالبيت الكبير" .



شكل ٣٦ — جمع الضرائب بواسطة موظفى المالية : يشاهد فى القسم الأيمن كتاب وضباط ماليون يقيدون الايراد . ويرى بالقسم الأيسر عمال المالية (الصيارفة) مزودين بالعصى يحضرون الأهالى لدفع الضرائب .
وفوق هذه الرسوم نقوش هذا تعريبها "القبض على حكام الأقاليم لحساب "

وتسهيلا لبسط نفوذ الحكومة على جهات القطر قسمت مصر الى أقسام صغيرة بلغ عددها فى الوجه القبلى حوالى عشرين قسما تقريبا وفى الوجه البحرى فى العصور الأخيرة ما يماثل ذلك . والمظنون أن هذه الأقسام بقايا الامارات التى كانت موجودة قبل حكم الأسر والتى تكونت منها المملكة المصرية فيما بعد . أما حكام هذه الأقسام فكانوا يعينون فى عهد الأسرتين الأولى والثانية بأمر ملكى و يلقبون نواب الملك و يعهد اليهم بالادارة والقضاء فى أقسامهم ولقبوا أحيانا "بالقضاة" . ودلتنا الآثار على وجود مجلس مؤلف من عشرة "حكام من الوجه القبلى" يلقب "بالرؤساء العشرة العظام الجنوبيين" امتاز أعضاؤه على سواهم من حكام الأقسام الجنوبية بعلو المنزلة ، ويظن أن هذا المجلس كان أشبه بلجنة ادارية مخصوصة . ومع ضآلة معرفتنا بأنظمة الوجه البحرى فاننا نرجح أنه كان منظما اداريا كالوجه القبلى تماما الا أنه كان أقل أقساما . والمعروف أنه كان لكل حاكم قسم ادارة صغيرة يرأسها تقوم باختصاصات الحكومة فى قسمها كالمالية والقضاء والادارة ومساحة الأراضى واقامة الجسور وحفر الترع والشُرَط ومخازن التموين ، ولذلك تطلبت ادارة كل قسم عددا كبيرا من الكتبة والمسجلين ومقدارا عظيما من السجلات والقوائم . ولا يخفى أن أهم عامل فى تنظيم وتوحيد ادارة الأقسام هو ادارة الأموال الواردة الى ادارة الحكومة المركزية كالضرائب السنوية من حبوب وغنم وطيور ومصنوعات وغير ذلك مما يجمعه حكام الأقسام من سكان البلاد . والسبب فى توريد هذه المواد الى الحكومة هو عدم استعمال العملة وقتئذ . ثم ان محصولات القطر كانت

تضبط وترسل بها كشوف لتقيد بعـاصمة الملك كما كانت ترسل أيضا الى المـالية للراجعة ، وأما المعاملات كتسجيل الأراضي ومسائل الرى والأحكام القضائية والادارية فكانت ترسل كلها الى مركز الحكومة العام لمراجعتها . ولـما كانت الادارة المـالية أمتن الروابط بين القصر الملكى وأقسام القصر الملكى فقد عهد فى ادارتهـا الى موظف لقب "برئيس أمناء المـالية" بقطن القصر الملكى ويساعده اثنـان للاشراف على أفرع المـالية المتعددة وعلى الأخص العـدن والعمارة اللذين كانا مرموقين بعين الاهتمام فى القطر. وقد عرف هؤلاء المساعدون باسم "صرّافى المعبود" — أى الملك — وكان يعهد اليهم فى الاشراف على قطع الأحجار من المحاجر وتشييد المعابد والأهرام وغيرها وقيـادة بعثات العدن الى شبه جزيرة طورسيناء .

ولا يخفى على القارئ أن أهم واجبات حكام الأقسام كانت الادارة . أما القضاء فكان عملا إضافيا . ولم يوجد بين القوم وقتئذ من اختص بالقانون، لذلك كان يشترط فى حكام الأقسام الالمـام بالقانون والقيام بأعمال القضاء فى دائرة اختصاصهم . أما تنفيذ القانون فكان تحت اشراف ست دوائر قضائية فى القطر المصرى مكوّنة من أعضاء متضلعين فى المهنة تحت ادارة رئيس الحقـانية الأكبر . وكان كثيرا ما ينعت القضاة أنفسهم "بالمنتمين الى بلدة نخن" — المعروفة عند اليونان بهيرا كونبوليس — وهو لقب يرجع تاريخه الى العهد الذى كانت فيه هذه المدينة عاصمة الوجه القبلى . أما القانون فكان غاية فى الاتقان والحكمة، ومـما يؤسف عليه أنه ضاع من الوجود . والمعروف أن حكام الأقسام كانوا كثيرا ما يفتخرون بعدلهم فى القضايا المعروضة أمامهم ، وقد دوّنوا ذلك على جدر مقابرهم فقد جاء فى احدى هذه المقابر ما ترجمته : "لم أحكم بين أخوين حكما يمنع أحدهما من تسلم ما يخصه من ميراث والده"[1] . ويظهر أن المتبع فى محاكم تلك العصور أن تقدّم اليها الدعاوى مكتوبة باختصار ، وقد امتدح ديودور هذا النظام كثيرا[2] . ويوجد بدار التحف ببرلين درج بردى قديم يحوى حكما صادرا من قاض لمدع كان يطالب بحقه فى ميراث[3] ، ويعتبر هـذا أقدم درج أثرى من نوعه معروف للآن . ودلتنا الآثار على قضايا خصوصية كان الحكم فيها رئيس الحقانية وأحد القضاة المنتمين الى مدينة نخن[4] . وجاء أيضا فى بيان قضية اتهمت فيها ملكة بالخيانة أن الحكم فيها صدر من قاضيين منتميين الى مدينة نخن عينا بأمر ملكى خصيصا لهذا الغرض ولم يكن رئيس الحقانيـة منهما[5] . ولا شك أن هذه الحوادث تثبت شـدّة حرص الفراعنة على العدالة والانصاف ولولا ذلك لأعدمت الملكات الخائنـات فورا بلا تحقيق بدلا من محاكمتهن قانونا أمام العدالة ليلقين جزاءهن . والغريب أن حرص الملوك المصريين على العدل اضمحل الى نحو مائة سنة تقريبا . والمعروف أيضا فى أحوال خاصة سمح للتظلم أن يقدم شكواه باختصار الى الملك رأسا ليحكم فيها كما يستدل من الحكم القانونى المدوّن بدرج برلين البردى المذكور سابقا (شكل ٤٥) .

والوزير فى تلك العصور رئيس الحكومة والحقانية معا فكان لذلك يلى مرتبة الملك فى سـياسة الدولة . ونظرا لخطورة ذلك المركز كان ملوك الأسرة الرابعة يسندونه الى أولياء العهد . والى هذا الوزير

(١) ١ : ٢٣١ و ٢٥٧ (٢) الكتاب الأول ٧٥—٧٦ (٣) Pap. des Kgl. Mus. 82-3. (٤) ١ : ٣٠٧
(٥) ١ : ٣١٠

كانت تحول كل المخاطبات الرسمية والمكاتبات الملكية[١] الخاصة بتسجيل الأراضى والوصايا[٢] . فكتب الوزير كان أشبه "بقلم السجلات" (الأرشيف) فى حكومتنا الحالية . وقد عثرنا على وصية كاملة تقريبا لأحد أبناء ملوك الأسرة الرابعة[٣] وأخرى يرجع تاريخها الى مبدأ الأسرة الخامسة[٤] منقوشتين على جدر المقابر مضى عليهما ما ينيف على خمسة آلاف سنة . أما النص الأصلى المسجل فى "قلم سجلات" الوزير فقد ضاع . وهناك وصايا أخرى أقل أهمية منها حفظتها لنا الآثار[٥] . وجرت العادة اذا وهب ملك فردا من رعيته قطعة أرض أعلنت هذه الهبة بمرسوم ملكى مسجل فى "المكاتبات الملكية" بديوان الوزير[٦] .

وكانت ادارة القصر الملكى مقسمة نظريا على الأقل الى قسمين نسبة الى الوجهين القبلى والبحرى ، ولذلك نجد بين أخبار الادارة المالية اصطلاحات "كالشونة المزدوجة" وبين أخبار القصر الملكى ما يعنى "الادارة الملكية المزدوجة" . والمرجح أن تقسيما كهذا كان موجودا فى ادارة القطر الداخلية أولا ثم انعدم على توالى الأيام فلم يبق منه الا الذكرى . ومعلوم أن الوزير كان أكثر رجال المملكة المصرية تبعة لأنه كان الرئيس المباشر لأعمال موظفى الحكومة الفرعونية كافة من اداريين وكتبة من أكبر كبير الى أصغر صغير . زد على ذلك أنه كان يتولى الاشراف على عدة أمور ثانوية خاصة بالدولة . وكان يشترط فيه فوق ذلك أن يكون بارعا فى فن العمارة حتى كان كثيرا ما يلقب "رئيس أشغال الملك" . ولما كان هذا النفوذ الحكومى العظيم منحصرا فى هذا الوزير كان القوم كثيرا ما يعمدون اليه ليفصل فى دعاويهم وهو الشخص الوحيد الذى يقيم الحق ويمحق الباطل . ولا غرابة أن نجد هذا الوزير أكثر موظفى الملك محبة فى نفوس الرعية . ويرجح أن الرجل العاقل العظيم المدعو إمْحُتِبْ كان شاغلا لهذا المركز أيام الملك زوسر ، وكذا الفيلسوفان العظيمان قَاقِمْنَهْ و پِتَاحْ حُوتِبْ اللذين يرجع تاريخهما الى الأسرة الثالثة واللذين تداول القوم حكمهما عدة قرون بعد عهد المملكة القديمة . ولشدة احترام هذا المركز فى نظر الرعية كان القوم يذكرون أحيانا بعد اسم صاحبه دعاء "بالصحة والسلامة والعافية" كما يذكر عادة بعد أسماء الملوك وأعضاء الأسرة المالكة .

هذا هو النظام الداخلى الذى جرت عليه المملكة القديمة فى القرنين الأول والثانى من عهدها كما يستدل من الآثار . والحق يقال ان هذا النظام بلغ درجة وطيدة فى القرن الثلاثين قبل الميلاد بفضل مهارة موظفى الحكومة وان هذه الدرجة لم تبلغها أوربا الا فى أواخر الحكم الرومانى . ويتلخص هذا النظام فى تقسيم البلاد وتعيين موظفين لكل قسم للاشراف على ادارة شؤونه تحت سلطة الحاكم الذى يتلق أوامره من مركز الحكومة العام بالقصر الملكى . وبديهى أن قوة الحكومة وهيبتها ترتبتا على كفاية فرعون الادارية ومهارة حكام أقاليمه . فاذا ضعفت مراقبة فرعون للأمور الادارية والسياسية ولو قليلا شعر حكام الأقسام بشىء من الاستقلال فلا ينصاعون كثيرا لأوامر الملك وينتج

---

[١] ١ : ٢٦٨ ملاحظة و٢٧٣ [٢] ١ : ١٧٥ و٢ : ١٤ — ١٦ [٣] ١ : ١٩٠ — ١٩٩ [٤] ١ : ٢١٣ — ٢١٧
[٥] ١ : ٢٣١ ملاحظة وغير ذلك فى نصوص الأسرتين الخامسة والسادسة [٦] ١ : ١٧٣

عن ذلك تفكك عرى المملكة . ولما كان هذا النظام يقضى بأن يكون حكام الأقسام كل منهم هو الوسيط الوحيد بين فرعون ورعيته نجم عنه أحيانا تخاطر يؤبه لها، كأن يعلن قسم أو أكثر استقلاله عن الحكومة المركزية وينفرد حاكمه بالسلطة المطلقة . وقد حصل هذا فعلا فى عهد المملكة القديمة كما سيتضح فى الفصل التالى . ولا يبعد أن يكون هـذا التفكك فى عرى المملكة راجعا الى عدم وجود قوة عسكرية ثابتة تحت اشراف الحكومة المركزية مباشرة . نعم ان كل قسم من أقسام مصر كان له رديف معلوم تحت ادارة موظفين ملكيين غير محنكين حربيا لكن هذه القوة لم تكن ثابتة ولا تابعة مباشرة لادارة القصر الملكى . ولعدم مهارة قواد هذه القوى فى الفنون الحربية كانت ميزتها العسكرية معدومة تقريبـا . ومعلوم أنه كان لكل معبد رديف تابع له يستعمل فى قطع الأحجار والمعدن ونقل الأحجار ولوازم العمارة الخاصة بالمعابد تحت اشراف "صراف المعبود" .

وفى حالة الحرب يجند رديف الأقسـام والمعابد والنوبة ويضم بعضها الى بعض تحت قيـادة ضابط كبير يعينه مليك البـلاد . ولـما كان حاكم كل قسم مسئولا عن حركات رديفه كانت قوة فرعون مشتتة بين هؤلاء الحكام .

واعتبر القوم فرعونهم صاحب الحق المطلق على معظم أراضى القطر . أما خدام الأراضى من حراثين وحصادين وغيرهم فكانوا من طائفة الخدم أو العبيد التى شملت الجزء الأكبر من الرعية وكانوا يشتغلون تحت مباشرة موظفى حكام الأقسام . ويستدل من الآثار أن هؤلاء الخدام أو العبيد اعتبروا تابعين للأرض التى يخدمونها ولذلك جزئت عليهم الأراضى[1] . ولم نعرف بالضبط احصـاء بعدد السكان وقتئذ وليست لدينا وسيلة تمكننا من ذلك وكل ما اهتدينا اليه أن هذا الاحصاء بلغ فى العهد الرومانى سبعة ملايين نسمة[2] . والمعروف أن جزءا كبيرا من أراضى القطر كان ملكا لأفراد الأسر المـالكة ونسل الملوك قبل عهد الأسر ، وهؤلاء الملاك من الأمراء لم يشترط أن يكونوا موظفين حكوميين أو حكام أقسام فقد كان بعضهم عديم الصلة بالادارة . واعلم أن سكان القطر لم يتقسموا الى أمراء وعبيد فقط بل كانت هناك طبقة متوسـطة احتكرت الصنائع والفنون الجميـلة وبرعت فيها كثيرا ولا نزال نجهل الشىء الكثير عنها ، وسبب جهلنا هذا يرجع الى عدم متانة مقابر هؤلاء القوم والى استعمالهم الورق البردى فى معاملاتهم بكثرة ، وقد فقد هـذا الورق كله تقريبا . وتدلنا أخبار العصور التالية أن المملكة القديمة كانت تحوى صناعا وتجارا يتداولون بضائعهم . ويرجح كثيرا وجود ملاك أحرار لبعض الأراضى من غير الأمراء .

ورابطة الأسرة كانت أهم روابط الاجتماع وقتئذ كما هى الحال فى التواريخ الحديثة . واقتضى قانون تلك العصور العتيقة ألاّ يتزوج الرجل بأكثر من واحدة وأن أطفال هذه الزوجة هم ورثته الشرعيون . وساوت الزوجة الرجل فى كل أمر وكانت تعامل بكل احترام دائما كما أنها كانت تشاطر بعلها وأولادها فى أفراحهم . وكثيرا ما تشاهد علاقات الود والمجاملة بين الأمراء وزوجاتهم منقوشة على آثارهم . والغالب أن هذه العلاقات نشأت بين الطرفين منذ نعومة أظفارهما لأن القوم على اختلاف طبقاتهم

(1) ۱ : ۱۷۱ (2) ديودور ۱ : ۳۱

اعتادوا أن يزوجوا الأخ لأخته وأن يعتبروا أخته زوجته الشرعية ورئيسة منزله . لكن هـذا لم يمنع الرجل من الاقتران بأكثر من واحدة غير شرعية . ولم يعتبر تعدد الزوجات شائنا وقتئذ بل كان عاديا كما هي الحال الآن فى البلاد الشرقية . وما أكثر احترام الأطفال فى تلك العصور لآبائهم فقد لازم الابن خدمة قبر والده بعـد وفاته . زد على ذلك أن القوم كانوا كثيرى الافتخار بفرط حب أفراد أسرهم لهم ، واليك ترجمة ما ورد فى هذا الصدد فى مقبرة أحدهم : "كنت محبوبا لدى والدى ووالدتى واخوتى وأخواتى"(١) . أما الوراثة فكانت تنتقل عادة عن طريق أكبر البنات سنا كما هى العادة فى كثير من الأقوام ما لم ينص على غير ذلك فى وصية سابقة . وأمتن روابط الأسرة هى الخاصة بالأم فكان الشخص يفضل وقت ضيقه حمـاية جدّه من أمه عن حماية والده . وما أكثر تكرار التذكير بمحبة الابن أمه التى حملته وأرضعته وأراحته وخدمته واعتنت به وقت دراسـته . وقد بغض القوم الزنا ومقتوه . ولمـا كانت رابطة الزواج بين العبيد والفقراء ضعيفة فى بعض الأحيان لضيق اليد كان الطلاق بينهم كثيرا وسهلا بنسبة ما كان حاصـلا بين الأغنياء . قال أب لابنه ما ترجمته "احترس يا بنىّ من المرأة الأجنبية المجهولة فى بلدها فهى كالبحار العميقة التى لا يعرف لهـا قرار . واعلم أن المرأة البعيدة عن زوجها تكتب لك كل يوم وترمى لك شركها فى غيبة الرقيب ، فاحترس من الوقوع فيــه لأن ذلك جناية فظيعة لمن يتعظ"(٢) ولذلك اعتبر القوم الزواج أصون شيء للشباب . لكن هذا الوصف لا ينفى وجود الجرائم والموبقات بين القوم وقتئذ رغم هذه النصائح الأدبية الشريفة .

ومظاهر الحياة بين طبقة الفقراء لم تكن شريفة سـامية ، فمنازلهم كانت مشيدة باللبن ذات عُرُش بسيطة ومتلاصقة ولا يتجاوز أثاثهـا عادة مقعدا بسيطا وصندوقا أو صندوقين رديئى الصنع وبعض الخزف . أما رِبَاعُ العمال فكانت كبيرة مشيدة باللبن مقسمة الى حجرات متصلة بممر طويل . وهذه الرباع كانت تشيد فى مدن الأهرام وبالقرب منها . والظاهر أن معيشة الزراع كانت أكثر حرية وصحة ونعيما من معيشة عمال الأهرام ومدنها (خريطة رقم ١) .

أما منازل الأغنياء والموظفين فكانت كبيرة حاوية وسائل النعيم . فقد جاء أن أحد أمراء الأسرة الثالثــة المدعو متن كانــ يقطن منزلا تربو مساحتــه على ثلثمائة وثلاثين قدما مربعـا(٣) مشيدا بالأخشاب واللبن المجفف فى الشمس فكان بذلك بنــاء خفيفا طلق الهواء مناسبـا لطقس القطر . ولكثرة منافذ الجدر ذات الثقوب العديدة فى حجرات المسكن أصبحت المنازل شبيهة بهيكل الانسان العظمى كالأبنية اليابانية ، فاذا هبت الزوابع سدل القوم ستائر مزخرفة على منافذ بيوتهم . وليلاحظ أن بناء قصر الملك لا يختلف كثيرا عن هذا التركيب الخفيف لكنه كان محصنا من الخارج . لهذا السبب انمحت آثار مدن مصر القديمة فلم يبق منها الا أسفل جدرها المهدمة . وأهم أثاث هـذه المنازل السرر والمضاجع والمقاعد والصناديق الآبنوسية المطعمة بالعـاج بأحسن ما جادت به أيدى الفعلة المهرة . ولم تكن الموائد كثيرة الاستعمال الا أن الأوانى المرمرية الثمينة أو المصنوعة من الأحجار الأخرى الغـالية أو النحاسية أو الذهبية أو الفضية كانت مرفوعة على حوامل عالية عن الأرض .

(١) ل : ٢٥٧ (٢) Pap. de Boulaq I, 16, 13 ff; Erman, Aegypten, 223. (٣) ١٧٣



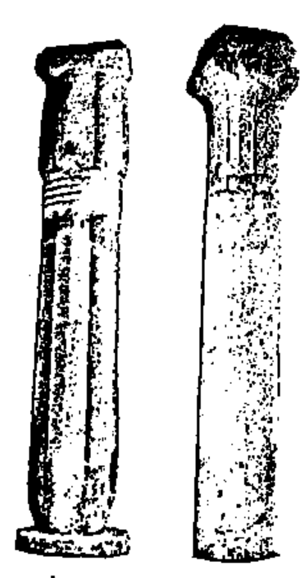
شكل ٥٧ – رأس أسد مصنوع من الجرانيت
(دار تحف القاهرة)



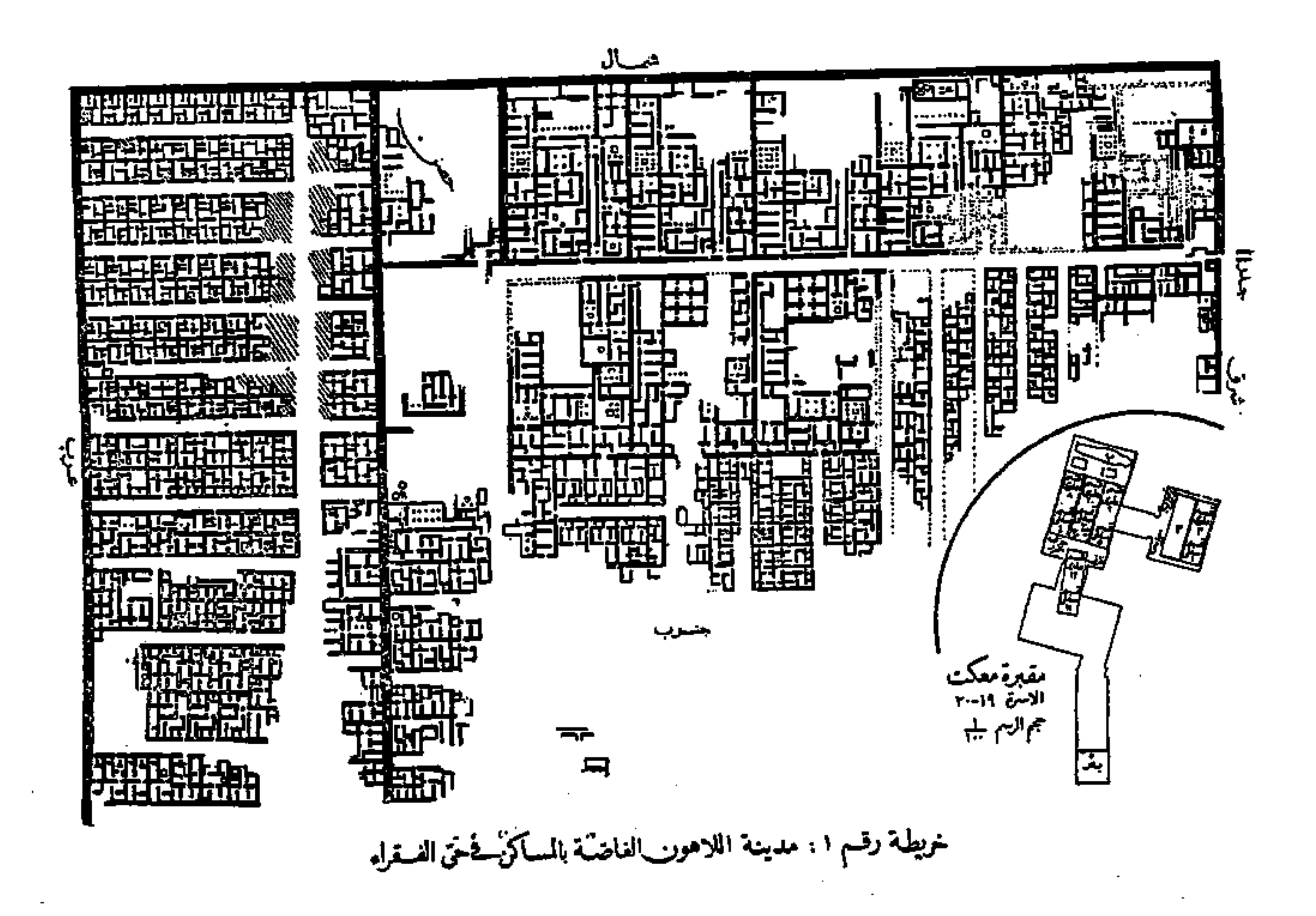
شكل ٥٨ – رأس نسر ذهبي
وجد بمدينة هيرا كونبوليس
(دار تحف القاهرة)



شكل ٥٩ – صورة بارزة على لوح خشبي لشخص
يقال له حسى رع — (دار تحف القاهرة)

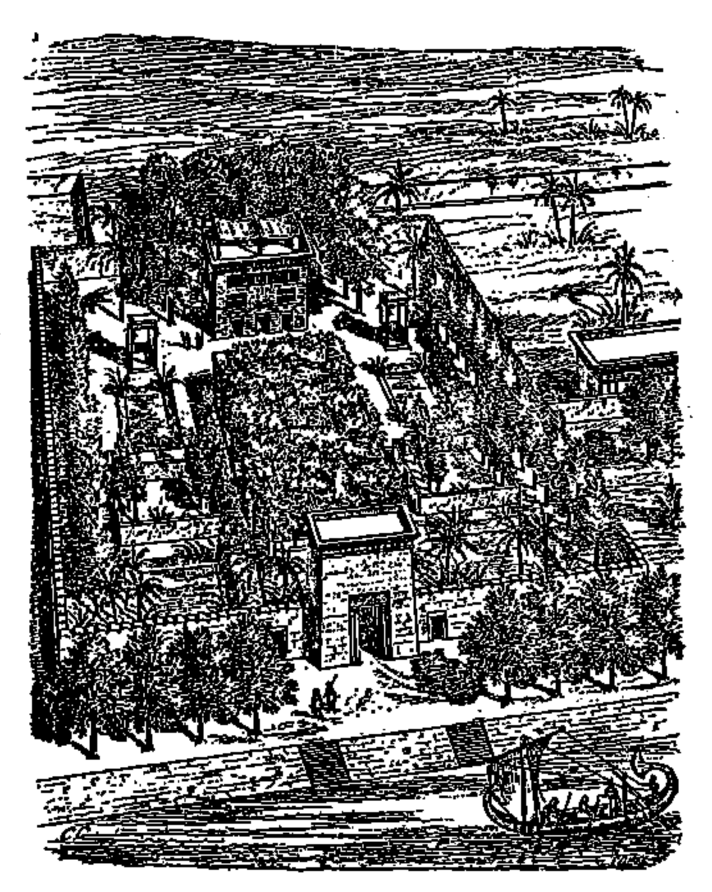


شكل ٦٠ – صورة عمودين للأسرة
الخامسة - العمود الأيمن مصنوع على
شكل نخلة والأيسر على شكل طاقة
من البردى (دار تحف برلين)



خريطة رقم ١: مدينة اللاهون الفاصلة بالمساكن في حي الفقراء

وغطى القوم أرضهم بالأبسطة السميكة واعتاد النسوة على الأخص تفضيلهن الجلوس عليها ب
من المضاجع والمقاعد . أما الغذاء فكان متقنا متباين الألوان . واعتاد القوم أن يقفوا على أرواح
بعد وفاتهم أنواع الأغذية الكثيرة، واليك بيان ما جاء بوصية أحدهم لتوزيعه بقبره : "عشرة أنواع
اللحم وخمسة أشكال من الطيور وستة عشر صنفا من الخبز والكعك وستة أنواع من النبيذ وأر
أشكال من الجعة وأحد عشر صنفا من الفواكه . علاوة على أنواع الحلوى العديدة وغير ذلك" (

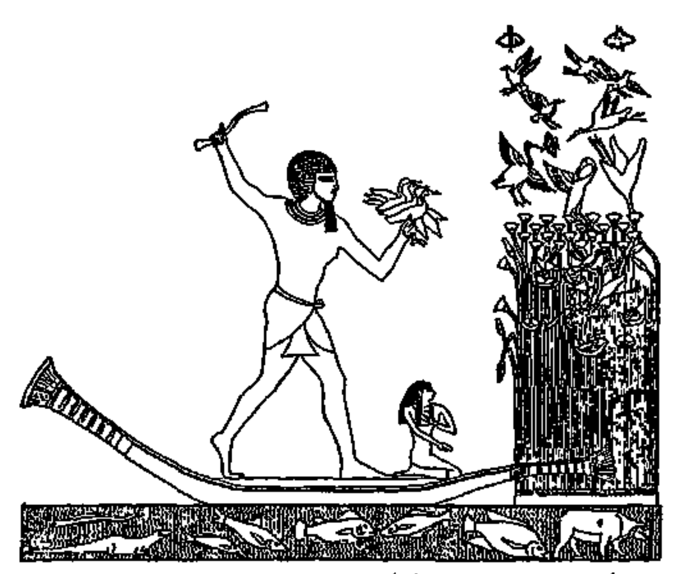


شكل ٣٧ – قصر وحديقة لنبيل مصري من عهد الملكة القديمة (مأخوذ عن پرّو وشپيه)

ولم يرتد الوجهاء الا ملابس بسيطة للغاية عبارة عن معطف مثبت حول الوسط وواصل الى الرك
أو الساقين . واعتاد القوم ان يحلقوا رءوسهم بالموسى وأن يضع سراتهم على رءوسهم في الحفلا
الرسمية قلانس شعرية . ولهذه القلانس نوعان أحدهما قصير الشعر أجعده وآخر طويله وناعمه مف
في وسطه . وكانوا يتحلون بقلائد ذهبية مرصعة بالجواهر الكريمة . أما باقي الجسم من الوسط فما
فكان عاريا . وبهذه الهيئة اعتاد سراة القوم مقابلة زائريهم وتفقد أعمال مزارعهم قابضين على

Dümichen Grabpalast, 16-26 : Erman, Aegypten, 265. (١)

طويلة فى أيديهم . أما ملابس نسوة السراة وأولادهم فكانت أبسط من ملابس الرجال وهى عبارة عن مهلهل ضيق غير مكم مصنوع من الكتان الأبيض كاس للجسم من الثديين الى القدمين ومثبت فوق الكتفين "بشريطين" . والجزء الأسفل من ملابس السيدات ضيق بالنسبة للمستعمل فى عهدنا هـذا بحال عاقت سهولة المشى . أما حلى النسوة فعبارة عن قلنسوة طويلة الشعر وطوق وقلادة وأساور . ولبس القوم الخف أحيانا لكنهم لم يتعودوه . ونظرا لحرارة الجو كان الأطفال كثيرا ما يعيشون بلا ملابس . واكتفى الفلاحون برداء بسيط ساتر للعورة مثبت بالوسط لكنهم



شكل ٣٨ — نبيل من عهد الملكة القديمة يصطاد وحش الطير بعصى صغيرة وهو واقف فى سفينة من البوص تمخر فى مستنقعات البردى

كانوا كثيرا ما يخلعونه وقت القيام بأشغالهم فى الحقول . اما نسوتهم فكن يرتدين قميصا طويلا ضيقا شبيها بلباس نسوة السراة وكن يساعدن أزواجهن كثيرا عاريات فى أعمالهم الشاقة كالحصيد وذر الحبوب .

وكان المصرى قديما ولوعا بالطبيعة والمعيشة الخلوية فكانت منازل السراة تحيط بها الحدائق الحاوية لأشجار التين والنخيل والجميز والعنب وغير ذلك . وتوجد أمام هذه المنازل غدران صناعية مبنية الحافات مملوءة بالأسماك . أما خدم هذه القصور فكانوا عديدين ، اختص بعضهم بخدمة القصر واقتصر الباقى على الحديقة، وكان الكل يشتغلون تحت مراقبة "رئيس الخدم"(شكل ٣٧) المسئول عن نظام القصر والحديقة معا . ولخدم الحديقة رئيس ثان مهمته العناية التامة بالأشجار . هكذا كان الأمراء يتنعمون فى منازلهم صارفين أوقات فراغهم بين نسوتهم وأولادهم لاعبين "الداما" أو مستمعين لأشجان الآلات الموسيقية كالقيثارة والمزمار والطنبور أو متفرجين على رقص نسائهم الرشيقات

ولعب أولادهم بين الأشجار أو خوضهم المياه . وكانت الأطفال كثيرا ماتلعب الكرة ويتسلق بعضهم ظهور البعض ولوحظ أن الأمراء كانوا ولوعين بالرياضة مع زوجاتهم وأولادهم فى قوارب صغيرة من سيقان البردى فى المستنقعات والبرك النيلية تحت ظلال الأعشاب الطويلة . وما أشد ولوع القوم بالمعيشة بين ملايين الحيوانات الصغيرة بتلك المستنقعات حيث كانت الزوجة تقطف أزهار السوسن واللوطس والابن يجتهد فى صيد الهدهد . أما الأب فكان يبذل جهده فى صيد الطيور الوحشية بقضبان خشبية ملتوية . وقد تكثر الطيور حتى تحجب السماء ورغما من صعوبة القنص وقتئذ وما يحتاج اليه من نشاط وحركة كان الأمراء يفضلون استعمال القضبان الخشبية المذكورة على الأقواس والرماح . وهوى الأمراء أحيانا صيد البحر فاستعملوا لذلك قضبانا طويلة تنتهى بسلاح



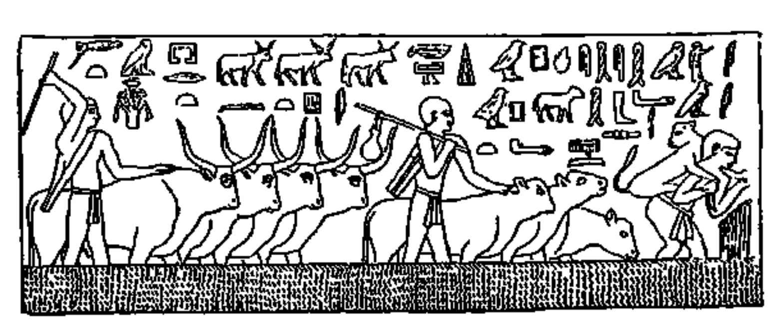
شكل ٣٩ — الزراعة فى عهد المملكة القديمة : يشاهد فى القسم العلوى من الرسم طريقة الحرث وبذر الحبوب . أما القسم السفلى فيشاهد فيه أغنام ورعاتها سائرة على الأراضى المبذورة بقصد غرس الحبوب فى الأرض . وينشد الراعى الأول وقت اختراقه المستنقعات الأنشودة الآتية المدونة هنا :
"الراعى يخوض المياه وسط الأسماك محادثا سمك النعل ويمضى النهار محادثا سمك القرب . . . "

ذى حدين واجتهدوا فى صيد سمكتين بالحدين دفعة واحدة (شكل ٣٨) . وقد يعترض النزهة أحيانا جاموس البحر الشديد أو تمساح عنيد فيتغلب عليه الأمير بحربة طويلة تنتهى بحبل ثم يستعين بصيادى الجهة فيطردون هذا الوحش الضارى من ذلك المكان . ولم يقتصر ولوع السراة على هذه الرياضة بل كثيرا ما قاموا برحلات خطيرة فى الصحراء لقتل وحش الثيران بالحراب أو لاقتناص الوعل والغزال والأيل والتيتل ووحش الثيران والحمير والنعام والأرانب ، أو لرؤية الحيوانات الوحشية الأخرى الغريبة التى تخيلها القوم وقتئذ كالعنقاء ذات الأربعة الأرجل والرأس الواحد والجناحين وكالطيور التى لها رءوس النمور وتنتهى أذنابها بزهر اللوطس ! هذه الأفكار المسلية التى جالت بأذهان المصريين وتعلقهم بالطبيعة ونظرهم الى الحياة من وجهة الفرح والسرور رغم مجهودهم العظيم الذى

ضحوا به لراحة موتاهم فى الآخرة أثرت بوضوح فى نفسـية المصرى فظهر ذلك فى فنونه ومصنوعاته التى فاقت فى الرقى والجمال مصنوعات ومبتكرات ممـالك آسيا المعاصرة .

ولنبحث الآن عن خيرات البلاد وحاصلاتها وتقدمها فى عهد المملكة القديمة التى تقرب مدتها من خمسة قرون والتى كانت حكومتها ثابتة النظام قابضة على زمام الرى معتنية بالجسور والترع فنقول :

(ان حاصلات القطر ونتاجه بلغت وقتئذ أقصى درجاتها . وبديهى أن الزراعة كانت ولا تزال أهم موارد الثروة فى مصر . ويرجح أن الحضارة الاجتماعية والسياسية التى تكلمنا عليهـا سابقا ترجع الى كثرة الحاصلات الزراعية من القمح والشعير التى جناها الفلاح من أراضى واديه الفنية . ولم تقتصر خيرات هذا الوادى على الحبوب بل شملت أيضا الكروم الكثيرة والخضراوات الرطبة الغزيرة وقطعان الأغنام والبهائم والمعز والحمير والطيور والدجاج البرى وحيوان الصحراء والسمك ممـا لا تحصى . أما الخيل فلم تكن موجودة . كل هذا زاد كثيرا فى ثروة البلاد ، ولذلك كانت فلاحة الأراضى التى قام بها



شكل ٤٠ — قطيع من البهائم يخوض غديرا . من عهد المملكة القديمة

ملايين السكان أهم أسباب زيادة ثروة البلاد ورفاهيتها سنويا . يلى ذلك فى الأهمية محاجر الجرانيت بالشلال الأول والأحجار الرملية جهة السلسلة والأحجار الصلبة الملسة جهة وادى الحمامات (بين قفط والبحر الأحمر) ومحاجر المرمر جهة حَاتْنُوب (خلف تل العمارنة) وغير ذلك من محاجر الأحجار الجيرية الكثيرة كالموجودة جهتى عيان وترويا تجاه منف . وقطع القـوم الجرانيت من محاجر الشلال الأول كتلا كبيرة يتراوح طول كل منهـا بين عشرين وثلاثين قدما وتتراوح زنتها بين خمسين وستين طنا . وقد أظهر المصريون مهارة مدهشة فى نحت ونقش الأحجار الصلبة كالصوان (Diorite) بمعاول نحاسية وفى قطع كتل الجرانيت المستعملة لأغطية التوابيت بالمناشير والمثاقب والمعاول وغيرها . أما العدن فبلغ شوطا بعيدا إذ بلغ عدد الفعلة القائمين بهذا الأمر بطورسيناء قدرا كبيرا . واستخرجوا النحاس والملاشيت الأخضر والأزرق (المستعمل للتطعيم الدقيق) والفيروزج واللازورد . ولم نهتـد للآن الى مناجم الحديد لكننا نعرف أنهم صنعوا منه آلات . أما البرنز فلم يكن مستعملا وقتئذ . وتقدمت صناعة المعادن فصنع القوم الآلات النحاسية والحديدية والأقفال والمسامير والرزز وأدوات الزينة على اختلاف أنواعها ، علاوة على الأوانى النحاسية المطرقة التى استعملها الأغنياء على موائدهم

وكذا الأسلحة النحاسية . أما الصياغة فكانت دقيقة متقنة . ولمـا كانت الفضة تجلب بكميات قليلة من اقليم قيليقيا (Cilicia) بآسيا الصغرى أصبحت بطبيعة الحال أغلى قيمة من الذهب الذى كان كثيرا بين صخور الجرانيت على ساحل البحر الأحمر وفى وادى الفواخير على طريق قفط علاوة على ما كان يستخرجه الأجانب ويأتون به من صحارى النوبة الشرقية الغنية. ولم نهتد للآن تقريبا الى مصوغات فرعون أو أمير من عهد المملكة القديمة لكننا نستدل من النقوش البارزة الموجودة على جدر محاريب المقـابر أن صياغ ذلك العهد وخلفاءهم فى عهد المملكة المتوسـطة تقدموا كثيرا فى الدقة والاتقان وسلامة الذوق بمرور الزمن منذ الأسرة الأولى (شكل ٤١) .

وخيرات وادى النيل كثيرة متنوعة تسد لوازم مصنوعاته المهمة ومع سهولة احضار أحجار البناء الجيدة شيد القوم عماراتهم فى معظم الأحيان باللبن المجفف فى الشمس كما يعمل الآن فلاحو عصرنا ، فشيدوا به ربوع العمال وقصور الأغنياء والمستودعات والمخازن والقلاع وأسوار المدن وذلك لرخص



شكل ٤١ — حوانيت السباكين فى عهد المملكة القديمة : يشاهد فى الجزء الأيسر من القسم العلوى طريقة وزن المعادن الثمينة والحجر الملكى . وفى الجزء الأوسط رجال يوقدون على الحلى مستعينين على ذلك بأنابيب طويلة . وفى الجزء الأيمن صب تلك الحلى وطرقها . أما القسم السفلى فيظهر طريقة تركيب القلائد وأدوات الزينة . ويلاحظ وجود الأقزام فى هذه المصانع

المـادة وسهولة استعمالها ، وكان للبن مصانع مخصوصة . ولخلو وادى النيـل من الغابات استعمل أهله أخشاب النخيل والجميز والأثل والسنط لكثرة وجودها بالوادى رغم رداءة مادتهـا . ولندورة الخشب الجيد أصبح غالى الثمن ، ومع غلائه تقدمت التجارة كثيرا فأخذ أغنيـاء القطر يجلبون من سورية ما يلزمهم من خشب الأرز الذى صنع منـه نجاروهم ما يدهش الناظر ويأخذ بلبه . وبرع صناع ذلك العصر فى صناعة خشب الآبنوس والعاج المستحضرين من الأقاليم الجنوبية . وانتشرت صناعة السفن فى كل مدينة ومزرعة كبيرة . ثم تعددت أنواعها فأصبح منها الضخم الكبير المستعمل لشحن البضـائع والغلال والبهائم ، كما صار منهـا القوارب البحرية البديعة ذات القلاع العظيمة والمجاديف العديدة التى استعملها الأمراء للتنعم والرفاهية . وسفن ذلك العصر أقدم سفن معروفة للآن طافت شواطئ البحر الأحمر .

وفى الوقت الذى كان الحفارون يصنعون فيه جميل الأوانى والأوعية والجرار والأظرف والصحاف الكبيرة كان الخزاف يخرج بديع الأوانى اللامعة ذات اللون الأزرق أو الأخضر الناصع فأخذت بمجامع قلوب أهالى تلك الأزمنة حتى فضلوها تدريجا على الأوانى والأوعية الحجرية . وصنع الخزاف الزلع الكبيرة لتخزين الزيوت واللحوم وغيرها من أنواع الغذاء فى مخازن الأمراء والحكومة . وانتشرت الأوانى الخزفية بين ملايين الفقراء فأصبح لصناعتها مركز عظيم فى القطر . وأوانى هذا العصر ليست مزخرفة ولا متنوعة . واستعمل الزجاج فى طلاء الخزف ولكن لم تعمل منه أوان أو أدوات . ولما كانت أراضى القطر زراعية كثيرة المراعى كانت صناعة الجلود بطبيعة الحال معلومة ، فقد دبغ المصريون الجلود بمهارة فنعموها وصبغوها بكل الألوان واستعملوها لأغطية المقاعد والمضاجع والوسادات كما صنعوا منها المظلات والستائر . وارتقت صناعة الكتان لكثرته بالقطر فوضعت مزارع فرعون الكتانية تحت ادارة أمير نبيل . وغزل نساء الفلاحين الكتان ونسجوه وصنع القوم



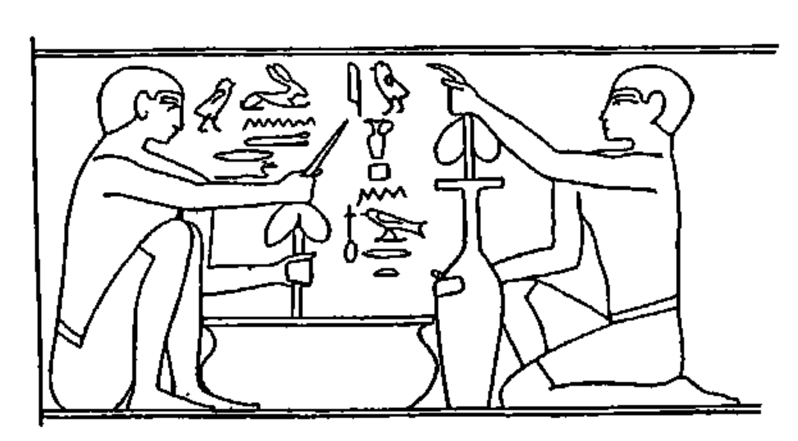
شكل ٤٢ — صناعة السفن فى عهد المملكة القديمة

أنسجة كتانية خشنة متينة جيدة المادة ووصلت الينا أنسجة ملكية من هذه المادة غاية فى الدقة والرقة يصعب على الرائى تمييزها من الأنسجة الحريرية إذ تبدو تحتها أعضاء لابسها . واستعمل القوم غير الكتان نباتات أخرى تنمو فى المستنقعات والأباطح فى صناعة منسوجاتهم الخشنة كالبردى . وصنعوا من البردى أيضا قوارب خفيفة عريضة وذلك بضم سيقان النبات بعضها لبعض ، وصنعوا منها أيضا الحبال بجدل تلك السيقان . واستعاضوا عن البردى أحيانا ليف النخيل بجدلوه وصنعوا منه الحبال ، ثم ضفروا سيقان البردى فصنعوا منها الأخفاف والحصر . وأهم من هذا وذاك أنهم شقوا أوراق البردى قطعا مستطيلة ثم لصقوها فكونوا بذلك الأدراج المعروفة . واستعمال ورق البردى والمداد بسهولة فى المكاتبات وقتئذ كان من أعظم أسباب انتشار الخط الهيروغليفى وسريانه الى فينيقيا ثم الى سائر العالم المتمدين فاستعير منه حروف هجائية . وهكذا بعد ما كان القوم يكاتب بعضهم بعضا بالنقش على الألواح الطينية التى يتراوح وزن كل منها بين الثمانية والعشرة الأرطال ويستعملون لذلك الخط المسمارى أصبحوا يستعملون ورق البردى لخفته وسهولة حفظه بين طيات الملابس على

الصدور ولكبر مساحته أيضا . كل هذه الميزات تظهر لنا السر فى كثرة توريد الأدراج البردية من مصر الى فينيقيا فى القرن الثانى عشر قبل المسيح[1] وتبين أيضا سبب أهمية صناعة البردى فى عهد المملكة القديمة .

وما أكثر المراكب والسفن التى مخرت فى مياه النيل وقتئذ مشحونة بخيرات البلاد الزراعية والصناعية قاصدة خزانة فرعون أو الأسواق التجارية . وتعامل القوم تجاريا بالمبادلة فاشتروا الأوانى الخزفية مثلا بالسمك والمراوح بالبصل والصناديق الخشبية بعلب العطر والدهان (شكل ٤٦) .

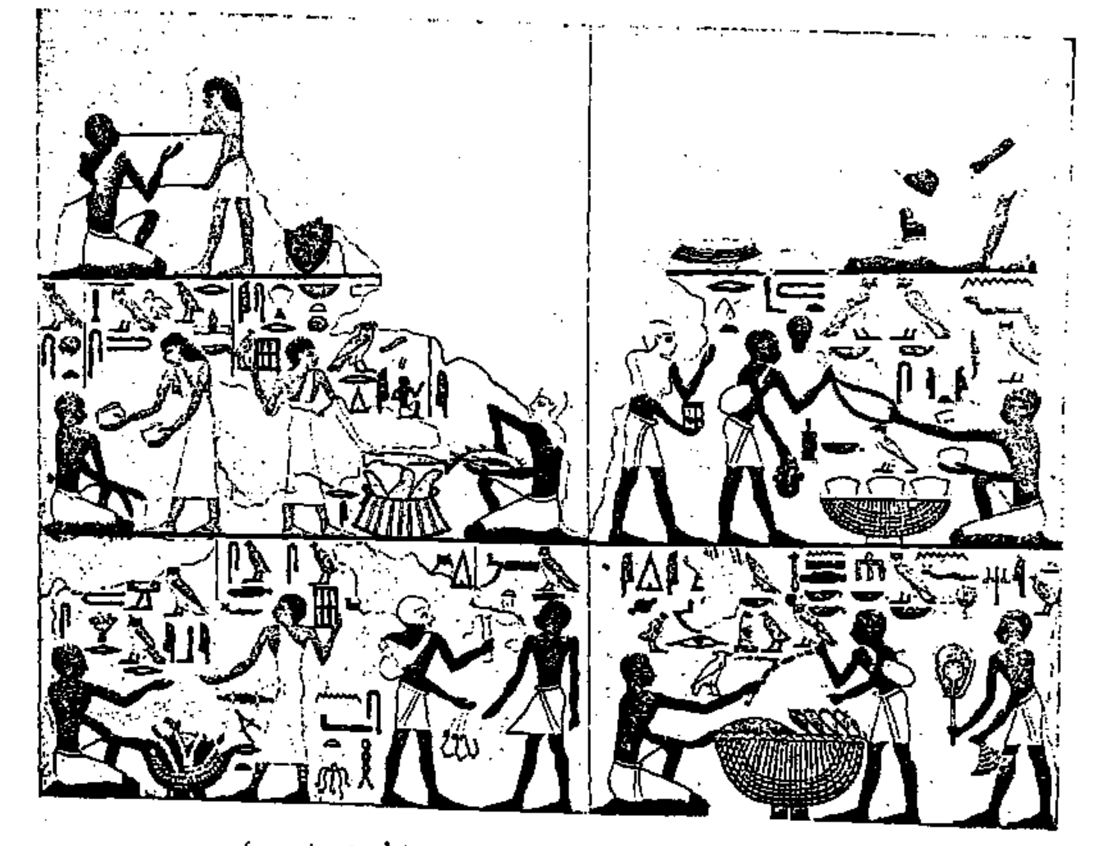
أما الأشياء الثمينة فكانت تشترى بحلقات ذهبية أو فضية ذات ثقل معروف وتعتبر أقدم عملة معروفة فى التاريخ . وتوزن البضائع بمثاقيل حجرية منقوش عليها قيمة وزنها وهى على شكل حلقات أيضا . ولندورة الفضة كانت أغلى ثمنا من الذهب . وتقدمت البلاد فى التجارة والمالية فى عهد المملكة القديمة



شكل ٤٣ — نحت الأوانى الحجرية فى عهد المملكة القديمة : تلاحظ بين النحاتين نصوص هيروغليفية لمحادثات بينهما قال أحدهما فيها للآخر : "هذا آناء بديع للغاية" فأجابه الآخر بقوله : " هو كذلك حقيقة "

فدونت المعاملات الخاصة بهذه المسائل فى سجلات كما أن الطلبات والايصالات كانت لا تعتمد الا كتابة وكذا الوصايا والأعمال كانت تسجل للتأكد ومراعاة النظام . والعقود الطويلة المدة كانت تدون كاملة الشروط حتى لا يبقى هناك مجال للشك والارتياب . ولكل أمير كتبة وأمناء يجردون أملاكه و يدونونها و يديرون حركة مخابراته الرسميـــة مع الأمراء وغيرهم . وقد عثر حديثا بجزيرة الفيل بمنزل قديم طينى مهدم على بقايا أوراق بردية لأمراء تلك الحـــدود يرجع تاريخها الى القرن السادس والعشرين قبـــل الميلاد تحوى معلومات منزلية وتجارية تخص صاحب ذلك المنزل . ولم يحتفظ الفلاحون الذين عثروا على هذه البقايا البردية بها لجهلهم قيمتها فلم يبق منها الا النزر اليسير ومنه عرف أن تلك الأدراج كانت

(1) ٤ : ٥٨٢ وأيضا هنا الفصل الرابع والعشرين



شكل ٤٦ – منظر لسوق فى عهد المملكة القديمة (مأخوذ عن لبسيوس)



شكل ٤٩ — تمثال لشخص يقال له (رَعْ نُوفَر) مصنوع من الحجر الجيرى (دار تحف القاهرة)

شكل ٤٨ — تمثال للملك خفرن (خفرع) مصنوع من الحجر الصوّان - (دار تحف القاهرة)

شكل ٤٧ — عقد يرجع تاريخه الى الأسرة الثالثة كشفه الأستاذ جارستانج فى قبر بجهة بيت الخلاف

صور أحكام قضائيــة ومذكرات . وقد اهتمت بها الحكومة الألمـانيــة حديثا فطبعها رجال دار التحف ببرلــين حيث توجد محفوظة به للآن (شكل ٤٥) .



شكل ٤٤ — حصيد البردى فى عهد المملكة القديمة : يشاهد بالقسم الأيسر فى الرسم رجلان يجمعان سيقان البردى ثم رجلان آخران يضمان تلك السيقان بهيئة حزم ثم أربعة رجال يحملون تلك الحزم

فى مثل هذه الظروف اشترط على كل موظف حكومى أن يكون متعلما راقيا . ولشــدة حاجة الادارة المـالية لكتبة الحســاب أنشأت الحكومة مدارس خاصة لتخريج أشخاص لائقين لهذه الأعمال . ولمـا كان اهتمام المصرى بالعلم لفائدته فقط كان ولوعا بالبحث وراء الحقائق واقتفاء العلوم من أجل ذاتها . وعلى كل حال فالتعليم وقتئذ كان مشرفا لصاحبه حتى بكر القوم فى ارسال أطفالهم الى المدارس مع الدقة فى مراقبتهم . وكثيرا ما كان الأساتذة يسدون النصائح والمواعظ الى الطلبة لكنهم استعانوا أحيانا بالقسوة ليتمكنوا بها من التأثير فى أذهانهم . فمن أقوالهم المأثورة "أذنا الطفل على ظهره فلا يسمع الا اذا ضرب عليهما"[1] . واهتم القوم بتلقين أطفالهم الحكم والآداب العاليــة واهتمامهم كان بليغا بحسن الخط . ولا يخفى أن الخط الهيروغليفى أصعب الخطوط مراسا لكثرة ما يحوى من صور الحيوانات والآدميين التى يشاهدها الزوار بدور التحف والآثار ، ولذلك صعب استعماله فى الأعمال العادية اليومية. ولمـا أكثر القوم من استعمال الأدراج البردية والكتابة عليها اختزلوا الخط الهيروغليفى الى ما هو معروف الآن بالخط الهيراطيقى . ويرجع هذا الاختزال الى أقدم أسر المملكة القديمة . والفرق بين هذين الخطين كالفرق بين خطى المطابع والأيدى فى اللغات الأوربية . وقد أثر انتشار هذا الخط المختزل فى أعمال الحكومة والتجارة على نظام الادارة والمعيشة كثيرا فأصبح أداة للتمييز بين الأمى والمتعلم كما هى الحال فى عهدنا هذا ، واشترط على كل من يرغب فى التوظف فى الحكومة كاتبا أو أمينا بالمخازن أو ناظر زراعة أن يكون ملمـا بالخط الهيراطيقى . وقد عثرنا على أدراج

شكل ٤٥ — رسم لعمودين من النصوص المصرية القديمة مأخوذ من ميثاق رسمى يرجع تاريخه الى عهد المملكة القديمة . وهذه النصوص مكتوبة بالخط الهيراطيقى على درج من البردى . والأصل محفوظ بدار تحف برلين

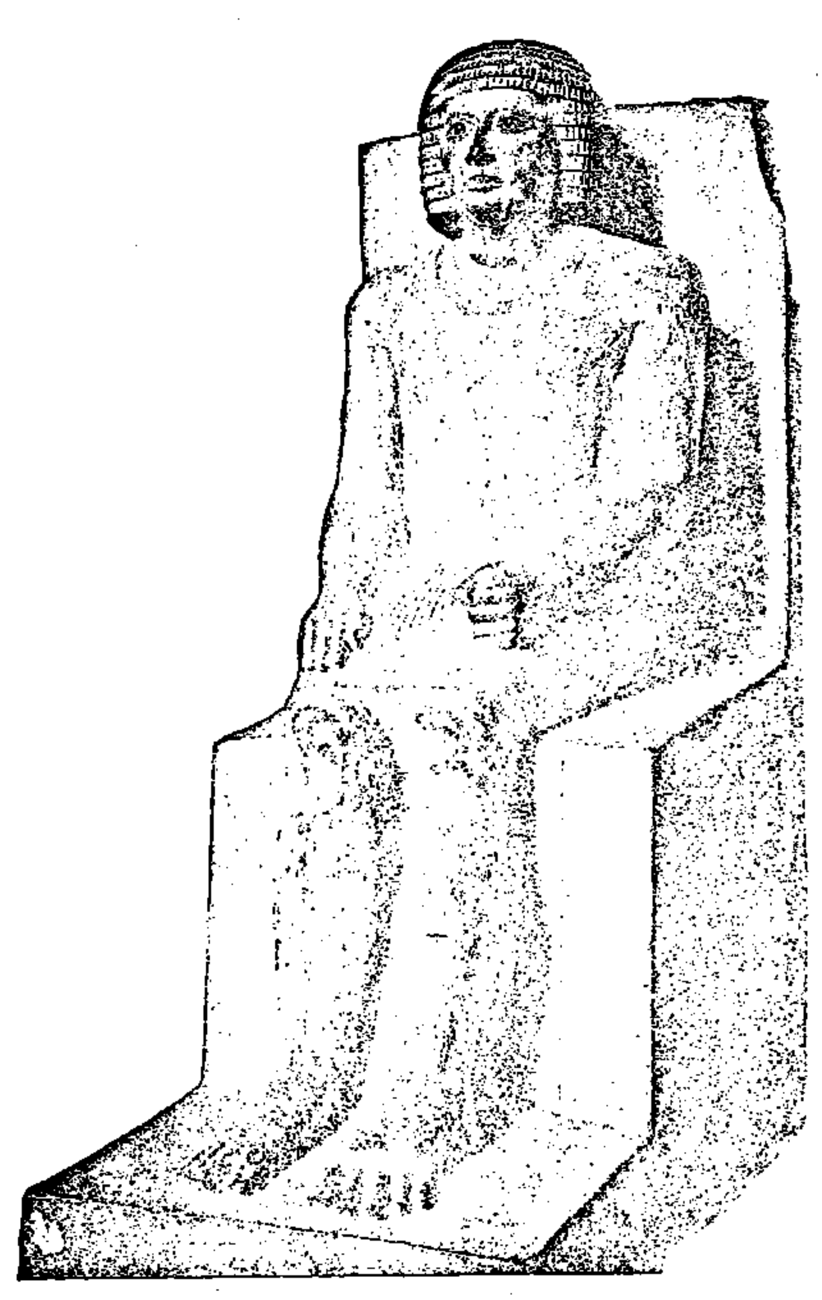
(1) Pap. Anast. 3.3=Ibid. 5, 8.

بردية استعملها صبية المدارس مدون بها حكم وجمل علمية ونماذج خطية القصد منها تمرين الطالب على كتابتها . وعثر حديثا على كمية كبيرة لمثل هـذه الأدراج يرجع تاريخها الى عهد الامبراطورية أى بعد المملكة القديمة بألف وخمسمائة سنة تقريبا . وترجع معظم معارفنا عن تلك العصور الى ما خلفه لنا التاريخ من تمارين طلاب العلم وقتئذ ، ويجد القارئ فى هذه التمارين اصلاحات المدرسين لها على الهامش . وعند تمام الدراســة المقررة يلحق الطالب بمكتب أحد الموظفين للتمرين على الأعمــال الكتابية وتصريف الأمور حتى يصبح كفئا للالتحاق بوظيفة صغيرة تبتدئ بها حياته الكتابية .

وان اهتمام المصريين بالعلم كان لفائدته العملية فقط ، ولم تتق نفسهم الى دراسة أصول الطبيعة والكون الا اذا اضطرتهم الضرورة لذلك ، وهذا أمر طبيعى فيمن لا يميل الى البحث فى الحقائق الغامضة ، ولذلك لم تتقدم معارفهم الا فيما يتعلق بمعيشتهم اليومية وأعمالهم الدائمية . وكانت معلوماتهم الفلكية كثيرة تمكن أجدادهم بهـا من توقيت زمنهم بالسنين قبل عهد المملكة القديمة بألف وثلثمائة سنة تقريبا . ثم رسموا السماء وعرفوا أهم نجومها وابتكروا آلات مضبوطة تعرفهم مراكز النجوم ، لكنهم لم يهتموا بالتفكر فى أصل هذه النجوم لعدم فائدته فى نظرهم فلم يكلفوا أنفسهم مئونة التفكير والاجهاد . ولشدة احتياج القوم الى الحساب فى معاملاتهم الحكومية والتجارية مهروا فيه . ووجد الكتبة بعض صعوبة فى حساب الكسور فحولوها الى أعداد صحيحة بالنسبة الى وحدة معينة الا كسر الثلثين الذى استعملوه بلا تعب أو عناء . وتوصل الكتبة الى حل بعض المعادلات الجبرية البسيطة والى معرفة مبادئ علم الهندسة فقدروا مساحة الدوائر بدقة غير أنهم صعب عليهم ايجاد مساحة شبه المنحرف . وترجع معرفة المصريين لحجم نصف الكرة وسمة الاسطوانات الى احتياجهم الى معرفة حجوم كومات الحبوب وما تحويه الشون المستديرة الجدر من الغذاء . كل هذه العلوم استعملت فى الأعمال اليومية بدون اهتمام للبحث عن أصلها . واشد ما عجب المؤرخون من الضبط والاتقان اللذين توصل اليهما المصريون فى رسم قواعد الأهرام كهرم الجيزة الأكبر حيث تجسم معالم الدقة والاتقان فى اتجاه الأضلاع نحو الجهات الأصلية الأربعة ممـا يتمشى مع دقة الآلات الهندسية الحديثة . وقد عرف مهندسو العمارة والبناءون شـيئا كثيرا من علم رفع الأثقال (الميكانيكا) كما يستدل من قبو مقبرة ببيت الخلاف يرجع تاريخها الى القرن الثلاثين قبل الميلاد . ولا يزال هـذا القبو أقدم بناء معروف من نوعه للآن (شكل ٤٧) .

ولم تكن معلومات القوم الهندسية فى نقل الآثار الضخمة الا بسيطة أوليــة لجهلهم بالبكرات والمحاول (Rollers) . أما الطب فكان غزير المعلومات والنظريات الصـادقة التى تشير الى دقة فى الملاحظات . وللملك طبيب خاص رفيع المنزلة عظيم المكانة يشخص المرض ويصف العلاج المفيد . لكن يلاحظ أن أغلبه آت من طريق الوهم كاتخاذ مستحلب شـعر العجل الأسـود لمنع الشيب . وجمع القوم علومهم الطبيــة فى أدراج بردية[1] فاستعملها خلفهم من بعـدهم فزادت شهرتها .

(1) ١ : ٢٤٦



شكل ٥٠ — تمثال لشخص يقال له (حم ست) . (دار تحف اللوفر . مأخوذ من كابار)



شكل ٥١ – رأس تمثال خشبي لشيخ البلد
(دار تحف القاهرة)

شكل ٥٢ – تمثال لكاتب من الحجر الجيري من عهد المملكة القديمة
(دار تحف اللوفر)

وانتقلت بعض الوصفات الطبية الى اليونان ثم الى أوربا حيث لا تزال معمولا بها بين المزارعين الى الآن . وكانت العقبة الكأداء فى تقدم الطب وقتئذ اعتقاد القوم الراسخ بتأثير السحر حتى تساوت منزلة الطبيب بالساحر فأصبح المرضى يتعاطون معظم عقاقيرهم مصحوبة بتعاويذ سحرية . ثم اعتقدوا أن التعاويذ أنجع فائدة من العقاقير لأنهم اعتبروا الأمراض نتيجة تلبس الأجساد بالأرواح الخبيثة التى لا تتأثر الا بالسحر .

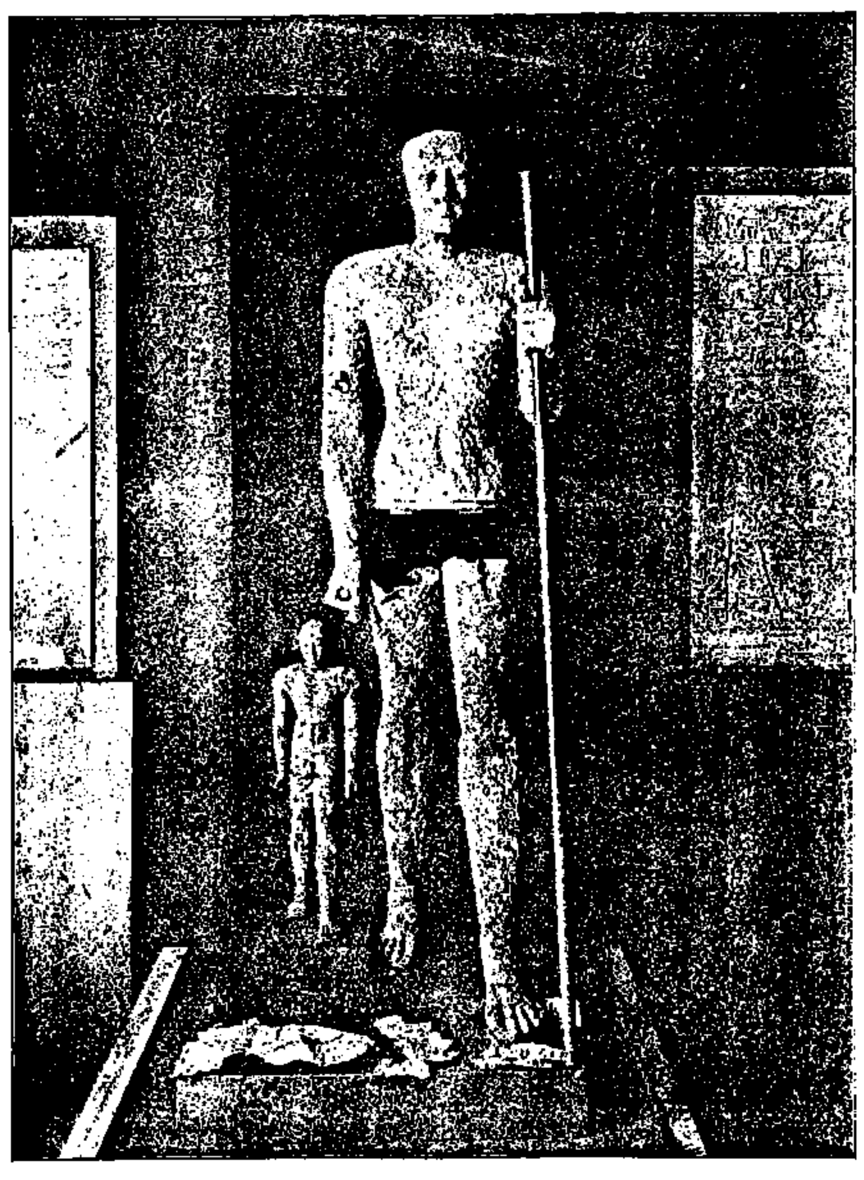
وبلغت الفنون الجميلة درجة قريبة من الطبيعة بعيدة عن الأوهام لم تبلغها أية بلدة أخرى فى تلك العصور القديمة . ولم يكن المصرى بطبعه ميالا لتجسيم الجمال وتفضيله على غيره كاليونانيين بل كان مغرما بمظاهر الطبيعة الأصلية فقط كما يراها داخل منزله وخارجه، ولذلك نقش زهر اللوطس على أيدى ملاعقه وشرب النبيذ فى أقداح زرقاوية اللون على شكل برعوم اللوطس وصنع أرجل سريره بهيئة أرجل الثيران القوية العضلات ولبسها بالعاج ورسم سقف منزله بهيئة سماء تبدو منها النجوم ورفعها على أعمدة شبيهة بالنخيل الباسقة الأغصان أو بسيقان اللوطس المنتهية أعاليها ببراعيم ذلك النبات . وكثيرا ما زين المصرى أسقف حجراته برسوم الحمام والفراش الطائرة بين الأشجار وكان يحلى أرض منزله باللون الأخضر على شكل مستنقعات يسبح بين أعشابها السمك وتشاهد فيها أحيانا ثيران وحشية طاردة للعصافير المحلقة فوق الأعشاب المائلة . ويرى الناظر أن هذه الطيور تسعى فى الوقت نفسه لخلاص صغارها من ابن عرس الذى يريد افتراسها . أما الأدوات المنزلية المستعملة يوميا فى منازل الأغنياء بجميلة متناسبة الأجزاء تشاهد على أبسطها صنعا مناظر الطبيعة وجمالها المرئيان فى خلاء القطر المصرى وقتئذ . ولما كان هم المصرى تحسين وتنميق كل أداة مفيدة عمليا لم يعر الجمال أهميته النظرية فكانت الأشياء العملية أهم ما أخرجته أيدى صناع ذلك العصر . فاذا نظرت مثلا الى تماثيل المملكة القديمة تجدها بلغت حدا مدهشا من حيث المطابقة للأصل، والسر فى ذلك أن القوم لم يصنعوا هذه التماثيل للفرجة والتجارة بل لفائدة الميت فى الآخرة كما ألمعنا الى ذلك (الأشكال ٤٨ و ٤٩ و ٥٠ و ٥١ و ٥٢) . والتماثيل نوعان نوع يمثل الشخص بشكله المعتاد المعروف به بين أهله وقومه والآخر يظهره بشكل اصطلاحى ثابت على ممر الدهور . وقد بذل المثالون جهدهم فى جعل التماثيل مطابقة للأصل فلونوها بالألوان الطبيعية وصنعوا الأعين من الحجر البلورى فأصبحت ملامح الحياة البادية على تماثيل العهد المنفى لا مثيل لها فى تماثيل أى جيل بعد ذلك . ويرجح أن أحسن ما عرف من التماثيل الجالسة للمملكة القديمة هو تمثال الملك خَفْرَعْ بانى هرم الجيزة الثانى (شكل ٤٨) فقد صنع هذا التمثال من حجر الصوّان (Diorite) وروعيت فيه ملامح الجسم المهمة بوضوح واتقان على رغم صلابة مادته . والحق يقال ان صانع هذا التمثال كان من أبرع رجال طائفته وقتئذ لأنه تغلب على صعوبات جمة لا يصادفها المثال العصرى . زد على ذلك أنه أتم عمله بمهارة واتقان فأخرجه تمثالا حقيقيا لا يمحوه الدهر ويشهد فى الوقت نفسه لصانعه بالصبر والبراعة اللذين امتاز بهما رجال ذلك العصر نحو ملوكهم . أظهر المثالون فى نحت الأحجار اللينة مقدرة سلبت لب الناقد كما يشاهد فى تمثال حِمِيتْ الجالس المحفوظ بمتحف اللوفر (شكل ٥٠) حيث تشاهد على

وجهه معالم الحياة كلها تقريبا ، أما الجسد فلا يبدو عليه ذلك المقدار من الدقة لأن المثال اعتبر الرأس أهم جزء فى التمثال فصرف كل جهده فى اتقانه . وقد صنعت معظم تماثيل الملوك والأمراء على هذا الشكل . أما النوع الثانى فكان قليل الصنع نسبيا واليه ينتمى تمثـال الكاهن رَعْ نُوفَرْ الذى تبدو عليه سيماء الأنفة والكبر الخاصــة بأمراء تلك العصور (شكل ٤٩) . ويوجد بدار التحف بالقاهرة تمثال لشيخ البلد قصير القامة مملوء الجسم تبدو عليه علائم الامارة مصنوع من الخشب بمهارة واتقان جعلاه من أهم تماثيل المملكة القديمة المعروفة للآن (شكل ٥١) . واتفق أن ملامح هذا التمثال كانت مطابقة لملامح شيخ البلد الذى انتمى اليه العمال الذين عثروا عليه فلمـا وقع عليه نظرهم صاحوا صوتا واحدا "هذا شيخ بلدنا" فعرف التمثال منذ ذلك الوقت بهذا الاسم ولا نزال نجهل صاحبه الأصلى . أما رسوم الخدم فلم تراع بها كلفة ولا أصول كما هى الحال فى رسوم الأمراء ، ولذلك ترى الخدم بهيئتهم الطبيعية يؤدّون أعمـالهم فى قبر سيدهم كما كانوا يتعلمون فى منزل دنياه . ثم اعتقد القوم أن حاشية كل سـيد تصحبه بعد وفاته فى الآخرة وتقوم بخدمته هناك كما فعلت فى الدنيـا فصنعوا تماثيل لأفراد الحاشية مطابقة لمهنتهم فى الدنيا ، مثال ذلك : تمثال الكاتب الشهير المحفوظ بدار التحف باللوفر (شكل ٥٢) تبدو عليه النحافة والشخصية البارزة يتخيله الرائى انســانا حقيقيا جالسا مستعدا لتدوين ما يمليه عليه سيده من الأوامر مع أنه مر عليه خمسة آلاف سنة تقريبا . ومن هذا النوع أيضا تمثال رأس الأسد (شكل ٥٧) الذى وجد بمعبد الشمس ببلدة نصير والمصنوع من حجر صلب للغاية .

ولم يدر بخلد أحد أن تحجب الصناعة تمـاثيل معدنية بحجم الشخص الطبيعى بمثل ما فعله المثالون والنحاسون الذين تمكنوا وقتئذ من صنع تمثال للملك پپى الأول بحجمه الطبيعى فى أول عيد من أعياد جلوسه . وقد جعل قوام هــذا التمثال عمود خشبى ثم ألبس المعدن مجوفا مطرقا وصنعوا عينيه من الزجاج الطبيعى والحجر الرملى الأبيض . وهو الآن محفوظ بدار التحف بالقاهرة (شكل ٥٣) . ومع أن هذا التمثال قد أصابه العطب والكسر والصدأ فان رأسه لا تزال من أبدع ما وصل الينا من آثار ذلك العصر لقربها من الطبيعة .

وبلغت الصياغة شأوا كبيرا ومارسها المثالون فأخرجوا للمعابد المصرية تماثيل ذهبية بديعة كرأس تمثال النسر المقدس الذى وجده المستر كويبل بمعبد مدينة الكاب (هيرا كونبوليس) — (شكل ٥٨) . وجثة هــذا الطائر مصنوعة من النحاس المطرق وقد فقدت ، وظاهر أن رأسه مطوّق باطار تعلوه ريشتان سليمتان طويلتان مصنوعتان من الذهب المطرّق وهو عبارة عن قطعة واحدة من الذهب الخالص داخلها قضيب من الزجاج الطبيعى (Obsidian) ينتهى طرفاه بعينين لامعتين جميلتين .

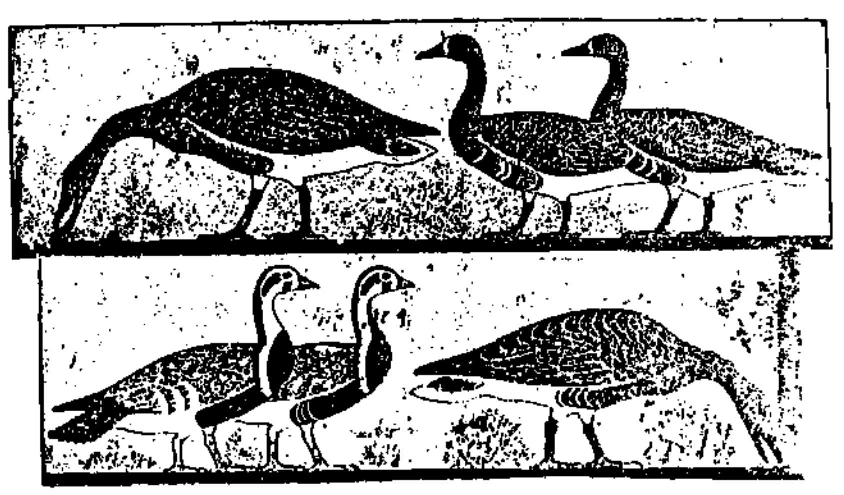
وتمتاز رسوم المعابد ونقوش جدر محاريب المصاطب فى عهد المملكة القديمة ببروزها ، وهو أمر يتطلب براعة ومهارة فى تقدير البروز مع تناسب حجم الأشكال السطحى خصوصا فى رسم الأشـياء المستديرة والسميكة . والغريب أن هذا النوع من الحفر كان معروفا قبل عهد المملكة القديمة ، وأن القوم اصطلحوا قبل عهد الأسرة الثالثة على طريقة لذلك فقدّسوها ولم يحيدوا عنهـا مع تقدمهم فى الرسم بعد ذلك ومعرفتهم أغلاطهم . وتتلخص هذه الطريقة فى رسم أوجه وأكتاف الآدميين مشاهدة



شكل ٥٢ – تمثالان للملك پپي الأول وابنه يمثلانهما بحجمهما الطبيعى مصنوعان من النحاس المطرق
(دار تحف القاهرة)



شكل ٥٤ — رأس تمثال الملك ببي الأول المصنوع من النحاس وعيناه يظهر أنهما مصنوعتان من البلور الصخري
(دار تحف القاهرة)



شكل ٥٥ — رسم أوز مأخوذ من مقبرة بميدوم يرجع تاريخها الى عهد المملكة القديمة .
ويلاحظ الرسم قسمان أعلى وأسفل وهذان كانا أصلا متصلين بعضهما ببعض فى المسافة بين الأوزتين الآكلتين (دار تحف القاهرة)

من الأمام ، أما الأجسام فترسم كما ترى من الجانب ، وعلى هذه الطريقة استمر المصريون ينقشون رسومهم طول عهد المملكة القديمة لكنها كانت غاية فى الحسن والجمال (شكل ٥٦) . وقد اقتبسنا معظم معارفنا عن الحياة الاجتماعية فى عهد المملكة القديمة من رسوم جدر المصاطب المنفية . ومن أعظم أمثلة هذه الرسوم لوح باب حِسِى رَعْ الخشبي (شكل ٥٩) الموجود بدار التحف بالقاهرة. ولوّن القوم جميع النقوش البارزة لكنهم لم يجسموها تماما كما يشاهد فى الآثار اليونانية. ولا مراء فى أن المصريين أتقنوا النقش بالألوان واستعملوه كثيرا، من ذلك رسم سرب الأوز بمقبرة بميدوم (شكل ٥٥) الذى تجسم فيه براعة المصور المنفي وطول باعه فقد أتقن انعطاف رأس هذا الطائر وبطء حركته وانثناء عنقه وقت التقاطه دود الأرض بشكل يقرب جدا من الطبيعة . ولا شك فى أن مثل هذا الرسم يشهد لصانعه بالمقدرة وعظم الاعتماد على النفس وكثرة التمرن فى هذا الفن الجميل .

ويمتاز الحفر فى المملكة القديمة بشدة مطابقته للطبيعة والحقيقة مع عناية فائقة فى انجازه ، ولذلك أصبح أصحاب هذا الفن الأقدمون يقارنون بزملائهم الحديثين . والمعروف أن المثال المصرى كان الوحيد وقتئذ فى الشرق الذى مثل جسم الانسان على الأحجار . ولما كان أبناء ذلك العصر قليلى الملابس برع كثيرا فى رسم العراة . واليك ترجمة ما قاله المسيو شارل بيرو (Charles Perrot) عميد علم العاديات بهذا الخصوص : "يجب علينا أن نعترف بأن مثالى المملكة القديمة أخرجوا لنا نقوشا لا تفوقها أحسن رسوم أوربا الحديثة"[١] . واتقان تماثيل المملكة القديمة مقصور على المظاهر فقط فيشاهد الانسان عليها ملامح الانفعالات النفسية التى تعترى الشخص فى حياته . ومن دواعى الأسف أننا لم نهتد للآن الى ترجمة حياة أحد هؤلاء الأساتذة وكل ما عثرنا عليه هو اسم مثال أو اثنين مع طول مدة ذلك العهد التاريخى .

وترجع معلوماتنا عن عمارة المملكة القديمة الى مباحثنا الحديثة فقط لأننا لم نعثر للآن على آثار منازل أو قصور نتبين منها خفة مادة البناء وتعدد منافذه ، وجل ما وصل الينا من هذا القبيل المصاطب الضخمة الحجرية . والمعروف أن أهم عمارة ذلك العصر هو المصاطب والأهرام والمعابد . وقد ألمعنا الى هندسة المعابد فى الفصل السابق وهى عبارة عن خطوط رأسية وأفقية بغاية البساطة ، ومع أن القبو كان معروفا فلا نجده مستعملا كثيرا فى العمارة . أما السقف فكانت تقام على عمد من حجر واحد جرانيتى مضلع سواء أكان رباعيا أم أسطوانيا وهى أقدم ما عرف من نوعها حتى الآن . والمظنون أنها استعملت قبل عهد المملكة القديمة لأن عمد الأسرة الخامسة كانت متقدمة فى فن البناء فقد وجد بعضها على شكل النخيل الباسق القضبان أو بهيئة باقة البردى تحمل السقف على براعيمها (شكلى ٦٠ و ٦١) وهى على العموم متناسبة الحجم . والمعروف أن ساحات معابد المملكة القديمة من أجمل ما تركه لنا فن البناء فى ذلك العصر لأنها كانت محاطة بالعمد البديعة مزدانة الجدر بالرسوم الزاهية البراقة . ومنه يستنتج أن مصر كانت مهد صناعة العمد . ومع أن أهل بابل تقدموا

(١) Perrot and Chipiez, History of Art, II, p. 194.

فى تشييد المبانى الضخمة لم يبتكروا العمد التى صنعتها مصر بمهارة واتقان فى غضون الألف الرابع قبل الميلاد ، لذلك يرجع الفضل فى حل لغز التشييد البنائى الى قدماء المصريين .

ولما كان عهد المملكة القديمة ماديا من حيث المصنوعات والمجهودات لم يكن لترقية الآداب متسع كبير . لكن وجد بعض وزراء مثل قاقمنه و إمحتب و بتاح حتب اشتهروا بذكائهم وحكمهم فوضعوا فى خبرتهم الحيوية حكما وأمثالا راقية نسختها أقلام تلك العصور . وأقدم صورة وصلت الينا عن هذه الحكم يرجع تاريخها الى عهد المملكة المتوسطة . وقد وضع لنا الكهنة الكتّاب فى عهد الأسرة الخامسة تاريخا لملوكهم القدماء مبتدئين بملوك ما قبل الأسر الى الأسرة الخامسة باختصار فلم يذكروا الا بعض حوادث تلك العصور وأهم أعمال الملوك وهباتهم للعابد متجنبين التفاصيل التاريخية ، وتعتبر كتابتهم أقدم تاريخ ملكى من نوعه . ولما رغب الأمراء فى تخليد ذكراهم بعد الوفاة نقشوا تراجم حياتهم على جدر مقابرهم بأسلوب مختصر بسيط، صلة حوادثه الجزئية بعضها ببعض ضعيفة[1] وأهمها الحوادث والنعم الملكية التى أغدقت عليهم . ويلاحظ بين السطور أن المديح أخذ وقتئذ شكلا مخصوصا راقيا بلا تعرض للأمور الشخصية . ويرى القارئ لنصوص الأهرام ما يشير الى الاستبداد والبطش الوحشى وهذا فى الحقيقة بقايا عقائد دينية قديمة لم يبق منها الا اسمها . وتحوى هذه النصوص الدينية بعض الأساليب الشعرية لتشابه كثير من عباراتها . وتعتبر هذه النصوص أقدم أمثلة لآداب لغة تلك المدنية العتيقة . أما أغانى القوم فقد أثرت فى نفوسهم كثيرا وأفهمتهم فضل المتبوع على التابع لما يستدل من قصة الأخوين التى تداولتها الألسن بعد ذلك لاحتوائها على كثير من المحادثات بين راع وغنمه[2] وكما يستنتج أيضا من حكاية الخدم الذين خاطبوا سيدهم يوما وهم يحملونه فى الهودج قائلين ان ثقل الهودج يخف كلما تشرف بوجود سيدهم فيه[3] .

وقد استعمل القوم آلات الطرب (الموسيق) وكونوا منها جوقا خاصا للقصر الملكى تحت اشراف رئيس ، وتألف هذا الجوق من عازف بقيثارة يعزف وهو جالس وآخرين بمزمارين طويل وقصير . وكان القوم يغنون على صوت آلات الطرب خلافا لما هو جار الآن فى البلاد الأوربية . وتشتمل الموسيق على قيثارتين ومزمارين طويل وقصير . ولم نهتد الى ألحان تلك العصور ولا منتهى معرفة القوم فى تقسيم هذه الألحان .

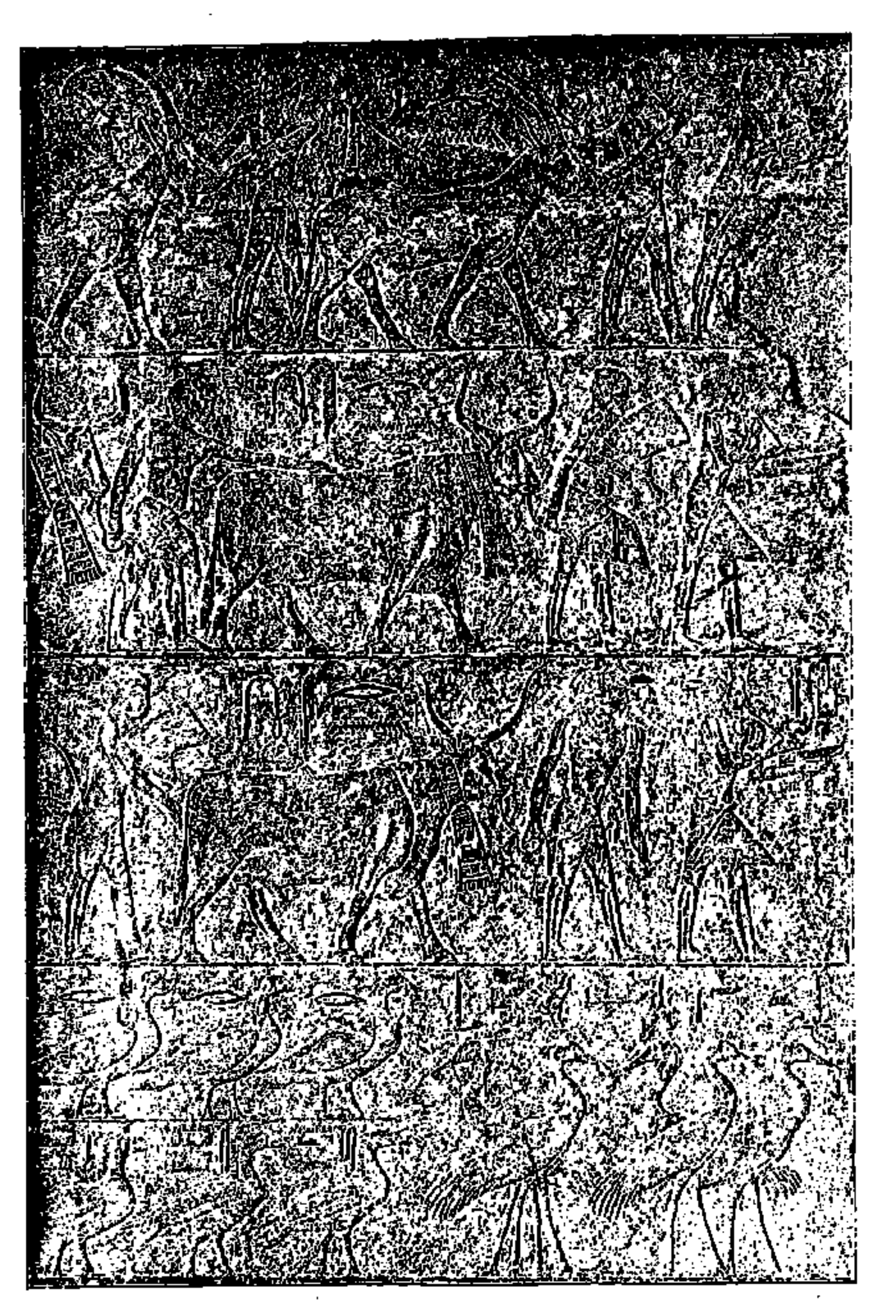
هذا وصف اجمالى لمعيشة الجد والمثابرة فى عهد المملكة المصرية مدة انتقال الحكم من ملوك طينه الى ملوك منف وبقى علينا أن نبحث فى تاريخ هذه المملكة المعتبرة الآن أقدم ممالك الأرض والتى لا نعلم عن نظامها الحكومى الا النزر اليسير .

---

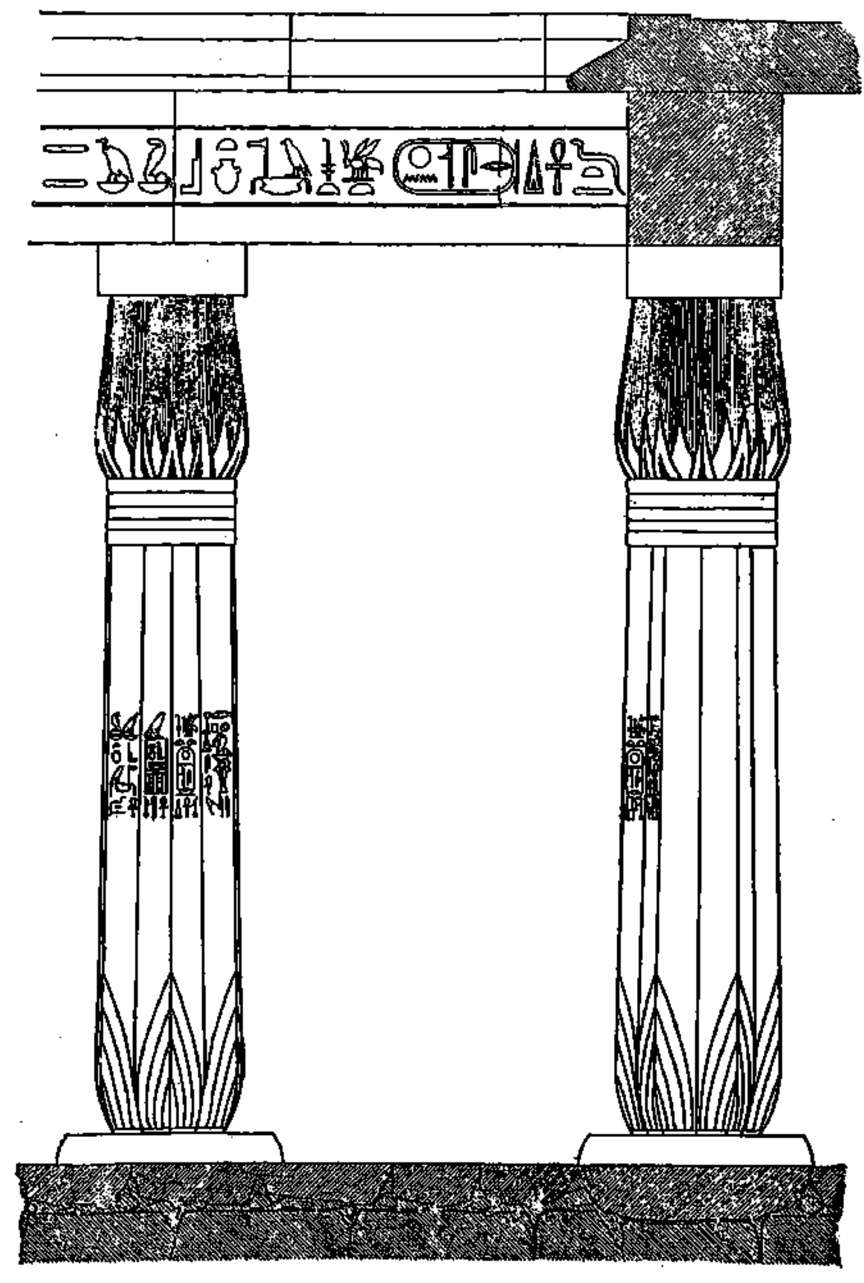
(١) ١ : ٢٩٢ - ٢٠٤ ، ٣٠٦ - ٣١٥ ، ٣١٩ - ٣٢٤

(٢) راجع شرح شكل ٣٩

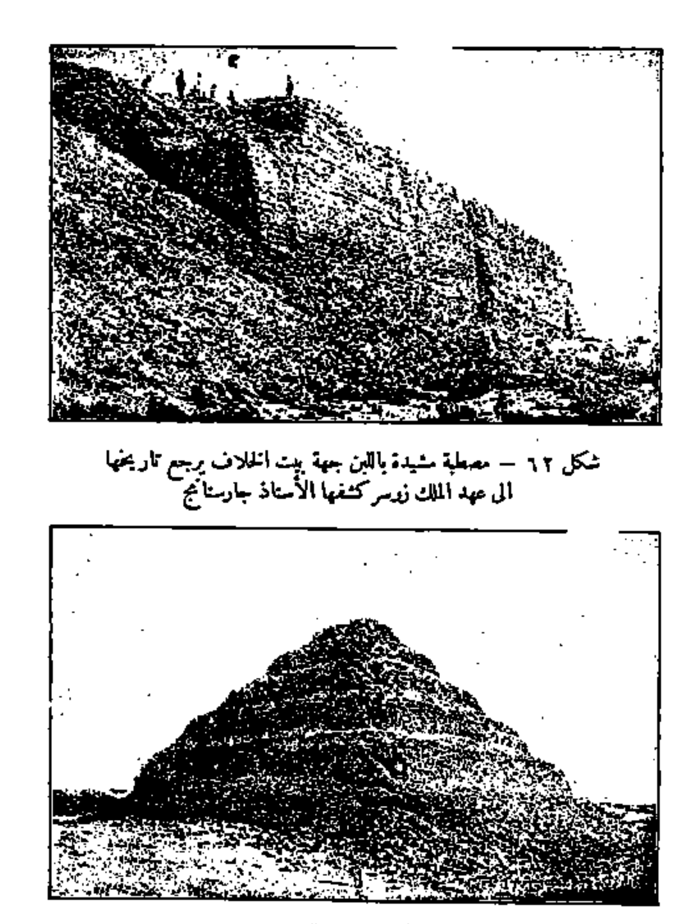
(٣) Zeitschrift 38, 65; Davies, Der El Gebrawi, II, p. VIII.



شكل ٥٦ — رسوم بارزة على جدار دير إحدى المصاطب من عهد المملكة القديمة يشاهد فيها قطعان البهائم وأسراب الطيور (دار تحف برلين)

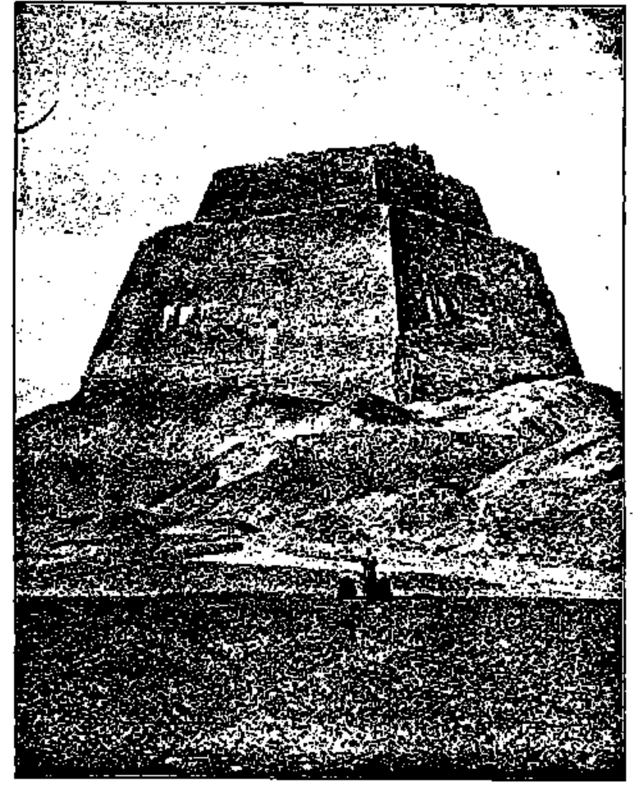


شكل ٦١ — صورة تمثل نصب العمد المحيطة بساحة معبد هرم نصير الذى يرجع تاريخه الى الأسرة الخامسة (مأخوذ عن بورخارت)



شكل ٦٢ — مصطبة مشيدة باللبن جهة بيت الخلاف يرجع تاريخها الى عهد الملك زوسر كشفها الأستاذ جارستانج

شكل ٦٣ — الهرم المدرج للملك زوسر بسقاره



شكل ٦٤ — هرم بميدوم يعزى الى الملك سنفرو

الفصـــل الســادس

عصر الأهرام

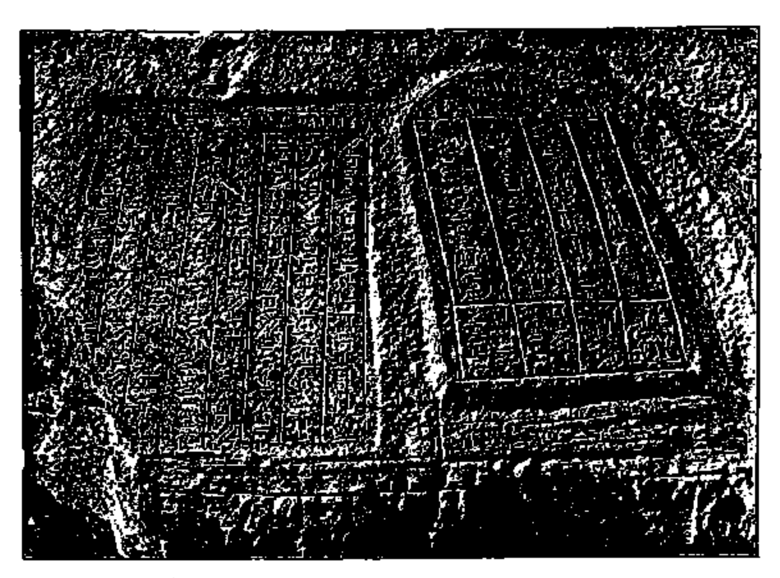
فى أوائل القرن الثلاثين قبل الميلاد انصرم حكم الأسرة الثانية الطينية بعد ما استمر حوالى أربعمائة سنة فتبعتها فى الملك أسرة منفية . وكانت منف معروفة وقتئذ بمدينة الحائط الأبيض كما جاء فى رواية مانيتو . والمرجح أن انتقال الحكم من طينه (جوار العرابة المدفونة) الى منف كان نتيجة هجرة الأسرة المالكة وليس له علاقة بتغير الأسر كما قال مانيتو . ويرجح أن الملكة نماتحاب (Nemathap) زوج الملك خاسخموى (Khasekhemui) آخر ملوك الأسرة الثانية الطينية كانت والدة الملك زوسر أول ملوك الأسرة الثالثة المنفيـة . وقد صحب انتقال الحكم من طينه الى منف تقدم تدريجى فى الحضارة وتحسين مطرد فى أحوال البلاد طوال حكم الأسر المنفية الذى يقدر بنحو خمسمائة سـنة . ومن دواعى الأسف أننا لم نعثر على معلومات كثيرة عن العهد المنفى إلا ما له علاقة بالسنوات المائتين الأخيرة منه ، أما السنوات الثلاثمائة الأولى فلا نعلم عنها شيئا سوى ما حفظه لنا التاريخ من آثارها . لذلك كانت كتابة تاريخ مصر عن تلك العصور أشبه كثيرا بكتابة تاريخ أثينا فى عهد بركليز (Pericles) لأن معلومات هذين العصرين جمعت من معابدهما وتماثيلهما وأوانيهما وغير ذلك ، وقد بلغت أثينا فى عهد بركليز درجة عظيمة فى الفكر والآداب والسياسة لم تشاهد فى أحسن عصور التاريخ المصرى . لكن مما لا مراء فيه أيضا أن آثار المملكة المصرية القديمة على قلتها توقع الدهشة والاستغراب فى نفوس باحثيها من حيث التقدم والبراعة ، لذلك سنتخذ هـذه الآثار هيكلا نشيد عليه تاريخ عصورها . وبديهى أن استنتاج المعلومات التجارية والصناعية والادارية والمعيشية وكذا الفنون والآداب الخاصة بذلك العصر من آثاره الضخمة الشامخة أمر أقل ما يوصف به أنه صعب المراس . زد على ذلك أننا لا نزال نجهل كثيرا مما انتاب القطر المصرى مدّة السنوات الخمسمائة التى نحن بصددها ، وكثيرا ما نلجأ فى مباحثنا الى التخمين والحدس خصوصا فيما يتعلق بتولية بعض الملوك وعزل الآخرين ورقى القطر تارة وتأخره أخرى وبخضوع أمراء البلاد للفراعنة وانشقاقهم عليهم أو استقلالهم عنهم مما أدى فى أواخر الأمر الى انهيار صرح الحكومة المركزية .

وأول ملك عظيم حكم فى عهد المملكة القديمة هو زوسر مؤسس الأسرة الثالثة ومثبت أساس الحكم المنفى . ومن أعمال هذا الملك مثابرته على استخراج النحاس من طورسيناء وابعاد حدود مملكته الجنوبية بضم جزء من النوبة اليها . وجاء فى رواية أثرية لكهنة إقليم الشلال الأول أن الملك زوسر وضع يده على ذلك الاقليم ووقف لخنوم (Khnum) معبود تلك الجهة ايراد الأراضى التى على شاطئ النيل فيما بين جزيرة الفيل بالطرف الأسفل للشلال وتاكومبسو (Takompso) وهى مسافة يتراوح طولها بين خمسة وسبعين وثمانين ميلا . وكثيرا ما أثار أهل ذلك الاقليم منازعات ومشاكسات على

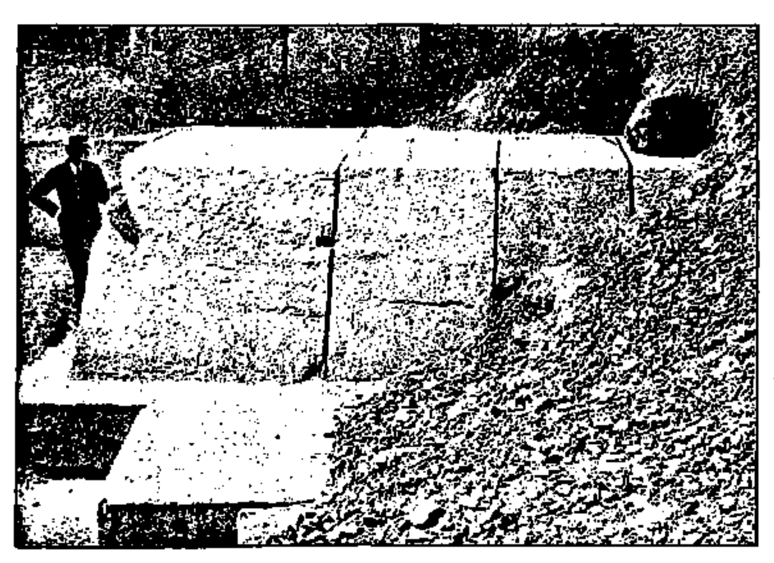
المصريين عدّة قرون . وليلاحظ أن هذه الرواية كتبها حديثا فى عهد البطالسة كهنة المعبودة إزيس ويرجح أن بعض محتوياتها مطابق للحقيقة التاريخية[١] .

ويرجع الفضل فى نجاح سياسة زوسر الى حكمة ودهاء وزيره المدعو إمحتب الذى برع فى الدين والسحر وفى ضرب الأمثال الصادقة وفى الطب والعمارة حتى ترك له اسما خالدا فى التاريخ المصرى على مدى الأزمنة . ثم اتخذه الكتّاب مثالا يحتذونه فى حياتهم العلمية فصبوا مداد محابرهم تيمنا بذكره قبل البدء بأعمالهم الكتابية[٢] وترنم الناس بأمثاله فى مدى قرون عدّة وعلت منزلته وكبرت فاعتبر فى آخر التاريخ القديم إله الطب ، وكان معروفا عند اليونان بأموزيس ومشبها بمعبودهم الطبي أسكليبوس[٣] . وقد شيد لإمحتب معبد جوار السيرابيوم بمنف وله فى كل من دور التحف فى العالم تمثال أو تمثالان من البرنز . ولا غرابة فقد كان إمحتب رجلا عاقلا ضاربا للأمثال بارعا فى الطب والعمارة حتى روى الكهنة الذين باشروا تشييد معبد ادفو فى عهد البطالسة أنهم استرشدوا بتصميم معبد إمحتب الأصلى ، ولذلك يظن أن زوسر شيد معبدا بتلك الجهة . قال مانيتو ان زوسر — وهو المعروف أيضا باسم تُسورثُروس — أول من استعمل الحجر فى البناء ونحن ننقضه بأننا عثرنا على أبنية حجرية يرجع تاريخها الى ما قبل زمن هذا الملك . والمعروف أن زوسر كان أول من شيد العمارات الحجرية الضخمة بمساعدة إمحتب ولذا عد عصر هذا الملك عصر البناء الذى زاد على ما سواه . وشيد الملوك أسلاف زوسر مقابرهم باللبن ولأحدهم مقبرة كسى أرضها بالجرانيت وأخرى شيدت فيها غرفة بالحجر الجيرى . فلما أتى زوسر حسن بناء المقابر فشيد مصطبة عظيمة باللبن ببيت الخلاّف جهة العرابة المدفونة جعل لها فتحة بأحد أطرافها تتصل بسرداب يمتد فى الأرض الرملية أسفل بناء المصطبة المذكورة ، وينتهى هذا السرداب بطريق منحدر يتصل بعدة حجرات[٤] (شكل ٦٢) . وسد هذا السرداب فى خمسة مواضع بأبواب صخرية ضخمة . ويرجح أنه لم تدفن جثة زوسر فى هذه المصطبة لأن ملوك تلك العصور اعتادوا أن يشيدوا لأنفسهم مقبرتين ، وعليه فالمظنون أن زوسر ترك الرمس المجاور لأجداده وكلف إمحتب أن يشيد له قبرا فخما بمنف يفوق فى الحجم مقابر أجداده (شكل ٦٣) . فاختار إمحتب لذلك مكانا فى الصحراء خلف منف وشيد به مصطبة حجرية على نسق مصطبة بيت الخلاّف ارتفاعها خمس وثلاثون قدما وعرضها مائتان وعشرون وسبعة أقدام وطولها من الشمال الى الجنوب أكثر من ذلك . ثم ضخم حجم هذه المصطبة تدريجا بمرور الزمن فكبر القاعدة وزاد ارتفاعها وذلك ببناء خمس مصاطب بعضها فوق بعض كل واحدة أصغر حجما من التى تحتها فنجم عن ذلك بناء مدرّج يقرب ارتفاعه من خمس وتسعين ومائة قدم وفيه ست درجات أو مصاطب ويعرف الآن بالهرم المدرج ، وهو يمثل كيفية التدرج فى البناء من المصاطب المسطحة القمة كالموجودة ببيت الخلاّف الى الهرم الأملس الجوانب المدبب القمة الكثير الانتشار بين آثار خلفاء زوسر . وتعتبر مقبرة زوسر المنفية أقدم أثر حجرى كبير معروف للآن .

(١) Sethe, Untersuchungen, II, 22–26.
(٢) Schaefer, Zeitschrift, 1898, 147–8 ; Gardiner, ibid., 40, 146.
(٣) Sethe, Untersuchungen, II.
(٤) Garstang, Mahasna and Bet Khallâf, London, 1902.



شكل ٦٥ — نصوص صخرية بوادى مغارة بطور سيناء يرجع تاريخها الى زمن الملك
أمنمحعت الثالث اعترفيها الملك سنفرو أحد معبودات تلك الجهة
(مأخوذ عن مصلحة المساحة)



شكل ٦٦ — صورة بقايا الصخور الكاسية لقاعدة الهرم الا كبر أوضح فيها
بالخطوط السوداء مواقع اتصال تلك الصخور بعضها ببعض
لصعوبة رؤيتها (مأخوذة عن كوفنجتون)

ومع جهلنا بتاريخ خلفاء زوسر فاننا نعلم أن قوة وثروة القطر المصرى وقتئذ مكنتهم من تشييد أهرام حجرية كبيرة كهرمى دهشور . ويعتبر هـذان الهرمان أقدم الأهرام المعروفة للآن وأعظم برهان على رقى وثروة المملكة المصرية أيام الأسرة الثالثة . ولا يتمالك الناظر لهـذه الآثار أن يناجى نفسه عن سر تقدم البلاد الداخلى وقتئذ بل كثيرا ما يعجز المتأمل فى هذه العمارات عن اجابة الأسئلة التى تدور فى مخيلته بصددها . والمعروف أن البلاد بلغت فى أواخر حكم الأسرة الثالثة درجة رفيعة من الرقى والعز وعلى الأخص فى عهد الملك سـنفرو الذى بنى سـفنا كثيرة طول الواحدة مائة وسبعون قدما تقريبا استعملت بمياه النيل فى الأعمـال التجارية والادارية[١] كما واصـل أيضا استخراج النحاس من طورسيناء وأخضع بدو تلك الجهات وسجل انتصاراته على صخورها[٢] . ثم وطد سيادة مصر على تلك الأقاليم حتى اعتبر فى العصـور التالية المؤسس الأكبر للنفوذ المصرى بسيناء وقد سمى باسمه أحد مناجم تلك الجهة[٣] . وبعد ما مضى على وفاته ما ينيف على ألف سنة افتخر الملوك بأن مشروعاتهم بسيناء فاقت كل مشروعات عملت هناك منـذ زمن الملك سنفرو[٤] . واعتـبر سنفرو فى سيناء إلها شريكا للمعبودة حاتحور والمعبود سُوپدْ فذكر فى الدعوات والتوسـلات التى كان يتلوها هناك العمال الحسورون الذين ضحوا بحياتهم فى تنفيذ أوامر فراعنتهم[٥] (شكل ٦٥) . ونظم سنفرو وسـائل الدفاع على حدود مصر الشرقيـة ويرجح كثيرا أنه شيد الحصون جهة البحيرات المرّة ببرزخ السويس التى بقيت الى أيام الأسرة الخامسة . وأقام الحسور والمحطات شرق الدلتا التى خلدت اسمه مدّة ألف وخمسمائة سنة تقريبا بعد وفاته[٦] . أما فى الغرب فقد بسط نفوذه على احدى الواحات الشمالية[٧] . وأعظم من هذا وذاك أنه وطد التجارة مع الأقطار الشمالية فأرسل أسطولا بحريا مؤلفا من أربعين سفينة الى بلاد فينيقيا لجلب كل الأرز الخشبية من منحدرات جبال لبنان[٨] . واقتفى أثر زوسر فشن الغارة على النوبيين الشماليين فأسر منهم سبعة آلاف أسـير ومائتى ألف من الأغنام والبهائم الصغيرة[٩] .

وقد شيد هـذا الملك القوى العزيز "حاكم الأرضين" مقبرتين لنفسه أقدمهما بميدوم فيما بين منف والفيوم وهى على نمط مصطبة زوسر الحجرية تحتها لحد الجثة . ثم كبرت هـذه المقبرة تدريجيا سبع دفعات كما فعل زوسر بمقبرته فصارت فى آخر الأمر هرما مدرّجا . بعد ذلك ملئ الفراغ الذى بين درجات المصطبة وجعلت أضلع المصطبة الأربعة ملسـاء فصارت أقدم هرم معروف للآن (شـكل ٦٤) . أما مقبرة سنفرو الثانية فأكبر من الأولى حجما وأبهة وهى على شكل هرم دهشور ويعتبر أكبر أهرام تلك الجهة وأعظم آثار فراعنة تلك العصور . واستنتج من نقوش أثرية وجدت حديثا أن أوقاف هذا الهرم نفذت شروطها لمدّة ثلثمائة سنة بعد وفاة سنفرو .

ويعتبر حكم سنفرو مبدأ عهد الرقى والرخاء والقوة الذى بلغت فيه المملكة القديمة درجة رفيعة . وفى عهده ازدادت ثروة الأمراء والموظفين وقوى نفوذهم كما ألمعنا سابقا فامتنعوا عن تشييد مقابرهم باللبن جهة العرابة كما فعل أجدادهم وأخذوا يقيمون المصاطب الحجرية البديعة حول مقبرة مليكهم

---

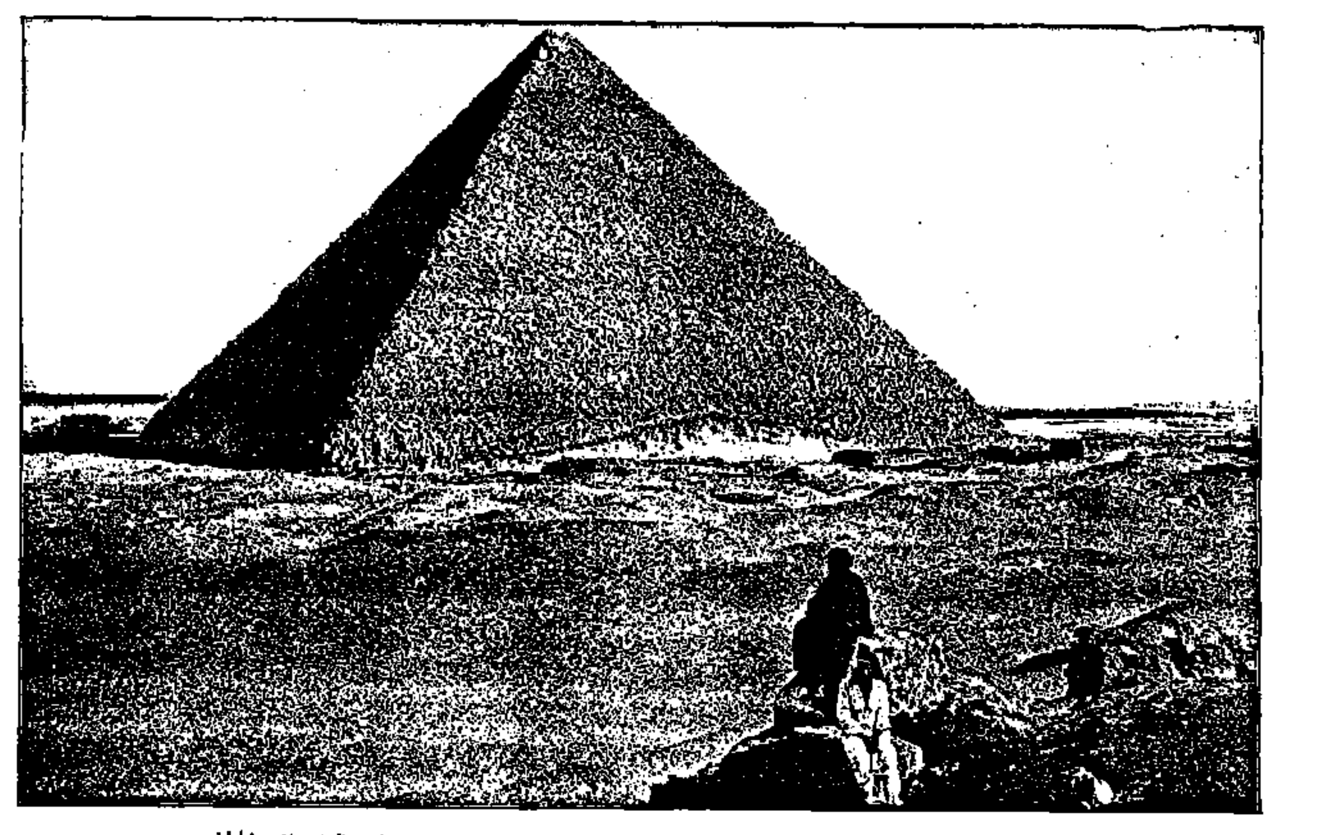
(١) ١٤٦:١-٧ (٢) ١٦٨:١-٩ (٣) LD. ١٣٧:٢ (g) (٤) ٧٣١:١ (٥) ٧٢٢:١
(٦) ١٦٥:١ و ٥ و ٣١٢ و ١ و ٢١ (٧) ١٧٤:١ و ١ و ٩ (٨) ١٤٦:١ (٩) ١٤٦:١

المفدى . وقد استنتجنا معلومات تاريخية قيمة فى عهد المملكة القديمة عن هذه المصاطب والأهرام الملكية الشامخة . أما تاريخ العصور التى أنجبت هذه المدنية فيبحث عنه فى المقابر الرملية التابعة لتلك الأزمنة السحيقة .

وبوفاة سنفرو أهم ملوك الأسرة الثالثة انتقل الملك الى الأسرة الرابعة بلا اضطراب ولا انقلاب داخلى على ما يظهر . وأول ملك أتى بعده هو خوفو أول ملوك الأسرة الرابعة ، ويظن أنه ينتمى الى الأسرة الثالثة لأنه آوى فى حريمه احدى محظيات سنفرو . لكن المعروف أن خوفو ليس منفى الأصل بل من جهة بنى حسن محل عبادة خنوم ذى الرأس الكبشى . وقد سمى المصريون تلك الجهة بعد ذلك "مِنَاتْ خُوفُو" ومعناها "مرضعة خوفو" نسبة الى مسقط رأسه . أما اسمه كاملا فهو "خنوم خوفو" ومعناه "خنوم يحمينى" اشارة الى عبادة خنوم ذى الرأس الكبشى الذى كان يعبد فى منات خوفو . وجاء فى الآثار أيضا أن أحد كهنة خنوم بمدينة منات خوفو كان موظفا بمقبرة خوفو بعد وفاته[1] . ولم نهتد للآن الى الطريقة التى توصل بها خوفو وقد كان أميرا بأحد الأقسام الى خلع سنفرو القوى والاستيلاء على عرش مصر وتأسيس الأسرة الرابعة . وجل ما أمكننا استنتاجه أن خوفو كان قويا جدا وذا نفوذ عظيم كما يشاهد ذلك فى هرمه الكبير بالجيزة المشرف على جميع ما حوله من الأهرام . ولا يسع كل مفكر فى أمر هذه الأهرام أن يستنتج أن الحكومة وقتئذ فكرت فى تشييد مقابر منيعة شامخة لتحفظ بها جثث ملوكها فاستخدمت لذلك معظم موارد البلاد ومهارة صناعها وأيدى عمالها . واذا أردت أن تتصور مقدار العظمة والسلطة فى حكومة خوفو ومقدار الدقة فى نظامها فاعلم أن هرم هذا الملك تطلب من الصخور ما يقرب من مليونين وثلثمائة ألف صخرة متوسط ثقل الواحدة منها طنان ونصف[2] . وبديهى أن مثل هذا البناء كلف الحكومة كثيرا فى قطع الأحجار ونقلها وجمعها ، ولذلك لا يبعد أن الضرائب التى دفعها الأهالى للادارة كانت باهظة . وروى هيرودوت عن معاصريه أن بناء هرم خوفو تطلب مائة ألف عامل مدة عشرين سنة ، وقد أثبت الأستاذ بترى أن هذا التقدير غير مبالغ فيه . ولا يخفى أن عددا عظيما كهذا يكفى تأسيس مدينة كبيرة بجوار الهرم ويستلزم أيضا عددا عظيما من العمال لقطع الصخور من المحاجر وهذا وحده يكفى أن تشرف عليه حكومة صغيرة خاصة به . أما الصخور فكانت تقطع من محاجر المقطم جنوبى القاهرة وتحفظ هناك حتى زمن الفيضان النيلى فينقلها القوم بحرا الى سفح هضبة الهرم ثم يجرونها على جسر ضخم مقام لذلك الى سطح الهضبة . واعلم أن ضخامة هرم خوفو وعظم نفقاته وكثرة ما تطلبه من الأشغال ليست فقط موضع الدهشة بل هناك أمور أخرى تستدعى النظر مثل اتقان البناء الضخم ومهارة استعمال الأحجار مع أنه لم يمض على هذا الاستعمال سوى خمسمائة سنة أى منذ عهد الملك يوسفايس . وقد ذكرنا فيما سبق أن البناء الحجرى فى عهد هذا الملك الأخير كان مقصورا على أرض القبر وعلى الحجر الجرانيتى وكان أيضا قليل الاتقان رديئه . أما الملك خاسخموى الذى أتى بعد يوسفايس بما يقرب من قرن فقد اقتصر فى قبره الملكى على بناء غرفة واحدة بالحجر . ومن

(1) Petrie, Gizeh.

(2) Mariette, Les Mastabas B.I.-Rougé, Inscriptions Hiérogl., 78.



شكل ٦٧ — هرم الجيزة الأكبر للملك خوفو (كيوبس) كما يشاهد فى الجهة الشمالية الغربية و يقع وادى النيل خلف هذا الهرم

ثم كان هـذا التقدم العظيم فى المدة اليسيرة الأخيرة داعيا الى الدهشة والاستغراب . ويبلغ ارتفاع هرم خوفو أربعمائة وثمانين قدما أما القاعدة فربعة يبلغ طول أحد أضلاعها سبعمائة وخمسين قدما . ولا تزيد نسبة الخطأ فى الطول والمسح والفراغ عن $\frac{1}{10,000}$ [1] رغم عدم انتظام مسطح القاعدة الأمر الذى عاق كثيرا عن قياس الأركان وما بينها من مسافات . ويستدل على اتقان بناء هـذا الهرم بأن مواضع تلاصق صخوره الضخمة التى تقرب زنتها بضعة أطنان لا تزيد مسافتها عن $\frac{1}{10,000}$ من البوصة وأن هذه الدقة فى السطوح والحافات تشمل مساحات تقدر بالأفدنة مما لا يمكن مقارنته بدقة المهندسين العصريين الذين لا تتعدى دقتهم فى الصنـاعة بضع أقدام أو ياردات[2] . والأحجار المستعملة لهـذا البناء من النوع الجيرى عدا حجرة التابوت وبعض حجرات أخرى فوقه حيث يختلف البناء كثيرا عن سائر الأجزاء . وبناء أسفل الهرم أتقن من أعلاه وربما كان ذلك نتيجة الاسراع فى انجـازه . وقد سدّت الدهاليز والممرات داخل الهرم باحكام فى عدّة مواضع بصخور أو أبواب جرانيتية . أما الكسوة الخارجيـة فكانت مصنوعة من الحجر الرملى باتقان (شـكل ٦٦) ويخترق وجهتها الشمالية مدخل الهرم وهو واقع فوق الدرجة الثامنة عشرة من القاعدة (شكل ٦٧) . ولا بد أن خوفو كان شهما مقداما لأنه بدأ بتشييد هرمه منذ توليه الملك ، زد على ذلك أنه غير على دفعتين تصميم أساسه الأول فكبر القاعدة ليتسنى للمهندس أن يبنى داخل هـذا البناء الضخم ممرات ودهاليز وما يلزم من الحجرات . وقد شـاهدنا أن تكبير حجم الأهرام أمر حصل قبل عهد خوفو . وتبلغ مساحة قاعدة هرم هذا الملك ثلاثة عشر فدانا . وبالقرب منه وعلى شرقيه ثلاثة أهرام صغيرة على خط مستقيم استعملت مدافن لأعضاء أسرة خوفو (شكل ٦٨) . ويحيط بالهرم الكبير طريق عريض مكسو بالحجر الرملى البديع وشرق هذا الهرم معبد تتلى فيه الأدعية لاستنزال الرحمة على روح خوفو ولم يبق منه الا أرضه المكسوّة بالرخام الأسود الجميل . أما الطريق القديم الموصل قاعدة الهرم بسفح الوادى فخرب وتلف وشـيد على بقاياه الكفر الموجود بتلك الجهة . ويوجد جنوبى ذلك المكان جزء من جدار قديم يظن أنه بقية سور المدينة التى شـيدت بذلك الوادى والتى يحتمل أن كانت مقر خوفو وأفراد أسرته . ويجب علينا ألا ننظر الى الهرم من وجهة ضخامته وبنائه بل علينا أيضا أن نتخذه مثلا ظاهرا لانتقال القطر من الوحشية الى النظام والمدنية ولوجود حكومة مركزية قوية تسوس البلاد تحت ادارة شخص واحد .

وعثر على اسم خوفو على كثير من آثار عهده فى منطقة واسـعة من دسوق التى هى فى الشمالى الغربى للدلتـا الى تل بسطة فى الشمالى الشرقى للقطر الى مدينة الكاب (هيراكونبوليس) فى جنوبى الصعيد . أما أعمال هذا الملك فلا تزال مجهولة اللهم الا ما ذكرناه من هرمه . وقد روى عنه أنه واصل العدن فى سيناء[3] . وربمـا كان أول من قطع الأحجار من محـاجر حاتنوب . وجاء فى رواية من عهد البطالسة أنه شيد معبدا لحاتحور بمدينـة دندره[4] . ومنه يتضح أنه قبض على موارد القطر جميعها . ولما أسن عين ابنه الأكبر وزيرا وعهد له بمهمة كبير القضاة كما كانت العادة وقتئذ . ثم عين خوفو ابنيه الآخرين فى المنصبين الكبيرين "بمالية المعبود" وعهد لهما فى الاشراف على أعمال الحفائر .

(1) Petrie, History of Egypt, I, p. 40. (2) شرحه (3) ١٧٦ (4) Dümichen Dendera, p. 15.

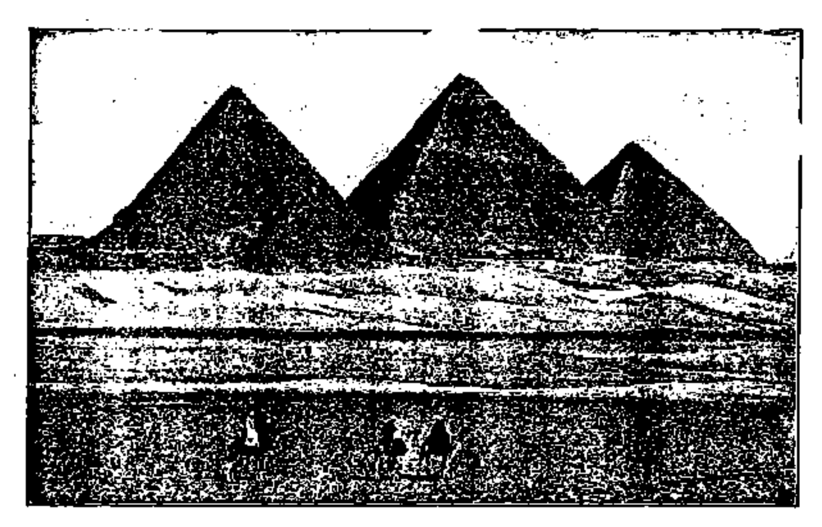
وتوفى خوفو فتبعــه فى الملك المدعو دِدِفْ رَعْ أو رَعْ دِدِفْ ولا نزال نجهــل تاريخه وعلاقته بأسرة خوفو . وقد عثرنا على هرمه جهة أبى روّاش شمالى الجيزة وهو صغير الحجم . ولا علم لنا بشيء ما خلاف ذلك ولا يبعد أنه لم يرث خوفو فى الملك بل جاء فى آخر عهد الأسرة الرابعة .

ولم نتأكد للآن اذا كان خفرع ابن ددف رع أم لا . لكنه استدل من وجود لفظ رع فى كلا الاسمين أن كهنة رع قوى نفوذهم وقتئــذ . ومعنى خفرع "ضوء الشمس" . وأما لفظ رع فيعنى المعبود الشمسى . وشيد خفرع لنفسه هرما بالقرب من هرم خوفو (شكلى ٦٨ و ٧٠) لكنه أصغر حجما وأقل دقة ، وقد حلى جزأه الأسفل بكسوة من الجرانيت المستخرج من جهة الشلال الأول ، ولا نزال بعض آثار معبده موجودة إزاء وجهته الشرقية . وهذا المعبد يبتدئ منه طريق يوصل الى وادى النيل وينتهى بمعبد بديع مشيد من الجرانيت ،وقد شيدت جدر هذا المعبد من الداخل بالجرانيت الأحمر والمرمر القاتم ويوجد باحدى قاعاته بئر عثر فيها الأستاذ ماريت على سبعة تماثيل لخفرع أجملها التمثال السابق وصفه فى الفصل السالف (شكل ٤٨) .وهذا المعبد قريب من أبى الهول لذلك أطلق عليه أحيانا اسم "معبد أبى الهول" أو "كنيسة أبى الهول" مع عدم وجود علاقة تاريخية بينهما . وللآن لم تثبت علاقة أبى الهول بخفرع . والمعروف أن تمثال أبى الهول يرمز به عادة لفرعون مصر لأنه يمثل رأس فرعون وقوة الأسد المفترس . وعثر بين رجلى أبى الهول الأماميتين على حجر تاريخى من عهــد الملك تحوتمس الرابع[1] الذى أتى بعــد خفرع بألف وأربعمائة سنة تقريبا وعليه عبــارة تشير الى خفرع ، فظن بعض الأثريين أن الرأى العام فى عهد تحوتمس الرابع كان يعتقد بوجود صلة بين خفرع وأبى الهول المذكور . ووراء ذلك لا ندرى شيئا عن أعمال خفرع ويظهر أن المملكة المصرية حافظت فى عهده على تقدمها وعزها كما كانت أيام خوفو .

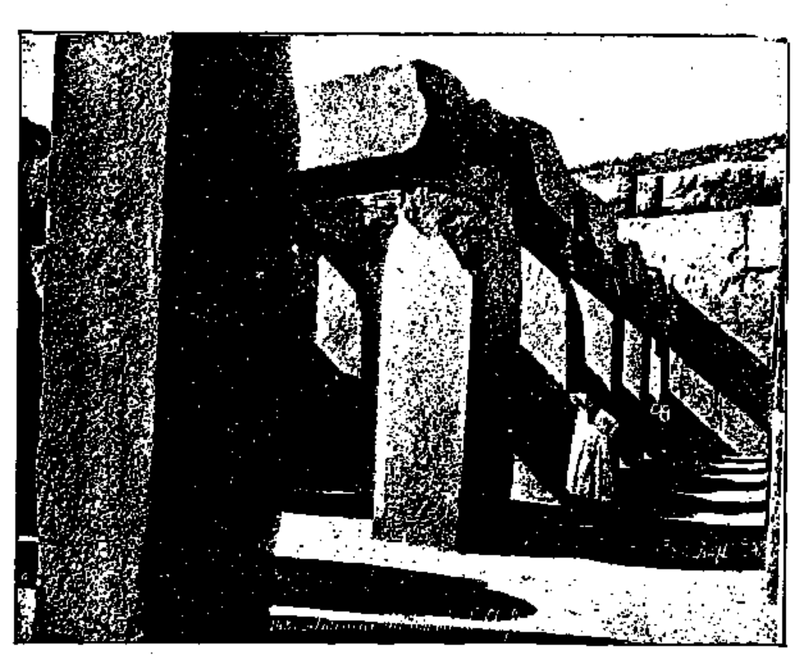
وتوفى خفرع فأعقبه فى الملك منقاورع الذى شيد الهرم الثالث الصغير . واذا اعتبرنا حجم الهرم متناسبا مع قوة صاحبه جاز لنا أن نستنتج أن قوة منقاورع ضعفت عن خفرع . ولا يبعد أن تكون مالية القطر انحطت كثيرا فى عهد هــذا الملك عمــا كانت عليه أيام سلفيه لمــا استنزفه هرماهما من المصاريف الباهظة . وهرم مِنْقَاوِرَعْ أقل ارتفاعا من منتصف هرمى خوفو وخفرع ، أما معبده فشيد من الجرانيت . وقد أثبت الأستاذ ريزنر أن هذا المعبد لم يتم بناؤه فى حياة منقاورع وأن مقدّم المعبد شيد باللبن بدلا من الجرانيت الغالى الثمن . ولا نعلم كثيرا عن تاريخ خلفاء منقاورع سوى ما ورد على آثار الملك شِبْسِسْكَافْ من أنه اختــار فى السنة الأولى من حكمه مكانا ليشيد هرمه فيــه[2] . والظاهر أن هذا الهرم لم يكن كبيرا ولا متين البناء لأننا لا نزال نجهل محله للآن لمــا اعتراه من التلف . ولا ندرى شيئا عن تاريخ الملوك الذين أتوا بعده حتى نهاية الأسرة الرابعة ، انمــا الثابت أن العرش الفرعونى انتقل وقتئذ لمدد قصيرة الى حكام عديدين .

---

(١) ٢ : ٨١٥ (٢) ١ : ١٥١



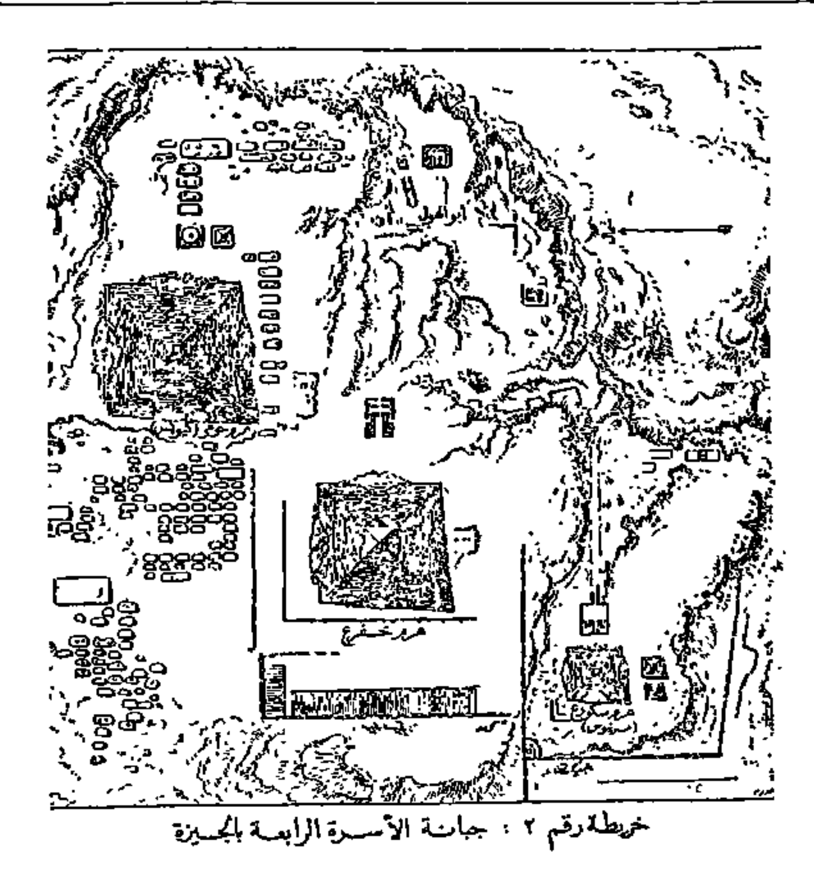
شكل ٦٨ — أهرام الجيزة كما تشاهد من الجهة الجنوبية الغربية :
الهرم الأيمن لخوفو ، والأوسط لخفرع ، والأيسر لمنقاورع



شكل ٦٩ — ساحة مشيدة بالجرانيت عند المدخل الأثرى العظيم الذى أقامه الملك خفرع
على رأس الطريق الموصل الى هرم الجيزة الثانى لخفرع
(راجع شكل ٣٧)

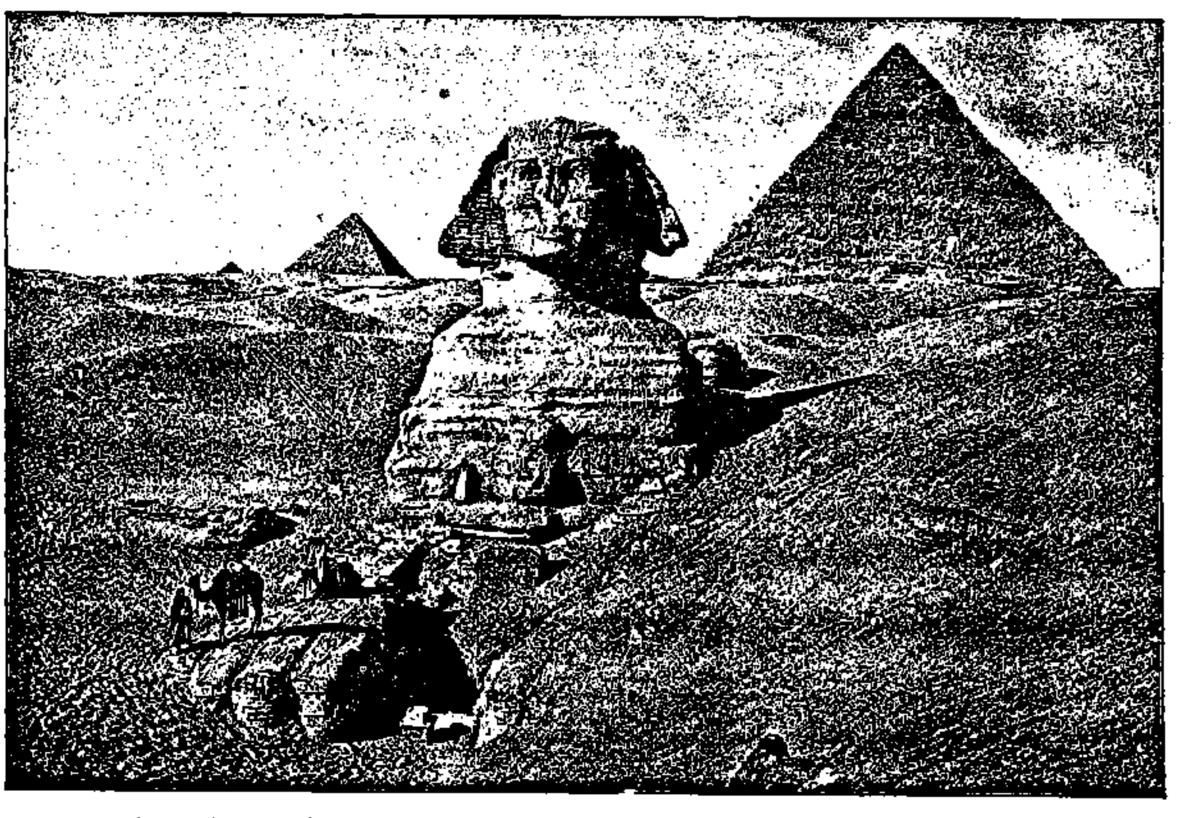
ومدة حكم الأسرة الرابعة المقدرة بمائة وخمسين سنة تمتاز بالنظام وتوطيد الحكم واطراد التقدم والرقى مما لم يسبق لأبناء وادى النيل أن يتمتعوا بمثله . وقد قاومت آثار ذلك العصر بمتانتها وعظمتها القرون المديدة حتى وقتنا هذا . ولا يبعد أن عهد خوفو كان أرقى عصر فى عهد الأسرة الرابعة لأن القطر أخذ يضمحل تدريجيا فى عهد خفرع ثم فى عهد منقاورع حتى عجز هذا الأخير عن القبض بقوة على ناصية الحال كما فعل سلفاه . ولم يحفظ لنا الزمن من آثار هؤلاء الملوك الا التسعة الأهرام المشيدة بالجيزة ولا تزال تحفظ ذكراهم الى الآن (خريطة ٢) . وقد اعتبرت هذه الأهرام فى العهد اليونانى ضمن عجائب الدنيا السبعة ، أما الآن فهى البقية الباقية من تلك العجائب (شكل ٧٠) .
ولدينا دلائل تاريخية قوية تشير الى سر انقراض حكم الأسرة الرابعة هى أن كهنة رع بعين شمس تدخلوا تدريجيا فى شؤون المملكة بعد وفاة خوفو حتى استولوا على السدة الملكية . وقد ألمعنا الى ذلك عند الكلام على معنى اسمى خفرع ومنقاورع وغيرهما . ولما كان قدماء المصريين منذ بداية حكم الأسر يعتبرون ملوكهم خلفاء المعبود الشمسى فى الأرض سموا ملوكهم باسم حوريس أحد معبودات العقيدة الشمسية . وفى أثناء حكم الأسرة الرابعة قوى نفوذ كهنة رع فطلب هؤلاء اعتبار ملك مصر ابنا لرع أى الشمس واعتبار الشمس أبا لفرعون . ووصلت الينا[1] قصة خرافية يرجع تاريخها الى ما بعد سقوط الأسرة الرابعة بتسعمائة سنة تقريبا جاء فيها أن خوفو خاطب يوما أبناءه عن أعمال السحرة الماهرين المسنين وطلب من نجله المدعو حَرْزُوزِف أن يحضر له ساحرا يعرفه . فلما حضر الساحر وقف بين يدى الملك وقام بأعمال سحرية أخذت بمجامع القلوب ، لكنه لما أوشك أن ينتهى أظهر لخوفو عدم رغبته فى افشاء بعض معلومات اليه ، الا أن الملك اضطره أن يبوح بها فقال له ان زوجة أحد كهنة رع ستلد ثلاثة أبناء تحمل بهم من المعبود رع نفسه وأن هؤلاء الأنجال سيحكمون مصر . فتكدر خوفو من ذلك الا أن الساحر بادره قائلا " لا تتكدر أيها الملك العظيم فان الملك سينتقل بعدك الى ابنك ثم الى حفيدك . بعد ذلك ينتقل الى أحد أنجال زوجة كاهن رع . الى هنا انتهى ما وصلنا عن هذه القصة الخرافية والمظنون أنها تنتهى بسرد كيفية استيلاء الأنجال الثلاثة على العرش المصرى . وقد جاء فى هذه القصة أن هؤلاء الأولاد لما ولدوا ظهرت عليهم أمارات الملك حتى دهش العالم وقتئذ وأن المعبودات سمتهم (أُوسِرْكَافْ) و (سَاحُورى) و (كاكاى) وهم أول ملوك الأسرة الخامسة . والظاهر أن كاتب هذه الخرافة لم يكن ملما الا باسم ملكين من ملوك الأسرة الرابعة فلم يذكر شيئا عن (ددف رع) و (شِبْسِسْكَافْ) وغيرهما ممن أتوا بعد خوفو ولم يتركوا أهراما ضخمة مثله ، لكننا نستنتج من سياق الكلام أن نفوذ كهنة رع قوى وقتئذ وسبب انتقال الحكم الى الأسرة الخامسة ، ومنه نستدل على كيفية حصول ذلك وعن أصل هذه الأسرة . وتعتبر هذه الخرافة من أجمل الخرافات الحكومية لأنها تكشف لنا عن السر فى اعتبار فراعنة مصر أبناء رع منذ ذلك الحين الى نهاية التاريخ المصرى القديم[2] .

(1) Papyrus Westcar. (2) ١٨٧ — ٢١٢



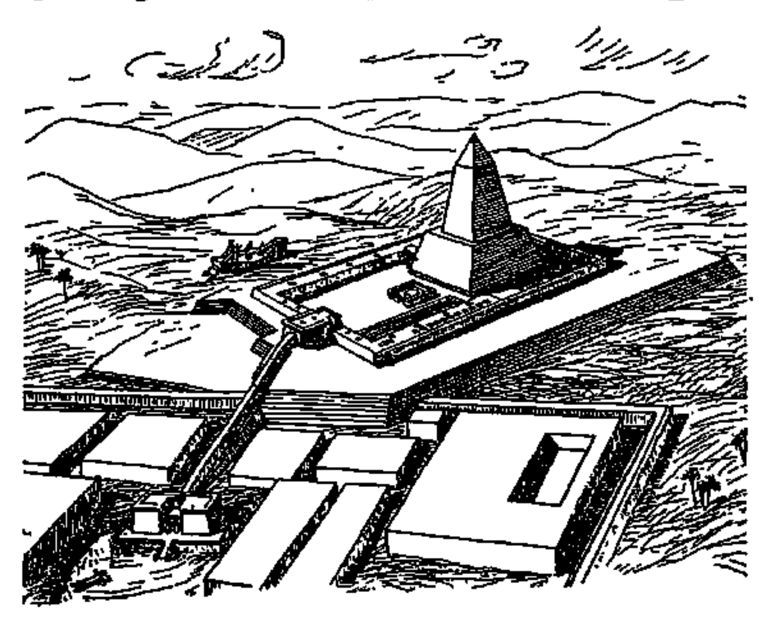
خريطة رقم ٢ : جبانة الأسـرة الرابعـة بالجـيزة

وحكمت الأسرة الخـامسة القطر المصرى حوالى عام ٢٧٥٠ قبل الميلاد واتخذت منف قاعدة لحكمها . وقد لوحظ على ملوك هذه الأسرة صفات مشتركة تمشى مع ماجاء فىالقصة السابقة ، منها أنهـم لقبوا وقت تتويجهم بألقاب تحوى اسم رع بعد ما كان هـذا الأمر صعب التنفيذ فى عهد الأسرة الرابعة ، كما أن اسم الملك كان مسبوقا دائمـا بعبارة ابن الشمس بعـد ما كان ينسب قدما الى المعبود حوريس ، ثم أضـافوا لقبا آخر يشـير الى انتصار حوريس على ست ، فبلغت الألقاب الفرعونية بذلك خمسـة بقيت مستعملة مدى التاريخ المصرى . واشتدة تعلق الأسرة الخـامسة بعبادة رع شـيد ملوكها معـابد للشمس بجوار منف وسمـوها بأسمـاء كثيرة مثـل " مسكن رع الجميل " و " سرور رع " . واتبع فى تشييد هذه المعابد نظام واحد تقريبا يتلخص فى حوش عظم تتفرع من جانبيه حجرات عديدة ويحوى مذبحا كبيرا وينتهى فى آخره بمصطبة ضخمة منصوب عليها مسلة (شكل ٧١) . وقد اعتبرت المسلة رمزا للعبود رع . ومن هذا الوصف يتضح للقـارئ أن معابد تلك العصور لم تحو القاعات المعروفة الآن " بقدس الأقداس " . واعتبر بعض الأثريين المسلة وما أحاط بها من البناء صورة مكبرة لقدس الأقداس بعين شمس . وزخرفت جدر المعـابد بنقوش أثرية عديدة تظهر أحوال المعيشة ، ففيها المناظر الخاصة بالأنهار والمستنقعات والبرك والحقول



شكل ٧٠ — أبو الهول العظيم بالجيزة ويشاهد فى الخلف هرم خفرع على اليمين ، وهرم منقاورع (مسر ينيوس) على الشمال

والصحارى والاحتفالات الملكية (شكل ٧٢) . أما خارج المعبد فكان مزدانا بمناظر الانتصارات الفرعونية الحربية . وجرت العـادة أن يضع القوم سفينتين خشبيتين على قاعدتين مشيدتين باللبن يمثلان سفينتي المعبود رع السماويتين اللتين يسبح عليهما فى الأفق صباحا ومساء . وحبست على هذه المعابد أوقاف كثيرة[١] كما أكثر فيها من الكهنة والخدم ، وقسم هؤلاء الى خمس درجات تحت ادارة رئيس عام يشرف على أعمالهم جميعا وعلى أمتعة المعبد . وبتوالى الأيام كثرت المعابد فقامت كهنة المعابد القديمة بأعمال المعابد الحديثة . والمظنون أن كل ملك من الأسرة الخامسة شيد معبدا لرع حتى الملك إزيسى الثـامن فى الأسرة[٢] . بذلك كثرت أملاك رع وارتفعت منزلتـه فقوى نفوذه مدى التاريخ . ولمـا ازدادت عقيدة المصريين ثبوتا فى ألوهية الشمس أكثروا من الخرافات



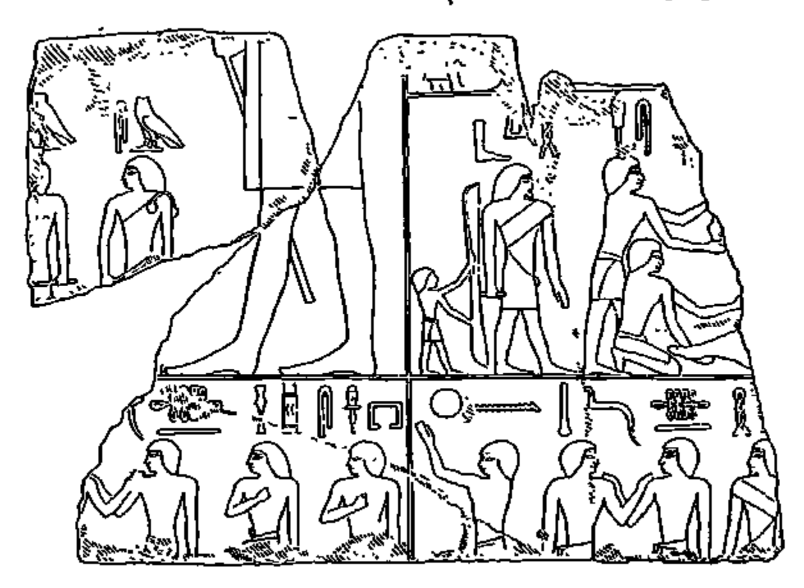
شكل ٧١ — صورة لمعبد الشمس بجهة نصير بالقرب من أبو صير بعد الترميم (مأخوذة عن بورخارت)

الخاصة بها ولونوا واخترعوا خرافات أخرى وصبغوها بصبغته حتى اعتبر القوم هـذا الإله ملكا على الوجهين القبلى والبحرى وحاكما على القطر المصرى قبل زمن الفراعنة . ثم توهموا أن المعبود تحوت اشتغل فى خدمة رع فى العصور الأولية بهيئة وزير مساعد . واعلم أن تغير الأسر المـالكة لم يصحبه تغير فى الألقاب والديانة فقط بل شمل أيضا انقلابا فى نظام الحكومة ودولاب الأعمـال . فبعد ما كان ولى العهد فى الأسرة الرابعة يتولى مركز الوزارة ورياسة القضاء بحكم العادة المتبعة ويحتفظ بذلك على أقوى النفوذ فى المملكة ، أصبحت هذه الوظيفة تعطى بالوراثة لأسرة أخرى تدين بمذهب بتـاح المنفى . وجرت العادة أن تلقب أفراد هذه الأسرة باسم بتاح حوتب وقد عثرنا فى التـاريخ على خمسـة أفراد منهم . والظاهر أن انتزاع الحكم من الأسرة الرابعة سبب انقسامه بين كهنة رع

(١) ا : ١٥٩ و ٨

(٢) Borchardt, Festschr. f. Ebers, p. 13,

بمدينـة عين شمس الذين احتفظوا بوراثة السدّة الملكية ، وكهنة بتاح بمدينة منف الذين احتفظوا بوراثة مركز الوزارة ورياسة القضاء . لكن هذه الوراثة فى مناصب الحكومة أثرت تأثيرا سيئا فى الادارة كلها لأن حكام الأقسام أخذوا ينفصلون تدريجيا من السلطة المـالكة ويحتفظون بوراثة مراكزهم . وقد أظهر ملوك الأسرة الخامسة عناية واحتراما للسراة الذين ساعدوهم على انتزاع الملك فرقى الملك أوسركاف أوّل ملوك هـذه الأسرة كبير أمنائه حاكما على " قسم المدن الجـديدة " بمصر الوسطى[1] ، وأضاف الى دخله مرتب كاهنين من أوقاف الملك منقاورع من الأسرة الرابعة ، ولا يبعد أن كان هـذا المرتب صرف سابقا لبعض محاسيب الأسرة الرابعة ، وعلى العموم فان أوقاف الأسرة الرابعة قد روعيت باحترام فى عهد الأسرة الخامسة .



شكل ٧٢ — نقوش بارزة بمعبد الشمس جهة نصير بالقرب من أبو صير . يشاهد فى الجهة اليمنى من القسم العلوى كيفية تعطير قدمى فرعون مصر

واعترضت أوسركاف مصاعب جمة وقت توليه الحكم لكنه وطد مركزه الملكى فى البلاد وحصر وراثة العرش فى أفراد أسرته وقام بالحفائر واستخراج الصخور من جهة أسوان[2] . وقد وجد اسم هذا الملك منقوشا بتلك الجهة ضمن أسماء ملوك آخرين مع بعض ملاحظات عن أحكامهم وحوادث أيامهـم فى الصعيد . وتوفى أوسركاف فتبعـه سحورا الذى شيد لمصر أسطولا بحـريا جعلها أوّل دولة بحرية معروفة فى التاريخ . وقد عثر حديثا على لوح حجرى بهرم هذا الملك ببوصير وجدت عليه رسوم لأربع سفن عظيمة مشحونة بالأسرى الفينيقيين حولهم بحارة مصريون . وتعتبر هـذه أقدم رسوم بحرية وجدت للآن (حوالى سنة ٢٧٥٠ قبل الميلاد) وأقدم صور لسكان سوريا الساميين . وأوفد سحورا أسطولا آخر الى بلاد الصومال (بونت) وجنوبى خليج عدن لجلب البخور والروائح

(١) ١ : ٢١٣ ملاحظة (٢) Mariette Mon., div., 54 e.

العطرية والأدهنة الجميلة الكثيرة الاستعمال عند الشرقيين . أما الصومال فكانت تعرف عند المصريين " بالأرض المقدسة " ونسب بعض الأثريين مبدأ تجارة مصر مع الصومال الى عهد الأسرة الأولى لكثرة استعمال ملوك هذه الأسرة لخشب المر . لكن يجوز أن هـذه الأخشاب العطرية أتت عن طريق التجارة براً وتولاها سكان شاطئ النيل الأزرق وعطبرة وأعالى النيل. وجاء فى الآثار أن أحد أبنـاء خوفو اقتنى عنـده عبدا صوماليا[١] لكن المعروف أن سحورا هو أول ملك أثبتت آثاره أنه مؤسس المواصلات البحرية مع الصومال رأسا[٢] . ومما ورد عنه أنه جلب من تلك الجهات ثمانين ألف مكيال من المر وستمائة مثقال من مخلوط الذهب والفضة وألفين وستمائة ساق من نباتات ثمينة لا يبعد أنها الآبنوس . ودوّن موظف لهذا الملك جهة الشلال الأول[٣] نقوشا كثيرة على الأحجار أشار فيها الى حملة حربية قام بها مليكه بتلك الجهات . وتعتبر هذه النقوش أقدم ما وجد من نوعها جهة الشلال الأول .

ويستدل من آثار الملوك الأربعـة الذين حكموا القطر بعـد سحورا أن القطر حافظ فى عهدهم على مركزه السياسى والمـالى والعمرانى وأن المصريين أخذوا يتطلعون الى خيرات ومصنوعات البلاد الأجنبية غير الموجودة بمصر . ففى النصف الأخير من حكم الأسرة الخامسة (حوالى النصف الثانى للقرن السابع والعشرين قبـل الميلاد) فتح الملك إزيسى محاجر وادى الحمـامات التى تبعد عن النيل بسير ثلاثة أيام . وقد قطعت أحجار من تلك المحـاجر قبل ذلك الوقت وعملت منها أوان حجرية ، ولكن الثـابت أن إزيسى هو أول ملك نقش اسمه هنـاك[٤] . ولمـا كان هـذا المكان أقرب جهات البحر الأحمر للنيل صارت القوافل تجتاز صحراءه مبتدئة من قفط مارة بوادى الحمامات حتى تصـل الى البحر الأحمر ، وكان هذا السفر يستغرق حوالى خمسة أيام ، وعليه فكان هذا الطريق أسهل المواصلات لأرض الصومال ، ولذلك أرسل سحورا بعثته الحربية الى تلك الجهات عن هـذا الطريق كما أرسـل أيضا الملك إزيسى جيشه الى ذلك الاقليم عن هـذا الممر تحت قيادة رئيس ماليته المدعو بردد (Burded)[٥] . ولمـا توفى إزيسى ورثه فى الملك أونيس (Unis) فشن الغارات على النوبة وقيد اسمه جهة الشلال الأول حيث لقب نفسه فيها "سيد القطرين"[٦] .

ولم تكن سلطة حكام الأقسام ورؤساء الأعمـال الادارية أيام الأسرة الخامسة خاضعة تماما للسدة الملكية كسابق العهد، فأصبحنا نرى بين آثار الملوك بسيناء اسما لأحد الحكام أو رؤساء الأعمال خلافا للتبع، لأن الملك كان الشخص الوحيد الذى يذكر اسمه هناك ويرسم كإله مشرف على الأعمال ظافر بأعدائه بشـكل مهيب جليل . أما فى عهد إزيسى فقد شملت نقوشـه سطرا واحدا فى ذيل بلاغ رسمى هناك جاء فيه أن احدى حملات تلك العصور كانت تحت قيادة ضابط من ضباط الجيش[٧] ، ويعتبر هذا أقدم مثل لاظهار الأثرة التى أخذت تدب باستمرار بين كبار الموظفين فى البلاغات الرسمية وكذا الصعوبات التى اعترضت فراعنة تلك العصور من جراء هذه الصفة الذميمة .

(١) LD, II, 29, Erman, Aegypten, 670. (٢) ١ : ١٦١ و ٨

(٣) De Morgan, Catalogue de Monuments, I, 88. (٤) LD, II, 115, L. (٥) ١ : ٢٥١ و ٢٥٣

(٦) Petir,e, Sesson,XII,No.312. (٧) ١ : ٢٦٤ و ٢٦٦

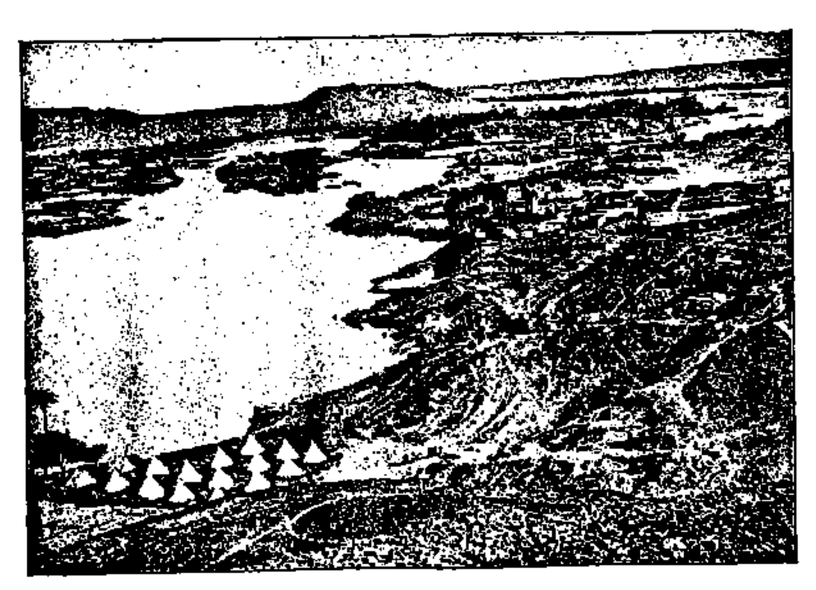
ولا يبعد أن صغر حجم أهرام الأسرة الخامسة ورداءة بنائها على حافة الصحراء جنوبى الجيزة بجهة بوصير وصقارة جاءت دليلا آخر على ضعف سلطة هذه الأسرة وبرهانا واضحا على فقر الخزانة المصرية بالنسبة لحالتها فى حكم الأسرة الرابعة . وليس فى هذا الكلام ما يحتاج الى كثير عناء لاثباته فأهرام الأسرة الخامسة لا يزيد ارتفاعها على نصف هرم الجيزة الأكبر كما أن بناءها الداخلى ردىء ومركب من صخور متراكمة بينها رمال كثيرة وهى الآن مهدّمة لم يبق منها الا القليل من معالم الأهرام الحقيقية . أمام هذا كله لا يسعنا الا أن نستنتج أن الحكومة المركزية فى عهد الأسرة الخامسة أخذت تضعف تدريجيا وأن الرأى العام أخذ يقاوم فكرة استعمال خيرات البلاد وثروتها لاقامة المقابر الملكية . واعلم أن حكم الملوك التسعة للأسرة الخامسة مدّة مائة وخمسين سنة كان مقرونا بتغير سياسى داخلى خطير مع تقدم عمرانى هائل ، فالفنون الجميلة والصناعة بلغتا شأوا عظيما فى التقدم وكذا الآداب ارتقت كما يشاهد ذلك فى نصائح بتاح حوتب وزير الملك إزيسى ورئيس قضاته وقد ألمعنا اليها سابقا . ثم ان المعابد والديانة كانتا محترمتين بما يتناسب مع عز مصر وأبهتها التى امتازت بها على الأمم وقتئذ ، فأصبحت ترى المعابد موضع عناية القوم فى أنحاء القطر ، كما أن الأوقاف والخيرات أخذت تحبس على الهياكل[1] وصار الملك يقدم فيها القرابين كل يوم . والى هذا العصر تعزى معظم معارفنا عن أقدم ديانة للمصريين وأقدم نموذج واف للغة المصرية القديمة . وأهم نصوص دينية عثرنا عليها لذلك العهد هى الموجودة على جدر هرم أونيس آخر ملوك لأسرة الخامسة ، وتعرف هذه النصوص الدينية الآن "بنقوش الأهرام" . ولما كان معظم هذه النصوص والعقائد الدينية يرجع فى الأصل الى عهد ما قبل الفراعنة على الأرجح اعتبر الأثريون هذه النصوص أقدم مرجع يبحث فيه عن ديانة القطر المصرى ولغته قبل عهد هرم أونيس .

---

(١) ١ : ١٥٤ - ١٦٧



شكل ٧٣ — بقايا هرم أونيس بسقارة من آثار الأسرة الخامسة
وهذا أقدم هرم يحوى نصوصا دينية



شكل ٧٤ — صورة شمسية لجزيرة إلفانتين مسقط رأس أمراء حدود مصر الجنوبية .
وتقع مقابر هؤلاء الأمراء فى الصخور الغربية للنيل

الفصــــل السابع

الأسرة السادسة : اضمحلال المملكة القديمة

لم يرد في درج تورين البردى أو في قائمة أثرية لفراعنة مصر اشارة الى انتزاع عرش مصر من نسل الملك مينا حتى آخر عهد الملك أونيس . والثابت أن الملك انتقل بعدئذ الى أسرة أخرى لأسباب أوضحناها للقارئ سابقا تتلخص في محاولة حكام أقسام القطر الحصول على قسط أوفر من القوة والحرية . ولما حكمت الأسرة الخامسة تحت نفوذ كهنة عين شمس أخذ حكام الأقسام يحتكرون مناصبهم لأفراد أسرتهم بشكل وراثي فعجز الملوك عن كبح زمامهم كما فعل فراعنة الأسرة الرابعة ، فمهد بذلك الطريق لانفصال هؤلاء الحكام عن السلطة العليا المالكة وانتهى الأمر بقلب حكم الأسرة الخامسة على أيدي هؤلاء الحكام وذلك بعد حكم أونيس حوالي عام ٢٦٢٥ قبل الميلاد . على أثر ذلك أعلن كل حاكم استقلاله عن غيره واستعاض عن لقبه الأصلي " حاكم قسم " بلقب " السيد المعظم " أو " السيد الكبير " واستمر الحكام يديرون أعمالهم مستقلين استقلالا ذاتيا بلا تبعية للحكومة المركزية . ويعتبر هذا الانقلاب الداخلي أقدم مثل تاريخي معروف عن انحلال السلطة المركزية وتجزئتها الى سلطات صغيرة فرعية وعن كيفية تضخم الأخيرة على حساب الأولى . وقد حصل مثل هذا تماما في امبراطورية شارل الأكبر التي تجزأت بعده الى عدة دوقيات وامارات ومقاطعات مستقلة . ولم يكن هذا الانقلاب الداخلي فجائيا بل تدريجيا لأن حكام الأقسام استمروا مدة طويلة خاضعين بعض الخضوع للملكهم منفذين ارادته وأوامره . ولما أصبحت وظائفهم وراثية محصورة في أسرهم استمروا زمنا يعينون في تلك الوظائف بأمر ملكي ويمنحون الاقطاع والألقاب بمرسوم ملكي أيضا . وبالرغم من ذلك فقد أخذت علاقة هؤلاء الحكام بالقصر الملكي تضعف فامتنعوا عن دفن جثثهم حول قبور ملوكهم وأخذ كل منهم يختار لنفسه قبرا في اقليمه، مثبتا بذلك انعزاله عن السلطة الحاكمة . وقد عثر الأثريون حديثا على عدة مقابر لهؤلاء الحكام منحوتة في صخور جهة جزيرة الفيل وقصر الصياد والشيخ سعيد وزاوية المتين ووجد غيرها مشيدة بالحجر جهة العرابة المدفونة . واجتهد هؤلاء الحكام في تعمير أقاليمهم فورد عن أحدهم أنه جلب بعض أبناء الأقاليم المجاورة له وجعلهم يقيمون عنده لتعمير قسمه وزيادة عدد سكانه وتحسين قراه الصغيرة القليلة السكان[1] .

وصارت المالية صلة الاتصال بين حكام الأقسام والبيت المالك في تلك العصور . فاضطر الملك في أواخر أيام الأسرة الخامسة أن يعين حاكما عاما على الوجه القبلي يستعين به على تنفيذ أوامره

---

(1) ١ : ٢٨١

هناك . أما الوجه البحرى فكان أكثر خضوعا ولذا لم يعين عليه حاكم عام . والغريب أنه رغم كل هذا التغير كان فرعون مصر يفتخر ويعتقد بأنه صعيدى الأصل وأن صلته بالدلتا صلة الغازى الفاتح .

وبقيت منف مركز الحكومة طول هذه المدة وكانت تعرف وقتئذ بمدينة "الحائط الأبيض" حتى حكم الملك تتا مؤسس الأسرة السادسة المجهول التاريخ . وتوفى تتا فتبعه فى الملك پپى الأول فشيد لنفسه هرما ومدينة بجوار مدينة "الحائط الأبيض" وأطلق على هرمه اسم "مِنْ نُوفَرْ". بعد ذلك أطلق اسم هذا الهرم على مدينة "الحائط الأبيض" ولما أتى اليونان حرفوا هذا الاسم الى منفيس ونطق به العرب منف ولا يزال هذا الاسم مستعملا فى الكتب العربية للآن . أما اسم "الحائط الأبيض" فقد انعدم ولم يبق له ذكر الا فى عالم العاديات وبين أسطر الشعر . وصار لمنف منزلة كبيرة فى القطر فكبر حجمها وزاد عدد سكانها واحتاجت الى اشراف الوزير عليها فلقب وقتئذ "بحاكم مدينة الهرم" أو "حاكم المدينة" . ثم اشتهرت منف بين الخاصة والعامة "بالمدينة" فقط . واستمر ملوك الأسرة السادسة محافظين على سلطانهم وهيبتهم كأسلافهم وعلى عبادتهم لرع واعتبارهم إياه رئيس المعبودات الأكبر واحترامهم لكل شيء خاص بأسلافهم وأجدادهم رغم ما ذكرناه من التطورات الداخلية الكثيرة بين حكام الأقسام العديدين .

واجتهد حكام الأقسام فى عهد پپى الأول أن ينفصلوا عن سلطته وادارته لكنه قبض عليهم بقوة ومهارة وحافظ على نفوذه فى جهات القطر كلها . وقد شهدت له بذلك آثاره الكبيرة والصغيرة. وقد لوحظ أن هؤلاء الحكام وقتئذ نقشوا على الأحجار فى أقسامهم ومحاجرهم أعمالهم وتاريخ حياتهم عدة دفعات . واظهارا لخضوعهم للسدة الملكية تحتم عليهم أن يرسموا فى الجزء العلوى لتلك النقوش ملكهم يعبد إلها أو يصعق عدوا ، وتلى ذلك النقوش المظهرة لرفعة مقام حاكم القسم وأتباعه فى رحلاته ومشروعاته . وكانت هذه النقوش مختصرة فى بادئ الأمر لكنها طالت تدريجا بمرور الزمن ، مثال ذلك أن الملك پپى لما أرسل بعثة الى محاجر وادى الحمامات تحت ادارة مفتشين من المالية ورئيس مهندسى هرمه مصحوبين برجال فنيين لقطع الأحجار الجيدة لبناء الهرم حفر هؤلاء الأشخاص نقوشا لهم فى لوحين ملكيين بالمحاجر المذكورة كما حفروا أيضا ثلاثة نقوش أخرى هيروغليفية أثبتوا فيها أسماءهم وألقابهم وأعمالهم[١] . كذلك لما أرسل الملك پپى الأول الحاكم العام للوجه القبلى ورئيس قسم الأرنب فى الوقت نفسه الى محاجر حاتنوب لقطع الأحجار المرمرية ترك هذا الحاكم هناك نقوشا شرح فيها مهمته وأعماله التى أداها لمليكه[٢] . وهناك نقوش أثرية بوادى مغاره بطورسيناء نقشها قائد حربى أرسله پپى فى مأمورية كالسابقة ذكر فيها أعماله وألقابه وخدماته نحو مليكه[٣] . وبقى القوم يفتخرون بألقابهم ويتشرفون بها حتى كثرت لديهم ألقاب الشرف وتلاشى قيامهم بعبء ما يتطلبه لقب واحد منها ، واحتاج الأمر أخيرا أن يذكر بعد الألقاب لفظ "حقيق" للتمييز بين الممنوح منها للجدارة والمعطى من قبيل الشرف لا غير . وذكر لنا موظف

(١) ١ : ٢٩٥ — ٣٠١ (٢) ١ : ٣٠٤ — ٥ (٣) ١ : ٣٠٢ — ٣

يدعى أونا ترجمة حياته وكانت صلته متينة بالبيت المـالك استنتجنا منهـا معلومات كثيرة عن أعمال حكام الأقسام وقتئذ . فقد ذكر لنا هـذا الموظف أنه بدأ حياته عاملا حقيرا فى أملاك الملك تتا الثـانى[١]فلما تولى ببى الأول عينه قاضيا وألحقه بالقصر الملكى وأنعم عليـه برتبة كاهن من كهنة الهرم[٢]ثم عينه أمينا بالقصر فحاز رضاه بكفايته. واتضح بعد ذلك وجود مؤامرة نسوية فى القصر ضـد الملك فكلف أونا مع زميل له تحقيق المؤامرة وإصدار حكمهما فيهـا[٣] . وهكذا قدر ببى كفايات مستخدميه واستفاد بهم فى ادارة شؤونه وجعل حكومته مطيعة له ولأفراد أسرته . أما فى الصعيد فعين ببى حاكم قسم الأرنب حاكما عاما على الوجه القبلى وطلب أختى حاكم طينه (Thinis) ليقترن بهما ويجعلهما ملكتين شرعيتين . وهاتان الأختان كانتـا متمـاثلتين فى الاسم وتدعيان إنخنس مريرى (Enekhnes - Merire) وقد رزق الملك منهما نجلين توليا الملك بعد وفاته بمدة[٤] .

وبلغت سياسة ببى الخارجية شأوا عظيما ودرجة كبيرة غير مسبوقة النظير فقد أخضع بلاد النوبة تماما وجند من أهلها فرقا للجيش المصرى استعملها فى غزواته الجنوبية والشمالية . واعتاد كلما أغار البدو على شرق الدلتا أو مناجم سيناء أن يرسل الى أونا أمرا بحشد جنود نوبية مع جنود مصرية لكبح جماح هؤلاء العصاة . أصدر أمره فيما بعـد بتعيين أونا قائدا عاما للقوات المصرية فى أثناء الحروب مع البدو مرقيا إياه بذلك على زملائه من رؤساء الجيش[٥] . والتحم أونا بالبدو وسحقهم وشتت شملهم ثم عاد الى وطنه وبعد ذلك عهد اليه مليكه بأربع غارات أخرى ضد البدو أيضا عقابا لهم . ولمـا أغار البدو على اقليم الشام شرقى الدلتا أرسل ببى عمارة بحرية تحت قيادة أونا المذكور الى فلسطين فسارت محاذية سواحل فلسطين الجنوبية وأنزلت جندها هناك وفتكت بالثائرين فتكا ذريعا ثم طردتهم الى جبال فلسطين الشمالية[٦] . ويعتبر هـذا المكان أقصى ما وصل اليه النفوذ المصرى فى عهد المملكة القديمة . ومما يؤيد ذلك وجود جعران من الأسرة السادسة قرب جازر (Gezer) جنوبى بيت المقدس تحت طبقات الأرض مع آثار أخرى للمملكة المتوسطة . وتعتبر قصة أونا هذه برهانا ساطعا على شدة ميل المصريين وقتئذ الى الراحة والسلام لا الى الكفاح والقتال .

هكذا ثبت ببى مركز أسرته وقواه . وتوفى بعـد ما حكم حوالى عشرين سنة فأعقبه فى الحكم ابنه مرنرع (Mernere) وكان شابا شديد البطش قوى البأس ، فأصـدر أمره حالا بترقية أونا حاكما عاما على الوجه القبلى[٧]فقام أونا بهـذه المأمورية خير قيام . وأخذ حكام حدود الوجه القبلى الجنوبية يتسابقون فى خدمة الملك الشاب وكان هؤلاء يقطنون فى جزيرة الفيل جنوبى الشلال وينتمون الى أسرة عريقة (شكل ٧٤) . وجرت العادة أن يسمى الجزء المجاور للشلال الأول "باب القطر الجنوبى" ولذلك لقب حاكم ذلك الجزء "بحارس الباب الجنوبى" وكانت مهمته حمـاية القطر من متوحشى بدو النوبة . وقد كانت الأسرة المذكورة تحافظ على النظام بتلك الجهات بغاية الدقة حتى أنه لمـا صدر الأمر الملكى الى أونا بالذهاب الى تلك الجهات لقطع حجر الجرانيت

---

(١) ١ : ٢٩٤ (٢) ١ : ٣٠٧ (٣) ١ : ٣١٠ (٤) ١ : ٣٤٤ – ٩ (٥) ١ : ٣١١ – ٣١٣
(٦) ١ : ٣١٤ – ٣١٥ (٧) ١ : ٣٢٠

اللازم لصنع التابوت الملكى والأدوات الدقيقة الخاصة بهرم الملك لم يحتج أونا الى أكثر من " سفينة حربية واحدة " وهو أمر لم يسبق له مثيل[1] . بعد ذلك أمر الملك قائده أونا بفتح خمسة مسالك فى سدود الشلال الجرانيتية فأتم هـذا مأموريته بنجاح كما أنه شيد أيضا سبعة مراكب كبيرة شحنها صخورا جرانيتية ضخمة للهرم الملكى واستغرق ذلك كله سنة واحدة[2] .

ولا يخفى أن مصر منعزلة شمالا انعزالا طبيعيا عن البلاد المجاورة ولذلك لم يتطلع فراعنة مصر وقتئذ الى غزو الأقاليم الشمالية بل جعلوا همهم هناك الدفاع عن وطنهم ومناجم طورسيناء . أما النوبة فكانت قريبة للقطر لا يفصلها عنه الا الشلال الأول . فلما شق مرنرع طريقه للسفن بتلك المنطقة سهل عليه غزو النوبة وبسط نفوذه عليها . ولم يطمع المصريون فى النوبة من أجل زراعتها فهى قليـلة الفلاحة أو فاقدتها لكنهم طمعوا فى الذهب والحديد الخام[3] الموجود بالصحراء شرق النيل . ولم نعثر للآن على أدوات حديدية مصرية فى تلك الأقاليم . ومما يزيد أهمية تلك الجهات عند المصريين كونها الطريق الوحيد لأقاليم السودان الجنوبية الغنية التى تصدّر لمصر الذهب وريش النعام وخشب الآبنوس وجلود النمر وسن الفيل وعنهـا أيضا تأتى للبلاد صادرات الصومال والبـلاد المجاورة كالمر والصموغ العطرية والراتنج والبخور . لهذه الأسباب كلها تحتم على الفراعنة أن يحافظوا على النوبة لأنها الطريق الوحيد الموصل الى تلك الأقاليم الجنوبية الغنية .

ولا تزال معلوماتنا ضئيلة بشأن زنوج منطقة الشلال الأول لكننا نعرف أن القبائل التى قطنت الأراضى بين الشلالين الأول والثـانى كان يقال لها الواوات وأن القبائل التى قطنت حول الشلالات النيلية الأخرى كانت تسمى كوش . ويلاحظ أن الاسم الأخير لم يرد ذكره فى الآثار الا فى عهد المملكة المتوسطة . أما الجزء الاعلى لتعريج النيل بين الشلال الثانى وملتقى النيل الأزرق بالأبيض فكان معمورا بقبائل مازوى التى كثيرا ما أمدّت الجيش المصرى بالامدادات فى العصور التالية حتى أطلق المصريون اسم مازوى على الجندى ، وقد ورد هذا اللفظ فى القبطية "ماتوى". وفوق ذلك كانت توجد قبائل يقال لهـا يام يظن أنهـا قطنت بالقرب من مازوى . أما قبائل الإرتت والستحوت فكانت تقطن الجهة الغربية لوادى النيل بين مازوى ويام جنوبا والواوات شمالا . ولا يبعد أن كانت قبائل الواوات والإرتت والستحوت تحت رئيس واحد وقتئذ[4] . والمعروف أن هـذه القبائل كانت وحشية تسكن العشاش الطينية على شاطئ النيل أو حول الآبار المنعزلة وكانت تقتنى القطائع من الأغنام وتزرع القليل من الحبوب .

ولا جدال فى أن القناة التى شقها أونا فى صخور الشلال الأول سهلت الطريق للنفوذ المصرى الى السودان ولذلك أصبحت سلطة مرنرع مهيبة بين قبائل الواوات والإرتت ومازوى ويام ، فكانوا يحضرون جميع الأخشاب التى طلبها أونا منهـم لبناء السفن لشحن أحجار الجرانيت من إقليم الشلال الأول[5] . ومرنرع أول فرعون ذهب الى منطقة الشلال الأول حيث استقبل رؤساء النوبة

(1) ١ : ٣٢٢ (2) ١ : ٣٢٤ (3) Bössing, Geschichte der Metalle, pp. 81, 83 sq.
(4) ١ : ٣٣٦ (5) ١ : ٣٢٤

الذين أتوا مظهرين طاعتهم ومقدمين هداياهم اليه ، وترك نقوشا حجرية[1] بتلك الجهات تمثله واقفا متكئا على عصا طويلة وأمامه رؤساء النوبة ساجدين . يلى ذلك نقوش هيروغليفية تبدأ بالعبارة الآتية "وصول جلالة الملك الى الأراضى الواقعة بعد الاقليم الصخرى (أى إقليم الشلال الأول) لمشاهدة هذا الاقليم ولقبول الخضوع والمديح من رؤساء قبائل المازوى والإرتت والواوات"[2] .

واستعان مرنرع بقبائل جزيرة الفيل فى بسط نفوذه على النوبة ، فرقى رئيسهم المدعو حرخوف حا كما عاما على الوجه القبلى[3] (وهو لقب كان يعطى أحيانا بعض الأشخاص من قبيل الشرف فقط) لكنه أعطى أونا عن جدارة بعد اعتزاله الخدمة لكبر سنه أو وفاته على الأرجح . وقد أظهر حرخوف وأسرته تفانيا عظيما فى خدمة مليكهم وطاعة أوامره فى بلاد النوبة ولذا كان اعتماد الملك عليهم عظيما . فمن أعمال هذه الأسرة توطيد شرف جلالته وهيبته وحماية التجارة من عبث اللصوص والقبائل الهمج والتوغل فى داخلية إفريقية وجنوبى البحر الأحمر للكشف عن تلك الجهات وخيراتها ، ويعتبر أفراد هذه الأسرة أقدم الكاشفين المعروفين فى التاريخ ، وروى أن اثنين منهم توفيا من الصعوبات والأهوال التى لقياها فى رحلات الاستكشاف .

ولكثرة خدمات حكام جزيرة الفيل وعظم أهميتها أغدق عليهم الملك ألقاب الشرف الكثيرة علاوة على ما كان لديهم من الألقاب القديمة ، فأصبحوا يلقبون الآن " بمديرى القوافل الجالبين لسيدهم خيرات البلاد " وهو لقب افتخروا به كثيرا ونقشوه على جدر مقابرهم المحفورة بصخور تجاه أسوان مقابل جزيرة الفيل مسقط رأسهم الأصلى[4] . ودلتنا نقوش بتلك الجهة أن الملك مرنرع أمر حرخوف أحد حكام جزيرة الفيل بغزو أراضى يام ثلاث دفعات متواليات[5] . ففى الغزوة الأولى كان حرخوف شابا مساعدا لوالده المدعو إرى (Iri) الذى عهد اليه وقتئذ فى الاشراف على الأعمال وقد استغرقت هذه الغزوة سبعة أشهر . أما الغارة الثانية فقد عهد الملك فى قيادتها الى حرخوف وحده فقام بها خير قيام وقد استغرقت ثمانية أشهر . ثم كلفه الملك غزوة ثالثة أشد خطرا من السابقتين لكنه لم يكن أقل نجاحا فيها ، فلما وصل حرخوف أرض يام وجد رئيسها يحارب قبائل التمحو الليبيين غربى اقليمه ، فسار اليه حرخوف وأخذ منه جزية وغنيمة وحمل ذلك على ثلثمائة حمار أرسلها الى مصر تحت حراسة خفراء من قبائل يام . ولم تجرؤ قبائل إرتت و ستحو و واوات على الاقتراب من تلك الغنائم فى سيرها شمالا نحو القطر المصرى خوفا من سلطة وبطش المصريين ومن حراس قبائل يام الذين كانوا معها . ولم تكتف هذه القبائل بذلك بل قدمت لحرخوف الهدايا من الأغنام والبهائم وسهلت له الطريق وساعدته بمرشدين فى أثناء سفره . ولما وصل حرخوف الى الشلال الأول وجد مندوبا من قبل الملك فى انتظاره ومعه سفينة ملكية بالهدايا العظيمة تقديرا لخدماته نحو مليكه العظيم .

---

(١) ١ : ٣١٦ – ٣١٨ (٢) شرحه (٣) ١ : ٣٣٢ (٤) شكل ٧٤ (٥) ١ : ٣٣٣ – ٦ وانظر أيضا شكل ٧٦

وأخذ مرنرع يواصل أعمـاله فى النوبة وجنوبى السودان مدّة من الزمن ، ثم وقفت أعماله بغأة وعلى غير انتظار بالنسبة لوفاته ، ودفن فى تابوت جرانيتى بهرمه الملكى جهة منف الذى شيده أونا وباشر صنع تابوته كما ألمعنا سـابقا . وبقيت جثة مرنرع محفوظة فى مقبرتها رغم عبث اللصوص ومر الأيام حتى عام ١٨٨١ ميلادية لمـا نقلت الى دار التحف بالقاهرة (شكل ٧٧) . والمعروف أن مرنرع لم يحكم الا أربع سنوات وأن وفاته كانت فى أول السنة الخامسة ، ولم يترك وريثا لملكه فتبعه فى الملك أخوه من أبيه المدعو ببى الثانى وكان وقتئذ طفلا لم يدرك سن البلوغ . ويرجع السبب فى اعتلاء ببى الثانى على العرش ونجـاح حكمه الى ثبات مركز الأسرة الحاكمة وإخلاص حكام الأقسام لهـا . وببى هـذا هو ابن إنخنس مريرع الأخت الثانية لحاكم طينه التى تزوجها مع أختها الملك ببى الأول . بعد ذلك عين حاكم طينه المدعو زاو شقيق إنخنس مريرع وخال ببى الثانى وزيرا ورئيسا للقضاة وحاكما عاما لعاصمة الملك[١] . وقد أدار زاو دولاب أعمال الدولة فى حداثة سن ببى الثانى بدون تغيير مطلقا فى سياسة المملكة .

وفى السنة الثانية من حكم الملك ببى الثانى صدر أمر من كبار الدولة المصرية الى حرخوف بالقيام بغزوة رابعة بأرض يام فقام بها خير قيام وجلب معه غنائم كثيرة وقزما من أواسط إفريقية (شكل ١٤ و ٧٥) . وكان لسراة المصريين غرام كبير بالأقزام خصوصا وقت رقصهم لأنهم كانوا يشبهونهم بالمعبود بِسْ الممثل ضاحكا دائما على الآثار . واعتقد المصريون قديمـا أن أرض الأقزام ذات صلة "بأرض الموتى الغربية" (المعروفة بأرض الأرواح) . ثم ان ملوكهم كانوا كثيرا ما يمضون فراغهم فى مرح من رقص الأقزام . لذلك لمـا علم ببى الثانى بخبر حضور قزم مع حرخوف كان سروره عظيما جدا على حداثة سنه فأرسل الى حرخوف كتابا خاصا رجاه فيه الاهتمام بعدم إيذاء ذلك القزم والاحتراس من غرقه فى النيل ووعده بمكافأة أكبر من التى أعطاها الملك إزيسى وزيره بِرْدِدْ لمـا جلب له قزما من بونت أى بلاد الصومال . وقد سر حرخوف بهذا الخطاب كثيرا فنقشه على وجهة قبره (شكل ٧٦) اثباتا لعلاقته المتينة مع البيت المـالك[٢] .



شكل ٧٥ — تمثال قزم من عهد الامبراطورية القـــديمة (مأخوذ عن ماسبيرو)

(١) ٤٤٢٣-٩ (٢) ٣٥٠٠٢-٢٥٤

ويرجح أن غزوات حكام الجنوب لبلاد النوبة فى القرن السادس والعشرين قبل الميلاد كانت أقل نجاحا من غارات حرخوف ، لأنه ورد على الآثار أن أحد حكام الأقاليم الجنوبيـة المدعو سبنى (Sebni) كان له ابن رئيسا يدعى مخو أرسل بأمر ملكى لغزو السـودان فبلغه ذات يوم فجأة خبر قتل والده بجهة الواوات ، فحشد جنودا بسرعة وزحف معهم جنوبا مع مائة حمـار ليقتص من القبيلة التى قتلت والده،وأرسل فى الوقت نفسه خبرا بذلك الى الملك مع رسول يحمل هدية قرن من العاج يبلغ طوله خمسة أقدام ، واعتذر بأن أطول قرن عنده لا يزيد طوله على عشرة أقدام ! ووصل سبنى أرض الواوات فوجد جثة أبيـه واقتص من قتله ثم أحضر الجثة معـه الى القطر المصرى محملة على حمـار . ولمـا وصل الى وطنه وجد أن الملك أرسـل له بعثة ملكية من المحنطين والنجارين ورجال المآتم وكهنة الأموات وما الى ذلك وكميات وافرة من الأقمشة والبخور والزيوت والروائح الذكية ليحنطوا الجثة بسرعة ويقدموا ما يليق بهـا من الحفاوة . بعد ذلك سافر سبنى الى الملك ليقدم له جزيل الشكر على حسن صنيعه وأحضر له أيضـا الغنائم العظيمة التى جمعها له والده ، فنال من السدّة الملكية أعظم عطف واحترام وبخاصة لما فعله فى تخليص جثة أبيه من هؤلاء القتلة ، ومثل هـذا الأمر كان من أقدس الواجبات عند المصريين . ثم أهدى الملك سبنى اليه هدايا ثمينة وكمية كبيرة من الذهب لإخلاصه للعرش وختم نعمه باعطائه قطعة من الأرض بأمر ملكى[1] .

هكذا امتدت سيطرة مصر على النوبة تدريجيا . ثم خطر للمصريين أن يعينوا على تلك البـلاد حاكما عاما من قبلهم فأصـدر الملك أمره الرسمى بتعيين المدعو بپى نخت (Pepinakht) فى تلك الوظيفة وهـذا الرجل هو أحد رؤساء جزيرة الفيل ، ومن ثم أطلق على المركز " حاكم البلاد الأجنبية "[2] . وكلف الملك هـذا الحاكم غزو أراضى الواوات والإرتت فنفذ ذلك وأحضر معه غنائم كثيرة وعددا كبيرا من الأسرى والأطفال ورؤساء القبائل كرهائن لحماية البلاد من حصول اضطرابات فى المستقبل[3] . وصدر أمر ملكى ثان الى بپى نخت بالقيام بغزوة ثانية فقام بالمأمورية خير قيام وأسر رئيسين من رؤسـاء قبائل السودان مع قائديهم وكثيرا من الغنائم وقطعان الأغنام[4] . ويستدل من نقوش مقـابر جزيرة الفيل أن غزوات المصريين بلغت وقتئذ أرض ثوش[5] . وبهـذه الطريقة سهل على ملوك المملكة المتوسطة أن يخضعوا النوبة السفلية وقد كان هذا الأمر من أسهل المسائل على ملوك الأسرة السادسة لولا سقوطها وحصول اضطرابات داخلية .

والفضل فى ربط تجارة مصر بالصومال وجنوبى البحر الأحمر يرجع الى حكام جزيرة الفيل الذين كانوا مزودين على ما يظهر بالسلطة على البلاد الممتدة من النيل الى البحر الأحمر . ولا يخفى أن غزوات هؤلاء القوم للصومال كانت خطيرة وصعبة كغزوات النوبة . ولعدم اتصال النيل بالبحر الأحمر اضطر حكام جزيرة الفيل وقت غزوتهم لبلاد الصومال أن يبنوا سفنا بميناء على البحر الأحمر

(١) ١ : ٣٦٢ - ٧٤ (٢) ١ : ٣٥٦ (٣) ١ : ٣٥٨ (٤) ١ : ٣٥٩ (٥) ١ : ٣٦١

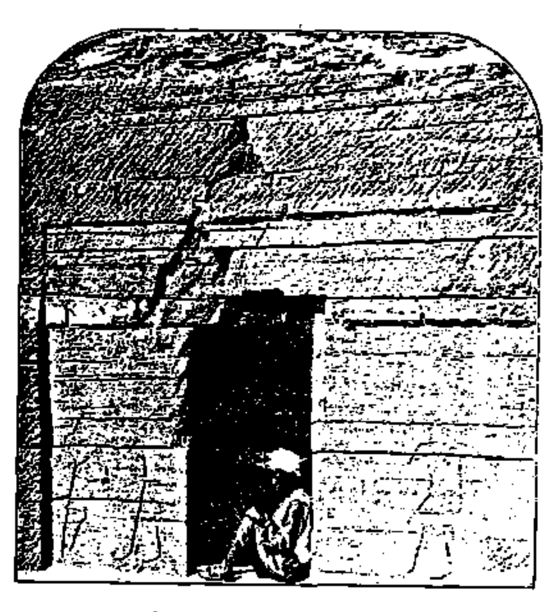
قريبة من النيل كالقصير أو لوكوس ليمين (Leucos Limèn) . ورق المصريون الملاحة بتحسينات أدخلوها عليها كاستعمال أحد المجاديف سكانا[1] بآخر المركب متصلا بيد تديره على حسب الارادة . ودلتنا الآثار أن القائد البحرى لبپى الثانى المدعو إننخت (Enenkhet) افترسه البدو وفتكوا به وبرجال حملته فأصدر الملك أمره فى الجبال الى پپى نخت بالذهاب توا لانقاذ جثة إننخت وعقاب البدو ، فنفذ پپى نخت مأموريته تماما ورجع سالما[2] . ومع هذه الغزوات كانت العلاقات التجارية والمواصلات مع الصومال مستمرة سليمة كما أثبتته نقوش مقبرة لأحد مستخدمى رؤساء جزيرة الفيل ، فقد جاء فيها أن هذا الموظف سافر مع سيده الى الصومال أكثر من احدى عشرة مرة ورجع سالما[3] . من ذلك يتضح أن مصر أخذت ترقى تجاريا وحربيا حتى اضطرت فى آخر الأمر أن تتدخل فى أمور البلاد المجاورة لها وأن تبسط نفوذها عليها ، فلم يعد الفراعنة قنوعين بخيرات قطرهم كما أن التجار طمعوا فى نعم الأقطار الأخرى ، فكثرت التجارة مع الجنوب وأخذت الأساطيل المصرية الملكية شمالا تنقل خيرات لبنان وأخصها خشب الأرز من غابات تلك الجهات الغنية . ودلتنا المباحث الحديثة على وجود صلة تجارية قديمة بين القطر المصرى وجزر البحر الأبيض المتوسط وهو أمر منتظر لا يحتاج الى دهشة أو استغراب .

ولمناسبة جلوس پپى الثانى على العرش فى طفولته كانت مدة حكمه طويلة فقد قال مانيتو ان هذا الملك تولى الحكم فى السنة السادسة وعاش مائة سنة . وأكد إراتوستنيس (Eratosthenes) فى قائمته التاريخية أن پپى الثانى حكم البلاد مدة قرن . أما درج تورين البردى فيدل أن پپى هذا حكم حوالى تسعين سنة وهو محتمل جدا ، وعليه فحكم هذا الملك أطول الأحكام فى التاريخ . ولما توفى پپى الثانى تبعه عدة ملوك مددهم قصيرة ويظن بعض الأثريين أن من بين هؤلاء الملوك الملكة نيتوقريس التى نسب اليها كثير من الروايات الخرافية ، وكذلك الملكان إتى وإمحتب اللذان أرسلا بعثات لوادى الحمامات لقطع الأحجار اللازمة لهرميهم[4] ، وهناك أثريون آخرون يجيزون أن هذين الملكين حكما فى آخر عهد الأسرة الخامسة . والثابت أن الحوادث التى حصلت بعد وفاة پپى الثانى لا تزال غامضة تصعب علينا معرفتها ، فنحن لا نزال نجهل كيفية سقوط الأسرة السادسة وطريقة انتقال الملك منها الى الأسرة السابعة . والمظنون أن الأسرة السادسة حكمت حوالى مائة وخمسين سنة . وقد ألمعنا سابقا الى أن سلطة حكام الأقسام كبرت تدريجيا فى أواخر أيام هذه الأسرة حتى انتهى الأمر باستقلال كل منهم وتفكك عرى الدولة فعادت الحال كما كانت عليه قبل حكم الملك مينا . وهكذا بعد ما حكمت القطر حكومة نظامية لمدة تزيد على ألف سنة رجعت الحال الى أصلها من الفوضى وعدم النظام .

وقبل الفراغ من الكلام على تاريخ المملكة القديمة يجدر بنا أن نفخر بأعمال ملوكها العظام الذين حكموا القطر مدة ألف سنة تقريبا والذين يرجع اليهم فضل توطيد المملكة وجمع قوتها وتوجيه مجهوداتها نحو النافع المثمر العائد بالخير والرفاهية . وإذا لاحظنا كل هذا لا نستغرب أن نرى

---

(١) السكان هو دفة المركب ؛ (٢) أ ٣٦٠ ؛ (٣) أ ٣٦١ ؛ (٤) أ ٣٨٦ – ٣٩٠



شكل ٧٦ — صورة مقبرة حرخوف بأسوان
يلاحظ فى الحافة اليمنى للصورة نقوش هيروغليفية
هى آخر ما ورد فى خطاب صاحب هذه المقبرة المذكور فى صلب
الكتاب (مأخوذ عن أندروود وأندروود بنيويورك)



شكل ٧٧ — رأس مومياء الملك مرنرع
(دار تحف القاهرة)



شكل ٧٨ — صخور أسيوط الغربية الحاوية
لمقابر أمراء العائلتين التاسعة والعاشرة
(مأخوذ عن أندروود وأندروود بنيويورك)

الشعب المصرى عبد هؤلاء الفراعنة تبجيلا لهم وتعظيما . وقد استمر المصريون يعبدون هؤلاء الحكام حتى الأسرة السادسة والعشرين ، كما يتضح من مثابرة القوم على تعيين كهنة اخصائيين لهؤلاء الملوك فى تلك الأوقات التالية . وصار المصريون فى عهد الاصلاح بأواخر التاريخ المصرى يسترجعون ديانة ومعلومات ونظام حكومة المملكة القديمة بعد ما مضى عليها نحو ألفى سنة . ولا تزال آثار هؤلاء الأقوام كالمعابد والمقابر والأهرام المنتشرة على طول القطر لمدة أميال تلقى فى نفس من يراها الاعجاب والدهشة ، وقد شيدت معظم هذه الآثار على سلسلة جبال ليبيا بحافة الصحراء الغربية ، وهذه الى الآن تشهد لأصحابها بتوقد الذهن وعظم المجهود والبراعة فى الأعمال الآلية (الميكانيكية) والأنظمة الداخلية وبناء السفن لعبور البحار وارتياد البلاد للكشف . والحق يقال ان هؤلاء القوم هم الذين ربطوا التجارة المصرية مع البلاد الأجنبية السحيقة حتى أواسط إفريقية وحسنوا فنى الحفر والنقش وقدموا فن العمارة فشيدوا العمد العظيمة الشيقة والمبانى الضخمة ذات العمد وبرعوا فى سياسة البلاد داخليا وخارجيا فسنوا قانونا متينا عادلا وأنجبوا رجالا متضلعين فى القضاء . وقد اعتنى أهالى المملكة القديمة بديانتهم كثيرا لشدة اعتقادهم أنهم فى الحياة الأخروية محاسبون على أعمالهم . وهم للآن أقدم أناس معروفين اعتقدوا بالبعث بعد الموت وأن الثواب فى الآخرة على قدر الحسنات فى الأولى . وجملة القول ان أعمال هؤلاء القوم ومدنيتهم انتشرت فى العالم فأعجب بها الخلق أكثر من أية مملكة أخرى .

بقى علينا الآن أن نتفقد الحوادث لنعرف اذا كان اضمحلال المملكة القديمة وفرط عقدها استمر حتى أفسد البقية الباقية من النخوة القومية أو أن هذا الانقلاب كان حادثا عرضيا فقط عالجته أذهان وأيدى رجال مصر العاملين فأرجعوا المياه الى مجاريها وساعدوا بلدهم على التقدم والرقى حتى أدهشوا العالم .

الكتاب الثالث

المملكة الوسطى — عهـــد الاقطاعيات

الفصل الثامن

اضمحلال منف وبزوغ شمس طيبه

لما سقطت الأسرة السادسة تفككت عرى الحكومة وعمت الفوضى البلاد وساد فيها التلف وكثر الخراب . أما الأشخاص المسئولون عن هذا الانقلاب العظيم فلم نهتد اليهم للآن ولكننا نظن أنهم كانوا معادين للملوك المملكة القديمة، لأنهم نهبوا المعابد وخربوا الهيا كل والمقابر والنقوش والرسوم البديعة بنظام وتدبير . وحطموا التماثيل الجرانيتيــة الجميلة والصوانية وألقوا بعضها فى الآبار كما ثبت بما وجد ببئر المعبد المقام على الطريق الموصل لهرم الجيزة الثانى . ولذلك استدللنا أن أعداء المملكة القديمة صبوا نقمة غضبهم على كل من له علاقة بأعدائهم حتى حل بالأمة الدمار والخراب . قال مانيتو موجزا ان بعض الأمراء وقتئذ اجتهدوا فى ارجاع الأمور الى مجاريها فأسسوا حكومة مركزية منفية اعتبرها هذا المؤرخ الأسرة السابعة . وروى مانيتو أيضا أن هــذه الأسرة سقطت ثم تبعتها الأسرة الثامنة أفرادها أذناب العائلات المنفية السابقة . ويستدل من قائمة أسماء الملوك المحفوظة بمعبد العرابة أن ملوك هذا العصر المضطرب اعتبروا أنفسهم من نسل الأسرة السادسة ولكننا لم نعثر للآن على هرم أو قبر لهؤلاء الأقوام . وليس فى محاجر طورسيناء ووادى الحمامات ذكر مطلقا للملوك الأسرتين السابعة والثامنة مع أنها تحوى كثيرا من النقوش لفراعنة مصر العظام، ولذلك لا يبعد أن كان ذلك العصر عهد فوضى وخراب عجز فيه ملوكه وأمراؤه عن تشييد مقابر أو آثار لم نستدل منها على حوادث زمنهم . وتفيد نقوش محـاجر حاتنوب أن أمراء ذلك القسم المعروف قدما بقسم الأرنب جمعوا قوتهم .وقتئذ وأعلنوا استقلالهم وأرخوا حوادثهم بسنى حكمهم بلا اعتبار للبيت المـالك . وتمادى هؤلاء الحكام فى عصيانهم فكتب أحدهم نقوشا افتخر فيهـا بأنه نجى بلده من ظلم واضطهاد البيت المـالك[1] . وبعد ذلك بمدّة وجيزة ظهرت بجهــة إهناس أسرة قوية اغتصبت الملك من الأسرة الثامنة المنفية التى بقيت تدعى لنفسها حق الملك مدّة قرن تقريبا .

والظاهر أن أمراء إهناس ردّوا بعض النظام الى القطر وأرجعوا اليــه السكينة والطمأنينة . أما إهناس فبلدة واقعــة جنوبى الفيوم وهى مركز عبادة حوريس منــذ مبدأ حكم الأسر . وأوّل من ارتقى عرش مصر من هؤلاء الإهناسيين هو أختويس (Akhthoes) كما روى مانيتو ، واليه ينسب حب الانتقـام والجبروت والغلظة أكثر من سواه وقتئذ . قال مانيتو ان هــذا الملك جن فى أواخر أيامه ثم افترسه أحد التماسيح . وحكم مصر فى إهناس ملوك الأسرتين التاسعة والعاشرة وكانوا ضعيفى السلطة لم يتركوا بعدهم آثارا عظيمة تثبت قدرتهم وكفايتهم . ولم نعثر على نقوش أثرية لهاتين

---

(1) ١ : ٦٩٠

الأسرتين الا ما له علاقة بالثلاثة الأجيال الأخيرة من حكمهما لما أخذ حكام سيوط يحفرون مقابرهم في الصخور ويدونون أعمال أسرتهم العظيمة[١] . وجاء في هـذه النقوش أن حالة القطر المصرى وقتئذ كانت سيئة وأن ملوك إهناس قاوموا ذلك السوء وحاولوا ازالته . واليك ترجمة ما جاء بقبر أحد أولئك الأمراء السيوطيين : " كان كل موظف يدير عمله كالمعتاد بلا مشاجرة ولا مطاحنة بالقوس والنشاب ، وبطل قتل الطفل جوار أمه وسفك دم الرجل قرب زوجه ، ووقف فعل السوء .... وضرر الرجل لبيته"[٢] . واليك ترجمة نقوش أخرى : " اذا جن الليل مدحنى كل من نام فى الطريق لأنه أصبح آمنا كالذى يقطن داره ، ذلك لأن فزع الأئمة من جنودى كان خير حام له فى وحدته " [٣] .

وعلاقة حكام سيوط مع ملوك إهناس كانت متينة وحسنة للغاية ، فقد جاء أن أحد هؤلاء الملوك حضر مرة جنازة حاكم سيوط وأن ابنة هـذا الحاكم تولت ادارة شؤون قومها بعد وفاته وأرسلت ابنها الصغير المدعو ختى ليتعلم مع أولاد ملوك إهناس[٤] ، فلما كبر هـذا الابن تسلم من أمه مقاليد الحكم وقد ترك لنا فى قبره نقوشا تشير الى كثرة رخاء وتقدم قسم سيوط . ومما ورد عن هذا الحاكم أنه حفر الترع وقلل الرسوم وأكثر المزروعات وقطعان الغنم وجهز نفسه بجيش برى وأسطول بحرى لمكافحة الطوارئ . من ذلك صار لحكام سيوط عند ملوك إهناس مكانة عظيمة حتى صدر الحكم الملكى فى يوم من الأيام بتعيين ختى المذكور "حاكما عاما على مصر الوسطى" [٥] .

فى هذا الوقت ظهرت أسرة عظيمة ذات نفوذ كبير بجنوبى القطر أخذت تنافس حكام أقسام مصر عزة ورقيا . أما مقر هـذه الأسرة فيبعد عن منف جنوبا بنحو أربعمائة وأربعين ميلا وعن الشلال الأول شمالا بأقل من مائة وأربعين ميلا ويقع جنوبى انحناء النيل القريب فى البحر الأحمر (جهة قفط) بحوالى أربعين ميلا . والباحث فى هذا المكان من الوجهة الجغرافية يجد أن سلسلتى جبال وادى النيل تتسعان وتبعدان عن النهر وتحدثان سهلا شاسعا خصبا نشأت فى وسطه مدينة يقال لها طيبه ، ولا يزال هذا السهل يحوى للآن أعظم آثار المدنيـة القديمة الفذة فى المعمورة . وبديهى أن مدينـة طيبه أقدم مدينة أثرية فى العالم وقد كانت فى العصر الذى نحن بصدده قرية صغيرة . أما عاصمة اقليمها فكانت أرمنت مقر احدى أسر أمراء الصعيد التى امتاز رؤساؤها باسمى إِنْتِفْ ومِنْتُوحُوتِبْ . وفى آخر عهـد ملوك إهناس قوى نفوذ هـذه الأسرة الأخيرة فرقى أحدهم المدعو إنتف بأمر ملكى الى رتبـة " محافظ باب القطر الجنوبى "[٦] . ولما كثرت المعاملات بين أقسام الوجه القبلى ومد كل منها يد المساعدة الى الآخر فى مبادلة الغلال والحبوب[٧] وغيرها جمع إنتف أقاليم مصر الجنوبية من الشلال الأول الى طيبه تحت كلمته وشق عصا الطاعة على إهناس واغتصب الملك منهم وألف هو وخلفاؤه مملكة مستقلة مركزها طيبه . وقد اعتبر إنتف هذا مؤسس ملوك طيبه فى العصور التالية فأقام أمراء المملكة الوسطى تمثالا له بمعبد طيبـه لعبادته بين تماثيل أجدادهم السابقين [٨] .

---

(١) ١ : ٣٩١ – ٤١٤ (٢) ١ : ٤٠٤ (٣) ١ : ٣٩٥ (٤) ١ : ٤١٣ (٥) ١ : ٤١٠ (٦) ١ : ٤٢٠
(٧) ١ : ٤٥٧ – ٩ (٨) ١ : ٤١٩

وأخذ حكام أسيوط ينتقمون من حكام طيبه ليخضعوهم لسلطة إهناس فقام تفيبي (وهو ابن خيتي حاكم سيوط على الأرجح) وحشد جيشا وأسطولا زحف بهما جنوبا على طيبه، فالتحم بجيوش أعدائه على شاطئ النيل الغربي وهزمهم واقتفى أثرهم حتى "قلعة باب القطر الجنوبي" وهي العرابة المدفونة على الأرجح[١] . ثم التحم قسم آخر من جيش تفيبي مع بعض قوات طيبه على جهة النيل الشرقية فانهزم الطيبيون أيضا . وبعد ذلك حصلت معركة بحرية بين أسطولى الطرفين انتهت بأسر أسطول طيبه وغرق قائده في النيل[٢] . على أثر ذلك رقى خيتي ابن تفيبي "حاكما عسكريا للأراضي كافة" و"سيدا أكبر لمصر الوسطى"[٣] . ولما توفى تفيبي استمر خيتي مخلصا للملك مريكارع الإهناسي الآيل الى السقوط، وأخضع خيتي ثورة ثانية بطيبه، والظاهر أنه استصحب الملك وقتئذ ليريه خضوع أهل طيبه له ثم عاد معه . وكان خيتي يفخر كثيرا بأسطوله لما رأى وحداته منتشرة عدة أميال على مياه النيل حتى مدينة سيوط . ولما وصل الملك مع خيتي الى مدينة إهناس قابلهما الأهالي بابتهاج عظيم وصفه خيتي بقوله "لقد أقبلت علينا المدينة مسرورة بسيدها .... نساء ورجالا وكهولا وأطفالا"[٤] . ومن ذلك يتضح أن نقوش مقابر سيوط كانت خير معين لنا على معرفة تاريخ أواخر العهد الإهناسي (شكل ٧٨) .

وبالرغم عن هذا كله فإن حظ طيبه أخذ يعلو ويتحسن لأنه لما توفى إنتف المذكور آنفا تولى بعده حاكم آخر يقال له إنتف أيضا، انتحل لنفسه الألقاب والأوصاف الفرعونية وكتب اسمه داخل خانة ملكية أيضا، وأصبح هذا الشخص بحكم التاريخ إنتف الأول مؤسس الأسرة الحادية عشرة . وقد استعمل هذا الملك العنف والشدة مع الإهناسيين فافتتح العرابة وقسم طينة وأوصل حدود مملكته الى "باب القطر الشمالي"[٥] ولعله المعروف أيضا "بحصن باب القطر الجنوبي" الوارد ذكره في نصوص تفيبي[٦] . وحكم إنتف هذا أربعين سنة ثم عقبه ابنه المدعو إنتف الثاني الذي لا نزال نجهل صلته وتاريخه للآن[٧] . ثم توفى هذا فتبعه في الملك المدعو منتوحوتب الأول ثم منتوحوتب الثاني . ويظن بعض الأثريين أن الملوك المدعوين منتوحوتب كانوا فرعا من أسرة إنتف المذكورة واليهم يرجع الفضل في بسط سيادة طيبه على القطر المصري . فما ورد عن منتوحوتب الثاني أنه أخضع الوجه البحري ودون انتصاره على جدر معبده في جبلين فصور نفسه ضاربا المصريين والأجانب معا وكتب في الحاشية ما ترجمته : "هذا ضم رؤساء وجهي مصر وغزا الوجه القبلي والبحري والبلاد الأجنبيه وقسمي مصر وتسع قبائل من البدو وأرضي مصر"[٨] . ويرجح أن سقوط إهناس حصل حوالى منتصف القرن الثاني والعشرين قبل الميلاد، وعلى أثره انتقل الملك من الشمال الى الجنوب . وتقدر المدة من سقوط الأسرة السادسة (أواخر عهد المملكة القديمة) الى منشأ الأسرة الحادية عشرة الطيبية بثلثمائة سنة تقريبا ، وفي أثنائها انضمت مصر تحت ادارة أمراء أقوياء قادرين على كبح جماح المتشردين . ولكننا لا نعرف بالضبط العلاقة التي كانت بين ملوك

---

(١) ١ : ٣٩٦ (٢) شرحه (٣) ١ : ٣٩٨ و ٤٠٣ و ١ : ٢٣ (٤) ١ : ٤٠١
(٥) ١ : ٤٢٢ و ٤٢٣ و ٤٤ D.I. (٦) راجع ملاحظة (١) هنا (٧) ١ : ٤٢٣ G (٨) ١ : ٤٢٢ H

الأسرة الحادية عشرة ، انما المفروض جدلا أن الملك انتقل وراثيا من الأب الى الابن . ومع ذلك فهناك شواهد تشير الى حصول نزاع بين أفراد تلك الأسرة على عرش مصر ولذلك لا يمكننا الجزم بترتيب حكم هؤلاء الأفراد بالضبط .

فى عهد الأسرة الحادية عشرة أخذت مصر ترسل البعثات الملكية الى البلاد النائية بعد ما مضت على وقوفها مدة طويلة ، فأرسل الملك منتوحوتب الثالث الملقب بنبتاورع وزيره المدعو أمنمحعت الى وادى الحمامات لجلب الأحجار اللازمة للتابوت الملكى . وقد ترك الوزير بتلك الجهة نقوشا عظيمة تتلخص فى أنه مضى هناك خمسة وعشرين يوما مع عشرة آلاف عامل . و يعتبر هذا أكبر عدد للعمال ورد ذكره على الآثار المصرية حتى ذلك العهد . وروى هذا الوزير أيضا أن المعبود مِن إله تلك الجهة أظهر معجزات وكرامات استغرب لها الناس طرا ، من ذلك أنهم لما وصلوا الى تلك الجهة وجدوا غزالة وضعت صغارها على الصخرة التى استخرج منها العمال الغطاء اللازم للتابوت الملكى ، و بعد ذلك هطلت الأمطار بكثرة فملأت بئرا هناك لحافته فأكمل العمال شغلهم بغاية السهولة والسرعة . واليك ترجمة ما قاله أمنمحعت عن ذلك مفتخرا : " وعادت حملتى بلا خسارة فلم يتوف منها أحد ولم أفقد شخصا ، ولم يهلك حمار ولم يهن عامل"[1] . والمعروف أن هؤلاء العمال جمعوا من جهات القطر جميعها ، لذلك كانت سلطة الملوك الثلاثة المدعوين منتوحوتب كبيرة . وستظهر لنا علاقة هؤلاء الملوك بحكام أقسام مصر عند الكلام على الأسرة الثانية عشرة الطيبية التى سنذكرها فى القريب العاجل .

ولما توفى منتوحوتب الثالث تولى بعده منتوحوتب الرابع وهو المدعو نب حيت رع وغزا النوبة وأنجز مشروعات الأسرة السادسة هناك بعد وقوفها . وتفصيل ذلك أنه أرسل فى السنة الحادية والأربعين من حكمه وزيره المالى المدعو خيتى فى أسطول نيلى الى بلاد الواوات لاخضاعها[2] . ومن مآثره أيضا أنه شجع العمارة فشيد معبدا جميلا على صخور طيبة الغربية حلاه بشرفات بديعة قلدتها الملكة حعتشبسوت بعد ذلك لما شيدت معبدها بالدير البحرى ، و يعتبر معبد منتوحوتب الرابع هذا أقدم آثار طيبة المعروفة للآن وكان العثور على هذا المعبد حديثا ، وقد وجدت على جدره صور بارزة لأجانب يقدمون الجزية للملك . والظاهر أن طول مدة حكم هذا الملك (التى قربت من أربعين عاما) ساعدت كثيرا على توطيد سلطته حتى اعتبره القوم بعد وفاته بعدة قرون المؤسس الأكبر لسيادة طيبه .

وتولى الملك بعد ذلك منتوحوتب الخامس فثابر على غزو النوبة والسودان كما فعل قبله ملوك المملكة القديمة . ثم وضع شئون التجارة مع البلاد الأجنبية فى يد موظف ماهر يقال له هنو " محافظ باب القطر الجنوبى " ووزير المالية أيضا . وأمر وزيره هنو هذا بغزو سواحل البحر الأحمر فسافر اليها عن طريق وادى الحمامات فى قوة تبلغ ثلاثة آلاف رجل مزودين بما يحتاجون اليه من

---

(١) ١ : ٤٣٤ - ٤٥٣ (٢) ١ : ٤٢٦

مأكل ومشرب الخ مما يشير الى حسبان هـذا الوزير ما عسى أن يحصل من المصاعب فى أثناء الطريق . وقد جاء فى أخبار هـذه الرحلة أن كل فرد منها كان يعطى له اناءان من المـاء وعشرون كعكة صغيرة كل يوم مدة اختراق الصحراء والمكوث بوادى الحمامات[١] . وعليه فمجموع المصروف اليومى لرجال هـذه الحملة بلغ ستة آلاف إناء من المـاء وستين ألف كعكة . واتخـذ هنو فى مسيره كل وسائل الأمن وسهولة الانتقال فحفر فى الطريق خمس عشرة بئرا ومستودعا للماء[٢] وعين عليها الحاميات اللازمة[٣] . ولمـا بلغ البحر الأحمر بنى مركبا أرسله الى الصومال ثم عاد الى وطنـه عن طريق وادى الحمامات جالبا معه قطعا حجرية جميلة ليصنع منها تمـاثيل للمعابد الملكية[٤] . ويقدر حكم منتوحوتب الخامس بثمانى سنوات على الأقل[٥] .

ولمـا توفى منتوحوتب الخامس انقرضت الأسرة الحادية عشرة وابتدأ حكم الأسرة الثانية عشرة التى رأسها أمنمحت الأول . وقد ذكرنا سابقا أن شخصا بهذا الاسم كان معينا وزيرا لمنتوحوتب الثالث والآن نزيد أن هذا الرجل قوى نفوذه وعظمت سطوته فانتزع الملك من آخر ملوك الأسرة الحادية عشرة . ويظن أن هناك بعض الصلة الدموية بينـه وبين هذه الأسرة لأن أسرته اعتبرت إنتف جدا لهم فقدسه أفرادها ونصبوا له تمثالا بالكرنك[٦] . وتقدر مدة حكم الأسرة الحادية عشرة بنحو مائة وستين سنة[٧] وكان سقوطها حوالى سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد . وهى قليلة الآثار وأهرامها صغيرة ومشيدة باللبن على سهول طيبه الغربية وقد بقيت مصونة مدة ألف سـنة تقريبا[٨] ثم خربت وتلفت حتى كادت تعفو وقد كشفها مريت الفرنسى الأثرى حديثا . وتعتبر هذه الأسرة مؤسسة للحكم الطيبى المعظم .

وصادفت أمنمحت الأول صعوبات جمة ومشقات كبيرة فى اعلاء مجده ورفعـة مقامه ، من ذلك أنه أرسل أسطولا مكونا من عشرين سفينة مصنوعة من خشب الأرز[٩] طرد بها الأعداء من القطر المصرى . ثم قامت فى وجهـه مشاكل داخليـة كبيرة سببها حكام الأقسام الذين ما فتئوا يجتهدون فى قطع صلتهم به واعلان استقلالهم عنه فمما ورد عنهم أنهم أصلحوا مقابر أجدادهم الذين أسقطوا المملكة القديمة حفظا لذكراهم[١٠] ورغبة منهم فى الانفراد بالحكم وعدم اطاعة البيت المـالك . وليلاحظ أن ملوك الأسرة الحادية عشرة قللوا كثيرا من نفوذ هؤلاء الحكام ، فلما أتى أمنمحت أخذ يطوف القطر ويخضع أقسامه العاصية ويبسط العدل ويمنع المشاغبات والمنازعات بين الحكام حتى قال عنه حاكم قسم الوعل (Oryx-nome) ما ترجمته : "لمـا ذهب جلالته الى هذا القسم بين الحدود الجنوبية ووطد الحدود الشمالية كالسماء وقسم النهر فى النصف الى قسمين جعل النصف الشرقى "لأفق حوريس" واصلا للجبال الشرقية . وكان مجىء جلالته ساطعا مثل أتوم (Atum) — أى الشمس — ومصلحا لكل تلف ومعيدا لكل بلد ما سلبه منه جاره ومبينا لكل مدينة حدودها بمعالم كالسماء ومقسما المياه كما هو مدون فى النصوص القديمة . كل هذا فعله جلالته لشغفه بالعدل وشدة ولوعه به"[١١] .

(١) ٤٢٠:١ (٢) ٤٣١:١ (٣) ٤٥٦:١ (٤) ٤٣٣-٤٣٢:١ (٥) ٤٤٨:١ (٦) ٤١٩:١
(٧) ٤١٨:١ (٨) ٥١٤:٤ (٩) ٤٦٥:١ (١٠) ٦٨٨:١-٩ (١١) ٦٢٥:١

ولم يكن من السهل على أمنمحت الأول أن يرجع لمصر ما حازته من العز أيام المملكة القديمة لأن حالة البلاد الداخلية لم تعد تسمح بهذا النظام . فحكام الأقسام عادوا أقوياء فلم تبق أمامه وسيلة لاخضاعهم الا استعملها وأخذهم بالحسنى والرفق والكرم . ونستدل من نقوش مقبرة بجهة بنى حسن جاء فيها أن أمنمحت الأول منح أحد أتباعه المدعو خنوم حوتب قسم الوعل (سعح) (Oryx-nome) فى شرقى المنيا وقد سبق أن الملك أوضح بعض حدود هذا القسم[1] ، والظاهر أن أمنمحت أخذ يعين فى كل قسم الشخص الأكثر ولاء وطاعة لأوامره ، فتمكن بهذه السياسة الحكيمة الرشيدة من تنظيم المملكة وتأسيس عهد سعيد آخر لمصر يعرف عند المؤرخين بعصر المملكة الوسطى الذى يبتدئ حوالى سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد .

---

(١) ١ : ٦١٩ - ٦٣٩

الفصـــل التـاسع

المملكة الوسطى أو عهد الاقطاعيات ، الحكومة ، المجتمع ، الديانة

أجبرت الظروف ملوك الأسرة الحادية عشرة أن يقيموا بطيبه مدة حربهم ونضالهم مع الوجه البحرى . ولما تولى أمنمحعت الأول عرش مصر صادفته صعوبات جمة لما حكم القطر فى طيبه لأن معظم حكام الأقسام كانوا ميالين لملوك إهناس ولأن العادة اقتضت منذ سقوط ملوك طيبه ، أن يكون مركز الحكم فى الجهات الشمالية ، ولم يشذ عن القاعدة الأخيرة الا ملوك الأسرة الحادية عشرة . بناء عليه اختار أمنمحعت الأول مركز حكومته على شاطئ النيل الغربى جهة منف وعلى بعد بضعة أميال منها ولكننا لا نزال نجهل موقع هذا المركز بالضبط ، ونظن أنه قريب من لشت حيث كشف هرم أمنمحعت المهدم . وأطلق أمنمحعت اسم إتتوى أى "فاتح القطرين" على مركز اقامته هذا ونقش ذلك على الآثار وشيد حولها سياجا مسلحا شبيها بالقلاع رمزا الى مناعة المركز الذى أدار فيه سياسة البلاد بحكمة ومهارة لا تعرف الملل ولا اليأس . وقد تبعته ذريته وسارت على منواله بحكمة وعقل فعظم مركز الأسرة وعلت منزلتها فى التاريخ القديم .

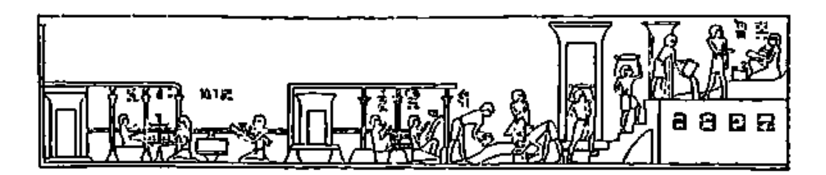
ومعلوم أن القطر المصرى كان مجزأ وقتئذ الى أقسام صغيرة لكل منها حاكم تحت النفوذ الفرعونى . لكن هؤلاء الحكام لم يكونوا خدما أو موظفين ملكيين ، زد على ذلك أنهم كانوا متباينى المنزلة فمنهم الكبير ومنهم الوضيع كما هى الحال الآن بين الباشا والبك ولذلك شبهت حال القطر حينئذ بأوربا فى الجزء الأخير من القرون الوسطى ، ومنه يتضح أن ضم هذه الأقسام تحت نفوذ حاكم واحد تطلب حاكما شديد الرأى قوى الارادة لأن أى وهن أو ضعف فى عزيمته يفكك عرى الدولة ويرجعها الى زمن الفوضى والعصيان . وترجع معظم معارفنا عن هذه العصور الى ما ورد من الأخبار فى مقابر حكام الأقسام وآثارهم وعلى الأخص الموجود منها بمصر الوسطى . أما آثار ومقابر الوجه البحرى وباقى الوجه القبلى فقد لحقها التلف فأصبحت فى خبر كان .

ولنبدأ بالكلام على حكام الأقسام فنقول انهم كانوا على يقين بأنهم سلالة قوم عريقين يرجع تاريخهم الى أربعة قرون أو خمسة تقريبا أى الى عهد المملكة القديمة[1] وأن أجدادهم كانوا عظيمى المركز فى أقسامهم فأعلنوا استقلالهم فى سابق الزمان وأرخوا أعمالهم بعد حكمهم وحاربوا أحيانا البيت المالك وقاوموا نفوذه بالقوة[2] . ومن ذلك يظهر أن هؤلاء الحكام كانوا فى عهد الأسرة الحادية عشرة أشبه بفراعنة صغار شيدوا قصورا شاهقة أقل حجما من قصور الفراعنة لكنها حوت حاشية كبيرة

---

(١) ١ : ٦٨٨ — ٩ (٢) ١ : ٦٩٠

ورئيسا للمالية وهيئة قضائية وعدة دواوين (شكل ٧٩) وكتبة ومستخدمين . وقصارى القول ان قصور هؤلاء الحكام حوت كل ما تحتاج اليه حكومة فى عاصمة ملكها (شكل ٨٠) . وبهذه الوسيلة تمكن كل حاكم من تحصيل عوائد أرض قسمه والاشراف على أمور أهله الدينية وقيادة جيشه الثابت النظام والتدريب ، وعليه فقد كانت قوة هؤلاء الحكام لا يستهان بها . وجاء فى الآثار أن حاكم قسم سعح (الوعل) (Oryx-nome) غزا بلاد النوبة بأربعمائة عسكرى وقاد حملة مكونة من ستمائة عامل الى مناجم الذهب على طريق قفط[١] . وورد أيضا أن حاكم قفط أرسل بعثة الى محاجر الحمامات أحضرت له قطعتين من الحجر طول كل منهما سبع عشرة قدما ثم أوفد بعثة أخرى جلبت صخرة طولها عشرون قدما وست بوصات جرها مائتا رجل فى طريق الصحراء الواصل الى النيل والبالغ طوله حوالى خمسين ميلا[٢] . وروى أيضا أن حاكم قسم الأرنب (Hare-nome) جلب رجاله قطعة من المرمر من محاجر حاتنوب ينيف وزنها على ستين طنا جرت على طريق طوله عشرة أميال حتى وصلت الى النيل ، وقد عمل من هذه الصخرة تمثال لهذا الحاكم يقرب ارتفاعه

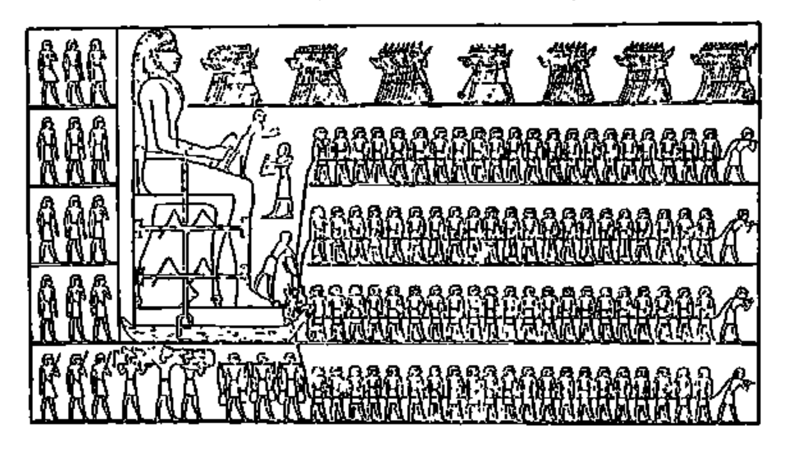


شكل ٧٩ — ادارة الأمير خنوم حوتب بنى حسن . يلاحظ فى القسم الأيسر للرسم رئيس المالية يزن أمامه الذهب والفضة وفى القسم الأوسط وكيل الرئيس يدون مقادير الحبوب الواردة الى الشونة (الكائنة فى القسم الأيمن للرسم)

من اثنين وعشرين قدما . ولم يقتصر الحكام على ذلك بل شيدوا أيضا معابد[٣] ومبانى عمومية فى مدنهم الرئيسية[٤] كما أكثروا من تعليم الحرف والصنائع مدفوعين لذلك برغبتهم الشخصية ومراقبين ذلك بأنفسهم ، فصارت لهم بذلك اليد الطولى فى رقى داخلية البلاد وأنظمتها بدرجة غير مسبوقة النظير[٥] . وجاء عن حاكم قسم سيوط المنتمى الى ملوك إهناس أنه قال : " كان عندى كثير من الحبوب . ولما حصلت المجاعة فى قسمى وزعت على القوم الحبوب بمكيالى (خا) و (حِكتْ) ، وسمحت لكل فرد أن يجلب لنفسه الحبوب ، وكذا الزوجات والأرامل والأبناء ، وسددت كل نقص لم يكن مستوفيا منذ عهد آبائى ، وأكثرت من قطعان النعم فى المراعى حتى أصبح لكل رجل أغنام عدة . وكان البقر يلد اثنين كل مرة فصار بين صغاره كثير من العجول "[٦] . ومما جاء عن هذا الحاكم أيضا أنه حفر ترعة جديدة ضاعفت كثيرا من خيرات أرضه[٧] . وليلاحظ أن العدل والعطف على الرعية لم يكن مقصورا على الحكام بل شمل أيضا الموظفين التابعين لهؤلاء الحكام ، من ذلك ما ورد عن أحد مساعدى المالية لحاكم قسم طيبه أيام الأسرة الحادية عشرة

(١) ١ : ٥٢٠ — ٥٢١ (٢) ١ : صحيفة ٢٢٥ ملاحظة (ج) (٣) ١ : ٤٠٣ و٦٢٧ وملاحظة (أ)
(٤) ١ : ٦٣٧ (٥) ١ : ٦٣٨ (٦) ١ : ٤٠٨ (٧) ١ : ٤٠٧

هذا ترجمته : "كنت أجلب المأكولات والأغذية الى جبلين (Gebelen) مدة سنى القحط لما بلغ عدد الجياع أربعمائة نسمة ، ولم أغتصب ابنة رجل ولا حقله ، وربيت عشرة قطعان من الغنم وجعلت كل قطيع تحت ادارة رجل خاص ، وربيت قطيعين من البهائم ،قطيعا من الحمير ، وأكثرت من تربية الحيوانات الصغيرة على اختلاف أنواعها ، وبنيت ثلاثين سفينة أولا ثم أعقبتها بثلاثين أخرى . ولما حصل لجبلين الكفاية أرسلت الاعانة الى إسنا وتيفيوم (Tuphium) . وهكذا ساعد قسم طيبة مدينة جبلين بالاعانات فلم تعد محتاجة الى مساعدة الأقسام الأخرى" [١] ، ومنه يستدل أن كل حاكم قسم كان يطمع أن يترك لنفسه أثرا جميلا فى نفوس قومه . والفضل فى معرفة هذه المعلومات كلها يرجع الى ما تركه لنا هؤلاء الحكام من النقوش على مقابرهم مما خلد ذكرهم للآن . ولعل نقوش أمينى حاكم قسم الوعل الواردة على قبره فى بنى حسن أقطع برهان على عناية هؤلاء الحكام بالرعية وهاك ترجمتها : "لم أسئ معاملة ابنة رجل من القوم ولم أظلم



شكل ٨٠ — صورة تمثال كبير من المرمر ارتفاعه اثنان وعشرون قدما منقول على زحافة يجرها بالحبال مائة وسبعون واثنان من الرجال المصطفين أربعة صفوف . مأخوذة عن مقبرة جهة البرشة يرجع تاريخها الى عهد الملكة الوسطى

أرملة ولم أمتهن فلاحا ، انى لم أطرد راعيا ولم أسخر فى أشغالى عمالا بلا أجر . وبهذه الطريقة زالت الكآبة عن قسمى وانعدم الجوع وقت حياتى . ولما حصل فى زمنى القحط اجتهدت فى زرع أرض قسمى حتى آخر حدوده الجنوبية والشمالية وأطعمت سكانه فلم يجع منهم أحد . وكنت أسوّى العطاء للأرملة والمتزوجة وللكبير والصغير . ولما وافت زيادة النيل أخذ كل واحد محصول أرضه ولم آخذ منه شيئا "[٢] . هكذا كانت رغبة حكام الأقسام فى تسجيل أعمالهم الحسنة المجيدة التى تجسم فيها الرأفة الأبوية ، ولا شك أن مثل هذه الخصال والمعاملة الشخصية اليومية بين الحكام وسكان أقسامهم اعتبرت وقتئذ من نعم الإله وعطاياه الجزيلة .

وأملاك حكام الأقسام نوعان : نوع وصل الى ملكهم بالميراث من آبائهم ونوع ثان وهب لهم بأمر ملكى يتمتعون به مدة حياتهم بعد وفاة سلفهم فى المركز[٣] . وكان يحتم على فرعون أن يتبع

(١) ١ : ٤٥٩ (٢) ١ : ٥٢٣ (٣) ١ : ٥٣٦

طريق الوراثة الشرعى وقتئذ والذى ينص على انتقال الوراثة الى أكبر البنات فقط ، وقد ألمعنا سابقا الى مثل هذا الأمر عند الكلام على وفاة حاكم سيوط وتعيين ابنته بأمر ملكى حاكمة على قسم والدها حتى كبر ابنها وتسلم مقاليد الحكم[١] . وقد أظهرت لنا نقوش مقابر بنى حسن كثيرا من هذه المسائل الوراثية ، من ذلك ما جاء بمقبرة خنوم حوتب عمدة مدينة منات خوفو أهم مدن خط "أفق حوريس" التابع لقسم الوعل وهذا ملخصه : ان أمنمحعت الأول لما تولى الملك عين هذا الرجل فى الوظيفة المذكورة ثم عينه بعد ذلك حاكما عاما على القسم جميعه ، ولما تولى سيزوستريس الأول الملك عين ولدى خنوم حوتب المدعوين نخت و أمنى وريثين له بعد وفاته . وعهد جلالة الملك الى الابن نخت بأن يكون عمدة على مدينة منات خوفو والى الابن الثانى أمنى الذى سبق ذكره عند الكلام على قسم الوعل برياسة هذا القسم نفسه . ثم ان ابنة خنوم حوتب تزوجت بموظف كبير بالقصر الملكى يدعى نهرى وزير الملك وحاكم عاصمته ، كان فيما سبق حاكم قسم الأرنب المجاور . واقتضت الارادة الملكية طبقا للقانون أن يعين سليل هذا القران المدعو خنوم حوتب أيضا عمدة لمدينة منات خوفو بعد وفاة خاله نخت ، ثم تزوج هذا الابن خنوم حوتب بالسيدة خيتى كبرى كريمات حاكم قسم ابن آوى المجاور له ، فأصبح لأكبر أنجال خنوم حوتب الثانى حق فى حكم قسم ابن آوى عن طريق والدته — وقد تم ذلك فعلا بأمر ملكى . وخلف خنوم حوتب الثانى نجلا ثانيا أغدق عليه الملك شريف الألقاب فى القصر الملكى ثم عينه بعد ذلك عمدة منات خوفو بعد وفاة والده[٢] . من ذلك يتضح أن فرعون مصر كان مضطرا بحكم الظروف والقوانين أن يراعى أصول الوراثة وأن يظهر احترامه اللازم ومجاملته الواجبة لأفراد الأسر لحكام الأقسام وقتئذ .

وللآن لم نتأكد مقدار نفوذ البيت المالك على حكام الأقسام ، وكل ما دلتنا عليه الآثار أنه كان للملك نواب فى أقسام مصر لحراسة أملاك الحكومة ومفتشون على "أملاك التاج" للاشراف على قطعان الغنم التابعة للملك[٣] . والظاهر أن حكام الأقسام كانوا يجمعون الضرائب من الرعية لتوصيلها الى البيت المالك . قال أمنى حاكم قسم الوعل المذكور آنفا : "كل دخل البيت المالك كان يمر تحت يدى" . ولا بد أن الادارة المالية كانت هى القوة العاملة بين البيت المالك وحكام الأقسام لأن أملاك الحكومة انتشرت فى أنحاء القطر ، وقد ذكرنا فيما سبق أن هذه الأملاك كان يشرف عليها موظفو الحكومة أو حكام الأقسام كأملاك موهوبة لهم من الملك . وقال أمنى ان جلالة الملك أرسل له ثلاثة آلاف ثور لتربيتها ، وكان يرسل لجلالته تقريرا سنويا عنها ويبعث لجلالته بجميع الايراد دون أن يحجز منه شيئا لنفسه[٤] . وكتب تحوت حوتب حاكم قسم الأرنب على جدر قبره بالبرشه مفتخرا بهذا الخصوص : "لقد ربيت عددا عظيما من غنم الملك وعددا آخر (ورثته من والدى) فى القسم الذى كنت أديره"[٥] . ولم نهتد الى الآن عن مقدار أملاك الحكومة فى أقسام القطر ومزارع الأفراد ولكن يظهر أن حكام الأقسام كانوا وقتئذ أقوياء يعطلون أشغال الحكومة ويضعفون نفوذها

---

(١) ١ : ٤١٤ (٢) ١ : ٦١٩ ملاحظة (٣) ١ : ٥٢٢ (٤) ١ : ٥٢٢ (٥) ١ : ٥٢٢ ملاحظة (أ)

فلم يعد للملك تلك السلطة التى كانت لفراعنة المملكة القديمة على جميع القطر . وليلاحظ أن البيت المالك كانت له موارد ثروة أخرى غير الضرائب والجزية التى تجبى من أقسام مصر وغير دخل القصر الملكى ذاته وهذه هى الذهب المستخرج من النوبة وطريق قفط وأموال التجارة مع الصومال وشواطئ البحر الأحمر مما عاد بالكسب الوافر لأن هذه المشروعات عملت على حساب الحكومة . زد على ذلك أن ايراد محاجر طورسيناء والحمامات عاد كثيرا على الحكومة بالفوائد المالية ، وبديهى أن غزو النوبة والغارات على سوريا وفلسطين ضخمت ميزانية الدولة المصرية .

وبقيت الادارة المالية تعرف "بالبيت الأبيض" الى الوقت الذى نحن بصدده ، ولهذه الادارة عدة فروع كمخازن الحبوب والمواشى ومخازن الذهب والفضة وغير ذلك من واردات القطر السنوية التى تجبى لفرعون . ولما زادت الايرادات نقلتها الحكومة فى أسطول ضخم[(١)] وصار "رئيس المالية" يعرف "برئيس البيت الأبيض" ثم عين له مساعد يقال له "صراف المعبود" (أى الملك) . وتطلبت كثرة الأشغال عددا كبيرا من المضابط والأوراق والموظفين . وعهد لبعض موظفى المالية فى ادارة مناجم سيناء والحمامات ونهاية طريق قفط . ومن ذلك يتضح أن ادارة المالية فى عهد المملكة الوسطى كانت أكبر كثيرا مما كانت عليه فى عهد المملكة القديمة ، وأعظم دليل على ذلك كثرة المصالح وتعدد المديرين وزيادة رؤساء الأقلام ووكلائهم . ولا يخفى أن زيادة الادارة تصحبها كثرة الألقاب وتباين الدرجات مما ليس له نظير فى الأزمنة السابقة ، ويشاهد ذلك على الأخص فى طائفة المهندسين والمثالين الذين كانوا يشرفون على أعمال طورسيناء ، وبديهى أن مثل هذا الاكثار فى الموظفين أوجد بين الرعية طائفة جديدة منهم متوسطة الحال .

أما القانون فى عهد المملكة الوسطى فكان يشرف على تطبيقه رجال الادارة ، ولذلك كتب أحد كبار موظفى المالية مفتخرا ما ترجمته : "كنت أعرف القانون جيدا وأطبقه بكل حزم واحتراس"[(٢)] . وكانت هناك ست محاكم كبيرة تعرف "بالبيوت الكبيرة" تعقد تحت رياسة الوزير فى إثتوى (Ithtowe)[(٣)] . وهناك أيضا محكمة مكونة من ثلاثين قاضيا تعرف "ببيت الثلاثين" تعقد برياسة الوزير أيضا ، لكننا لا نزال نجهل علاقتها "بالبيوت الكبيرة" المذكورة آنفا . ودلتنا الآثار على وجود أكثر من محكمة بالوجه القبلى كل منها مكون من عشرة قضاة تعرف بالعشرة القضاة الجنوبيين وعشرة يعينون بأمر ملكى للفصل فى القضايا وتنفيذ العقاب . ومن اختصاص هذه المحاكم الفصل فى قضايا الاحصاء والضرائب ونحن لا نزال نجهل علاقتها بالقضاء الادارى بالضبط . والثابت أن لقب "قاضى" لم يكن يعطى الا لمن ينتمى الى أسرة كبيرة عريقة بشرط أنه يعرف القانون معرفة دقيقة . ومن المؤكد أن قانون تلك العصور كان غاية فى الإحكام والوضوح لكننا لم نعثر عليه للآن . ومما يثبت دعوانا هذا العقد الذى وافق عليه حاكم سيوط بين ذاته باعتباره حاكما للقسم وذاته باعتبارها الرئيس الدينى الأكبر لمعبد بلده . ولا شك أن مثل هذه الدقة تثبت منتهى الاحتراس والحرص على تنفيذ القانون وصيانة الحقوق المعهودة الى ذلك الشخص[(٤)] .

(١) شاهد قبر لأحد قواد هذه الأساطيل محفوظ بمتحف القاهرة رقم ٢٠١٤٣

(٢) ١ : ٦١٨

(٣) Sharpe. Eg. Inscr. I, 100.

(٤) ١ : ٥٦٨ ملاحقة

ولم نهتد الى الآن على معلومات كافية عن ادارة البلاد الداخلية وطرق الزراعة وقتئذ لكن يستدل من الآثار أن المشروعات العمومية وجمع الضرائب والرسوم وعمل الاحصاء كانت تنفذ لكل من الوجه القبلى والبحرى على الانفراد . وكان "رؤساء القضاة العشرة الجنوبيين" ينفذون القانون فى الوجهين فلم يقتصر عملهم على الوجه القبلى . وقد ألغيت وظيفة "حاكم الجنوب العام" بعد انقراض حكم المملكة القديمة فلم يبق منها الا اللفظ الذى كان يمنح أحيانا من قبيل الشرف . والمعلوم أن احصاء السكان والأملاك فى القطر عمل بناية النظام والاحكام فكان يحتم على كل رب أسرة أن يسجل عدد أفراد أسرته وخدمه وعبيده فى أحد مكاتب الوزير أمام "رؤساء القضاة العشرة الجنوبيين" . ولا يبعد أن هذا الاحصاء كان يكرر كل خمس عشرة سنة[١] وأن السجلات كانت تحفظ فى مكاتب معدة لذلك . والمعروف أن ديوان الوزير كانت تحفظ به سجلات الحكومة جميعها وبياناتها الخاصة بالأراضى والاحصاءات والضرائب الخ . قال أحد الوزراء عن نفسه انه كان يحقق سجلات الأراضى ويوضح حدود أرض كل مالك[٢] . واستمر النظام القديم نافذا فى عهد المملكة الوسطى من حيث ترؤس الوزير لاجتماعات محاكم "البيوت الكبيرة الست" ومحكمة "بيت الثلاثين". واذا ساعد الوزير الحظ وأسندت اليه الادارة المالية كما حصل لمنتوحوتب أيام سيزوستريس الأول فانه يصدر أوامر صارمة كالأوامر الملكية كما يستدل من نقوش قبر هذا الوزير[٣] . ولا يبعد أن يكون مركز الوزير خطيرا أحيانا على العرش الفرعونى كما فعل أمنمحعت الأول الذى ظنه بعض الأثريين وزيرا اغتصب الملك. وكان الوزير يلقب أحيانا بالأمير أو العزيز أو حاكم القسم .

وتطلبت الحال حصر أعمال الحكومة فى أيدى أشخاص مخلصين للسدة الملكية ناشئين فى البلاط الملكى عارفين واجبهم نحو سيد البلاد . واليك ترجمة ما جاء فى خطاب الملك سيزوستريس الثالث لرئيس ماليته المدعو إيخرنوفرت (Ikhernofret) لما كلفه القيام باحدى البعثات : " لقد اقتضت ارادتى الملكية أن أكلفك الذهاب والقيام بهذه المأمورية لأنى على يقين بأنك ستنفذها كما أرغب ، فقد نشأت على مبدئى وتعلمت قوانينى وتلقنت علومك فى قصرى"[٤] . ومع ذلك كان الملك يحترس لنفسه كثيرا من كبار موظفيه وسنرى قريبا أن كبار موظفى أمنمحعت الأول عصوه وتآمروا على قتله . وحصل فى عهد سيزوستريس الأول أن حاكم النوبة المدعو منتوحوتب الذى عين بأمر ملكى تعالى على مقام مليكه هناك فأمر الملك بطمس جميع رسومه ويرجح أنه عزل وأهين أيضا[٥] . وفضل القوم السكوت والحذر فى كل ما له علاقة بالملك حتى امتدح فلاسفة تلك العصور الصمت فى خدمة الملوك[٦] . واليك ترجمة ما ورد على لوح حجرى بمقبرة سحتب أب رع (Sehetepibre) أحد كبار حاشية أمنمحعت الثالث ناصحا أولاده قائلا : " قاتلوا لاعلاء شأن الملك وتطهروا بقسم جلالته لأن ذلك يبعد السوء ، فالمحبوب عند الملك هو المسرور ، أما المناوئ لجلالته فلا قبر له ، واذا مات تلق جثته فى الماء " [٧] .

(١) Kahun Papyri, pl. IX–X, pp. 10–29. (٢) ١ : ٥٣١ (٣) ١ : ٥٣٠ – ٥٣٤ (٤) ١ : ٦٦٥
(٥) ١ : ٥١٤ (٦) ١ : ٥٣٢ (٧) ١ : ٧٤٨

فى مثل هذه الظروف تحتم على فرعون مصر أن يحتفظ بالقوة اللازمة لتنفيذ أوامره وقتما تتطلب الحال ، ولذلك استخدم قوة مسلحة دائمة أطلق عليها اسم " أتباع الملك " أو " حجابه " ، وهـذه القوة أقدم مثال لجيش نظامى ورد فى التاريخ . وجرت العادة أن تجزأ هذه القوة الى فرق فى القصر الملكى والقلاع من النوبة الى الحدود السورية ، ويبلغ عدد رجال كل فرقة مائة رجل . ولا نزال نجهل مجموع هذه القوة المسلحة بالضبط ، انما المؤكد أنها صارت نواة لما نسميه الآن بالجيش النظامى الثابت . وضباط هذه القوة كانوا رجالا عريق النسب والأصل ولكننا لا نزال نجهل الجهات التى جمعت منها هـذه القوات . والغرض الأصلى لهذا الجيش كان القيام بالأعمال الحربية بجهة النوبة على الأخص والمحافظة على بعثات المحاجر وميناءات البحر الأحمر . وفى وقت الحرب كان السواد الأعظم من الجيش المصرى يحشد من سكان الأقسام الأحرار المتوسطى الحال بأمر ملكى تحت قيادة الملك الشخصية . وجرت العادة أن كل قسم من أقسام مصر يجند فرقة فى الجيش وأن رئيس هذه الفرقة يكون قائدها المباشر وقت الحرب . أما فى وقت السلم فكثيرا ما كانت القوات تحشد لنقل الآثار أو القيام بالأعمال العمومية . وكان السكان الأحرار سواء أكانوا كهنة أم غير كهنة يصنفون الى عدة طبقات على حسب العمر قبل ارسالهم الى سـاحة الحرب أو لأعمال عمومية . والمعروف أن حروب ذلك الوقت كانت عبارة عن غزوات قليلة النظام كما كانت الحال أيام المملكة القديمة ، فالروح العسكرية كانت لا تزال غير ناضجة فى نفوس المصريين خلافا لما حصل بعد طرد الهيكسوس .

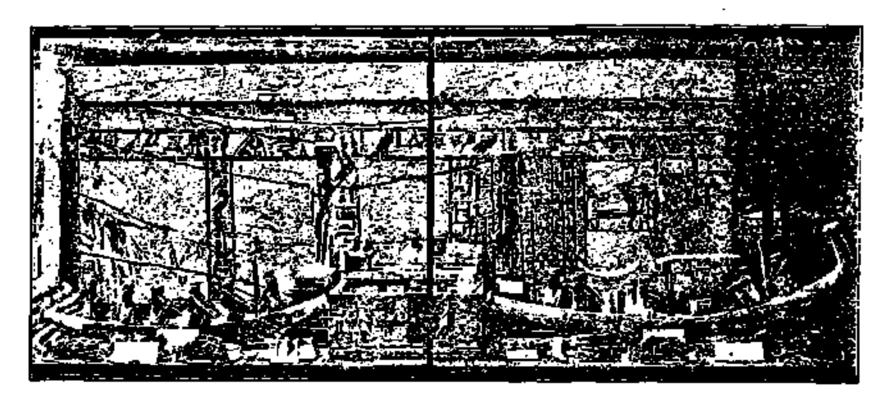
وانفصال الأمراء من البيت المـالك بعد عهد الأسرة السادسة أثر كثيرا فى الأحوال الاجتماعية فى الريف كما ألمعنا اليه عند الكلام على حكام جزيرة أسوان والبرشـة وبنى حسن وأسيوط حيث وجدت الآن عدة مقابر لهم . وعثر أيضا بجهة العرابة المدفونة على عدة مقابر لحكام الأقسام وعدة شواهد حجرية نصبها هؤلاء القوم تخليدا لذكراهم . ومن هذه الآثار استدللنا على أن هؤلاء الحكام عاشوا معيشة الترف والنعيم فى قصورهم الريفية كما عاش ملوكهم فى قصورهم الملكية . لذلك أصبحت ترى هؤلاء الحكام يصنعون فى أقسامهم ما يلزمهم من الحاجات ويقومون بأنواع الرياضيات كالصيد وغيره . ومن مميزات هذا العصر أيضا ظهور " طبقة الأهالى المتوسطة " واقتداء أفرادها بالطبقة العليـا ، فأصبحت ترى هؤلاء يشيدون المقابر ويقيمون الألواح الحجرية ويجهزون قبورهم بالأدوات الخصوصية مع أنهم لم يفعلوا شـيئا من ذلك فى عهد المملكة القديمة . ويوجد بجهة العرابة ثمانمائة قبر لهذه الطبقة يرجع تاريخها الى العصر الذى نحن بصدده ، ربعها خاص بموظفى الحكومة والثلاثة الأرباع لغير الموظفين[١] لقبوا أنفسهم " بأهل البـلد "[٢] . ولوحظ على بعض هذه المقابر اسم صاحبها دون اشارة الى مسكنه واستنتج من بعضها أن أصحابها كانوا من ذوى الأملاك أو العمال أو الصناع وكان بعضهم ذا ثروة عظيمة . ويوجد بدار التحف للفنون الجميلة بمدينة شيكاغو بالولايات المتحدة تابوت لشخص من غير موظفى الحكومة مصنوع من الأرز الثمين المستحضر من لبنان دلالة على عظم ثروة صاحبه . ولوحظ أيضا أن أفراد هـذه الطبقة كانت تذكر مهنتها قبل

(١) Catalogue Cairo, Nos. 20,001–20,780.
(٢) Ibid. passim.

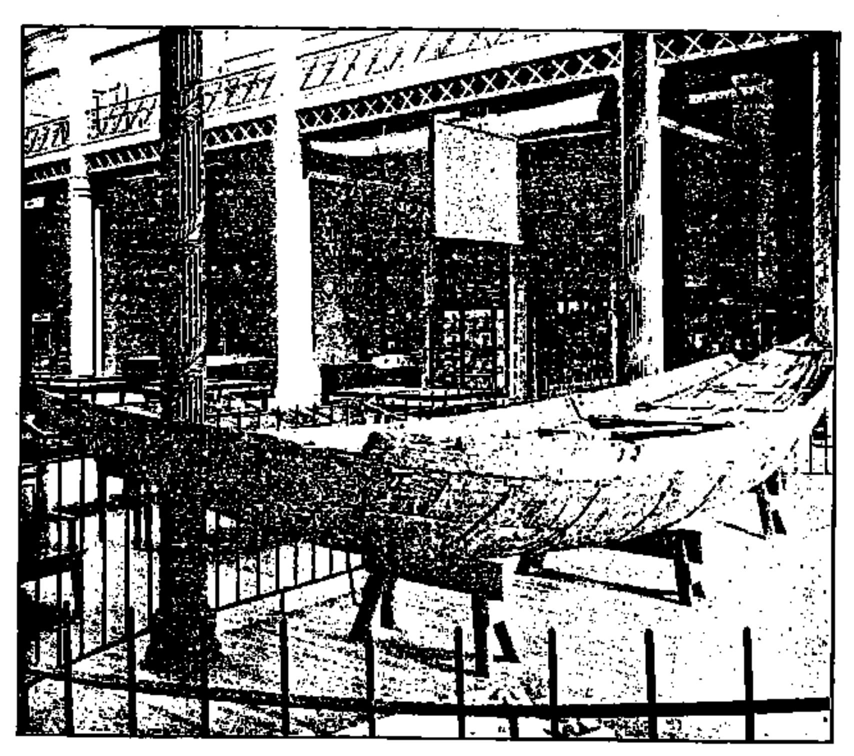
أسمائها " كرئيس صانعى الأحذية فلان " و " كالصائغ فلان " و " النحاس فلان " دون اشارة الى محل الاقامة . والمعروف أن معظم أفراد موظفى الحكومة فى عهد المملكة الوسطى كانوا متوسطى الحال شاغلين وظائف صغيرة حتى كانوا يحتذبون ذكر وظائفهم على الألواح بمقابرهم . وليلاحظ أن خدمة الحكومة فتحت للشبان طريقا جديدا لرفع مقامهم فى الحياة وقد اهتم الموظفون باشغالهم وزاولوها بعناية كما يستدل مما ذكرناه بشأن مساعد رئيس المالية الذى بذل جهده لدرء القحط عن قسم طيبه[1] حتى وضع نفسه فى موضع الشخص " الاعتيادى " بصراحة ووضوح . وأخذ القوم يتعلقون بخدمة الحكومة حتى كان الأبناء يتهافتون على القيام بأعمال آبائهم بعد اعتزالهم الخدمة مما لم يكن مشهودا فى عهد المملكة القديمة . ونقش موظفو الحكومة على شواهد قبورهم ملتمسات رجوا فيها كل من يمر عليها أن يتلوها وقد جاء فيها وجوب السعى فى تعيين أبنائهم فى وظائفهم بعدهم وكى يدعوا لهم ويترحموا عليهم، ولا مراء فان هذه الأحوال قد ساعدت كثيرا على ظهور طبقة موظفين متوسطى الحال . ومن مميزات القوم وقتئذ معرفتهم للقراءة والكتابة فكان مجرد معرفتهما كافيا لرفع مستوى صاحبها . وورد فى الآثار أن أبا أرسل ابنه ليتعلم فى مدرسة القصر الملكى ليتخرج كاتبا فزوده بنصائح غالية معددا له مصاعب ومعايب الصنائع اليدوية كل على انفرادها ومفضلا له فى آخر الكلام صناعة الكاتب مظهرا له مناقبها وما يعود على صاحبها من الشرف والراحة والثروة[2] . ومع أن رجال الفنون الجميلة كانوا فى ذلك العهد ماهرين للغاية وذوى مراكز سامية بين القوم فان الكتبة وموظفى الحكومة المتوسطى الحال نظروا اليهم كأنهم أوضع منهم مركزا وشرفا ، وعليه فكثيرا ما نجد على الآثار أن الكاتب يفتخر بمركزه الدنيوى ويباهى بمعارفه . وهكذا تغيرت معالم الحياة عما كانت عليه فى عهد المملكة القديمة ، ففى الأخيرة كنا لا نعثر الا على آثار لها علاقة بمعيشة أو ألقاب أمراء القصر الملكى وأصحاب الأملاك العظيمة، أما فى عهد المملكة الوسطى فاننا نجد كثيرا من الآثار تشير الى رقى طبقة الرعية المتوسطة فى الأرياف واقتنائهم للعبيد والأراضى وتقديمهم أول نتاج أرضهم قرابين فى معابد مدنهم كما فعل فراعنة مصر سابقا[3] . واهتم حكام الأقسام اهتماما كبيرا بهذه الطبقة كما ظهر لنا من رواية القحط السابق الكلام عليها ،وكما جاء أيضا على شاهد قبر لأحد أفراد هذه الطبقة من أنه " كان يقتنى حدائق جميلة وأشجار جميز باسقة الأغصان وأنه شيد لنفسه منزلا كبيرا ببلده وبنى قبرا فى صخور الجبانة وأنه حفر ترعة لبلده ونقل الناس فيها على سفينته . وكان مستعدا دائما للخدمة ويقود المزارعين حتى أزف ميعاده (موته) فسلم أموره لابنه بوصية خاصة بذلك "[4] . وبعد الطبقة المتوسطة تأتى طبقة العمال الوارد ذكرها فى النقوش السابقة والتى كانت تحتقر أحيانا على أهميتها فى زيادة ثروة القطر وعزه . وجرت العادة أن يرسل هؤلاء العمال الى معاهد خاصة لتعلم الصنائع المتنوعة كما يستدل من نقوش بنى حسن وغيرها ، لكننا لا نزال نجهل اذا كان شغل هؤلاء العمال كان لأجل حكام قسمهم أو لأجل التجارة والمعاملة مع أفراد الطبقة المتوسطة .

---

(١) راجع صحيفة ١٠٤ (٢) قرطاس سالير البردى ٢ (٣) ا : ٥٣٦ (٤) صورتى التى أخذتها ل Florence, Stela 1774



شكل ٨١ — صورة شمسية لتابوت ميت وأثاث مقبرته من عهد المملكة الوسطى ويرى القارئ في الصورة سفنا وخدما تجهز الطعام والجعة ومنزلا (في الوسط) . (دار تحف برلين)



شكل ٨٢ — سفينة للملك سيزوستريس الثالث وجدت بهرمه جهة دهشور طولها ثلاثون قدما وعرضها ثمانية أقدام وعمقها أربعة أقدام . مصنوعة من خشب الأرز اللبناني (دار تحف شيكاجو)

وامتاز عصر المملكة الوسطى بتغير واضح فى عقيدة القوم الدينيـة ، ففى مبدأ الأسرة الخامسة أخذت عبادة الشمس شكلا رسميـا فى القطر ثم سقطت الأسرة السـادسة فتبعها الاضطراب والانقسام . ومع ذلك فقد انتشرت عبادة الشمس حتى اذا ما تولت الأسرة الثانيـة عشرة الحكم كانت هذه العقيدة بالغة أقصى درجاتها فتغلبت على سائر عقائد القطر واضطر كهنة المعبودات الأخرى أن يجاروا الظروف بقصد اجتذاب بعض شرف عبادة رع الى معبودات أقسامهم فقالوا إن هـذه المعبودات صور متنوعة للعبود رع (الشمس) ثم ذهبوا الى أبعد من ذلك فقالوا إن أسماء معبوداتهم مرادفات لاسم رع أيضا .

مثال ذلك : ان كهنة المعبود سُبْك (أى التمساح) نسبوا معبودهم الى رع مع أنه ليس هناك علاقة قديمة بين الاثنين فلقبوا معبودهم سـبك رع . ثم ان كهنة آمون الذى كان يعبـد فى بادئ الأمر فى طيبه فقط نسبوه الى رع فلقبوه آمون رع . وبهـذه الكيفية أخذت عبادة الشمس التوحيدية الأصل تنتشر بعدّة أشكال بين سكان القطر ، وسيتضح لنا ذلك جليا عند الكلام على تدرّج هذه الديانة المدهش فيما بعد .

وأخذت المعابد تكبر فى الحجم مع بقاء العادات الدينية على ما كانت عليه ، ولم يزدد تعدد الكهنة كثيرا عن العصور السابقـة كما يستنتج من احصائيـة معبد أنوبيس بجهة كاهون بالفيوم الذى أسسه سيزوستريس الثانى ، فقـد جاء فيها أن موظفى المعبـد كانوا عبارة عن " رئيس المعبد " و " خطيب كبير " (وهمـا ثابتا المركز والمرتب) وتسعة كهنة وستة بوابين وخادمين اثنين . والعادة أن الكهنة كانوا يغيرون كل شهر بكهنة آخرين وهم أشخاص من طبقة العمال والصناع[1] .

ولم تكن عبادة الشمس وحدها منتشرة بين المصريين بل حذت حذوها عبادة أخرى وهى عبادة أزوريس . وبديهى ان انتشار عبادة الشمس كان نتيجة مبـاشرة لفوز الحزب السـياسى المنتمى اليها ولعلو مركزها بمصر . أما عبـادة أزوريس فيرجع الفضـل فى انتشارها الى شـدّة توافقها مع النفسية المصرية والى المجهودات التى بذلهـا كهنة أزوريس كل سـنة فى تمثيل حياة هـذا المعبود ووفاته وانتصاره الأخير ، وذلك أمام القوم بالعرابة . وقد سمح هؤلاء الكهنة لبعض الأهالى بالاشتراك فى تلك الاحتفالات فأثر هذا كثيرا فى نفسية المصريين كالمعجزات والبينات النبوية . وممـا يثبت شدّة اهتمام المصريين بهذه الاحتفالات ما ورد على شواهد قبورهم بالعرابة من الدعوات والتوسلات للخروج فى القبر بعد الوفاة لمشاهدة تلك الاحتفالات . وأهم فصول هـذه الاحتفالات هو الخاص بدفن جثة أزوريس فقد تخيل المصريون وجود قبر أزوريس غربى العرابة على حافة الصحراء ، فاعتقدوا خطأ أن قبر الملك زِرْ أحد ملوك الأسرة الأولى الذى يرجع تاريخه الى أكثر من ألف سنة من ذلك الوقت هو قبر المعبود أزوريس[2] لتشابه الاسمين ، وازداد اهتمام القوم بهذا القبر فقدّسوه وأصبحت العرابة من أجله مركزا دينيا كبيرا فى القطر المصرى لا يضارعه مركز آخر . ومما يدل على شدّة تأثر المصريين بذلك تكرار حجهم الى تلك الجهة كلما سنحت لهم الفرص ، وأيضا كثرة الهدايا والقرابين

(1) Borchardt, Zeitschrift fur Aegyptische Sprache, 1900, 94.

(2) ١ : ٦٦٢ و ٦٦٩

التي قدموها في الأواني الخزفية حتى تكدّست منها كومات فوق قبر الملك زر . واجتهد القوم في دفن جثثهم بجوار معبد أزوريس أو داخله اذا لم يكن هناك مانع ، حتى اضطر الكهنة في آخر الأمر أن يقيموا سورا عظيما منعا لتكاثف القبور على ضريح المعبود . وقد أمّ المصريون هذا المكان المقدّس على اختلاف مراكزهم من الوزير الى الاسكاف . وفي حالة تعــذر دفن الميت في العرابة (كما حصل مع حكام الأقسام) فانه بعد تحنيط الجثة تبعث الى العرابة لتحضر احتفالا دينيا ثم ترسل الى مقرها النهائي . واذا تعذر ذلك اكتفى باقامة شاهد بجبانة العرابة منقوش عليه دعوات لأزوريس بقصد مساعدة المتوفى وخلاصه من كل مكروب في الحياة الأخروية . واذا اســتدعت مهنة الموظف أو مندوب الحكومة زيارة العرابة اغتنم هذا تلك الفرصة لزيارة معبد أزوريس حيث يترك أثرا نقش عليه اسمه وتاريخه وسبب زيارته الخ ممــا أظهر لنا كثيرا من غوامض تاريخ تلك العصور السالفة[١] .

ولمــا تأكد القوم بمحاكمة أزوريس في الآخرة اعتقدوا أن كل متوفى سيحاكم مثله فتعقد له جلسات يحاسب فيها على أعماله وينفذ عليه كل ما يحصل لغيره من الأموات . وكان أزوريس معتبرا في عهد المملكة القديمة اله الأموات ولكن هذا الاعتبــار لم يرسخ في الأذهان الا في عهد المملكة الوسطى . وتتكوّن محكمة أزوريس في عقيدة القوم من اثنين وأربعين قاضيا يجلسون أمام المعبود كالزبانية يمثل كل منهم قسما من أقسام مصر ، فاذا دخل المتوفى أمام المحكمة وأنكر أمام كل قاض اثمــا من آثامه يوزن قلبه في ميزان مقابل ريشة العدالة للتأكد من صدق قوله . أما الآثام التي يتبرأ منها الميت أمام محكمة أزوريس فهي بعينها الآثام المستهجنة في عهدنا هذا ، وهــاك بيانا موجزا لتلك الآثام : السرقة والقتل والاختــلاس (وبالأخص السلب) والكذب والخداع وشهادة الزور والرياء والتنابذ بالألقــاب والتجسس وعدم الاعتــدال في الأمور الجنسية وامتهــان كرامة المعبودات أو الأموات كالكفر بهم وسرقة أمتعة الموتى . ومن هذه القائمة يستدل على عظم الرادع النفسي عند المصريين وقتئذ استنكارا للمنكرات ، وعليه فالمصريون هم أول قوم اعتقدوا بترتب الحياة الأخروية على الحيــاة الدنيوية ، ويرجع هــذا الاعتقاد في الحقيقة الى عهد المملكة القديمة . والغريب أن هــذه العقيدة انحصرت في المصريين أكثر من ألف سنة في حين أن البابليين والاسرائيليين اعتقدوا انتقال الموتى عموما الى ســقر المعروفة باسم شول (Sheol) . واعتقد المصريون أن الأموات الذين تحكم عليهم محكمة أزوريس بالاجرام يتعرضون للجوع والعطش ويحجزون في أماكن مظلمة لا يبصرون فيها ضوء الشمس . وفي المحكمة طرق أخرى للقصاص منها حيوان بشع له رأس تمساح ومقدم أسد ومؤخر دب البحر يفترس المجرمين الآثمين . وأخذت آراء القوم في عهد المملكة الوسطى تحوم حول تطهير النفس من المعاصي والرذائل التماســا للبراءة بعد الوفاة وتجنبا للعقاب الأليم ، فأصبحت ترى الكثير من نقوش شواهد القبور شديدة الشبه بمــا ألمعنا اليه في عهد المملكة القديمة تتلخص في أن الميت كان يطعم الجوعان ويروى الظمآن ويكسى العريان وينقل في سفينته من ليس له سفينة، وجاء على بعض الشواهد "أن المتوفى كان أبا اليتيم وزوج الأرملة وملجأ الذى لا ملجأ له" ممــا أشرنا اليه لمــا تكلمنا على كرم وسخاء حكام الأقسام .

---

(١) B. g. I, 671-2.

والشخص الذى تبرئه محكمة أزوريس تلقبــه بالرجل الطاهر العادل أو " صــادق القول " أو " المنتصر " ولذلك كتب القوم هــذا اللقب بعد اسم كل متوفى و بعــد اسم كل حى ينتظر وفاته بقصد طلب الرحمة فى الآخرة . وانتشار عبادة أزوريس فى القطر لم يوحد الأديان بل سبب تفرقها شــيعا فنشأت بين القوم عقائد دينية صعبة الفهم ، إذ بعد ما كانت المعبودات مستقلة بعضها عن بعض وعن أزوريس أيضا اندمجت الآن معه فاختفت بذلك معالم العقائد الأصلية . ومع هذا فقد استمر القوم متمسكين بأن الصالح هو الذى يتنعم فى الآخرة فى جزيرة يارو التى تنبت أرضها الغنية قمحا يبلغ طوله اثنى عشرة قدما ، واعتقــدوا أيضا بأنه سيسمح لهم بعد الوفاة بالسكنى فى القبور والبقاع القريبة منها والصعود الى السماء لمرافقة المعبود رع فى رحلاته والهبوط الى مملكة أزوريس و بمداولة الرجال العظام الذين حكموا مصر فى الدنيا .

لكن هــذه العقيدة لم تدم طويلا لأن القوم تصوّروا أن الميت سيقابل فى أخراه مصاعب وأخطارا جسيمة ، مثال ذلك ما ورد فى نصوص الأهرام من ذكر ثعابين كبيرة تفترس الأموات غير الحصينين وتماسيح تسلب الميت أحجبته وتعاويذه وأعداء هوائية تسلب المتوفى نفس الحياة من أنفه . وقد تندلع النــيران من المياه التى يشربها الميت وقد تسلب منه القرابين التى يقدّمها له ذووه وقد يجبر فى بعض الظروف أن تفترس جثته . وجاء فى بعض النصوص أن المتوفى قد يسرق منه تاجه ومكانه وتتلف جثته و يؤخذ منه فمه أو قلبه أو رأسه أو اسمه فيفقد بذلك أكبر مدافع له . كل هذه العقائد ابتكرها القوم فى عهد المملكة الوسطى ولم يرد ذكرها فى نصوص الأهرام التى أهمل استعمالها وقتئذ . وكان من نتائج هــذه الخرافات أن كثر استعمال الأحجبة والتعاويذ والصلوات والدعوات الكثيرة التى توجد بين أمتعة الموتى فى عهد المملكة الوسطى بقصد الانتصار على الأعداء والمرور بالآخرة فى أمان وسلام واتخاذ الشكل الذى يرغب فيه الميت بعد وفاته والذهاب والاياب وقتما يريد و يشتهى ، ورسمت المحكمة الأخروية بالتفصيل مع ما يحتاج اليه الميت من التعاويذ على صفحات التابوت الداخلية . ومع قلة ما وصل الينا من هذه الدعوات والصلوات فان ما اهتدينا اليه هو بلا مراء النواة الأصلية لنصوص " كتاب الموتى " و " كتاب البعث نهارا " ، و يبحث هذا الكتاب الأخير فى خروج الروح من القبر نهارا ثم رجوعها اليه ثانية وقتما تشــاء . ثم صارت كتابة الأحجبة ونصوص كتاب الموتى مصدرا عظيما للرزق والثروة اغتنمه الكهنة فى العصور الأخيرة فأخذوا من أهل الأموات الأجر الكبير على ذلك ، وبرع الكهنة فى التغرير بعقول العــامة فوضعوا كتابا سموه " الدليل " ذكروا فيه كل المعلومات اللازمة عن الحياة الأخروية وطرق الوصول الى الآخرة ، وقد جاء فى هذا الكتاب طريقان للآخرة افتن الكهنة فى وصفهما وأبدعوا، ثم جمعوا ذلك فى كتاب سموه " دليل الطريقين ". ولا يبعد أن يكون السبب الأصلى لوضع هذا الكتاب ابتزاز الأموال، وسيتضح لنا فى العصور التالية أن هذه الخرافات والخزعبلات عرقلت تقدم المصريين الدينى والحيوى كثيرا .

وأخذ يقل بناء المصاطب والأهرام تدريجيا بين الأمراء لأنهم رأوا أن حفر المقابر داخل الصخور الجبلية أصون وآمن لأحوال معيشتهم . أما الملوك فاستمروا يشيدون الأهرام مقابر لهم . ومحتويات مقابر المملكة الوسطى عبارة عن جثة الميت وتابوته المنقوش الحاوى رسوم الأثاث اللازم استعماله فى الآخرة ، وغير ذلك كان القبر يحوى نماذج صغيرة للسفن المقدسة وبحارتها تنقل الميت الى الجنة فى الآخرة (شكل ٨١) . وقد عثر حول هرم سيزوستريس الثالث تحت التراب على خمس سفن كبيرة كالمذكورة سابقا القصد منها حمل الملك وأفراد أسرته فوق المياه الى الجنان (شكل ٨٢) .
وجرت العادة وقتئذ أن الملك كان يكافئ أتباعه المخلصين بأكثر من تمثال يوضع فى القبر ويأمر أحيانا بوضع تمثال ثان للمتوفى فى المعابد الكثيرة ليتمكن صاحبه من التنعم بالقرابين التى توزع هناك ، والسر فى ذلك أن الكهنة كانت تقدم القرابين أولا للمعبودات ثم تفرقها على أصحاب تماثيل المعبد ، الفائدة الأخرى من وضع تمثال المتوفى فى المعابد الكبيرة هى اشتراك صاحبه فى الاحتفالات الدينية التى تقام بتلك المعابد كما كان يفعل فى دنياه .

الفصل العاشر

الأسرة الثانية عشرة

علمنا أن أمنمحعت الأول تمكن بمهارته السياسية ودهائه الادارى من بسط نفوذه على حكام أقسام القطر ومن توحيد سلطته والاستئثار بالحكم دون سواه . ومثل هـذا العمل الذى استغرق مدة طويلة فى حكم أمنمحعت الأول سهل لأفراد أسرته استمرار الحكم فى أيديهم مائتى سـنة تقريبا . والغالب أن زمن هذا الملك كان أخصب وأرخى عصر فى تاريخ الأمة المصرية ، نستنبط ذلك من قوله :

أنا الذى زرعت الحبوب وأحببت (نبرا) إله الحصيد ؛

النيل يحيينى فى كل واد ؛

فلا جائع فى عهدى ، ولا ظمآن تحت سلطانى ؛

وما هـذا إلا لامتثال الرعية أوامرى واستماعهم كلمتى وتمسكهم بأفكارى حتى صرت موضوع حديثهم[١] .

ويدهشنا أنه فى الوقت الذى أيقنت فيه الأمة بأن السـلام والرخاء قد خيا على مصر باسدال ستار السلام والرخاء دبرت فى الخفاء مؤامرة دنيئة لاغتيال حياته . أما أفراد هذه المؤامرة فكانوا من رجال الحاشية . والظاهر أن هـذه المؤامرة بلغت حدا بعيدا فدخل الجناة حجرة نومه وهجموا على شخصه الملكى ، لكنه دافع عن نفسه فسمع صليل السيوف فى أنحاء القصر وتنبه الخدم من نومهم فأيقنوا بالخطر المحدق بمليكهم ونجاه الله[٢] .

وفى عام ١٩٨٠ قبل الميلاد (بعد حادثة المؤامرة على الأرجح) أشرك ابنه سيزوستريس الأول معه فى الملك ، فأضاف بذلك الى حكمه قوة ونشاطا وسارت الأمور الداخلية فى مجاريها المنظمة . وتمكن هذا الأمير من توجيه مجهوداته نحو الجنوب وبسط نفوذه على النوبة ، وهو مشروع وقف انجازه بعد سقوط الأسرة السادسة وحصول ثورة حكام الأقسام . ومع أن مجهودات الأسرة السادسة بشأنه ذهبت أدراج الرياح فقد أصبح فى عهد الأسرة الثانية عشرة هـذا الاقليم الممتد من ادفو شمالا الى الشلال الأول جنوبا معتبرا من بلاد النوبة ولذلك أطلق عليه اسم تابدت (Tapedet) أى " أرض القوس " ،[٣] وهو اسم النوبة القديم . وفى السنة التاسعة والعشرين من حكم أمنمحعت الأول توغلت الجنود المصرية بأرض الواوات حتى بلغت كوروسكو التى هى فى نهاية الطريق الصحراوى المخترق لمنحنى النيل العظيم والواصـل الى بلاد المـازوى[٤] ، ويحتمل أن الأمـير سيزوستريس الشاب كان قائد تلك الحملة . والمعروف أن حفائر محاجر وادى الحمامات كانت مستمرة وقتئـذ

---

(١) ١ : ٤٨٣ (٢) ١ : ٤٧٩ - ٤٨٠ (٣) ١ : ٥٠٠ و ١ : ٤ (٤) ١ : ٤٧٢ - ٣ و ٤٨٢

كسابق عهدها[١]. ولما شق الأقوام "الترجلوديت" وهم بدو أسيويون بشرق الدلتا عصا الطاعة على فرعون مصر أخضعهم الملك وعاقبهم عقابا صارما . ثم قوى حصن المملكة القديمة الذى على الحدود الشرقية فى نهاية وادى طميلات الشرقية لحراسة القطر ومراقبة تلك الجهات[٢]، فوضع خفراء اخصائيين فى أعالى شرفاته وبهذه الكيفية استتب الأمن على حدود مصر الشمالية والجنوبية وصارت المواصلات بين القطر والبلاد الأجنبية سالمة آمنة .

ولما أسن هذا الملك العظيم نادى ابنه وألقى عليه من اختبارات حياته الطويلة لآلئ الحكم وغوالى النصائح[٣] ما استحق الاعجاب، ويتضح لنا من أسلوب هذه النصائح شدة تأثير تلك المؤامرة فى نفسه واليك ترجمتها :

" استمع لقولى يا بنى ، واعلم أنه مهما علت منزلتك فصرت ملكا على الأرض أو حاكما للبلدان أو مكثرا للحسنات فان واجبك يحتم عليك استعمال الشدة مع مرءوسيك فالناس تحترم كل من يخيفهم ويفزعهم . انى أحذرك ألا تقترب منهم بمفردك وألا تتخذ منهم أخا ولا رفيقا ولا صاحبا إذ لا فائدة فى ذلك . واذا غشيك النوم فليكن قلبك رقيبا عليك لأن الأهل تترك الانسان وقت البلاء . لقد أحسنت الى المسكين وأطعمت اليتيم وتحادثت مع الوضيع كمحادثتى مع الأمير ولكن كل من أكل خبزى قام ضدى ، وكل من أعطيته يدى مؤتمنا اياه خانتى، فصرت أوجس منه شرا"[٤] . بعد ذلك جاء وصف حادثة الاغتيال، والغرض من ذكر هذه المؤامرة تقوية قلب الابن واثبات دعوى الوالد . والظاهر أنه أرسل نجله هذا بعد ذلك على رأس جيش ليعاقب الليبيين على الحدود الغربية فى عام ١٩٧٠ قبل الميلاد أو بعد ثلاثين سنة من حكم أمنمحت الأول . وبينما كان سيزوستريس منهمكا فى قيادة هذه الحملة وصل اليه نجاب سريع يحمل نبأ نعى والده ، فلم يخبر الجيش بذلك وأسرع من فوره ليلا الى إثتوى مقر الحكم وتسلم مقاليده قبل أن يتمكن أحد من أنجال والده أن ينازعه[٥]، ولا يخفى أن النزاع على الملك بين الأخوة أمر كثير الحصول فى البلاد الشرقية . واتفق أن نعى أمنمحت الأول بلغ مسامع من كانوا موجودين بخيمة سيزوستريس فأفشوه وترتب على ذلك هرب أمير يدعى سنوحى مستخفيا خائفا يتحين الفرص حتى بلغ آسيا فمكث بها بضع سنين ، ولا نزال نجهل للآن السبب الحقيقى لهربه ولكن يظن البعض أنه أتى أمرا منكرا أغضب سيزوستريس، ويرى الآخرون أنه كان أحق بالملك من أخيه ، فهذه الحادثة تدل على وقوع اضطراب وارتباك عند انتقال الحكم من فرعون الى آخر[٦] .

وأعمال أسرة أمنمحت خارج القطر (بالنوبة وطورسيناء ووادى الحمامات) تثبت تقدم مصر ورفاهيتها بكيفية أوضح مما تثبته آثارها داخله ، وهذا القول ينطبق أيضا على النقوش التاريخية الخاصة بالأسرة الحادية عشرة . ولا يخفى أن السنوات العشر التى اشترك فيها سيزوستريس الأول وأبوه فى الملك رفعت شأن هذه الأسرة المالكة بعد وفاة الملك . ومما لامراء فيه أن سيزوستريس

(١) ١ : ٤٦٦ – ٨ (٢) ١ : ٤٩٣ و ٢ : ١٧ – ١٩ (٣) ١ : ٤٧٤ – ٤٨٣ (٤) ١ : ٤٧٨ – ٩
(٥) ١ : ٤٩١ (٦) ١ : ٤٨٦ ملاحظة

أظهر كفاية عظيمة فى ادارة المهام التى ألقيت على عاتقه فقد ثابر على اخضـاع النوبة وسخر حكام الأقسام فى مصلحته . ذكر أمنى حاكم قسم الوعل على جدر قبره أن أمنمحعت الأول ندب أباه سابقا لقتال النوبة فلما هرم وضعف وضع نفسه تحت تصرف سيزوستريس الأول فقاد فيلق قسمه وغزا النوبة تحت قيادة مليكه العزيز وتوغل فيها حتى بلغ كوش . ومن هذه الرواية نعلم أن الجنود المصرية بلغت وقتئذ اقليم الشلال الثانى ودخلت كوش التى تكرر اسمها على آثار ذلك الوقت، وليلاحظ أن اسم كوش لم يرد على آثار المملكة القديمة إلا مرة واحدة[١] . ولا نزال نجهل الكثير عن حملة النوبة هذه ولكن يظهر أنها كانت بسـيطة لأن أمنى قال انه رجع ولم يخسر رجلا[٢] . وقد أظهر حاكم جزيرة الفيل شهامة فى هـذه الغزوة كما أظهر أسلافه فى عهد الأسرة السادسة فتمكن من اقتناص فيل أوجده بين نقوش قبره بجهة أسوان[٣] وتعتبر هذه الغزوة الأولى من نوعها لقيادة الملك لها شخصيا . وتاريخ هذه الحملة مجهول ويظن أنها حصلت قبل غزوة السنة الثامنة بعد وفاة أمنمحعت الأول حيث ورد فى نصوص هذه الأخيرة ما يفيد بأن الملك لم ير من الضرورى مرافقة جيشه فى تلك البلاد الجنوبية .

والمعروف أن هذه الغزوة الثانية وجهت ضد كوش وكانت تحت قيادة منتوحوتب الذى أقام لوحا حجريا كبيرا جهة وادى حلفا حوى معلومات عن انتصاراته الباهرة وجدولا بأسمـاء البلاد والمدن التى أخضعها[٤] ويعتبر هـذا أقدم جدول من نوعه حتى الآن . ومن دواعى الأسف أننا لا نزال نجهل كثيرا من جغرافية النوبة القديمة فلم نهتد إلا الى مكان واحد من العشرة الأمكنة الواردة بهذا الجدول وهذا المكان هو شت (Shet) القريب من قُمّة على بعد ثلاثين أو أربعين ميلا جنوبى حلفا ، ويرجح أن منتوحوتب نصب أثره هذا فى الاقليم الذى أخضعه ، وقد ألمعنا سابقا الى هذا الأثر لما ذكرنا أن أحد حكام الأقسام المدعو منتوحوتب رسم نفسه عظيما على أثره فاستاء الملك منه وأمر بمحو صورته ورسم معبود بدله . ويستدل من قرائن الأحوال أن منتوحوتب هذا عزل وعوقب لاعتدائه على مقام السدة الملكية . ولا بد أن السكينة والهدوء كانا مخيمين على القطر لأن الملك أصدر أوامره الى حكام الأقسام بعمل الحفائر بوادى علاكى وما جاوره من الجهات الشرقيـة كما أنه كلف أمنى حاكم قسم الوعل الذهاب الى النوبة مع أربعمائة جندى من جنود قسمه ليحضر الذهب من السودان . وقد تحين هـذه الفرصة فأرسل ابنه الذى صار فيما بعد أمنمحعت الثانى فى هذه الرحلة ليعرف البلاد التى سـيدعى يوما ما لاخضاعها وادماجها ضمن دائرة المملكة المصرية[٥] ، واسـتغل سيزوستريس الأول مناجم الذهب شرقى قفط فأرسل أمنى المخلص مع ستمائة جندى من قسم الوعل الى تلك المناجم مصحوبا بوزير الملك لحراسة الذهب وتسليمه تاما الى القصر الملكى[٦] ، وبذلك جعل سيزوستريس طرق المواصلات مع البـلاد الأجنبية آمنة ممهدة . ويعزى الى هـذا الملك أقدم الأخبار الخـاصة بالمعاملات مع أهل الواحات مع أنه لم يكن مسيطرا عليها ، فمن هذه الأخبار أنه أرسل أحد أمنائه المدعو إكوديدى (Ikudidi) الى الواحات الخـارجة غربى العرابة فاغتنم إكوديدى هـذه الفرصة وأقام لنفسـه حجرا أثريا بمعبد أزوريس بالعرابة المقدسة طلب فيه ما تمناه من أزوريس أن يحققه ، ويعتبر هذا الأثر المرجع الوحيد الذى يشير الى حصول هذه الرحلة للواحات[٧] .

---

(١) ١ : ٣٦١ (٢) ١ : ٥١٩ (٣) ١ : صحيفة ٢٤٧ ملاحظة (ب) (٤) ١ : ٥١٠ – ٥١٤ (٥) ١ : ٥٢٠
(٦) ١ : ٥٢١ (٧) ١ : ٥٢٤ – ٨

ولما رأى سيزوستريس الأول ما عاد عليه من الميزات العظيمة والفوائد الجليلة من اشتراكه مع أبيه فى الحكم اشرك هو أيضا ابنه أمنحمت الثانى معه فى الحكم لمدة ثلاث سنوات[١] . وتوفى سيزوستريس الأول سنة ١٩٣٥ قبل الميلاد بعد ما حكم خمسا وثلاثين سنة وأعقبه ابنه أمنحمت الثانى بسهولة . وقد جرى هذا الابن على سياسة والده تماما ثم أشرك معه فى آخر حكمه ابنه سيزوستريس الثانى فى الملك لمدة ثلاث سنوات أيضا[٢] . وتقدر مدة حكم هذين الملكين بخمسين عاما كانت مصر فى أثنائها لابسة حلل الرخاء والسعادة والرفاهية ، ففى خلالها فتحت مناجم سيناء ثانية[٣] ووطدت العلائق التجارية مع بونت (الصومال) فرجعت الى ما كانت عليه فى الأزمنة الغابرة[٤] ، وأكثر من الآبار والمحطات على الطريق الموصل قفط بالبحر الأحمر ، فتمكن القوم بذلك من اجتيازه فى خمسة أيام[٥] ، وهذا الطريق شمالى وادى الحمامات وينتهى بالقصير التى عرفت فى زمن البطالسة باسم لوكوس ليمين (Leucos Limên) وهى فى نهاية وادى غازوز . وقد ترك قائدان قديمان فى هذا الميناء[٦] نقوشا تذكارا برجوعهما سالمين من الصومال . ولكثرة سفر المصريين الى الصومال أصبحت هذه البلاد معروفة لدى كثير من المصريين حتى كثر ورودها فى حكايات القوم ، مثال ذلك ما روى أن بعض الملاحين المصريين تحطمت سفينتهم ولم ينج منها إلا واحد لقى من الصعاب ما أدهش العقول . والمعروف أن مناجم النوبة الذهبية استمرت تصدر ذهبا الى مصر مدة طويلة وأن المصريين شيدوا فى بلاد الواوات قلاعا حصينة تحت اشراف مفتشين رسميين لحماية المصالح الرسمية بالنوبة[٧] .

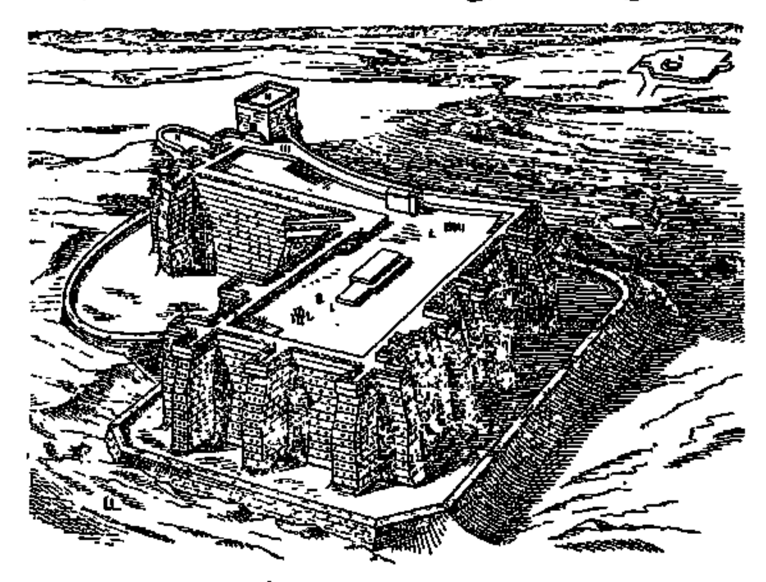
وتوفى سيزوستريس الثانى عام ١٨٨٧ قبل الميلاد لما كانت جميع الاستعدادات مجهزة لاخضاع جزء النوبة البالغ طوله مائتى ميل والواقع بين الشلال الأول والشلال الثانى اخضاعا تاما . ولا يبعد أن يكون سيزوستريس الثالث الملك الوحيد فى أسرته الذى لم يشارك والده فى الحكم قبل وفاته ، ومع ذلك فقد قام بأعباء الملك خير قيام فأثبت بذلك ليقانا لانتسابه لهذا البيت المجيد . والمعروف عن هذا الملك أنه اجتهد منذ تولية الملك لضم النوبة نهائيا الى مصر فشق لأسطوله طريقا بين صخور الشلال الأول واضعا بذلك الأساس الأول والأهم لضم تلك البلاد . وقد ألمعنا سابقا أن أول من شق هذا الطريق كان أونا أحد قواد الأسرة السادسة وذلك قبل زمن سيزوستريس الثالث بستمائة سنة تقريبا ، ويرجح أن هذا الطريق سد بعد ذلك من جراء شدة التيار المائى . والثابت أنه لم يأت ذكر لهذا الطريق على الآثار منذ الأسرة السادسة حتى عهد سيزوستريس الثالث . وقد شق مهندسو سيزوستريس الثالث طريقهم هذا فى أصعب مناطق الشلال الجرانيتية لمسافة مائتين وستين قدما بعرض أربع وثلاثين قدما وعمق ست وعشرين قدما ، ثم سمى هذا الممر المائى "طريق سيزوستريس الجميل"[٨] ، وقد عبر هذا الممر كثير من السفن وقت القيام بالاجراءات الحربية الأولى فى حكم هذا الملك لكننا مع مزيد الأسف لم نعثر على بيان لهذا . وفى السنة الثامنة لحكم هذا الملك أجريت

---

(١) ١ : ٤٦٠ (٢) ١ : ٤٦٠ (٣) ١ : ٦٠٢ (٤) ١ : ٦٠٤–٦ و٦١٨ (٥) راجع صفحة ١٠٠
(٦) ١ : ٦٠٤–٦ و٦١٧–١٨ (٧) ١ : ٦١٦ (٨) ١ : ٦٤٢–٤

اصلاحات وتوسيعات لهذا الطريق المـائى قبل القيام بحملة أخرى فى النوبة[١] . وصار النفوذ المصرى فى النوبة وقتئذ قويا جدا فشيد سيزوستريس الثالث حصنين متقابلين فى آخر حدود مملكته الجنوبيـة على شاطئ النيل أحدهما فى سِمْنَة والآخر فى قُمَّة وأعلن رسميا أن تلك الجهة هى حدود مصر الجنوبية وأقام أثرين حجريين على شاطئ النيل هناك عثر على أحدهما فوجدت عليه نقوش هيروغليفية فرعونية هذا معناها :

" هذا هو الحد الجنوبى " للملكة المصرية " فى السنة الثامنة من حكم ملك الوجه القبلى والوجه البحرى سيزوستريس الثالث مُعْطِى الحياة الأزلية الى الأزل . ممنوع مرور كل زنجى بطريق المـاء والأرض سواء أكان فى سفينة أم فى قافلة، ويستثنى من ذلك الزنجى الذى يخـترق الحدود من أجل التجارة . . . . . . أو توصيل رسـالة فهؤلاء يعاملون بكل اكرام . ولا يسمح بأى حال من الأحوال لسفينة من سفن الزنوج أن تمر ببلدة حِحْ (أى سِمْنَة) متجهة شمالا على مدى الأيام"[٢] .



شكل ٨٣ — صورة تمثل قلعتى سمنه وقمه بعد الترميم (مأخوذة عن برنو وشبيبه)

ولمـا كانت هذه الأوامر محتاجة الى قوة لتنفيذها شيد الحصنين المذكورين بتلك الجهة وكان أشدهما مناعة وأضخمهما حجما الحصن الغربى المعروف باسم " خِعْ كَاوْرَعْ القوى " (اسم سيزوستريس الثالث الملكى)[٣] . وشيد داخل هـذا الحصن محرابا للمعبود دِدْوُن النوبى . ولا تزال آثار هذين الحصنين باقيـة للآن تشهد لمصريى تلك الأوقات بالبراعة الحربية والكفاءة فى اختيار مواقع الدفاع الحصينة وبالمقدرة على تشييد الحصون المنيعة (شكل ٨٣) .

بعد ذلك بأربع سنين حصلت بالنوبة اضطرابات جنوبى الحدود المصرية فذهب الملك نفسه الى تلك الجهات ليخضع القبائل الثائرة . ومع أن مصر لم تدع ملكية أرض كوش الواقعـة أعلى

(١) ١: ٦٤٥—٧ (٢) ١: ٦٥٢ (٣) ١: ٧٥٢

الشلال الثانى، فقد غزا سيزوستريس الثالث تلك البلاد ليبسط السلام على مملكته الجنوبية وليوطد أركان التجارة والمعاملات كما كانت سابقا ، لأنه لا يخفى أن واردات السودان كانت ترد من هـذا الطريق . وهـذا كان من الأسباب التى حملت فرعون مصر على غزو تلك البلاد التى هى جنوبى حدود مملكته ، أما الاقليم الواقع بين الشلالين الأول والثانى فكان سهل الانقياد . والمعروف أن مراقبة المصريين لحدود الجنوبيـة عادت عليهم بالكسب العظيم فقد ورد على الآثار أن سيزوستريس الثالث أرسل رئيس ماليتـه المدعو إيخرنوفرت (Ikhernofert) الى العرابة ليرمم تمثال أزوريس بالذهب الذى أخذ من بلاد كوش[١] . ولكثرة الذهب بمصر وقتئذ كان أرخص من الفضـة . وقد ذكرنا فيما سبق شيئا عن خطاب الملك لرئيس ماليته المختص بهذه البقعة فى الفصل السابق[٢] .

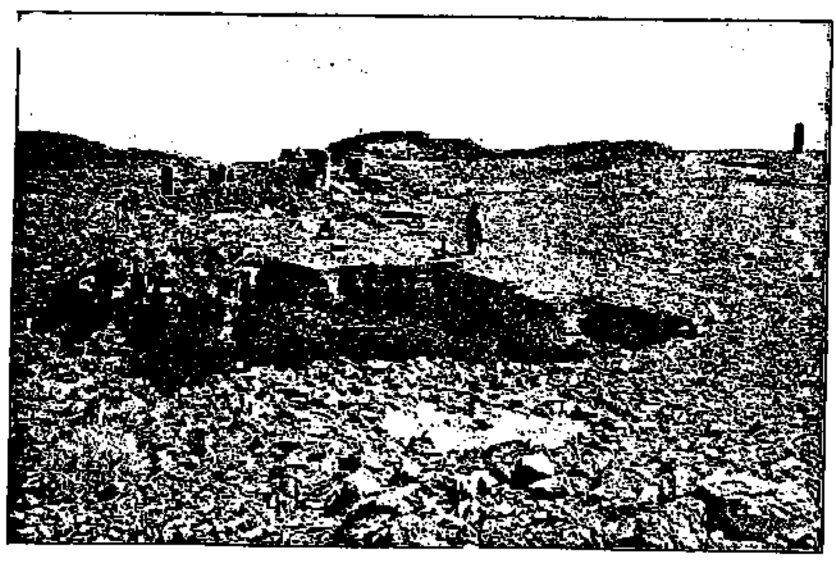
وفى السنة السادسة عشرة من حكم الملك سيزوستريس الثالث أغارت قبائل كوش وزنوج شرق النيل على الحدود المصرية فزحف عليهم الملك بجيش جرار وفتك بهم فتكا ذريعا وعاقبهم عقابا شديدا وسلب أمتعتهم وحرق حصيدهم واستولى على أغنامهم وأقام فى محراب حصن سِمْنَة تذكارا حجريا كالسابق بين فيه حدود مملكته وحض كل من يخلفه على أن يحـافظ عليها[٣] ، وأقام هناك تمثالا عظيما لنفسه بقصد ارهابهم كى لا يترددوا عليه[٤] ، وضاعف فى الوقت نفسه دفاعه فشيد حصنا ثالثا فى جزيرة أُورُونَارْتِى جنوبى سمنـه وأقام فيـه حجرا أثريا كالذى بحصن سمنه[٥] وأطلق على هـذا الحصن الجديد اسم "صدّ الأعداء"[٦] . وقرر الاحتفال بعيد سنوى فى حصن سمنه تقدّم فيه القرابين والهدايا وقد بقى هذا العيد محتفلا به حتى عهد الامبراطورية[٧] ، وبعد ذلك بثلاث سنوات ذهب شخصيا الى كوش للنزهة (غالبا) والظاهر أن هذه الزيارة كانت الأخيرة له[٨] (شكل ٨٤ و٨٥) . وقد دلتنا الآثار أن هـذا الملك قاد بنفسه جميع حملات جيوشه وأن أعماله الشديدة فى السودان وطدت دعائم نفوذه فيه فاعتبرته الأمة فى عهد الامبراطورية فاتح السودان ثم عبدوه فى عهد الأسرة الثامنة عشرة باعتباره إله النوبة[٩] . ومن ذلك يتضح أن مطامع قدماء المصريين فى السودان تقدمت باطراد فبعـد ما كانت محصورة فى عهد ما قبل الأسر على إقليم الكاب نخن (Nekhen) وصلت الى الشلال الأول فى عهد الأسرة السادسة ثم الى الشلال الثانى فى عهد الأسرة الثانية عشرة ، وبذلك تمكن المصريون من اضافة اقليم الى وطنهم يبلغ طوله مائتى ميل . ومعروف أن هذا الفتح بدأ العمل فيه فى عهد الأسرة السادسة وانتهى فى عهد الأسرة الثانية عشرة .

ويرجع تاريخ أقدم رواية وصلت الينا عن غزو المصريين لبلاد الشام الى عهد الملك سيزوستريس الثالث ، وتتلخص هذه فى نقوش وجدت بجهة العرابة على لوح حجرى[١٠] أقامه أحد القواد المدعو سبك خو (Sebek Khu) المحـافظ الحربى لعـاصمة الملك والذى سبق له التوظف بالنوبة . ودلتنا هـذه النقوش أن سيزوسريس الثـالث استصحب هذا القائد فى غزوة قام بها باقليم سكمم (Sekmem) بسوريا (رِتِنُو) حيث هزم السوريين واستولى سبك خو منهم على أسرى

(١) ١ : ٦٦٥ (٢) راجع صحيفة ١٠٨ (٣) ١ : ٦٥٣ – ٦٦٠ (٤) ١ : ٦٦٠ (٥) ١ : ٦٥٤
(٦) شرحه (٧) ٢ : ١٦٧ ملاحظة (٨) ١ : ٦٩٢ (٩) ٢ : ١٦٧ ملاحظة (١٠) ١ : ٦٧٦ – ٦٨٧



شكل ٨٤ – صورة شمسية لنهر النيل بإقليم النوبة مأخوذة من أعالي الحصون الاسلامية المهدمة بجهة إبريم (مستعارة من محل أندروود وأندروود بنيو يورك) .



شكل ٨٥ – بقايا مناجم المملكة الوسطى بجهة صربوط الخادم بطور سيناء
(مأخوذة عن مصلحة المساحة)

عديدين . وقد افتخر هـذا القائد بذلك قائلا ما ترجمته : " لقد أهديت الى جلالة الملك عصا ذهبية وفضية وقوسا ومدية من مخلوط الذهب والفضة (Electrum) وكذا أسلحة الأسير الذى استوليت عليه . كل هذه الهدايا قدمها لى جلالة مليكى بيده " — فجاء هذا مثلا لظهور الروح العسكرية فى نفوس المصريين، تلك الروح التى بلغت أكبر شأوها فى عهد الامبراطورية . ولم نهتد الى الآن مع الأسف الى موقع بلد سكم بسوريا ولكن الثابت أن ملوك المملكة الوسطى مهدوا فتح آسيا لملوك الامبراطورية كما مهد ملوك المملكة القديمة فتح النوبة لملوك الأسرة الثانيـة عشرة . والمعروف أن رسل سيزوستريس الأول جابت سـوريا وفلسطين بانتظام[1] وانتشر المصريون فى تلك الأنحاء وانتشرت تبعا لذلك اللغة المصرية فصار اسم فرعون هناك مقرونا بالخوف والوجل . وعثر حديثا بسفح تل جازر على لوح حجرى لموظف مصرى فيما بين بيت المقدس والبحر الأبيض المتوسط داخل حدود " المنطقة العالية " استدل منه أن النفوذ المصرى وصل الى تلك الجهات وقتئذ[2] .

ووجدت صور على جدر مقبرة خنوم حوتب ببنى حسن لسـبعة وثلاثين رجلا من الشـام أتوا الى مصر للتجارة مع هذا الأمير فى الروائح والدهان العطرية الكثيرة الاستعمال عند المصريين[3] يقودهم حاكم أرض أبشا (Absha) المعروفة عند العبرانيين بأبشـاى[4] . وقد ألمنا سابقا أن سنوحى التعس توجه الى الشام وهناك وجد شيخا صديقا له قرب الحدود سبقت له زيارة مصر وعثر شمالى ذلك المكان على بعض مصريين مستوطنين تلك الجهات[5] ، ومنها استنتج أن المعاملات التجارية القانونية كانت مباحة على الحدود مع وجود الحصون المنيعة شرق الدلتا كما كانت الحال على الحدود الجنوبية جهة الشلال الثانى[6] . وكان اقليم السويس وخليج السويس متصلين بفرع النيل الشرقى بقناة هى فى الحقيقة أقدم اتصال مائى بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر فى التاريخ .

ووجدت جهة تنيس(Tanis) و نبيشه(Nebesheh) شمالى وشرق الدلتا آثار لمعابد شامخة لملوك الأسرة الثـانية عشرة تشهد لهؤلاء القوم بالنشاط والكد فى ذلك الاقليم . ودلتنا المعاملات التجارية وقتئذ أن أهل الشام كانوا على جانب عظيم من المدنية والحضارة وتجارتهم كانت رائجة . ويستنتج من رسوم أهل الشام على جدر مقبرة بنى حسن أنهم كانوا يلبسون المنسوجات الصوفية المزخرفة المهلهلة ويلبسون النعال ويتسلحون بالأسلحة المعدنية ويقبضون بأيديهم على عصى ثمينة . وبفحص الأوانى الخزفية الحمراء التى تاجر بها الحيثيون الذين استوطنوا اقليم كاپادوشيا (Cappadocia) بآسيا الصغرى وجد أن هذه الأوانى أخذت تتدفق على الأهالى الساميين بجنوبى فلسطين . وتجارتهم كانت تصل الى البلاد عن طريق فلسطين مخترقا كارمل (Carmel) وواصلا شمالا حتى نهر الفرات وبلاد بابل ولكنها كانت بطيئة الحركة . وعرف المصريون سكان جنوبى أوربا الذين ظهرت عليهم بوادر المدنية والحضارة والذين كانوا يعرفون عنـدهم باسم هَاوْنِبُو[7] . وجاء بالآثار أن أحد موظفى المـالية عهد اليه فى حراسـة الموانئ المصرية الشمالية فكتب مفتخرا بأنه انتصر على هاونبو ، ومنه استنتج

---

(1) ١ : ٤٩٦ و ١ : ٩٤ (2) PEFQS 1903, 37, 125. (3) ١ : صحيفة ٢٨١ ملاحظة (د)

(4) II Sam. 10, : 10. سفر صموئيل الثانى الاصحاح العاشر السطر العاشر .

(5) ١ : ٤٩٣ و ١ : ٢٦ و ٤٩٤ (6) ١ : ٤٩٣ و ٢ : ١٦ — ١٨ (7) ١ : ٤٢٨

أن العلاقات بين هؤلاء القوم والمصريين لم تكن فى صفاء على الدوام . ودلتنا نقوش تاريخية لأحد كتبة ذلك المصر جاء فيها أنه يفخر باستعمال قلمه فى تدوين أخبار هاونبو . وعثر على أوان خزفية من صنع هؤلاء القوم بجهة كاهون لوحظت عليها أشكال حلزونية مصبوغة بالصبغة المصرية، مما يشير الى بزوغ شمس المدنية الأوربية بأفق وادى النيل فى عهد المملكة الوسطى .

والمعروف أن سيزوستريس الثالث غزا سورية للكسب والغنم كما فعلت الأسرة السادسة مع النوبة ولكن الثابت أن هذه الغارات الأسيوية عظمت من شرف الأسرة الثانية عشرة ورفعت من منزلتها . ولما كان سيزوستريس الثالث أول فرعون قاد هو نفسه حملات مصر الأجنبية وعلى الأخص فى السودان فقد اشتهر بين قومه بأنه أول فرعون استعمارى ، وقد أكثر القوم بعد وفاته من سرد الحكايات والروايات الخاصة بحروبه وأعماله المجيدة مدة طويلة من الزمن . وزادت فى العهد اليونانى منزلة هذا الملك فنسبت اليه بعض أعمال رمسيس الثانى الكثيرة . وبالبحث عما اذا كان رمسيس الثانى ينتمى الى الأسرة التاسعة عشرة وجدت هذه النسبة غير مطابقة لما ورد عن تاريخ وحياة سيزوستريس الثالث المذكور .

واستمر سيزوستريس الثالث يحكم للأمة المصرية مدة ثمان وثلاثين سنة ، واتسع نطاق مملكته حتى وصل الى ألف ميل من وادى النيل ، واليه يعزى الفضل فى اخضاع حكام الأقسام للسلطة المركزية ولذلك انعدم وجود مقابر لهؤلاء القوم فى الأرياف كبنى حسن والبرشه . ولما تقدم فى السن أشرك معه ابنه أمنحمت الثالث ودون ذلك على جدر معبد مدينة أرمينو بالفيوم . وتوفى سيزوستريس الثالث عام ١٨٤٩ قبل الميلاد فأعقبه فى الملك أمنحمت الثالث بلا منازعات ولا مشاحنات .

وامتاز حكم أمنحمت الثالث بالمشروعات العظيمة التى قام بها والتى عادت على مصر بالرخاء والنعيم وضاعفت حاصلات البيت المالك وخيراته . وتفصيل ذلك أنه لما ولى الملك وسع نطاق المناجم بطورسيناء ، وكان البادئ فى ذلك سيزوستريس الأول ، فذلل العقبات الشديدة التى واجهت العمال هناك بأن أسس لهم منازل ثابتة بدل المساكن المؤقتة التى لم تستمر أكثر من بضعة أشهر . ووصف أحد رؤساء العمال الذين كلفوا ملاحظة أشغال المناجم تلك الصعاب التى لقيها فى الصيف هناك فقال ما ترجمته : " ان الوقت لم يكن مناسبا للذهاب الى تلك الجهات ولكننى سافرت برغم ذلك . ولا يخفى أن الصيف شديد القيظ فى الأقاليم المرتفعة فكانت الجبال تحرق الجلد ومع ذلك شجعت أنفارى على مثابرة العمل وعدم المبالاة بالقيظ . . . . . . وأحضرت معى كميات كبيرة من المعادن أكثر مما طلب منى . . . . . . " وترك هذا الشخص وراءه حجرا أثريا[1] نقش عليه ما صادفه هناك وأورد به أيضا نصائح لتشجيع عمال تلك الجهة على لزوم الصبر واحتمال المشقات . ولما عظمت الأعمال فى طورسيناء حفرت الآبار وشيدت خزانات للمياه وثكنات للعمال ومنازل للرؤساء وقلاع لصد هجمات البدو علاوة على ما كان فيها من قبل ، ولذلك أصبحت محطة صربوت الخادم

(١) ١ : ٧٢٣ — ٧٤٠

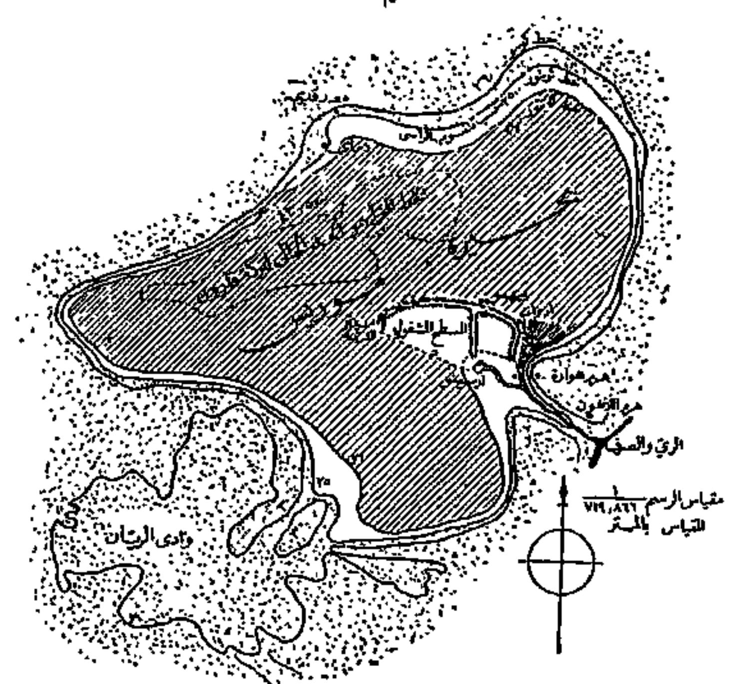
بطور سيناء مركزا عظيما ومنجما غنيا . ثم شيد الملك فيها صهريجا عظيما افتتحه فى السنة الرابعة والأربعين من حكمه باحتفال عظيم[1] ومعبدا للمعبودة حاتحور . وجاء أن أحد موظفى المالية ذهب بحرا الى تلك الجهات حاملا القرابين لهذا المعبد، فاستنتج أن المصريين استعملوا وقتئذ خليج السويس طريقا للسفر الى تلك الجهات تجنبا لمشقة سفر الصحارى والقفار[2] ، ووضع كل بئر من آبار المناجم تحت اشراف رئيس سمى باسمه وحتم على الرؤساء اخراج كمية محدّدة من المعادن فى مدّة معينة فى نهايتها يأتى المندوب المالى ليتسلم المعدن المستخرج كله[3] . ولا يخفى أن وجود حامية قوية بتلك الجهات تحت رئيس المالية حالت دون سطو البدو على المناجم . وقد شيد هناك العمال لأنفسهم جبانة منظمة لا تزال آثارها باقية دفنوا فيها موتاهم على حسب عاداتهم، فثبت بذلك أن الأعمال انتظمت وصار لها دخل ثابت سنويا بعد ما كانت مختلة معتلة (شكل ٨٥) . وبديهى أن فراعنة تلك العصور اضطرتهم ظروفهم للبحث عن الكسب والثروة خارج القطر ولكنهم صرفوا قصارى جهدهم لتحسين منافع القطر الداخلية . ومن دواعى الأسف أننا لم نهتد الى نصوص تاريخية على ما قام به هؤلاء الحكام من المشروعات وانما المعروف أن أمنمحعت الثالث كان أعظم ملوك هذه الأسرة اهتماما بأمور الرى ، فقد أصدر أمرا الحامية قلعة سمنه بأن تقيس فى جهتها أقصى ارتفاع لمياه النيل كل سنة فتأسس هناك مقياس للنيل . واستنتج من النقوش التى على أحجار هذا المقياس[4] أن ارتفاعات مياه النيل كانت أعلى مما هى الآن بما ينيف على خمس وعشرين أو ثلاثين قدما . ولما كانت أخبار هذه المقاسات ترسل على عجل لموظفى مكتب الوزير بمصر السفلى فقد تمكن القوم وقتئذ من تقدير كمية الحبوب الممكن انتاجها من البلاد فى السنة التالية ، وبناء على ذلك قدروا نسبة الضرائب والرسوم التى تطلبها الادارة المالية من ذوى الأملاك .

وابتكر لرى الوجه البحرى طريقة علمية ناجعة أطالت مدة ريه ، وتفصيل ذلك أنه توجد فتحة صغيرة فى سلسلة جبال ليبيا بجهة الفيوم (خريطة نمرة ٣) تبعد خمسة وستين ميلا عن قمة الدلتا وتصل وادى النيل باقليم منخفض عظيم غربى جبال ليبيا يعرف بالفيوم ويشبه كثيرا الواحات الغربية ، وهو فى الحقيقة واحة قريبة من النيل أشبه بورقة النبات يتصل فرعها بالنيل ويبلغ طولها أربعين ميلا وعرضها مثل ذلك ، ولا يزال الجزء الشمالى الغربى لهذا الاقليم خازنا للمياه ومعروفا ببركة قارون (شكل ٨٦) وهو منخفض عن مسطح البحر بنحو مائة واربعين قدما . وقبل حكم الأسر كان فيضان النيل يعم اقليم الفيوم محوّلا اياه الى بحيرة عظيمة ، فلما أتى ملوك الأسرة الثانية عشرة فطنوا الى خزن كمية مياه عظيمة فى تلك الجهات وتصريفها وقت التحاريق ، فشيدوا على الفتحة السابقة الذكر سدودا عظيمة لحجز المياه فى البحيرة الفسيحة ، تاركين فى الوقت نفسه قطعة كبيرة فى الأرض للزراعة . وقد بدأ هذا المشروع ملوك الأسرة الثانية عشرة الأول ولكن الفضل الأعظم فى انجازه يرجع الى أمنمحعت الثالث الذى أطال السدّ العظيم فأبلغه الى نحو سبعة وعشرين ميلا

(١) ١ : ٧٢٥ – ٧٢٧ (٢) ١ : ٧١٧ – ٧١٨ وقرابين مشابهة ١ : ٧٢٨ (٣) ١ : ٧٣١

(٤) L.D. II, 139; Lepsius Sitzungsber. der Berliner Akad. 1844, 374 ff

طولا فاكتسب بذلك أراضي زراعية تبلغ مساحتها سبعة وعشرين ألفا من الأفدنة[١] . ويتخيل الزائر لمنطقة هذا الجسر العظيم جلال المجهود الانساني الذي رفع شأن تلك الأراضي المنخفضة التي غمرتها المياه قديمـا ولذلك قال استرابو أن الملك لاماريس — وهو اسم أمنمحعت الثالث الملكي — هو الذي حفر هذه البحيرة المعروفة عند مشـاهير الجغرافيين والسائحين ببحيرة موريس (شكل ٨٦) وقد وافق استرابو (المعتبر أضبط البحاثين في أمر هــذه البحيرة) هيرودوت في وصفه الغامض لها ، وهو أن فيضـان النيل كان يغمر تلك البحيرة العظيمة عن طريق الثغرة الموجودة بجبال ليبيا ، وأن المصريين كانوا يروون أرضهم زمن التحاريق من مياه هــذه البحيرة الواسعة . وشاهد استرابو محال مراقبة المياه الداخلة والخارجة باقليم البحيرة المذكورة . ولكثرة عناية أمنمحعت الثالث



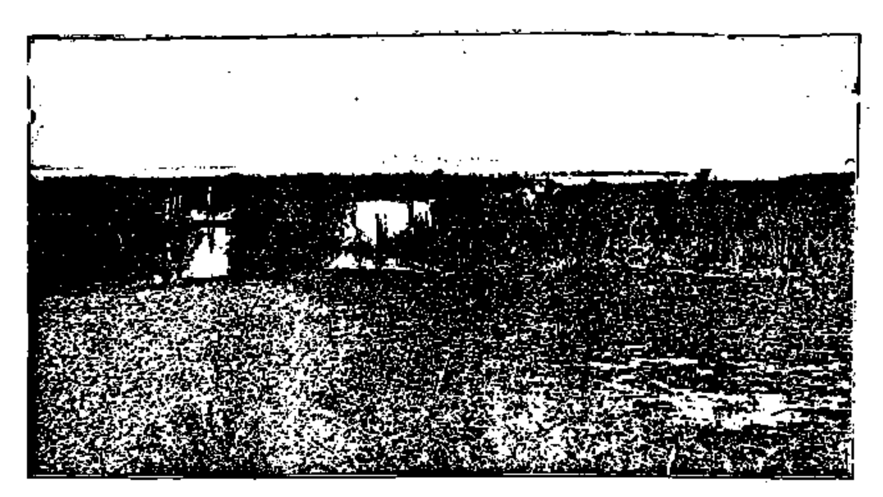
خريطة رقم ٣ . الفيوم (مأخوذة عن الميجور ر. هـ. براون)

باقليم الفيوم اعتقد القوم أن مشروع ري ذلك الاقليم يرجع تاريخه على الأقل الى مشروع الجسر العظيم الذي أقامه هذا الملك وأنه هو الذي حفر بحيرة الفيوم . وقدر المهندسون حديثا كمية المياه التي كانت تحجز في بحيرة الفيوم وقتئذ فوجدوها ضعف حجم مياه النيل أسفل اقليم الفيوم لمدة مائة يوم ابتداء من أول أبريل من كل سنة[٢] .

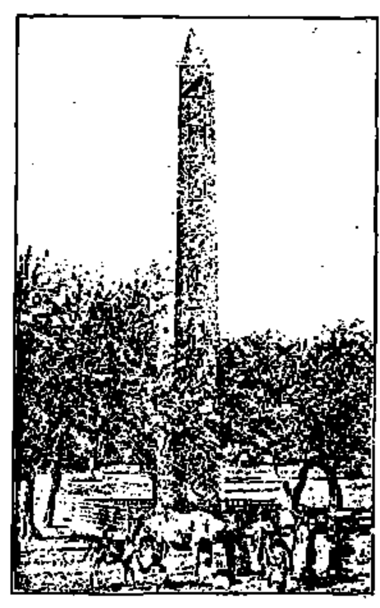
وغني عن البيان أن الأراضي التي نتجت عن اقامة الجسور بالفيوم كانت ملكا لفرعون مصر . وهناك أدلة كثيرة تثبت أن ملوك الأسرة الثانية عشرة الأخيرين فضلوا سكنى تلك الأراضي فشيدوا بها بلدة عظيمة سمـاها اليونان كروكوديلوبوليس أو أرسينو وأقاموا بها معبدا للمعبود سبك —

(١) Maj. R. H. Brown, R.E, The Fayûm & Lake Mœris, London, 1892.

(٢) شرحه .



شكل ٨٦ – منظر بركة قارون بالجهة الشمالية الغربية بالفيوم



شكل ٨٧ – مسلة سيزوستريس الأول
بمدينة عين شمس
(مأخوذة عن أندروود وأندروود بنيويورك)



شكل ٨٨ – تمثال خشبي للأمير
إوب رَعْ بدار تحف القاهرة

أى التمساح — ولا تزال هناك مسلة لسيزوستريس الأول بجهة إبجيج (Ebgig) فى صميم الأرض الزراعية . وكان هناك تمثالان عظيان لأمنمحعت الثالث المعتبر فى عهد هير، ودوت منشئ البحيرة ، نصبا بالقرب من الجسر الأعظم فى الاقليم الذى كان مغمورا بالمياه . وفى الجهة البحرية للثغرة الموصلة لأرض الفيوم توجد آثار قصر ضخم يبلغ طوله حوالى ألف قدم وعرضه ثمانمائة قدم، استعمل معهدا دينيا وادار يا . وحوى مجموعات من الحجرات بقدر عدد أقسام مصر وفى كل مجموعة منها تماثيل آلهة القسم المنتسبة اليه . وفى هذا القصر كانت تجتمع هيئة الحكومة آنا فآنا . قال استرابو ان كل مجموعة من الحجر كانت عبارة عن مكتب عام لكل قسم من أقسام مصر . وقد بقيت آثار هذا القصر واضحة حتى عهد استرابو الذى شاهدها . وأطلق على هـذا القصر فى العهد اليونانى والرومانى اسم لابيرانتا ، تشبيها بقصر لابيرانتا الكريتى الوارد ذكره فى الروايات اليونانية لتشعب طرقه وحجراته . وهذا القصر عمر طويلا منذ عهد الأسرة الثانية عشرة . ووصف استرابو متانة بنائه وطول بقائه فقال ما ترجمته : "والغريب أن سقف كل حجرة من حجرات هذا القصر كان من حجر واحد وكذلك أرضها ، ولم يستعمل فى بناء هذا القصر خشب أو ما شاكله من مواد العمارة" . وقد شاهد استرابو البلدة التى أسست حول هـذا القصر وقد عفت آثارها وامحت معالمهما الآن . وجاء أن الملك سيزوستريس الثـانى أسس بلدة خارج الثغرة الجبليـة لاقليم الفيوم سماها حوتب سيزوستريس — أى سيزوستريس القنوع — ثم شيد بالقرب منها هرما له . ومن أجل ذلك صار اقليم الفيوم أعظم الأقاليم عمرانيا وسياسيا وصار لمعبوده سبك — أى التمساح — شهرة عظيمة ضاهت منزلة آمون، فسمى آخر ملوك الأسرة الثانية عشرة سُبْك نفْرُو رَعْ نسبة الى المعبود سبك ، وقد عرف جميع ملوك الأسرة الثالثة عشرة باسم سبك حوتب نسبة الى هذا المعبود أيضا .

وحكم أمنمحعت الثالث مصر مدة خمسين سنة حل فيها النعيم والأمن والسكينة على البلاد حتى ترنم القوم بجلالته قائلين ما ترجمته :

هو (أى الملك) يكسو القطرين حلة خضراء أكثر من النيل العظيم .
لقد زاد القطرين قوة . . . . . . (كيف لا) وهو نفس الحياة المرطب للأنوف ؛

. . . .

هو الذى يوزع الخيرات على تابعيه ؛ هو المغذى لخلفائه ؛
هو الغذاء وفى فمه الخير[١] .

أما المعاملات التجارية فكانت منظمة جدا فاستعملت وقتئذ المثاقيل النحاسية وكانت وحدتها الدبنْ — الذى يعادل ١٤٠٤ قمحات[٢] . ويجد الباحث آثار أمنمحعت الثالث وأسلافه منتشرة للآن فى جهات القطر رغما عما سلب من أحجارها فى أعمال العمارات والترميمات والاصلاحات أيام الامبراطورية ، ولذلك كان الباقى من آثار هذه الأسرة لا يستطاع تقديره . ولقد ضيع كثيرا من معالم المملكة الوسطى ما اقترفه ملوك الأسرة التاسعة عشرة و بالأخص رمسيس الثـانى من طمس الكثير من آثارها وتهديمها واستعمال أحجارها لتشييد آثارهم . ويظن أن كل مدينـة مهمة فى عهد المملكة

(١) ١ : ٧٤٧ (٢) ١ : ٧٨٥

الوسطى حوت معبدا لفراعنة تلك العصور ولكن هذه المعابد زالت وانمحت آثارها ويشق علينا لذلك معرفة أعمال هؤلاء الملوك بالضبط . ففى طيبه مثلا — مسقط رأس ملوك هذه الأسرة — شيد أمنمحعت الأول[1] معبدا عظيما لآمون بدل المعبد الصغير الذى كان موجودا هناك . ولما أتى سيزوستريس الأول كبر هـذا المعبد وشيد مسكنا ومطعما للكهنة[2] جوار البحيرة المقدسة وقد بقيا ثلثمائة سنة تقريبا[3] . ومن آثار هذا الملك أيضا السور العظيم المشيد حول مدينة الكاب (نخب)[4] وهو الوحيد من نوعه الذى لا يزال سليما للآن (شكل١٠٢) . وقد شمل أمنمحعت الثالث معبد ادفو الفخم برعايته وشـيد بالعرابة معبدا جديدا لأزوريس ملأ نفوس القوم احتراما وأحيط بسور منيع وسمح للأمراء بدفن جثثهم داخل ذلك السور[5] . ووسع الملك أيضا معبد حرسافيس (Harsaphes) بجهة إهناس (Heracleopolis) بالفيوم وزاد أثاثه[6] . أما آثار الفيوم نفسها فقد سبق الكلام عليها . وأما منف ومعبودها بتاح فقـد أقام أمنمحعت الثالث بهـا بعض عمارات جديدة لم يبق من آثارها إلا النادر . والظاهر أن الملك لم يعتن كثيرا باقليم إثنوى وسـائر القصور الملكية كما اعتنى بالجهات الأخرى . وأما رع أقـدم المعبودات ووالد الفراعنة فقـد أكرم كثيرا فى عهد المملكة الوسطى ، وكان سيزوستريس الأول أول من اهتم بأمره من ملوك هذه الأسرة فشكل مجلسا كبيرا من الكهنة والأعيان أبدى فيـه رغبته بتشييد هيكل لرع ووضع التخطيط اللازم لذلك ، فلمـا جهزت المعدات ذهب الملك شخصيا كالعادة المتبعة وحضر حفلة وضع أساس المعبد ، وقد اهتدينا الى نسخة للنص الملكى الخاص باقامة هـذا الهيكل بعد ما تلف وضاع بخط أحد الكتبة الذى أتى بعد عهد سيزوستريس الأول بخمسمائة سنة ، وقد نقل الكاتب هـذه النسخة من النص المنقوش على جدر ذلك الهيكل ، أما النسخة فمكتوبة على قرطاس بردى وجد محفوظا داخل كيس من الجلد يوجد الآن بدار التحف ببرلين[7] . وقد افتخر سيزوستريس الأول كثيرا باسمه على آثاره العظيمة فقد قال ما ترجمته :

"سيذكر القوم محاسنى فى معبد رع ،

وسيبق ذكرى مجسما فى قمتى مسلتىّ وفى البحيرة المقدسة أيضا"[8] .

أما معبد عين شمس وعين شمس نفسها وبحيرتها (التى ألمع اليهـا الملك فى وصفه السابق) فقد بليت ولم يبق منها إلا قمة احدى مسلاته التى لا تزال باقية تمجد ذكرى ذلك الملك العظيم (شكل ٨٧) . والمعروف أن الوجه البحرى صار وقتئذ جنة يانعة كثيرة الخيرات والمدنية بفضل تحسين مشاريع الرى ، الأمر الذى هو نتيجة أعمال الفيوم الصيفية العظيمة . وبالرغم مما أصاب معظم آثار الوجه البحرى كما ألمعنا من التلف فلا تزال توجد بجهة تنيس (Tanis) وتل بسطه آثار تثبت ما كانت عليه مدن ذلك القطر من العز والنعيم فى عهد الأسرة الثانية عشرة . وهناك بقايا لمعابد أقامها أمراؤها فى أنحاء

---

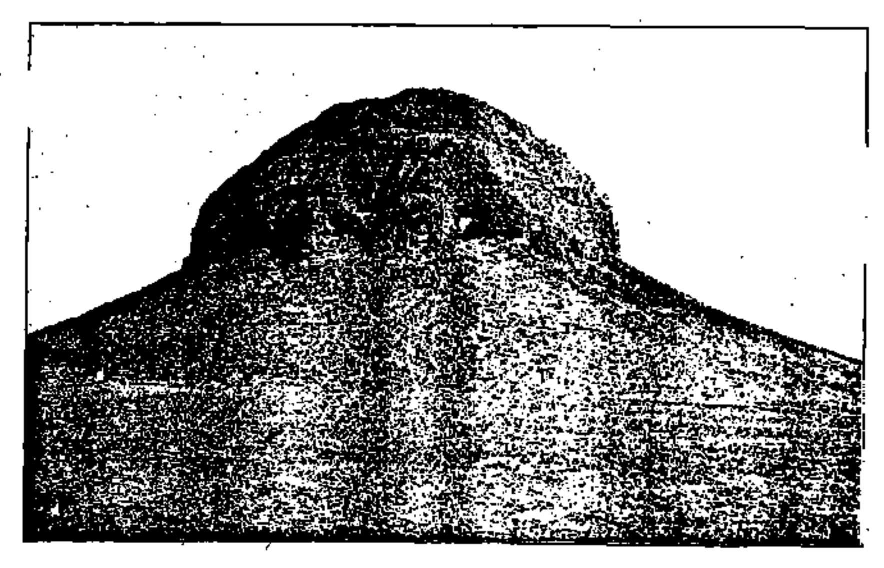
(١) ١ : ٤٨٤ (٢) ٤ : ٤٨٨ — ٩ (٣) شرحه (٤) ١ : ٧٤١ — ٢ (٥) ١ : ٥٣٤ ملاحظة (ب)
(٦) ١ : ٦٧٤ — ٥ (٧) ١ : ٤٩٨ — ٥٠٦ (٨) ١ : ٥٠٣



شكل ٩٠ – النصف العلوى لتمثال أمنمحت الثالث بدار تحف عاصمة روسيا



شكل ٨٩ – صورة أمنمحت الثالث مأخوذة من تمثاله المصنوع بهيئة أبي الهول بجهة تنيس (زوان)



شكل ٩١ – هرم سيزوستريس الثانى بجهة اللاهون مشيد باللبن

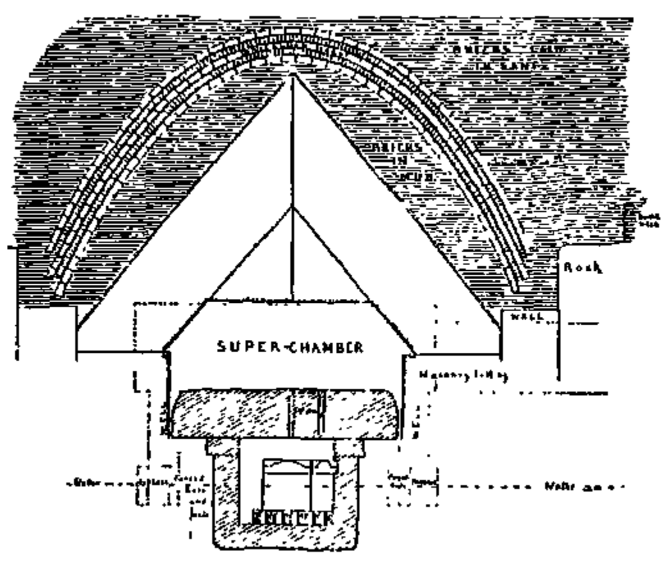
القطر من الشلال الأول الى الشمالى الغربى للدلتا ، ومنها استنتج أن بناء المعابد والقصور لم يكن مقصورا على ملوك ذلك الوقت بل شمل أيضا حكام الأقسام الأغنياء الأقوياء[١] [٢] وقد أقام هؤلاء الحكام أيضا معابد صغيرة للترحم فيها على أرواحهم[٣] ولولا خرابها لعرفنا كثيرا من رفاهية البلاد وعزها وقتئذ .

و يعزز رأينا هذا آثار المقابر الفذة الباقية من عهد حكم الاقطاعيات والتى هى الآن فى حالة سيئة للغاية . وقد ذكرنا فيما سبق أن تشييد المقابر على شكل مصاطب أخذ يتقدم تدريجا ، ثم استبدلت بالمصاطب كهوف محفورة داخل صخور جبلية . وحفر القوم فى هذه الصخور دهاليز وآبارا وغير ذلك . أما المعابد التابعة لتلك المقابر فكانت مثالا لحضارة تلك العصور وعمرانها فقد حوت جدرها الكثير من المعلومات التاريخية الخاصة بأصحابها ، وتعتبر هذه المعابد أهم مصادر معارفنا لتاريخ ذلك الوقت . وهكذا صار لتلك الساحات ذات العماد قيمة علمية عظيمة . و بفحص أهرام الأسرة الثانية عشرة اتضح لنا أن المقابر الملكية فقدت أهميتها التى كانت لها أيام المملكة القديمة ، فلم تعد الحكومة تصرف عليها الأموال الباهظة والأشغال الكثيرة ، والسبب فى ذلك أن ملوك ذلك العصر اعتبروا مقابرهم أقل أهمية من المشروعات الأخرى النافعة . وأول من بدأ بهذه الحركة الرجعية ملوك الأسرة الحادية عشرة الذين شيدوا أهرامهم باللبن . ولما أتى أمنمحعت الأول شيد باللبن هرمه من الداخل وكساه من الخارج بالحجر الجيرى ، و يوجد هذا الهرم جهة اللِّشْت (شكل ٩٤) [٤]. وقد حذا حذوه سائر ملوك هذه الأسرة إلا واحدا ، وتشاهد أهرامهم منتشرة من مدخل الفيوم حتى دهشور جنوبى منف ، فهرم سيزوستريس الأول موجود فى لشت بجوار هرم والده . أما أمنمحعت الثانى فقد اختار لبناء قبره جهة دهشور شمالى اللشت . ودفن سيزوستريس الثانى عند مدخل الفيوم ببلده الجديد حوتب سيزوستريس القريبة من اللاهون (شكل ٩١) . أما سيزوستريس الثالث فاختار لهرمه جهة دهشور شمالى هرم أمنمحعت الثانى . ثم أتى أمنمحعت الثالث فاختار لهرمه مكانا جنوبى هرم أمنمحعت الثانى . أما هرم هوارة التابعة للفيوم والقريب من قصر اللابيرانتا فنسبه القوم أولا الى أمنمحعت الثالث ، لكن الرأى الغالب الآن يميل الى نسبته الى أمنمحعت الرابع ، وهذا الأخير هو الوحيد فى هذه الأسرة الذى نجهل موضع هرمه بالضبط . وتمتاز أهرام هذه الأسرة بتركيبها وكثرة تعاريجها الداخلية وحجرها واخفاء معالم مدافنها لتضليل اللصوص . وأعظم هذه الأهرام تعقيدا هو هرم هوارة الذى يبلغ ارتفاعه نحو مائة وتسعين قدما ومساحة قاعدته المربعة حوالى ثلاثمائة وأربع وثلاثين قدما . ومدخل هذا الهرم فى منتصف النصف الغربى للوجهة القبلية ومنه تبتدئ طرقة فى طبقة صخرية أسفل الهرم تتعرج أربع مرات قبل أن تنتهى بالحد الذى يوصل اليه من الجهة الشمالية . وتشاهد فى تلك الطرقة ثلاثة سدود صخرية عظيمة الحجم والثقل لمنع اللصوص من الوصول الى الجثة كما تلاحظ أيضا عدة مسالك ومنافذ مضللة عملت خصيصا للغرض نفسه .

(١) ١ : ٦٢٧ ملاحظة (أ) (٢) ١ : ٦٣٧ (٣) ١ : ٧٠٦

(٤) Mém. sur les Fouilles de Licht, par J. E. Gautier et G. Jéquier, Cairo, 1902.

ويبلغ طول حجرة التابوت اثنين وعشرين قدما وعرضها ثمـانية أقدام وارتفاعها ستة أقدام وهى منحوتة فى صخرة واحدة من الحجر الصوان الشفاف (Quartzite) تقدر زنتها بمـائة طن وعشرة . وليس لهـذه الغرفة باب بل يدخل اليها من فتحة بالسقف مسدودة بصخرة تزن خمسـة وأربعين طنا [1] (شـكل ٩٢) . ومع هـذه الاحتياطات نهب اللصوص هـذا الهرم بعد وفاة صاحبه ، ويؤكد الأثريون أن بعض الموظفين أو الملوك الذين أتوا بعد وفاة صاحب هـذا الهرم اشتركوا فى تلك الجريمة . وبفحص السدود الثلاثة لوحظ أن الاثنين الداخليين منهـا لم يقفلا وأن السد الخارجى وحده هو الذى أقفل ومنه استدل أن موظفى تلك العصور كانوا سيئى الأخلاق أحيانا لأنهم اعتقدوا



شكل ٩٢ — صورة قطع رأسى لهرم هوارة تظهر علاقة حجرة الموميا. بسائر أجزاء الهرم (مأخوذة عن بترى) : وهذه ترجمة النصوص الانجليزية فى هذا الشكل ماء Water — مقد بالطوب اللبن Brickwork arch — صخر Rock — بئر Well — لبن مرصوص فى الرمل Bricks la'd in sand — حجرة عليا Super chamber جدار Wall — لبن ملصوق بطين Bricks in mud — ممـر Passage — ثغر و بئر التضليل Forged hole and well — تصميم معمارى Masonry filling — ثغـر التضليل Forged hole

أن اغلاق السد الخارجى كاف لاقناع أهل الملك بأن الاحتياطات الداخلية جميعها عملت . ولا يبعد أن تعدد سرقات الأهرام كان سببا من الأسباب التى جعلت الملوك يجتنبون دفن جثثهم فى أهرام . لذلك أخذ الملوك ينحتون مقابرهم داخل الصخور الجبلية ، لكن بعضهم شيد لنفسه أهراما صغيرة بجهة طيبه . بهذه الكيفية انتهى تاريخ بناء الأهرام التى هى أفخم وأضخم أنواع الآثار المصرية والتى يرجع تاريخها الى ما قبل عهد الامبراطورية ، ولا تزال الأهرام باقية فى مصر منذ تلك العصور السحيقة يراها السائح منتشرة فى مصر من رأس الدلتا شمالا من الجهة الغربيـة لوادى النيل بحافة صحراء ليبيا على مسافة خمسة وستين ميلا تقريبا على خط مستقيم .

(1) Petrie, Kahun, Gurod, & Hawara, pp. 13-17

ولم يحفظ لنا التاريخ الا القليل من مبانى المملكة الوسطى عرفنا منها عمارتهم . ويستدل من مقابر ذلك العصر أن فن البناء حذا حذو المملكة القديمة وأن المعبد ذا الشرفات الذى شيده أحد ملوك الأسرة الحادية عشرة بالدير البحرى بجهة الأقصر اتخذه كبار مهندسى البناء فى عهد الامبراطورية أنموذجا لمبانيهم . ودلتنا الآثار الباقية التى عثر عليها پترى فى محل قصر لابيرانتا ودلنا وصف استرابو لهذا القصر أنه كان غاية فى العظم والأبهة بصرف النظر عن حجمه وضخامته . أما عمارة المنازل فقد انعدمت آثارها انعداما تاما . وقد عثر الأستاذ پترى على خريطة لمدينة اللاهون القديمة بالقرب من هرم سيزوستريس الثانى تظهر رسم أحياء العمال وكيفية اتصال بعضها ببعض وتكديسها (خريطة ١) . ولم نهتد الى الآن على آثار لقصور سراة القوم ولذلك لا تزال معلوماتنا عن بنائهم ضئيلة جدا .

أما الفنون الجميلة فتقدمت كثيرا عما كانت عليه فى عهد المملكة القديمة . وبلغت فى الحفر درجة رفيعة من حيث الاتقان وضخامة الحجم ، مثال ذلك تمثالا أمنمحمت الثالث المنصوبان أمام بحيرة موريس فان ارتفاعهما يتراوح بين أربعين وخمسين قدما ، وكذا تمثال حاكم قسم الوعل (سعح) المدعو تحوت حوتب فقد كان ارتفاعه اثنين وعشرين قدما . وكثر عدد التماثيل وقتئذ فقد وجدنا فى هرم أمنمحمت الأول جهة لشت عشرة تماثيل له (شكل ٩٥) . وروى أحد مفتشى المالية المدعو سى حاتحور أنه أشرف على انجاز ستة عشر تمثالا لأمنمحمت الثانى صنعت لهرمه بدهشور[١] . وقد عثر على عدة بقايا لتماثيل ضخمة بجهة تنيس (Tanis) (شكل ٩٣) وتل بسطه . وقد ألمعنا سابقا أن سيزوستريس الثالث أقام لنفسه تمثالا على الجدر الجنوبية فى النوبة[٢] . ويستدل من تماثيل هذا العصر على مهارة قدماء المصريين فى فن رفع الأثقال (الميكانيكا) والتصوير . وبمقارنة تماثيل الأسرة الثانية عشرة بتماثيل المملكة القديمة لوحظ أن الأول أبعد من المظهر الطبيعى وأضعف تأثيرا فى النفوس ، والسبب فى ذلك أن المثال أصبح الآن مضطرا لأن يراعى فى مهنته قواعد عتيقة لا يمكن الاقلاع عنها . وجاء فى الآثار أن أحد الفراعنة بحث فى الكتب القديمة عن شكل أحد المعبودات ليقيم له تمثالا مشابها لتمثاله القديم الذى عمل فى حضرة المعبودات وقتما قرروا فيما بينهم اقامة تماثيل لهم على وجه الأرض[٣] . بهذه الكيفية صار القوم يقلدون القديم فى صنع تماثيل الملوك والأمراء مفضلين أقدم الأشكال ، ولهذا السبب تأخر فن الحفر عما بلغه فى عصر المملكة القديمة من الازدهاء والمطابقة للطبيعة . ومع ذلك فقد وجدت تماثيل وبعض أجزاء لتماثيل غير متكلفة الصنع تجسم فيها معالم الحياة وتتراءى فيها تجاعيد الوجه والأعضاء كما يشاهد ذلك فى تمثال أمنمحمت الثالث البديع المحفوظ بپتروغراد (شكل ٩٠) ، وفى رأس الملك المركبة على جسم أسد بشكل أبى الهول الذى عثر عليه بجهة تنيس (شكل ٨٩) ، وكذا رأس التمثال المعظم لسيزوستريس الثالث الذى وجد حديثا جهة الكرنك . كل هذه التماثيل تشهد لصانعيها بالمهارة والدقة والكفاية والصبر فى أعمالهم . والحق يقال ان هؤلاء الفنيين تمكنوا من اظهار معظم ملامح الوجه بوضوح على صلابة الأحجار . والمعلوم أنه كلما سهل نحت المادة ظهرت براعة الحفار ويشاهد ذلك فى تمثال الأمير

(١) ١ : ٦٠١ (٢) ١ : ٦٦٠ (٣) ١ : ٧٥٦

إيبْ رَعْ (شكل ٨٨) الذى يتجسم فيه جمال المحيا ولطافة المعالم الجسمية . وكثيرا ما تشاهد على جدر المحاريب بمقابر حكام الأقسام صور ملونة تمثل هؤلاء السراة ومصنوعاتهم، لكنها ليست جميلة كصور المملكة القديمة لأنها محفورة فى حين أن نقوش المملكة القديمة بارزة واضحة فوق مسطح الأحجار .

ولما كان حكام الأقسام كثيرى الشغف بالصناعات والحرف الجميلة تحسنت المصنوعات كثيرا وزاد عدد صناعها فى أنحاء البلاد[1] . وغنى عن البيان أن صناع القصر الملكى كانوا أبرع أفراد طائفتهم لأنهم تعلموا هذه الصنائع بالوراثة منذ أقدم الأسر المصرية . فالحلى الذى عثر عليه بجهة دهشور الخاص باحدى الأميرات (شكل ٩٧ و ٩٨) أظهر بلا مراء مهارة صانعه المدهشة ، لأنه حوى من الدقة وحسن الذوق ما يصعب على أمهر صاغة أوربا الاتيان بأحسن منه ، وقد تزينت به أوانس بيت أمنمحت حوالى القرن العشرين قبل الميلاد .

واستنتجنا من أدبيات الأسرة الثانية عشرة معلومات كثيرة عن ثروة القطر وأحوال المعيشة فيه ، من ذلك ما ألمعنا اليه من تشجيع الحكومة انتشار القراءة والكتابة بين الأهالى . ولما احتاج القوم الى سرعة العمل وسهولة الكتابة اختزلوا خطهم وابتكروا لذلك حروف هجاء بسيطة وصلت الينا صورها بالكيفية التى كانت تلقن للطلبة وقتئذ[2] ومنها استنتجنا شدة العناء الذى كابده هؤلاء القوم فى دراستهم . أما أسلوب الكتابة وآداب اللغة فى ذلك الوقت فقد اعتبره المصريون فى العصور التالية مثالا للبلاغة والفصاحة وقد وافقهم على ذلك جمهور الأثريين الحديثين مع ما صادفهم من المصاعب فى فهمها . وليلاحظ أن مصر هى البلد الوحيد الذى حافظ على أقدم أدبيات لغته العتيقة ، ومما يدلك على شدة عناية القوم بهذه الأدبيات اهتمامهم برواية سِنُوحى الذى فر الى سوريا بعد وفاة أمنمحت الأول ورجع كهلا الى مصر والذى حارب بآسيا وقضى بها مدة طويلة[3] ، فقد تأثر القوم كثيرا بهذه القصة فتجاذبوها فى أحاديثهم وكتبوها على قطع الأحجار وعلى شواهد القبور الحجرية تسلية للميت فى الآخرة . ومن روايات تلك العصور قصة كقصة السندباد البحرى جاء فيها أن بعض ملاحين مصريين أبحروا مرة الى الصومال فهبت عليهم عاصفة حطمت السفينة ومن فيها إلا واحدا منهم سبح على سطح الماء حتى بلغ جزيرة تحكمها أفعى ، وعاش هذا الشخص بالجزيرة مدة من الزمن فى هناء ونعيم ثم رجع ثانيا الى بلده مزودا بالهدايا والخيرات ، فأخذ يقص روايته لأهل بلده مظهرا لهم عجائب ما شاهده والتقى به[4] . ولم تسلم القصور الملكية ولا أسرها من أن تكون حوادثها مواضيع لروايات وخرافات يتسلى بها القوم كما ورد فى القصة الخاصة بتولية الأسرة الخامسة للملك[5] ، التى انتشرت كثيرا بين الخلق والتى لم نعثر على نسخة منها إلا بعد سقوط الأسرة الثانية عشرة بقرن أو قرنين تقريبا . واجتهد رجال الفضل والعلم فى اظهار فوائد آداب لغتهم ومعرفتها فألفوا الحكايات التى تبادلتها ألسنة العامة والتى أظهرت عظم تأثير الفصاحة والبيان فى بعض الأحوال ، من ذلك

---

(١) ١ : ٦٢٨ (٢) Kahun Papyri, pp. 67–70. (٣) ١ : ٤٨٦ — ٤٩٧

(٤) Unpublished papyrus in St. Petersburg ; see Golénischeff, Abh. des Berliner Orientalistenkongresses.

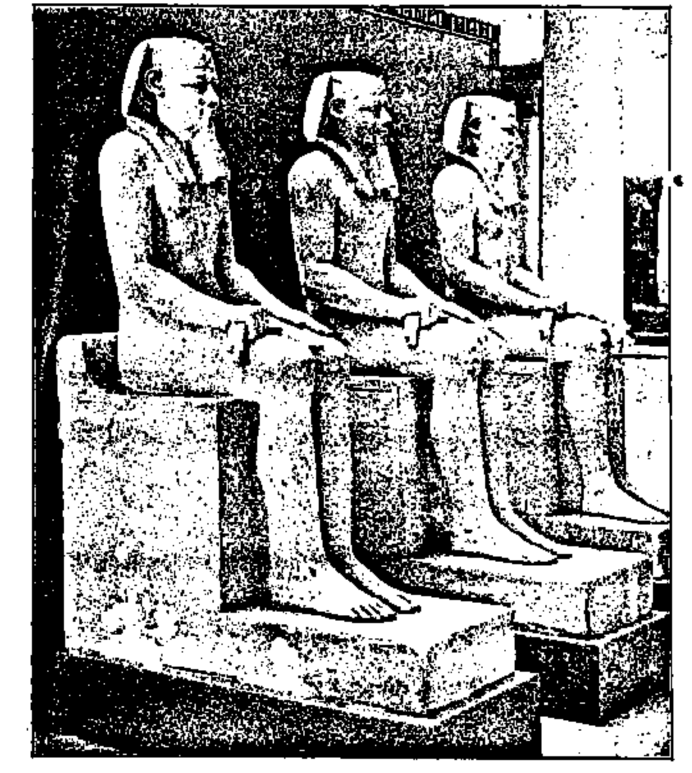
(٥) Papyrus Westcar, Berlin, P. 3033.

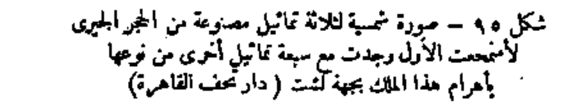


شكل ٩٣ — منظر مأخوذ لمعبد تنيس (زوان)
بالوجه البحرى فى اتجاه محوره (پترى)



شكل ٩٤ — جرقة هرم أمنمحمت الثالث بدهشور





شكل ٩٥ — صورة شمسية لثلاثة تماثيل مصنوعة من الحجر الجيرى
لأمنمحمت الأول وجدت مع سبعة تماثيل أخرى من نوعها
بأهرام هذا الملك بجهة لشت (دار تحف القاهرة)

أن أحد الفلاحين برع فى المناقشة والمجادلة شكا الى الملك موظفا حكوميا أضرّ به ، وأظهر الفلاح فى سرد دعواه من فصيح اللسان وبديع العبارات عسف ذلك الموظف، فأمر الملك باحضار الفلاح ليسمع بأذنيه فصاحة منطقه وعذب بيانه . ولم نفهم للآن الكثير من أساليب هذه القصة العويصة ولا معنى بعض النصوص الشعرية لصعوبة فهمها وسبب ذلك أننا لم نتوصل الى معرفة اللغة المصرية القديمة معرفة تامة للآن [١] . وقد ألمعنا سابقا الى نصائح أمنحتب الأول لابنه وقد تداولت الألسن والكتّاب هذه النصائح مدّة طويلة فوصل الينا منها سبع نسخ[٢] . وأصبح حب الاطلاع وممارسة العلم شغل الكثير من الناس ، كما يستدل من نصيحة رجل فى عهد الأسرة الثانية عشرة لابنه يبغضه فى الصنائع ويحبب اليه العلوم[٣] . ويستنتج اهتمام القوم وقتئذ بالعلوم من حكم الوزراء العقلاء الأقدمين مثل بتاح حوتب[٤] وقاقمنه التى حفظها لنا كتّاب المملكة الوسطى على قراطيس بردية . وورد عن أحد فلاسفة تلك العصور أنه سئم الحياة فناجى شبحه ورجاه أن ينهى حياته الدنيوية ليعيشا معا فى الآخرة فى هناء وصفاء[٥] . ووصلت الينا رواية أخرى من تلك الأزمنة جاء فيها أن ساحرا يدعى إيوور (Ipuwer) أنذر فرعون مصر بحصول اضطرابات وخلط فى المملكة يصير فيها الغنى فقيرا والفقير غنيا ، ثم يغزو البلاد قوم أجانب فينقلب النظام رأسا على عقب . وبعد ما سرد الساحر كثيرا من هذه الأخبار المحزنة قال انه سيأتى بعد ذلك رسول "يطفى نار ذلك اللهيب فيمتدحه الخلق ويعتبرونه راعيهم لسلامة قلبه . يبقى هذا الرسول يلم شعث الضال من قومه فيلتف الناس حوله ويعضدونه بكل قواهم لينجيهم من بلائهم ومصابهم ....فيدفع الضرر بذراعيه بقوة......... ثم تساءل الساحر قائلا : أين ذلك الرسول الآن ؟ هل هو ينام معنا الآن ؟"[٦] . وتعتبر هذه الرواية مثالا للنبوءة فى تلك العصور توقع فيها قائلها مجىء رسول كسيدنا داود عليه السلام ينجى الخلق من الشر الملم . ولا يبعد أن يكون القصد من هذه الحكاية القيام بمناورة من جهة البيت المالك يراد بها مدح حكمهم على لسان هذا الساحر فيذكر للناس محاسنهم ويبض صحائفهم ويلحى باللوم على الظلم الذى حل بالقطر قبل حكمهم . وأخذت أمثال هذه التنبؤات تزداد تدريجا منذ ذلك العهد حتى العهدين اليهودى والمسيحى . وتعتبر هذه القصة أقدم نبوّة معروفة للآن، ولا يبعد أنها التوراة الأصلية الجامعة لتنبؤات رسل العبرانيين المعروفة حسنوها وصاغوها بأسلوب أمتن .

وتمتاز كتابة ذلك العصر بكثرة شبهها بالأساليب الشعرية حتى صعب علينا التمييز بين شعرها ونثرها ، فالحكايات المدونة سابقا أساليبها الى الشعر أقرب منها الى النثر، وقد استنتج من نقوش عامية عديدة أنها شعرية الأسلوب، مثال ذلك الأنشودة التى ترنم بها القوم وقت حصد غلالهم وسوق البهائم، وهناك أناشيد أخرى تشبهها كان الصناع مغرمين بتلاوتها . وقد وصلتنا أنشودة كان يترنم بها لاعب

---

(١) Berlin Papyrus 3023 and 3025.
(٢) ١ : ٤٧٤ ملاحظة
(٣) Pap. Sallier II.
(٤) Pap. Prisse.
(٥) Berlin Papyrus 3024.
(٦) Leyden Papyrus I, 344; see Lange, Sitzungsber. der Berliner Akad., XXVII, 601-610.

القيثارة فى ولائم الوجهاء كلها تشجيع وتحميس للفرح والسرور قبل حلول اليوم السيئ الطالع الذى يتمنى فيه الأجل المحتوم والذى ينتقل بعده الانسان من هذا العالم الى العالم المظلم الأخروى (شكل ٩٦) واليك ترجمة هذه الأنشودة :

" ما أسعدك أيها الأمير ! لعلك تعلم أن هذه الحياة محتم عليها الفناء ، فالأجساد تموت وتتهدم ثم يأتى بعدها آخرون يحلون محلها ،

" انظر الى الآلهة (أى الفراعنة) الموجودة فى الأهرام من قديم الزمان ، والى الأمراء والحكماء الذين دفنوا فيها ، تجدهم مطروحين فى ألحادهم . (ولا غرابة) فكل من شـيد منزلا (قبرا) زال أثره من الوجود ؛

" استمع لى فسأخبرك بمـا آل اليه أمر هؤلاء القوم . لقـد سمعت حكم إمحتب وحرزوزف الذائعة الصيت ، ولكن أين هما الآن ؟ لقد تحطمت بيوتهم ، وانعدمت آثارهم ، فلا خبر يأتينا من ناحيتهم ينبئنا عنهم ، ويطمئن قلوبنا قبل أن ترحل الى ذلك المكان .

" تناس تلك الأمور واصرف همك فيما ينفعك . اعمل كل ما تطلبه نفسك ، عطر رأسك بالمر ، واكس نفسك بالكتان الجميل المعطر بالروائح الذكية المقدسـة . وأكثر من الفرح والسرور حتى لا يحزن قلبك .

" اتبع شهواتك ومسراتك ، وسير الأمور كما تشتهيها ، حتى يأتيك يوم الحزن وهو اليوم الذى لا يسمع فيه قلبك الساكن ما يدور حوله من النحيب .

" البكاء لا يعيد لميت الحياة . فتنعم اذن فى هذا اليوم الجزل ! ولا تهمله يذهب سدى ! فلا أحد يأخذ من الدنيا شيئا معه ، كما أنه لم يرجع الى هذه الدار من ذهب الى الدار الآخرة " .

وأقدم قصيدة للمديح تجسم فيهـا الأساليب الشعرية والأدبيـات اللغوية هى التى قيلت فى سيزوستريس الثالث وهى مقسمة الى ستة أقسام واليك ترجمة قسم منها :

" أنت عظيم ! أنت عظيم ! يا مليك مدينتـه ! لقد فقت سواك بملايين الأذرع . أنت بين حكامنا الآدميين كسيد بنى الرعية !

" أنت عظيم ! أنت عظيم ! يا مليك مدينته ! أنت كالسد العظيم الحاجز لتيار الفيضان .

" أنت عظيم ! أنت عظيم ! يا مليك مدينته ! أنت الملجأ الذى يستريح فيه الانسان حتى يسطع ضوء النهار !

" أنت عظيم ! أنت عظيم ! يا مليك مدينته ! أنت كالحصن المشيد جدره من أحجـار حادة من مدينة قسيم !

" أنت عظيم ! أنت عظيم ! يا مليك مدينته ! أنت مأوى اللاجئين اليك من عبث قطاع الطريق !

" أنت عظيم ! أنت عظيم ! يا مليك مدينته ! أنت حامى الضعيف الخائف من عدوه القوى !

" أنت عظيم ! أنت عظيم ! يا مليك مدينته ! أنت مظلة القيظ وخضرة النيل فى فصل الحصيد !

" أنت عظيم ! أنت عظيم ! يا مليك مدينته ! أنت الركن الدافئ الجاف فى زمن الشتاء !

" أنت عظيم ! أنت عظيم ! يا مليك مدينته ! أنت الصخر الحامى من ويلات العواصف !

" أنت عظيم ! أنت عظيم ! يا مليك مدينته ! أنت فى الشدّة كالمعبود سخمتْ ضد من يطأ أرضك !"

والمظنون أن قصة أزوريس وما حوته من الأخبار المؤثرة أثارت عواطف الأهالى وأقلام الكتّاب وألسنة القوم ، لكننا لم نهتد مع مزيد الأسف الى المعلومات الكافية عن هذه القصة المؤثرة المعتبرة أقدم قصة من نوعها معروفة فى التاريخ .

ويمتاز عهد المملكة الوسطى بجهلنا بمشاهير رجاله مع كثرة ما وصل الينا من مصنوعاتهم وأدبياتهم ، وجل ما وصل الينا بعض أخبار خاصة عن أفراد قلائل اشتهروا بين قومهم بالحكم والآداب . وتمتاز أدبيات هـذه العصور بكثرة تخيلاتها ورشاقة أساليبها ، فقد بلغت درجة فاقت فيها كثيرا ما بلغته اللغة فى أى عهد لمدّة خمسمائة سنة أى منذ سقوط المملكة القديمة (حيث كانت الأدبيات وقتئذ فى بدايتها) ، ولكنها لم تكن مرتبطة المعانى والأساليب . ويظن أنه لو عاشت قصة أزوريس لغيرت كثيرا من استنتاجنا هذا .

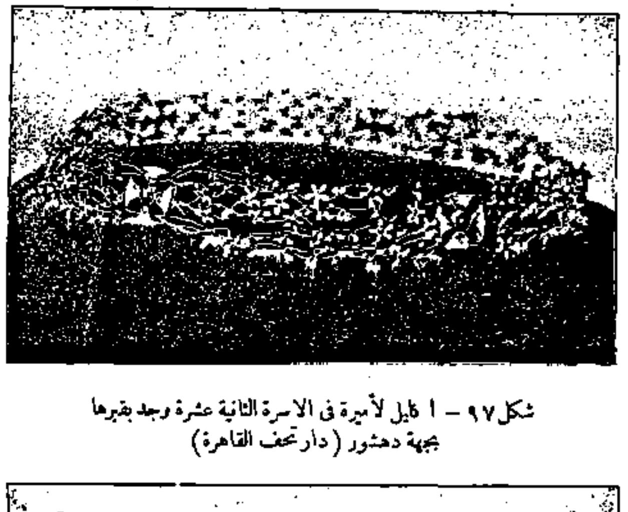
لا شك أن القارئ عرف مما أوردناه سابقا أن المملكة المصرية بلغت درجة رفيعة من حيث القوة والثروة والانتاج أيام أمنمحعت الثالث . زد على ذلك أن عصر هـذا الملك اعتبر أرقى عهد للآداب ، والمعروف أن شمس هذا العهد أخذت تبزغ على القطر منذ حكم أول ملوك الأسرة الثانية عشرة . واستمر أمنمحعت الثالث فى كفاحه السياسى حتى آخر أيامه ، فأتم بنـاء خزان المياه جهة صربوت الخادم بطورسيناء وكذا بناء سور مدينة الكاب فى السـنة الرابعة والأربعين من حكمه ، لكنه لـما توفى عام ١٨٠١ قبل الميلاد أخذت قوة هـذه الأسرة تضعف ، وقد أوّل بعض الأثريين هـذا الضعف الادارى بتبكير وفاة ابنه الذى شاركه فى الحكم فى آخر أيامه ، وقد عثر على قبر بجوار هرم أمنمحعت الثالث شيد لأمير شاب يدعى إوِيْبْرَعْ كتب اسمه داخل خانة ملكية (شكل ٨٨) ، لكن يلاحظ أن هذا الاسم لا يشابه أسماء ملوك الأسرة الثانية عشرة ، وأن ملكا بهذا الاسم ورد ذكره ضمن درج تورين البردى يرجع تاريخه الى الأسرة الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة ، ولذلك لا يزال مركز هذا الأمير التاريخى مجهولا .

وتوفى أمنمحعت الثالث فتبعه فى الملك أمنمحمت الرابع وكان شريكا له فى الحكم مدّة قصيرة قبل الوفاة . لكن هذا الملك لم يدم طويلا فقد توفى بعد تسع سنوات لم يترك فيها سوى بعض آثار صغيرة استدل منها على اضمحلال وتقهقر المملكة وقتئذ بعد ما حافظت على رقيها وعزها مدّة مائتى سنة تقريبا . ولم يترك أمنمحعت الرابع وريثا للملك ولذلك تبعته فى الملك أخته سبك نفرو رَعْ التى سماها مانيتو سكميوفريس (Skemiophris) والتى توفيت بعد ما حكمت أربع سنوات .

من هذا يتضح أن الأسرة الثانية عشرة حكمت القطر المصرى مدّة مائتين وثلاث عشرة سـنة وشهر واحد و بضعة أيام .



شكل ٩٦ – تيثارى يعزف للدعوين (دار تحف ليدن)



شكل ٩٧ – ا كليل لأميرة فى الاسرة الثانية عشرة وجد بقبرها بجهة دهشور (دار تحف القاهرة)

شكل ٩٨ – ا كليل لـ ميرة من الا سرة الثانية عشرة وجد بقبرها بجهة دهشور (دار تحف القاهرة)

الكتاب الرابع

الهيكسوس : بزوغ شمس الامبراطورية المصرية

الفصل الحادى عشر

انهيار صرح المملكة الوسطى ، الهيكسوس

كان انتقال الحكم من الأسرة الثانية عشرة الى الأسرة الثالثة عشرة هادئا . وأول ملوك الأسرة الثالثة عشرة هو سِخِمْ رَعْ خُوتَاوِى ، وكانت مملكته ممتدة من الدلتا شمالا الى الشلال الثانى جنوبا(١) . ووجدت باقليم الشلال الثانى نقوش لمقاسات مياه النيل فى الأربع السنين الأولى لحكم هذا الملك (٢) وعلمنا أيضا أن قلعة تلك الجهة قامت عليها حامية(٣) وأن رسوم وضرائب الأملاك جمعت من الوجه البحرى كالمعتاد(٤) . لكن هـذه الحال لم تدم طويلا لأن خلفاء هـذا الملك كانوا أقل همة وكياسة من ملوك الأسرة الثانية عشرة، لكنهم مع ذلك نسبوا أنفسهم اليهم وسموا بأسمائهم . والظاهر أن الملك انتقل وراثيا بين يدى الملوك الأربعة الأول لهـذه الأسرة ، وبعد ذلك اغتصبه المدعو يوفنى (Yufni) كما ورد فى درج تورين البردى . وهذه الرواية كثيرة الاحتمال لأن هذا الاسم ضعيف الشبه بأسماء ملوك الأسرة الثالثة عشرة الأول وبالأسماء الملكية المعتادة ، فاتضح لنا أن هذا الغاصب تغلب على صاحب الحق الملكى وقتئذ وهو أمر كثير الحصول فى الشرق على اختلاف العصور .

على أثر ذلك عمت الفوضى فى البلاد وقامت المنازعات الشخصية بين حكام الأقسـام رغبة فى الملك والجاه ، فنجح بعضهم أحيانا ونحل لنفسه الألقاب الفرعونية لكنه لم يمكث طويلا فكان يتبعه شخص آخر . ومن هؤلاء الملوك اثـنان يسميان سِبِكِمْسَافْ شيدا لأنفسهما هرمين صغيرين بطيبه ، وقد ذكر أحد هـذين الهرمين فى نصوص الرمسيسيين حيث ورد أنه فتش فوجد مسروقا وذلك بعد وفاة صاحبه بخمسمائة سنة تقريبا(٥) . وحقق أمر هـذه السرقة وقتئذ وألقى القبض على اللصوص فأقر هؤلاء بجريمتهم وأوضحوا كيفية سلبهم لحلى جثة الملك وجثة الملكة المدعوة نوب خاس وكيفية الاستيلاء على الأحجبة والأحجار الكريمة بهما(٦) . واستدل من أوراق التحقيق أن بعض ملوك الأسرة الثالثة عشرة اتخذ طيبه مقرا للحكم وأنهم كانوا طيبيين فى الأصل . وجاء أيضا أن أحد الغاصبين المدعو نِفِرْحوتِب عزل أحد الملوك الملقبين باسم سِبِك حوتِب وتبوأ الملك محله وأعلن هذا الأمر جهارا وسجله على الآثار ذاكرا اسم والديه غير المنتمين للبيت المـالك(٧) ، وترك أيضا نصوصا على أثر بالعرابة أشار فيها الى عنايته العظيمة بمعبد أزوريس وبالمدينة نفسها(٨) ،

---

(١) ١ : ٧٥١ (٢) ١ : ٧٥١ – ٢ (٣) ١ : ٧٥٢ (٤) Kahun Papyri pl. IX. l. 1; p. 86.
(٥) ٤ : ٥١٧ (٦) ٤ : ٥٣٨ (٧) ١ : ٥٧٣ (٨) ١ : ٧٥٣ – ٧٧٢

لكن هذا الملك لم يحكم سوى احدى عشرة سنة ثم توفى فتبعه فى الملك ابنه المدعو مى حاتحور [١] وهذا لم يدم طويلا لأنه ترك عرشه لعمه المدعو نِفِرْخَارَعْ سِبك حُوتِبْ أكبر ملوك هذه الأسرة . ومما جاء عن هـذا الملك أنه مدّ حدود مملكته الجنوبية الى جزيرة أرجو جهة الشلال الثالث وقد ظهر لنا الآن أن هذا خطأ لأن تمثال هذا الملك الذى وجد بجهة أرجو والذى يمثله بحجمه الطبيعى نقله الى تلك الجهة ملك نوبى أتى بعده . وعلى كل فحكم هذا الملك كان مقرونا بالرخاء والرقى بالنسبة لأحكام سائر ملوك الأسرة الثالثة عشرة الآخرين .

بعد ذلك أتى عهد امتاز بقلة أخباره ومعلوماته يظهر أن أحوال البلاد الداخلية كانت فى أثنائه سيئة للغاية ، ويظن أن أحد النوبيين استولى وقتئذ على عرش المملكة المصرية . وبصرف النظر عن قيمة هـذا القول من الصواب فقد كتب هذا النوبى كلمة نحسى التى تعنى " الزنجى " داخل خانة ملكية اشارة الى نفسه . وورد أيضا اسم ملك آخر من تلك العصور لقبـه مرمشو (Mermesho) أى أمير الجيش ، اعتـلى العرش وكان على ما يظهر قائدا للجيش ثم اغتصب الملك بقوته وسركزه الحربى . وفى ذلك الوقت عمت الفوضى فى البلاد وساد سوء النظام فيها فانقسم القطر الى عدة أقسام صـغيرة مستقلة أكبرها جنوبا قسم طيبه . وقد اهتدينا الى أمر ملكى لأحد ملوك ثلاثة مدعوين باسم إِنْتِف ولقبه نوبْ خِبْرو رع إِنْتِف ، جاء فيـه أنه عزل حاكم مدينة قفط لثبوت خيانته للملكة . ويعتبر هذا دليلا ساطعا على سوء أحوال البلاد الداخلية وقتئذ [٢] . ومما قاله الملك فى أمر هذا العزل " ان كل ملك أو حاكم يتولى ادارة القطر المصرى يستحق اللعنة اذا أظهر شفقة أو عطفا نحو أى خائن لبلاده ". ووجد فى طيبه هرمان لاثنين من الملوك ملقبين إنتف بقيا الى عهد الأسرة العشرين ، وورد عنهما فى الآثار الرمسيسية أن أحد الهرمين سرقته اللصوص وتوصلوا الى دخوله بحفر نفق أرضى [٣] . ولا تحوى الآثار المصرية الا النادر من الأسماء الملكية الكثيرة التابعة للأسرة الثالثة عشرة الوارد ذكرها ضمن قرطاس تورين البردى . وأغلب آثار هؤلاء الملوك عمارات صغيرة أو تماثيل أو جعل حقيرة ، ويرجع ذلك الى عدم وفرة القوة والمـال والوقت الكافى للقيام بالآثار الخالدة . ولا غرابة فى ذلك فقد كان الملوك يتبدلون بسرعة حتى اسـتحال على أحدهم اقامة آثار كبيرة أو كثيرة تستنتج منها بعض المعلومات عن سلطان البلاد وقوتها وادارتها وقتئذ . والدليل الوحيد لتاريخ هؤلاء الملوك هو درج تورين البردى المذكور وهو عبارة عن قرطاس ممزق لا نستطيع أن نحكم بصحة ترتيب أجزائه ولا بعلاقة تلك الأجزاء بعضها ببعض اللهم الا فيما يتعلق بأسمـاء ملوك واردة على قطعة سليمة منه . وتتراوح مدّة حكم كل ملك من ملوك هذه الأسرة بين سنة وثلاث سنوات وقد قصرت أحيانا فبلغت يومين أو ثلاثة . أما مجموع هؤلاء الملوك فمائة وثمانية عشر ملكا ومجموع مدد حكمهم نحو مائة وخمسين سنة . وربمـا شبهنا هذه الحال تماما بحال مصر فى عهد الخلفاء العباسيين لمـا بلغ عددهم سبعة وسبعين خليفة فى مدّة مائة وثمانى عشرة سنة (من عام ٧٥٠ الى عام ٨٦٨ ميلادية).

(1) Turin Papy. Frag. No. 0; Petrie, Scarabs, No. 309

(٢) ١ : ٧٧٣ — ٧٨٠ (٣) ٤ : ٥١٤ ملاحظة

وقد انتابت أوربا مثل هـذه العصور بعد وفاة الامبراطور كومودس (Commodus) حيث ولى الحكم رجال حربيون بلغ عددهم ثمانين فى مدى تسعين سنة تقريبا[١] . أما مانيتو فلم يعلم شيئا عن ذلك العصر بالمرة ولذلك لم يذكر لنا الا جدولا بأسماء ملوكه مقسما قسمين، قسم يشمل ملوك الأسرة الثالثة عشرة وعاصمة ملكهم طيبه ، وقسم يشمل ملوك الأسرة الرابعة عشرة وعاصمة ملكهم سخا (Xois) . وبديهى أن حال القطر الاقتصادية تدهورت كثيرا فى تلك العصور ، فبعد ما كان نظام الرى ينفذ فى أنحاء البلاد تحت إشراف ديوان الملك انعدم نظامه واضطربت أموره فقلت الحاصلات والمصنوعات . ثم عمد حكام الأقسام الى استعمال الشدة والظلم مع قومهم ففرضوا عليهم الضرائب والرسوم الباهظة وجمعوها بقسوة وأثقلوا كاهلهم بها ، فجاءت هذه الاجراءات هادمة لنهضة البلاد ورخائها اللذين كانا موضع عناية بيت أمنمحعت فى مدى مائتى سنة تقريبا . ومن أعظم الأدلة على شدة الفوضى وقتئذ عدم عثورنا على آثار تشير الى أحوال ذلك الزمان كما حصل تماما لمصر وقت حكم المماليك المصحوب بالبؤس والشقاء .

ولما تضعضعت القوة الحاكمة أخذت تتضاءل تدريجا وصار القطر فى حال فظيعة من اليأس والضعف سهل على الأجنبى الاستيلاء عليه واغتصابه . وقد حصل هذا فعلا عام ١٦٧٥ قبل الميلاد فى أواخر أيام الأسرة الثالثة عشرة ، فقد غزا مصر قوم ساميون من آسيا دخلوا الوجه البحرى واستوطنوه ووطدوا فيه نفوذهم ،وهذا الغزو كثير الشبه بما حصل للبلاد سابقا قبل حكم الأسر . ونشر الغزاة لغتهم الخاصة بين المصريين ، وتكرر هذا الغزو أيام العرب لما دخلوا القطر المصرى فى بداية الاسلام . أما الغزاة الذين نحن الآن بصددهم فهم قوم عرفوا بالهيكسوس (كما ذكر چوسفس نقلا عن مانيتو) ولم يترك هؤلاء القوم بعدهم فى مصر الا آثارا يسيرة صعب على الأثريين الاستدلال منها على شىء حتى على الوطن الأصلى لهؤلاء الغزاة ومدة حكمهم وكيفية سيادتهم . والسبب فى جهلنا هذا هو قلة مراجعنا الأثرية كما يتضح للقارئ من هذا الفصل الذى لا يكاد يكون سوى مجموعة ملاحظات فقط . أما رواية مانيتو عن هؤلاء القوم (التى حفظها لنا چوسفس) فتعتبر الآن من الحكايات المسلية التى لا كنها الألسن وليست من حقائق التاريخ فى شىء ولذلك لا تصلح أن تعتبر مرجعا علميا تبنى عليه معارفنا التاريخية ، وهى مع ذلك تحوى الكثير من الخرافات والغلو كما يشاهد فى الرواية الواردة عن كيفية تبوؤ الأسرة الخامسة لعرش مصر وسقوط الأسرة الرابعة السابقة الذكر[٢] . لذلك تحتم علينا أن نبدأ أولا بالبحث فى الآثار اليسيرة التى يرجع تاريخها الى ما قبل عهد مانيتو والى الآثار المعاصرة للهيكسوس ، فمن هذه ما ورد على الآثار بعد خروج الهيكسوس بجيلين أن الملكة حتشبسوت أصلحت ما أتلفه هؤلاء الغاصبون واليك ترجمة ذلك : " لقد أصلحت التلف وأكملت الناقص بعد ما كانت البلاد تئن تحت حكم الأسيويين لأهالى البلاد الشمالية فى عاصمتهم أَوَارِيسْ بالدلتا ، فقد أتلف هؤلاء القوم الآثار الجيدة عن جهل منهم بمعرفة سلطة المعبود رع "[٣] .

(١) Meyer. Aeg. Chron, p. 62. (٢) Infra, pp. 122-3. (٣) ٣٠٣ : ٢

وهناك رواية أقدم من هـذه قصها أحد القواد المصريين الذين طردوا الهيكسوس استدل منها على أن المصريين اضطروا أن يحاصروا عدوهم فى مدينة أواريس[١] وأن يقتفوا أثره جنوبى فلسطين[٢] حتى بلاد فينيقيا أو سيلسريا (Cœlesyria)[٣] . وبعد أربعمائة سنة من هذا التاريخ انتشرت رواية الهيكسوس بين القوم فجاء فيها السبب الذى أدى فى آخر الأمر الى طرد الهيكسوس[٤] واليك ترجمتها :

" وأصبح القطر المصرى فى أيدى قوم قذرين غاصبين ، وتعذر على المصريين أن يملكوا على أنفسهم أحدا منهم . وكان فى ذاك الوقت الملك سكنيزع يحكم قسم طيبه الجنوبى . . . . والملك أبوفيس الهيكسوسى يحكم جميع القطر من أواريس ويجمع الجزية من سائر الأقسام ومن الحاصلات والخيرات التى أنتجها أراضى الوجهين القبلى والبحرى ، واتخذ الملك أبوفيس المعبود سوتخ إلها دون معبودات القطر كلها وشيد له معبدا جميلا ثابتا . . . . الخ "[٥] .

يتضح لنا من هذه الرواية القديمة أن الهيكسوس قوم أسيويون حكموا مصر واتخذوا أواريس (هوارة) عاصمة لهم . واليك ترجمة رواية مانيتو التى أوردها جوسفس عن هؤلاء الهيكسوس وهى تطابق بوجه عام المعلومات الأثرية الثابتة السابقة الذكر :

كان القطر المصرى محكوما فى وقت من الأوقات بملك يدعى تيمايوس (Timaios) فى عهده غضب الإله على مصر لسبب أجهله فلم يمنحه رضاه . فأتى الى القطر على غير انتظار قوم شرقيون وضيعون فاجأوا أهله بالاغارة عليهم واستولوا على الوجه البحرى بلا معارضة كبيرة لأن أهل مصر كانوا وقتئذ فى ثورة وهيجان . ولما أخضع هؤلاء الغزاة حكامنا العظام عبثوا بالبلاد وبغوا وطغوا فأحرقوا المدن وهدّموا المعابد واستعملوا أفظع طرق الشدّة مع الوطنيين فقتلوا منهم البعض وأسروا الأطفال والنساء . وبعد انقضاء الحرب ملكوا عليهم رئيسا منهم يدعى سلاطيس اتخذ مدينة منف مقرا له ونظم الحكومة وحسن الادارة ومهد الأحكام وضرب الجزية على من بقى من المصريين تحت حكمه فى الوجه القبلى والبحرى ووزع القوات الحربية على البلاد حتى لا تثور عليه . وكان هذا الملك يخشى على حكمه من الأشوريين الذين كانوا أقوى الأمم وقتئذ ، نخاف أن يتطلع هؤلاء القوم الى مصر ويضموها الى أملاكهم ، ولذلك شيد القلاع وأقام الحصون فى الجهات المنتظر الاغارة منها . ثم فكر فى أمره فوجد مدينة فى شرق النيل بجوار تل بسطه سماها هوارة (أواريس) لأسباب دينية فجدد بناءها وحصنها بأسوار قوية منيعة من جهاتها وجعل فيها حامية مؤلفة من مائتين وأربعين ألف جندى . وكان سلاطيس هذا يذهب الى المدينة المذكورة فى صيف كل سنة ليجمع الحبوب ويدفع مرتبات جنده ويمرن قواته على الحركات الحربية حتى يرهب الأجانب "[٦] .

ولا يخفى أن هذه الرواية تحوى كثيرا من المبالغات كالاشارة الى أهل العراق وكبر حامية أواريس ، لكنها على العموم تشمل بعض الحقائق . ويستنتج منها أن الأهالى وقت تلاوتها كانوا يجهلون الهيكسوس فقد أورد جوسفس عن مانيتو ما ترجمته :

(١) ٢ : ٨ — ١٠ ، ١٢ (٢) ٢ : ١٣ (٣) ٢ : ٢٠
(٤) ورقه سالير (١) (٥) Pap. Sallier I. I, II. 1-3. (٦) Contra Apion I, 14.



شكل ٩٩ — العثور على تمثال الملك تهرخارع سبكحوتب بجزيرة آركو أعلى الشلال الثالث بواسطة بعثة جامعة شيكاجو العلمية (سنة ١٩٠٧ ميلادية) . ويشاهد التمثال فى الجزء الايمن للرسم



شكل ١٠٠ — صورة شمسية لمومياء ملك يقال له سكننرع مصابة بكسر بالجمجمة (دار تحف القاهرة)



شكل ١٠١ — الجزء الأسفل من تمثال مصنوع من الجرانيت يمثل الملك خيان جالسا . وجد بجهة تل بسطه

" وكان يقال لهؤلاء الغاصبين هيكسوس — ومعناها ملوك الرعاة — لأن الجزء الأول من هذه الكلمة وهو "هيك" معناه بالقلم البربائى ملك ، أما "سوس" فلفظ فى اللغة الدارجة معناه الراعى". وروى البعض أنهم عرب .

ويتضح أن مانيتو قصد بالهيكسوس الفينيقيين ، لكننا اذا رجعنا الى اسم الهيكسوس أيام المملكة الوسطى وفى عهد الهيكسوس لا نجد ما يشير الى معنى ملوك الرعاة. زد على ذلك أن مانيتو قال ان كلمة "سوس" معناها بالعامية فى زمنه رعاة، والحقيقة أنه لا يوجد فى اللغة المصرية القديمة كلها كلمة كهذه بالمعنى المذكور . أما لفظ حِقْ فمعناها باللغة البربائية الحاكم أو الملك وقد ذكرها الفراعنة بهذا المعنى كثيرا كما قال مانيتو . والمعروف أن خِيَانْ أحد ملوك الهيكسوس لقب نفسه "بحاكم البلاد". وبناء عليه لا يبعد أن تكون كلمة "سوس" محرفة عن الكلمة البربائية التى معناها "الأراضى" ، وحينئذ يكون "هيكسوس" تعبير مصرى قديم حرفه اليونانيون ومعناه الأصلى "حاكم الأراضى" .

ودلتنا الآثار التى يرجع تاريخها الى عهد الهيكسوس على بعض من أخلاق وخصال هؤلاء الأجانب سواء أكانوا عربا أم فينيقيين، وقد وصفتهم الآثار بأنهم "أسيويون" "وبرابرة" "وحكام الأراضى" . ويوجد بدار التحف بالقاهرة مذبح صغير للملك أبوفيس الهيكسوسى عليه نقوش معناها " لقد صنع (أى أبوفيس) هذا الأثر لأبيه سُوتِخْ سيد أواريس (هوارة) لما جعل سوتخ البلاد كلها (خاضعة) تحت قدميه (أى قدمى أبوفيس) "[1] . ويظهر من عموم هذا التعبير أن أبوفيس المذكور حكم عدة بلاد علاوة على القطر المصرى . وأغرب من هذا آثار أكبر ملوك الهيكسوس المدعو خيان التى وجدت فى أنحاء القطر كلها من جبلين جنوبا الى أقاصى الدلتا شمالا وفى جزيرة كريت أيضا حيث وجد المستر إيڤانس[2] تحت جدار يونانى فى سراى كُنوسوس غطاء لإناء من المرمر منقوش عليه اسمه . وعثر أيضا منذ عدة سنوات على تمثال لأسد جرانيتى بجهة بغداد منقوش على صدره اسم خيان محفوظ الآن بدار التحف بلندره . ومن ألقاب هذا الملك " محتضن الأراضى " " وحاكم الأقطار " وقد وجد هذا اللقب الأخير على الآثار والجعل وغيرها . وعثر أيضا فى أثناء الحفر بجنوبى فلسطين على جعل للملوك الهيكسوس . ومن هذا استنتج أن امبراطورية الهيكسوس كانت ضخمة مترامية الأطراف ممتدة الجوانب من الفرات الى الشلال الأول ، ومع هذا فان آثار هذه المملكة تكاد تكون معدومة فى الوقت الحاضر. على أن آثار أواريس التى كانت عاصمة هذه المملكة بالوجه البحرى عفت وبليت كما بليت معظم آثار الدلتا وللآن لم نعرف مكان هذه العاصمة بالضبط. ولا غرابة فى ذلك فقد كان لدى المصريين من الأسباب ما يسوغ محق آثار الهيكسوس المبغضين بالاجماع . واذا راعينا كل هذه الأحوال أمكننا معرفة السر فى اختيار ملوك الرعاة العاصمة أواريس قاعدة لحكمهم بشرق الدلتا بدلا من اختيارهم مدينة وسط القطر المصرى. والسبب فى اختيار أواريس عاصمة لهم هو قربها من آسيا التى كانت تحت حكم الهيكسوس أيضا .

(1) Mar. mon. div., 38.
(2) Annual of British School at Athens, VII, 65, Fig. 21.

ومما يدل على استنتاجنا هذا أن الهيكسوس لما طردهم المصريون من القطر ذهبوا الى آسيا ومكثوا بفلسطين مدّة ست سنوات قاوموا فى أثنائها هجوم المصريين كما روته الآثار[1] ، ولما هزم هؤلاء الرعاة فى جنوبى فلسطين تقهقروا شمالا الى سوريا ، ولا يخفى أن نظام هذا التقهقر التدريجى يشير تماما الى امتداد حكم الهيكسوس الى فلسطين وسوريا .

من ذلك يتضح أن معرفة وطن امبراطورية الهيكسوس وأصلهم وأخلاقهم ليس صعبا اذ الغالب أن رواية مانيتو أن هؤلاء القوم فينيقيون صحيحة[2] . والثابت أن أهالى بلاد العرب كثيرا ما هاجروا الى سوريا ، ولذلك لا يبعد أن هذين القطرين اتحدا بعد مجهودات حربية تحت ادارة حاكم قوى وكوّنا مملكة واحدة . وقد ألمعنا سابقا الى أن السوريين الذين أتوا الى القطر المصرى أيام الأسرة الثانية عشرة كانوا متمدينين راقين[3] كما أن حروب الفراعنة فى سوريا بعد طرد الهيكسوس من مصر أثبتت وجود حضارة عظيمة هناك ، والظاهر أن انهيار صرح امبراطورية الهيكسوس العظيمة ترك بعض تأثيراته فى أهالى فلسطين وسوريا استمرت عدّة أجيال بعد بسط النفوذ المصرى عليها ولذلك نجد بين أخبار حروب مصر بتلك الجهات بعض معلومات عن امبراطورية الهيكسوس التى تضعضعت .

ومعلوماتنا عن سوريا فى خلال جيلين بعد طرد الهيكسوس من مصر يسيرة للغاية ، لكنه يستدل من أخبار حروب تحوتمس الثالث التى استمرت مدّة فى سوريا أن ملك كَدِش على نهر الأورونط (العاصى) كان الملك السورى الوحيد المسيطر على امارات سوريا وفلسطين وقتئذ ، وأن اخضاع كدش كان من أصعب الأمور على تحوتمس الثالث فقد تطلب منه عشر سنوات تقريبا أمضاها فى الكفاح المستمر حتى تمكن من كسر شوكة تلك المملكة الأسيوية . ومما جاء عن كدش أنها شقت عصا الطاعة مرة ثانية على تحوتمس الثالث واضطر أن يخضعها ثانية ، وأخيرا أجبرته فى السنة العشرين من حكمه أن يذهب شخصيا الى سوريا ليقضى على قوة كدش القضاء المبرم فلا تقوم لها قائمة بعده . واستدل من أخبار تحوتمس الثالث الأسيوية أن كدش كانت صاحبة السلطة والنفوذ على كثير من امارات سوريا وفلسطين . ومن رأيى أن هذه المدينة (كدش) كانت فى الحقيقة نواة امبراطورية الهيكسوس التى أبادها تحوتمس الثالث بذكائه وقدرته الحربية الفائقة ، ولذلك اعتبر القوم تحوتمس الثالث ساحق الهيكسوس وطاردهم من مصر ، وقد نعته مانيتو بمخلص وطنه وشبهه فى ذلك بـ (Misphragmouthosis) . ويستنتج من رواية مانيتو ومن أخبار سوريا وفلسطين بعدئذ أن امبراطورية الهيكسوس سامية الأصل ، وقد عثر على جعل لفرعون من عهد الهيكسوس منقوش عليه اسم يعقوب حرّ (يعقوب آل) اشارة الى احتمال تبوء أحد رؤساء بنى اسرائيل الملك فى تلك العصور الغامضة ، وهذا الأمر يتناسب مع احتمال دخول بنى اسرائيل مصر وقتئذ . واذا صح هذا الاستنتاج كان عبرانيو مصر عربا تابعين لسلطة كدش أو امبراطورية الهيكسوس . ولا يبعد أن يكون وجود هؤلاء العرب بمصر سببا فى تلقيب تلك الامبراطورية

(1) ٢ : ١٣ (2) لكن راجع Meyer, Aeg. Chron., pp. 95 ff. (3) راجع صفحة ١٢١

"دولة الرعاة" مما جعل مانيتو يخطئ فى تفسير معنى الجزء الأخير من كلمة "هيكسوس" . ولا يبعد أيضا أن تكون نظرية چوسفس القائلة بأن بنى اسرائيل قوم من الهيكسوس فيها شىء من الحقيقة وان لم تكن هناك أدلة على صحة ذلك . وعلى أى حال فالحكم فى هذا سابق لأوانه لضعف البراهين الموجودة وقلة المعلومات التى لدينا الآن .

وتنحصر معلوماتنا عن أخبار الهيكسوس فى أثناء مكثهم بالقطر المصرى فيما ورد ضمن آثار حكام أقسام مصر وقتئذ ممن استوطنوا جهة طيبه والوجه البحرى عموما ، لكنه يستدل من رواية مانيتو ومن الحكاية العامية القديمة التى سبق الكلام عليها أن الهيكسوس فرضوا الجزية على أنحاء القطر المصرى كله ،وقد عثرنا على بعض آثار للهيكسوس جهة جبلين باقليم الشلال الأول ، ولذلك لا يبعد أن دخول الهيكسوس الى مصر كان تدريجيا أشبه شىء بهجرة غير مصحوبة بحروب أو منازعات . وكان ملك الهيكسوس وقتئذ يدعى خِتْرْ وقد ولى وزيره المدعو إنْخُو حاكما على مصر يدير أمورها وينظم معابدها[1] ، ولما كان هذا الوزير معاصرا لنفرْ حُوتِب وللملوك المصريين الملقبين سِبِكْ حُوتِب يرجح أن سلطة الهيكسوس لم تزدد على مصر الا بعد حكم هؤلاء الفراعنة بقليل .

وقد وردت على الآثار المعاصرة للهيكسوس أسماء ثلاثة ملوك منهم يقال لهم أبوفيس وملك رابع يقال له خِيَانْ (شكل ١٠١) وآخر يدعى خِتْرْ وغيره يعقوب حرْ لكننا لم نهتد فى الآثار الا على اسم خِيَانْ — ويقال له أحيانا أيان — وكذا اسم أبو فيس . والأسماء الستة المذكورة للستة الملوك هى التى نقلها چوسفس عن مانيتو . وجاء فى الورقة الحسابية بدار التحف الانجليزية تاريخ وحيد لتلك العصور يشير الى السنة الثالثة والثلاثين من حكم ملك يقال له أبو فيس . أما رواية مانيتو التى قسمت حكم ذلك العصر الى ثلاث أسر (الأسرة الخامسة عشرة والسادسة عشرة والسابعة عشرة) فلم نجد على الاثار ما يثبت صحتها ولا طول مدتها . والغالب أن حكم الهيكسوس لم تزد مدته على مائة سنة فى مصر . والقول بأن مدة هذا الحكم أطول من ذلك لا يطيل المدة بين سقوط الأسرة الثانية عشرة ونهاية حكم الهيكسوس . وبديهى أن معظم الملوك العديدين المذكورين فى ورقة تورين كانوا بمثابة ولاة تحت حكم الهيكسوس ، ومن هؤلاء الملوك سِكِنِنْرَعْ الوارد ذكره فى الرواية العامية السابقة كان واليا تابعا للهيكسوس فى طيبه . والى الآن لم نهتد الى سبب خراب المعابد والأبنية العمومية بالقطر وقت حكم الهيكسوس ، لكن المعروف أن هذا حصل أثر دخول هؤلاء القوم مصر . وقد اهتمت الملكة حتشبسوت كثيرا بترميم التالف وارجاعه الى أصله . وقد عبد الهيكسوس سُوتِخْ أحد أشكال المعبود ست القديم الشبيه فى نظرهم ببعل السورى . والظاهر أن الهيكسوس تطبعوا بسرعة بطباع المصريين فنحل ملوكهم لأنفسهم الألقاب الفرعونية ونسبوا لهم تماثيل حكام الوجه البحرى السابقين على النمط المصرى الفرعونى (شكل ١٠١) . والمعروف أن المدنية لم تتأخر كثيرا فى عهد الهيكسوس كما يستدل من الورقة الحسابية المدونة فى عهد أحد الملوك المدعوين أبو فيس

---

[1] ١ : ٧٨١ — ٧٨٧

والموجودة الآن بدار التحف بلندره . وقد ألمعنا سابقا الى أن أحد المـلوك المدعوين أبوفيس شيد معبـدا فى أواريس ، وعثر على نقوش فوق قطعة من الحجر ممـا يفيد أن الملك أبوفيس صنع أعلاما ذات رءوس نحاسية تعلوها "شراريب" زاهية الألوان لنصبها على وجهة أحد المعابد[1] . وقد أثر حكم الهيكسوس كثيرا فى أهالى مصر وفلسطين وسوريا ، فأثار من المصريين شعور البغض لهم حتى طردوهم وتخلصوا منهم . والمعروف عن هؤلاء القوم أنهم أدخلوا الخيل بالقطر المصرى لأول مرة ودرّبوا المصريين على الحـروب العظيمة . وعليه فالمصريون مدينـون لهم بكثير من ارشـاداتهم النفيسة وتعاليمهم القيمة مهما عظم مقدار الخسارة والتلف والضيق الذى حل بالبلاد فى عصرهم .

(١) Nav. Bubastis, I, pl. 35c.

الفصل الثانى عشر

طرد الهيكسوس وانتصار طيبه

ورد ضمن إحدى القصص العامية أن الملك سِكِنَنْرَعْ كان حاكما على قسم طيبه تحت سلطة ملك من الهيكسوس يدعى أبوفيس اتخــذ أواريس (هوارة) قاعدة لملكه ، ويرجح أن ذلك كان حوالى سنة ١٦٠٠ قبل الميلاد أى بعد سقوط الأسرة الثانية عشرة بمائتى سنة تقريبا. وهذه القصة الدارجة[1] التى لاكتها الألسن فى زمن الرمسيسيين هى مرجعنا العلمى الوحيــد عن تاريخ خروج الهيكسوس وعما حدث فى القطر بعد ذلك . وقد استنتج ضمنا أن هــذه القصة دونت بعــد خروج الهيكسوس بنحو أربعمائة سنة وقد ألمعنا سابقا اليها لما تكلمنا عن وصف الهيكسوس ، لكننا الآن نزيد على ما سبق أن هذه القصة روت حلول عيد من أعياد المصريين المقدســة جمع فيه أبوفيس المذكور رجال دولته وتداول معهم أشــياء نجهلها . ويســتدل من مضمون الرواية أن تلك المداولة كانت لتدبير مؤامرة لاغتيال الملك سِكِنِنْرَعْ الجالس بطيبه وقتئذ ، واليك ترجمة ما جاء بهذا الخصوص :

"ومضى زمن طويل بعد ذلك فأرســل الملك أبوفيس الى الأمير (الملك) سكننرع بالمدينــة الجنوبيــة (طيبه) رسالة دون بها رجال دولته العقلاء . فلما وصل رسل الملك أبوفيس بهذه الرسالة الى المدينة الجنوبيــة (طيبه) أحضروا الى أمير (ملك) تلك المدينــة فَوُجِّهَ سؤالٌ الى أحد رســل أبوفيس هذا نصه : "لــما ذا حضرت الى المدينة الجنوبية ولأى سبب سافرت مع زملائك طوال هذه المدة ؟ فأجاب الرسول : ان الملك أبو فيس أرسلنا اليكم لنخبركم أن دب البحر القاطن ببحيرة طيبه يمنع جلالته النوم نهارا وليلا . فصياحه يرن فى أذن جلالته باستمرار" فتكدر أمير المدينة الجنوبية (الملك سكننرع) فى نفسه وكظم غيظه ولم يرد الجواب . واستدل من سياق الكلام أن سكننرع هذا أرســل هدايا جزيلة الى أبوفيس ووعده بعمل ما يرضيه نحو تلك الحيوانات . ثم عاد رسول أبوفيس الى ســيده . وعلى أثر ذلك اســتدعى سكننرع قواده ورؤســاء مملكته . . . . . . وأخبرهم برســالة الملك أبوفيس ، فخيم الســكوت عليهم جميعا ولم يلفظوا بكلمة ثم أرســل الملك أبوفيس الى . . . . . ."[2] وهنا سقط الأصل فانقطع أملنا فى معرفة بقية هذه القصة الشيقة .

من ذلك يتضح أن لهذه القصة علاقة متينة بخروج الهيكسوس والمنازعات السياسية التى حصلت بينهــم وبين المصريين . أما العــذر الوارد فى القصة بأن أبوفيس لم يتمكن من النوم لصياح دب البحر فى طيبه فسبب وهمى لا يعتمد عليه ويغلب أنه احدى مبالغات أهالى تلك العصور الذين كانوا شديدى التأثر بحروب الهيكسوس . وتعزز رواية ما يتلو هذه القصة فى كثير من الحوادث فقد أخبرنا هــذا المؤرخ المصرى أن ملوك طيبه وبعض حكام أقسام مصر اتحدوا وشبوا حربا على الهيكسوس

(١) راجع صفحة ١٤٣

(٢) Pap. Sallier I, II, 1. 2-III, 1, 3.

فى أواريس . ويستدل من ذكر مانيتو "ملوك مصر" أنه كان هناك انقسام بين أقسام مصر وقت حكم الهيكسوس فاستقل كل قسم عن غيره وانفرد حاكمه بادارته . ولا يخفى أن مثل هـذه الحالة أضعفت نفوذ المصريين كثيرا أمام عدوهم الأجنبي الشمالى . وجاء فى تاريخ تلك العصور ذكر لثلاثة ملوك مصريين يدعون باسم سكننرع وقد عثر على مومياء الأخير منهم ضمن كنوز الدير البحرى الكبرى وهى الان محفوظة بدار التحف بالقاهرة (شكل ١٠٠)، ووجد على هذه المومياء آثار جرح مع اصابات شنيعة مميتة بالرأس أثر نضال ونزاع قبل الوفاة يرجح أنه حصل وقت الحرب بين المصريين والهيكسوس . ولما توفى هؤلاء الملوك الثلاثة تولى بعدهم الملك كاموس (Kemose) فاستمر (غالبا) على كفاح الهيكسوس . وشيد هؤلاء الملوك المصريون لأنفسهم أهراما حقيرة من اللبن بجهة طيبه ورد عنها فى الآثار أنها كانت سليمة بعد وفاة أصحابها بنحو أربعمائة وخمسين سنة أى فى عهد الرعامسة لأنها فتشت وقتئذ للتأكد من عبث اللصوص بهـا كما ألمعنا الى ذلك سابقا[1] . من ذلك يتضح أن الثلاثة الملوك المدعوين سكننرع والملك الرابع المدعو كاموس ثابروا بشدة على شن الغارة على الهيكسوس ، وقد أوردهم مانيتو فى آخر قائمة أسماء ملوك الأسرة السابعة عشرة . وليلاحظ أن منازعات المصريين لم تكن مقصورة على ما كان دائرا بين ملوك طيبه والهيكسوس بل كانت هنـاك مشاحنات أيضا بين ملوك طيبه وحكام الوجه القبلى وعلى الأخص اقليم الكاب الذى كان بعيدا عن نفوذ الهيكسوس ومتقدما فى التجارة والحضارة والرفاهية عن أقسام الوجه القبلى ، ولذلك كانت المصاعب التى واجهت آخر ملوك الأسرة السابعة عشرة عظيمة ، وسنرى فيما بعد أن حكام قسم الكاب قاوموا كثيرا ملوك طيبه الذين ساروا تدريجيا نحو طرد الهيكسوس من القطر .

وتوفى كاموس بعد حكم قصير فتولى بعده أحمس الأول وهو فى الغالب ابنه وقد اعتبره مانيتو أول ملوك الأسرة الثامنة عشرة . أما تبوء أحمس للملك فكان حوالى عام ١٥٨٠ قبل الميلاد وكان حكمه فى مبدأ الأمر مقصورا على الوجه القبلى بقسم طيبه ، وهو الذى أنقذ وطنه من عدوه اللعين الأجنبي . ومعلوم أن الملك سكننرع الثالث تبادل الهدايا والعلاقات الودية مع حكام قسم الكاب ليأمن شرهم ، فلما ولى أحمس الأول عرش مصر اتبع السياسة نفسها فأمن بذلك شر الأقسام الجنوبية حتى صار قسم الكاب عقبة كئودا أمام كل من يتعدى على حدود طيبه الجنوبية . ولم يحفظ لنا التاريخ معلومات رسمية عن الطور الأول من طرد الهيكسوس ولا وصلت الينا نصوص الملك أحمس الأول عن ذلك الكفاح ، وكل ما اهتدينا اليه فى هذا الصدد تلك النقوش التى على صدر قبر ضابط مصرى من جهة الكاب كان مواليا لملوك طيبه واشترك هو وهم فى مهاجمة الهيكسوس ، وهذا الضابط يقال له أحمس . أما والدته فكانت تدعى إبانا ووالده بابا . وبابا هذا كان موظفا فى عهد سكننرع الثالث ، واليك ترجمة ما قاله أحمس بن إبانا عن سيرته أيام الملك أحمس الأول :

---

[1] ٤ : ٥١٨ – ١٩



شكل ١٠٢ — منظر لمدينة الكاب المسورة مأخوذ بآلة التصوير الشمسي من مدخل أحد المقابر الصخرية الشرقية المشرفة على المدينة



شكل ١٠٣ — أسلحة الملك أحمس الأول مصنوعة من البرنز مزخرفة برسوم ذهبية مطعمة بالأحجار الكريمة (دار تحف القاهرة)

"مضيت أيام شبو بيتى فى مدينة الكاب وكان أبى ضابطا فى جيش جلالة ملك القطرين البحرى والقبلى سكننرع المرحوم ، وكان يسمى بابا وهو ابن رُوينيت ، ولما توفى وظفت مكانه فى سفينة تسمى "القربان" وذلك أيام المرحوم الملك أحمس الأول. وكنت إذ ذاك شابا لم أتزوج.......... فلما تزوجت وصارت لى أسرة نقلت الى الأسطول الشمالى لما شوهد فىّ من الشجاعة والاقدام". من هـذا يتضح أنه نقل من أسطول الكاب وأرسل شمالا لمحاربة الهيكسوس . وبعد أن صار ضابطا بحريا التحق ضابطا بريا بحرس الملك الخاص وقد أشار الى ذلك بقوله : "وكنت أتبع الملك فى سيره حيثما أقلته عجلته. ولما حاصر الملك مدينة أواريس أظهرت له بسالة عظيمة وأنا أحارب على قدمى. فعينى جلالته بالسفينة المسماة "ضوء منف". ثم حارب جلالة الملك فى مياه ترعة بزدكو (Pazedku) جهة أواريس وقد حاربت وقتئذ بيـدى فأحضرت يدا مقطوعة من رجال العدو برهانا على شجاعتى واقدامى . فبلغ ذلك الخبر رسول الملك فأنعم علىّ جلالة الملك بعد ذلك "بنشان" الشجاعة الذهبى . ولما قامت الحرب مرة ثانيـة فى هـذا المكان دخلت النزاع وحاربت بيدى وأحضرت يدا أخرى (من أسير) ، فأنعم علىّ جلالة الملك مرة ثانيـة "بالنشان" الذهبى لشجاعتى"[١] . فى ذلك الوقت العصيب قامت ثورة عظيمـة فى أقسام مصر جنوبى الكاب تطلبت ذهاب الملك أحمس الأول شخصيا مع أحمس بن إبانا لاقماعها ، وقد خبرنا عن ذلك أحمس بن إبانا بقوله : "فحضر الملك وحارب قسم مصر جنوبى هذه المدينة (الكاب) وأسرت حينئذ رجلا حيا نزلت به الى البحر قابضا عليه كأنى سائر فى طريق المدينة وعبرت به النيل فعلم بذلك رسول الملك فأنعم علىّ جلالته بمكافأة ذهبية مضاعفة"[٢] . ولما خمـدت الثورة رجع الملك مصحوبا بأحمس بن إبانا الى أواريس . قال أحمس المذكور ما ترجمتـه : "فسقطت أواريس فى قبضـة جلالة الملك ، وهناك أسرت رجلا وثلاث نسوة فكان المجموع أربعة وهبهم لى جلالته عبيدا" [٣] .

يستنتج من ذلك أن أواريس سقطت فى الهجوم الرابع لأحمس بن إبانا ، وللآن لم نعرف بالضبط عدد مرات الهجوم على هذه المدينة، لكن المعروف أن حصار أواريس دام عدة سنوات وأن مدته طالت بسبب شبوب ثورة جنوبى الكاب . ولم يخبرنا هذا الضابط البحرى من هم المدافعون عن أواريس لكن هذا واضح من رواية مانيتو ومن القصة الدارجة المذكورة آنفا. ولم يذكر هذا الضابط أيضا اسم أعدائه الذين حاربهم مرة ثانية، لكن المفهوم ضمنا أنهم الهيكسوس لأنهم تقهقروا الى آسيا بعد طردهم. قال أحمس بن إبانا بعد ما ذكر سقوط أواريس ما ترجمته : "ثم حاصر جلالة ملك مصر شاروهن —شرحان— لمدة ثلاث سنوات واستولى عليها . وقد أسرت وقتئذ امرأتين ويد أسير فكافأنى جلالته بالذهب على شجاعتى وملكنى رقاب الأسيرتين"[٤] . ويعتبر هذا أول حصار طويل معروف من نوعه فى التاريخ وبرهانا قويا على شدّة مقاومة الهيكسوس وطول صبر أحمس الأول فى ذلك الحصار الخطير على حدود القطر المصرى . وشاروهن —شرحان— موقعها جنوبى يهوذا[٥] وهو المكان الذى سهل على الهيكسوس اعادة الكرة ثانية على مصر منـه . ولم يكتف أحمس الأول

(١) ٢ : ٧ — ١٠ (٢) ٢ : ١١ (٣) ٢ : ١٢ (٤) ٢ : ١٣ (٥) سفر يشوع ، اصحاح ١٩ ، سطر ٦

بطرد الهيكسوس من شاروهن بل واصـل طردهم وتتبعهم الى فينيقيا المعروفة وقتئذ باسم زاهى[١] وسوريا ، وكان الملك مستصحبا معــه إذ ذاك قائدا من مدينة الكاب أيضا يقال له أحعمس بن نخبث ، ومن ثم يظهر لنا أن الملك طرد الهيكسوس الى مكان بعيـد وطهر منهم القطر المصرى . وورد عن الملك أحعمس أنه استعمل ثيران الهيكسوس فى أعمال عماراته فى السنة الثانية والعشرين من حكمه[٢] وأنه حارب الهيكسوس مرة أخرى على الأقل فى ذلك الوقت، ولما طرد أحعمس الأول الهيكسوس من مصر وجه همه ثانية الى النوبة بقصد استرجاع ما فقدته مصر فى ذلك القطر الجنوبى .

ولا يخفى أن الاضطرابات التى حدثت فى القطر المصرى بعد سقوط المملكة الوسطى أحدثت تأثيرا سيئا فى السودان نحو مصر، فشق أهالى ذلك الاقليم عصا الطاعة على فرعون وامتنعوا من دفع الجزية وسببوا له متاعب ومصاعب . لكنه لما طرد أحعمس الاول الهيكسوس ووجه همــه نحو ذلك الاقليم أخضعه بسهولة وعلى الأخص ما كان منــه بين الشلال الأول والشـلال الثانى[٣] . أما مركز الملك حينئذ فى القطر المصرى فكان محفوفا بالخطر لأنه بمجرد وصوله الى السودان قامت أهالى قسم جنوبى الكاب عليه فغلبهم وشتت شملهم وكان مصحوبا إذ ذاك بأحعمس بن إبانا الذى كافأه هناك بخمسة عبيد وثلاثة أفدنة ونصف من أرض اقليم الكاب[٤] وأغدق الملك نعمه على جميع الضباط الذين حاربوا معه فى تلك المعركة . وروى أحعمس بن إبانا خبر حدوث فتنة أخرى فقال : "جمع الخائن المغلوب على أمره المدعو تتى إن (Teti-en) رجاله ليحارب جلالة الملك فقتـله جلالته هو وخدمه وأعطانى ثلاثة عبيد وثلاثة أفدنة ونصفا بجهة بلدى الكاب"[٥] . من ذلك يتضح أن أحعمس الأول نجح فى سياسة التآلف مع حكام أقسام مصر حتى جعلهم تحت نفوذه وكان تارة يوزع عليهم الذهب وطورا يهب لهم العبيــد والأراضى وأحيانا يجود عليهم بألقـاب الشرف "كابن الملك الأول" ممـا يتوافق مع عقلية الحكام المغرمين بالوجاهة والبذخ . ولاشك أن حكام قسم الكاب استحقوا كل ثناء على شجاعتهم وإخلاصهم ، ومع السماح لهم بالمحافظة على ألقابهم وشريف نسبهم قل نفوذهم تدريجا فصـار الحل والعقد بيد الملك وحده بطيبه ، ولذلك كان هؤلاء الحكام يقيمون فى طيبه ويدفنون جثثهم بجوار مقابر ملوكهم . وهناك قبر لحاكم مدينه طينه (Thinis) وآخر لحاكم مدينــة القوصية (أفروديتو پوليس) ، وورد عن الأول منهما أنه ساعد الملكة حعتشبسوت فى نقل مسلاتها[٦] .

ولا بد أن يكون القارئ قد لاحظ أن أحعمس الأول لم يلتف حوله إلا القليل من حكام أقسام مصر ، أما الباقى فقاوموا الهيكســوس حتى صرعوهم ومحوا أثرهم . والذين انضموا الى أحعمس انخرطوا بعدئذ فى خدمة الحكومة الملكية واحتفظوا بالوظائف الكبيرة بعد ما تجردوا من غطرستهم واستقلالهم السابقين . وهكذا صارت الكلمة العليا للملك الذى وضع يده على أملاكهم جميعا إلا ما يخص قسم الكاب فانه تنازل عنه لهم اعترافا منه بالمساعدة التى قدمها له حكام هذا القسم وقت حربه مع

(١) ٢ : ٢٠ (٢) ٢ : ٢٦ – ٢٧ (٣) ٢ : ١٤ (٤) ٢ : ١٥ (٥) ٢ : ١٦ (٦) ٢ : صفحة ١٣٨ ملاحظة (ﻫ)

الهيكسوس . وقد سمح الملك لحكام الكاب بالاحتفاظ بأراضيهم وأملاكهم مدة جيلين تقريبا كما تشير اليه الآثار . والمعروف أن نفوذهم امتد بعد ذلك فشمل مدينة إسنا وما جاورها فصاروا يديرون الأقاليم بين طيبه ومدينة الكاب ، ولا يخفى أن هذه الرعاية كانت استثناء للقاعدة القاضية بامتلاك فرعون لأراضى مصر كلها ، ومثل هذه الحال حصلت فى مصر حديثا أيام المرحوم محمد على باشا الكبير لما قتل المماليك فى القرن التاسع عشر بعد الميلاد ، وورد فى الكتاب المقدس أن هذا النظام جاء نتيجة مباشرة لحنكة ومهارة سيدنا يوسف عليه السلام[1] .

---

[1] سفر التكوين ، الاصحاح ٤٧ ، سطر ١٩ — ٢٠

الكتاب الخامس

الامبراطورية فى دورها الأوّل

الفصل الثالث عشر

الحكومة الجديدة : الاجتماع ، الديانة

كانت مهمة أحمس الأول فى تنظيم الحكومة المصرية وادارة البلاد الداخلية مختلفة تماما عن مهمة أمنمحعت الأول أول ملوك الأسرة الثانية عشرة ، ناهيك بالعقبات التى واجهت الأخير فقد كانت نتيجة منازعات سياسية واجتماعية بين حكام الأقسام فاجتهد أمنمحعت الأول فى ازالتها دون أن يلحق بهم أذى أو ضرر . أما أحمس الأول فمهمته تطلبت تأليف حكومة من حكام ضعاف يختلفون تماما عن حكام أمنمحعت الأول لأنهم عاشوا تحت النير الأجنبى حتى فقدوا منزلتهم السامية بين أهالى القطر . وكان اختيار أحمس الأول لنوع الحكومة المناسبة لعصره نتيجة مباشرة لخبرته الحربية والسياسية مع الهيكسوس مدة طويلة، تلك الخبرة التى جعلته قائدا عاما لجيش مصرى محنك مدرب على الكفاح ورئيسا للحكومة فى آن واحد . وعليه فالحكومة التى أُلِّفت إثر هذه الحوادث تحتم عليها أن تكون عسكرية وأن تبقى كذلك دون نظر الى ميول المصرى نحو السلام والسكينة ، لأن النضال الطويل مع الهيكسوس علم المصريين طرق الكفاح المختلفة كما أن الغزوات التى قام بها أحمس عدة سنوات بآسيا أطلعت المصريين على ثروة الأقطار السورية ، وهكذا صار المصرى مدربا مجربا لفنون الحرب وعالما بأن الحروب الأسيوية تعود على مصر بالغنم الكثير . فهبت على أثر ذلك فى القطر المصرى عاصفة فكرية دفعته الى الاستعمار والفتوحات عدة قرون حتى صارت ثروة الخدمة العسكرية ومكانتها وترقياتها مطمح نفوس الطبقة الوسطى التى كانت سابقا مخلدة الى الراحة ، وهكذا اندفع القطر المصرى فى التيار العسكرى وتسلطت على ألباب أهله عوامل الحرب حتى صعب وقفها . وأصبح سراة القوم الذين عاشوا بعد طرد الهيكسوس وأمراء الامبراطورية المصرية يطمعون فى الخدمة العسكرية والانخراط فى الحروب تحت لواء الملك بغية الحصول على الانعام والألقاب التى تشرفهم وتعلى مراكزهم بين قومهم كما أشارت اليه نقوش قبورهم فى طيبة[1] . وقد أورد لنا كبار موظفى الحكومة المصرية سيرهم وتراجم حياتهم على مقابرهم كالتى خلفها أحمس بن إبانا عن حياته والبلاء الحسن الذى رفع صيته فى حرب الهيكسوس[2] . وخيمت الروح العسكرية على القطر المصرى مدة قرن ونصف بعد طرد الهيكسوس فدار أبناء الفراعنة يعينون قوادا للجيوش[3] ثم زيد عدد الجيش كثيرا وأمد بالعدد وقسم الى قسمين قسم خاص بالوجه البحرى والآخر بالوجه القبلى[4] . واعلم أن الحروب السورية دربت المصريين على الخدع العسكرية والأساليب الحربية الراقية كما سيتضح فيما بعد ، ويعتبر هذا التقدم الحربى أقدم ما عرف من نوعه فى التاريخ . وقد قسم الجيش المصرى الى فرق وفيالق وقسمت قواته الى قلب وجناحين فانتظم بذلك نظام المعارك الحربية وتمكن المصريون من القيام بحركات الالتفاف حول أعدائهم بعد ما كانت حروبهم القديمة أشبه

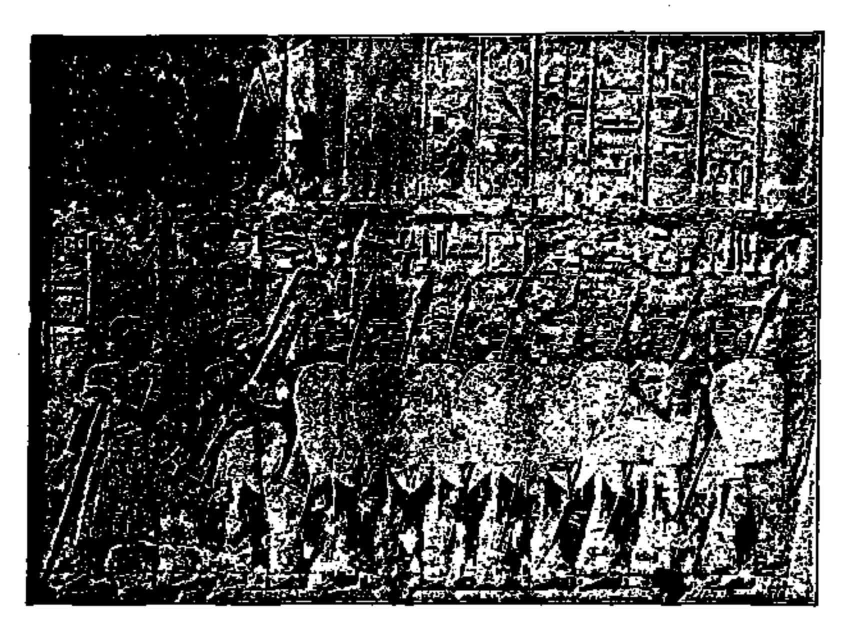
---

(١) ٢ : ١ - ١٦ و ١٧ - ٢٥ وفى غيرها من المواضع (٢) شرحه (٣) ٣ : ٣٥٠ و ٣٦٢ (٤) ٣ : ٦٠

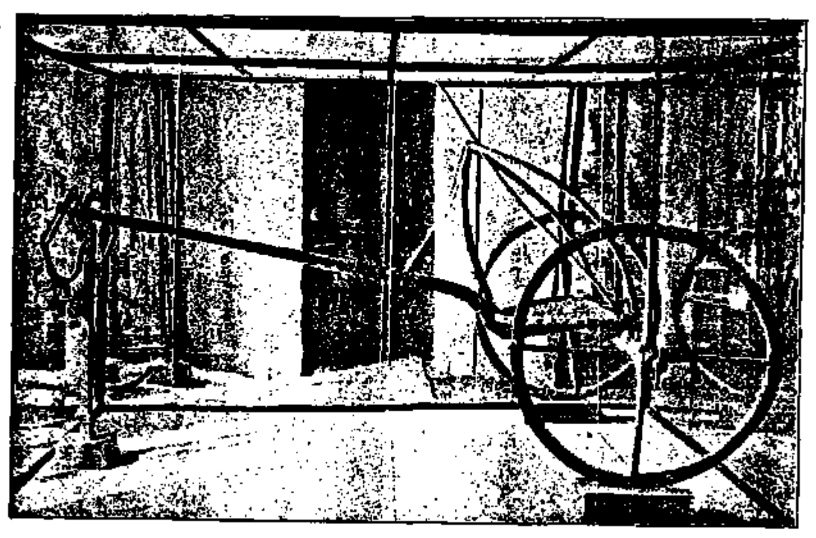
بالنهب والغزو والقتل والتحطيم (شكل ١٠٤) . وشملت معدات الحرب القوس والنشاب والبلط ، وتمرن أفراده على اطلاق النبال وتسديدها دفعة واحدة فعظمت منزلة فرقة النبال المصرية بين جيوش العالم حتى العهد اليونانى والرومانى . وأهم من هذا وذاك أن الهيكسوس جلبوا الخيل الى مصر فأصبح الجيش المصرى شاملا لعجلات حربية كثيرة . أما فرقة الفرسان فلم يكن لها وجود وقتئذ ، ولكنه لوحظ أن صناعة العجلات كانت غاية فى الاتقان (شكل ١٠٥) ، وصار لفرعون مصر اصطبلات تحوى الآلاف من أجود الخيل الأسيوية . واقتضت الروح العسكرية وقتئذ أن يكون للملك حرس كامل العدد له شعار خاص ويتبع جلالته فى غدواته وروحاته ، كما أصبح له أيضا ضباط حربيون خاصون يرافقونه فى حله وترحاله . وبهذه الكيفية ساس الفراعنة القطر المصرى بلا معارضة وصارت لهم فيه الكلمة العليا ، فلم يبق للروح الديموقراطية بين ملوك تلك الأوقات من أثر ولم يعد يتجاسر أحد من رعيتهم أن يحاسبهم على أعمالهم . ولا غرابة فى ذلك فمثل هذه الروح لم توجد فى الشرق إلا نادرا حتى عهدنا هذا ، والعادة فى الممالك الشرقية أن الملك القوى يهيمن على كل أمور دولته وأن تكون رعيته رهن اشارته فى كل وقت ، فاذا ظهرت عليه بوادر الضعف أصبح ألعوبة فى أيدى حاشيته وفريسة لدسائس حريمه . ويحوى التاريخ المصرى القديم كثيرا من الأمثلة الخاصة بعزل الأسر المالكة واسناد شؤون المملكة الى رؤساء ماهرين حاذقين . أما أحممس الأول الذى طرد الهيكسوس فكان مثال الجد والشجاعة والعقل والدهاء فلم يكن لين العريكة أو ضعيف الارادة ولذلك كان الجميع يهابونه ويحترمونه ، والى هذا الملك يرجع الفضل فى انقاذ مصر من ظلم الهيكسوس وما تقلبت فيه البلاد من الاضطراب والفتن فى غضون مائتى سنة .

وتمتاز الحكومة المصرية الجديدة بوضوحها للمؤرخين أكثر من حكومات العصور الأخرى ففيها يتبين للباحث كثير من الأنظمة الجديدة الادارية التى أدخلتها أسرة أحممس الأول على المملكة . فمركز فرعون أصبح الآن مركزا عمليا يطلع على أخبار مملكته وحكومته السياسية ويقابل لذلك وزيره كل صباح . واعلم أن الوزير كان القابض على زمام الأمور فكان يعرض على جلالة مليكه كل المسائل الحكومية والأشغال السائرة ليبدى رأيه فيها[1] ، وبعد ذلك يتشرف رئيس مالية الدولة بمقابلة الملك[2] فيعرض عليه أخبار الخزانة الملكية وما اعتراها من زيادة أو نقص . من ذلك يتضح أن الادارة المالية والحقانية كانتا أهم المسائل الحكومية فكان يتحتم أن تعرض أخبارهما على فرعون كل يوم فى قصره الذى اعتبر المرجع الأسمى للحكومة . أما المسائل الأخرى فكانت تعرض على الأشخاص المنوطين بها فى ديوان الحكومة فكانوا يتصرفون فيها بما يعتبر نظريا مرسوما ملكيا . وقد وصلت الينا بعض مخاطبات رسمية تظهر لنا كيفية سير الأمور والأساليب السياسية وقتئذ لكنها قليلة ، ومنها اتضح لنا كثرة أعمال الملك وكيفية تصريفه لأشغاله مما يعود عليه بجزيل الثناء لما كان بيديه عادة من المهارة والحكمة . وكان يعرض على الملك حكم القضايا الجنائية فى آخر الأمر ليبدى رأيه فيه ، ثم ان المجرمين كانوا يحجزون فى السجن انتظارا لتصديق الملك على عقابهم[3] . وكثيرا

(١) ٢ : ٦٧٨ (٢) شرحه (٣) ٤ : ٥٤١



شكل ١٠٤ — احدى وحدات الجيش المصرى مسلحة بالحراب من عهد الامبراطورية سافرت ضمن البعثة الحربية التى أوفدتها الملكة حتشبسوت الى بلاد البونت (الصومال) (مأخوذ من رسوم بارزة على جدر معبد هذه الملكة بالدير البحرى بطيبه)



شكل ١٠٥ — صورة لعربة من عهد الامبراطورية تامة التركيب مصنوعة من الخشب والبرنز والجلد (دار تحف العاديات بمدينة فلورنس)

ما كان فرعون يرافق جيوشه ببلاد النوبة وآسيا والمحاجر والمناجم[١] ووقت تفقد الطرق[٢] فى الصحارى للبحث عن أمكنة لحفر الآبار أو خزن المياه . أما الادارة الداخلية والعمارات العمومية لكبيرة فكان يتفقدها الملك ويراقب ادارتها شخصيا . وورد أن الملك كثيرا ما قام بتحقيق دقيق فى قضايا الظلم والحيف بين الموظفين[٣] . ويلاحظ أن الشعائر والاحتفالات الدينية كانت تتطلب كثيرا من أوقاته أيضا وأن هـذه أخذت تكبر وتزداد تبعا لكبر ادارة الحكومة فزاد بذلك العمل على عاتق الملك حتى عجز فى آخر الأمر عن تحمله وحده فاستعان بوزيره . ولما تضاعف العمل عجز الاثنان عن القيام به فعين الملك وزيرا ثانيا . والمعروف أن فرعون مصر كان محتفظا بوزير واحد من أقدم عصور المملكة ، أما الآن فقد عين فراعنة الأسرة الثامنة عشرة وزيرين لمراقبة الادارة والشؤون الداخلية ، أحدهما للوجه القبلى تمتد منطقة نفوذه من طيبه الى قسم سيوط ومقره طيبه ، أما الثانى فكان يعهد اليه فى ادارة جزء القطر شمالى سيوط الى البحر الأبيض المتوسط ومقر حكمه عين شمس[٤] ، ولا يبعد أن يكون هـذا التقسيم نتيجة اضافة قسم النوبة بين الشلال الأول والكاب الى أعمال وزير الجنوب .

ثم قسمت المملكة المصرية الى عدة أقسام بعضها يحوى المدن الكبيرة القديمة وما جاورها من القرى فكان يحكمها حكام الأقسام الأقدمون ، والبعض الآخر لا يحوى مدنا رئيسية كالسابقة بل كان عبارة عن أقسام أنشأتها الحكومة لتسهيل الأعمال الادارية . وعدد هـذه الأقسام فى المنطقة بين سيوط والشلال الأول سبعة وعشرون[٥] ويغلب أن يكون عدد الأقسام شمالى سيوط معادلا لذلك على الأقل . ومع أن رئيس الادارة فى المدن الكبيرة كان يلقب بأمير أو حاكم فقد أصبح الآن تابعا اداريا للفراعنة فلم يعد يتصرف فى أمر حتى يعرضه على السدة الملكية فهو كالعمدة فى وقتنا هذا ، أما المدن الصغيرة فكان يعين عليها مشايخ كما هو جار الآن ، وأما القرى الصغيرة فكان يعين عليها بعض الكتبة تحت اشراف كاتب منهم[٦] ، وسنرى أن هؤلاء الحكام قاموا بالأعمال الادارية والقضائية معا فى أقسامهم الخاصة بهم .

وكان هم الحكومة فى تلك العصور موجها الى زيادة الانتاج الذى يتبعه ازدياد فى ثروة البلاد ، ولذلك كانت معظم الأراضى تابعة للملك فكان يقسمها على أتباعه تحت اشراف موظفى حكومته أو يهبها لأمرائه المقربين أو لرجال حزبه أو أقاربه أو يؤجر بعضها الى الأهالى الاعتياديين ، وتمكن كل واحد من هؤلاء أن يستبدل بقطعة أرضه أخرى على أن يدفع فرق البدل ثم يتصرف فيها كما يشاء[٧] . أما أملاك الملك من أغنام وبهائم وحمير فكانت توضع تحت اشراف أناس من الطبقتين المذكورتين وتفرض عليها ضريبة سنوية كالأراضى . واقتضى القانون المالى وقتئذ أن تفرض الضرائب على الأراضى والحيوانات والأملاك جميعها[٨] كل سنة ويبين ذلك فى سجل خاص ، وهذه الضرائب كانت تورد الى الخزانة المصرية التى لم تزل تعرف "بالبيت الأبيض" لكن استثنى من هـذا

---

(١) ٣ : ١٧٠ (٢) ٤ : ٤٦٤ (٣) ٣ : ٥٨ (٤) نصوص مس (Mes) (٥) ٢ : ٧١٦ – ٧٤٥
(٦) ٢ : ٧١٧ (٧) نصوص مس (Mes) (٨) ٢ : ٩١٦ و ١ : ٣١

الأمر أوقاف المعابد فقد أعفيت من الضريبة. أما سجلات الضرائب فكانت تحوى كشفا مضبوطا عن الأملاك وما يتعلق بها وبمقتضى ذلك الكشف كانت تفرض الضرائب التى استمرت تدفع للحكومة بشكل مواد أولية كحبوب ونبيذ وزيت وعسل ومنسوجات أو بهائم . وليلاحظ أن أهم قسم بالادارة المالية كان خاصا بالمواشى والحيوانات ويلى ذلك أهمية القسم الخاص بالمواد الأخرى. أما لفظا "ضرائب" أو "عوائد" فقد استعيضا عند قدماء المصريين بلفظ "الشغل" . وأخبرنا الكتاب المقدس أن الأهالى كانوا يدفعون خمس نتاج الأرض والحيوان ضريبة للمالية فى زمن سيدنا يوسف عليه السلام[١] . وتجبى الضرائب ثم تورد الى ادارات الحكومة الأخرى ويؤدى كل عمل موظفون خاصون. ومن ذلك يتضح أن عدد الموظفين والخدم وقتئذ بلغ حدا لم يبلغه فى عصر سابق، وهؤلاء الكتبة والمراقبون كانوا تحت اشراف رئيس المالية وهذا يعرض الأمور على الوزير كل يوم بعد ذلك ويستأذن لفتح الدواوين والمخازن كالمعتاد[٢]. وهناك نوع من الضرائب كان يدفعه للوزير موظفو الحكومة على حسب وظائفهم . وكان وزير قسم مصر الجنوبى يشرف على موظفى قسمه جميعا حتى سيوط شمالا[٣] ، ولا يبعد أن كان لوزير القسم الشمالى أيضا مثل هذا الاشراف على موظفى دائرة أعماله ، وتدفع ضرائب الموظفين ذهبا وفضة وقمحا وغنما وكتانا . ودلتنا الآثار أن حاكم مدينة الكاب كان يدفع للخزانة المصرية ضريبة سنوية تقدر بخمسة آلاف وستمائة قمحة ذهبا وأربعة آلاف ومائتى قمحة فضة وقلادة ذهبية وثورين وصندوقين من الكتان . ووجدت قائمة للضرائب التى كانت مفروضة على موظفى جنوبى مصر تحت ادارة الوزير رخمارع منقوشة على جدر قبره لكنها لسوء الحظ تالفة لدرجة يصعب جمعها ومعرفة مقدار تلك الضرائب أيام ذلك الوزير بالضبط[٤] . والثابت أن أقل قيمة لضرائب موظفى هذا الوزير تقدر بمائتين وعشرين ألف قمحة ذهبا وتسع قلائد ذهبية وستة عشر ألف قمحة فضة وأربعين صندوقا ومقاسات أخرى كتانا ومائة رأس وست من البهائم المختلفى الأعمار وكمية من الحبوب . ولا يبعد أن يكون هذا التقدير أقل من الحقيق بنحو ٢٠٪ ، ولما كان من المحتمل أن الملك يحصل من وزيره الشمالى مايعادل هذا المقدار أيضا كانت الضرائب التى تجمع من موظفى الحكومة وقتئذ شيئا لايستهان به . ومن دواعى الأسف اننا لم نتمكن من تقدير مجموع هذه الضرائب بالضبط، لكن المعلوم انها كانت ترسل الى ادارة وزير الجنوب رأسا أيام الاسرة الثانية عشرة حيث تقيد وتوزع بالدقة وتقيد بها بيانات وافية يرجع اليها وقت الحاجة . ولضبط أعمال ميزانية الضرائب كان الوزير الجنوبى يقدم للملك تقريرا كل شهر عن المصروفات والايرادات يعاونه فى ذلك رؤساء الأقلام وكبار الموظفين[٥]. ولما كانت الضرائب مترتبة على نتاج الأرض وهذا أيضا مرتبط بدرجة فيضان النيل كحالنا الآن كانت ترسل الى وزير الجنوب بلاغات رسمية عن حال فيضان النيل[٦]. وتدخل تحت اشراف هذا الوزير أيضا الأوقاف الدينية وبالأخص ما حبس منها على المعبود آمون بمدينة طيبه فهذه كان يديرها وزير الجنوب كما كان أيضا يدير دخل معبد هذا المعبود الغنى بما فى ذلك من مرتب ومصروف رئيس كهنة آمون[٧] .

---

(١) سفر التكوين ، الاصحاح ٤٧ ، سطر ٢٢ – ٢٧ (٢) ٢ : ٦٧٩ (٣) ٢ : ٧١١ – ٧٤٥ (٤) شرحه
(٥) ٢ : ٧٠٨ (٦) ٢ : ٧٠٩ (٧) ٢ : ٧٤٦ – ٧٥١

وأخذت الخزينة المصرية على توالى الأيام تضخم بورود الجزية من البلاد الأجنبية بمقاديرها الكبيرة وهذه الجزية ترد على وزير الجنوب وهو يعرضها على الملك . ووجدت رسوم شيقة على صدر قبر وزير الجنوب المعظم المدعو رخمارع بطيبه تمثله متسلما ضرائب موظفيه السنوية[1] وكذا ضرائب ولاة المستعمرات الأسيوية والنوبية[2] .

ولم تقتصر سلطة وزير الجنوب على المالية بل شملت أيضا القضاء فكانت سلطته أوسع نظاما من سلطته المالية فصارت له الكلمة العليا على جميع قضاة قسمه وعلى محكمة العشرة السابقة الذكر والتى أصبح رأيها الآن أقل من الاستشارى بعد ما كانت ذات الكلمة النافذة فى البلاد[3] . ومع أن بلاغات القصر الملكى وقتئذ لم تشر مرة واحدة الى هذه المحكمة فقد بقى ذكرها ومجدها القديم موضع الاعجاب والمديح فى الشعر حتى العهد اليونانى . وكان الوزير يلقب أحيانا برئيس المحاكم الست الكبرى كسابق العهد ، لكن يلاحظ أن هذا اللقب أصبح الآن فخريا فقط لزوال هذه المحاكم من الوجود . ومع عدم وجود رجال أخصائيين فى القانون فكان يشترط فى الحكام أن يكونوا متضلعين فى القانون ليحكموا فى كل مايعرض عليهم من القضايا . ولما كان الوزير معتبرا رئيس حكام الأقسام التابعة له كانت تعرض عليه كل أحكام القضاة الذين تحت اشرافه ، وجرت العادة فى كل حال أن يرفع كل مدع أو متظلم دعواه الى الوزير كتابة ويستحسن حضور صاحب الطلب شخصيا ، ولذلك كان قصر الوزير ملجأ يجىء اليه المدعون والمتظلمون كل يوم . زد على ذلك أنه كانت تعقد فى هذا القصر كل يوم جلسة لاصدار حكمها فى تلك الدعاوى[4] . ودلتنا الآثار أن هذه الجلسات كان يؤدى نظامها حجاب وكتبة وكان الناس يدخلونها بالترتيب بعد ما يصفون استعدادا لمثولهم بين يدى الوزير[5] وحتم القانون على الوزير اصدار حكمه فى قضايا الأراضى المتعلقة بطيبه فى ثلاثة أيام من تاريخ رفع الدعوى أما قضايا الأراضى الخارجة عن طيبه شماليها وجنوبيها فالنطق فيها كان لا يتأخر عن شهرين[6] . هكذا كان النظام القضائى لما كانت المملكة تحت اشراف وزير واحد ، لكن لما عين وزير ثان للشمال قسم النفوذ والسلطان بين هذين الوزيرين[7] . وكل جرائم طيبه كان ينظرها وزير الجنوب شخصيا ، أما المجرمون فيحجزون فى سجون خاصة ما داموا رهن التحقيق فاذا صدر الحكم عليهم أرسلوا الى سجون أخرى ينفذ فيها العقاب . ولكل قضية أوراق تحفظ فى السجلات الرسمية كما هى الحال الآن[8] . وتمتاز قضايا الأراضى والأملاك بوجوب اصدار الحكم فيها بسرعة . ويحتم على كاتب الوصية أن يسجلها شخصيا فى قصر الوزير[9] . وتحفظ صور لجميع المستندات وحدود الأراضى والعقود فى ادارتى وزيرى الجنوب[10] والشمال[11] . وكل طلب مقدم الى الملك يحتم تقديمه كتابة الى ادارة الوزير أولا[12] .

---

(1) ٢ : ٧١٦ – ٧٤٥ (2) ٢ : ٧٦٠ – ٧٦١ (3) ٢ : ٧١٢ (4) ٢ : ٦٧٥ و٧١٤ – ٧١٥
(5) ٢ : ٧١٥ (6) ٢ : ٦٨٦ (7) نصوص مس (Mes) (8) ٢ : ٦٨٣ (9) ٢ : ٦٨٨
(10) ٢ : ٧٠٣ (11) نصوص مس (Mes) (12) ٢ : ٦٩١

وزيادة على قصرى وزيرى الشمال والجنوب اللذين كانا يعرفان "بالايوان" أو "المجلس الأعلى" أنشئت بالأرياف محاكم فرعية مكوّنة من رجال الادارة المتمرنين على تطبيق القانون كما ذكرنا سابقا. وكان هؤلاء الرجال يعرفون بأعيان البلد أو "برجال المجلس المحلى" ويعتبرون ممثلين لمجلس القضاء الأعلى . والقضايا الكبيرة كالخاصة بألقاب الأسر الرفيعة كان يحتم فيها ارسال مندوب من "مجلس القضاء الأعلى" لينفذ قرار ذلك المجلس بمعاونة رجال أقرب "مجلس محلى" . وكانت القضايا تسمع أحيانا أولا أمام المحاكم الفرعية ثم تحال بعد ذلك الى المحاكم العليا قبل الحكم فيها نهائيا[1] . ولم نهتد للآن الى معرفة عدد المجالس الفرعية فى تلك الأوقات بالضبط ، لكن المعروف أن أهم هذه المجالس هما الخاصان بمنف وطيبه . وكان أعضاء مجلس طيبه المحلى كثيرى التغيير على حسب أهمية القضايا، فالقضايا الخاصة بالبيت المالك كان ينظر فيها أعضاء معينون بأمر من الوزير الجنوبى[2] أما قضايا المؤامرات على الحكام فكان الملك نفسه يعين القضاة للنظر فيها بلا محاباة ولا محسوبية وكذا الحكم على المجرمين وكان يمنحهم الحق فى تنفيذ هذا الحكم أيضا[3] . وليلاحظ أن الكهنة كانوا معظم أعضاء هذه المحاكم ولا نعلم للآن علاقة هذه المحاكم الفرعية بادارة الوزير بالضبط ،وقد ورد على الآثار مرة على الأقل أن أحد المدعين حكم له "المجلس المحلى" بتسلم عبد له معارضا ما حكم به "المجلس الأعلى" سابقا بادارة الوزير[4] . ومع شدّة حرص القوم على القانون كثيرا ما تشككوا فى نزاهة الحكم وعدله فقد ورد أن الناس كانوا يندبون حالة الفقير الضعيف بين يدى القضاء أمام خصمه الغنى اذا أصدرت المحكمة حكمها ضده ، فيصيح الناس بأصوات عالية قائلين (هذا نتيجة اعطاء) الفضة والذهب للكتبة ! و(اعطاء) الملابس لخدم المحكمة ![5] ولا غرابة فرشوة الغنى كانت وقتئذ أقوى مفعولا من حق الضعيف كما هو حاصل الآن كثيرا (فى نظر المؤلف) . لكن يلاحظ أن القانون الذى لجأ اليه الفقير كان غاية فى العدالة وجرت العادة أن ينسخ فى أربعين درجا برديا ويوضع على منضدة القاضى وقت انعقاد المحكمة للمراجعة وزيادة الايضاح ، وكان يسمح لكل شخص أن يقرأ القانون ويستفسر الغامض[6] . ومن دواعى الأسف أننا لم نعثر على نسخة من ذلك القانون الذى لا نشك لحظة فى عدالته فقد جاء فى الآثار أن الوزير كان يحكم بالعدل بدون محاباة حتى كان يخرج المتخاصمان من حجرته مسرورى الخاطر ، "وكان يعطى الفقير حقه كما يعطى القوى نصيبه تماما"[7] وجاء عنه أيضا "أنه لم يفضل الشخص العظيم على الحقير بل كافأ المظلوم وعاقب الظالم على ظلمه"[8] . وبلغ من علو منزلة القانون ونزاهته عند المصريين أن افتخر الملوك بأنهم رجال القانون فقد لقب أمنحتب الثالث نفسه "بموطد القانون" . وجاء أيضا أن أحد الملوك فاه أمام احدى المحاكم "بأن القانون ثابت ، لم أحدث فيه تغييرا ، ولذلك التزمت خطة السكوت خوفا من احداث الفرح والسرور"[9] . وبلغت العدالة حدا لا يكاد يصدّقه العقل ، من ذلك أنه لما ظهرت مؤامرة لاغتيال حياة ملك لم يكتف الملك بتحقيق مختصر واصدار حكم الاعدام على الجناة بل أصدر

---

(١) جاردنر نصوص مس (Mes) (٢) ٢ : ٧٠٥ (٣) ٤ : ٤٢٣ — ٤ (٤) Spiegelberg, Studien.
(٥) Pap. Anast. II, 8,6. (٦) ٢ : ٦٧٥ و ٧١٢ (٧) ٢ : ٧١٣ (٨) ٢ : ٧١٥
(٩) Spiegelburg, Studien.

أمره بتشكيل محكمة للنظر فى القضية بشرط ألا تصدر حكمها بعقاب المتهمين الا بعد ثبوت اجرامهم . وجاء أيضا أن العقوبات التى فرضها حورمحب على الموظفين المرتشين كانت على حسب القانون[١] . ولا يخفى أن معظم مواد ذلك القانون عتيقة كنصوص كتاب الموتى ولذلك نسب قدماء المصريين قانونهم الى الآلهة . أما قانون حورمحب فكان من مبتكراته[٢] . قال ديودور الصقلى ان هناك خمسة ملوك مصريين سنوا قوانين لبلادهم قبل الحكم الفارسى ، وجاء فى أخبار المملكة الوسطى أن أحد رجالها النبلاء قال انه سنّ القانون وذلك يعنى طبعا أنه عمل هذا بناء على أمر ملكى[٣] . لذلك كانت أمور التجارة والزراعة والصناعة فى وادى النيل فى عهد الامبراطورية سائرة بالعدل والقانون اللذين سهر على تنفيذهما رجال أصوليون عديدون لا يحيدون عن الحق قيد أنملة ، وهكذا انمحى أثر الظلم والحيف من جهة الملك وحاشيته وعم العدل فى أنحاء البلاد .

وكان وزير الجنوب القوّة المحركة لنظام الحكومة وقتئذ ، وقد ذكرنا فيما سبق أنه كان يقابل الملك صباح كل يوم ليتفاوض معه فى شؤون المملكة ولم يكن للوزير معارض فى السلطة الا رئيس المالية الذى خوّله القانون حق الاطلاع على اجراءات وزير الجنوب . فاذا خرج الوزير من القصر الملكى يجد رئيس المالية واقفا بجوار أحد ساريات مدخل القصر ينتظره ليتداول معه أمور الدولة[٤] بعد ذلك يفتح الوزير أبواب مكتبه ويبدأ بأشغاله الاعتيادية فلا يترك صغيرة ولا كبيرة تخرج أو تدخل مكتبه إلا ويطلع عليها سواء أكان ذلك خاصا بالأهالى أم بالأملاك[٥] . وقصر الوزير (أى ادارته) كان طريق التخابر بينه وبين حكام الأقسام الذين كانوا يرسلون له تقارير وافية عن حوادث أقسامهم أول كل فصل (أى ثلاث دفعات سنويا لأن السنة المصرية القديمة قسمت الى ثلاثة فصول)[٦] ، ومن ثم كانت ادارة هذا الوزير مثالا صادقا لادارات الأقسام . وكثيرا ما قام الوزير بسياحات فى جهات مصر لتفقد أحوال الادارة والنظام ولذلك كانت توجد تحت تصرفه الشخصى سفينة حكومية تنقله الى حيث شاء . ويدخل تحت اشراف الوزير أيضا حرس الملك الخاص وحامية العاصمة[٧] وادارة الجيش[٨] وقلاع الجنوب[٩] وأخبار موظفى الأسطول[١٠] كما كان الوزير محتفظا أيضا بالأعمال الحربية والبحرية . ولما كان الملك فى الأسرة الثامنة عشرة يحارب مع جيشه خارج القطر كان وزير الجنوب يدير شؤون الدولة بالنيابة[١١] . ولم تقتصر سلطة الوزير على ما ذكر بل شملت أيضا ادارة المعابد فى أنحاء القطر لأنه ورد عنه مرة أنه "وطد القانون فى معابد الآلهة فى الجنوب والشمال"[١٢] . ومن ثم كان هذا الشخص رئيسا للديانة أيضا وبعبارة أخرى كان أدرى الناس بأحوال البلاد الداخلية ، ومما ورد عنه أنه لم يسمح بقطع الأشجار ولا برىّ الأراضى أو تصريف المياه الا باذنه الخاص[١٣] . واعتبر هذا الوزير ظهور نجم الشعرى اليمانية وسيلة للتوقيت الحكومى[١٤] . وخلاصة القول أن ادارة القطر صارت فى قبضة هذا الوزير تقريبا ، زد على ذلك أنه كان يستفتى فى كل ادارات البلاد[١٥] . وقبل أن تقسم ادارة القطر بين وزيرين كان نفوذ

---

(١) ٣ : ٥١ ملاحظة (٢) راجع الفصل الخامس صحيفة ٥٣ – ٥٤ (٣) ٣ : ٦٥ (٤) ٢ : ٦٧٨ – ٩
(٥) ٢ : ٦٧٦ و ٦٨٠ (٦) ٢ : ٦٨٧ و ٦٩٢ و ٧٠٨ و ٧١١ (٧) ٢ : ٦٩٣ – ٤ (٨) ٢ : ٦٩٥
(٩) ٢ : ٧٠٢ (١٠) ٢ : ٧١٠ (١١) ٢ : ٧١٠ (١٢) ٢ : ٧٥٧ (١٣) ٢ : ٦٩٧ – ٨
(١٤) ٢ : ٧٠٩ (١٥) ٢ : ٦٩٦

ذلك الوزير محسوسا فى جميع دوائر الحكومة المهمة التى كانت دائمـا على اتصال مباشر أو غير مباشر بادارته . أما بقية الدوائر الأخرى فكانت مضطرة لأن تتخابر وتنفذ أعمـالها بناء على ارشادات ادارة الوزير . وخلاصـة القول أن مركز هذا الوزير كان أشبه بمركز سيدنا يوسف عليه السلام لمـا تسلم من فرعون مقاليد الحكم . وبلغ من شدّة عدل الوزير وانصافه أن ذكره القوم فى صلواتهم للعبود آمون حيث قالوا أنت يا آمون وزير الفقير الذى يرفض رشوة المذنب[1] ولذلك تعين الاهتمام بأمر الوزير فكان لا يوضع فى ذلك المركز الا كل شخص يختاره الملك من ذوى القـدرة والكفاية ويعلن ذلك بأمر ملكى . وجرت العـادة أن الملك كان يلقى على وزيره وقت تعيينه نصائح وحكما لا يتصـوّر الانسان صدورها من بين شفتى فراعنة غزاة يرجع تاريخهم الى أكثر من ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة لأنها تنم على رحمة ورأفة مع تقدير لمسئولية الحكم ، واليك ترجمة ما قاله أحد الفراعنة لوزيره فى مثل هذه الأحوال : "لا تجلس نفسك مواجها الأمراء والقضاة[2] ولا تختلط كثيرا مع الأهالى ، فالآلهة تبغض المحسوبية . هكذا تعلمنا فيجب عليك أن تتبع ذلك . يجب عليك أن تهتم بطلب الشخص المجهول كالذى تعرفه وبأمور الانسان البعيد كالقريب ، فذلك يعلى مركز الموظف . لا تحتد على شخص بدون حق واظهر أمام الناس بمظهر شريف ووقور لتخشاك الخلق ، فالأمير هو الشخص الذى تهابه الناس ، واعلم أن أصدق واجبات الأمراء اتباع العدالة . لا تكثر الاختلاط مع الأهالى لئلا يزوروك فيقولوا عنك ما هو إلا انسان"[3] . وجرت العادة أن يكون مرءوسو الوزير قانونيين واليك ترجمة ما قاله أحد الفراعنة لوزيره وقت تعيينه : "ليكن جميع كتابك من رجال القضاء حتى يقول الناس عنهم أنهم "كتاب عادلون""[4] . ويستنتج ضمنا من شدّة حرص الحكام على العـدالة وكثرة تكرارها على المقابر أن الرشوة كانت كثـيرة الانتشار بين صغار الموظفين حتى تطلبت اتخـاذ الوسائل الفعالة . ويمتاز وزراء الأسرة الثانية عشرة بتهافتهم على العمل بالجـد والأمانة مفتخرين بذلك حتى تركوا على جدر قبورهم قوائم من النقوش عديدة محفورة وملونة ذكروا فيها الرتب والوظائف التى قلدوها فى دنياهم ذاكرين بأنهم قاموا بواجبهم خير قيام ، وعلى جدر مقابر طيبه كثير من هذه النقوش الجميلة استنتجنا منها ما أوردناه من البيانات الخاصة بمهام الوزير وعظم سلطته فى الدولة[5] .

بهذه الطريقة كانت الأعمـال تدار فى حكومة الامبراطورية المصرية . أما المعيشة والأحوال الاجتماعية فقد تغيرتا كثيرا عما كانتا عليه سابقا لأن حكام الأقسام الذين كانوا ينتخبون من الأعيان وأقارب الأعيان أصبحوا الآن يعينون من موظفى الحكومة بلا مراعاة لحسبهم ، وبذلك اتسع نطاق الترقى أمام طبقة الأهالى الوسطى وصـار لهذا التغيير تأثير تدريجى فى نفوس القوم ، واليك ترجمة ما أورده أحد صغار الموظفين : "سيكون ارتقائى هذا فى أشغال الحكومة موضوع كلامكم ومحور محادثاتكم فيحكيها الهرم للصغير . لقد كنت فقيرا وضيعا ونشأت فى قرية حقيرة فشملتنى رعاية سيد القطرين (أى فرعون) فصرت محبوبا عنـده ممدوحا لديه كلما تجلى للناس بأبهته وجمـاله كالمعبود الشمسى . لقـد رقانى جلالتـه على أصدقائه الملكيين وقدمنى بين أمراء القصر الملكى . . . . . .

(1) Pap. Anast. II, 6, 5-6. (2) ٢ : ٦٦٦ (3) ٢ : ٦٦٨ – ٩ (4) ٢ : ٦٧٠ (5) ٢ : ٦٦٥ – ٧٦١

وندبنى للأشـغال العموميـة على حداثة سنى وكان معجبا بى وبأشـغالى ثم عينني فى مصنع الذهب للاشراف على صناعة صور وتمـاثيل الآلهة الذهبية"[1] . وروى هذا الموظف أيضا أنه قام بوظيفته الحديثة خير قيام فنال استحسان الملك فكافأه جلالته بالذهب علنا وعينه عضوا فى مجلس المـالية . من ذلك يتضح لنا تسهيله سبيل الرق للعمال والموظفين فقد دلتنا هـذه القصة أن هذا الشخص بدأ بأعماله وهو موظف صغير مجهول . وطائفة الموظفين لا بد أنها كانت مقسمة وقتئذ الى قسمين : صغار الموظفين المنتخبين عادة من الطبقة الوسطى وكبار الموظفين المنتخبين من الأسر العريقة . ثم التحمت طائفة الموظفين الكبار تدريجا مع حاشـية الملك التى كان أفرادها يديرون مصالح الحكومة المركزية ويقودون قوات الفراعنة فى الحروب فأصبح أعيان البلاد كبار موظفى الحكومة . أما طائفة التجار[2] والصناع والفنيين التى كانت موجودة منذ العصور القديمة فقد اعتبرت مكملة ومتممة لفريق صغار الموظفين الحكوميين . يلى ذلك طائفة المزارعين الذين يحرثون الأرض ويستخرجون خيراتها وهؤلاء كانوا عبيد الفراعنة . أما هؤلاء المزارعون فكان سواد الأمة الأعظم حتى أن الكاتب الاسرائيلى الذى تكلم عن القطر المصرى وقتئذ لم يذكر فى أهالى مصر سـوى العمال والكهنة[3] . ولم تترك لنا طائفة العمال إلا آثارا يسيرة ، أما طبقة الموظفين فكانت مثرية يانعة كثيرة الآثار وقد وصل الينا جزء كبير من آثارها ومنه استنتجنا معظم معلوماتنا عن تلك العصور . قال أحد الإحصائيين الذين عاشوا أيام الأسرة الثانية عشرة : "كان أهالى القطر المصرى وقتئذ مقسمين الى أربع طبقـات الجنود والكهنة وعبيد الملك والصناع" [4] وهو قول ينطبق تمـاما على ما جاء بالآثار للآن . وليعـلم أن طائفة الجنود وان كانت تشمل أفراد الطبقـة الوسطى الأحرار معتبرة من الطبقات الراقيـة . ومع أن لقب "أبناء الوطن الحربيين" كان كثيرا ما يطلق على الجنود المصرية فى عهد المملكة الوسطى[5] فان استعماله أصبح الآن شائعا فى عهد الامبراطورية ومقرونا بشىء من الرفعة والشرف ، ثم أخذت منزلة الجنـدى تعظم تدريجا بتوالى الفراعنة حتى أصبح الجندى الشخص الوحيـد الذى يتكل عليه فرعون مصر فى انجاز أوامره على عكس ما كان قديما بالمرة . وليلاحظ أن الرق فى ذلك العهد لم يكن مقصورا على الجنود والصناع بل شمل أيضا طائفة الكهنة لأن زيادة ايرادات المعابد أيام الامبراطورية جعلت للوظائف الدينية مقاما واعتبارا فأصبح لا يعين فيها الا الأكفاء بعـد ما كانت هذه المراكز مقصورة على العمال والفعلة المؤقتين أيام المملكتين القديمة والوسطى . وبمرور الزمن ازداد عدد نفوذ الكهنة تدريجا فازداد نفوذهم فى سـياسة الدولة . ثم ان زيادة ثروة المعابد تطلبت جيشا جرارا من الموظفين للقيام بأعمالها من مختلف الحرف التى لم تكن معهودة فى العصور السالفـة . ولا يبعد أن يكون ربع الأشخاص المدفونين جهة العرابة من كهنة ذلك العصر . وصارت طائفة الكهنة مشهورة عند الناس بعد ما كانت قليلة الاتصال والارتباط بالأهالى ، واعترفت الحكومة رسميا بأفراد هذه الطائفة التى شملت وقتئذ موظفى اللاهوت جميعهم فى سائر جهات القطر كافة . بعد ذلك عين لرياسة هذه الطائفة "رئيس كهنة آمون" المعتبر رسميا رئيسا لمعبد طيبه الحكومى ، وبهذه الطريقة فاق كبير

(1) Unpublished stela in Leyden (V, I), by courtesy of the curator. (2) ٣ : ٢٧٤

(3) سفر التكوين ، اصحاح ٤٧ ، سطر ٢١ (4) ٢ : صحيفة ١٦٥ ملاحظة (أ) (5) ١ : ٦٨١

كهنة آمون رئيس كهنة عين شمس ومنف وتساوت منزلة طائفة الكهنة الاجتماعية بطائفة الجنود وموظفي الحكومة . ويلاحظ أن هذه الطوائف كانت تحت اشراف أمراء معينين من قبل الملك غير الحكام (الأرستقراطيين) السابقين . أما صغار موظفي هذه الطوائف فقد قلنا فيما سبق انهم تساووا مع طبقة التجار والصناع . أما الفلاح الذي يرجع اليه الفضل الأكبر في زيادة ثروة البلاد ووفرة خيراتها فكان أقل من هؤلاء الأقوام منزلة واعتبارا .

وقد اتسعت مالية المعابد فكثر عدد الكهنة الذين كونوا الآن طائفة راقيــة ممثلين لديانة القطر الرسمية ، والحق يقال ان المصريين لم يعهدوا من قبــل مثل هــذا التقدم الديني العظيم . والسبب في ذلك أن أيام البساطة القديمة زالت وحل محلها البذخ لأن الغنائم الكبيرة التي استولى عليها الفراعنة في البلاد الأجنبية وزعت على المعابد بكثرة غير مسبوقة ، فأخذت المعابد تكبر وتشمخ حتى شاكلت القصور وأخذ رئيسها يعلو ويعظم حتى شابه الأمراء الأقوياء ذوي النفوذ السـياسي العظيم . وقد لقبت زوجة رئيس كهنة طيبه "بحظية المعبود الكبيرة" وبالزوجة المقدسة فتساوت بذلك مع الملكة في الرفعة والمقام ، وبقيت هذه الزوجة تقود النساء مدة طويلة في ترتيل الأناشيد وقت عبادتهن ، والعابدات وقتئذ كثر عددهن كما كان في الأزمنة السابقة . وجرت العادة أن الحكومة قررت لزوجة رئيس كهنة آمون مرتبا عظيما من ميزانية المعابد ، ولما عظم مركز هذه السيدة استصوب الفراعنة أن تعين زوجاتهم في هذا المنصب ليتمكنوا بذلك من الاستيلاء على هذا الايراد الوافر .

ولا يخفى أن نجاح الأسرة الطيبيــة في الاستيلاء على الملك رفع كثيرا من منزلة آمون إله طيبه في البلاد حتى أصبح آمون إله المملكة المصرية الرسمي ، وقد كان في عهد المملكة الوسطى في المرتبة الثانية لما شبه بالمعبود الشمسي ولقب آمون رع — أي آمون الشمسي . أما الآن فقد فاق آمون سائر المعبودات مقاما ونسبت اليــه بعض صفات من معبود فقط ، ثم علت منزلتــه رفعة وسموا بدرجة منقطعة النظير فاذا أراد العامة أن يفعلوا شيئا قالوا "اذا أطال أجلنا آمون" فجاء قولهم هــذا مشابها لقول المسلم "ان شاء الله" . وقد لقب المصريون آمون "بوزير الفقراء" وتضرعوا الى تمثاله ليفرج عنهم همهم ويقضي حوائجهم ويحسن معيشتهم ويوسع رزقهم . ولم يكن اجتماع صفات المعبودات الأخرى في آمون بالفريدة من نوعها في الديانة المصرية ، لأن المصريين اعتقدوا أن كل إله يمكنه أن يتصف بصفات الآلهة الأخرى وأن يقوم بأعمالهم ، فقد كانت منزلة المعبود الشمسي عظيمة في البلاد .

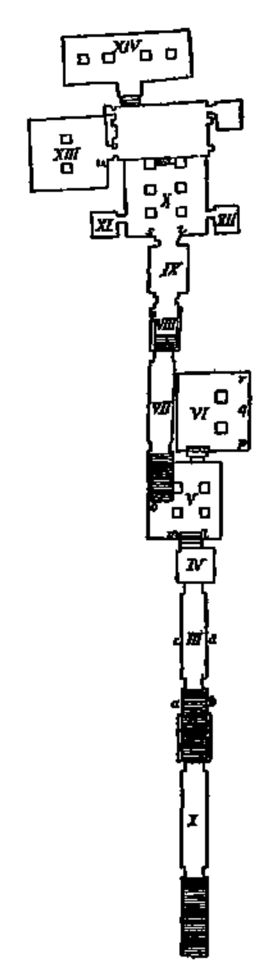
واعترى الديانة في عهد الامبراطورية تغيير وتبديل خصوصا فيما يتعلق بأمور الموتى ، ويرجع تاريخ هذا التغيير في الحقيقة الى زمن المملكة الوسطى . فمن هذا التبديل أن التعاويذ والدعوات التي استعملها الأموات لنجاحهم في الآخرة زاد عددها وكتبت في أدراج بردية بعد ما كانت تنقش داخل التوابيت . ومال القوم تدريجيا الى بعض التعاويذ والتوسلات دون بعض فأكثروا من اسـتعمالها وصارت هذه فيما بعد نواة "كتاب الموتى" . وساد الاعتقاد الأعمى في شدة مفعول السحر وتوهم القوم وجود السحر في التعاويذ السالفة حتى اعتقدوا أنها تكفي لأن تجلب للميت كل ما يحتاج اليه

ويشتهيه . ولما ترهف القوم ولم يرق فى نظرهم ماتخيلوه من أعمال الموتى من حرث وضم وحصد حقول "يارو" الأخروية وضعوا تماثيل صغيرة حاملة أدوات الشغل اللازمة منقوش عليها تعاويذ سحرية معتقدين أنها ستحيا فى الآخرة وتؤدى جميع أعمال الميت هناك كلما طلب منه ذلك . أما هذه التماثيل فكانت تعرف باسم "أوشبتى" وهى كلمة مشتقة من فعل "أوشب" — أى أجاب — فهى لذلك مجيبات عن الميت فى أخراه ، ووضع القوم العشرات والمئات من هذه التماثيل فى قبور موتاهم لهذا الغرض . بعد ذلك توهم القوم طرقا للنجاة من العقاب الأخروى لأجل آثامهم وذنوبهم الدنيوية فكتبوا أحد التعاويذ أسفل جعل حجرى وضعوه تحت طيات لفائف الجثة المحنطة فوق الثدى ظانين أن هذا كاف لإسكات كل صوت مذنب خارج من القلب أمام أزوريس فلا يعرف هذا المعبود ذنوب المتوفى ، واليك ترجمة هذه التعويذة : " أى قلبى ! لا تكن شاهدا ضدى " . وأخذ الكهنة يبيعون للقوم أدراجا بردية مكتوب عليها تعاويذ من كتاب الموتى وعدة مناظر أخروية وخصوصا المتعلق منها بالبراءة مخبرين العامة أن هذا الدرج يضمن لمن يحصل عليه حكم البراءة فى الآخرة . وكان الكتبة يتركون محلا خاليا وسط نصوص ذلك الدرج لكتابة اسم المشترى فيه ، ومنه يتضح أن هؤلاء الكتاب كانوا يكتبون تلك الأدراج قبل معرفة أصحابها .

وبديهى أن هذه العقائد سببت انحطاطا عظيما فى الأخلاق الدينية ، لأن الآراء والتخيلات الشريفة التى أدمجت فى الديانة المصرية تسممت وانحط قدرها . والسبب فى ذلك أن الكهنة سهلوا لأى انسان مهما عظمت آثامه وكبرت جرائمه أن يحصل على حكم البراءة فى الآخرة وذلك باقتناء الأدراج البردية المذكورة ، ولذلك انعدم الرادع النفسانى وزاد الكسب الكهنوتى من هذه التجارة . ثم تفنن الكهنة فى سلب ألباب العامة فوضعوا كتابا سموه " كتاب الدار السفلى " ذكروا فيه أوصاف الكهوف الاثنى عشر الخاصة بساعات الليل والتى تمر عليها الشمس فى سياحتها الليلية . ثم وضعوا كتابا آخر لقبوه " بكتاب الأبواب " شرحوا فيه الأبواب والحصون الموصلة لتلك الكهوف بعضها ببعض . لكن هذين الكتابين لم يبلغا منزلة " كتاب الموتى " ومع ذلك فقد حاز الأول بعض الاحترام والتبجيل فنقشت نصوصه على مقابر ملوك الأسرة التاسعة عشرة والاسرة العشرين بطيبه ، ومنه استدل أن تخيلات الكهنة وخرافاتهم صادفت هوى فى نفوس الفراعنة فنقشوها على جدر مقابرهم وفضلوها على سواها .

ونحت الأمراء مقابرهم فى صخور الجبال وزانوا جدرها بالنقوش الجميلة الدينية الخاصة بالآخرة وبالنصوص الموتية ذات الصبغة السحرية ، وأضحت المقبرة أثرا خالدا لصاحبها نقشت فيها ترجمة حياته وخدماته الحكومية وأوضح بها الإنعام الذى أسبغه عليه مليكه ، ولذلك كانت مقابر الأمراء بصخور طيبه (شكل ١٣١ وشكل ١٦٦) مرجعا قيما لأخبار تلك العصور وأحوال معيشتها . وهناك واد جبلى خلف تلك المقابر (شكل ١٠٨) اتخذه الملوك جبانة لهم نحتوا فى صخوره قبورهم مفضلين هذه الطريقة على الأهرام . وهذه المقابر الملكية تشتمل على عدة سراديب وقاعات واسعة منحوتة فى الصخور متصل بعضها ببعض ومنتهية بحجرة كبيرة بها تابوت الملك العظيم . ويبلغ طول المقبرة أحيانا من أولها الى آخرها بضع مئات من الأقدام (شكل ١٠٩ وشكل ١١٠) . ويظن أن عمارة

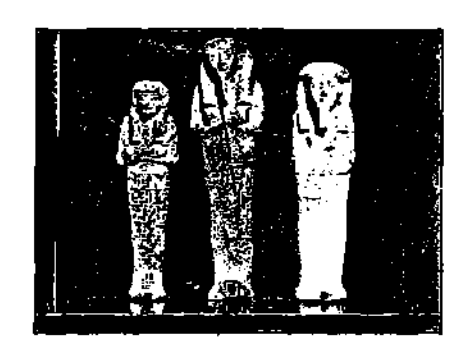
هذه المقابر تماثل عمارة الكهوف التى تخيلها قدماء المصريين تخترقها الشمس فى رحلتها الليلية فى العالم السفلى. وبالجهة الشرقية لهذه القبور غربى طيبه معابد شيدها هؤلاء الملوك العظام شبيهة بالمعابد التى شيدت شرقى الأهرام فى الأزمنة السابقة ، وسيأتى الكلام على هذه المعابد فيما بعد. ولم تقتصر هذه الترتيبات على مقابر الملوك والأمراء بل شملت أيضا غيرها للطوائف الأخرى ، ولذلك أضحت المقابر موضع عناية القوم فكثر عمالها وعم شغلها وتخصصت لذلك طوائف عدة منها المحنطون وصانعو التوابيت وأثاث القبر ، واتخذ هؤلاء الصناع حيا خاصا لهم بطيبه كما حصل ذلك فى العهد اليونانى . ثم عملت أهالى الطبقة الوسطى مقابر لها كالمذكورة آنفا إلا أنها أقل عناية وقيمة . أما الفقراء فكانوا يؤجرون لموتاهم محلات فى مقابر عمومية يدفنونهم بها تحت اشراف كهنة عموميين معينين من قبل الحكومة لتلاوة الدعوات والصلوات عليهم ، وبهذه الطريقة تكدست الموميات بتلك المقابر. ودفن الفقراء المعوزون موتاهم فى الرمل على حافة وادى النيل كما فعل أجدادهم من قبل ، ودفنوا أحيانا تماثيل صغيرة وحقيرة منقوش عليها اسماؤهم بجوار مقابر الوجهاء ظنا منهم بأن هذه التماثيل ربما يحسن عليها ببعض الهدايا والقربان التى تقدم للأمراء فتعيش جثثهم بذلك مستريحة منعمة .



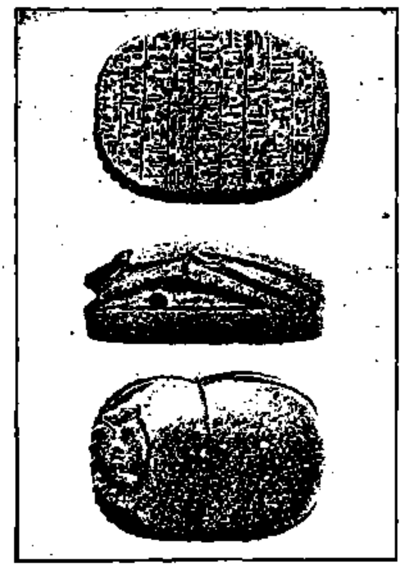
شكل ١٠٩ – رسم تخطيطى لمقبرة سيتى الأول بوادى مقابر الملوك بطيبه . الأجزاء المظللة تشير الى درجات السلم والأجزاء المشار اليها بالأرقام من ١ الى ٤ ومن ٧ الى ٩ عبارة عن أروقة . أما الأماكن الأخرى فساحات ذات عمد . وقد عثر على تابوت عظيم لهذا الملك فى الساحة رقم ١٠ ثم نقل بعد ذلك الى بلاد الأنجليز وهو بمتحف السير جون سون بلندره

هكذا تيقظت مصر من نومها تحت ادارة أحمس الأول بعد ما حكمها الهيكسوس السنين الطوال واتبعوا معها سياسة الغصب والارهاب واحتقار الأديان والعادات . وقد بدأ أحمس بقطع الأحجار من محاجر طره ومن المحاجر التى قطعت منها أحجار أهرام الجيزة العظيمة واستعمل ذلك فى تشييد معابد طيبه ومنف وغيرهما[١] ، وقد استخدم لذلك الثيران التى استولى عليها من السوريين فى آسيا ، لكن جميع أبنية هذا الملك تلفت وانعدمت . وقد أهدى هذا الملك معبد الكرنك عدة أدوات معدنية ثمينة وبديعة وبنى سفينة جديدة من خشب الأرز الذى استولى عليه من أمراء لبنان لتكون وسيلة لعبور النيل[٢] .

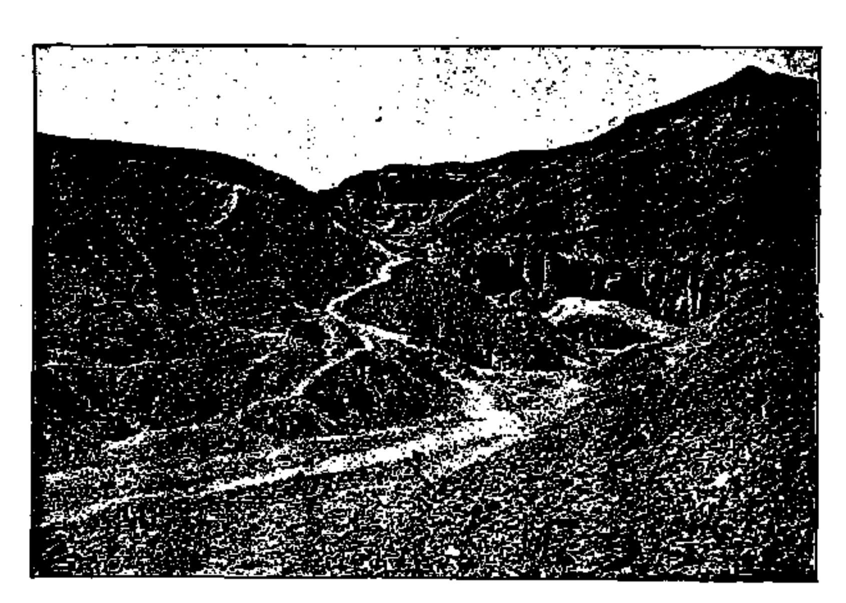
(١) ٢ : ٢٦ — ٢٨ و ٢٣ ملاحظة (٢) ٢ : ٣٢



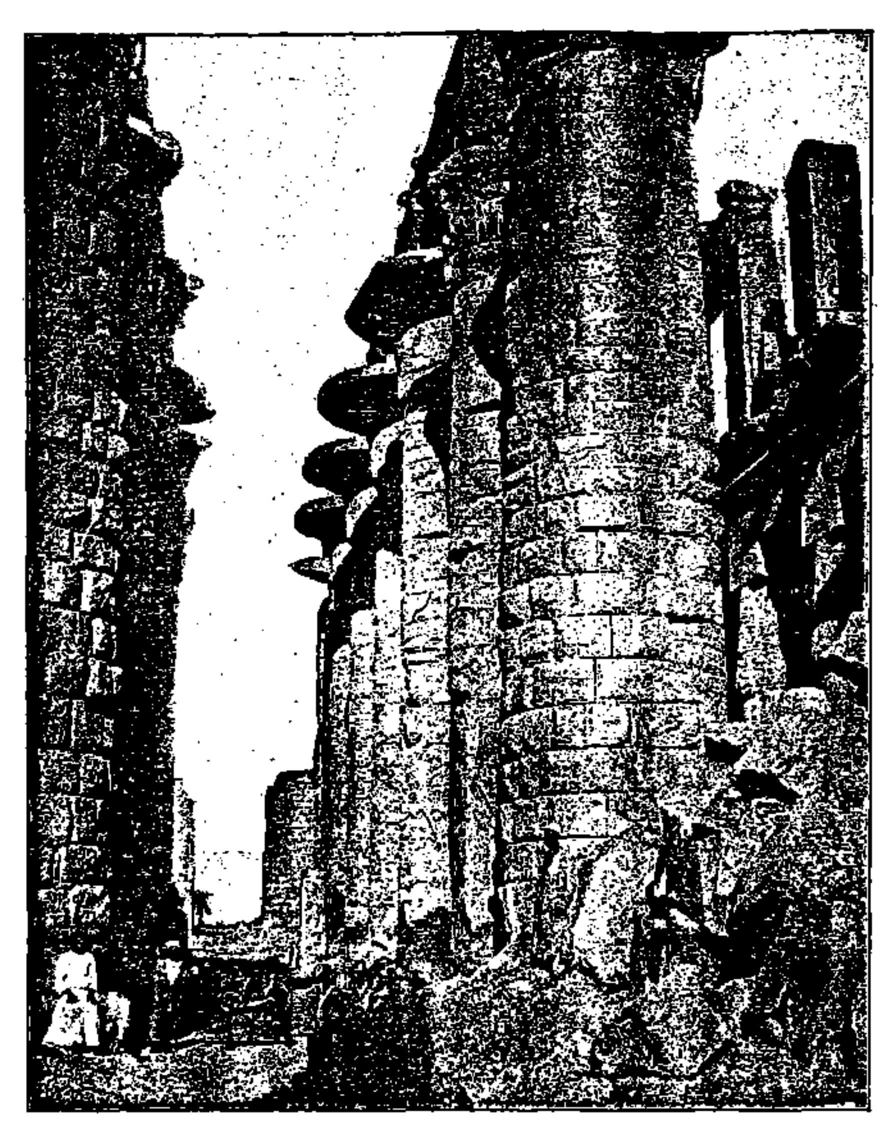
شكل ١٠٦ — تماثيل صغيرة للاجابة عن الميت فى الآخرة يقال لها باللسان القديم "أوشبتى" وهذه تقوم بالخدمة التى يطلب من صاحبها القيام بها وقتئذ (دار تحف الفنون الجميلة بشيكاجو)



شكل ١٠٧ — تمثال جعران وجد فوق قلب إسمخب رئيسة سيدات آمون المقدسة (دار تحف شيكاجو)



شكل ١٠٨ — منظر لجهة من وادى مقابر الملوك بطيبه · يشاهد فى الجهة اليمنى من منتصف الصورة مدخلان لمقبرتين



شكل ١٦٥ – صحن ساحة الكرنك العظمى . ويقع نهر النيل فى هذه الصورة خلف الساحة . وترى الصخور الغربية لوادى النيل من مدخل الكرنك (راجع خريطة رقم ١١)

وتلاحظ مآثر هذا الملك فى جميع أعمال ملوك الأسرة الثامنة عشرة فاليه يرجع الشرف فى تأسيس هذه الأسرة بطريقة متينة. ومع أنه حكم حوالى اثنتين وعشرين سنة فقد توفى غالبا شابا (حوالى سنة ١٥٥٧ قبل الميلاد) وبقيت أمه على قيد الحياة الى السنة العاشرة من حكم ابنه وولى عهده أمنحتب الأول[١] ودفن فى قبر بجوار ابنه[٢] بجبانة الأسرة الحادية عشرة الملكية بالجزء الشمالى لسهل طيبه وقد محيت آثار هذا القبر منذ مدّة طويلة . وعثر ماريت على حلى أم أحمس المذكور ويظهر أن اللصوص سرقوها فى العصور الغابرة عن طريق مقبرة قريبــة (شــكل ١٠٣) . وتوجد الآن مومياء أحمس الأول وحليه بدار التحف بالقاهرة .

---

(١) ٢ : ٤٩ — ٥١ (٢) Masp. Mom. roy.. 634.

الفصل الرابع عشر

توطيد أركان المملكة ، سطوع شمس الامبراطورية

لم يحن الوقت للملوك الامبراطورية أن يقوموا بأعمالهم العظيمة الخارجية لأن وادى النيل من الشلال الثانى الى البحر الأبيض المتوسط لم يكن ثابت الادارة والنظام، والصناعة ، فلم يتمكن ملوكه من التطلع الى ما وراء حدود مملكتهم . وليلاحظ أن انفصال النوبة عن مصر مضى عليه مدة طويلة ، وأن وجود الثوار جنوبى القطر جاء بمثابة عقبة كأداء أمام تقدم النفوذ المصرى فى السودان ، فقبائل الأعناء التى سكنت جنوبى القطر أصبحت الآن تحت رياسة ملك منها ، ولذلك وجد أحمس الأول نفسه أمام قوة معارضة منظمة لا يسهل إخضاعها بغزوة واحدة كما حصل فى عهد الرومان . وترجع صعوبة إخضاع الأعناء الى سهولة انسحابهم الى داخل الصحراء الشرقية كلما وجه نحوهم أحمس الأول قوة مصرية ثم الى رجوعهم ثانية لمناوأته ومشاكسته اذا آبت القوات المصرية الى وطنها . لذلك اضطر أمنحتب الأول بن أحمس الأول أن يغزو النوبة فوصل الى حد المملكة الوسطى بجهة الشلال الثانى[1] حيث شيد الفراعنة المسمون باسمى أمنمحت وسيزوستريس معابد وهيا كل أتلفها الأعناء بعدهم وتركوها فى حالة خراب ودمار . وكان فى معية أمنحتب الاول وقتئذ قائدان عظيمان يعرفان باسم أحمس صحباه فى معظم أعماله وفتوحاته النوبية ، وقد قال أحدهما المدعو أحمس بن إبانا : "لقد أسر جلالة الملك رئيس الأعناء وسط جنده بالنوبة"[2] ، فاستنتجنا من ذلك أن الملك سحق الأعناء وكسر شوكتهم وقتئذ . واشتهر هذان القائدان فى الحروب فأسرا عددا كبيرا وأظهرا شجاعة وإقداما كافأهما الملك عليهما جزيلا[3] . وصار قسم النوبة الشمالى من ذلك الوقت تحت إشراف حاكم مدينة الكاب التى أصبحت فى الوقت نفسه الحد الشمالى لذلك الاقليم الممتد من الكاب شمالا الى الواوات جنوبا ، ومن ثم صار حاكم هذا الاقليم يسافر شمالا كل سنة حاملا جزية الجهات التى تتبعه ليقدمها لخزينة الملك بطيبه[4] .

ولما بلغ أمنحتب الأول اقليم الشلال الثانى اعترى مملكته خطر عظيم فى جهتها الشمالية (غربى الدلتا) فاضطر الى الرجوع مسرعا ، وقد قال أحمس بن إبانا مفتخرا انه تمكن بمهارته وذكائه من ترحيل جلالة الملك فى سفينة من الشلال الثانى الى القطر المصرى فى يومين (وهذه مسافة تبلغ مائتى ميل تقريبا)[5] . والظاهر أن الليبيين اغتنموا فرصة وجود الهيكسوس بمصر فنظموا أنفسهم ودبروا شؤونهم كعادتهم طمعا فى غزو الدلتا ، ولكن أحمس بن إبانا (عمدتنا الوحيد فى هذا التاريخ) لم يذكر لنا موضع الخطر ومع هذا فلا يمكن أن يكون إلا من جهة ليبيا . وبديهى أنه لما قوى ساعد الليبيين لم يجد أمنحتب الأول وسيلة للخلاص منهم إلا سحقهم وغزو بلادهم ، لكننا لم نعلم عن

---

[1] ٢ : ٣٨-٩ [2] ٢ : ٣٩ [3] ٢ : ٣٩و٤١ [4] ٢ : ٤٧-٤٨ [5] ٢ : ٣٩و٢ : ٢٧-٢٨

أمر المعارك التي حصلت وقتئذ سوى ما أخبرنا به أحمس بن نخبت من أنه قتل ثلاثة أعداء وقطع أيدى كثيرين من الأسرى وأن جلالة الملك كافأه طبعا على ذلك جزيلا[١] . ولما زال الخطر عن حدود مصر وانخضعت النوبة اليها وجه أمنحتب الأول همه نحو غزو الشام . ومن دواعى الأسف أنه لم يصل الينا أخبار عن تلك الغزوات الأسيوية ولكن يظهر أن الجيوش المصرية وصلت وقتئذ الى نهر الفرات[٢] ، لأن الملك الذى أعقب أمنحتب الأول فى الملك افتخر فى أوائل حكمه بأن مملكته امتدت الى الفرات مع أنه لم يكن قد قام فيها بحركة حربية وقتئذ . وسواء أ كانت الثروة العظيمة التى أصبحت فى أيدى هذا الملك نتيجة هذه الغزوة أم أتت اليه من جهة أخرى فقد شيّد مبانى عظيمة بطيبه ، منها المعبد الخاص بقبره[٣] والمعبد الجميل الذى أقامه عند مدخل الكرنك والذى أتلفه تحوتمس الثالث بعد ذلك[٤] . وقد قال المهندس الذى شيّد هذه المبانى (التى تلفت كلها الآن) ان الملك أمنحتب الأول توفى بطيبه بعد أن حكم عشر سنوات على الأقل[٥] .

ولم يثبت لنا الى الآن اذا كان أمنحتب الأول ترك ولدا وارثا ، انما الثابت أن الذى خلفه هو تحوتمس الأول ابن امرأة صلتها بالأسرة المالكة غير جلية . وكان وصول تحوتمس الأول الى عرش مصر عن طريق اقترانه بأميرة مصرية تدعى أحمس ، وبهذه الوسيلة أعلن نفسه ملكا على مصر بمجرد وفاة أمنحتب الأول وذلك فى شهر يناير سنة ١٥٤٠ قبل الميلاد أو سنة ١٥٣٥ قبل الميلاد . وكان لاعلان توليته الحكم بالنوبة شأن كبير فنقش موظفو الحكومة هذا الخبر على الأحجار جهة وادى حلفا وكوبان وغيرهما[٦] والموظف الذى قام بهذا العمل كان من أصحاب تحوتمس المذكور لأن الملك رقاه الى وظيفة جديدة مهمة بعد اعتلائه العرش . ولما تعذر على حاكم الكاب حكم النوبة وجمع جزيتها لكثرة ما تطلبه ذلك الاقليم من العناية عين الملك حاكما عاما عليه أشبه بمندوب سام لقبه "حاكم البلاد الجنوبية وابن الملك المعين على كوش" مع أنه لم يكن دائما من أبناء الملك ولا منتميا الى الأسرة المالكة ، وجرت العادة أن يعمل احتفال بهذا التعيين يحضره الملك ويقدم فيه أحد موظفى المالية ختم الحكومة للمندوب السامى قائلا : "هذا ختم فرعون الذى ولاك حاكما على القطر الذى بين مدينتى الكاب ونبته"[٧] ومعنى ذلك أن سلطة حاكم النوبة بلغت الشلال الرابع . ومعروف أن ما بين الشلالين الثانى والرابع هو المسمى على الآثار بلاد كوش ، وهذه البلاد لم تكن محكومة وقتئذ بحكومة أهلية أو ادارة ملكية منظمة ، لكنها كانت تحت سلطة رؤساء قبائلها كل رئيس يسيطر على قبيلته . ولم يكن سهلا اخضاع هؤلاء الرؤساء سريعا إذ تطلب هذا الأمر من المصريين حوالى مائتى سنة ، ومع ذلك فقد ورد وقتئذ على الآثار ذكر لوجود رؤساء قبائل كوش ورئيس الواوات جهة إبريم[٨] وقد سمح المصريون لرؤساء تلك القبائل بالاحتفاظ الاسمى بمركزهم الادارى لكنهم لم يستمروا مدة طويلة بل استعيض عنهم ضباط اداريون مصريون بالتدريج . ولم يكن النصف الجنوبى لاقليم السودان المصرى أيام تحوتمس الأول ساكنا هادئا بل كان مضطرب الأمن والسلام ، ولذلك كانت الصعوبات التى صادفها تحورع — وهو أول مندوب سام فيها — عظيمة وشاقة للغاية . وكانت أيام تحورع كلها تعبا وعناء ، والسبب فى ذلك

(١) ٢ : ٤٢ و٢٢ (٢) ٢ : ٧٣ (٣) ٤ : ٥١٣ وملاحظات (٤) مجلة المعهد العلمى المصرى – مجموعة السنة الرابعة – العدد الثالث صحيفة ١٦٤ – ٥ (٥) ٢ : ٤٥ – ٦ (٦) ٢ : ٥٤ – ٦٠ (٧) ٢ : ١٠٢٠ – ٢٥ (٨) ٢ : ١٠٣٧

أن النوبة كانت وقتئذ عرضة لغارات قبائل البدو للجهات الجبلية المجاورة على مدن وادي النيل[١] وهذه الغارات كانت عقبة كئودا فى طريق استتباب الأمن وبسط السلطة المصرية على تلك الجهات . ولما رأى تحوتمس الأول أن تحوروع عجز عن معالجة تلك الحالة المستعصية ذهب هو نفسه هناك فى أوائل السنة الثانية من حكمه ليضع حدا لتلك الاضطرابات فوصل الى الشلال الأول فى شهر فبراير أو مارس وهناك وجد الطريق المائى مسدودا بالصخور[٢] كما كان منذ حكم الهيكسوس، فلم يصرف وقتا طويلا فى فتحه بل صمم على السلوك من طريق آخر بمساعدة الأميرال أحمس بن إبانا الذى قاد سفينة جلالته بحكمة وروية وقت عبورها ذلك المضيق الخطير وقد كافأه الملك على هذا العمل بسخاء[٣] .
ووصل الملك ناحية تانجور فى أوائل أبريل على بعد خمسة وسبعين ميلا من الشلال الثانى [٤] وقد وصف لنا أحمس بن إبانا المعركة التى دارت رحاها فيما بين الشلالين الثانى والثالث فقال : "ان فرعون مصر حارب هو نفسه رئيس النوبيين فسدد أول سهامه نحو هذا الرئيس فأصابه وألقاه على الأرض صريعا، بعد ذلك هزم الجيش النوبى تماما وأسر منه الكثير"[٥] . وروى القائد المصرى الآخر المدعو أحمس بن نخبت أنه أسر من الأعداء ما لا يقل عن خمسة[٦] ثم هبط منسوب النيل فاضطر الى الزحف فى معظم الحالات برا ومع ذلك فقد سار الملك حتى أدرك الشلال الثالث وكان أول الفراعنة الذين دخلوا ذلك المكان المعتبر مدخل اقليم دنقله الملقب بجنة أعالى النيل . ولا يخفى أن هذا الاقليم خصب للغاية وفيه يجرى النيل لمسافة مائتى ميل حتى الشلال الرابع بلا عائق فى سيره . ونصب الملك بتلك الجهات خمسة أحجار أثرية وصف عليها غزواته وانتصاراته كما شيد على جزيرة تومبوس قلعة لا تزال آثارها باقية الى الآن وعين فيها حامية من الجيوش الغازية[٧] . وفى شهر أغسطس من السنة نفسها (أى بعد مرور خمسة أشهر من وصول الملك الى تانجور) بلغ تحوتمس الأول تومبوس ونصب فيها لوحا حجريا[٨] افتخر فيه بأنه الملك المهيمن على الأقاليم الشاسعة المبتدئة من تومبوس جنوبا والمنتهية بوادى الفرات شمالا ، ولكن يلاحظ أن الملك لم يقم بغزوات أسيوية تؤيد هذا الادعاء . ووصل الى الشلال الأول بعد مضى سبعة أشهر وكان معلقا جثة الزعيم النوبى المقتول من رجليها بمقدم سفينته[٩] . ويرجح أن بطء الملك فى رجوعه الى مصر كان بمناسبة قيامه بمشروعات نافعة منظمة بتلك الجهات وقت مروره بها . ولهبوط منسوب مياه النيل فى شهر أبريل كان ذلك الوقت أوفق الفرص لفتح مجرى السفن القديم بين صخور الشلال الأول ، فعهد الملك الى والى النوبة تحوروع بالقيام بهذه المأمورية . وقد نصب هذا الوالى هناك ثلاثة أحجار أثرية[١٠] شرح فيها أعماله ومشروعاته الناجحة، أقام حجرين منها فى جزيرة السهل وأقام الثالث على شاطئ النيل المقابل، ثم اخترق الملك ذلك الطريق بسفينته فى وسط احتفالات النصر معلقا رئيس النوبة بالكيفية المذكورة حيث بقيت كذلك الى أن وصل الى مدينة طيبه .

وبعد ما أخضع تحوتمس الأول بلاد النوبة تماما وجه همته نحو آسيا للغرض نفسه . وليلاحظ أن غزوات أمنحتب الأول الأسيوية هى التى جعلت تحوتمس الأول يفتخر ببسط ملكه على البلاد

(١) ٢ : ٨٠ (٢) ٢ : ٧٥ (٣) ٢ : ٨٠ (٤) ٢ صحيفة ٢٨ ملاحظة (ب) (٥) ٢ : ٨٠
(٦) ٢ : ٨٤ (٧) ٢ : ٧٢ (٨) ٣ : ٦٧—٧٣ (٩) ٢ : ٧٤—٧٧ (١٠) شرحه .

الأسيوية حتى نهر الفرات . والمعروف أن جزية تلك البلاد لم ترسل باستمرار كجزية النوبة ومع ذلك فقد كان السلام والسكون والخضوع مخيما على تلك الأقاليم الأسيوية .

وليلاحظ أن جغرافية الأراضي شرق البحر الأبيض المتوسط لا تسمح بجمع كلمة أهلها واتحادهم لتكوين وطن واحد منهم، فالجبال هناك كثيرة وكذا التلال والوديان، ولذلك تجد تلك الجهات مجزأة جغرافيا الى وحدات عديدة . فعلى طول شاطئ البحر الأبيض المتوسط يجد الناظر سلسلتين من الجبال يخترقان تلك البلاد ويعرفان بسلسلتي جبال لبنان الغربية والشرقية . أما السلسلة الغربية فتتعرج بعض تعرجات ثم تنتهي جنوبا الى تلال مقاطعة يهوذا التي تتدرج الى صحراء سينا جنوبي فلسطين، وتبتدئ من هذه السلسلة جنوبي جهة جزرل (Jezreel) سلسلة جبال أخرى تعرف بجبال كرمل (Carmel) تتجه الى البحر الأبيض المتوسط . أما سلسلة جبال لبنان الشرقية فتتجه جنوبا وشرقا مع بعض اعتراضات في السير هنا وهناك مارة شرقي البحر الميت ومتصلة هناك بجبال موآب ثم تنتهي جنوبا الى هضبة صحراء شبه جزيرة العرب الرملي . وفي شمالي ما بين سلسلتي جبال لبنان واد خصيب يخترقه نهر العاصي أو الأورونط ، وهو السهل المتسع الوحيد في سوريا وفلسطين لا تتخلله جبال ولا تلال ويمكن أن تنشأ فيه مملكة مستقلة قوية . أما شاطئ البحر الأبيض المتوسط فتعزله عن البلاد الداخلية سلسلة جبال لبنان الغربية وهو لذلك موافق لأن تسكنه أمة بحرية تجارية . أما فلسطين الواقعة جنوبيه فغير صالحة لأن تكون وطنا مستقلا منيعا لعدم وجود موانىء بحرية قوية على شاطئها ولكثرة أراضيها المجدبة ، زد على ذلك أنها معترضة بجبال كرمل وبوادي نهر الأردن والبحر الميت . وبشرق فلسطين سلسلة جبال تنتهي بالصحراء العربية الكبرى الا في جهتها الشمالية حيث تتصل بوادي نهر الأورونط وذلك قرب اتصال هذا النهر بنهر الفرات . في هذا المكان يجد القارئ أن النهرين يقتربان بعضهما من بعض ثم يبتعدان فيتجه نهر العاصي شمالا نحو البحر الأبيض المتوسط وينحدر الفرات جنوبا نحو بابل وخليج فارس (خريطة ٧) .

وسكان هذه البلاد الأسيوية ساميون لا يبعد أن يكونوا من مهاجري صحراء العرب، والمعروف أن مثل هذه الهجرة تكررت كثيرا في العصور التاريخية ، ويقال لهؤلاء القوم الحالين بالجهات الشمالية العراميون وبالجهات الجنوبية الكنعانيون. ولم يبد هؤلاء القوم اهتماما ولا كفاية للحكم كما أنه لم يكن لديهم أقل دافع نحو الاتحاد والتضامن . ويلاحظ أن انقسام تلك البلاد الى عدة أجزاء بالجبال والتلال صعب على الأهالي التعامل وجمع الكلمة فنشأ في كل قسم إمارة صغيرة مستقلة يحكمها أمير وهي تشمل مدينة كبيرة (مقر الحكم) وما يحيط بها من الحقول والقرى الصغيرة . ولم تستقل الامارات بعضها عن بعض في الحكم فقط بل في الديانات أيضا، فكان لكل إمارة معبود خاص يقال له "بعل" – ومعناه السيد – نسب له في أغلب الأحيان زوجة أو "بعلة" ونشاهد ذلك بوضوح في جبيل ببلوس . واعتيد بين هذه الامارات الشقاق والنزاع طمعا في نهب الأمتعة وضم

الأراضي اليها . وأهم هذه الامارات كَدِشْ نواة مملكة الهيكسوس على نهر الأورونط ، ولهـذا الموقع ميزة جغرافية عظيمة ساعدت كدش على بسط نفوذها بسهولة على البلاد المجاورة له ، والسبب فى ذلك اشرافها على الطريق الشمالى الموصل الى داخلية سوريا وعلى الطريق التجارى الموصل الى مصر والبلاد الجنوبية الذى يتفرع منه طريق آخر الى نهر الفرات ثم الى بابل . ولقرب كدش من النهاية الشمالية لسلسلتى جبال لبنان تمكنت هـذه الامارة من الاشراف أيضا على الطريق الموصل داخليـة سوريا بالبحر الأبيض المتوسط والمتبع سـير النهر الكبير (Eleutheros) (راجع خريطة رقم ٧ وكتاب المؤلف عن معركة كدش) . كل هـذه الميزات سهلت لكدش اخضاع الامارات الأسيوية وضمها تحت سلطتها ، وبهذه الطريقة نشأت مملكة الهيكسوس التى ألمعنا اليها سابقا[1] ، وسنرى فيما بعد أن هذه الامارات ذادت عن حوضها مدة تقرب من الجيلين الى أن سحقها تحوتمس الثالث فى آخر الأمر بجيوشه الجرارة .

نعم ان هذه الامارات لم تكن ميالة بطبيعتها الى تحسين أنظمتها الادارية وتوحيد كلمتها ولكنها كانت على جانب عظيم من الحضارة والمدنية فى مسائل أخرى . ودليلنا على ذلك مملكة الهيكسوس فقد علمت المصريين الفنون الحربية وصناعة المعادن والأسلحة الراقية والاكثار من العجلات وسائر أشكال الأوانى المعدنية . ولشدة البرد فى تلك الجهات برع أهلها فى نسج الملابس الصوفية وصنعها وعمل المهلهل منها بشكل بديع وبأثمـان باهظة . واشتهر هؤلاء الساميون بكثرة تجارتهم مع البلاد الأجنبية ، وكان لكل بلد من بلدانهم سوق كالموجود الآن . وهاجر بعض الأهالى من داخلية البلاد الى شاطئ البحر الأبيض المتوسط وأسسوا هناك مملكة فينيقيا ، وابتدأوا صيادين بحريين ثم ارتقوا فصاروا تجارا بحريين مهرة ، وأخذت سفنهم تنقل مصنوعاتهم الى جزيرة قبرص حيث اسـتخرج بعضهم معدن النحاس . ثم زحف الفينيقيون على شاطئ آسيا الصغرى فاستولوا على رودس وجزر الأرخبيل اليونانى ، ثم أسسـوا محطات تجارية لهم فى كل ميناء تصلح لذلك على ساحل آسيا الصغرى الجنوبى وعلى جزر اليونان وأرض اليونان نفسها . وبهذه الطريقة وزع الفينيقيون مصنوعاتهم على سكان تلك الجهات حتى صار لهذه المصنوعات قيمة تذكر فى الأسواق . وبديهى أنه كلما كثرت تجارتهم ازدادت ثروتهـم فنشأت بالبلاد مدن غنية عظيمة مثل صور (Tyre) وصيدة (Sidon) وجبيل (Byblos) وأرواد (Arvad) وبطرون (Simyra) ، وكانت كل مدينة من تلك المدن تحت ادارة أسرة قوية . أما مركز فينيقيا التجارى فقد استمر منذ ظهور الامبراطورية المصرية حتى عهد هومر الذى ذكرهم فى أشـعاره الشيقة لأن هؤلاء القوم كانوا وقتئذ مضربا للأمثال . ولم نهتد للآن الى أقصى مكان وصلت اليه تجارة الفينيقيين ولكنه لا يبعد أنهم أسسوا مراكز تجارية جهة قرطاجنة والأندلس . والمعروف عنهم أنهم نشروا "الحضارة اليونانية" فى شمالى البحر الأبيض المتوسط وأنهـم كانوا حلقة الاتصال بين الحضارتين المصرية واليونانية . وأطلق المصريون اسم "خِفْتِيُو" على اليونانيين الذين كانوا يحضرون الجزية والهـدايا لفرعون مصر . ولكثرة التعـامل

---

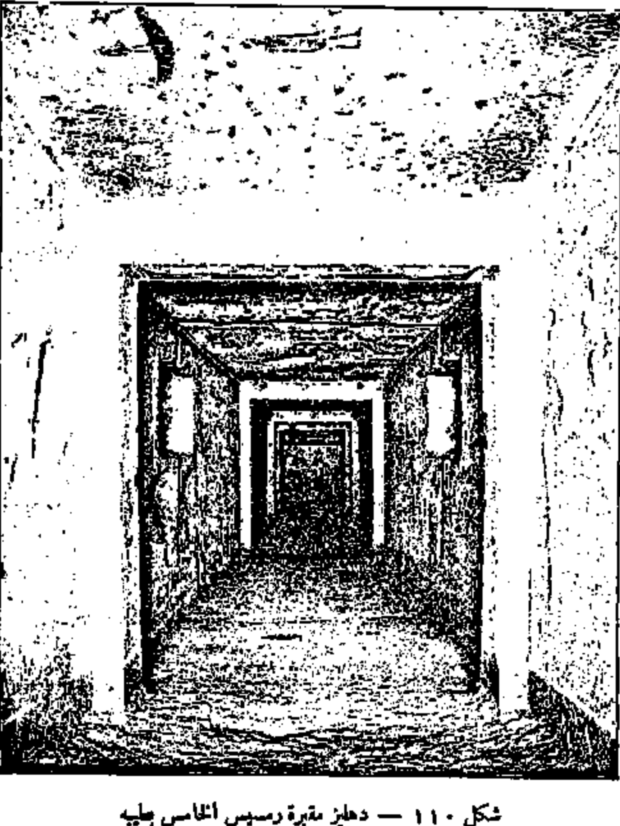
(1) صفحة ١٤٢ وما يليها

التجارى بين هؤلاء القوم والمصريين بالسفن الفينيقية أطلق المصريون اسم "سفن خفتيو" على سفن فينيقيا[١] . ولم نعرف للآن بالضبط وطن "الخفتيو" ولكن المعروف أنهم كانوا منتشرين فيما بين شاطئ آسيا الصغرى الجنوبى شرقا وجزيرة كريت غربا . وقد أطلق المصريون على تلك الأقاليم الشمالية اسم "الجزر البحرية" ظنا منهم أن آسيا الصغرى عبارة عن جزر صغيرة مثل الجزر المجاورة وهذا طبعا نتيجة جهلهم بداخلية تلك الجهات . واعتقد المصريون أن نهر الفرات ينبع شمالى سوريا من مستنقعات محاطة "بدائرة المحيط الأعظم"[٢] الذى هو نهاية أراضى العالم .

وقد استفادت مصر كثيرا من معارف علوم الاقليم المدعو "سوريا — فلسطين" مع أنه كان تحت سيطرتها الفنية والصناعية ، ولكون الحكومة المصرية أرقى نظاما من الامارات الأسيوية كان لمملكة النيل هناك هيبة واحترام منذ أقدم الأزمنة . زد على ذلك أن وجود القوات المصرية على أبواب آسيا كان كافيا لاخضاع الضعيف من هذه الامارات الأسيوية . والمعروف أن أهالى هذه البلاد السامية الغربية لم ينفردوا بفن أو صناعة ،لكنهم برعوا مع ذلك فى تقليد مصنوعات غيرهم وعدلوها بشكل يلائمهم ، فوسعت بذلك مشروعاتهم الصناعية والتجارية كثيرا ، وأصبحت ترى صادرات الفينيقيين الواردة الى بلاد شرقى البحر الأبيض المتوسط مصبوغة دائما بالذوق المصرى . ومما ساعد على انتشار الفن المصرى وذوق أهالى النيل فى أوربا و بلاد اليونان تلك المصنوعات المصرية الحرة التى كان يتاجر بها هؤلاء الفينيقيون فى هذه الجهات . هذه هى الطريقة التى انتشرت بها حضارة الشرق الى جنوبى وغربى أوربا . واعلم أن المدنية البابلية لم تكن واضحة فى مصنوعات سوريا وفلسطين لكن وجودها كان غير مجحود . والمعروف أن تجارة بابل تدخلت كثيرا فى البلاد غربيها منذ امبراطورية سَرْجُون ملك أجاد القصيرة العمر التى يرجع تاريخها الى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد ، ونجم عن ذلك ادخال الخط المسمارى البابلى فى سوريا وفلسطين ، وقد استمر استعمال هذا الخط فى تلك البلاد مدة طويلة . والسبب فى سرعة انتشار هذا الخط بتلك الجهات يرجع الى أن أهلها قوم ساميون ذوو لغة متشابهة كثيرو المعاملة التجارية ،تلك المعاملة التى كان لها التأثير نفسه فى نشر الخط الفينيقى ببلاد اليونان . وليلاحظ أن الخط المسمارى لم ينتشر استعماله بين الأقوام السامية فقط بل ظهر بين الحيثيين أيضا وأهل مملكة متانّى اللذين ليسا من أصل سامى ، ولذلك أصبح اقليم سوريا وفلسطين مجمع المدنية المصرية والآشورية بطريق ودى أولا ،لكنه لم يدم طويلا ، فنشأ عنه تشاحن كبير أدى الى الاحتكام الى حد الحسام . والى هذا السبب تعزى الحروب التى نشبت بين أهالى الدجلة والفرات من جهة ومصر من جهة أخرى فكلا الطرفين كان يطمع فى تملك سوريا وفلسطين ، ونجم عن هذا التشاحن أيضا أن معظم المعارك الحربية حصلت فى الأقاليم اليهودية حتى انمحى الوطن اليهودى ولم يعد له أثر على مدى الدهر .

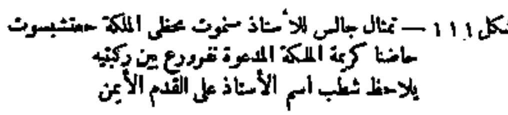
وحوالى سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد ظهرت لأول مرة فى التاريخ على حدود المملكة المصرية الشمالية قبائل حربية ايرانية زحفت واستوطنت أعالى الفرات . ودلتنا الآثار أنه فى غرة أيام الامبراطورية المصرية كانت تلك القبائل قاطنة فى منحنى نهر الفرات الكبير القريب من البحر الأبيض المتوسط

(١) ٢ : ٤٩٢ (٢) ٢ : ٦٦١



شكل ١١٠ — دهليز مقبرة رمسيس الخامس بطيبه





شكل ١١١ — تمثال جالس للأستاذ سنموت محظى الملكة حتشبسوت
حاضنا كريمة الملكة المدعوة نفرورع بين ركبتيه
يلاحظ شطب اسم الأستاذ على القدم الأيمن

حيث أسست مملكة تعرف باسم مِتَّانى . والمعروف أن هؤلاء الأقوام أول الايرانيين الذين وصلوا الى تلك الجهات فى التاريخ القديم . أما أصل هؤلاء القبائل فمن الأقاليم التى هى خلف الجبال الشمالية الشرقية حيث ينبع نهرا (Oxus و Jaxartes). بعد ذلك امتدّ نفوذ متانى حتى بلغ تُونِبْ (بعلبك ؟) الواقعة على نهر الأورونط غربا ومدينة نينوى شرقا . ولما عظم نفوذ هذه المملكة وكبر بأسها أصبحت عقبة فى سبيل سلطة بابل بآسيا الصغرى لأن مملكة متانى مرتكزة على ظهر الفرات أى على الطريق الموصل بابل بسوريا وفلسطين ؛ ولذلك كانت مِتَّانى من أسباب اضمحلال بابل . أما آشور فكانت مملكة صغيرة وقتئذ لا تشمل الا مدينة كبيرة حديثة ومع ذلك فقد أخذت تتهيأ تدريجا لقتال بابل . وهكذا تيسر لفراعنة مصر بذلك أن يوطدوا أقدامهم بآسيا لأن العقبات هناك ذللت وتم بذلك بسط النفوذ المصرى على تلك البلاد المترامية الأطراف .

وصمم تحوتمس الأول أن يطفئ ثورة سوريا وقد استمرت مدة طويلة ، وأن يخضعها كما أخضع بلاد النوبة . ومن دواعى الأسف أننا لم نعثر على البلاغات الرسمية لتلك الاجراءات الحربية ولكن الضابطين النشيطين المعروفين باسم أحمس والمتمين لمدينة الكاب تركا لنا أخبارا مختصرة عن هذه الغزوات لاشتراكهما فيها . ولا بد أن تكون كَدِش سلمت للمصريين خوفا وجزعا بعد ما رأت من نتائج غزوة أمنحتب الأول . وقد ذكر لنا الضابطان المصريان باهتمام أن الجيوش المصرية لم تُعَارَض ولم تُقَاوَم مطلقا بجهة كدش ، ولذلك تمكنت القوات المصرية من الوصول الى النهرين بلا نزاع ولا مقاومة تذكر . وقد ورد اسم "النهرين" على الآثار المصرية وأطلق هذا الاسم على البلاد الممتدة من نهر الأورونط الى الفرات وآسيا الصغرى . وقد شبت فى تلك الجهات ثورة شديدة لبعدها عن مصر وحصلت فيها موقعة حربية كبيرة انتهت بأسر عدد كبير من السوريين . قال أحمس بن إبانا عن هذه المعركة : "كنت قائدا لفيلق وكان جلالة الملك يرقب أعمالى الجريئة لما أسرت عجلة حربية بخيلها وركبها وأحضرتها لجلالته فكافأنى على ذلك بالذهب دفعتين"[1] . وقد أظهر أحمس بن نخبت أيضا جرأة أكثر من ذلك مع حداثة سنه فأحضر لفرعون مصر احدى وعشرين يدا مبتورة من قتلى الأسيويين وعجلة حربية وفرسا[2] . ويعتبر هذان الضابطان مثال الشجاعة التى اتصف بها جيش فرعون مصر وقتئذ . والظاهر أن الملك عرف تماما كيف يؤثر فى نفوس ضباطه فكان يلاطفهم ويقدّم لهم الهدايا إثر كل عمل حربى ماهر يأتونه فى ساحة القتال . هذا كل ما وصل الينا من أعمال تحوتمس الأول الحربية ولا يبعد أن يكون قد قام بأعمال أخرى عظيمة لا نزال نجهلها . والمعروف أن خدمة أحمس بن إبانا انتهت فى هذه المعركة أما أحمس ابن نخبت (الصغير) فقد عاش وحارب مع تحوتمس الثانى ونال الرضا والاحترام من تحوتمس الثالث وقت حكمه .

وشيد تحوتمس الأول أثرا حجريا على منحنى الفرات الكبير بالقرب من البحر الأبيض المتوسط ذكر فيه أن ذلك المكان هو الحد الأقصى لممتلكات مصر الأسيوية[3] . وهكذا حقق الملك ما افتخر به

(١) ٢ : ٨١ (٢) ٢ : ٨٥ (٣) ٢ : ٧٨ ؛

منذ سنة واحدة وهو ذلك الأثر الذى نصبه جهة الشلال الثالث على حدود مملكته الجنوبية . وقد غلا تحوتمس الأول فى فخره فقال لكهنة العرابة المدفونة ذات مرة : "لقد أوصلت حدود مصر الى دائرة الشمس" [١] وهو قول فيه بعض الحقيقة بالنسبة لتخيلات المصريين والشرقيين عامة بخصوص العالم وقتئذ .

من ذلك يتضح أن فرعونين من فراعنة مصر تمكنا حتى ذلك الوقت من رؤية نهر الفرات ،وأن أمراء سوريا والعرب أخذوا يقدرون قدر مصر ويعجبون بقوتها ومكانتها ، فأرسلوا اليها مع البدو وسائر الفلسطينيين الجزية وهدايا ثمينة فتضخمت المالية المصرية عما كانت عليه سابقا[٢] ، وكان هذا أكبر مساعد لتحوتمس الأول على اصلاح ما تلف من المعابد والهيا كل المصرية التى أهملت منذ زمن الهيكسوس. ثم استصغر فراعنة مصر هيا كل المملكة الوسطى بطيبه لحقارتها ولأنها لا تليق برفعة مصر المالية والاجتماعية ، فندب تحوتمس الأول مهندسه الماهر المدعو إننى(Ineni) وكلفه تشييد صرحين كبيرين عند مدخل معبد آمون وبناء ساحة كبيرة مسقفة ذات عمد مصنوعة من خشب الأرز اللبنانى ، وأمره أيضا بنصب أعلام طويلة أمام مدخل المعبد رءوسها مصنوعة من الذهب والفضة وخشبها من أرز لبنان كذلك . أما باب المعبد فكان مصنوعا من البرنز الأسيوى البديع ونقش عليه المعبود مطعما بالذهب [٣] . وأصلح الملك أيضا معبد أزوريس بالعرابة المدفونة وزوده بالأثاث الجميل والأدوات الفضية والذهبية وتماثيل المعبودات البديعة كالتى فقدت أيام حكم الهيكسوس[٤] . ورتب الملك أوقافا سنوية على ذلك المعبد وترك فى آخر عمره تعليمات للكهنة ليتبعوها وقد فعل كل هذا تخليدا لذكراه على ممر الدهور[٥] .

---

(١) ٢ : ٩٨ (٢) ٢ : ١٠١ (٣) ٢ : ١٠٣ — ٤ (٤) ٢ : ٩٢ — ٩٦ (٥) ٢ : ٩٧

الفصـــــل الخامس عشر

شقاق التحوتموسيين وحكم الملكة حعتشبسوت

لمـا قرب تحوتمس الأول من السنة الثلاثين من حكمه (ومن تسلمه مقاليد الملك من أبيه أيضا) أرسل مهندسه المخلص إنيني الى محاجر الجرانيت بجهة الشلال الأول لعمل مسلتين كبيرتين ينصبان فى احتفال عيد سد (Hebsed) الذى كان يعمل كل ثلاثين سنة ، فأحضر إنيني هاتين المسلتين الى طيبه فى سفينة طولهـا مائتا قدم وعرضها ثلث ذلك تقريبا ونصبهما أمام صرحى معبد الكرنك اللذين شيدهما سابقا للملك[1] ، ونقش على احداهما (وهى الباقية للآن أمام مدخل المعبد) اسم تحوتمس الأول وألقابه[2] ، لكنه لمـا شرع ينقش المسلة الثانية حصلت فى مصر حوادث منعت كتابة اسم تحوتمس المـذكور عليهـا . ومعلوم أن تحوتمس الأول كان وقتئذ طاعنا فى السن[3] ثم ان زوجتـه المدعوة أحمموس توفيت ، فضعف مركزه فى البلاد لأنه كما ذكرنا آنفا توصل الى الملك بزوجته المنتمية الى الأسرة الطيبية الشهيرة التى طردت الهيكسوس وحاربتهم بشدة وهمة لا تعرف الملل حتى أدهشت العـالم . فى هـذا الوقت ظهر فى القطر حزب قوى رأى أن وراثة الملك تحصر فى ذرية الملكة أحمموس وهى تشمل ولدين وابنتين . ويلاحظ أنه قد توفى من هؤلاء الأطفال الأربعـة ولدان وابنة فى حداثة السن فلم يبق منهم الا ابنة يقال لهـا مَعْ كَارَعْ حَعْتْشِبْسُوتْ . وأخذ نفوذ حزب الملكية يقوى جدا حتى اضطر تحوتمس الأول أن يعلن للـملأ أن الأميرة حعتشبسوت هى الوارثة الواحدة للملك على كراهية المصريين لحكم الملكات .

ورزق تحوتمس الأول ابنا من زوجة غير شرعيـة تدعى الأميرة مُوتْ نُفْرتْ صار فيما بعـد تحوتمس الثـانى وابنا آخر من احدى حظياته المدعوة إزيس صار فيما بعـد تحوتمس الثالث . وقد حصلت مشاحنات ومنازعات داخلية مجهولة فى آخر عهد تحوتمس الأول صعب على الأثريين استجلاء حقيقتها[4] ، والسبب فى صعوبة معرفة أصل ذلك النزاع قلة المعلومات الواردة على جدر المبانى والهياكل وطول المـدة التى مضت على تلك الحوادث التى تقرب من ثلاثة آلاف وخمسمائة سـنة . ولا يبعد أن يكون زمن هـذه المنازعات فى مبدأ حكم تحوتمس الثالث وطوال حكم تحوتمس الثانى . والمستنتج من أخبار تلك العصور أن هذه المنازعات انتهت فى آخر الأمر باستمرار تحوتمس الثالث فى الحكم مدة طويلة وبقاء تحوتمس الثـانى فى الحكم مدة قصـيرة فى أوائل عهد تحوتمس الثالث ، وهذا معناه بعبارة أخرى أن تحوتمس الثالث ولى الحكم أولا مدة قصيرة ثم أعقبه تحوتمس الثانى ثم انتقل الملك بعد ذلك الى تحوتمس الثالث ، وهذا هو أصوب حل للتوفيق بينه وبيـن ما جاء بالآثار . ودلتنا الأخبار أن عواطف الحب والشفقة والغـيرة كانت تتجاوب للمهادنة وسـط تلك المنازعات الفرعونية لأن الملكة حعتشبسوت الجميـلة الزكية ابنة تحوتمس الأول طالبت بحقها

(1) ٢ : ١٠٥ (2) ٢ : ٨٦ — ٨ (3) ٢ : ٦٤ و ١ : ١١ (4) ٢ : ١٢٨ — ١٣٠ .

فى الملك . والظاهر أنه لما توفى أخو هذه الأميرة تزوجت بأخيها من أبيها المدعو تحوتمس الثالث ابن الحظية . وكان تحوتمس الثالث فاقد الأمل فى الملك لأنه ليس من دم ملكى فوالده ووالدته خليان من هذه الصفة ، ولذلك عين تحوتمس الثالث فى مبدأ أمره كاهنا صغيرا بالكرنك وسرعان ما فطن لشعور الكهنة وقتئذ نحوه . فلما توفيت الملكة أحمس طالب تحوتمس الثالث بالملك كما فعل أبوه من قبل لأنه اقترن بالأميرة حتشبسوت التى من دم ملكى ، وساعده على ذلك كهنة آمون وقد أعلن هذا المعبود أيضا رضاه عن ذلك . ولم يثبت للآن اذا كان هناك اتفاق سلمى سابق مع تحوتمس الأول على هـذا الموضوع أو أنه دبر طى الخفاء عن جهل منه ثم نفذ بغتة على غير انتظار بمعبد آمون . والثابت أنه حدث فى أحد الأعياد أن حمل تمثال آمون بالكرنك وسط هتاف الجماهير كالعادة من قدس الأقداس الى الساحة الكبرى ، وكان تحوتمس الثالث وقتئذ جالسا مع باقى الكهنة فى قاعة العمد الشمالية بساحة تحوتمس الأول ، فطاف الكهنة بتمثال المعبود حول العمد بكيفية يفهم منها أن المعبود يبحث عن واحد بينهم ،ثم وقف التمثال بغتة أمام الأمير الشاب تحوتمس الثالث فخر هذا ساجدا على الأرض ، إذ ذاك رفعه المعبود وعطف عليه ثم أعلن رغبته أن يجلسه على "المقعد الملكى" بالمعبد الخاص بالملوك ، فنفذت ارادة المعبود فى الحال . والغريب أن تحوتمس الأول قاد الاحتفال وقدّم عطر البخور لتمثال آمون قبل حصول هذه الحادثة بقليل وما لبث حتى ورد أمر المعبود بتعيين تحوتمس الثالث ملكا على مصر[1]، وأعلنت فى ذلك الوقت أسماء وألقاب تحوتمس الثالث للرعية وذلك فى شهر مايو سنة ١٥٠١ قبل الميلاد . وهكذا تبوأ الكاهن بغتة عرش الفراعنة، وقد سرد تحوتمس الثالث هذه الحادثة لرجال طائفته بعد ذلك بعدة سنين لما شيد بعض قاعات الكرنك فقال ما ترجمته : "إنه كان فى نيته زيارة عين شمس ليعينه المعبود الشمسى ملكا على مصر لكنه أخذ الى السماء فشاهد فيها ذلك المعبود بأبهتـه العظيمة فحياه الإله وأنعم عليـه بعرش مصر و بالألقاب الملكية" . ولكون هذه الحادثة العظيمة المشرفة أظهرت عطف المعبودات نحو تحوتمس الثالث أمر بنقشها على جدر الكرنك ليعلمها الخاص والعام[2] .

ومع أن تحوتمس الأول اعتزل العرش فلم يعتبر هذا العزل خطرا على السدّة الملكية ولم يتعرض له فى معيشته . ولما ولى تحوتمس الثالث عرش مصر استقل بالملك المستحوذ عليه من زوجته وأخته حتشبسوت وأهمل نفوذ حزب الوراثة . و بعد ما مضى على استيلائه ثلاثة عشر شهرا أصلح معبد سلفه سيزستريس الثالث بجهة سمنه وكان مشيدا باللبن ،وأقام معبدا جميلا بالحجر الرملى الجيد، وأقام كذلك الأثر القديم المثبت حدود مصر أيام سيزستريس الثالث فى عهد المملكة الوسطى ، كما أنه نفذ وصايا سيزستريس المذكور الخاصة بتقديم القرابين لروحه[3] . ولم يورد تحوتمس الثالث فى هذه الأعمال كلها اشـارة واحدة الى اشراك حتشبسوت معه فى الملك بل اقتصر بتلقيبها منذ ذلك الوقت " بالزوجة الملكية العظيمة أو الكبيرة" ولكن يلاحظ أن الحزب المطالب بتطبيق قانون الوراثة الملكية كان قويا لايستهان به . زد على ذلك أن القوم ما زالوا ذاكرين ذلك الاحتفـال الكبير الذى أقامه تحوتمس

(١) ٢ : ١٣١ — ١٣٦ و ١٣٨ — ١٤٨ (٢) شرحه (٣) ٢ : ١٦٧ — ١٧٦

الأول لتعيين حتشبسوت وارثة له منذ خمس عشرة سنة، وكانوا أيضا عالمين بالصلة الدموية المتينة بين هذه الأميرة والأسرة الطيبية الملكية المنتسب اليها الملوك ذوو اسم سكننرع والملك أحمس الأول نفسه . أمام هذا الشعور العام اضطر تحوتمس الثالث أن يعترف رسميا بحق زوجته حتشبسوت فى الملك ، ومن ثم أخذت سلطته تضعف وتختفى فى حين أن نفوذ هذه الملكة أخذ يقوى ويشتد تدريجيا حتى أضحت فرعونا جامعة كل الحقوق الفرعونية ولقبت بحوريس المؤنث وأنث لأجلها لقب الجلالة ، ثم انصبغ نظام القطر والأعمال الملكية بالذوق النسوى تمشيا مع ادارة حتشبسوت .

ولما تسلمت حتشبسوت الملك اهتمت بالأعمال واقامة الآثار فشيدت لنفسها محرابا عظيما بديعا فى فجوة بسلسلة جبال طيبه الغربية على جهة النيل الغربية يقال له الدير البحرى سيأتى عليه الكلام فيما بعد . بعد ذلك حدث فى المملكة نزاع آخر أدى الى انتقال الملك من حتشبسوت الى تحوتمس الثانى ، ولم نعلم للآن السبب الحقيقى لذلك ولكنه ربما كان نتيجة ضعف حزب الكهنة المنتمى اليه تحوتمس الثالث أوحزب الوراثة المنتمية اليه حتشبسوت ، ولا يبعد أيضا أن يكون ذلك نتيجة زيادة نفوذ حزب تحوتمس الثانى نفسه . ومهما كان السبب فقد اتحد تحوتمس الثانى ووالده المعزول واستقلا بالملك بعد ما حكمت حتشبسوت القوية وتحوتمس الثالث معا خمس سنوات ، فشن تحوتمس الأول والثانى الغارة على أعمال حتشبسوت وأزالا اسمها من الآثار وأحلا اسميهما مكانه فى كل فرصة تسنح .

فى ذلك الوقت بلغ النوبة أخبار نزاع أفراد الأسرة المالكة فشبت فيها ثورة لعصيان مصر وصل خبرها الى تحوتمس الثانى يوم توليه الملك ، وتعذر عليه ترك القصر الملكى والعاصمة لأعدائه يكيدون له بعد ما صرف مجهوده حتى بلغ مراده ، فجند جيشا مصريا جرارا وأرسله اليها بقيادة ضابط مصرى ووصل هذا الجيش الى اقليم الشلال الثالث وأنقذ المواشى المصرية هناك بعد ما أوشكت أن تقع فى أيدى الأعداء . ودلتنا الآثار أن القائد المصرى لم يكتف بهزيمة النوبيين بل قتل كل رجل وقع فى قبضته كما أنه أسر ابن رئيس النوبة وبعض أهاليها العصاة وأرسلهم الى طيبه كرهائن منعا لحصول اضطرابات فى المستقبل ، وهناك استعرضهم فرعون مصر وهو جالس على عرشه[١] . بعد ذلك هدأت الحال فى النوبة ثم حصلت اضطرابات بآسيا شمالا[٢] فاضطر تحوتمس الثانى أن يزحف اليها فوصل الى مدينة نى (Niy) ثم الى جنوبى فلسطين وعاقب بدوها الذين عبثوا بالأمن ، لكننا لم نتأكد الى الآن اذا كان هذا العقاب حصل فى أثناء عودة تحوتمس الثانى الى نى أو وقت إيابه منها . وكان مصاحبا له فى تلك الحملة أحمس بن نخبت أحد قائدى مدينة الكاب ، وقد روى هذا الضابط أنه استولى على أسرى عديدين هناك يتجاوزون العد[٣] . وهذه الغزوة آخر ما قام به هذا القائد الشهم الذى اعتزل الخدمة بعد ذلك كما فعل زميله أحمس بن إبانا، فعكف فى بلده الكاب شريفا ماجدا حتى أتاه القدر المحتوم . ولما كان

(١) ٢ : ١١٩ — ١٢٢ (٢) ٢ : ١٢٥ (٣) ٢ : ١٢٣ — ٤

معبد حتشبسوت ترك ولم يكمل بناؤه، رأى تحوتمس الثانى وقت عودته من آسيا أن ينقش على جدر ذلك المعبد انتصاراته الأسيوية، فنقش على جدار أملس هناك أنه تسلم الجزية من أعدائه المقهورين ولا يزال باقيا من بيان تلك الجزية كلمتا "الخيل" و"الفيلة" [(١)] . فى هذا الوقت توفى تحوتمس الأول على الأرجح فضعف بذلك مركز تحوتمس الثانى الذى كان دائما ضعيف البنية واهن الصحة [(٢)] فاتحد هـذا وتحوتمس الثالث معا فى ادارة المملكة . والمعروف أن تحوتمس الثالث كان قد اعتزل السياسة من مدة ولكنه كان يدبر طى الخفاء مشروعات بقصد عودته الى الملك ثانية[(٣)] . وعلى العموم فان حكم تحوتمس الثانى لم يدم طويلا لأنه توفى قبل أن تمضى على مشاركته لأخيه ثلاث سنين .

حينئذ تسلم تحوتمس الثالث الملك ثانية وقد اضطر مراعاة لمطالب حزب حتشبسوت أن يشركها معه فى الحكم . ثم سارت الأمور الى أبعد من ذلك فأخذ حزب الملكة يقوى ويستأثر بالسلطة حتى ازوى تحوتمس الثالث من الميدان السياسى تقريبا وصار لحتشبسوت وحدها مطلق الحل والعقد . والغريب أن كلا من حتشبسوت وتحوتمس الثالث كان يؤرخ حكمه من عهد تولية الملك أولا متجاهلا مدة حكم تحوتمس الثانى . وقد اتبعت حتشبسوت سياسة الشدّة والضغط وعدت أول امرأة عظيمة معروفة فى التاريخ . وقد أوضح لنا إنينى مهندس والدها مركز الأخت والأخ بالعبارة الآتية : "كان تحوتمس الثالث حاكما جالسا على عرش أبيه الذى خلّفه . أما أخته الزوجة المقدسة حتشبسوت فكانت تحكم البلاد بارادتها فطأطأت لها مصر رأسها مطيعة لأوامرها، ولا غرابة فى ذلك لجلالتها من النسل المقدس العظيم الخارج من صلب الآلهة ، فكانت بمثابة حبل مقدم السفينة فى البلاد الجنوبية ووتد مرسى السفينة عند أهالى الجنوب ، وحبل مؤخر السفينة العظيم فى البلاد الشمالية . لقد كانت جلالتها صاحبة الأمر والنهى والمشروعات السديدة والقول المليح الذى ملأ أهالى القطر فرحا وسرورا" . ويعتبر هذا أقدم تشبيه معروف لتدبير سياسة الدولة بقيادة السفينة ، وفيه شبه إنينى الملكة حتشبسوت بحبال سفينة النيل التى تجذبها وتأتى بها الى المرفأ المطلوب[(٤)] . والحق يقال ان هـذا التشبيه ينطبق تماما على سياسة حتشبسوت لأن أعضاء حزبها عينوا أنفسهم فى أهم وظائف الدولة فكان سِنْمُوت (شكل ١١١) أقرب الناس اتصالا بها وأشدهم تفانيا فى مصلحتها وقد كان فيما سبق أستاذا لتحوتمس الثالث فى الصغر[(٥)] ثم عهد اليه فى تربية الأميرة نِفْرُورَع كريمة حتشبسوت (شكل ١١١) التى قضت أوائل عمرها تحت إشراف القائد أحمس بن نخبت السابق الذكر والذى أصبح الآن هرما عاجزا عن القيام بالأعمال الشاقة[(٦)] . بعد ذلك عين سنموت حاجبا للأميرة نفرورع[(٧)] وأمينا على أملاكها . وكان له أخ يدعى سِنْ مِنْ [(٨)] من أشد أنصار حتشبسوت أيضا . وربما كان أعظم أنصار جلالتها المدعو حَاپُوسِنِبْ[(٩)] الذى كان وزيرا ورئيس كهنة آمون وعميد طائفة كهنة القطر المصرى

---

(١) ٢ : ١٢٥ (٢) Masp. Mom. roy., 547. (٣) ٢ : ٥٩٣ — ٥ (٤) ٢ : ٣٤١ (٥) تمثال الكرنك
(٦) ٢ : ٣٤٤ (٧) ٢ : ٣٦٣ ملاحظة (٨) ٢ : ٣٤٨ (٩) ٢ : ٣٨٨ ملاحظة

التي أنشئت حديثا[1]، فكان هذا الوزير محتفظا بالسلطة التنفيذية والدينية اللتين استعملهما لمصلحة الملكة . وبهذه الكيفية أدار حزب حتشبسوت دولاب أمور الدولة . ولما أسن إنيني وكان شاغلا وظيفة رئيس خزانة الذهب والفضة استبدل به الأمير تُحُوتى [2] ، ثم أشرك أحد كبار المالية المدعو نِحْسِى[3] مع حابوسنب فى ادارة الأعمال . وبهذه الكيفية أدار حزب الملكة دولاب أعمال الحكومة . ولا يخفى أن مستقبل هؤلاء الموظفين كان معلقا على نجاح وسيادة الملكة ولذلك حافظ هؤلاء بكل ما أوتوا من جهد وعناية على مركز جلالتها السامى ، فكانوا يبذلون قوتهم فى اقناع الأهالى بأن حتشبسوت لم تعين ملكة الا بأمر إلهى قديم ونقشوا ذلك على جدر معبدها بالدير البحرى[4] حيث تشاهد الآن كثيرا من الرسوم البارزة موضحا بها طريقة ولادتها ، ومن هذه الرسوم يتضح للقارئ عقيدة المصريين القديمة وهى أن الفراعنة أنجال حقيقيون للمعبود الشمسى ، فيرى فى الرسوم المعبود آمون (وارث المعبود الشمسى فى اعتقاد أهالى طيبه) يخاطب أحمس زوجة تحوتمس الأول قائلا : " ستحملين منى بابنة تدعى حتشبسوت . . . . . تعتلى عرش مصر وتحكم البلاد كلها بمهارة " [5] فجاء هذا بمثابة اعلان مقدس للأهالى بتعيين حتشبسوت ملكة لعرش مصر . ومن ثم أخذ القوم يرسمون كيفية ولادتها مصحوبة بمعجزات عظيمة مما أثر كثيرا فى نفوس البلاط الملكى والرعية اذ اتضح لهم بذلك علاقة حكم هذه الملكة بوارث المعبود الشمسى[6] . وقد راعى الرسام فى رسومه تلك العقيدة مراعاة دقيقة فرسم حتشبسوت مولودة " طفلا " فجاء هذا برهانا لنا على عظم الصعوبة التى عاناها أنصار حتشبسوت فى جعل مقاليد مملكتهم فى يد جلالتها . ثم ألحقوا هذه الرسوم بأخرى أظهروا فيها كيف يتوج المعبودات هذه الملكة ، ورسوم تمثل تحوتمس الأول مجتمعا مع ابنته حتشبسوت فى احتفال كبير مهيب بالقصر الملكى فى عيد رأس السنة[7] مخاطبا اياها بأنه يعترف أنها وارثته فى المملكة المصرية . وليلاحظ أن هذه النقوش نقلت عن نقوش أمنمحعت الثالث أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة التى عينه بمقتضاها والده سيزستريس الثالث ملكا على مصر . ولإبطال كل معارضة لحكومة حتشبسوت رأى رجال حزبها أن يرسموا على الدير البحرى تحوتمس الأول مخاطبا البلاط الملكى قائلا : " عليكم أن تطيعوا جلالتها (أى حتشبسوت) وأن تحذوا طوعا لارادتها ، فالذى يخضع لها منكم يعيش أما الذى يغتاب جلالتها فلن يترك حيا " [8] . ولم يكتف رجال حزب حتشبسوت بذلك بل رسموا تحوتمس الأول على جدر صرحه المشيد عند المدخل الجنوبى للكرنك داعيا معبودات طيبه لتمنح ابنته عهدا يانعا وحكما عادلا[9] . بهذه الحيل اجتهد أفراد حزب الملكة فى اقناع الأهالى بحقها فى الملك ونزع أى عقيدة لا تتمشى مع حكم السيدات .

---

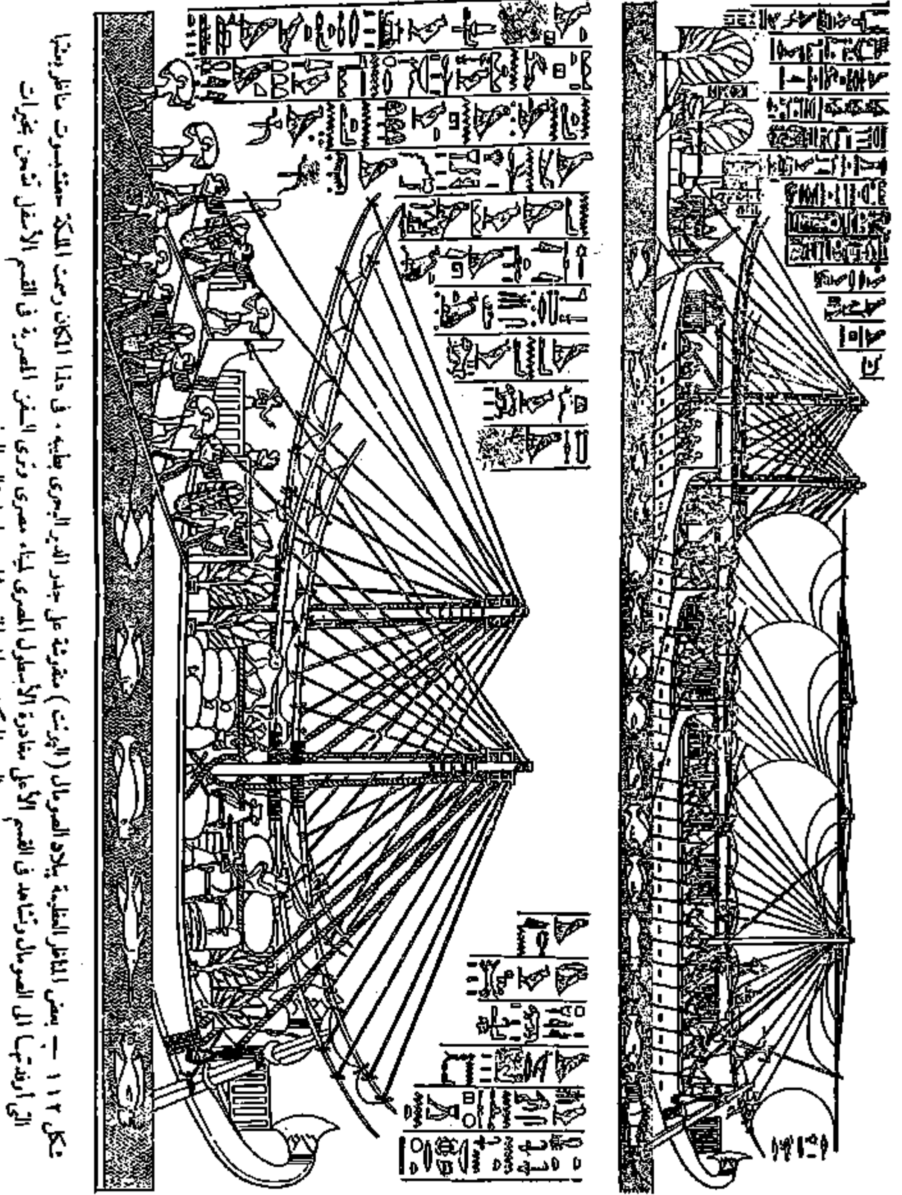
(1) ٢ : ٢٨٨ (2) ٢ : ٣٦٩ ملاحظة (3) ٢ : ٢٩٠ (4) ٢ : ١٨٧ ملاحظة (5) ٢ : ١٩٨
(6) ٢ : ١٨٧ ملاحظة (7) ٢ : ٢١٥ (8) ٢ : ٢٢٧ و٢ : ١٥ – ١٦ (9) ٢ : ٢٤٣ ملاحظة

ولما تبوأت حتشبسوت منصة الحكم بدأت بتشييد معبدها البديع بالدير البحرى فى سفح جبال طيبه الغربية الذى نقش عليه أبوها وأخوها اسميهما بدل اسمها . ويخالف بناء هذا المعبد ما اتبع فى بناء معابد ذلك العصر الكثيرة لكنه يشبه كثيرا معبد منتوحوتب الثانى الصغير المدرج المجاور له . ويشمل هـذا المحراب ثلاث شرفات مدرجة تنتهى أعلاها بساحة عظيمة مرتفعة تحيط بها صخور شاهقة صفراء محفور فيها قدس الأقداس . وقد أقيمت أمام هذه الشرفات عمد بديعة يتضح لمن يراها عن بعد حسن ذوقها وتناسق حجمها فتأكد بذلك النظرية القائلة بأن اليونانيين أول من أتقن استعمال العمد الخارجية وأن المصريين أقدم من أجاد استعمال العمد الداخلية فى البناء (شكل ١١٣) . أما المهنـدس الذى شيد هـذا المعبد فهو سِنْمُوت[١] محظى الملكة . وقد كلف نُحُوتى[٢] الاشراف على صنع أبواب المعبد من البرنز المطعم بخليط الذهب والفضـة وعلى مصنوعات معدنية أخرى . وكانت الملكة شديدة التعلق بهذا المعبد فكانت تشبهه بجنة آمون وتطلق على شرفاته اسم "شرفات شجر المر" المستحضر من الصومال موطن الآلهة الأصلى . وورد فى نقوش هـذا المعبد أن المعبود آمون طلب من الملكة "أن تمثل له فى هـذا المكان بلاد الصومال"[٣] فأطاعته واضطرت أن تغرس شجر المر المستحضر من الصومال فى تلك الشرفات . ومعلوم أن أسـلاف حتشبسوت كثيرا ما أرسلوا البعثات الى تلك الجهات لكنه لم يفكر أحد منهم فى جلب أشجـار المر منها فكانت هى أول من فعل ذلك . وجرت العادة قبل ذلك العصر أن صمغ المر كان تحضره الى مصر القوافل البرية الآتية من الصومال[٤] فلما جاء حكم الهيكسوس تأخرت تلك التجارة الأجنبية كثيرا . ثم وليت حتشبسوت الملك وقد وقفت يوما أمام ناووس المعبود فسمعته يقول: "يجب اعادة فتح طريق الصومال ليتيسر الوصول من هذه الشرفات الى بلاد المر[٥] ، فهذه البلاد المقدسة جميلة ، وأنا أحبها فقد خلقت تلك البلاد لأسلى قلبى"[٦] . قالت الملكة: "وهكذا أنجزت كل ما رغب فيه المعبود على حسب أمره"[٧] .

وطبيعى أن تعهـد الملكة لرئيس ماليتها المدعو نِحْسِى فى قيـادة حملة بلاد الصومال وزودته بالصناديق الكافية لشحن ما يجلب من حاصلات تلك البلاد[٨] . فلما كانت السنة التاسعة من حكم الملكة[٩] أقيمت الاحتفالات وقدمت القرابين الى معبودات الهواء ليتفضلوا على أسطول الملكة بالرياح الطيبة لتساعده على السفر . وأقلعت السفن وكان عددها خمسين سفينة فتركت المياه المصرية قاصدة الصومال متبعة نهر النيل حتى شرقى الدلتا وهناك عبرت قناة وادى طميلات الى البحر الأحمر، وقد ألمعنا سابقا الى استعمال هذه القناة فى عهد المملكة الوسطى (راجع صحيفة ١٢١). أما السفن فكانت مشحونة ببضائع مصرية ليستبدل بها بضائع صومالية . وقد أخذ الأسطول معه أيضا تمثالا للملكة حتشبسوت لنصبه فى تلك البلاد السحيقة تذكارا لها ، واذا كان هذا التمثال باقيا للآن بتلك الجهات فيكون أبعد تمثال لملوك مصر معروف للآن . ووصلت السفن المذكورة الى بلاد بونت (الصومال)

---

(١) ٢: ٣٥١ و٢: ٦-٧ (٢) ٢: ٣٧٥ (٣) ٢: ٢٩٥ (٤) ٢: ٢٨٧ (٥) ٢: ٢٨٥ و١: ٥
(٦) ٢: ٢٨٨ (٧) ٢: ٢٨٥ و١: ٦ (٨) ٢: ٢٩٠ (٩) ٢: ٢٥٢-٣ و٢٩٢



شكل ١١٢ ب — بعض المناظر العظيمة ببلاد الصومال (البونت) منقوشة على جدر الدير البحري بطيبه . في هذا المكان رسمت الملكة حتشبسوت مناظر بعثتها التي أوفدتها الى الصومال وتشاهد في القسم الأعلى مغادرة الأسطول المصري لميناء مصري وترى السفن المصرية في القسم الأسفل تشحن بخيرات الصومال كشجر المر الذي يشاهد داخل تلك السفن

بسلام فضرب قائدها قبابه على الشاطئ وهناك قابله ملك پونت المدعو پرحو (Perehu) باحترام وإكرام متبوعا بزوجته البدينة وأطفاله الثلاثة[١] . والظاهر أن المصريين وقتئذ كان قد مضى عليهم مدّة طويلة لم يطئوا فى أثنائها أرض الصومال لأنهم رسموا الصوماليين على جدر الدير البحرى قائلين لهم: "لماذا أتيتم الى هذه الأرض التى جهلها من سبقكم من المصريين؟ هل نزلتم من السماء أو ركبتم السفن فى البحر الموصل الى الأرض المقدّسة (الصومال) ؟ "[٢] . بعد ذلك قدّم المصريون هديتهم الى حاكم الصومال فابتهج بها ومال الى المصريين كثيرا وأمر حالا بربط السفن المصرية قريبا من الشاطئ، ثم أنزلت المتزات الخشبية وأفرغت محتويات السفن ثم ملئت ثانية بخيرات بلاد الصومال[٣] المدهشة كالأخشاب العطرية الجميلة على اختلاف أنواعها وكومات المر وعدد كبير من أشجار المر اليانعة وكثير من الآبنوس والعاج النقى وذهب إمو (Emu) الأخضر وخشب الأنيسون والبخور والكحل ، وهذا غير النسانيس والقردة والكلاب وجلود الكثام الجنوبية وبعض أهالى الصومال وأولادهم . وتعتبر هذه الحملة الأولى من نوعها منذ بداية التاريخ المصرى[٤] . ثم أقلع الأسطول المصرى عائدا الى مصر سالما ولم تعترضه حوادث سيئة ولم يضطر أن ينقل بضاعته من سفنه بل وصل سليما الى مرفأ طيبه كما تشير الآثار[٥] . ولا بد أن يكون دهش المصريين عظيما لما وقع نظرهم على واردات الصومال السحيقة العجيبة وهى تمر بشوارع طيبه فى سيرها نحو القصر الملكى حيث قدّمها القائد المصرى الى الملكة ، فلما شاهدت جلالتها هذه الخيرات تبرعت من فورها بجزء منها الى المعبود آمون مع جزء آخر من واردات النوبة لأن المصريين اعتبروا هذين القطرين أقليما واحدا . واليك بيان ما تبرعت به الملكة لآمون : "واحد وثلاثون من أشجار المر الخضراء وكمية من الذهب والفضة (Electrum) والمكاحل والرماح الصومالية والآبنوس والأدوات العاجية ونمر على قيد الحياة صيد خصيصا لجلالتها وكمية كبيرة من جلود النمر وثلاثة آلاف وثلثمائة رأس من الغنم"[٦] . ويستدل من رسوم الآثار أن كميات المر التى أحضرت جزئت كومات يقرب ارتفاع كل منها ضعف طول الرجل وكانت تكال بحضور تحُوتِى أحد أتباع الملكة المقرّبين . أما حلقات الذهب التى أحضرت فكانت توزن بموازين يبلغ ارتفاع الواحد منها عشرة أقدام[٧] . وبعد ما أعلنت جلالة الملكة نجاح بعثة الصومال الى المعبود آمون على حسب رغبته[٨] أقامت احتفالا عظيما استدعت فيه تحوتى ونحِسى رئيس الخزانة وقائد البعثة وأغدقت عليهما النعم ، وأخبرت أعضاء أسرتها المالكة بنتيجة مجازفتها العظيمة[٩] وذكرتهم برغبة آمون فى فتح طريق الصومال وغرس أشجار المر من تلك البلاد المقدّسة فى حديقة معبده ، ثم قالت مباهية: "لقد أنجزت تلك الرغبة. . . . . . . وجعلت حديقة معبده أشبه بالصومال كما أراد ، فصارت حديقة كبيرة كافية لنزهته فيها"[١٠] . وهكذا صار هذا المعبد البديع ذو الشرفات عبارة عن حدائق من شجر المر لأجل آمون ، ولا شك أن الفضل فى ذلك يرجع الى همة ونشاط هذه الملكة التى اضطرت لأن تحضر

---

(١) ٢ : ٢٥٤ (٢) ٢ : ٢٥٧ (٣) ٢ : ٢٥٩ (٤) ٢ : ٢٦٥ (٥) ٢ : ٢٦٦ (٦) ٢ : ٢٧٠ – ٢٧٢
(٧) ٢ : ٢٧٣ – ٢٨٢ (٨) ٢ : ٢٨٣ – ٨ (٩) ٢ : ٢٨٩ – ٢٩٥ (١٠) ٢ : ٢٩٥

تلك الأشجار من أقاصي البلاد . وقد نقشت جلالتها كل أخبار هذه الرحلة الغريبة بارزة على جدر معبد الدير البحري[١] الذي استولى عليه سابقا تحوتمس الثاني رغبة في نقش حروبه وانتصاراته الأسيوية عليه [٢] ، ولا تزال نقوش بعثة الصومال من أبدع مخلفات هذا المعبد العظيم ، وقد ذكرت الملكة كبراء حزبها جميعا في تلك الرسوم . ويشاهد على أحد الجدر رسم سِنْمُوت مبتهلا الى المعبودة حاتحور طالبا منها أن تمنح الملكة النعم الجزيلة وهو شرف عظيم قلما يتمتع به رجل من رجال الدولة[٣] .

ومعبد حتشبسوت هذا هو أقصى ما وصل اليه بناء تلك العصور من حيث ترتيب وتنسيق القبور الملكية وعلاقتها بمعابدها . ويظن إن اقلاع الملوك عن اتخاذ الأهرام مقابر لهم يرجع الى الحاجة للانفاق في أبواب أخرى أو لأنهم لم يجدوا فائدة في تكبير تلك القبور خصوصا وقد اتضح لهم أن هذه الاجراءات لم تحفظ جثث أصحابها . والغالب أن دفن الجثث الملكية في أهرام وتشييد معابد لها شرقي الأهرام استمر متبعا حتى حكم أحمس الأول ، لكنه لوحظ أن هذه العادة أخذت تنعدم تدريجا فقل حجم الهرم بالتوالي وبقيت الغرف السفلى والمعابد المجاورة له على كبرها وفخامتها بالنسبة للأهرام . وآخر من اتبع بناء الأهرام هو أمنحتب الأول الذي دفن جثته الملكية في حجرة[٤] يوصل اليها بدهليز طويل مخترق لصخور طيبه الغربية يبلغ طوله نحو مائتي قدم ، ثم شيد أمام مدخل الدهليز معبدا صغيرا تعلوه قبوة هرمية الشكل سبق الكلام عليها[٥] . والظاهر أن تحوتمس الأول لم يرق في عينه هذا الترتيب ولم يعتبره كافيا لحفظ الجثة فابتدأ بفصل المعبد من القبر فشيد المعبد في سفح جبال طيبه الغربية ، أما قبره وسردابه (شكل ١٠٩ و ١١٠) فحفرهما في الصخور بواد منعزل (شكل ١٠٨) خلف جبال طيبه الغربية على بعد نحو ميلين من النيل ولا يصل اليه الانسان الا بطريق منحن يقرب طوله من ضعف هذه المسافة . وبديهي أن غرض الملك من ذلك اخفاء معالم قبره ليكون في مأمن من اللصوص ولذلك بقيت أخبار هذا القبر سرا مكتوما . قال المهندس إنيني الذي باشر حفر مقبرة تحوتمس الأول انه قام بهذا العمل وحده دون أن يراه أو يسمعه أحد[٦] . وهذا الترتيب وان كان مناقضا للعادات السابقة يوافقها في وضع القبر خلف المعبد وان كانت تفصلهما صخور شاهقة . ويعرف هذا الوادي الآن باسم "وادي مقابر الملوك" وقد فضلته الملوك الذي حكموا بعد تحوتمس الأول على سواه من الأماكن لدفن جثثهم فيه ، واستمرت الحال على هذا المنوال مدة حكم الأسر الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين حتى امتلأ الوادي بجثث ملوكها . أما عدد المقابر المعروفة فيه فيربو على الأربعين ، منها احدى وأربعون مقبرة يمكن معاينتها من الداخل وامتدت شهرتها في العالم حتى اعتاد السياح أن يؤموها سنويا لمشاهدتها والاطلاع على عجائبها . وذكر استرابو أن عدد ما كان معروفا في عهده من المقابر بذلك الوادي كان أربعين مقبرة . أما معبد حتشبسوت ذو الشرفات فلم يكن سوى معبد أقيمت فيه الدعوات وقدمت القرابين بعد وفاة صاحبته ، وقد

---

(١) راجع شكل ١١٢ و ٢ : ٢٤٦ – ٢٩٥ (٢) راجع صحيفة ١٧٨ (٣) ٢ : ٣٤٥ (٤) ٤ : ١٢ وملاحظات
(٥) راجع صحيفة ١٦٨ (٦) ٢ : ١٠٦

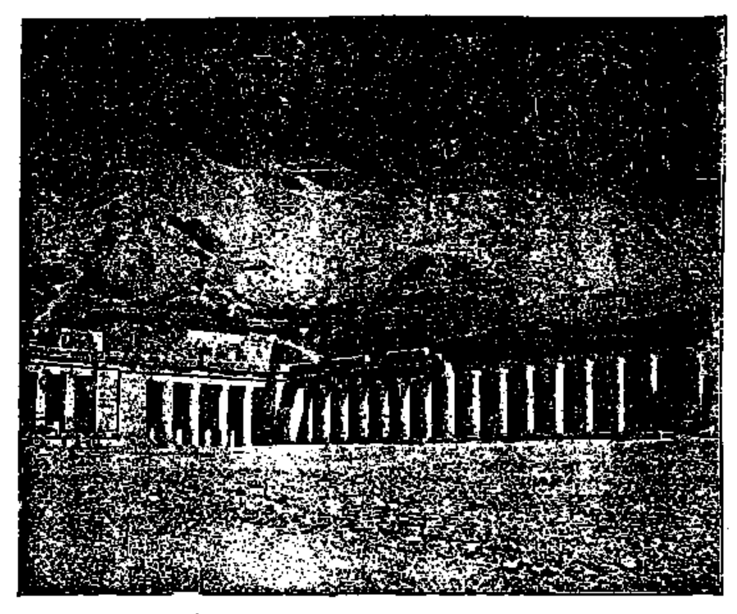
كتبت الملكة اسم والدها عليه أيضا ووهبت له أيضا بعضه . وبديهي أنه كلما زاد عدد المقابر بذلك الوادى زاد عدد المعابد الخاصة بها بسفح الجبل لأن هذه المعابد كانت الأمكنة التى تقدّم فيها القرابين والهدايا لأرواح جبابرة مصر المقدّسين . وجرت العادة أن هذه المعابد كانت توهب أيضا الى المعبود آمون وأن يطلق على كل منها اسم خاص ، مثال ذلك معبد قبر تحوتمس الثالث سمى "هدية الحياة"[1] .

أما قبر حتشبسوت فقد قام بحفره المهندس والوزير المدعو حَاپُوسنب ، وقد اختار لذلك مكانا بالوادى المنعزل المذكور[2] بكيفية هندسية تجعل جدار القبر الشرق خلف الدير البحرى تماما . وهنا يبتدئ دهليز طويل منحدر يبلغ طوله مئات من الأقدام ينتهى الى حجرات تحوى احداها تابوتين واحد لها والآخر لأبيها تحوتمس الأول . والظاهر أن النزاع بين الأسر حال دون استعمال تحوتمس الأول لهذه المقبرة ، إذ المعروف أنه فضل أن يدفن نفسه فى قبر صغير منفرد وألا توضع جثته فى التابوت الذى صنعته له ابنته . وقد عثر على هذين التابوتين فارغين حديثا ولا بد أنهما سرقا فى العصور السالفة .

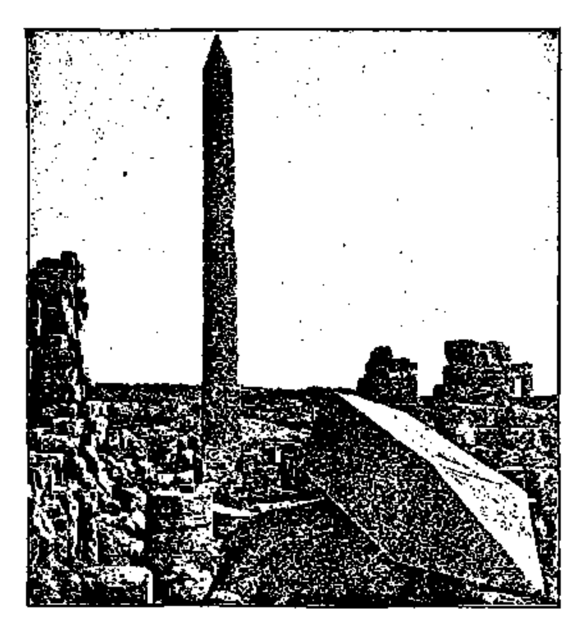
وليلاحظ أن هذه الملكة حسنت بهمتها مصنوعات البلاد وأنمت من ثروتها كثيرا فعادت بفوائد جزيلة على القطر المصرى وتضاعف ايراد الامبراطورية المصرية حيث شمل ضرائب الأملاك وجزية المستعمرات الأجنبية الشاسعة الممتدة من الشلال الثالث جنوبا الى نهر الفرات شمالا . واليك ترجمة ما قاله حتشبسوت ذات يوم : "لقد بلغت حدود مملكتى الجنوبية أرض الصومال (بونت) . . . . وحدودها الشرقية مستنقعات آسيا ، فصار الأسيويون فى قبضتى . . . . أما حدودى الغربية فوصلت الى جبال مانو (Manu) أى مغرب الشمس . . . . وذاع صيتى بين البدو . وقد أحضر الىّ من بلاد الصومال . . . . وخيرات تلك البلاد العجيبة أحضرت الى قصرى كلّها واحدة . . . . حقيقة لقد أحضرت الىّ أجود الخيرات . . . . من أرز وعرعر وخشب "مرو" (Meru) . . . . وأخشاب الأرض المقدسة الجميلة جميعها . لقد أحضرت لى جزية تِحنُو (الليبيين) من عاج ، علاوة على سبعمائة ناب من أنياب الفيلة وعدد كبير من جلود الكَتّاعم البالغ طول كل منها خمسة أقدام وعرضه أربعة أقدام (من الظهر)"[3] . والظاهر أن عهد هذه الملكة كان مصحوبا بالأمن والسكينة والسلم فى آسيا ولو أنه لم يكن على الأريكة المصرية فرعون حربى ، ولذلك استعملت هذه الملكة النشيطة ثروتها الجديدة فى بناء المعابد التى أتلفها الهيكسوس بعد انقضاء جيلين على جلائهم من البلاد[4] ، وقد سجلت ذلك على معبد پَخْتْ (Pakht) ببنى حسن فقالت : "انى أصلحت الخراب وأتممت ما كان ناقصا قبل مجىء الأسيويين (الهيكسوس) الى أواريس (هوارة) فى منطقة البلاد الشمالية . وكان بينهم وقتئذ من البربر من صرفوا همهم فى تخريب المبانى جهلا منهم بوجود المعبود رع"[5] .

---

(1) ٢ : ٥٥٢ (2) ٢ : ٣٨٩ (3) ٢ : ٣٢١ (4) ٢ : ٢٩٦ ملاحظة (5) ٢ : ٣٠٣



شكل ١١٣ — سلسلة العمد الشمالية المتصلة بالدهليز الأوسط لمعبد الملكة حتشبسوت المسمى بالدير البحرى بطيبه



شكل ١١٤ — مسلات الملكة حتشبسوت بالكرنك و يبلغ ارتفاع المسلة القائمة سبعة وتسعين قدما ونصف قدم

ومضى على هذه الحال سبع سنوات أو ثمـان بعد استرداد حتشبسوت وأخيها تحوتمس الثالث عرش مصر، أو خمس عشرة سنة منذ توليها الحكم مع تحوتمس الثالث فى المرة الأولى . وليلاحظ أن تحوتمس الثالث لم يكن طوال هذه المدة وارثا شرعيا للملك لأن زوجته استأثرت بهذا الشرف دونه، ولـما أوشكت أن تتم ثلاثين سنة منذ اعلان وراثتها على العرش أدامت لذلك احتفالا عظيما. و يظن أنها أمرت بنصب المسلات كالعادة فى مثل هذه الأفراح، وقد قالت ما ترجمته: "أتذكر أنى جلست يوما بالقصر وفكرى يجيش بتأملات خالق فأوحى الى قلبى أن أشيد لخالق مسلتين من خليط الذهب والفضة (Electrum) يبلغان عنان السماء"[1]. وقد كاف المهنـدس المحبوب سنموت القيام بهذه المأمورية فتوجه الى محاجر الجرانيت بجهة الشلال الأول لقطع حجرين كبيرين تصنع منهما المسلتان الكبيرتان، فجمع هذا المهندس من شاء من العمال وابتدأ بالعمل فى أوائل فبراير فى السنة الخامسة عشرة من حكم جلالة الملكة ، و بعد مضى سبعة أشهر تمكن سنموت من قطع الصخرتين المذكورتين وذلك فى أوائل شهر أغسطس[2] وقد شحنهما فى سفن نيلية الى طيبه قبل أن يهبط منسوب فيضان النيل. ورأت الملكة أن تنصب هاتين المسلتين فى الساحة ذات العماد التى أسسها والدها بالكرنك والتى اختار فيهـا آمون تحوتمس الثالث ملكا على مصر . وتطلب انجاز هـذا العمل نقل عمد السقف المشيدة فى الجناح الجنوبى للساحة المذكورة علاوة على أربعة عمد من الجناح الشمالى ونزع جزء من السقف وهدم الحائط الجنوبى لإدخال هاتين المسلتين وكانتا مكسوتين كثيرا بخليط الذهب والفضة وقام بهذا العمل تحوتى لأجل جلالة مليكته[3] . وممـا ورد عن ثروة هذه الملكة قولها انها كانت تكيل المعادن النفيسـة كالحبوب بالمكاييـل الكبيرة[4] وهو قول يعززه ما رواه تحـوتى بأنه كان يكدس بأمر جلالتها فى سـاحة قصرها ما يزيد على أربعمائة وثلاثة وعشرين لترا من خليط الذهب والفضة[5]. واليك ترجمة ما قالته جلالتها مفتخرة بهاتين المسلتين : "لقد صنعت قمتى هاتين المسلتين من أجود خليط للذهب والفضة وجد بالعالم . وكان من الممكن مشاهدة القمتين من شاطئ النيل ، وكانت الأشـعة تنعكس منهما على القطرين وقت شروق الشمس على الأفق بشكل غاية فى الجلال"[6]. أما ارتفاع هاتين المسلتين فأعلى من سقف ساحة الكرنك التى شيدها تحوتمس الأول . وقد أقسمت حتشبسوت بكافة المعبودات أن كلتا مسلتيها صنع من حجر واحد منعا لدخول الشك فى أنفس القوم وقتئذ[7] . والحق يقال ان هاتين المسلتين أعلى الآثار المصرية التى يرجع تاريخها الى تلك العصور لأن ارتفاع كل منهما يبلغ حوالى سبع وتسعين قدما ونصف، أما زنة كل منهما فتقرب من ثلثمائة وخمسين طنا ، ولا تزال احداهما شاخصة فى مكانها الأصلى تسترعى أنظار السياح كل سنة (شكل ١١٤). ولم تكتف حتشبسوت بذلك بل شـيدت مسلتين أخريين بالكرنك لكنهما تلفتا وانعـدم أثرهما[8] ، والمظنون أنها شيدت مسلتين أخريين لمعبـدها ذى الشرفات بالدير البحرى أصابهما التلف والعطب ، وهكذا يكون عدد المسلات التى شيدتها هـذه الملكة ستا . وتوجد على جدر معبـد الدير البحرى[9] رسوم بارزة تمثل مسلتين محمولتين فى سفينة نيلية عظيمـة يجرها ما يقرب من ثلاثين سفينة شراعيـة وفيها نحو مائة وستين بحارا . وللآن لم يثبت اذا كانت هذه الرسوم عن مسلتى معبد الدير البحرى أو مسلتى الكرنك اللتين نصبهما سنموت السابق الذكر .

(١) ٢ : ٣١٧ و ٢ : ٦ - ٧ (٢) ٢ : ٣١٨ (٣) ٢ : ٢٧٦ و ١ : ٢٨ (٤) ٢ : ٢١٩ و ١ : ٢
(٥) ٢ : ٢٧٧ و ١ : ٣٦ - ٣٨ (٦) ٢ : ٣١٥ (٧) ٣١٨ (٨) ٢ : ٣٠٤ - ٣٣٦ (٩) ٢ : ٣٢٢ ملاحظة

وزيادة على هـذه المسلات الشامخة التي شيدتها هـذه الملكة عثر على نقوش أثرية بجهة وادى مغاره بطورسيناء[١] تشير الى أن جلالة الملكة حعتشبسوت أرسلت اليها بعثات للبحث عن معادن تلك الجهة، وهكذا أدارت شؤونها فى تلك الجهة بعد ما استراحت من غزوة الهيكسوس. وتاريخ هـذه البعثات يرجع الى السنة السادسة عشرة من حكمها وقد استمر حفر المناجم حتى السنة العشرين من حكمها[٢] . والغالب أن الملكة توفيت وقتئذ لأن آثار تلك السنة أخبرتنا بأن الملك تحوتمس الثالث صار المسيطر الوحيد على المملكة المصرية ، كما أننا لم نجد اسم حعتشبسوت على الآثار بعد هذا الحين . ويلاحظ القارئ أننا أسهبنا فى وصف آثار وأعمال هذه الملكة والسبب فى ذلك أن السيدات لسن من محبي الحروب والغزوات وعلى الأخص فى تلك العصـور العتيقة ، ولذا وجدناها وجهت همها نحو تقدم الفنون ونشر رايات السلم . ومع أنها كانت حاكمة سلمية قادرة فقد حكمت فى زمن كانت مصر محتاجة فيه الى ملوك حربيين لكبح جماح الأسيويين واقناعهم بأن مصر حصينة منيعة كى لا يذكوا نار الفتنة وينفخوا روح الثورة .

ولمـا ولى تحوتمس الثالث عرش مصر بعد زوجته بدا منه ما كان خفيا لأنه كان بطبيعته ميالا للحروب مغرما بالنضال والكفاح . وقد كان مضطرا فى حياة زوجته أن يراعى ظروفها فكان يقدم وقتئذ البخور لآمون وقت وصول بعثـة الصومال كما أنه كان يصرف نشاطه فى الاشراف على بناء معبد قبره فى سهول طيبه الغربيـة ، ولذلك وجد له بعض العذر إذ لم يقم بالواجب نحو زوجته ولم يراع كرامتها كاقامته حائطا أسفل مسلتى زوجته اللتين بساحة تحوتمس الأول بالكرنك ليخفى النصوص المنقوشة عليهما الدالة على تاريخ نصبهما . وقد محا أيضا اسمها ورسمها من الآثار جميعها حتى معبدها بالدير البحري مصدرا بذلك الأوامر . ولا بد أن يكون حزب هـذه الملكة انهار بعد وفاتها بهرب أعضائه أو لأنهم لقوا حتفهم كما يستدل من طمس رسوم سنموت وتحوتى ونحسى من جدر الدير البحرى بعد ما كانوا يفتخرون بهـذه الرسوم أيما افتخار . ثم ان الملكة كانت قد أهدت الى سنموت ثلاثة تماثيل وأمرت بوضعها بمعابد طيبه ، فلما ولى تحوتمس الثالث الملك محا اسم سنموت منها ، كما محا اسمه أيضا من جدر قبره وشاهده . وعمل تحوتمس الثالث مثل ذلك أيضا لتمثال حبوسنب[٣] . أما مقبرتا تحوتى وسن من أخى سنموت فقد نبشتا وطمست أسماء صاحبيهما . وأما مقبرة أحد أقران هؤلاء الرجال فقد محى اسم صاحبها وأزيل تماما فتعذر علينا معرفته . وحنق تحوتمس الثالث على اقليم السلسلة فأمر بارسال بعثة اليه لينتقم بازالة اسم كبير الأمراء لحعتشبسوت الذى على جدر قبره[٤] . وهكذا تجد الآثار الى يومنا هذا ناطقة بمـا ارتكبه هـذا الملك من القسوة والحنق ، ومع ذلك فان الدير البحرى لا يزال للآن حافظا ذكرى صاحبته ، كما أن الحائط المهدم الذى أقامه تحوتمس الثالث لإخفاء ما بأسفل مسلتى زوجته بالكرنك من النقوش لا يزال الى الآن شاهدا على أن لحعتشبسوت مركزا ساميا وشرفا رفيعا .

---

(١) ١ : ٢٣٧ (٢) Petrie, Cat. of Egyptian Antiquities found in the Peninsula of Sinai, etc., p. 19.

(٣) ٢ : صحيفة ١٦٠ ملاحظة (ر) (٤) ٢ : ٣٤٨

الفصل السادس عشر

توطيد أركان الامبراطورية : تحوتمس الثالث

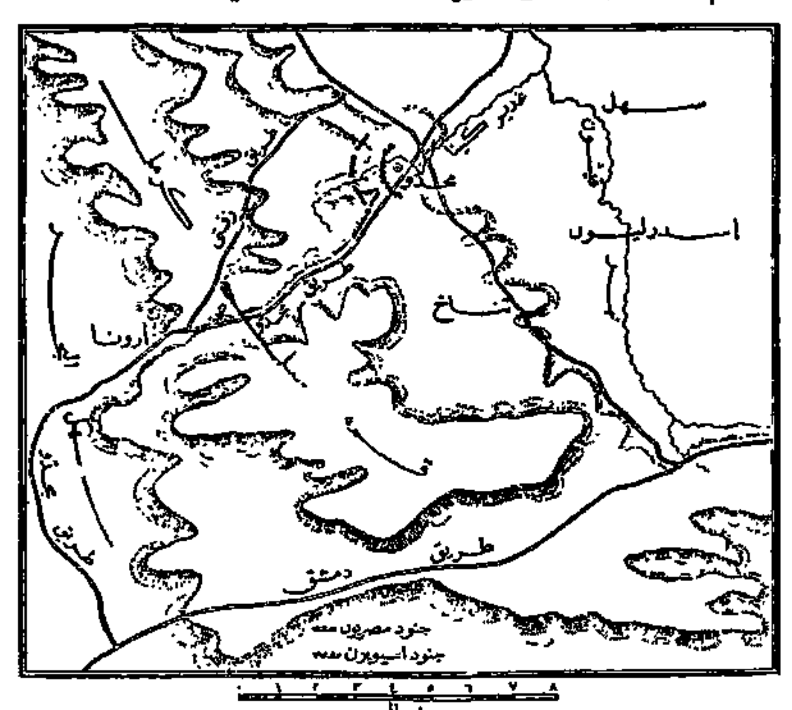
كانت امبراطورية تحوتمس الثالث وحتشبسوت فى السنة الخامسة عشرة من حكمهما تمتد فى البلاد الأسيوية الى جبال لبنان شمالا[1] . ولم تدر ماذا جرى لتلك الجهات حتى السنة الثانية والعشرين من حكم تحوتمس الثالث لما ذكر أنه زحف وقتئذ الى آسيا لإخضاع أهلها، لكنه يستدل من أحوال تلك العصور وما تبعها من الحوادث أن سلطة مصر على تلك الجهات أخذت تضعف حتى تطلبت حضوره شخصيا لعلاجها . وليلاحظ أن البلاد الأسيوية مضى عليها الى ذلك الوقت مدة طويلة لم ترفيها جيشا مصريا ، فكاد أهلها ينسون ما لمصر من سلطة وعزة فاغتروا وجمعوا كلمتهم واتحدوا برياسة ملك كدش ، ثم أعلنوا عصيانهم على فرعون مصر وانفصالهم عن امبراطوريته . وأخذت معاطس كدش تنتفخ من الكبرياء والغطرسة اللذين كانا ظاهرين عليها فى عهدها الأول لما كانت معروفة بمملكة الهيكسوس . ودلتنا الآثار أن البلاد الممتدة من يرازا (Yeraza) شمالى يوديا (Judea) الى اقليم المستنقعات جنوبا وقرب نهر الفرات شمالا شقت عصا الطاعة على مصر[2] . أما جنوبى فلسطين فلم يجرؤ على ذلك لأن أهله اعتبروا واتعظوا بما حصل لمدينة شَارُوهِنْ التى هى فى وسط ذلك الاقليم لما ذاقت الأمرين وقت حصار أحمس الأول لها ست سنوات فى حربه مع الهيكسوس ، ولذلك جبن سكان جنوبى فلسطين الا قليلا منهم على مشاكسة المصريين . ثم استعمل الأهالى فى شمالى فلسطين وسوريا نفوذهم مؤثرين أهالى جنوبى فلسطين ليتحدوا معا لمعاكسة المصريين ، طالبين منهم أن يتركوا لهم بعض قوات وامدادات حربية فى مقابلة اشتراكهم معهم فى ذلك الكفاح . فنجم عن ذلك أن انحاز بعض أهالى جنوبى فلسطين الى الثوار وقامت حرب أهلية مركزها مدينة شاروهن (شرهان)[3] . بعد ذلك امتد العصيان الى غربى سوريا (المعروفة عند المصريين باسم زاهى)[4] ثم الى مملكة مِتَّانى القوية وهى فى شرقى نهر الفرات — هؤلاء جميعا ساعدوا البلاد العاصية وشجعوها للتألب على فرعون مصر . والمعروف أن تحوتمس الثالث لم يتمكن من اعادة بسط نفوذه على آسيا الا بعد أن عاقب ملك متانى عقابا صارما وأخضع بلاد النهرين للسدة المصرية . وليلاحظ أن مملكة متانى كثيرا ما كانت تتشاحن مع آشور الفتية التى كانت تنافسها فى التقدم والبطش ، فلما رأت متانى أن القوات المصرية أخذت تهدد كيانها أيضا زيادة على آشور صممت على بذل كل ما وسعها لدرء الخطر المصرى وتأسيس مملكة قوية كمملكة الهيكسوس عاصمتها كدش تكون بمثابة فاصل وحاجز منيع بينه وبين مصر . ولا غرابة فى ذلك

---

(1) ٢ : ١٢٧ ، ١٦٢ (2) ٢ : ٤١٦ (3) ٢ : ٤١٦ (4) ٢ : ٦١٦

فقد بلغ البطش المصرى وأخبار امبراطورية النيل عنان السماء فى تلك الأزمنة . من ذلك تتضح لنا المخاطر التى واجهت تحوتمس الثالث وقتما استقل بالملك ، والحق يقال إنه الفرعون الوحيد الذى صادفته مثل هذه الصعوبات والمخاطر مضاعفة .

ولم نهتد للآن الى ما وصل اليه الجيش المصرى من الانحطاط والتأخر أيام الملكة حتشبسوت عند ما وقف استخدامه فى الغزوات والفتوحات ، كما أننا لا نزال نجهل المجهودات العظيمة التى بذلها تحوتمس الثالث فى تحسين جيشه وتدريبه وجعله قادرا على مكافحة تلك الأخطار المتجمعة ، لكن المعروف أن جيش مصر كسواه من جيوش البلاد الشرقية وقتئذ لم يكن كبير العدد . والمرجح أن فراعنة مصر لم تغز آسيا بأكثر من عشرين ألف جندى أو ثلاثين ألفا ، وهذا فى الحقيقة أقرب



خريطة رقم ٤ : قمة جبل كرمل وعلاقتها بمدينة مجدو
ويرى القارئ فيها مواقع مدينتى مجدو وتعناخ والطرق الواصلة لمجدو مخترقة قمة جبل كرمل ومراكز الجيشين فى بداية المعركة

تقدير للصواب[١] . وفى أواخر السنة الثانية والعشرين من حكم تحوتمس الثالث ظهر الملك على رأس جيشه مستعدا للنضال وفتح البلاد واخضاع الممالك فزحف بجيشه متجها نحو البلاد الأسيوية مبتدئا من مدينة ثارو (Tharu) — قرب مدينة القنطرة — وهى آخر مدينة مصرية على حدود مصر الشمالية الشرقية ، وكان ذلك حوالى ١٩ أبريل سنة ١٤٧٩ قبل الميلاد[٢] .

(١) راجع كتاب معركة كادش للمؤلف صحيفة ٨ — ١١ (٢) ٢ : ٤٠٩ و ٤١٥

فوصل الى غزة فى ٢٨ أبريل ، وهى على بعد مائة وستين ميلا من مدينة تارو[١] أى بعد مسير تسعة أيام . وهذا التاريخ يوافق اليوم الرابع من شهر بشنس بعد مضى اثنتين وعشرين سنة كاملة على انتخاب آمون لتحوتمس الثالث على أن يكون ملكا على مصر بساحة الكرنك ذات العهاد التى شيدها والده . والمعروف عن تحوتمس الثالث أنه كان لا يألو جهدا فى التآمر وبذل المساعى طويلا للجلوس على عرش مصر حتى بلغ غرضه . ولما كان هـذا الملك نشيطا يقدر قيمة الزمن اختصر فى مظاهر الاحتفال بمرور اثنين وعشرين عاما على تتويجه وعوّل على الاستمرار فى الزحف شمالا فى صباح اليوم التالى للاحتفال[٢] فسار محاذيا لشيهلا (Shephelah) بالقرب من البحر مخترقا سهل شارون (Sharon) ويمما مدينة يوحم (Yehem) المجهولة المركز فوصل اليها فى اليوم العاشر من شهر مايو سنة ١٤٧٩ قبل الميلاد وضرب قبابه قربها ، وتبعد هذه المدينة عن غزة نحو ثمانين ميلا أو تسعين وهى على المنحدرات الجنوبية لسلسلة جبال كرمل[٣] . فى ذلك الوقت كانت القوات الأسيوية العاصية اجتمعت بقيادة ملك كدش وسارت جنوبا حتى آخر حدود حلفائها واحتلت حصن مجدّو القوى الواقع فى جرزل (Jezreel) على المنحدر الشمالى لجبال كرمل ، وجبل كرمل هذا المستعرض الاتجاه يكوّن أول حاجز منيع ضد القوات المصرية الزاحفة على آسيا ، ولا بد أن ملك كدش علم بذلك فاتخذه أول خط دفاع له ، ومنه علمنا أن هذا الملك كان ماهرا فى الفنون الحربية وأصول المعارك (مأخوذ باذن الأستاذ برستد من دائرة معارف التاريخ القديم بجامعة كمبردج سنة ١٩٢٥) ، وهذا البيان هو أقدم ما ورد لنا فى التاريخ عن هذه المدينة . والمعروف أن مجدو هذه كانت مركزا حربيا منيعا لوقوعها بين سلسلتى جبال لبنان واشرافها على الطريق الموصل مصر ببلاد العراق ، ولذلك أصبح لهذه المدينة أهمية فى تاريخ الشرق أخذت تزداد على ممر الدهور . وقد اعتبر تحوتمس الثالث كل هذه البلاد من أملاكه ، ولذا تكلم عنها قائلا : "لقد شرعت بلاد الفنكو (Fenkhu) الأسيوية تغزو بلادى . . . . " [٤] ومنه نستنتج أن تحوتمس الثالث زحف بجيوشه فى بلاد موالية غير معارضة الى جبال كرمل وبعد ذلك سار على حذر . فلما بلغ مدينة يوحم (Yehem) علم باجتماع جيوش أعدائه بمدينة مجدّو فعقد مجلسا عسكريا من كبار ضباطه وتداولوا الأمر فى أحسن الطرق الممكن اتباعها لعبور جبال الكرمل والوصول الى سهل إزدريلون (يزرل) (Esdraelon)[٥] ، وكان أمامهم ثلاثة طرق تمكن الجيوش من عبور تلك المنطقة الجبلية ، أولها يبتدئ من يوحم ويتجه الى مدينة أرونا (Aruna) مخترقا الجبل المذكور وواصلا الى أبواب مجدو (راجع خريطة رقم ٤) ، وثانيها يتجه جنوبا مارا ببلدة طناخ (Taanach) على بعد خمسة أميال من الجنوبى الشرقى لمجدو ، وثالثها شمالى ذلك يمر مخترقا بلدة زفتى (Zefti) وينتهى بالشمالى الغربى لمجدو[٦] . فاختار تحوتمس الثالث الطريق الأول لقصره ، أما ضباطه فأشاروا عليه باتباع أحد الطريقين الآخرين لأنهما أوسع من الأول قائلين : " اذا اتبعنا الطريق الأول فى زحفنا أفلا نضطر خيولنا أن تسير فرادى وكذا جنودنا فتكون مقدمتنا

---

(١) ٢ : ٤٠٩ و ٤١٧ (٢) ٢ : ٤١٨ (٣) ٢ : ٤١٩ (٤) ٢ : ٤٣٩ (٥) ٢ : ٤٢٠ (٦) ٢ : ٤٢١
وانظر خريطة رقم ٤

مشتبكة مع الأعداء ومؤخرتنا لا تزال فى أرونا ؟ " [١] . من هذا استنتجنا أن المصريين كانوا على معرفة كبيرة بمصاعب ذلك الطريق القصير ؛ لكن تحوتمس الثالث لم يأبه لمشورتهم وأقسم أن يتبع هذا الطريق مخاطبا ضباطه بأنه قد صمم على تنفيذ فكره وهم أحرار فى أن يوافقوه أو يخالفوه[٢] . بعد ذلك استعد واحتاط وزحف على أرونا فى ١٣ مايو[٣] وخوفا من مفاجأة أعدائه له ورغبته فى تشجيع جنده قاد جيوشه قائلا : "سأسير أمامكم كى أظهر لكم الطريق فتقتفوا أثر قدمى "[٤] . وتقع أرونا على جبل كرمل ويصل اليها الانسان من طريق ضيق وقد وصل اليها تحوتمس الثالث سالما وأمضى فيها الليلة الرابعة عشرة من شهر مايو ، ولا بد أن جيوشه كانت منتشرة وقتئذ على الطريق الممتد بين أرونا و يوحم . فلما كان صباح يوم ١٤ مايو واصل زحفه مسرعا لكنه سرعان ما التحم ببعض جنود أعدائه[٥] الذين كانوا لحسن الحظ قليلى العدد ، ولولا ذلك لفتكوا به لأنه كان منهوك القوى مبعثر الجنود على مدى الطريق الجبلى الضيق . فى ذلك المكان أخذ الطريق يتسع فأخذ تحوتمس الثالث يوسع مقدمة جيشه أيضا وهناك شدد عليه ضباطه بأن ينتظر حيث هو حتى تصل وحدات جيشه التى لا تزال فى أرونا[٦] فأصغى لذلك وانتظر مقاوما أعداءه . ولما كان عدد القوة المعادية قليلا لم يكتف المصريون بالمقاومة بل أخذ تحوتمس يزحف تدريجيا حتى اذا ما حل وقت الزوال كانت مقدمة جيشه قد بلغت سهل يزرل (Esdraelon) . هذا هو أقدم جيش معروف للآن دخل ذلك السهل التاريخى الذى أصبح منذ ذلك الوقت معتركا حربيا حتى عهد اللورد اللنبى . وليلاحظ أن اللورد اللنبى اتخذ فى زحفه الطريق نفسه الذى سار فيه تحوتمس الثالث وذلك عام ١٩١٨ لما سار بخياله خلف الجيش التركى الهارب (مأخوذ باذن من الأستاذ برستد من دائرة معارف التاريخ القديم لجامعة كمبردج — القسم المصرى القديم — صحيفة ٧٠ طبع سنة ١٩٢٥) . وحوالى الساعة الواحدة مساء بلغت الجنود المصرية جنوبى مجدو بدون مقاومة فعسكرت على شاطئ غدير كينا (Kina)[٧] وهكذا خسر الأسيويون فرصة لا تقدر بثمن لأنه كان فى امكانهم سحق المصريين تماما ، والظاهر أنهم كانوا على مسافة بعيدة فى الجنوبى الشرقى للمدينة وقتما كانت صفوف المصريين الرفيعة تتدفق من قمة الجبل . ويستحيل علينا الآن أن نعرف موقع الأعداء بالضبط وقتئذ لكن المعروف أنه لما التحمت مقدمات الجيشين فى الجبال كان جناح الأسيويين الجنوبى فى مدينة طناخ (Taanach)[٨] ظنا منهم بأن تحوتمس الثالث اتبع فى سيره طريق هذه المدينة الى مجدو ، ولولا ذلك لاستحال على المصريين الانحدار من الجبال والوقوف جنوبى مجدو . بعد ذلك طاف تحوتمس الثالث حول معسكره فى سهل مجدو وأصدر أوامره الى جميع قواته أن تستعد بسرعة وبنظام تام ، أما الشعور المصرى وقتئذ فكان بالغا أحسنه وكانت روح الحرب متأججة فى الصدور[٩] . وفى عصر ذلك اليوم (١٤ مايو) أو فى مسائه اغتنم تحوتمس الثالث فرصة وجود الأعداء فى الجانب الشرقى أو الجنوبى الشرقى من جيشه وزحف

---

(١) ٢ : ٤٢١ وانظر خريطة رقم ٤ (٢) ٢ : ٤٢٢ (٣) ٢ : ٤٢٤ – ٥ (٤) شرحه (٥) ٢ : ٤٢٦
(٦) ٢ : ٤٢٧ (٧) ٢ : ٤٢٨ (٨) ٢ : ٤٢٦ (٩) ٢ : ٤٢٩

بجناحه الأيسر على الشمالي الغربي لمجدو[١] وهكذا حفظ لنفسه خط الرجعة مارا ببلدة زفتى في حالة هزيمته . أما اذا انتصر فهذا الطريق يمكنه من قطع خط الرجعة على أعدائه اذا حاولوا الفرار شمالا .

وفي فجر يوم ١٥ مايو أمر تحوتمس الثالث جيشه بالزحف والهجوم على العدو فاعتلى عجلته البراقة المصنوعة من خليط الذهب والفضة وسار في قلب جيشه ، وكان جناحه الأيمن على تل جنوبي غدير كينا أما جناحه الأيسر فقد ذكرنا سابقا أنه كان في الشمالي الغربي لمجدو[٢] . فأراد الأسيويون أن يحموا مدينتهم فألقوا قواتهم بين جيش تحوتمس الثالث ومجدو التي عززت طبعا تلك القوات بنجدات من عندها أيضا ، فانقض تحوتمس الثالث عليهم وهو في مقدمة جيشه [٣] بغيرة متلهبة شاهرا حسامه متحمسا للنزال وأخذ يفتك بالبربر ويصعق سكان الرتنو ويأسر أمراءهم أحياء ويغنم عجلاتهم المذهبة ذات الخيل المطهمة[٤] ، وعلى أثر هذا الهجوم الأول تقهقر العدو وفر نحو مجدو مذعورا تاركا خيله وعجلاته المفضضة والمذهبة ، وصار سكان المدينة ينتشلون جنودهم من ملابسهم لأن أبواب المدينة أقفلت وقتئذ ، فكان الأهالي يدلون ملابسهم لربط الجنود الفارة اللائذة اليهم وشدهم داخل مجدو . ومن المؤكد أنه لو استمر تحوتمس الثالث وقتئذ في الهجوم على أعدائه بسرعة لتمكن من الاستيلاء على مجدو لكن جيشه شغلته الأسلاب والغنائم فتمكن بذلك ملك كدش اللعين وملك مجدو التعس من الدخول والتحصن في مجدو[٥] . وهكذا الجيوش الشرقية كلما حازت نصرا كانت ولا تزال تمتنع عن القتال ومواصلة الكفاح مهتمة بالغنم ، واذا كانت هذه الحال في عهدنا فلتحوتمس بعض العذر في القرن الخامس عشر قبل الميلاد اذا كانت جنوده منهمكة في نهب غنيمة الأسيويين بدل مواصلة الكفاح . واليك بيان تلك الغنيمة العظيمة التي استولى عليها الجيش المصري وقتئذ :
" خيل وعجلات مذهبة ومفضضة .... أما جثث الأعداء فكانت ملقاة على الأرض كالسمك . وقد لبث جيش جلالته الظافر يعد تلك الغنائم وأقسامها . وهناك اتضح أن خيمة ملك كدش اللعين التي كان فيها ابنه أسرت أيضا .... فعم الفرح نفوس المصريين كلهم و بروا اشكر آمون على النصر الذي منحه ابنه تحوتمس الثالث .... ثم جمع الجنود الغنيمة التي استولوا عليها وهي عبارة عن أيد (مبتورة من الأموات) ومن أسرى أحياء وخيل وعجلات مذهبة ومفضضة "[٦] . ومنه يتضح أن هزيمة الأسيويين كانت تامة حتى وقعت خيمة ملك كدش في أيدي المصريين فأحضروا أثاثها الثمين النفيس الى فرعون . أما تحوتمس الثالث فكان شديد الحذر والحرص لأنه اقتنع بما خسره من الصدف الثمينة فلم تسره علامات النصر والابتهاج التي قام بها جيشه ، ولذلك خاطب قواته قائلا ما ترجمه : "لو استمررتم في الهجوم واستوليتم على هذه المدينة لقدمت اليوم قربانا عظيما لأجل المعبود رع . فرؤساء البلاد العاصية جميعا موجودون الآن داخل هذه المدينة مجدو ولذا فالاستيلاء عليها كان بمثابة الاستيلاء على ألف مدينة"[٧] . ثم أصدر جلالته أمره بحصار مجدو في الحال فقاستها الجنود

---

(١) ثبت ذلك بموضعه في اليوم التالي . (٢) ٢ : ٤٣٠ و١ : ٣ (٣) شرحه و١ : ٤ (٤) ٢ : ٤١٣
(٥) ٢ : ٤٣٠ و١ : ٥ (٦) ٢ : ٤٣١ (٧) ٢ : ٤٣٢

المصرية من الخارج وطوقتها بسور من الشجر الأخضر الجميل ولبث الملك شرقى المدينة مشرفا على هذا العمل[١] وقد سرّ من ذلك لأنه لما عاد الى مصر باهى به قائلا ان آمون أعطاه جميع أعدائه الأسيويين (من بلاد زاهى) محاصرين فى مدينة واحدة[٢] وان جلالته اصطادهم فى تلك المدينة وطوقهم بسور منيع ولذلك لقبه المصريون " تحوتمس محاصر الأسيويين"[٣] لأن العادة اقتضت فى عهد الامبراطورية أن كل بناء يشيده فرعون يطلق عليه اسم خاص . ثم أعطيت الأوامر الشديدة للجيوش المصرية المحاصرة بمراقبة المدينة مراقبة دقيقة وبعدم السماح لأحد من أهلها بالاقتراب من جيوش فرعون الا فى حال تسليم نفسه أسيرا . وسنرى فيما بعد أنه قبل أن يتمكن تحوتمس الثالث من إحكام حصاره تمكن ملك كدش من الهرب مع شدة رغبة تحوتمس فى منع ذلك وعظم احتراسه بارسال جزء من جيشه فى الشمالى الغربى لمجدّو قبل التحام الجيشين . وباستمرار الحصار كان أمراء آسيا الذين أسعدهم الحظ فلم يحصروا داخل مجدّو يسلمون أنفسهم لفرعون مصر المتأجج فرحا ونشاطا، ودلتنا الآثار أن هؤلاء الأمراء أتوا ساجدين خاضعين مظهرين طاعتهم للملك الطائر الصيت[٤] .

ولم تصل الينا معلومات عما جرى وقت الحصار ولا عما قام به المصريون من الهجوم سوى ما أورده الكاتب الكاهن الذى هو مرجعنا الوحيد فى ذلك . ومن رواية هذا الكاتب "أن جلالة الملك تحوتمس الثالث كان يدوّن كل يوم حوادث تلك المدينة وما جرى لملكها اللعين وجيشها الخسيس فى درج جلدى حفظ لمعبد آمون فى ذاك الوقت"[٥] . أما هذا الدرج فقد فقد لسوء الحظ كما فقد أيضا سفر أيام ملوك يهوذا[٦] ، ولذلك كانت خسارتنا العلمية والتاريخية عظيمة لا تقدّر بثمن.

ومكث المصريون فى وادى يزرل مدة طويلة عاشوا فى أثنائها على حبوب ذلك الوادى ودسم أغنامه، فكان هؤلاء القوم أقدم من عُرِف من غزاة ذلك الوادى الجميل الذى صار منذ ذلك الوقت ميدان الحروب والمشاحنات الى عهد نابوليون . أما الحال داخل مجدّو فكانت على نقيض خارجها لأن المدينة أخذت على غرّة ولم تستعدّ للحصار فضرب الجوع أطنابه ولم يعد المحصورون قادرين على مقاومة الحصار أكثر من بضعة أسابيع ثم سلموا فى آخرها وتبين أن ملك كدش ليس ضمن الأسرى . قال المؤرخ المصرى : "ان الأسيويين الذين كانوا فى مدينة مجدّو التعسة . . . . قدّموا أنفسهم لعظمة تحوتمس الثالث معطى الحياة قائلين : اسمح لنا ياذا الجلالة أن نقدّم لك الجزية اللازمة[٧] . ثم أحضروا لجلالته ما يملكونه مظهرين له الولاء راجين منه أن يسمح لهم بالبقاء أحياء لأن فضله عميم"[٨] . فردّ عليهم جلالته : "لقد سمحت لكم عظمتى بأن تبقوا أحياء"[٩] ومنه يتضح أن معاملة الملك لهم كانت غاية فى اللطف . . . . ولم نهتد للآن بين نصوص فرعون مصر أنه كان يفاخر ويباهى بالاتلاف العظيم والتخريب العام كالذى أتاه ملوك آشور وباهوا به وقت معاملتهم لعصاتهم . ووضع المصريون أسرة ملك كدش رهينة لاتقاء شره ، فقال تحوتمس الثالث : " لقد أخذت نساء وأطفال اللعين ملك كدش رهائن وكذا نساء الرؤساء وأطفالهم" [١٠] .

---

(١) ٢ : ٤٣٢ (٢) ٢ : ٦١٦ و ٤٤٠ (٣) ٢ : ٤٣٣ (٤) ٢ : ٤٤٠ (٥) ٢ : ٤٣٣ (٦) سفر الملوك، جزء أول ، اصحاح ١٥ ، سطر ٢٣ (٧) ٢ : ٤٤١ (٨) ٢ : ٤٣٤ (٩) ٢ : ٤٤٢ (١٠) ٢ : ٥٩٦

ومع أن الغنائم التي استولى عليها المصريون في حومة الوغى كثيرة فقد كانت صغيرة جدا بالنسبة لما وقع في يد فرعون اثر سقوط مجدو وتسليمها بجيشه ، فقد استولى المصريون وقتئذ على تسعمائة وأربع وعشرين عجلة حربية وفي ضمنها عجلتا ملك كدش ومجدو، وعلى ألفين ومائتين وثمانية وثلاثين حصانا وعلى مائتي زرد منها زرد الملكين المذكورين وقباب ملك كدش المزركش الغالي وعلى ألفين من البهائم الكبيرة واثنين وعشرين ألفا وخمسمائة رأس من الغنم وأثاث ملك كدش البديع وصولجانه الفضي وتمثال فضي يحتمل أنه تمثال معبوده وتمثال لشخصه مصنوع من الآبنوس الملبس بالذهب واللازورد[١] وكميات كبيرة من الذهب والفضة لا يمكن تقديرها بالضبط لأن الكاتب المصري أضافها الى كميات الذهب والفضة التي استولى عليها المصريون في المدن الأخرى الأسيوية . ولا يخفى أن الأغنام المذكورة سيبت في الأراضي حول مجدو لأننا ذكرنا أن المدينة سلمت لأن ضغط القحط كان عليها شديدا . وقبل أن يترك المصريون مجدو حصدوا زرع سهل يزرل المحيط بها فجمعوا منه ما يقرب من مائة وثلاثين ألفا من مكاييل الحبوب علاوة على ما استنفده الجيش المصري في أثناء حصاره لمجدو[٢] .

ولم يترك تحوتمس في خلال زحفه فرصة تمر الا استخدمها في اخضاع البلاد المعادية شمالي مجدو، فوصل الى منحدرات لبنان الجنوبية حيث توجد الامارة ذات المدن الثلاث ينوام (Yenoam) ونوج (Nuges) وحرنكرو (Herenkeru) وكانت تحت حكم ملك كدش فسلمت للمصريين بسرعة ، ولا يبعد أن رئيسها كان بين السراة الذين أظهروا خضوعهم وطاعتهم لتحوتمس . ثم رأى الملك أن يشيد قلعة بتلك الجهة لصد أي تقدم جنوبي يحاوله ملك كدش الذي لم يقهر للآن ولتأمين الطريق الذي بين سلسلتي جبال لبنان من أعداء المصريين ، وقد سميت هذه القلعة "تحوتمس جامع الوحشيين"[٣] وقد استعملت هنا كلمة "وحشيين" النادرة التي أطلقتها حتشبسوت سابقا على الهيكسوس . وأخذ تحوتمس ينظم ما أخضعه من البلاد ويوطد فيها السلم مستبدلا بحكامها المعادين آخرين موالين له[٤] وقد سمح للحكام الجدد أن يحكموا البلاد بحرية بشرط أن يدفعوا لمصر الجزية في مواعيدها . ولكي يتحقق أنهم راعوا هذه الشروط أخذ الأنجال الكبار لهؤلاء الحكام الى مصر رهائن ووضعهم في قصر خاص يدعى "حصن طيبه"[٥] وهناك تعلموا العلوم والمعارف وغرس في قلوبهم حب مصر والعطف عليها ، وإذا توفي أحد حكام آسيا كان يسمح لنجله الكبير أن يعود الى بلده ويقوم مقامه[٦] . وهكذا كانت سلطة تحوتمس الثالث واصلة الى جبال لبنان شمالا ومتوغلة في الداخل حتى مدينة دمشق[٧] . والمعروف أن تحوتمس كان يفرض الجزية ويظهر من التشدد على الأهالي بقدر ما يظهرونه من العداوة والبغضاء نحو مصر ، ولذلك لما رجع جلالته الى مصر كان معه نحو أربعمائة وستة وعشرين رطلا ذهبا وفضة مصوغة بشكل حلقات أو أوان بديعة أو أثاث ثمين علاوة على ما استولى عليه من غنائم أخرى أقل قيمة منها في أثناء سقوط مجدو[٨] .

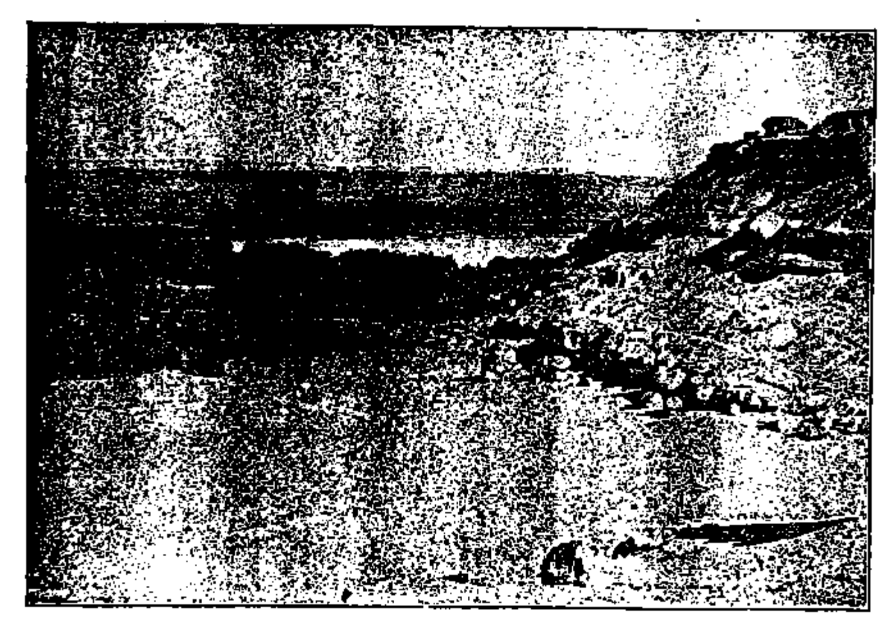
ولا حاجة بنا أن نؤكد للقارئ أن وصول تحوتمس الثالث الى طيبه في أوائل أكتوبر كان محفوفا بالتبجيل بشكل لم تر البلد أفخر ولا أجل منه في أي عهد سابق ، ففي أقل من ستة أشهر (أي في مدة

(١) ٢ : ٤٣٥ (٢) ٢ : ٤٣٧ (٣) ٢ : ٥٤٨ (٤) ٢ : ٤٣٤ (٥) ٢ : ٤٠٢ (٦) ٢ : ٤٦٧
(٧) ٢ : ٤٠٢ (٨) ٢ : ٤٣٦

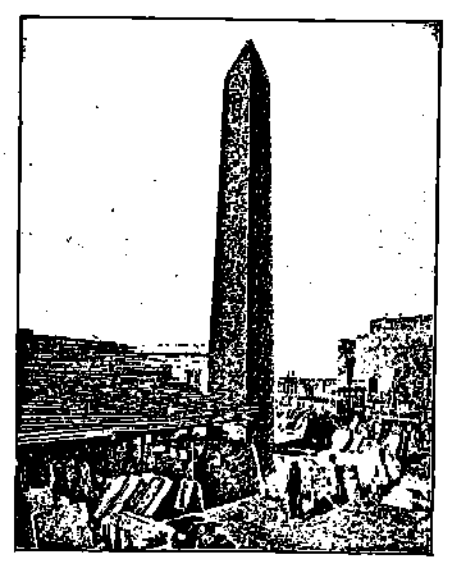
فصل الجفاف) فى فلسطين زحف من ثارو (Tharu) على آسيا وانتصر انتصارا عظيما على مجدّو بعد ما حاصرها وسلمت له ثم زحف شمالا وانتهى الى لبنان حيث استولى على ثلاث مدن وشيد قلعة عظيمة ووطد النظام الادارى فى شمالى فلسطين ثم عاد سالما ظافرا الى طيبه [١] . ولكى يتصوّر القارئ الصعوبات التى قاساها تحوتمس الثالث فى حروبه الأسيوية يجدر به أن يطلع على الأهوال التى قاستها جنود نابوليون فى تلك المنطقة فى أثناء زحفها من مصر الى مدينة عكا التى تبعد عن حدود القطر المصرى بقدر المسافة التى تبعد بها مجدّو ، وعلى المصاعب التى لاقاها اللورد اللنبى أخيرا وقت زحفه على الترك فى الجهة نفسها (مأخوذة باذن الأستاذ برستد من دائرة معارف التاريخ القديم لجامعة كمبردج صحيفة ٧٢ طبعة ١٩٢٥ — القسم المصرى) . ولا غرابة اذا علمنا أن تحوتمس الثالث لما عاد الى طيبه مقر حكمه سالما غانما أقام ثلاثة أنواع من "أفراح النصر" مدة كل منها خمسة أيام احتفالا بنصره الأسيوى ، ووافق وقت هذه الأعياد ميعاد العيد الأول والثانى والخامس لآمون على حسب التقويم السنوى . وقد احتفل بآخر هذه الأعياد الثلاثة فى معبد تحوتمس الثالث الذى كان قد أنجز حديثا وقتئذ بسفح طيبه الغربى ، فكان هذا أول عيد أقيم بذلك البناء . وصارت هذه الأعياد بعد ذلك ثابتة ووقفت لها الخيرات والنفقات للتمكن من احيائها كل سنة [٢] . ولما حل ميعاد أكبر أعياد آمون وهو أُوبِتْ الذى تبلغ مدته أحد عشر يوما وقف تحوتمس الثالث على ذلك المعبود ايراد المدن الثلاث التى استولى عليها جنوبى لبنان [٣] زيادة على ما أهداه من الهدايا الثمينة والأوانى البديعة المصنوعة من الذهب والفضة وغير ذلك من الأحجار الكريمة التى غنمها من أرض الرتنو [٤] . وأراد أن يضمن لمعبد آمون ايرادا كافيا ليكون على الدوام مزينا بأفخر الأثاث والأمتعة والأدوات فأضاف الى تبرعاته السالفة له أراضى واسعة بالوجه البحرى والوجه القبلى وقطعانا من الأغنام والخدم المزارعين الذين دخلوا فى حوزته بانتصاره على البلاد الأسيوية [٥] وهكذا وضع أكبر حجر أساسى فى زيادة ثروة معبد آمون حتى فاق هذا المعبد فى الثروة معابد القطر جميعها . ثم اتضح له أن المعبد القديم لا يتناسب مع ماليته العظيمة خصوصا وأنه أصبح الآن المعبد الرسمى لامبراطورية عظيمة زاهية ، زد على ذلك أن الساحة التى شيدها تحوتمس الأول بالكرنك هدم ثلث سقفها وبعض عمدها وقتما باشرت الملكة حعتشبسوت نصب مسلتيها ، فصار الجناح الجنوبى لتلك الساحة بلا سقف ولا عمد ولم يبق فى جناحها الشمالى الا أربعة عمد من خشب الأرز وعمودان من الحجر الرملى [٦] ، ثم ان المبانى التى شيدها تحوتمس الثالث حول مسلتى حعتشبسوت شوّهت ذلك المعبد أيضا [٧] ، ومع هذا كانت هذه القاعة عزيزة فى نظر تحوتمس الثالث لأن آمون اختاره ملكا على مصر فيها . ولهذه الأسباب استبدل الملك بالمهندس تحوتى الذى كان مواليا لحعتشبسوت مهندسا آخر يدعى مِنْ خِبِرْرِعْ سِنِبْ [٨] ومعناه تحوتمس الثالث المتمتع بالصحة لإخلاصه له وأمره بأن يصلح الجناح الشمالى للساحة المذكور وأن يستبدل بعمدها الخشبية أخرى

---

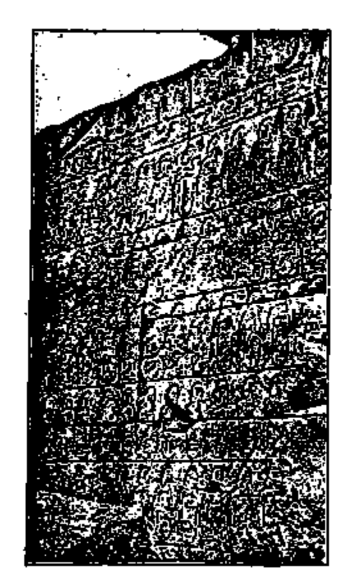
(١) ٢ : ٤٠٩ و ٥٤٩ (٢) ٢ : ٥٥٠ — ٥٣ (٣) ٢ : ٥٥٧ (٤) ٢ : ٥٥٨ و ٥٤٣ — ٤٧
(٥) ٢ : ٥٥٥ و ٥٩٦ (٦) ٢ : ١٠٠ (٧) ٢ : ٣٠٦ (٨) ٣ : ٧٧٢



شكل ١١٥ — منظر لواحة آمون المعروفة الآن بسيوه (مأخوذة عن شتيندورف)



شكل ١١٦ — مسلة تحوتمس الثالث كما كانت مقامة بالاسكندرية قبل نقلها الى نيويورك



شكل ١١٧ — قائمة بأسماء المدن الأسيوية التي استولى عليها تحوتمس الثالث على جدر معبد الكرنك

من الحجر الرملى[١]، أما الجناح الجنوبى فقد ترك وشأنه . وفى هذا الجناح المرمم كان تحوتمس الثالث يحتفل ببعض أعياد انتصاراته الأولى مخصصا الباقى منها لمعبده الذى وهبه لآمون وهو فى سهل طيبه الغربى . ويستدل من تشييد تحوتمس الثالث لمعبد بتاح الصغير القريب من معبد الكرنك العظيم بعد رجوعه منتصرا من غزوته الأولى[٢] أنه أظهر سخاء لمعبودى عين شمس ومنف القديمين، ولايخفى أن معبد عين شمس كان معتبرا معبد الحكومة الرسمى لأن رع كان معتبرا شكلا آخر لآمون .

وأخذ تحوتمس الثالث يركز امبراطوريته على أساس مكين . لكنه يلاحظ أن الملكة حتشبسوت لم تقم بحروب فى أثناء حكمها بآسيا ولذا ضعف النفوذ المصرى هناك كثيرا، وعليه فلم تكن حملة تحوتمس الثالث الأولى مع شدتها كافية للقضاء على كدش عدوه اللدود . لذلك فضل أن ينظم ويحمى ما أخضعه من بلاد آسيا أولا ثم يزحف ثانيا على أعدائه . وفى السنة الرابعة والعشرين من حكمه زحف بجيوشه الجرارة على آسيا سائرا فى الطريق المنحنى الطويل مخترقا شمالى فلسطين وجنوبى سوريا فتقاطر عليه حكام تلك الجهات مظهرين له ولاءهم وخضوعهم "حيثما طاف أو ضرب قبابه"[٣] . وكانت أخبار نصره الأولى بلغت آشور التى كانت وقتئذ فى عنفوان شبابها فرأى ملكها أن الأصوب له معاملة الامبراطورية المصرية العظمى بالحسنى فأرسل لتحوتمس الثالث حال وصوله الى سوريا هدايا جزيلة من الأحجار الكريمة والخيل المطهمة فاعتبرها المصريون وقتئذ جزية اشارة الى ولاء آشور لمصر[٤] والمرجح أن هذه الحملة لم تقع فيها مشاحنات ولا وقائع حربية .

وعاد تحوتمس الى طيبه فوصل اليها فى أكتوبر كسابق غزوته وحينئذ صمم على توسيع الكرنك لتكون فى نظامها مناسبة للامبراطورية الجديدة . ولما كان رسوب غرين النيل فى قرار النهر رفع مستوى مائه حتى أوصله زمن الفيضان الى فناء المعبد اضطر تحوتمس الثالث أن يرفع مستوى أرض ذلك المعبد ، فهدم المدخل البديع الذى شيده أمنحتب الأول . وفى أواخر فبراير فى عيد مبدأ الشهر القمرى الذى وافق وقتئذ عيد آمون العاشر رأس الملك احتفالا عظيما لوضع اساس البناء الجديد الذى صمم على تشييده بالكرنك[٥] . وقد زاد هذا الاحتفال أهمية خروج تمثال آمون ليشهد الاحتفال واشتراك تحوتمس الثالث فى شد الحبل المستعمل لقياس أبعاد الأساس[٦] . وليلاحظ أن وجهة المعبد الأصلية هى فى الجهة الغربية لكن مسلتى حتشبسوت المنصوبتين فى ساحة تحوتمس الأول المهدمة كانتا عقبتين فى سبيل توسيع البناء فى تلك الجهة . زد على ذلك أن تحوتمس الثالث لم يتمكن ولم يرغب فى تشييد المبانى حول مسلات والده القائمة على مدخل المعبد الغربى ولذلك صمم أن يشيد ساحاته الشامخة ذات العمد العظيمة فى طرف المعبد الشرقى حيث توجد الى الآن باقية ومعتبرة احدى أبنية طيبه الكبرى . وأكبر هذه الساحات واحدة يبلغ طولها حوالى مائة وأربعين قدما وهى موازية لمحور المعبد الرأسى وعرفت باسم "تحوتمس الثالث العظيم الآثار" وحافظت على هذا الاسم مدة سبعمائة وخمسين سنة بعد ذلك[٧] . ويوجد خلف هذه الساحة قدس الأقداس

---

(١) ٢ : ٦٠٠ – ٦٠٢ (٢) ٢ : ٦٠٩ ملاحظة (٣) ٢ : ٤٤٧ و ١ : ٢٥ (٤) ٢ : ٤٤٦ (٥) ٢ : ٦٠٨
(٦) شرحه (٧) ٢ : صحيفة ٢٢٧ ملاحظة (د)

تحيط به خمسون قاعة تقريبا ، وقد خصصت احداها وهى الجنوبية لقراءة الدعوات والصلوات لذكرى أجداد تحوتمس الثالث[1] . وتتصل بهذه القاعة أخرى أمر الملك بكتابة أسماء أجداده عليها وبالاكثار من القرابين لهم وبعمل تماثيل لأجسادهم ، ولا تزال قائمة هذه الأسماء محفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس . وحديثا عثر على تماثيل عدة لأجداد تحوتمس الثالث فى الحوش الجنوبى للمعبد حيث خبئت وقت الحرب فبقيت سليمة الى أن كشف عنها .

وفى السنة التالية (أى السنة الخامسة والعشرين من حكم تحوتمس الثالث) ذهب الى بلاد آسيا وجعل همه تنظيم أملاكه فيها واعتبرت فيما بعد النصف الجنوبى لامبراطوريته المقبلة ، أما الجزء الشمالى فكان لا يزال عاصيا . ثم عاد الى طيبه فوجد مبانيه بالكرنك بلغت من الفخامة درجة كبيرة فأمر بنقش جدر احدى القاعات بنباتات وحيوانات آسيا التى سباها وجاء بها ليقدمها الى معبد آمون[2] وبحيرته المقدسة التى شيد حولها إفريزا جميلا .

ولم تصل الينا أخبار عن رحلة تحوتمس الثالث الرابعة بآسيا لكنه يستدل من قرائن الأحوال أنها وجهت للغرض نفسه الذى ذهب لأجله فى رحلاته الثلاث السابقة . واتضح لتحوتمس وقتئذ أن غزو كدش عن الطريق الواقع بين سلسلتى جبال لبنان يعرضه للخطر اذا لم يخضع أولا بلاد فينيقيا التى على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، كما أنه تأكد أنه يستحيل عليه غزو أرض النهرين قبل أن يخضع كدش المسيطرة على وادى نهر (العاصى) الأورونط ولذلك قام بعدة غزوات على شاطئ البحر الشمالى ليتخذه فى المستقبل قاعدة حربية فى حروبه مع كدش ، ومتى نجح فى ذلك سهل عليه الزحف شمالا من الشاطئ على بلاد متانى واقليم النهرين جميعه . ولا شك أن هذه الخطوات سديدة لدرجة يستحيل على أى ضابط حربى حديث أن يبتكر أحسن منها بحيث تناسب أحوال تلك العصور أو أن ينجزها بمثل ما أنجزها تحوتمس من الدقة والمثابرة . والحق يقال ان الحلفاء لو اتبعوا فى الحرب العظمى هذه الخطة فى حرب الترك لفازوا بالنصر هناك فى أقل من سنة واحدة (مأخوذ باذن الأستاذ برستد من دائرة معارف التاريخ القديم لجامعة كمبردج صحيفة ٧٤ طبع ١٩٢٥ وقد جهز لذلك أسطولا تحت قيادة القائد الأمين نيبامون[3] الذى خدم تحوتمس الأول سابقا . وفى السنة التاسعة والعشرين عزم على القيام بغزوته الخامسة فأبحر بأسطوله الضخم الى المدن الشمالية على شاطئ فينيقيا الغنى لأول مرة فى حياته ، ولا بد أنه قد نقل معداته الحربية وجنوده على أسطوله لأنه بدأ بأعماله الحربية فى فينيقيا قبل أن يخضع كدش وجنوبى تلك البلاد . ولا يبعد أنه توصل الى النزول على شاطئ فينيقيا الشمالى باتفاق ودى سابق مع مدينة صور (Tyre) لأنه ورد فى الآثار أن أحد الفراعنة عامل هذه المدينة معاملة خصوصية بأن اعتبرها مدينة حرة[4] . وبديهى أن المدينة المذكورة لم تقدم على ابرام مثل هذا الاتفاق الا حفظا لتجارتها من الكساد وتخلصا من نير الجزية أو على الأقل من بعض شروط المستقبل . ولم نهتد للآن الى أول مدينة استولى عليها تحوتمس الثالث

---

(1) ٢ : ٦٠٤ — ٥ (2) ٢ : ٤٥٠ — ٥٢ (3) ٢ : ٧٧٩ (4) خطابات العمارنة ، لونكلر ، لوح ٣٣ رقم ٢ ، ٧٠ ظهر ١٢ ملاحظة

وقتئذ لكنه يغلب أنها على الشاطئ مقابل تونب (بعلبك ؟) والظاهر أنها كانت مدينة غنية لأن تحوتمس استولى فيها على غنائم كثيرة ، وورد أن هذه المدينة كانت تحوى معبدا لآمون[١] شيده أحد أسلاف تحوتمس الثالث (ربما كان تحوتمس الأول أو أمنحتب الأول) . فى ذلك الوقت أيقنت المدن الداخلية للبلاد أن نجاح هذه الضربة الموجهة اليهم معناه دمارهم وهلاكهم فبادر أهلها بارسال القوات والمدد لمحاربة المصريين وكانت مدينة تونب (بعلبك ؟) أول من قام بذلك[٢] لأنها تأكدت أن سقوط المدينة المجهولة المذكورة سابقا يعقبه سقوط تونب (بعلبك ؟) أيضا . أما تحوتمس الثالث فاستولى أولا على أسطول المدينة المجهولة[٣] ثم زحف مسرعا بجيشه الى الجنوب نحو مدينة أرواد المنيعة (أرمادا) فحاصرها مدة يسيرة اضطر فى أثنائها لأن يجتث الأشجار المحيطة بها من أصولها كما فعل بمدينة مجدو فسلمت له بعد مدة يسيرة[٤] ثم استولى على خيراتها الفينيقية الجزيلة . وكان ذلك وقت الخريف والأشجار محملة بالفواكه اللذيذة فوجد المصريون هناك النبيذ يتدفق من معاصره كالمياه والحبوب مكدسة على تلال المدينة بكميات تفوق رمل الشاطئ فأخذ منها الجيش المصرى جزءا عظيما[٥] . واستحال على تحوتمس أن يقيد جيشه بالمحافظة على النظام فى الأيام الأولى لهذا النصر ، فقد جاء أن الجنود المصرية شربت الخمور وأكثرت من الأكل والشرب والتضميخ بالعطريات كما كانت تفعل فى الأعياد بمصر[٦] . ثم تقدم حكام مدن شاطئ فينيقيا مظهرين الخضوع والولاء لتحوتمس وفى أيديهم الجزية[٧] . وهكذا استولى تحوتمس على جزء من شاطئ فينيقيا الشمالى اتخذه فيما بعد قاعدة حربية لغزو البلاد المجاورة ، ثم عاد الى مصر بحرا[٨] ويظن أن هذه العودة البحرية لم تكن الأولى من نوعها .

الى هنا مهدت السبل وأعدت الوسائل لغزو كدش لأن تحوتمس الثالث أخضع تماما البلاد الجنوبية وكذا الجزء الشمالى للشاطئ البحرى نتيجة غزواته الخمس ، وعليه صمم تحوتمس الثالث على القيام بغزوة سادسة يسحق فيها كدش عدوه اللدود . ففى السنة الثلاثين من حكمه سافر تحوتمس الثالث بحرا الى فينيقيا فوصل اليها فى أواخر الربيع أى بعد موسم المطر وأنزل جنده فى صميرة (Simyra)[٩] على فم النهر الكبير (Eleutheros) ثم زحف فى هذا الوادى متجها رأسا نحو كدش[١٠] لأن هذا الطريق أقصر وأسهل طرق كدش من ساحل فينيقيا الشمالى ، زد على ذلك أنه الطريق الوحيد الصالح للاجراءات الحربية واختراق المنطقة الجبلية الى كدش وهى غربى نهر الأورونط فى الطرف الشمالى للوادى الذى هو بين سلسلتى جبال لبنان . فى ذلك المكان تنتهى سلسلة جبال لبنان الشرقية (Anti-Lebanon) معرجة فى السهل الذى هو بالجنوبى الشرقى للمدينة (راجع خريطتى رقم ٥ و ٧) . ويتفرع من نهر الأورونط غربا فرع صغير شمالى كدش وملاصق لها تماما ولذلك كانت هذه المدينة بين ملتقى هذين النهرين . وكانت هناك قناة أيام تحوتمس الثالث لا تزال آثارها باقية للآن تصل هذين النهرين بعضهما ببعض وتكمل الحلقة المائية

(١) ٢ : ٤٥٧ - ٩ (٢) ٢ : ٤٥٩ (٣) ٢ : ٤٦٠ (٤) ٢ : ٤٦١ (٥) شرحه (٦) ٢ : ٤٦٢
(٧) شرحه (٨) ٢ : ٤٦٠ (٩) ٢ : ٤٦٣ (١٠) ٢ : ٤٦٤

حول كدش . زد على ذلك أنه كان هناك خندق داخل هــذه الحلقة المـائية يحيط بالمدينة أيضا ويجعلها حصنا منيعا لا نظير له فى سوريا رغم وقوعه فى سهل مسطح . وليـلاحظ أن موقع كدش الجغرافى ذو أهمية جغرافية كبيرة لأنها مشرفة على وادى الأورونط وعلى الطريق الموصل من الشاطئ الى داخلية البلاد مسافة طويلة شمالا وجنوبا محاذيا للنهر الكبير[١] .



خريطة رقم ٥ : مدينة كدش القديمة المعروفة الآن بتل النبى مندوح تظهر التلال الأثرية الواقعة بين نهر الاورنط على اليمين وفرعه على الشمال (مأخوذة عن كولدوى)

وقد أيقن تحوتمس الثالث تمـاما وقتئذ أن التوغل فى داخلية البلاد مستحيل ما لم يكن هذا الطريق فى قبضته ، ومن ذلك يتضح أن الاستيلاء على كدش كان أمرا صعبا . ومن دواعى الأسف أن الكاتب الكاهن الذى سجل أخبار هذه الحرب أوجز كثيرا فى الكلام على سقوط كدش فقال : " ان جلالة الملك لمـا وصل الى كدش تغلب عليها ومنع عنها الغذاء ثم قطع أشجار غاباتها وحصد حاصلاتها "[٢] . ويظهر لنا من هذه الرواية المختصرة أن تحوتمس اتبع مع كدش الطريقة نفسها التى استعملها مع مجدو وهى المذكورة سابقا وتتلخص فى قطع الأشجار من الغابات وتشييد سور محكم حول المدينة لحصارها ومراقبة جيشه لهـا من الخارج مستمدا غذاءه من خيرات حقولها المجاورة ، وهذا الحصار استغرق فصل الربيع حتى زمن الحصيد . والمعروف أن المصريين هاجموا المدينة أكثر من مرة لأن القائد المصرى

(١) راجع كتاب معركة كدش للؤلف صحيفة ١٣ – ٢١ و٤٩ وأيضا هذا الكتاب صحيفة ١٧١ (٢) ٢ : ٤٦٥



شكل ١١٨ — أحد فراعنة الامبراطورية المصرية يقابل رسله الأسيويين الحاملين جزيتهم ، ويتقدم الرسل موظفون مصريون يرتدون أزياء بيضاء ، ويمتاز الأسيويون بملابسهم المزخرفة وبلحاهم المرسلة

أمنمحب روى ما قام به من الأعمال مع تحوتمس وقت حصاره لكدش فقال انه أسر أميرين من هذه المدينة فكافأه تحوتمس على ذلك أمام الجيش بمحتين احداهما "سبع مصنوع من الذهب الخالص" وثانيتهما "ذبابتان" علاوة على أدوات ثمينة أخرى[١] . ولما طالت مدة حصار كدش ظن أهالى شاطئ فينيقيا أن تحوتمس الثالث هزم فامتنعت أرواد (أرمادا) عن دفع الجزية العظيمة لمصر مع ما عانته من الخسائر وقت هجوم المصريين عليها فى السنة السابقة ، فلما سقطت كدش أسرع تحوتمس بجيشه نحو صميرة وأسرع توا الى أرواد (أرمادا) ليوقع عليها العقاب[٢] . ولما حل فصل المطر عاد تحوتمس الى طيبه مستصحبا بعض أبناء الملوك والحكام لشمالى سوريا ليعلمهم بطيبه [٣] كما فعل سابقا بأولاد الحكام لمستعمرات آسيا الجنوبية .

وجاء عصيان أرواد (أرمادا) وقت حصار كدش درسا مفيدا لتحوتمس بعدم التوغل بعيدا عن نهر الأورونط نحو بلاد النهرين الا بعد اخضاع شاطئ فينيقيا تماما ، ولذا أمضى سنته التالية وهى الحادية والثلاثين من حكمه فى قمع كل حركة انفصالية تقوم بها بلاد فينيقيا . ورغما عن وجود الجيوش المصرية بمدينة صميرة فان ميناء أولازا (Ullaza) القريبة منها شقت عصا الطاعة على تحوتمس الثالث ، والسبب فى ذلك أن ملك تونب (بعلبك ؟) أرسل نجليه اليها ليحرضاها على مناوأة المصريين . ووصل تحوتمس الى ذلك الميناء الحقير فى ٢٧ أبريل[٤] وأخضعه بسرعة وأسر أحد أنجال ملك تونب فيها[٥] ثم أتى اليه حكام المدن المجاورة كالمعتاد مظهرين له ولاءهم وخضوعهم . وبلغ ما استولى عليه منهم ومن المدينة المقهورة ما يقرب من مائة وخمسة وثمانين رطلا من الفضة وكميات كبيرة من خيراتهم الطبيعية [٦] . وسافر الملك على مهل من ميناء الى أخرى منظما الادارة ومظهرا سلطته وقوته[٧] باذلا همته بأن تكون جميع المرافئ مزودة بالأغذية الكثيرة فى السنة المقبلة لأنه عزم وقتئذ على غزو بلاد النهرين . ولما رجع الملك الى مصر وجد رسل الجنوب (وهى النوبة على الأرجح) وصلوا ليقدموا لجلالته جزيتهم[٨] فاستنتج من ذلك أنه اتبع سياسة الشدة فى أقصى جنوبى مملكته كما اتبعها فى مستعمراته الشمالية .

وتطلبت الاستعدادات الحربية التى اتخذها تحوتمس الثالث لغزو بلاد النهرين سنة كاملة بعد رجوعه الى مصر فتأخر لذلك الى ربيع السنة الثالثة والثلاثين من حكمه ، وحينئذ سافر بحرا مع جنده حتى وصل الى ميناء صميرة فأنزل بها قواته [٩] ، ولا يخفى أن هذه الغزوة كانت الثامنة للملك بتلك الجهات . بعد ذلك زحف فى داخلية البلاد للمرة الثانية متبعا طريق كدش ثم يمم شمالا واستولى على مدينة كِتْنا (حمص ؟) (Ketne)[١٠] وسار متبعا نهر الأورونط حتى وصل الى مدينة زنزار (Senzar) حيث حارب أدلها واستولى على المدينة . وقد أبدى قائده المدعو أمنمحب شجاعة عظيمة فى تلك المعركة نال لأجلها مكافأة الشرف للمرة الثانية [١١] . والغالب أن تحوتمس غادر نهر الأورونط ويمم مسرعا نحو بلاد النهرين ، لكنه اشتبك هناك مع قوة معارضة فى معركة بسيطة

---

(١) ٢ : ٥٨٥ ، (٢) ٢ : ٤٦٥ (٣) ٢ : ٤٦٧ (٤) ٢ : ٤٧٠ (٥) شرحه (٦) ٢ : ٤٧١
(٧) ٢ : ٤٧٢ (٨) ٢ : ٤٧٤ – ٥ (٩) ٢ : ٤٧٦ (١٠) ٢ : ٥٩٨ (١١) ٢ : ٥٨٤

أسر فيها أمنحب ثلاثة أسرى[١] ثم سار الملك بدون معارضة تذكر حتى وصل الى تل وان (Wan) غربى حلب فاشتبك هناك فى معركة كبيرة أسر فيها أمنحب ثلاثة عشر أسيرا لكل منهم رمح من البرنز المطعم بالذهب[٢]، واستنتج من ذلك أن هذه الجنود المعادية هى حرس ملك حلب الخاص، ولا بد أن يكون تحوتمس الثالث استولى وقتئذ على حلب ولولاه لاستحال عليه السير بسرعة الى الأمام كما فعل . "ثم عرج شمالا حتى بلغ أرض النهرين فاستولى على مدنها وأتلف أمكنة تلك البلاد المعادية اللعينة" [٣] . ولا يخفى أن هذه البلاد كانت تحت سلطة ملك متانى وقد عبثت الجنود المصرية هناك بوادى الفرات كما فعلوا أيام ملكهم السابق تحوتمس الأول منذ خمسين سنة تقريبا .

بعد ذلك عرج تحوتمس الثالث شمالا حتى وصل الى مدينة كَارْشِمِيش فالتحمت جنوده هناك بجنود ملك متانى عدو تحوتمس اللدود فى معركة شديدة انتهت بهزيمة متانى هزيمة تامة ففر جنودها هاربين غير ناظرين وراءهم فكانوا وقتئذ كقطيع الأغنام[٤] . ولا بد أن يكون أمنحب تتبع العدو شرقى الفرات لأنه روى أنه عبر النهر عند رجوعه لما أحضر أسراه الى جلالة مليكه[٥] . عندئذ تحقق ما كانت تصبو اليه نفس تحوتمس الثالث بعد حرب دامت عشر سنين فقد وصل جلالته آخرها الى نهر الفرات ثم عبره ودخل بلاد متانى ، وقد نصب جلالته هناك أثرا حجريا أظهر فيه حدود مملكته فأتى بذلك شيئا لم يتمكن أجداده من الافتخار به سابقا[٦] . ثم اتضح لتحوتمس أن كل توغل فى تلك الجهات يستلزم تمضية فصل الشتاء فيها ، لكنه كان فى الوقت نفسه شديد الحرص على جنده فلم يشأ أن يعرضهم لبرد تلك البلاد الشمالية فيخسرهم بعد ما أصبحوا مدربين على الحرب أولى عزم فيها ليس من السهل تجنيد مثلهم اذا توفوا ، لذلك رجع الملك الى شاطئ الفرات الغربى سالما ونصب هناك لوحا أثريا بجوار لوح والده تحوتمس الأول[٧] . ولما آن الوقت وحصدت الجيوش المصرية زرع وادى الفرات[٨] اضطر تحوتمس أن يعود الى وطنه لكنه قبل أن ينجز هذا قام بمأمورية شاقة بجهة مدينة نى (Niy) العاصية التى كانت تهدد أعماله فى الفرات فتقدم اليها متبعا مجرى النهر واستولى عليها بدون صعوبة على ما يظهر[٩] . ولما انتهى من حربه نظم جماعة لصيد الفيلة فى اقليم نى — وقد بادت الفيلة الآن فى هذا الاقليم — واصطدم هو ورجاله مع قطيع من هذه الحيوانات الوحشية التى آوت شمالى سوريا وكان عددها مائة وعشرين فيلا فهجم على جلالته فيل كبير كاد يفتك به لولا تدخل القائد أمنحب فى الأمر واسراعه فى بتر خرطوم الوحش الضارى، وعند ذاك استشاط الحيوان غيظا من هذا القائد وهمّ بالفتك به لكنه لاذ الى ما بين صخرتين على حافة احدى البرك هناك فنجا بذلك وهكذا حوّل هذا القائد الى نفسه الخطر المحدق بمليكه من جراء هذا الوحش فكافأه تحوتمس على هذه الشجاعة بسخاء [١٠] .

---

(١) ٢ : ٥٨١ (٢) ٢ : ٥٨٢ (٣) ٢ : ٤٧٩ (٤) ٢ : ٤٧٩ (٥) ٢ : ٥٨٣ (٦) ٢ : ٤٧٨ و٤٨١ و٦٥٦ و٢ : ٧–٨ (٧) ٢ : ٤٧٨ (٨) ٢ : ٤٨٠ (٩) ٢ : ٤٨١ (١٠) ٢ : ٥٨٨

فى ذلك الوقت أتى أمراء بلاد النهرين جميعا ليظهروا الولاء والخضوع لجلالة ملك مصر وأحضروا معهم الجزية اثباتا لذلك[١] . ومما يدل على مبلغ صيت تحوتمس هناك وقتئذ أن بابل البعيدة استصوبت عدم مناوأة فرعون فأرسلت اليه هدايا ثمينة من اللازورد[٢] . والأدهى من هذا أن مملكة خيتا (الحيثيين) التى كانت مسيطرة على الأقاليم الأسيوية المجهولة للمصريين أرسلت الى تحوتمس الثالث أيضا هدايا ثمينة جدا يحملها رسل خصوصيون التقوا بتحوتمس فى طريقه عائدا من النهرين الى شاطئ البحر الأبيض المتوسط ، وهذه الهدايا عبارة عن ثمانى حلقات فضية كبيرة زنتها ثمانية وتسعون رطلا مع مقدار كبير من الأحجار الكريمة (المجهولة لنا الآن) والأخشاب الثمينة[٣] . وتعتبر هذه أقدم معاملة معروفة بين ملك خيتا (الحيثيين ؟ الواردة أسماؤهم فى التوراة) والمصريين . ولما وصل تحوتمس الثالث الى شاطئ البحر كاف حكام مرافئه تجهيز الأغذية والمعدات لجيشه فى السنة التالية[٤] . وبهذه الطريقة سهل عليه ارسال المدد لأى مرفأ فينيقى لاخضاع أية ثورة داخلية فى مدة لا تتجاوز بضعة أيام . وليلاحظ أن قوة مصر البحرية وقتئذ بلغت درجة كبيرة خضع لها ملك قبرص كما فعل أيام العهد الصاوى ، وقد تمكن تحوتمس الثالث بأسطوله من بسط بعض نفوذه على جزر البحر الأبيض الشمالية وعلى الاقليم الشرقى للبحر الأبيض المتوسط وعلى كثير من البلاد اليونانية غربى ذلك . قال القائد البحرى تحوتى انه عين حاكما عاما على الأقطار الشمالية بما فيها من جزر البحر الأبيض المتوسط ، لكن يلاحظ أن هذه السلطة لم تعين وقتئذ الا لدفع الضرائب السنوية المفروضة على تلك الجزر لمصر .

وعاد تحوتمس الثالث الى طيبه فى شهر أكتوبر فوجد بعثته الحربية التى أوفدها الى بلاد الصومال منتظرة أوبته ومعها أشياء كثيرة ثمينة وكميات كبيرة من العاج والآبنوس وجلد النمر والذهب وما ينيف على مائتين وثلاثة وعشرين مكيالا من المر وعدد عظيم من العبيد ذكورا وإناثا وقطعان الغنم[٥] . ودلتنا الآثار أن تحوتمس الثالث بسط نفوذه على الواحات غربى وادى النيل (شكل ١١٥) فصارت هذه الأقاليم ملكا لجلالته وعهد بادارتها الى بشير جلالته المدعو إنتف (Intef)[٦] ، وهو رجل عريق الأصل من نسل أمراء قسم العرابة القريب من الواحة الكبرى (خريطة رقم ١٣) وليلاحظ أن هذه الواحة ألحقت بقسم العرابة واشتهرت قديما بنبيذها الجيد . وعليه فلا بد أن تحوتمس الثالث نفذ مشروعاته بجهد عظيم متبعا فى ذلك طريقة أجداده حتى بلغ نهر الفرات . وبديهى أن جلالته اضطر أن يقاوم ملوك سوريا وشمالى فلسطين مجتمعين لا منفردين على عكس ما كان مع سلفه ، وبالرغم من اجتماعهم كسر شوكتهم التى كانت تحت قيادة ملك كدش (عاصمة الهيكسوس قديما) وزحف بجيشه الى الأقاليم الشمالية . ويستنتج مما ذكرنا سابقا أن جلالته استمر يصوب الى أهالى تلك البلاد سهام الصدمة بعد الصدمة فى حرب أشبه بمناورات الجورلا (Guerilla) حتى ظفر بهم ، وقد أثبت انتصاره هذا بأن نصب حجرا أثريا بجوار أثر والده الذى أقامه هناك قبل ذلك بجيلين . وفى هذه الحروب فاق والده فانه عبر نهر الفرات وهو أمر لم يقم به فرعون مصرى سابق مطلقا . فملك هذه أعماله

(١) ٢ : ٤٨٢ (٢) ٢ : ٤٨٤ (٣) ٢ : ٤٨٥ (٤) ٢ : ٤٨٣ (٥) ٢ : ٤٨٦ (٦) ٢ : ٧٦٣

يحق له أن يفتخر ويباهي بفتوحاته منذ انتخبه آمون ملكا على مصر أى فى مدى ثلاث وثلاثين سنة .
وليلاحظ أن جلالته أمر مهندســه فى العمارة المدعو يوم رغ أن ينصب مسلات له بطيبه فى السنة الثلاثين من حكمه[1] . ولما عاد جلالتــه من انتصاراته الكبرى كان الاحتفال به قائما على قدم وساق وكان ضمن قائمة أعمال ذلك الاحتفال نصب مسلتين كبيرتين بمعبد الكرنك منقوش على احداهما نصوص ترجمتها : " تحوتمس عابر منحنى النهرين العظيم (أى نهر الفرات) مصحوبا بجيشه وكان النصر حليفه " وهذه المسلة منصوبة الآن بالاستانة[2] ، أما المسلة الثانية فقد بليت . والمعروف أن معظم مسلات هـذا الملك العظيم تلفت أو نقلت الى البلاد الأجنبيـة ولم يبق منها الا واحدة منصوبة فى محلها الأصلى حيث كانت سلطة هذا الملك العظيم قوية مهيبة . أما مسلاته المنقولة الى البلاد الأجنبية فمنتشرة الآن فى عواصم تلك البلاد من الاستانة الى رومة الى لنـدن الى نيويورك (شكل ١١٦) وليلاحظ أن المسلتين الأخريين (المنصوبتين فى لنـدن ونيويورك) على شاطئ الاطلانتيك عملتا خصيصا لأجل الاحتفال بنصر الغزوة الرابعـة وقد كانتا مقامتين سابقا على جانبي مدخل معبد عين شمس[3] .

ولما عظمت آثار تحوتمس الثالث فى طيبه نسى أهلها أن جلالتــه كان فيما سبق كاهنا وضيعا فى معبد آمون حيث نصب آثارا كالمسلات الشامخة ، ولا غرابة فى ذلك فقـد أصبح القوم يرون نقوشا هيروغليفية تاريخية على جدر ذلك المعبد تنبئهم بانتصارات الملك وعظيم أعماله بآسيا وتذكر لهم الغنائم الثمينة التى لا تحصى والتى استولى عليها الجيش المصرى وتبين لهم الهبات الملكية الجزيلة برسوم بارزة فيعرفون منها ما جاد به لمعبد آمون . وقد نقش جلالته على جدر صرح ذلك المعبد ثلاث مرات أسمـاء مائة وتسع عشرة مدينـة استولى عليها فى غزواته الأولى (شكل ١١٧) يلى ذلك ما يزيد على مائتين وثمـانية وأربعين اسما لمدن أسيوية خضعت له فى غزواته الحديثـة[4] . وبصرف النظر عن قيمة هذه السجلات فى نفوس الطيبيين فهى ذات قيمة عظيمة لنا ، لكنه من الأسف أن هذه النقوش ملخص فقط لأعمال تحوتمس الثالث قام بنقشها كاتب كاهن لاظهار الأصل فى ثروة معبد الكرنك وشرح طريقة تحوتمس الثالث فى سداد الدين الذى عليه لآمون وجزيل انعامه عليه بالانتصارات الباهرة . من ذلك يتضح للقارئ أن هذه النقوش ليست فى الحقيقة الا قشورا تاريخية ينبى عليها تاريخ صاحبها الذى هو أول حاكم محنك معروف فى التاريخ ، ولم يكن ضروريا لأهل طيبه أن يطلعوا على هـذه النقوش ليتأكدوا من أعمال تحوتمس الثالث فمجرد رؤيتهم لحديقة الكرنك وما تحويه من الأشجار الأجنبية الكثيرة الواردة من سوريا وفلسطين والحيوانات الغريبة عن مصر تكفيهم للاقتناع بعظم أعمال مليكهم . زد على ذلك أن رسل مستعمرات مصر الشمالية والجنوبية كانت ترد تباعا على القصر الملكى كما أن السفن الفينيقية الضخمة التى لم يرها المصريون سابقا كانت ترسو على شاطئ طيبه مشحونه بمـا تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين من خيرات تلك البـلاد السحيقة ، فكان القوم يرمقون بعين الاكبار محمول تلك السفن من أوان ذهبية وفضيـة ومصنوعات دقيقة باهرة واردة من صور

[1] ٢ : ٣٨٢ – ٤ [2] ٢ : ٦٢٩ – ٣١ [3] ٢ : ٦٣٢ – ٦ [4] ٢ : ٤٠٢ – ٣

وآسيا وقبرص وكريت وجزر الأرخبيل اليونانى والأثاث البديع المصنوع من العاج والآبنوس والعجلات المرصعة والمموهة بالذهب وخليط الذهب مع الفضة وأدوات الحرب المصنوعة من البرنز والخيل المُسَوَّمة المجلوبة لفرعون والكميات التى لا تحصى من حاصلات الحقول والحدائق ومزارع الفواكه والنبيذ الى غير ذلك من خيرات الحقول . علاوة على هذا كانت تجىء على هذه السفن جزية تلك البلاد النائية كل سنة محروسة وهى على شكل حلقات تجارية كبيرة من الذهب والفضة يبلغ ثقل بعضها اثنى عشر رطلا تقريبا . أما الضرائب التى كانت تجبى من التجارة اليومية فكانت تدفع بشكل حلقات تجارية أيضا لا يتجاوز وزن كل منها بضع قمحات . واعتاد أهل طيبه أن يشخصوا فى الشوارع لمراقبة أهل آسيا وهم يتكلمون بلغتهم الأجنبية سائرين زرافات ووحدانا حاملين جزيتهم الثمينة ليوردوها لخزانة فرعون حيث يقابلهم الوزير رِخْمارِعْ فى الأحوال الاعتيادية ، واذا كانت الجزية ثمينة جدا كان هذا الوزير يعرضها على جلالة فرعون مصر وهذا يستقبلها استقبالا رسميا وهو جالس على عرشه الملكى تعلوه الأبهة والجلال ، بعد ذلك يمدح وزيره على ما بذله من همة وتعب ثم يورد الأسيويون جزيتهم فتسجل بدقة فى السجلات الرسمية . وكان الوزراء وموظفو المالية كثيرى الولوع برسم تلك المعاملات على جدر مقابرهم حيث تشاهد الآن بطيبه [1] (شكل ١١٨) . ولا بد أن تكون قيمة تلك الثروة عظيمة جدا فى تلك الأزمنة فقد ورد مرة أن الخزانة المصرية حوت ما ينيف على ثمانية آلاف وتسعمائة وثلاثة وأربعين رطلا من خليط الذهب والفضة [2] . أما النوبة فكانت مثابرة على دفع جزيتها كل سنة للمندوب السامى الذى يوفده اليها ، وكانت هذه الجزية من الذهب والعبيد السود والغنم والآبنوس والعاج والحبوب . وكان أهل طيبه واوعين برؤية جزية السودان المتباينة الأشكال والألوان وهى تخرج من السفن الراسية على الشاطئ وتسير فى شوارع مدينتهم الى الخزانة الملكية . واعتاد أهل طيبه أن يروا مليكهم تحوتمس الثالث عائدا كل سنة من أسفاره فى أواخر شهر أكتوبر أو أوائل شهر سبتمبر مصحوبا بأسطوله الضخم الكبير فيرسو بمرفأ عاصمتهم ، حينئذ كان القوم يكبرونه عند ما يشاهدون الكميات العظيمة من ثروة آسيا والعدد العظيم من الأسيويين موثوقين منقولين على الألواح الخشبية الى الشاطئ ثم متقدمين زرافات الى طيبه حيث يمضون حياتهم عبيدا لفرعون (شكل ١١٩) . ويمتاز الأسيويون على الآثار بطول لحاهم ، وقد كان المصريون يبغضونها ، وشعورهم كثيفة مسدولة على أكتافهم وملابسهم متعددة الألوان ومنسوجة من الصوف خلافا للباس المصرى الأبيض الناصع ، وجميع هؤلاء الأسيويين موثوقون عند الكوعين من الخلف أو فوق الرءوس ، وتشاهد أيديهم أحيانا موثوقة فى أغلال خشبية بيضاوية الشكل ، واعتاد نساء هؤلاء القوم حمل أطفالهن على أكتافهن فى كيس من الحصير ، وكانت رطانتهم وأزياؤهم موجبة لسخرية المصريين حتى أكثر الهواة وقتئذ رسم تلك المناظر فى أعمالهم . وكثيرا ما كان هؤلاء الأسرى يخدمون أتباع الملك أو يوزعون على قواده ، لكن السواد الأعظم منهم كان يرسل حالا لخدمة أراضى المعبد وأملاك فرعون أو بناء آثار جلالته أو عماراته [3] وأخصها تلك العمارة الأخيرة ، وقد استمرت هذه العادة متبعة الى أيام صلاح الدين الأيوبى الذى استخدم أسرى الحروب الصليبية لبناء قلعة القاهرة ، وسنرى كيف غير هؤلاء الأسرى كثيرا من شكل طيبه ونظامها .

(1) ٢ : ٦٧٠ - ١ و ٧٢٤ (2) ٢ : ٧٦١ (3) ٢ : ٧٥٦ - ٩

وكلما عاد الملك الى طيبه فى الخريف لقضاء فصل الشتاء اعتاد أن يصرف وقته فى تجهيز معدات حملته المقبلة التى كان يبدأ بها عادة بعد ستة أشهر ، ولذلك كان تعب الملك فى ذلك لا يقل عن تعبه وقت الغزوات الأسيوية . زد على ذلك أنه كان يطوف فى جهات القطر ليتفقد أعمال حكام أقسامه كى يمنع الرشوة وكل ما من شأنه ابتزاز أموال الأهالى وقت جمع الضرائب . كل هذا كان يقوم به تحوتمس الثالث بعد فراغه من الاحتفال بعيد أوبت [١] . واعتاد كذلك أن يتفقد فى سفره أيضا المعابد البديعة التى كان يشيدها أو يرمها ، وقد دلتنا الآثار أن جلالته تفقد ما ينيف على ثلاثين معبدا غير التالف منها الذى نجهل تاريخه . وقد أحيا جلالته اقليم الدلتا وأقام الآثار على امتداد نهر النيل من الوجه البحرى شمالا الى الشلال الثالث جنوبا فصارت آثارا كاللآلئ النيرة على البلاد ، وشيد عند مدخل الفيوم مدينة جديدة ومعبدا خاصا بها ، وصرف النفقات الباهظة عليهما ، وسخر أسرى حروبه فى تشييد المبانى الشامخة الملكية بجهة دندره وقفط والكاب وادفو وكوم امبو وجزيرة الفيل وغيرها . واعتاد مدة اقامته فى طيبه أن يبحث فى أمور بلاده فكانت سلطته مباشرة فى كل فرع من أفرع الحكومة وهذا غير ما كانت تتطلبه بلاد النوبة من العناية الكبيرة الخاصة بمناجم الذهب التى سيأتى الكلام عليها . واهتم تحوتمس الثالث بتثمير مناجم الذهب على طريق قفط فعهد فى ادارتها الى موظف لقبه "بمدير أراضى الذهب التابعة لقفط"[٢] . وهكذا لم يترك الملك موردا ينتفع منه إلا استغله . وتطلبت زيادة ايراد معبد آمون تنظيم ادارة شؤونه فزود كهنة ذلك المعبد بالتعليمات والأوامر الشديدة لرفع شأن ذلك المعبد وزيادة ايراده[٣] . وفى أوقات فراغه كان يرشد رئيس صناعه بالمعبد أو بالمصانع الملكية برسم يده الملكية لأوان يفضل استعمالها وقت عبادة آمون ، واستنتج من نقوش جدر الكرنك وما حوته من رسوم الأوانى التى قدمها الملك الى صناعه ليصنعوا مثلها للمعبود على شدة اهتمامه ومزيد عنايته ، وكثيرا ما افتخر رئيس الصناع الذى أعطى هذه الرسوم فنقش تلك الأوانى على جدر معبد قبره ، ولا يزال هذان الأثران باقيين بين أطلال طيبه للآن . ولتحوتمس فوق هذه الأعمال مآثر أخرى[٤] فقد شيد جلالته صرحا عظيما جنوبى الكرنك وسورا شامخا حول هذا المعبد وحول حديقته وغابته .

أما حملات تحوتمس الثالث الحربية فكانت مرتبة منظمة كأعماله الادارية بطيبه فبمجرد انتهاء فصل المطر فى فلسطين وسوريا كان يرافق جيشه فى أسطوله الضخم ويبحر الى الموانئ السورية أو الفلسطينية حيث يقدم له الولاة ما يلزمه من الأغذية والمعدات الحربية يجلبونها من البلاد المجاورة . وجرت العادة أن يرافق الملك فى حركاته كلها رئيس حجابه المدعو إنتف العريق الأصل والملقب "بحاكم طينه وقسم الواحات" [٥] ، وكلما زحف تحوتمس الثالث فى داخلية البلاد كان إنتف هذا فى المقدمة يستطلع مقاومة الأعداء ، وكلما حل بمدينة وأراد المبيت يجهز إنتف قصر حاكمها لمليكه وقد قال إنتف : "اذا وصل سيدى مصحوبا بالسلامة الى المكان الذى أنا فيه كان يجدنى قد نظمته وجهزته بكل ما يحتاج اليه فى البلاد الأجنبية ، وربما فاقت وسائل راحته ونعيمه ما هو بالقطر المصرى . كيف لا وقد كنت أنظف الحجرات وأعطرها وأرتب أثاث كل حجرة على حسب

(١) ٣ : ٥٨ (٢) ٢ : ٧٧٤ (٣) ٢ : ٥٧١ (٤) ٢ : ٥٤٥ و٥٧٥ (٥) ٢ : ٧٦٣



شكل ١١٩ — الأسرى الأسيويون بمصر فى عهد الامبراطورية . ويمتاز هؤلاء بلحاهم المرسلة وملابسهم الكثيفة وهم يمشون مثنى مثنى موثوقى الأيادى فى وثاثق خشبية ، وبين كل اثنين من الأسيويين حارسان مصريان . وترى فى آخر الرسم امرأة حاملة لأطفالها . وتكملة هذا الرسم واردة فى شكل رقم ١٤٨ من هذا الكتاب (دار تحف ليدن)

ما يليق بها وكنت أرى السرور على وجهه "[١] . هذه الكلمات تذكر القارئ بخيام نابليون وقت حروبه فقد كانت تجهز له تماما حال وصوله ليلا بعد ما يتفقد جنده . وكان إنتف هـذا يشرف أيضا على ترتيب مقابلات الملك وادارة شؤونه وقت حروبه الكثيرة ، واذا ما حضر رؤساء سوريا ليقدموا له الجزية ويعلنوا له الولاء والخضوع كان إنتف يقدمهم الى جلالته . وكان هذا الأمير يخبر الولاة بالمبالغ والأشياء التى يحتم عليهم تقديمها للملك ، وهو الذى كان يتسلم الجزية وهدايا الذهب والفضة والخيرات الطبيعية . واذا أظهر بعض أفراد الجيش بسالة كان إنتف يخبر الملك بأمرها ويقرر المكافأة التى يستحقها ذلك الجندى السعيد الحظ[٢] .

وليتنا عثرنا على تراجم حياة قواد تحوتمس الثالث لأن قصولها التاريخية مؤثرة فى النفوس ، وما حادثة القائد أمنمحب الذى نجى تحوتمس الثـالث من غائلة الفيل بقطع خرطومه الا مثالا لما كان يحصل وقت استراحة الجنود فى العراء بلا خيام ووقت اشتباك القتال . ولا شك أن هذه الأعمـال مثل أعلى للشجاعة فى أجلى مظاهرها ، وسـترى فيما يلى مثلا آخر لبسالة أمنمحب وهو القائد الوحيد الذى نعرف عنه معلومات حقيقية لا غلو فيها . وأعجب الأهالى بمـا رأوه من شجاعة جنود تحوتمس الثالث فكثرت أحاديثهم وحكاياتهم الخرافيـة بشأنهم حتى تداولها القوم بشغف عظيم فى أسواق وشوارع طيبه ، وقد عثرنا لحسن حظنا على احدى هذه الحكايات مدونة على صحيفة أو اثنتين من قرطاس بردى خطها أحد الكتبة تتلخص فى أن أحد قواد تحوتمس الثالث المدعو تحوتى خدع حاكم مدينـة يافا فأدخل جنده الى تلك البلدة مخبوئين فى سلال محمولة على حمير[٣] ، وهذه الرواية أصل قصة على بابا والأربعين لصا ، لكن رواية تحوتى هـذه تمتاز عن قصة على بابا باحتوائها على بعض الحقائق لأن تحوتى لم يكن شخصا وهميا بل كان حقيقة أحد قواد تحوتمس الثالث ، ولا نزال نجهل قبره للآن وربمـا كان بطيبه وسرقه الأهالى وسلبوا منه الهدايا الثمينة التى أهداهـا تحوتمس الثالث اليه وهى اللائقة بذلك القائد الباسل . وعثر على صحن ذهبى بديع محفوظ بدار التحف باللوفر منقوش عليه نصوص هذه ترجمتها : " هدية شجاعة وإقدام من تحوتمس الثالث الى الأمير الكاهن الذى كان لجلالته عاملا من عوامل السرور فى كل بلد حل به وفى جزر البحر الأبيض المتوسط والذى ملأ الخزانة بحجر اللازورد والذهب والفضة ألا وهو حاكم البلاد ورئيس الجيوش ومحبوب الملك وكاتب جلالته تحوتى "[٤] . وعثر أيضا على قطعة حلى لهـذا القائد محفوظة الآن بدار التحف بلندن وصف عليهـا صاحبها بأنه " حاكم البـلاد الشمالية "[٥] ومنه استدل أن تحوتمس الثالث عين تحوتى هذا حاكما على مستعمرات مصر الشمالية[٦] .

ولو أسعدنا الحظ وعثرنا على كتابة الكاتب ثانينى (Thaneni) بشأن أعمـال تحوتمس الثالث واقدامه الشخصى وأعماله فى المعارك الحربية لعلمنا كل شىء عن هذا الملك تقريبا ، لأن هذا الكاتب أخبرنا أنه رافق تحوتمس فى جميع غزواته وسجل كل ما حصل بالاسهاب ، واليك ترجمة ما قاله هـذا

(١) ٢ : ٧٧١ (٢) ٢ : ٧٦٣ — ٧٧١ (٣) ٢ : ٥٧٧

(٤) From my own copy of the original : see Birch Mém. sur une patère Egyptienne du Musée du Louvre Paris. 1858 ; and Pierret. Salle hist. de la Gal. Egypt. Paris. 1869. No. 358, p. 87.

(٥) راجع نسختى (٦) راجع صحيفة ٢١٣

الكاتب مفتخرا : "لقد تتبعت الملك تحوتمس الثالث وشاهدت انتصاراته التي أحرزها في البلاد كلها . لقد أسر جلالته أمراء زاهي (سوريا) أحياء وأرسلهم الى مصر واستولى على بلادهم كافة وقطع أشجار غاباتهم جميعها . . . . . . لقد سجلت على وجه الحقيقة جميع انتصارات جلالته في كل بلد " [١] . وهذه الأخبار التي ذكرها ثانيني هي التي كتبت على درج جلدى أشرنا اليه عند الكلام على الغزوة الأولى وحصار مجدو ، ومن دواعي الأسف أننا فقدنا هذا القرطاس التاريخي الثمين[٢] فلم يبق لدينا الا النقوش الموجودة على جدر الكرنك التي كتبها أحد الكتبة الكهنة الذي جعل همه الافتخار بالغنائم وما عاد على الكرنك من ايراد إثر تلك الحروب ، وهو لم يتعرض لذكر أعمال الملك بالدقة . واستنتج من ترجمة حياة أمنمحب أن ما جاء في نقوش الكرنك ليس الا قشورا للحقيقة الأصلية ، وعليه فقد أصبحنا نرجع في كل مباحثنا العلمية بشأن أخبار طيبه خاصا بتحوتمس الثالث أكبر قواد مصر الى نقوش الكرنك التي لم يدر بخلد كاتبها وقتئذ أن العالم أجمع سيتعطش يوما من الأيام اليها كما نتعطش نحن الآن .

ولا يخفى أن مجرد وصول الجيوش المصرية الى الفرات لم يكن كافيا لاخضاعه على مدى الزمان . وليس تحوتمس الثالث ذلك الرجل الذي يعتمد على غزوة واحدة يشنها على تلك البلاد في السنة الثالثة والثلاثين من حكمه ، لذلك صمم في السنة الرابعة والثلاثين أن يغزو تلك الجهات مرة ثانية فوصل الى سوريا في ربيع تلك السنة للقيام بحملته التاسعة[٣] . والظاهر أنه حصلت هناك بعض مشاكسات موضعية لأن جلالته استولى وقتئذ على ثلاث مدن في قسم نوج (Nuges) وهو المكان الذي شيد فيه حصنا في نهاية حملته الأولى[٤] ، واستولى كذلك على خيرات عظيمة ثم أسرع اليه حكام سوريا مظهرين ولاءهم وخضوعهم كالعادة ومحضرين الجزية الثمينة[٥] . وقد زودت الموانى البحرية الأسطول المصري بسفن كثيرة وقلاع وغير ذلك من الأدوات اللازمة لإصلاح ما يطرأ على السفن من العطب[٦] . وامتازت جزية هذه السنة باشتمالها على مائة وثماني سبائك من النحاس تقرب زنة كل منها من أربعة أرطال علاوة على كميات عظيمة أخرى من الرصاص والأحجار الكريمة أرسلها ملك قبرص[٧] الذي لم يسبق له أن اعترف بسلطة تحوتمس بهذه الكيفية .

وفي هذه السنة أيضا امتدت سلطة تحوتمس الثالث جنوبا فأسر ابن حاكم قسم إيرم (Irem) المتاخم للصومال وحفظه بمصر رهينة[٨] ، وقدرت جزية النوبة وقتئذ بما يقرب من مائة وأربعة وثلاثين رطلا ذهبا خالصا علاوة على الكميات المعتادة من الآبنوس والعاج والحبوب والأغنام والعبيد[٩] ، وهكذا امتدت سلطة تحوتمس الثالث من الشلال الثالث حتى نهر الفرات . ثم بلغ جلالته خبر اشتعال فتنة ببلاد النهرين وكان قد امتنع عن الذهاب الى تلك البلاد سنتين فشق الأهالي عصا الطاعة وانضم اليهم حكام تلك الجهات برياسة واحد منهم يظن أنه حاكم حلب الذي ورد ذكره في نصوص تحوتمس الثالث " بأنه قائد النهرين الخسيس" [١٠] وكبرت الفتنة فامتدت الى أقاصي

(١) ٢ : ٣٩٢ (٢) راجع صحيفة ١٩٢ (٣) ٢ : ٤٨٩ (٤) ٢ : ٤٩٠ (٥) ٢ : ٤٩١
(٦) ٢ : ٤٩٢ (٧) ٢ : ٤٩٣ (٨) ٢ : ٤٩٤ (٩) ٢ : ٤٩٤ — ٥ (١٠) ٢ : ٤٩٨

البلاد الشمالية المعروفة " بآخر حدود الأرض "[١] وهو الحد الذى تنتهى اليه معرفة المصريين للعالم . وكان تحوتمس يجدد دائما استعداداته الحربية ولذلك تمكن من الوصول الى بلاد النهرين فى ربيع السنة الخامسة والثلاثين من حكمه فاصطدم هناك مع جيوش أعدائه جهة أرينا (Araina)[٢] المجهولة لنا والتى هى غالبا أسفل وادى نهر الأورونط . " حينئذ هجم الملك على هؤلاء الوحشيين ...... ففروا مذعورين ثم سقط الواحد بعد الآخر أمام جلالته "[٣] ولا يبعد أن تكون هذه المعركة هى التى ذكرها القائد أمنمحب بأنها حصلت بأرض تخسى (Tikhsi)[٤] حيث قال إنه حارب أمام تحوتمس الثالث وقت التحام الجيوش فأسر غنائم كبيرة واستولى الملك على عدة أسلحة . أما القائد أمنمحب فقد أسر ثلاثة أسرى كافأه عليهم تحوتمس مكافأة جزيلة . ولا شك أن الجنود المصرية استولت وقتئذ على غنيمة حربية كثيرة من خيل وأدوات حربية ودروع من البرنز وعجلات مموهة بالذهب والفضة[٥] . بعد ذلك انكسرت شوكة بلاد النهرين واستسلمت لسلطة فرعون فلم تبد حراكا المدة سبع سنوات لأنها أيقنت كما أيقن قبلها حكام سوريا أن شوكة مصر منيعة وقوتها الحربية لا يستهان بها ولا يمكن مقاومتها .

ولم نهتد للآن الى أخبار السنتين التاليتين لهذه السنة من حكم تحوتمس الثالث ولذلك لا نزال نجهل سبب حملتيه الحادية عشرة والثانية عشرة . لكنه لما كانت السنة الثانية والثلاثون من حكمه ظهر تحوتمس فى جنوبى لبنان معاقبا اقليم نوج (Nuges)[٦] الذى ذاق بطشه لأول مرة منذ خمس عشرة سنة . ووصلت الى الملك فى هذه الغزوة هدية من ملك قبرص وأخرى من اقليم سحيق يقال له أرابإخيتيس (Arrapakhitis) صار فيما بعد أحد أقاليم مملكة آشور[٧] . وفى السنة التالية اضطر الملك أن يذهب الى جنوبى فلسطين ثانيا ليعاقب البدو وهناك أسر أمنمحب ثلاثة أسرى فى معركة جهة نجب (Negeb)[٨] . وأمضى الملك بقية حملته الرابعة عشرة بسوريا للمراقبة وأرسل أوامره فى هاتين السنتين أن تبقى الموانى مزودة بما يلزم جيشه وأسطوله من المعدات وقت حدوث اضطراب بفائى داخلى . والغالب أن هذه البلاد استمرت تدفع جزيتها بدون عناء فى السنتين الأربعين والحادية والأربعين من حكمه[٩] . وأرسل ملك خيتا الكبير هدايا الى الملك تحوتمس الثالث اعتبرها الأخير جزية[١٠] .

وبالرغم مما قاساه أمراء سوريا وفلسطين وبلاد النهرين من شدة غزوات مصر فقد استمروا يتشاكسون مملكة النيل ولا يعترفون لها عليهم بسلطة أبدية واتحدوا معا لإحداث ثورة عامة بتأثير ملك كدش ألد أعداء فرعون فانضم اليهم أهالى بلاد النهرين وأخصهم أمير تونب (بعلبك ؟) وكذا بلاد الشواطئ الشمالية . وفى ذلك الوقت كان تحوتمس يناهز اثنين وسبعين سنة من عمره ومع هذا سرعان ما وصل الى مرافئ سوريا الشمالية كعادته وذلك فى ربيع السنة الثانية والأربعين من حكمه ، وكانت هذه الحملة السابعة عشرة والأخيرة لهذا الحاكم العظيم . وكان همه وقتئذ مواجهة كدش كما

(١) ٢ : ٤٩٨ (٢) شرحه (٣) ٢ : ٤٩٩ (٤) ٢ : ٥٨٧ (٥) ٢ : ٥٠٠ — ٥٠١ (٦) ٢ : ٥٠٧
(٧) ٢ : ٥١١ — ١٢ (٨) ٢ : ٥١٧ و ٥٨٠ (٩) ٢ : ٥٢٠ — ٥٢٧ (١٠) ٢ : ٥٢٥

فعل فى حملته الأولى لكنه لم يزحف عليها من الجانب الجنوبى كسابق عهده بل حاصرها شمالا قاطعا بذلك طريق مواصلاتها مع البلاد الشمالية جميعا وصمم على أن يستولى على تونب أولا . وتفصيل ذلك أن الملك أنزل جنوده على الشاطئ بين نهر الأورونط والنهر الكبير ثم استولى على مينا إركاتو (Erkatu) فى تلك الجهة والمجهولة لدينا للآن[١] . والغالب أن هذا الميناء يقابل تونب التى كانت بيت القصيد . ثم استولى على تونب بعد مقاومة قصيرة ومكث هناك حتى زمن الحصيد[٢] . ثم زحف على كدش متبعا نهر الأورونط بدون مقاومة مبيدا مدن ذلك الاقليم[٣] ، فلما علم بذلك ملك كدش أيقن أنه اذا لم يقاوم تحوتمس مقاومة اليائس المستبسل هلك هو وجيشه لا محالة ، فهجم على المصريين أمام كدش مستعملا سياسة الخدعة ، وتفصيل ذلك أنه أرسل فرسا أمام عجلات المصريين لتهيج خيلها فيضطرب بذلك نظام خطوط فرعون فيتمكن ملك كدش من اختراقها ، لكن أمنمحب فطن لتلك المكيدة فقفز من عجلته شاهرا سيفه بيده وهجم على الفرس راكضا على قدميه فقتلها وقطع ذيلها وأهداه الى فرعون[٤] . بعد ذلك اقتربت خطوط دفاع تحوتمس وضيقت الحصار على المدينة تدريجيا ، ثم صدر اليها الأمر بالهجوم على كدش فعهد الملك الى صفوة رجاله فى هدم أجزاء من سور المدينة بقيادة أمنمحب ، وقامت الجنود بهذه المهمة الخطيرة خير قيام وهدمت جزءا من السور تدفقت منه القوات المصرية وفى مقدمتهم أمنمحب . هكذا خضعت أقوى مدن سوريا لسلطة فرعون وسقطت تحت موطئ قدميه[٥] ، وحينئذ سلم لتحوتمس جنود النهرين الذين أتوا لمساعدة كدش ، وكان هذا الفوز كافيا لبسط نفوذ فرعون على الممالك الأسيوية ثانيا فلم يعد هناك لزوم للزحف شمالا لكنه لو فرض وكان هناك داع لذلك لعذرنا تحوتمس اذا لم يقم به لكبر سنه وقرب الشتاء وحلول ميعاد عودته الى مصر ، ويستنتج من قرائن الأمور أن الحالة السياسية وقتئذ لم تتطلب زحف جيشه الى الشمال . منذ ذلك الوقت لم يتجاسر حاكم أسيوى أن يشق عصا الطاعة على تحوتمس الثالث طوال حياته ، ولا غرابة فى ذلك فقد قام فى خلال تسع عشرة سنة بسبع عشرة حملة أعدمت البلاد الأسيوية مقاومتها وأخضعتها لمصر تماما . وبديهى أن سقوط كدش جاء بمثابة انهيار آخر لصرح مملكة الهيكسوس التى حكمت مصر سابقا . وصار اسم تحوتمس الثالث بعد ذلك مضربا للأمثال مدة طويلة حتى أنه لما هاجمت مملكة خيتا مستعمرات مصر الأسيوية جهة تونب بعد مرور أربعة أجيال على وفاة هذا الفرعون العظيم استنجد ولاة تلك الجهات بمصر بأسلوب يفتت الأكباد فقالوا : " ما من أحد اجترأ قديما على نهب تونب الا نهبه تحوتمس الثالث"[٦] ولا غرابة فى ذلك فقد كان تحوتمس الثالث يناهز السبعين أو أكثر من عمره ومع ذلك فكان يصدر أوامره لمرافئ الأسيوية لتجهز ما يلزم جيشه وأسطوله من المعدات استعدادا لما عسى أن يحصل من الفتن والمشاغبات[٧] ، وليس ببعيد أنه كان مستعدا للقيام بغزوات فى آخر عمره كما فعل فى شبوبيته . ودلتنا الآثار أن الملك لما

---

(١) ٢ : ٥٢٩ (٢) ٢ : ٥٣٠ (٣) ٢ : ٥٣١ (٤) ٢ : ٥٨٩ (٥) ٢ : ٥٩٠ (٦) خطابات العمارنة لونكلر ٤١ و ٦ - ٨ (٧) ٢ : ٥٣٥

كان فى رحلته الأخيرة بسوريا أتى اليه أمراء تلك الجهات وقدموا له فى خيمته الملكية واجب الطاعة والجزية [١] ولما عاد بعد ذلك الى مصر وجد رسل النوبة فى الانتظار ومعهم ما ينيف على خمسمائة وثمانية وسبعين رطلا ذهبا من بلاد الواوات وحدها[٢] علاوة على ما أرسلته الأقاليم الأخرى .

وكان منتظرا أن يمضى تحوتمس الثالث بقية عمره مستريحا فى مصر لكنه بعد ما فرغ من فتوحاته الأسيوية وجه همته نحو النوبة . وقد ألمعنا سابقا أن رئيس خزانة الذهب والفضة المدعو مِنْ خِپِرْ رِعْ سِنِبْ — ومعناه تحوتمس الثالث السليم — [٣] كان يتسلم من النوبة كل سنة ما يتراوح بين ستمائة وثمانمائة رطل ذهبا . وجاء فى أخبار السنة الحادية والأربعين من حكم تحوتمس الثالث أن وارد الذهب بلغ وقتئذ حوالى ثمانمائة رطل ذهبا[٤] . أما مندوبه السامى المدعو نحى (Nehi) فقد لبث حاكما لكوش حوالى عشرين سنة[٥] وقد زادت فى أثنائها واردات تلك الجهات كثيرا . ثم تراءى لتحوتمس أن يوسع حدود ممتلكاته الجنوبية الى أبعد مما هى عليه كما يستدل من الآثار التى تشير الى شدة اهتمامه بتلك الجهات . وقد وجدت لتحوتمس الثالث معابد بالغة اقليم الشلال الثالث وذلك بجهة كَلَبْشَة وعَمَادَا ووادى حلفا وقمه وسمنه (وقد رمم فيها معبدا لسيزستريس الثالث) وفى جهة حلب أيضا . وجاء فى أخبار السنة المتممة للخمسين لحكمه أن القناة البحرية المخترقة لاقليم الصخور جهة الشلال الأول فتحت ثانيا[٦] وأن جيوشه كانت وقتئذ مشغولة بمزاولة الأعمال الحربية ببلاد النوبة . والمستبعد أن يكون تحوتمس الثالث هو الذى قاد هذه الحملة لكبر سنه وقتئذ . ويرجح أنه أرسل الى تلك الجهات حملات حربية عديدة سابقة بدليل ما وجد مرتين على جدر صروح الكرنك من أن جيوشه استولت على مائة وخمس عشرة موقعة بالنوبة مدونة الأسماء . وهنالك قائمة أخرى تحوى نحو أربعمائة اسم لجهات نوبية أخرى أخضعتها الجنود المصرية . ولشدة جهلنا بجغرافية بلاد النوبة لم نهتد بالضبط الى مواقع تلك الأماكن ولذلك لا يمكننا أن نعرف تماما حدود مملكة مصر الجنوبية وقتئذ والمؤكد أنها كانت واصلة الى الشلال الرابع على الأقل لأنه ورد ذكره ضمن أملاك المملكة المصرية فى عهد ابن تحوتمس الثالث .

وعاش تحوتمس الثالث اثنى عشرة سنة بعد آخر حملة أسيوية . ولما شعر بالضعف والشيخوخة أشرك معه فى الحكم ابنه امنحتب الثانى[٧] الذى رزق به من الملكة حَتْشِبْسُوتْ مِرِتْ رِعْ المجهولة التاريخ . وفى السنة التالية لذلك أى فى ١٧ مارس سنة ١٤٤٧ قبل الميلاد (قبل أن يتم تحوتمس الثالث السنة الرابعة والخمسين جالسا على عرش مصر بخمسة أسابيع) توفى فأسدل الستار أمامه على هذه الدنيا التى قام فيها بأعمال باهرة اهتزت لها الأرض اهتزازا[٨] . وقد دفنه ابنه بوادى الملوك ولا تزال مومياءه باقية للآن (شكل ١٢٠) . ووضع كهنة آمون أنشودة نسبوها الى معبودهم كلها مديح فى تحوتمس الثالث[٩] غاية فى المتانة والبلاغة ، وهى تشمل عدة أبيات شعرية بديعة ،

---

(١) ٢ : ٥٣٣ — ٤ و ٥٣٦ — ٧ (٢) ٢ : ٥٣٩ (٣) ٢ : ٧٧٢ ملاحظة (٤) ٢ : ٥٢٦ — ٢٧ (٥) ٢ : ٦٥١ — ٢
(٦) ٢ : ٦٤٩ — ٦٥٠ (٧) ٢ : ١٨٤ (٨) ٢ : ٥٩٢ (٩) ٢ : ٦٥٥ ملاحظة .

ويستدل منها أن منزلة الملك فى نفوس كهنته ومعاصريه كانت غاية فى الاحترام ، وهى تبتدئ بديباجة طويلة تشمل إطراءاً لتحوتمس المذكور يلى ذلك وصف لأعماله وانتصاراته ، يقول على لسان آمون ما ترجمته :

هأنذا قد جئت وأبحت لك أن تضرب أمراء زاهى . لقد أوقعتهم تحت أقدامك ودفعتهم (أمامك) حتى اخترقت أقطارهم وأريتهم جمال حضرتك وأطلعتهم على جلالتك فصاروا ينظرون الى سعادتك كملك مصوّر من نور ، فأصبحت تشرق عليهم كصورتى البهية وتبدو عليهم كذاتى العلية .

هأنذا قد جئت وأبحت لك أن تطعن بسيفك سكان بلاد آسيا وتقبض فى أسرك الرتنو (أى الأسيويين) . لقد أريتهم جلالتك متهيئة للحرب قابضة أسلحتها ومقاتلة على عجلاتها .

هأنذا قد جئت وأبحت لك أن تضرب بلاد الشرق وتجوس خلالها الى مدائن الأرض المقدسة وقد أريتهم جلالتك ككوكب سهيل الذى ينشر النور مع الايضاح وينثر الندى فى الصباح .

هأنذا قد جئت وأبحت لك أن تضرب بلاد الغرب فكلا بلاد الخفتيو وقبرص فى ربقة الفزع منك حيث أريتهم جلالتك كثور هو من نوع البقر فى الفتوة والجراءة بمكان، يزينه قرنان، فلا يقاومه معارض أيا كان .

هأنذا قد جئت وأبحت لك أن تضرب سكان سائر الخطط الأرضية ، فبلاد متانى تنفض فرقا من هيبتك حيث أريتهم جلالتك كالتمساح وهو الملك القهار فى مملكة البحار منيع الجوار لا يجومنه ديار .

هأنذا قد جئت وأبحت لك أن تضرب سكان الجزائر ، فكان أهل البحار فى فزع من صياح قومك بنداء الحرب حيث أريتهم جلالتك كمنتقم جبار يعلو ظهر فريسته .

هأنذا قد جئت وأبحت لك أن تضرب الليبيين ، ولتكن جزائر الأوتنتيو (Utentyew) فى قبضتك مأسورة حيث أريتهم جلالتك كأسد يفزع كل من ينظر اليه ويرقد على رمم موتاهم فى خلال أوديتهم بحيث لا يتيسر لأحد أن يقدم عليه .

هأنذا قد جئت وأبحت لك أن تضرب سكان أقاصى البلاد وأن تقبض على دائرة المياه (الأقيانوس) حيث أريتهم جلالتك كباشق يحوم فى الجوّ بطيره ويختطف كل ما أعجبه بمخلبه .

هأنذا قد جئت وأبحت لك أن تضرب الأقوام القاطنين على حدودك وليكن القوم المسمون بسكان الأراضى الرملية فى أسرك أحياء حيث أريتهم جلالتك كثعلب بلاد الجنوب الذى يختفى فى سيره فيقطع البلاد ويخترق الأراضى البعاد .

من هذا الذى بسطناه من تاريخ تحوتمس الثالث يمكننا الجزم بأن محتويات تلك القصيدة ليست شعرية خيالية كلية ولا هى من مبتكرات الكهنة ،لأن صفات تحوتمس الثالث وشخصيته برزت فى التاريخ المصرى القديم بدرجة منقطعة النظير فى ملوك مصر قاطبة ما عدا إخناطون ، والحق

يقال إن نشاط تحوتمس الثالث فاق كل نشاط سواء أكان قبله أم بعده. زد على ذلك أنه كان هاويا مفتنا دقيقا يتلهى وقت فراغه بصياغة الأوانى وابداع أشكالها. وكان أيضا حسن التدريب فى السياسة حادّ الذاكرة يقوم بالحروب الكبيرة بآسيا مستعملا فى الوقت نفسه شدته فى منع انتشار الرشوة والحيف فى أثناء جمع الضرائب من الأهالى. وقد وصفه وزيره الجليل المدعو رخمارع بما ترجمته: "كان يعلم كل شىء، فلم يترك صغيرة ولا كبيرة الا أحاط بها، فكان فى ذلك كالإله تحوت (إله المعارف عند المصريين) فى معرفته وما تناول أمرا الا أنهاه بنفسه"[1]. ورغما من شدة افتخاره بأعماله ونقشه اياها كان كثير التعلق بالصدق فى كل أعماله، ويروى عنه أنه قال: "أنا لا أبالغ فى ذكر أعمالى لأننى لا أدّعى شيئا لم آته .... ولذلك لا يمكن أحدا أن ينكر علىّ فعل شىء ادّعيته لنفسى. لقد قمت بأعمالى كلها لأجل آمون فهو يعلم ما فى السماء وما فى الأرض وهو الرقيب على البلاد والعباد فى وقت واحد"[2]. وكان مداحا للصدق شديد الاحترام لمعبود الصدق[3]. لذلك اعتبر عهد تحوتمس الثالث عهدا ممتازا فى القطر المصرى و بلاد الشرق عامة ولم يظهر فى التاريخ الى ذلك العهد ملك جمع ايراد مملكته الشاسعة وأقام عليه ادارة حكومية مركزية ثابتة بثمرة دامت سنوات عدة كما فعل، فهو فى هذه الحال أشبه بحداد اشتغل بمطرقة زنتها مائة طن، بل هو أكثر من ذلك لأن الفضل يرجع اليه فى عمل هذه المطرقة. ولا يخفى أن هذا النشاط وهذا الذكاء الوقاد ظهرا للعيان بعد انفصاله من حياة المعابد وانتقاله الى معيشة الملوك، وهذا يذكرنا كثيرا بتاريخ الاسكندر المقدونى ونابوليون لتشابه تاريخهم جميعا. وخلاصة القول أن تحوتمس الثالث كان أول رجل فى التاريخ أسس امبراطورية حقيقية فهو لذلك أقدم بطل معروف على الأرض، ولا غرابة فقد خضعت لقوته آسيا الصغرى وأعالى الفرات وجزر البحر الأبيض المتوسط ومستنقعات بابل وشواطئ ليبيا السحيقة وواحات الصحراء وهضبات الصومال وشلالات النيل العليا. زد على ذلك أن أمراء تلك الجهات تسابقوا فى تأدية جزيتهم وهداياهم اليه، ويعتبر هذا برهانا ساطعا وتذكارا عظيما للعالم على نجاح نظمه وترتيباته الحديثة. وقد تجلت شخصية هذا الملك العظيمة وشدة توقيعه للقصاص العادل فى مشاحنات أمراء سوريا فطهرت جوّ الشرق السياسى من الأقذار وطردت المفاسد كما تطرد الريح الشديدة ما يتراكم أمامها من الأبخرة العفنة فلا يبقى لها أثر. وقد كانت سرعته فى ايقاع القصاص بيده الحديدية بمثابة عظة عظيمة لأهالى النهرين فلم يحركوا ساكنا بعد وفاته بثلاثة أجيال تقريبا. ومما يدل على شدة تأثير هذا الملك فى نفوس رعيته أنهم اعتقدوا بوجود صفات سحرية فى اسمه حتى نقشوه على الأحجبة بعد زوال امبراطوريته وتصدع أركانها بعدة قرون. ومن أجمل مآثر هذا الملك مسلتاه الأثريتان العظيمتان المنصوبتان على شاطئى المحيط الاطلانطى وهما تشهدان له بالفخر والاعجاب[4]، وقد اعتبرت هاتان المسلتان فى تلك البلاد السحيقة تذكارا عظيما لأول امبراطور خلد اسمه فى تاريخ العالم القديم.

---

(1) ٢ : ٦٦٤ (2) ٢ : ٥٧٠ (3) ٢ : ٤٥٢ (4) نصبت احدى هاتين المسلتين على شاطئ نهر التيمس بلندره، ونصبت الأخرى فى "الحديقة الوسطى" بمدينة نيويورك (راجع صحيفة ٢٠٢).

الفصـــل السابع عشر

عهد الامبراطورية

يمتاز هـذا العهد بكثرة رخائه وتقدم مدنيتـه ففيه زالت العوائق بين مصر وآسيا التى أوجدها الهيكسوس ومحا تحوتمس الثالث أثرها من الوجود، فتيسر التعامل بين إفريقية وآسيا وزالت الفوارق القديمة فلم يبق هناك ممـالك صغيرة مستقلة بل أضحت البلاد كلها الممتدة من بابل والفرات الى أعالى النيل متحدة على تباين عناصرها ولغاتها . وأخذت تجارة شرق البحر الأبيض المتوسط تحول تدريجا مرن اقليم الفرات وبابل الى مصر وبالأخص اقليم الدلتـا الذى كثرت خيراته وتضاعفت روابطه التجارية ، وكان هذا الاقليم الأخير منـذ عدة قرون على اتصال بالبلاد الأسيوية بالقناة التى توصل البحر الأحمر بالنيل فانحصرت تجارة العالم فى الدلتا وصارت أكبر أسواق العالم. وكانت آشور فى هذا الوقت فتية، وانعدم من بابل نفوذها السياسى تمـاما فى البلاد الغربية فأصبحت سلطة فرعون على امبراطوريته الشاسعة عظيمة مهيبة .

ولم تصل الينا سوى معلومات قليلة عن الادارة المصرية بآسـيا ، وقد ذكرنا فيا سبق أن تلك الممـالك الأسيوية كانت تحت ادارة وال مصرى ملقب "بحاكم البلاد الشمالية" وأول من أسند اليه هـذا المنصب هو تحوتى قائد جيوش تحوتمس الثالث[1] . وقد اضطرت الظروف أن تحتفظ مصر فى سوريا وفلسطين بقوات حربية تكبح بها جماح أمراء تلك الجهات وتردهم الى حدود القانون . وترتب على هذا أن شيد المصريون هناك قلاعا سموها بأسماء ملوكهم وجعلوا فى كل منها حامية ملكية بقيادة ضباط مهرة خاضعين لأوامر فرعون مصر ومعتبرين نوابا له فيها[2] ، فمنها تلك القلاع التى شـيدها تحوتمس الثالث جنوبى لبنان[3] وقد أصلح أيضا قاعـة على شاطئ فينيقيا وأنشأ بجوارها معبدا لآمون معبود مصر الرسمى[4] ، والغالب أنه كان لكل حصن معبد. ويؤكد البعض أن القلعة الموجودة جهة إكاثى (Ikathi) من تأسيس تحوتمس الثالث[5] . وعثر رينان على بقايا معبد لتحوتمس جهة ببلوس (جبيل)[6] . ومن ذلك يتضح أن أمراء آسـيا سمح لهم بادارة شؤون بلادهم بشرط إظهار ولائهم لمصر ودفع جزيتهم لفرعونهـا كل سـنة بانتظام، حتى اذا توفى أحدهم يعين ابنه الذى تربى فى طيبه بدله للقيام بأعماله، وهكذا صارت بلاد آسيا أشبه بممالك صغيرة تابعة لمصر، ويعتبر هذا أول درجات الحكم الذاتى. وكان هذا النوع من الحكم فى النوبة بالغا درجة أعلى لأن تلك البلاد الجنوبية كانت تحت ادارة "والى كوش" . ولم نهتـد للآن عن طرق المعاملة بين أمراء آسيا

---

(١) راجع صحيفة ٢٠٥ (٢) خطابات تل العمارنة (٣) ٢ : ٥٤٨ (٤) ٢ : ٤٥٧ – ٨ (٥) ٢ : ٧٨٧

(٦) Rougé, Revue Arch. n. s. VII, 1863 pp. 194 ff.

و"حاكم البلاد الشمالية" ويظن أن مهام ذلك الحاكم كانت مالية . قال تحوتى الذى عين فى ذلك المركز فى عهد تحوتمس الثالث : "انه ملأ خزانة فرعون وقتئذ بأحجار اللازورد والذهب والفضة"[١] . ويرجح أن أمراء تلك البلاد كانوا يجمعون الضرائب بأنفسهم ويبعثون ببعضها الى فرعون مصر ، ولا نزال نجهل المقدار المسموح لكل أمير أن يستبقيه لنفسه ، كما أننا لا نعرف بالضبط مقدار الجزية التى كان يأخذها فرعون من البلاد الأسيوية .

ولما بلغ بلاد آسيا خبر وفاة تحوتمس الثالث شقت عصا الطاعة على مصر رغبة منها فى التخلص من الجزية كما يحصل عادة فى كل امبراطورية قديمة اثر وفاة ملكها . والقارئ يتذكر أن أمنحتب الثانى لم يشترك هو وأبوه فى الملك الا سنة واحدة ، فلما توفى والده[٢] هبت فى وجهه تلك الثورة المتجمعة الشاملة لبلاد النهرين ومتانى وشمالى فينيقيا . لكن أمنحتب الثانى واجه ذلك الخطر ببسالة ونخوة ورثهما عن والده فاستقر رأيه على الزحف على آسيا واخضاع أعدائه متحدين وكسر جيوشهم الجرارة[٣] . أما جنوبى فلسطين فلم يجرؤ على الثورة ، وخلاف ذلك وسواه التهمته نيران الاضطراب والعصيان . وقد بدأ أمنحتب الثانى بزحفه فى أبريل سنة ١٤٤٧ قبل الميلاد (فى السنة الثانية لحكمه) فبلغ شمالى فلسطين فى أوائل مايو وهناك التحم بجيوش أعدائه وحاربهم بجهة شمش ادوم (Shemesh-Edom)[٤] ، وكانوا وقتئذ بقيادة أمراء لبنان . واتبع الملك سنة والده فقاد جيوشه بنفسه فلما اشتبك القتال اشترك فيه شخصيا فأسر ثمانية عشر أسيرا وستة عشر حصانا[٥] وانتهت المعركة بهزيمة أعدائه هزيمة تامة . وفى اليوم الثانى عشر من شهر مايو عبر الملك (لآخر مرة فى حكمه) نهر الأورونط متجها شمالا نحو زنزار — غالبا — ميمما شرقا وشمالا نحو الفرات[٦] ، ثم عبره[٧] الى حيث اشتبك فى معركة صغيرة مع مقدمة قوات النهرين ، ثم توغل فى البلاد وأسر سبعة أمراء من أرض تخسى (Tikhsi)[٨] . وبلغ مدينة نى فى السادس والعشرين من شهر مايو — أى بعد عبور الأورونط بأربعة عشر يوما — فوجد المدينة مفتحة الأبواب ووقف رجالها ونساءها على جدرانها يحيونه بالظفر والنصر[٩] . وبعد ذلك بعشرة أيام (أى فى يوم ٥ يونيه) نجى قوة مصرية من الوقوع فى خديعة أمير بلدة إكاثى (Ikathi) العاصى[١٠] وأوقع عليه وعلى أهل بلده عقابا صارما . ودعنا نتساءل هل توجه الملك الى أعالى الفرات أو عبر الفرات وتوغل بأرض متانى ، والغالب أنه فعل الأخير فقد جاء فى أخباره أن أمراء متانى أتوا اليه حاملين جزيتهم على ظهورهم باحثين عن جلالته ليسمح لهم بالبقاء أحياء واستنشاق نسيم الحياة اللذيذ ، وهذا أعظم شىء حصل منذ زمن المعبودات ، وهكذا عرفت هذه البلاد — متانى — المعبود الطيب "فرعون" بعد ما كانت تجهله وبلده[١١] . ولما بلغ أقصى تلك الجهات الشمالية — وهو غالبا أبعد مما وصله والده — نصب فيه حجرا أثريا كما فعل أبوه وجده من قبل[١٢] . ثم عاد الى منف فقابله المصريون باحتفال بهيج وهناك شاهدوا الجيوش المصرية تتدفق كالسيل ومعهم ما يزيد على خمسمائة أمير سورى أسرى ومائتين وأربعين زوجات لهم

---

(١) راجع صفحة ٢٠٥ (٢) ٢ : ١٨٤ (٣) ٢ : ٧٩٢ و ١ : ٤ (٤) ٢ : ٧٨٣ (٥) شرحه
(٦) ٢ : ٧٨٤ (٧) شرحه (٨) ٢ : ٧٩٧ (٩) ٢ : ٧٨٦ (١٠) ٢ : ٧٨٧ (١١) ٢ : ٨٠٤
(١٢) ٢ : ٨٠٠ و ٢ : ٤ — ٥

ومائتين وعشرة من الخيـل وثلثمائة عجلة من غنائم الحرب . وروى أن سكرتيره الخاص كان وقتئذ محتفظا بأشياء كثيرة ليسلمها الى رئيس مالية جلالة الملك وهـذه الأشياء كانت تحوى ما ينيف على ألف وستمائة وستين رطلا ذهبـا (على شكل مواعين وأوان) وما يقرب من مائة ألف رطل من النحاس[١] . ولمـا قرب الملك من طيبه علق فى مقدم سفينته أمراء تخسى السبعة الذين أسرهم موثوقى الأرجل ورءوسهم الى أسفل. ولمـا بلغ طيبه تولى ذبح ستة منهم قربانا لآمون وصلب أجسادهم على جدر طيبه ، أما سابعهم فأرسله الى النوبة ليعدم بالكيفية نفسها فيتعظ أهالى النوبة ويقدروا سطوة فرعون مصر ، وسيأتى الكلام على ذلك[٢] . والحق يقال ان نشاط هذا الملك ويقظته أثرا كثيرا فى أعدائه فقـد جاء فى الآثار أن جلالته لمـا أسرع الى اخضاع أعدائه الثـائرين هابه سكان مستعمراته الأخرى فلم يتجاسر أحدهم على شق عصا الطاعة عليه .

بعد ذلك وجه الملك همته الى اظهار حدود مملكته وتوسيعها جنوبا ولذلك لمـا وصل الى طيبه أرسل الى النوبة على جناح السرعة بعثة عسكرية معها الأمير السورى السابع الذى أسره بجهة تخسى فصلب على جدر نبتـه عظة لمن يتجاسر من النوبيين على معارضـة مصر . أما حدود مصر وقتئذ فبلغت الشلال الرابع ولذا كانت حروب أمنحتب الثانى موجهة الى جنوبى ذلك الاقليم ، وقد انتهت هذه الحروب بضم الجزء المعروف باسم كاروى (Karoy) الى المملكة المصرية وهـكذا أصبح ذلك الاقليم آخر مكان جنوبى تمتد اليه سلطة المنـدوب السامى بكوش وحاكم الممالك الجنوبية[٣] ، واقليم كاروى قريب من منحنى النيل العظيم بجهة أبى حمد حيث يتجه تيار ذلك النهر جنوبا . وقد أقام أمنحتب الثانى فى تلك الجهات آثارا حجرية أثبت فيها حدود مملكته[٤] أما فيما بعد ذلك الاقليم جنوبا فكان النفوذ المصرى مبسوطا على الطرق التجارية فقط حفظا للنظام ومنعا لتمرد الأهالى وقيامهم بحركات عدائية . وبعد ما رجع أمنحتب الثانى من حربه الأسيوية بتسعة أشهر تقريبا نصبت بعثته الحربية السودانية أثرين حجريين أحدهما جهة أمدا (Amâda) وثانيهما فى جزيرة الفيل ذكر فيهما أن جلالته أتم بناء المعابد التى بدأها والده تحوتمس الثالث فى تينك الجهتين[٥] ، وأيضا ما حصل لأمراء تخسى المذكورين سابقا وروى بهما كذلك أعمـال جلالته فى أثنـاء "حربه الأولى" ببلاد النهرين ومنه استنتج أنه كان مصمما على القيام فيها بعدة حروب. والمعروف أن مركز آمون أصبح وقتئذ أعظم مركز إلهى عند فراعنة تلك العصور، ولمـا اتخذه تحوتمس الثالث من الاحتياط لمـا عسى أن يطرأ على مستعمراته لم يحتج أمنحتب الثانى الى القيام بحروب فى آسيا ولا فى النوبة خلاف ما ذكرناه سابقا .

وشيد أمنحتب الثانى معبدا على شاطئ طيبه الغربى بجوار معبد والده لكنه تلف الآن . ورمم فى الكرنك تلك الساحة الكبرى التى نزع سقفها وقت نصب مسلتى حتشبسوت فأقام الأعمدة التى نزعتها تلك الملكة ورصعها بالمعادن الثمينة . وقد ذكر أمر هذه الترميمات على الجدر التى شيدها والده حول قاعدتى مسلتى حتشبسوت لإخفاء معالمهما[٦] . ثم شيد مكانا ذا عمد صغير الحجم بالكرنك . أما فى عين شمس ومنف فشيد عمارات وأصلح محاجر طرويا (Troja) الا أن تلك الأعمـال لم يبق

---

(١) ٢ : ٧٩٠ (٢) ٢ : ٧٩٧ (٣) ٢ : ١٠٢٥ (٤) ٢ : ٨٠٠ (٥) ٢ : ٧٩١—٨
(٦) ٢ : ٨٠٣—٦

لها من أثر . والمعروف أن هذا الملك كان عظيما كوالده مع قلة آثاره وقد اشتهر بعظم السلطة وشدة البأس ، فقد ورد عنه أنه كان قوى الجسم كثير الافتخار بنفسه لا يصارعه انسان فى استعمال قوسه الحربى . وقد عثرنا على هذا القوس فى قبره فوجد منقوشا بالنصوص الآتى ترجمتها : " قاتل الأعداء قاهر كوش وناهب بلادهم . . . . سور مصر العظيم الحامى جنوده "[١] . ويعتبر هذا الوصف أصل الخرافة التى رواها هيرودوت عن عجز قمبيز العجمى عن استعمال قوس ملك النوبة ، ولا يخفى أن مثل هذا التحريف والتبديل فى الحقائق التاريخية جاء نتيجة تداول الألسن على مرور الزمن . وفى السنة الثالثة عشرة من حكم أمنحتب الثانى احتفل احتفالا عظيما بمسلة نصبها بجزيرة الفيل للذكرى . وتوفى هذا الملك عام ١٤٢٠ قبل الميلاد بعد ما حكم حوالى ست وعشرين سنة ودفن كأسلافه فى وادى مقابر الملوك بطيبه ولا تزال جثته محفوظة الى الآن (شكل ١٢١) . وقد سطا اللصوص على هذه الجثة فى نوفمبر عام ١٩٠١ وقطعوا لفائفها للاستيلاء على حليها الملكى[٢] ، على أن أسلاف هؤلاء اللصوص لم يتركوا ما يستحق السرقة الا سرقوه قبلهم[٣] .

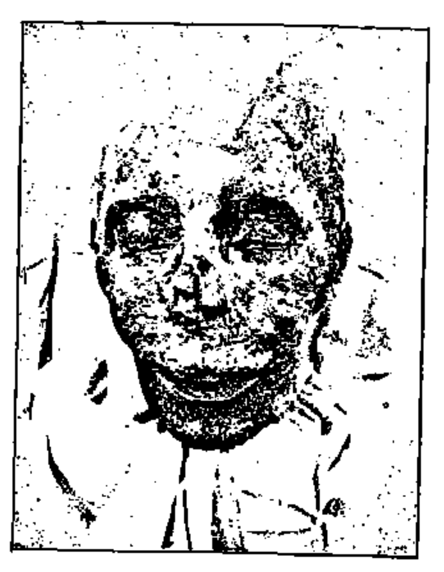
ولما توفى أمنحتب الثانى ولى بعده تحوتمس الرابع عرش مصر . وقد وردت بخصوص هذا الملك قصة تداولتها الألسن بعد وفاته بعدة قرون تتلخص فى أنه لم يكن منتظرا أنه يرث الملك عن والده فخرج يوما ما قبل وفاة والده بمدة للصيد بجوار أهرام الجيزة حيث دفن ملوك الأسرة الرابعة التى يرجع تاريخها الى حوالى ألف وثلثمائة سنة إذ ذاك ، واستراح فى ظل أبى الهول (أحد رموز الشمس) فرأى هذا المعبود فى المنام طالبا نقل الرمال المحيطة به والمنهالة عليه من قديم الزمن ووعده إن فعل ذلك أن يساعده على ولاية الملك فلما انتبه تحوتمس الرابع من نومه أقسم أنه سيفعل ما طلبه المعبود وقد نفذه فعلا بعد ما تولى . وذكر هذه القصة على حجر جرانيتى كبير مقام بين قدمى أبى الهول الأماميتين ويظهر أنه مأخوذ من معبد أزوريس المجاور بمساعدة الكهنة وقتئذ ، ولا يزال هذا الحجر فى مكانه[٤] .

وفى مبدأ حكم تحوتمس الرابع شبت فى آسيا ثورة استدعت ذهابه ولا نزال نجهل كثيرا من أخبار تلك الغزوة التى لقبها بالغزوة الأولى[٥] جريا على عادة والده . ودلتنا نقوش جدر معبد آمون بطيبه أنه اضطر أن يذهب شمالا الى بلاد النهرين وأنه أخذ جزية عظيمة من ملك تلك المستعمرات اللعين[٦] ، والظاهر أن مجرد شخوصه فيها كفى لإخضاع الأمراء الثائرين وقتئذ . ورجع عن طريق لبنان وأمر حكام تلك الجهات أن يجمعوا كمية كبيرة من خشب الأرز ثم شحنها الى طيبه ليبنى منها سفينة مقدسة للمعبود آمون[٧] . ولما وصل الى طيبه استخدم عددا من الأسرى الذين أتى بهم غالبا من جازر بفلسطين[٨] للعمل داخل معبده بطيبه الذى شيده بجوار معابد أسلافه .

فى ذلك الوقت أخذ نفوذ خيتا يكبر تدريجيا وصارت معادية لمصر ولمملكة متانى ومن ثم اتحدت المملكتان الأخيرتان لمناوأة خيتا . ولا يخفى أن متانى كانت تشعر بسلطة خيتا أكثر من مصر

---

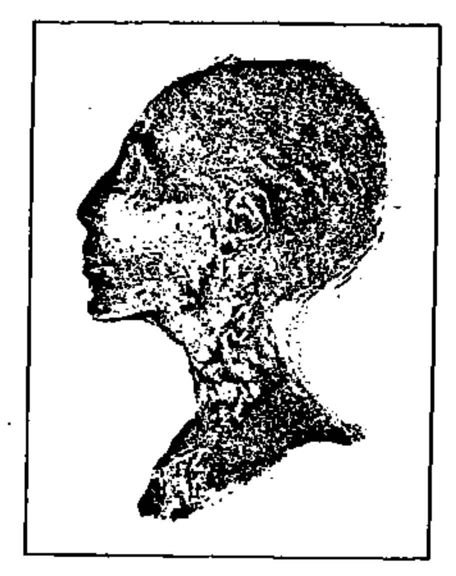
(١) ٢ : صفحة ٣١٠ ملاحظة (ج) (٢) ٤ : ٨٠٥-٨ (٣) راجع صفحة ٥١٠ - ١١ (٤) ٢ : ٨١٠ - ٨١٥
(٥) ٢ : ٨١٧ (٦) شرحه (٧) ٢ : ٨٢٢ و ٨٣٨ (٨) ٢ : ٨٢١



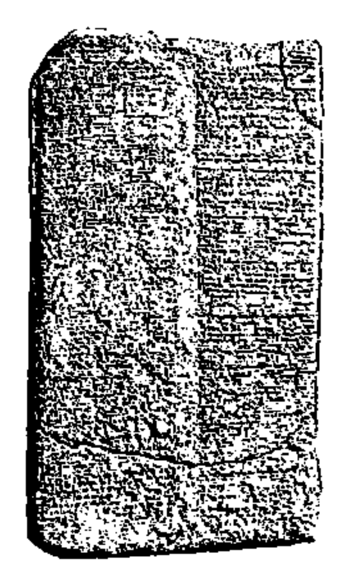
شكل ١٢٠ – صورة شمسية لمومياء تحوتمس الثالث
(دار تحف القاهرة)



شكل ١٢١ – صورة شمسية لمومياء أمنحتب الثانى
ابن تحوتمس الثالث . ولا تزال هذه المومياء
موجودة بقبرها بطيبه



شكل ١٢٢ – صورة شمسية لمومياء تحوتمس الرابع
ابن أمنحتب الثانى (دار تحف القاهرة)



شكل ١٢٣ – أحد خطابات تل العمارنة
رقم ٢٩٦ مذكور فيه قائمة بهدايا تادوخيبا
بنت ملك متانى المدعو دوشراتا
(دار تحف برلين)

لقربها منها، زد على ذلك أن تحوتمس الرابع رأى من مصلحته أن يحالف صديقا له فى الجهات الشمالية فأرسل الى ملك متانى ملتمسا منه ارسال كريمته ليقترن بها[١] ، فتردد الأخير يسيرا كالمعتاد فى مثل هذه الأحوال ثم رضى فى آخر الأمر وأرسل كريمته الى مصر حيث لقبت موت أمويا (Muteınuya) وقد صارت فيا بعد أم أمنحتب الثالث الذى خلف تحوتمس الرابع فى الملك . بهذه الوسيلة تمكن تحوتمس الرابع من عقد معاهدة ثابتة مع متانى ، لكنه يلاحظ أن هـذه المعاهدة منعت مصر من غزو البلاد شرق نهر الفرات (بالنسبة لموقع متانى الجغرافى) .

توجد قائمة بأسماء بلاد أجنبية محلاة بها قواعد عمد معبد صلب شيده أمنحتب الثالث ذكرت هناك بمثابة مستعمرات مصرية فظن بعض الأثريين منها أن أمنحتب الثـالث كان حاكما على بلاد العراق أيضا . لكن خطابات تل العمارنة واضحة بخصوص هذه المسألة وعليه فالامبراطورية المصرية لم تشمل مطلقا بلاد العراق فى عصر من عصورها (أوردتها هنا باذن من الأستاذ برستد ، من دائرة معارف التاريخ القديم بجامعة كمبردج صحيفة ٩٢ ، القسم المصرى .

بعد ذلك عقد تحوتمس الرابع محالفة صداقة كالسابقة مع بابل[٢] . والمعروف أن أحوال آسيا وقتئذ لم تتطلب القيام بغزوات حربية ولكن تحوتمس الرابع لقب نفسه مع ذلك "فاتح سوريا"[٣]. أما جزية هذه البلاد الأخيرة فكانت ترسل كل سنة الى مصر وتسلم الى رئيس المـالية بمكتبه[٤] . وفى ربيع الســنة الثامنة لحكمه وصلت اليه أنباء بحدوث ثورة بالنوبة[٥] فسار اليهـا فى جيشه مارا بالمعابد العظيمة فى طريقه محييا آلهتها حتى بلغ الشلال الأول ، ثم زحف فى بلاد الواوات فدهش لمـا وجد جيوش العدو بجوار حدود النوبة الشمالية . ولـما التحم بها هزمها شر هزيمة ثم استولى على كميات عظيمة من الغنائم الحربية[٦] ، وأرسل الأسرى الذين ضرب عليهم العبودية الى معبده ليخدموا فيه[٧] . والغالب أنه لم يعش طويلا بعد ذلك لأنه لم يتمكن من تحسين طيبه وتنسيقها كما فعل آباؤه . ولشدة حبه لجده تحوتمس الثالث أتم عمل جده فأقام المسلة التى تركها بمدخل الكرنك الجنوبى ونقشها بالدعوات والصلوات عليه ودون عليها أفعال جده الخيرية ، أما ارتفاع هذه المسلة فيبلغ مائة وخمس أقدام وهى أكبر مسلة باقية للآن وقد نقلت الى ايطاليا حيث لا تزال منصوبة أمام اللاتيران (Lateran) بروما . وقد توفى تحوتمس الرابع بعد ذلك بمدة يسيرة (حوالى عام ١٤١١ قبل الميلاد) وقت الاحتفال ببعض أعياده ودفن بوادى مقـابر الملوك بطيبــه مع أجداده السابقين (شكل ١٢٢) .

ولـما توفى تحوتمس الرابع ولى بعــده ابنه أمنحتب الثـالث آخر كبار فراعنــة الامبراطورية المصرية . وقد كانت المملكة فى وقته بالغة أعظم درجات الرقى والحضارة ثم أخذ يظهر عليهـا

---

(١) خطابات تل العمارنة ٢١ و ١٦ — ١٨ (٢) خطابات تل العمارنة ١٠١ — ٦٣ (٣) ٢ : ٨٢٢
(٤) ٢ : ٨١٩—٨٢٠ (٥) ٢ : ٨٢٦ (٦) ٢ : ٨٢٩ (٧) ٢ : ٨٢٤

دبيب الضعف يسيرا . والمعروف أن هذا الملك لم يكن كفئا لممارسة الأمور وقتئذ لأنه كان ولوعا بالنساء منذ أوائل أيامه ثم ازداد غراما بهن وتعلق بالنساء منذ كان ولى العهد أو حالما تسلم من والده مقاليد الحكم فتزوج وقتئذ بامرأة غريبة مجهولة الأصل تدعى تى (Tiy)، والغالب أن هذه المرأة مصرية لا تظهر عليها مسحة أجنبية ، فلما كانت ليلة القران أمر بصنع جعل حجرية كبيرة منقوش عليها تاريخ ذلك القران[١] ومذكور بها أيضا ضمن الديباجة الملكية أسماء والدى هذه الزوجة بوضوح وبساطة مما يثبت أنهما مجردان من كل صلة بالبيت المالك . وقد جاء فى نصوص هذه الجعل أن الزوجة تى صارت قرينة الملك ، واليك ترجمة ما جاء بآخر هذه النقوش : "لقد صارت هذه السيدة زوجة الملك العظيم الذى بلغت حدود مملكته الجنوبية اقليم كاروى (Karoy) والشمالية بلاد النهرين"[٢] فكان هذا بمثابة تذكار لهذه الملكة السامية اذا ما خالج أحدا فكرة ضعة أصلها . وتسلطت هذه الملكة كثيرا على نفس أمنحتب الثالث فسمح لها بكتابة اسمها داخل خانة ملكية بأول النصوص الملكية وقد استمرت سلطتها قوية طوال حكم أمنحتب الثالث ، ويعتبر عهد هذه الملكة فاتحة ازدياد نفوذ الملكات على العرش المصرى وادارة شؤون المملكة فى الحفلات العمومية ، وقد تجلى هذا النفوذ النسوى بوضوح فى عهد هذا الملك وعهد خلفه أمنحتب الرابع ، وسيأتى الكلام على أهمية ذلك .

وأظهر أمنحتب الثالث مقدرة عظيمة فى ادارة شؤون الامبراطورية عند توليه الحكم فلم يتجاسر سكان المستعمرات الامبراطورية فى عهده على القيام بثورة ما ولذلك كانت تلك الجهات هادئة مطمئنة وكانت الحضارة والرفاهية بالغتين بها الدرجة القصوى . وفى أواخر السنة الرابعة من حكمه حصلت مشاغبات بجنوبى النوبة فذهب اليها فى أوائل شهر أكتوبر ليتمكن بذلك من عبور الشلال بأسطوله وقت ارتفاع منسوب النيل ، وفى ذلك الوقت كان المندوب السامى هناك المدعو مرموس (Mermose) حشد جيشا من السودانيين القاطنين الاقليم الذى هو بين كوبان وابريم البالغ طوله نحو خمسة وسبعين ميلا[٣] ، فانضمت هذه القوة الى الجيش المصرى ثم زحفت القوات المصرية جنوبا لاخضاع العصاة فاعتبر هذا دليلا قاطعا على عظم النفوذ المصرى فى السودان الشمالى وقتئذ . وحدثت المعركة الحربية بين جيشى أمنحتب الثالث والعصاة بجهة إبحت (Ibhet) قرب الشلال الثانى فى العيد الخامس لجلوس الملك على الأرجح ، وانتهت بهزيمة العصاة تاركين سبعمائة وأربعين أسيرا وثلثمائة واثنى عشر قتيلا كما ورد على لوح النصر المنصوب بجهة الشلال الثانى[٤] . ثم طافت فصائل من الجيش المصرى على البلاد وقامت بالتفتيش على القرى والآبار لمعاقبة الأهالى حتى لا يقوموا بحركة ثورية على مصر[٥] . بعد ذلك زحف أمنحتب الثالث جنوبا مدة شهر تقريبا أسر فى أثنائه عددا عظيما من الأسرى وكمية كبيرة من الذخيرة[٦] . ولما وصل الى تل هوا (Hua) ضرب خيامه على جزيرة أنشك (Uneshek) جنوبى ذلك التل . أما موقع التل بالضبط

---

(١) ٢ : ٨٦١—٢ (٢) ٢ : ٨٦٢ (٣) ٢ : ٨٥٢ (٤) ٢ : ٨٥٣—٤ (٥) ٢ : ٨٥٥
(٦) ٢ : ٨٥٠ و٢ : ١١

فمجهول لنا على كثرة ذكره مع اسم الصـومال (بونت) ويظن أنه على مسافة بعيدة عن منطقة الشلالات ، ويعتبر هذا المكان آخر ما وصل اليه أمنحتب الثالث[١] . بعد ذلك جمع الملك كميات كبيرة من الذهب لعمارات طيبه من اقليم كاروى بجهـة نپتـه[٢] ثم نصب حجرا أثريا على بحيرة حوريس أثبت فيه انتصاراته[٣] ، وللآن لم نهتد الى موضع هـذا المكان بالضبط ولعـله قريب من حدود مملكة والده . ويعتبر هذا العمل آخر غزو كبير قام به الفراعنة بالسودان ، بصرف النظر عن المشاغبات الصغيرة التى سببتها القبائل المجاورة . والسبب فى ذلك أن هـذا القطر أخذ يصبغ تدريجيا بالصبغة المصرية حتى أصبح الاقليم الذى بين الشلال الأول والشلال الرابع خاضعا خضوعا تاما للسلطة المصرية . وليلاحظ أن الأهالى القاطنين لقسم السودان الخاضع لمصر كانوا نوبيين ، أما الزنوج فكانت بلادهم وقتئذ جنوبى اقليم شلال النيل الرابع . وأقدم رسوم لزنوج إفريقية وجدت على آثار الامبراطورية المصرية فى عهد تحوتمس الأول كما أظهر جنكر (H. Junker) . والمعروف أن الامبراطورية المصرية لم تشمل يوما ما أراضى زنجيـة (مأخوذة باذن الدكتور برستد من دائرة معارف التاريخ القديم لجامعة كمبردج صحيفة ٩٤ — القسم المصرى) . أما الاقليم الذى بين الشلالين الأول والثـانى فقد صار مصريا تمـاما فظهرت فى مدنه الكبيرة الهياكل المصرية وعبـدت فيها المعبودات المصرية . ثم أدخلت فى تلك البـلاد الصناعة والأشغال اليدوية المصرية فتجلت بذلك فى تلك الجهات المدنية والأخلاق والآداب المصرية بوضوح . لكنه بالرغم من هـذا سمح لرؤساء القبائل السودانية بأن يحتفظوا بألقابهم ومراكزهم اسميا — على الأقل — وأن يشـتركوا ليسيراهم والموظفون المصريون فى ادارة شؤون البلاد . أما القسم الذى هو بين الشلال الأول وإبريم فكانت ادارته كلها بأيدى المصريين ولذلك يتضح لنا السبب فى أن هذا القسم حشد جيشا انضم الى قوة أمنحتب الثالث ليساعدها وقت زحفها على السودان[٤] . وجرت العادة وقتئذ أن يحضر المندوب السامى للسودان كل سنة الى طيبه مصحوبا بجزية النوبة العامة حتى أصبح ذلك أمرا مألوفا لدى العامة[٥] .

كانت سلطة أمنحتب الثالث فى آسيا لا تقاوم ففى قصر بابل كانت سلطته على سوريا وفلسطين (المعروفين قديمـا باسم كنعان) معترفا بهـا . ولمـا أراد بعض أمراء آسـيا القيام بحركة عدائيـة مشتركة على ملك مصر كتبوا الى ملك بابل المدعو كوريجالزو (Kurigalzu) ، طالبين انضمامه اليهم فرفض ذلك بتاتا قائلا انه انمـا يتحالف مع فرعون مصر ثم هددهم فعـلا بالقوة اذا هم ثاروا على أمنحتب الثالث[٦] . وسواء أكانت هذه الرواية صحيحة أم لا فقد وردت مدونة ضمن رسائل بابل وهى على كل حال كافية لاثبات صداقة بابل المتينة نحو مصر . ووصلت الحال الى أن بابل وآشـور ومتانى وقـبرص تنافست لاكتساب محبة مصر ويعتبر هذا أول مظهر سياسى دولى عام فى تاريخ الممـالك المعروفة للآن . وصار قصر فرعون مصر مركزا للتخاطب مع كبار حكام ذلك العصر جميعا . وترجع معظم معلوماتنا عن المداولات بين فرعون مصر وحكام آسيا الى اللقية العظيمة التى وجدت

---

(١) ٢ : ٨٤٧ — ٨ (٢) ٢ : ٨٨٩ (٣) ٢ : ٨٤٥ (٤) ٢ : ١٠٣٧ (٥) ١ : ١٠٣٥ — ٤١
(٦) خطابات تل العمارنة ٧

بتل العمارنة وهى عبارة عن الخطابات التى تبودلت بين حكام ذلك العصر وفرعون مصر ومنها عرفنا مقدار ما بذله كل ملك من مجهود لاستمالة عطف مصر ومحبة عرشها العظيم . ويبلغ عدد هـذه الخطابات ثلثمائة وهى عبارة عن قوالب طينية منقوشة بالخط المسمارى البابلى، وكان اكتشافها عام ١٨٨٨ ميلادية جهة تل العمارنة التى كانت عاصمة المملكة المصرية فى عهد إخناطون بن أمنحتب الثالث والتى كانت أيضا مركز التخاطب مع الملوك الأجانب (شكل ١٢٣) . واتضح لنا أن هـذه الخطابات كانت متبادلة بين أمنحتب الثالث وابنه إخناطون من جهة ، وملوك بابل ونينوى ومتانى وقبرص وولاه سوريا وفلسطين من جهة أخرى . ويوجد بين هذه الرسائل خطاب من أمنحتب الثالث الى ملك بابل المدعو كاليما — سِنْ (Kallimma-Sin) أو كادَشْمان بِلْ (Kadashmau-Bel) وأربعة رسائل من ملك بابل هـذا الى فرعون مصر[1] . ويستنتج من هـذه الرسائل أن ملك بابل كان كثير المطالبة بالذهب فقد رجا فى خطاب له فرعون مصر أن يرسـل له كميات كبيرة من ذلك المعـدن النفيس لأن ملك بابل علم من رسـله أن ذهب مصر كثير كالتراب ، وقد أرسل أمنحتب الثـالث لملك بابل ما طلبه ، لكنه كان كثيرا ما أظهر عدم رضاه بالمقادير المرسلة . وجاء فى خطاب آخر أن والد ملك بابل أرسل كريمته الى أمنحتب الثالث ليقترن بها فاعتبر هذا سببا كافيا طالب بمقتضاه ملك بابل فرعون مصر بكمية كبيرة من الذهب . وفى رسالة أخرى أن ملك بابل طلب كريمة أمنحتب الثالث ليقترن بها لكننا لم نعرف بالضبط اذا كانت هذه الفتاة له أو لابنه .

ومثل هـذه العلاقات الودية كانت متبادلة أيضا بين أمنحتب الثالث وملك متانى المدعو شوترنا (Shuttarna) ابن أرتاتاما (Artatama) صديق تحوتمس الرابع الحميم . ولا يبعد أن يكون أمنحتب الثالث ابن أخت ملك متانى . والمعروف أن هذا الأخير أرسل كريمته المدعوة جيلوخيبا (Gilukhipa) الى أمنحتب الثالث ليقترن بها ، فأقام هذا الأخير احتفالا عظيما وأمر بصنع عدد عظيم من الجعل نقش عليها أخبار ذلك القران ، منها أن الأميرة المذكورة أحضرت معها من آسيا حاشية من السيدات يبلغ عددها ثلثمائة وسبع عشرة سيدة وخادمة[2] وكان ذلك فى السنة العاشرة من حكم أمنحتب الثالث . وتوفى ملك متانى فعقبه فى الملك ابنه المدعو دشراتا (Dushratta) وقد أرسل هذا كريمته أيضا المدعوة تادوخيبا (Tadukhipa) الى أمنحتب الثالث ليقترن بها ابنه المدعو إخناطون ، وقد اعتبرت هذه المراسلات الملكية برهانا صادقا للود المتين بين القطرين وقتئذ . واليك ترجمة نص خطاب أرسله دشراتا[3] الى أمنحتب الثالث :

"الى أخى وصهرى الذى يحبنى وأحبه أمنحتب الثالث الملك العظيم وفرعون مصر

"من دشراتا الملك العظيم أخيك وحميك الذى يحبك . أنا فى صحة جيدة ، علك أنت كذلك وكذا منزلك وأختى وسائر زوجاتك وبنـاتك وعجلاتك وخيلك وكبار رجالك وأرضك وكل ممتلكاتك . علكم جميعا بخير . كان آباؤك قديما على أوفق وئام مع آبائى ، لكنك قويت تلك الرابطة عما كانت

(١) خطابات تل العمارنة ١ — ٥ (٢) ٢ : ٨٦٦ — ٧ (٣) خطابات تل العمارنة ١٧

عليه كثيرا . حقيقة كنت صديقا حميا لوالدى ، وتجاذبنا أطراف الصـداقة معا لكنها الآن أشد مما كانت عشر مرات . لعل المعبودات تزيد من ودنا هذا على توالى الأيام ، ولعل المعبود تسهوب (Tishub) (إله مملكة متانى) السيد والمعبود آمون يحافظان على هذا الود كما هو الآن .

"لمـا حضر الىّ رسول أخى المدعو مانى (Mani) قائلا انك تخطب كريمتى لتكون ملكة على مصر لم أتجاسر على تكدير قلب أخى بل استمررت على أداء ما هو واجب نحو صداقتنا ، وتنفيذا لرغبتك يا أخى أرسلتها مع مانى الذى سر جدا برؤيتها ، فاذا وصلت الى أرضك يا أخى أتعشم أن المعبود إشتار (Ishtar) والمعبود آمون يجعلانها محبوبة ومقبولة لديك".

"لقد أحضر لى رسولى جيليا (Gilia) خطابك يا أخى . ولمـا قرأته فرحت جزيلا حتى أنى قلت وقتئذ اذا فرضنا أن صداقتنا ذهبت فان هــذه الرسالة ستجعلنى أثابر على الودّ لك الآن . وكتبت لك يا أخى قائلا : "أما من جهتى فاننا سنكون أعز أصدقاء وأوفى أخلاء". ثم سألتك يا أخى أن تقوى صداقتنا أكثر عشر مرات ممـا كانت عليه أيام آبائنا . ولقد طلبت منك يا أخى مقدارا كبيرا من الذهب قائلا : "ارسل لى يا أخى أكثر مما كان يرسل لوالدى من قبل ! لقد كنت ترسل لوالدى كميات كبيرة من الذهب بمـا يعادل مكيال نامخار (Namkhar) من الذهب النقى ومكيال كيرو (Kiru) من الذهب النقى (؟) أما الذى أرسلته فعبارة عن قرص من الذهب يظهر أنه مخلوط بنحاس . . . . لذلك أرسـل لى يا أخى كميات كبيرة من الذهب بلا حساب ولكن مقداره أكثر من الذى كنت ترسله لوالدى ، لأن الذهب فى أرضك يا أخى كثير كالتراب" .

هكذا تخاطب ملوك بلاد آسيا الغربيـة مع مصر . ولنـذكر هنا على سبيل الايضاح أن ملك أشور تسلم من أمنحتب الثالث مبلغ عشرين مثقالا ذهبا تالنت (Talents)[1] فسر بذلك وتوثقت روابط الصداقة بين المملكتين . أما ملك قبرص فكان مراعيا سيادة فرعون عليه جيدا فكان يرسل الى مصر كميات عظيمة من النحاس كل سنة إلا سنة واحدة اعتـذر فيها عن تقصيره بانتشار وباء فى جزيرته . وكان حسن التفاهم بين قبرص ومصر بالغا أقصى درجاته من الكمال ، من ذلك ما ورد على الآثار أن رجلا من أهالى قبرص توفى بمصر فدارت بين ملكى هذين القطرين مراسلات أرسل رســول بمقتضـاها الى مصر لتسـلم تركة المتوفى وارجاعها الى قـبرص لترد الى زوجـة الفقيـد وابنه[2] . وبلغت رغبة ملك قبرص فى صـداقة مصر أنه حذر فرعون من الدخول فى أى معاهدة مع مملكة خيتا أو بابل ، وسنرى أن بابل اتبعت هذه السياسة نفسها مع مصر للغرض ذاته أيضا .

إزاء هــذا الاحترام والتبجيل والرعاية من كل الدول العظمى لم يجـد أمنحتب الثالث أمامه ما يشغل باله من جهة مستعمراته الأسيوية ، خصوصا اذا لاحظنا أن حكام سوريا فى عهـده كانوا أحفاد أسرى تحوتمس الذى علمهم بمصر ورباهم على حبهـا مدّة طويلة فأصبحوا لا يعرفون مركزا يطمحون اليه أسمى من أن يكونوا ولاة تحت الحكم المصرى . وكان طبيعيا فى وقت كان فيه

(١) خطابات تل العارنة ٢٣ - ٣٠ ملاحظة (٢) خطابات تل العارنة ٢٥ - ٣٠ ملاحظة .

الحق للقوة أن يرى هؤلاء الأحفاد أن ذهابهم الى مصر ووراثة ملك آبائهم بعد وفاتهم كان الوسيلة لرضاهم فى أن يكونوا محببين بالسلطة المصرية العظيمة من كل اعتداء أجنبى . وقد ألمعنا سابقا الى المدرسة المصرية التى تعلم بها هؤلاء الأحفاد والتى أنبتت فى قلوبهم بذور المودة نحو مصر بعد ما كان آباؤهم يبغضون مملكة النيل ويتنحون عنها . وما أكثر ما أظهره هؤلاء الحكام من الطاعة لمصر وقتئذ ، خذ مثلا ما جاء بخطاب أمير قطنا (حمص ؟ Katna) المدعو أكزى (Akizzi) الذى أرسله الى أمنحتب الثالث فقد جاء فيه ما ترجمته :

"سيدى أنا خادمك هنا ، أتبع سنة سيدى ولا أحيد عنه أبدا . لقد صارت هذه الأراضى ملكك منذ آبائى الذين خدموك . فمدينة قطنا مدينتك ، وأنا عبدك . سيدى ، حالما تصل الى جنودك وعجلاتك الحربية سرعان ما يقدم لها الغذاء والشراب والبهائم والأغنام والعسل والزيت ، هكذا تقابل جنود جلالتك وعجلاتك أيها الملك"[١] .

واليك مثلا آخر لخطاب أمير سورى أرسله الى أمنحتب الثالث يثبت عبودية هؤلاء الأمراء . هذا ترجمته :

"سيدى ومليكى ومعبودى وشمسى . أنا خادمك أبى ملكى (Abimilki) . (أتشرف بأن) أسجد بين قدمى سيدى سبع مرات وسبع مرات أخر ، فأنا الأديم تحت خفى سيدى الملك . سيدى ، أنت الشمس الساطعة على الأرض كلها كل يوم . . . . "[٢] .

وجاء فى خطاب آخر لأحد أمراء سوريا ما ترجمته :

" (أتشرف بأن) أسجد بين قدمى جلالة فرعون مصر على وجهى وظهرى الخ" (شكل ١٤٧) .

وجاء فى خطاب آخر أرسله أحد الأمراء الى فرعون ما ترجمته :

"أنا الأرض التى تطؤها قدماك ، والمقعد الذى تجلس عليه . والمسند الذى تضع عليه قدميك" .

وغلا بعضهم فى العبودية فكتب الى جلالة فرعون مصر يقول " أنا كلبك " . وكان بعضهم يتشرف بأن يلقب نفسه "سائس جلالة الملك" . وقد شمل فرعون مصر هؤلاء الأمراء برعايته فأرسل لهم الزيت المعطر ليتضمخوا به فى عيد اعتلائهم لعروش آبائهم . واعتاد هؤلاء الأمراء أن يخلصوا لفرعون فيخبروه فى أول فرصة بما يحدث فى أقسامهم من بوادر الثورة ، وكثيرا ما عهد اليهم جلالته فى اخضاع الأمراء العصاة . أما مدن آسيا الكبرى فكانت تحوى وقتئذ الجنود والعجلات الحربية المصرية ، ولم تكن هذه القوات مصرية على بكرة أبيها بل شملت أيضا قوات نوبية وبعض قرصان البحر الأبيض المتوسط المعروفين باسم شردن (Sherden) — الذين يظن أنهم من جزيرة سردينيا — وأخذ هذا العنصر الأجنبى يزداد تدريجيا فى الجيش على توالى الأيام . وقد اتضح لنا من خطاب أحد أمراء آسيا أنهم كانوا يقدمون الطعام والمسكن لقوات مصر هناك ، فظهرت فى سوريا بهذه

(١) شرحه ١٣٨ و ٤ — ١٢ (٢) شرحه ١٤٩ و ١ — ٧

الكيفية حكومة وطيدة الأركان لم تر البلاد مثلها سابقا فالطرق أمينة والقوافل تسير مطمئنة على أنفسها وأموالها ، كل ذلك لأن كلمة واحدة من فرعون كانت كافية لعزل أى أمير سورى من مركزه . أما الضريبة فكانت تجمع من الأهالى بسوريا بالنظام نفسه وفى الوقت عينه الذى تجمع فيه بمصر ، واذا تأخرت الجزية يسيرا كان مجرد ظهور نائب الملك فى المدن الكبيرة هناك كافيا لجعل الامارة المترددة تدفع جزيتها فورا . يتضح لنا من ذلك أن أمنحتب الثالث لم يجد له مسوغا لشن الحرب على آسيا . أما الرواية الواردة على الآثار من أن جلالته ذهب مرة الى صيدون (صيدة Sidon) وخاطبه هناك أحد موظفيه عن عدد الأسرى الذين استولى عليهم جلالته[1] فالغالب أن ذلك يرجع الى الحملة النوبية السابق الكلام عليها . والمعروف أنه عند حصول أى قلق أو اضطراب بآسيا كان أمنحتب الثالث يرسل قوة حربيـة الى الجهات العاصية بقيادة ضابط ماهر يخمد الاضطراب كلمح البصر . وقد دامت هذه الحال عشرين سنة تقريبا بعد جلوس أمنحتب الثالث على عرش مصر، ومما يعزز استنتاجنا هذا ما جاء بخطاب أمير أسيوى الى ابن أمنحتب الثالث هذا ترجمته: "حقيقة أن والدك لم يأت الينا ولم يتعهد أراضى ولاته الأمراء"[2] .

أمام هذه الظروف لم يجد أمنحتب الثالث بدا من صرف همته فى ترقية شؤون مملكته الداخلية وهو أمر متبع فى مثل هذه الأحوال بسائر الامبراطوريات ، لذلك بلغت التجارة فى عهد هذا الملك درجة رفيعة لم تصل اليها من قبل،وصار نهر النيل من الدلتا الى الشلالات مملوءا بخيرات العالم الواردة بأسطول البحر الأحمر وقوافل برزخ السويس،فكنت ترى البضائع السورية الثمينة والبخور والأخشاب العطرية الواردة من البلاد الشرقية والأسلحة والأوانى الفينيقية المزخرفة وعشرات الآلاف من الخيرات الكثيرة الاستعمال بين سكان وادى النيل حتى أدخلت أسماؤها السامية فى اللغة الهيروغليفية. أما تجارة البحر الأبيض المتوسط فبلغت درجة عالية فى الرقى والتقدم كالتجارة البرية ولذا كانت مئات السفن الفينيقية الواردة الى مصر تأتى من الجهات كلها مشحونة بكل الخيرات كالأوانى المزخرفة والمصنوعات البرنزية المنقوشة الآتيـة من البلاد اليونانية القديمة . وانتشرت المصنوعات المصرية وعم استعمالها فى قصـور ملوك جزر كنوسوس (Cnossos) ورودس وقبرص حيث وجدت منهـا بقايا استمرت الى الآن . وعثر فى بلاد اليونان نفسها على جعل وقطع أوان خزفية مطلية بالزجاج ومنقوش عليها اسم أمنحتب الثالث أو الملكة تى (Tiy). فى ذلك الوقت أيضا شعر سكان البحر الأبيض المتوسط بنفوذ مصر وحضارتها أكثر من أى عهد سـابق . فظهرت فى كريت الشعائر الدينية المصرية حتى ورد أنها أقيمت مرة تحت اشراف كاهن مصرى (شـكل ١٢٧) . ثم صبغت الصناعة اليونانية بالصبغة المصرية بدرجة كبيرة فظهر على مصنوعات اليونان المعدنية ذوق مصرى خطته أقلام صناع طيبه . فكثيرا ما كنت ترى على المصنوعات اليونانيـة رسوم الحيوانات المصرية المختلفة ممثلة فى حركاتها وسكناتها الطبيعية . ثم ظهرت فى بلاد اليونان وفى أوركمنوس (Orchomenos) تلك السـقف المزخرفة الجميلة التى أبدعتها أيدى أهـالى طيبه . واتضح لنا أن الخط الذى استعمل فى كريت قبل

[1] ٢ : ٩١٦ و ٩١٨ [2] خطابات تل العمارنة ٨٧ و ٦٢ — ٦٤

الخط اليونانى يحوى آثارا من الخط الهيروغليفى المصرى، فثبت بذلك انتشار الخط المصرى الى تلك الجهات . والفضل فى نشر المدنية المصرية فى تلك الجهات يرجع الى أهالى الجزر اليونانية المعروفين عند المصريين باسم خفتيو (Keftyew) وقد أحضر هؤلاء القوم معهم مصنوعات يونانيـة كثيرة كان لها بعض التأثير فى المصنوعات المصرية . وقد كثروفود هؤلاء القوم الى طيبه وقتئذ حتى صارت رؤيتهم فى الشوارع شيئا اعتياديا . ولما أخذت الفضة ترد بكثرة الى مصر مع الأجانب الشماليين رخصت قيمتها عن قيمة الذهب بعد ما كانت أثمن منه بمقـدار الضعف أيام الهيكسوس . بعد ذلك أخذت نسبة قيمة الذهب الى الفضة تزداد تدريجيا من $\frac{2}{3}$ ١ : ١ حتى بلغت ١٢ : ١ فى عهد البطالسة (أى القرن الثالث قبل المسيح) .

وبديهى أن مثل هذه الأعمال التجارية احتاجت الى حماية ونظام خصوصا وأن القرصنة وقتئذ كانت منتشرة وخطيرة . فالقرصان الليسيون Lyciau عبثوا كثيرا بمرافئ شرقى البحر الأبيض المتوسـط ونهبوا بجرأة موانى قبرص ، ثم غلوا فى اجرامهم فأنزلوا بعضا منهم على شاطئ الدلتا للنهب والسرقة [١] . لذلك عين أمنحتب الثـالث خفرا حربيا للسواحل يطوف على شواطئ الدلتا ليمنع القرصان من الدنو من مصر ولا يسمح بالدخول فى مصبات النيل إلا للسفن التجارية القانونية . وقد أشرف رجال الشُرَط على جمع الضرائب المفروضة على البضائع الخارجية فى مواضع مخصوصة ما عدا الخاص منها بالملك فقد أعفى[٢] . والظاهر أن ايراد هذه الضرائب كان كبيرا جدا ولم نهتد للآن الى معرفة قيمته بالضبط . أما الطرق البرية فقد حرست بالنظام نفسه وكل أجنبي يرى داخل المملكة بسبب غير مصرح به كان جزاؤه الطرد الى حيث أتى . أما التجارة القانونيـة فكانت مصونة نافقة ليست مثقلة بالضرائب .

واستمرت تجارة الرقيق الأبيض — وعلى الأخص السورى — منذ أيام تحوعس الثـالث . وكاتب الملك هو الشخص الذى كان يوزع الرقيق على أنحـاء القطر ويثبتهم فى سجل العبيد الذين يدفعون الضرائب للخزانة الملكية[٣] . وبديهى أنه كلما كثر الأجانب بمصر امتزج دمهم بالدم المصرى وقد ثبت هـذا من رسوم آثار تلك العصور . ومما ساعد أيضا على تغيير أحوال البلاد وقتئذ زيادة ثروة خزانة فرعون لمدة قرن تقريبا ، تلك الزيادة التى كان لهـا تأثير سيئ فى التاريخ التالى ، فأصبح الفراعنة يغدقون فى أعيادهم (كعيد رأس السنة مثلا) الهدايا الثمينة التى كانت تبهر ملوك الأهرام اذا هم شاهدوها . فقد ورد مثلا على الآثار أن وزير المـالية أحضر مرة أمام جلالة الملك "عجلات مموهة بالفضة والذهب وتماثيل من العاج والآبنوس وقلائد من الأحجـار الكريمة المختلفة وأسلحة حربية وأشغالا يدوية متباينة الأنواع" . وقد شملت هذه الأشغال اليدوية ثلاثة عشر تمثالا للملك وسبعة تماثيل لأبى الهول بوجه الملك وثمانى قلائد بديعة وستمائة وثمانين درعا ثمينا ومائتين وثلاثين

(١) خطابات تل العمارنة ٢٨ (٢) ٢ : ٩١٦ و ٢ : ٣٢ — ٤ وخطابات تل العمارنة ٢٩ و ٣٢ و ٣٣

(٣) ٢ : ٩١٦ و ٢ : ٣١ — ٣٦

كنانة من الصنع نفسه وثلثمائة وستين سيفا من البرنز ومائة وأربعين خنجرا من البرنز المنقوش بالمعادن الثمينة وثلاثين عصا من الآبنوس مكسوة أطرافها بالفضة والذهب ومائتين وعشرين سوطا من العاج والآبنوس وسبعة صناديق دقيقة الصنع ومظلات كثيرة ومقاعد وأوانى عديدة وما الى ذلك من الأشياء الصغيرة[1] . قارن هذا بما كان متبعا قديما لما كان الملك يهب أمراءه المخلصين قطع الأراضى ليزرعوها ويحسنوا ادارتها رغبة فى ترقية الزراعة وزيادة خيرات القطر، أما الآن فقد تغيرت الحال اذ أصبح الملك ينعم على رعيته بالثروة التى لا تحتاج الى عناء أو تعب لتثميرها . من ذلك ظهر الترف والنعيم فى طيبه بعد ما كانت مثال البساطة والجد والمعيشة الطبيعية ، وليلاحظ أن هذا التغير شمل أفراد المملكة كافة من الملك الى الفقير وأعظم دليل على ذلك ما يشاهد من التغير فى الملبس . فبعد ما كانت طبقات الأمة (حتى الملك) تكتفى برداء قصير يستر ما بين السرة والركبتين أصبح القوم الآن يرتدون الملابس الطويلة الجيدة النسيج والثمينة والواسعة الأكمام . ثم استبدل بلباس الرأس البسيط القديم شعر صناعى يوضع على الرأس ويسدل على الكتفين . أما الأقدام فبعد ما كانت دائما عارية أصبحت الآن تلبس الخف البديع ذا الطرف المدبب أحيانا . ولو فرض أن شخصا من عهد أمنحعت أو سيزوستريس مشى فى شوارع طيبه لا بد أنه يدهش وتعتريه حيرة ويتساءل عن البلد الذى هو فيه فان لبسه كان غريبا جدا وتغير استعماله تماما فى عهد الامبراطورية الا فيما بين أفراد طائفة الكهنة . واذا أراد القارئ أن يتصور مبلغ هذه الدهشة فليتصور ظهور رجل من عهد الملكة إليزابث فى شوارع لندره الحالية . والحق يقال ان طيبه فى عهد أمنحتب الثالث امتازت بأبنيتها الشامخة وبيوتها الفاخرة ذات الحدائق اليانعة والمصايف النضرة حول المعابد الواسعة ، مما لم تشهده عين مصرى فى أى زمن سابق (شكل ١٢٤) .

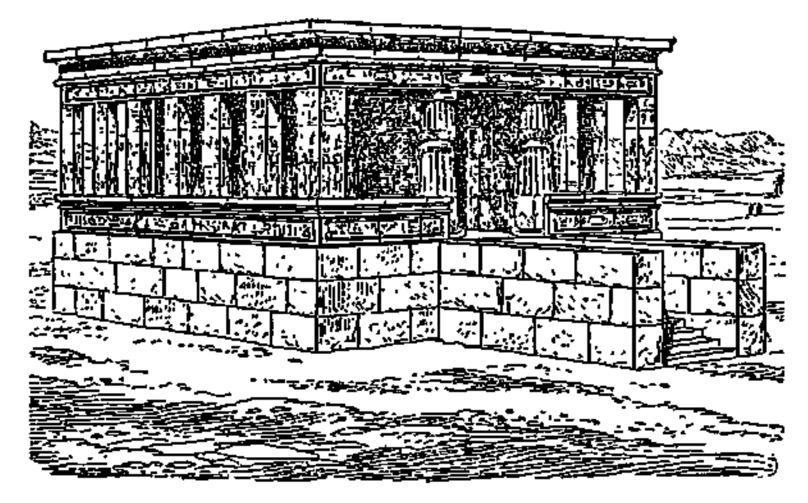


شكل ١٢٤ — شكل يمثل ملابس عهد الامبراطورية

والمعروف أن استغلال ثروة بلاد النوبة وآسيا واستخدام أسراهما رقيا كثيرا من البناء المصرى بطيبه من حيث الاتقان والجودة . وقد شجع أمنحتب الثالث هذا الفن كثيرا فأعطى مهندسيه كل ما طلبوه ليرفعوا هذا الفن الى الدرجة القصوى ، ولذلك ظهر بين هذه الطائفة أفراد نوابغ نخص بالذكر منهم المهندس أمنحتب الذى ذاعت شهرته فى العالم حتى صار مضربا للأمثال بعد وفاته بألف ومائتى سنة لما أدمجت حكمه ضمن " أمثال السبعة الرجال العظام " فى العهد اليونانى . وفى عهد البطالسة اعتبر هذا المهندس إلها وعرف وقتئذ باسم " أمنحتب بن حابو "[2] .

(1) ٤ : ٨٠١ ملاحظة (2) ٢ : ٩١١

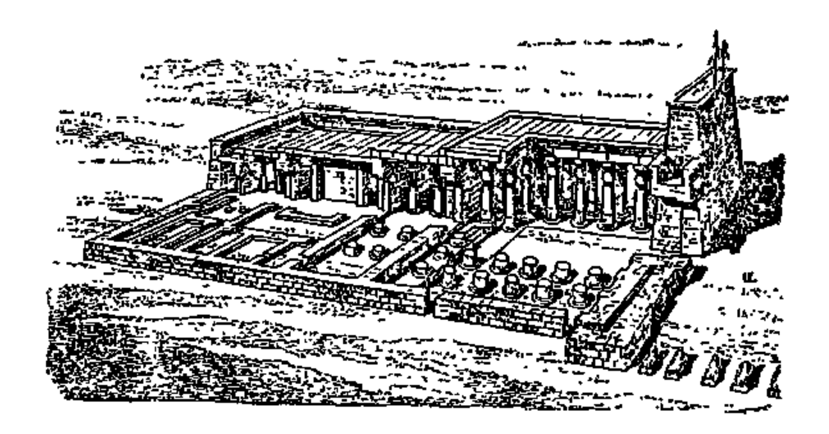
والمعروف أن المهندسين المصريين فى عهد أمنحتب الثالث ابتكروا ذوقا جديدا فى البناء وتفاصيل فى العمارة تأخذ بالألباب ، ولا غرابة فى ذلك فمهندس العمارة وقتئذ كان لديه كل ما يحتاج اليه من مواد البناء والمال والرجال، وهكذا تمكن من اقامة العمارات الضخمة التى بهرت العقول بحجمها وهندستها . وتنقسم معابد ذلك الوقت من حيث عمارتها الى قسمين الكبير والصغير، وليس يعنى من هذا التقسيم أن المعابد الصغيرة أقل قيمة وجمالا لأن النوعين كانا غاية فى الظرف والاتقان. أما المعابد الصغيرة فعبارة عن قاعة مستطيلة تشبه قدس الأقداس يتراوح طولها بين ثلاثين وأربعين قدما و يقرب ارتفاعها من أربع عشرة قدما وتنتهى فى طرفيها بباب يحيط به رواق . وأرض هذا المعبد مرتفعة عن سطح الأرض بما يقرب من نصف ارتفاع المعبد (شكل ١٢٥) . ويشاهد على جانبى الباب



شكل ١٢٥ — معبد صغير محاط بعمد شيده أمنحتب الثالث على جزيرة الفانتين بأسوان وهدمه سنة ١٨٢٢ ميلادية مدير أسوان التركى وقتئذ ليستعمل أحجاره للبناء .
(مأخوذ عن وصف بعثة نابوليون العلمية)

عمودان رشيقان خلفهما القاعة المستطيلة تحيط بها من الخارج عمد بديعة مفصولة عنها بممر فسيح، ولذلك كان لمنظر هذا البناء تأثير عظيم فى نفوس ناظريه . وهــذا النوع فى اعتبار رجال الفن برهان ساطع على تقدم فن البناء وقتئذ حتى أن بعثة نابليون الأثرية دهشت جدا لما وقع بصرها على هذا النوع من المعابد وأيقنت من فورها أنها أصل لعمارة المعابد اليونانية الذى تحيط به العمد من الخارج (Peripteral) ، ولا غرابة فى ذلك فكثــير من البناء اليونانى يرجع فى الأصل الى البناء المصرى .
أما نوع المعبد الآخر وهو المعروف بالكبير (شكل ١٢٦) فقد بلغ أعظم درجاته وقتئذ وهو يختلف كثيرا عن النوع الصغير ، فعمده مقامة فى الداخل لا من الخــارج وقدس الأقداس محاط بعدة حجرات كسابق العهد إلا أنهــا أكبر حجما لتناسب ثروة البلاد وكثرة ايراد المعابد وقتئذ . وتوجد أمام قدس الأقداس قاعة كبيرة سقفها قائم على عمد شامخة أمامها حوش كبير يحيط به رواق ذو عمد أيضا . وفى مقدّمة هذا الحوش صرح كبير مزدوج جدره مائلة الى الداخل يعلوه إفريز مجوّف و بين جزأى الصرح باب المعبد الكبير . ولا يشيد هذا المعبد عادة من الأحجار الضخمة التى يتراوح

طولها بين ثلاثين وأربعين قدما وزنتها بين مائة ومائتي طن ، بل تستعمل لذلك أحجار متوسطة الحجم من النوع الرملي أو الجيرى . وجرت العـادة أن تحلى جدر المعابد ــ عدا الأعمدة ــ بالرسوم البارزة فتشاهد على خارج المعبد مناظر تمثل الملك يحارب أعداءه وعلى داخله يشاهد الملك عابدا المعبودات ، ومعظم هذه الرسوم ملونة بالألوان الزاهية . ويتكون باب المعبد من مصراعين مصنوعين من خشب الأرز اللبناني ومطعمين بالبرنز ، وعلى جانبي الباب مسلتان كبيرتان تعلوان الصرح وهناك أيضـا تمثالان كبيران للـملك على جانبي الباب مصنوعان من حجر واحد ظهرهما ملاصق لجدار الصرح ووجههما مقابل لزائرى المعبد . والمعروف أن هذا الترتيب والنظام كان متبعا قديما فى المعابد فلما حكم أمنحتب الثالث أتقن مهندسوه وأبدعوا حتى كونوا منها أنموذجا جديدا من أبدع ما عرف فى فن العمارة لا يزال مستعملا بكثرة الى عهدنا هذا .



شكل ١٢٦ – رسم هندسى يمثل تفاصيل المعابد ذات الصروح فى عهد الامبراطورية ،وقد روعى رسم نصف المعبد ونصف الصرح المقابل للقارئ لاظهار محتويات المعبد (مأخوذ عن پرو وشيپيه)

وكانت الأقصر وقتئذ معتبرة احدى ضواحى طيبه وفيها معبد صغير لآمون شـيده ملوك الأسرة الثانية عشرة . فلما أتى أمنحتب الثالث هدمه وأقام محله معبدا جديدا تحيط به عدة حجرات أمامها قاعة كبيرة كالتى شيدها تحوتمس الأول فى الكرنك . بعـد ذلك شيد مهندسو أمنحتب الثالث أمام هذا البناء إيوانا بديعا يحوى أروقة ذات عمد يعتبر الآن أجمل ما خلفه لنا تاريخ مصر القديم من العمائر (شكل ١٢٨) . ثم ازداد هؤلاء المهندسون ثقة بأنفسهم فشيدوا إيوانا آخر أمام الايوان السابق وأكبر منه ويظن أيضا أنهم صمموا وقتئذ على اقامة إيوان ثالث أمام هذا الأخير. وبدأ المهندسون بتشييد الايوان الثـانى بأن نصبوا أولا صفا من العمد الشامخة على جانبى محور الايوان فكانت أعلى من أى بناء شيده المصريون سابقا (شكل ١٣٠) . وليلاحظ أن كبر حجم هـذه العمد كان متمشيا مع حسن منظرها فرءوسها البديعة صنعت على مثال زهر البردى اليانع الجميل (شكل ١٣٠) . بعد ذلك شيد المهندسون عمدا أخر أقصر طولا على جانبى عمد المحور فنجم عن ذلك ارتفاع سقف محور الايوان (وهو الصحن) على سقف جانبيـه . ثم فتحت منافذ فى الجدار القائم بين سقف الصحن العالى وسقف

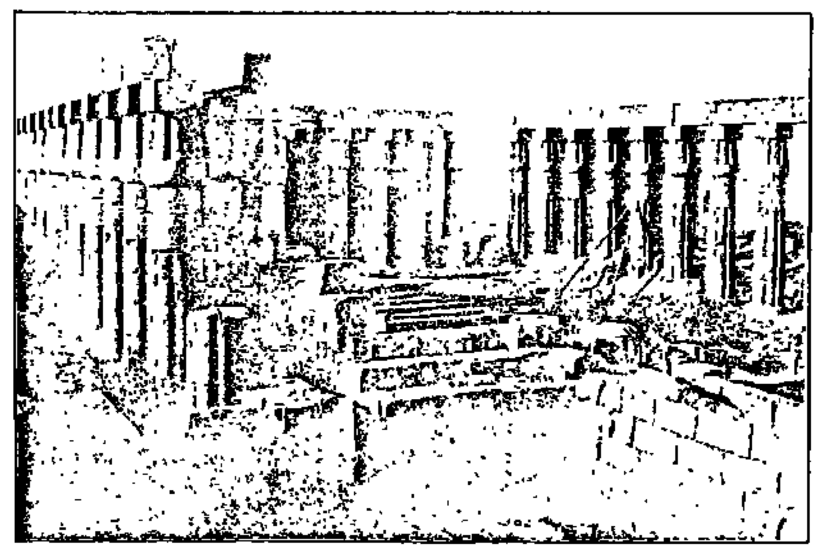
الجانبين المنخفض فنشأ عن ذلك أساس عمارة المحاكم الرومانية (Basilica) والكنائس الكبيرة فى عهدنا هـذا . ومن دواعى الأسف أن أمنحتب الثالث توفى قبل أن يتم بناء هذا الايوان الكبير ، فلمـا تولى ابنه إخناطون الملك بعده لم يهتم بها لشدة بغضه لآمون . بعد ذلك أتى فراعنة آخرون شـيدوا جدارا حول عمد الصحن من أحجار عمد الجانبين التى لم تكن نصبت وقتئذ ، ولا يزال هـذا البناء باقيا الى عهدنا هذا ويعتبر أقدم بناء من هذا النوع العالم كله مدين له .

وأخذ أمنحتب الثالث يقيم بطيبه العمارات الضخمة العديمة المثال فشيد صرحا شامخا أمام معبد الكرنك حاويا أنواع التحف ونصب على جانبيه شواهد حجرية مطعمة باللازورد وبكميات كبيرة من الذهب والفضـــة وما يقرب من ألف ومائتى رطل من الحجر الملكى (Malachiste)[1] . وأنشأ شارعا فسيحا يصل الى هذا البناء مبتدئا من النهر وعلى جانبيه مسلتان عظيمتان[2] . وأقام المهندس أمنحتب أمام ذلك تمثالا للمـلك مصنوعا من صخرة واحدة من الحجر الرملى ارتفاعه سبع وستون قدما مقطوع من محاجر قرب القاهرة ، وقد أحضر هذا التمثال الى طيبه جيش من الأهالى بطريق النيل ويعتبر هذا أكبر تمثال عمل حتى ذلك العهد[3] . وشيد أيضا معبدا لموت (Mut) معبودة طيبه فى مكان المعبد الذى أسسه أسلافه من قبل وذلك جنوبى الكرنك ، وحفر بجواره بحيرة مقدسة وزرع حديقة غناء فيما بين الكرنك ومعبد الأقصر فكان طولها حوالى ميل ونصف ، وأنشأ بين هذين المعبدين طريقا فسيحا أقام على جانبيه تماثيل حجرية لكباش (شكل ٤ وشكل ١٢٩) يحمل كل منها بين رجليه الأماميتين تمثال جلالته ، ولا بد أن يكون منظر هذا الترتيب الهندسى بديعا ومؤثرا للغاية لأن هذه العمارات كانت وقتئذ زاهية الألوان كثيرة العمد والأبواب الملبسة بالذهب ، أما أراضيها فكانت مكسوّة بالفضة ، وتشرف على الجميع مسلات شامخة مكسوّة بالمعـادن اللامعة بين أغصان الأشجـار والنخيل الكثيف ولذلك كان المنظر غاية فى الأبهة والجمال يعجز القلم عن وصفه . ولا تزال آثار هذه العمارات باقيـة تشهد بعزها السـابق ومجدها القـديم ومنها يتضح أن مقام طيبـه عظم وقتئذ فصارت جديرة بأن تكون عاصمة امبراطورية كبيرة وأول مدينة أثرية فى العهد القديم . أما شاطؤها الغربى الذى يحوى مقابر الفراعنة السالفين فلم تعتره تغيرات كالتى حصلت للكرنك ولمعبد الأقصر . وفى ذلك الاقليم كانت تشاهد أيضا معابد الملوك السابقين منتشرة على خط متعرج يبدأ بمعبد أمنحتب الأول الوضيع شمـالا ويمتـد الى مسافة طويلة جنوبا حيث ينتهى الى معبد أمنحتب الثالث الذى فاق المعابد كلها هناك . وشيد له الملك صرحا عظيما نصب أمامه تمثالين حجريين ضخمين مصنوعين من صخرة واحدة ارتفاع كل منهما سبعون قدما تقريبا . ونصب أيضا مسلتين أمام الصرح ثم أوصل هـذه العمارة بالنيل بطريق متسع نصب على جانبيه عدة تمـاثيل لابن آوى . وقد أكثر جلالته من تمـاثيله المقامة بين عمد الحوش ونصب أيضا لوحا حجريا عظيما[4] من الحجر الرملى يبلغ ارتفاعه ثلاثين قدما مطعما بالذهب والأحجار الكريمة يشير الى "المكان الملكى" الذى كان جلالتـه يقف فيه محفوفا بالاحترام وقت الاحتفالات الدينية . وأقام جلالته أيضا حجرا أثريا آخر[5] يبلغ ارتفاعه عشر أقدام أثبت عليه كل ما عمله المعبود

(١) ٢ : ٩٠٣ (٢) ٢ : ٩٠٣ و١ : ٥٧ (٣) ٢ : ٩١٧ (٤) ٢ : ٩٠٤ ملاحظة (٥) ٢ : ٨٧٨ ملاحظة



شكل ١٢٧ – جزء من إناء وجد بجزيرة كريت عليه نقوش محفورة ،
يشاهد عليه رسم لاحتفال وفى وسط الاحتفال كاهن مصرى
يعزف بآلة موسيقية فى مقدمة فتيان كريت . ويرجع
تاريخ هذا الاناء الى القرن الثامن عشر قبل الميلاد



شكل ١٢٨ – ساحة أمنحتب الثالث ذات العمد التى على شكل باقات براعم البردى (معبد الأقصر)



شكل ١٢٩ – ممر فسيح أمام معبد الكرنك العظيم مقام على جانبيه تماثيل كباش عديدة ، ويمتد هذا الممر من مدخل المعبد (القريب من الناظر) الى نهر النيل (البعيد من القارئ) . (مأخوذ عن المستر جون ورد)

آمون . ثم زخرف بسخاء جدر وأرض معبده بالذهب والفضة فزاد كثيرا من هيبته . يتضح من ذلك أن حسن الذوق ومهارة الأشغال اليدوية بلغت وقتئذ درجة لم يفقها المصريون بعد ذلك . وضخامة تلك الأعمال والمصنوعات تدهش كل من يراها ، خذ مثلا أبواب الصروح المصنوعة من خشب الأرز فقد كانت أعقابها وزخرفها المصنوعة من البرنز تزن بضعة أطنان ، زد على ذلك أنها كانت تتطلب لصنعها قوالب تفوق الوصف من حيث الضخامة . وليلاحظ أن الحلية البرنزية لتلك الأبواب المزخرفة برسم المعبود الجميل والمطعمة بالمعادن الكريمة بمهارة كانت تتطلب وحدها كفاية عظيمة فى الفنون الجميلة والأشغال الآلية مما يندر استعماله فى عهدنا هذا .

وبلغ فن الحفر وقتئذ درجة عظيمة لم يبلغها سابقا ، فقد بذل عمال هذا الفن الجميل كل ما فى وسعهم من الجهد والاتقان مهتمين بصغيرات الأمور . ومع ما تطلبه هذا العمل من المجهود العظيم فان مثالى الأسرة الثامنة عشرة لم يألوا جهدا فى مراعاة عادة أجدادهم القديمة فى تلخيص معالم الشخص على تمثاله بقدر الامكان . ويمتاز فن الحفر فى هذا العصر (شكل ١٣٦ و ١٣٧ و ١٥١) ببراعته ورقته وحسن تصرفه ، الشىء الذى كان ينقص أحسن تماثيل العصور السالفة ، ومع ذلك كانت تماثيل الأسرة الثامنة عشرة أبعد عن الحقيقة من تماثيل المملكة الوسطى مثلا ، ولم يكن الاتقان والابداع فى هذا الفن الجميل مقصورا على التماثيل الصغيرة بل شمل أيضا التماثيل الضخمة ، وقد لاحظنا أن هناك تماثيل ضخمة قليلة الاتقان بالنسبة لغيرها . وقد أظهر الحفارون مهارة فى عمل النقوش والرسوم البارزة فالناظر مثلا الى الصورة الفوتوغرافية للحجر الأثرى الموجود بدار التحف ببرلين (شكل ١٣٢) يتبين له فيه رسم بارز لجنازة كاهن من منف ممثل فيه نجلا المتوفى سائرين وراء الجثة تبدو على محياهما علامات الحزن والأسى الشديدين ، ويلاحظ فى الجنازة أيضا رسم كبار كهنة الحكومة يبدو عليهم عظم التأثر مراعاة للظروف ثم منظر مخالف لذلك يمثل أحد الكبار المتأنق الملبس ينظم شعره المعطر المستعار . وبديهى أن الحفار الذى لم يبق لنا من أعماله إلا جزء من هذا اللوح كان ماهرا غزير المادة حاد الذهن والنظر الى معالم الحياة على اختلافها ، فقد تمكن من ايضاح وجدان الأسى والحزن لأقارب المتوفى وأداء الموظفين للواجب مراعيا فى الوقت نفسه اهتمام القوم وقتئذ بالتأنق فى الملبس وجمال الهندام . لذلك لا غرابة اذا لاحظنا أن هذه الوثيقة التى يرجع تاريخها الى ما قبل عهدنا بخمسة وثلاثين قرنا أصبحت الآن تأخذ بألباب ناظريها من حيث تخيلات صانعها وما أثبته من أحوال المعيشة فيها . ولا تنحصر قيمة هذا اللوح الحجرى فى أنه يحوى مجموعة من الرسوم من أجمل ما عرف فى البلاد الشرقية القديمة بل لأنه يمثل فنا جميلا كان معدوما تماما فى بلاد العالم القديمة إلا القطر المصرى ، ولذلك يعتبر هذا اللوح من أقدم أنموذجات الحفر الحجرى التى تمثل فيها مظاهر الحياة المتباينة وملامح الوجود المتنوعة بأجلى بيان وأرق درجة ، وقد نسب البعض هذا الرقى فى الحفر الى اليونانيين لكننا بعد ما شاهدنا هذا اللوح لا يسعنا الا أن نجزم بعدم صحة هذا الرأى وأن نشهد للمصريين بأنهم أول من مارسوا هذا النوع من الفنون الجميلة .

ومن أعظم الوسائل لتشجيع أرباب الفنون الجميلة وقتئذ على ابتكار المجموعات البديعة التى غابت عن سلفهم فى العصور السابقة ما شاهدوا على فراعنتهم من الشجاعة والاقدام ، خذ مثلا المناظر الحربية المحلى بها مقدم عجلة تحوتمس الرابع الملكية (شكل ١٣٥) فانه يحوى مجموعة رسوم شتى ليس لها نظير فيما سبق ، والمعروف أن هذا النوع من الفن استمر استعماله أيام الأسرة التاسعة عشرة أيضا . وبالرغم من صعوبة تمثيل الحياة الوحشية فى مثل هذه الظروف فان الصانع تمكن من رسم الحيوانات بمهارة لم يصل اليها المصريون قبل ذلك الوقت أو بعده . ويوجد بدار التحف بلندره تمثالان لأسدين يرجع تاريخهما الى عهد الملك أمنحتب الثالث (شكل ١٣٣) وصفهما الأستاذ رسكن (Ruskin) بأنهما أجمل ما صنع أهالى الزمن القديم من حيث اتقان الجسم واظهار الشمم بوضوح . ومع استيفاء ما يستحقه هذان التمثالان من المديح فان القارئ ليدهش اذا علم أنهما ما صنعا الا لحلية محراب سحيق بجهة صلب (Soleb)[1] شمالى النوبة . وطبعا اذا كانت هذه درجة اتقان التماثيل التى وضعت فى معبد نوبى سحيق فماذا عسى أن يكون اتقان التماثيل التى كان يحلى بها معبد فرعون بطيبه ! وللأسف أن هذه الاثار العظيمة التى دلت على أقصى ما بلغته الصناعة المصرية من الجودة والاتقان انعدمت وأضحت فى خبر كان ، ولم يبق من هذه الآثار الضخمة الا تمثالان عظيمان أتلفهما الطقس بمرور الزمن كانا منصوبين سابقا على جانبى مدخل معبد أمنحتب الثالث ، ولا يزال هذان التمثالان يلقيان نظرهما على سهل طيبه الغربى كما فعلا من قديم الزمان (شكل ١٣١) وتشاهد على أحدهما نقوش يونانية خطها الزوار اليونانيون الذين أتوا فى عهد الرومان لسماع صوت ذلك التمثال الذى ينبعث منه كل صباح . وعلى بعد مائة خطوة خلف هذين التمثالين يوجد شاهد حجرى عظيم محطم نصفين كان مغطى بالذهب والأحجار الكريمة وموضوعا فى "محل الملك الخاص" ولا تزال عليه نقوش هيروغليفية باقية للآن هذه ترجمتها : "لقد عمل جلالتى كل هذه الأعمال لتعيش الملايين من السنين، وأنا متأكد أنها ستمكث كذلك على وجه الأرض "[2] . وسيأتى الكلام فيما بعد على ما أصاب هذا المعبد الملكى العظيم من أعمال التدمير التى ارتكبها خلفاء أمنحتب الثالث العديمى الذمة الذين حكموا القطر بعده نحو مائتى سنة . وأجود رسوم تلك العصور كانت داخل القصور ولذلك تلفت كلها لأن معظمها كان مصنوعا على الخشب أو اللبن وانما يستدل من البقايا الموجودة من رسم الحيوانات والطيور بمناظرها الطبيعية على توقد ذهن الصانع ومهارته القصوى أيام إخناطون الذى جلس على العرش الفرعونى بعد أمنحتب الثالث . ورغبات ملوك عهد الامبراطورية لإجادة رسم الخطط الحربية أثرت فى نفوس الفنانين كثيرا فأجهدوا أنفسهم وقدحوا زناد قرائحهم حتى أظهروا الاشياء جلية ، ومع أنه قد فقدت تلك المناظر الحربية التى نقشت على جدر المعابد فمن الممكن أن نتصور محاسنها وتأثيرها فى النفوس بالإمعان فى الرسوم الحربية التى على مقدمة عجلة تحوتمس الرابع الحربية .

من ذلك يتضح أن شاطئ طيبه الغربى كان مزدانا بالآثار والأبنية البديعة وبالأخص الشارع المتسع الذى أنشأه أمنحتب الثالث مبتدئا من النيل وفيه تماثيل ابن آوى العديدة . وعلى الجهة

(١) ٢ : ٨٩٣ و ٨٩٦ — ٧ (٢) ٢ : ٩٠٧

خريطة رقم ١٦ : سهل طيبه (مأخوذ عن بديكر)

"بركة هابو" هي في الغالب محل بحيرة امنوفيس الثالث الصناعية . أما سراى هذا الملك فتقع شمالها . ويستدل على موقع معبد قبر هذا الملك أيضا بمحل "تمثالى ممنون العظيمين" وكان هذان التمثالان مقامان على مدخل المعبد المذكور . راجع أيضا شكل رقم ١٣١

الشمالية خلف معبد هذا الملك وبالقرب من الصخور الجبلية بنى قصر الملك الذى ضم كثيرا من الأخشاب ذات الرسوم والألوان الزاهية ، وكان طلق الهواء مزدان الوجهة بسوّار عالية تنتهى بأعلام طويلة ملونة بعض اللون ، وفوق مدخل القصر شرفة عظيمة ذات مضاجع مزركشة محمولة على عمد رشيقة كان يظهر فيها الملك لمشاهدة رعيته فى ظروف مخصوصة (شكل ١٣٩) . وتمتاز المصنوعات الجميلة التى حليت بها أمثال هذه القصور بكونها منتهى ما وصلت اليه المهارة فى حسن الذوق لمهل تلك العصور، وهذه الحقيقة مشاهدة على الآثار العديدة الموجودة بدور التحف بأوربا ، تلك الآثار التى تثبت لنا عظم شأن محتويات القصور الفرعونيـة وقتئذ ونفائس رسومها وبديع أثاثها . فالأوانى الذهبيـة والفضية البديعة المزخرفة بالرسوم الآدمية والحيوانية والنباتيـة والمحلاة الحافات بالأزهار الساطعة الزاهية التى كانت تستعمل على مائدة الملك بين الأكواب البلورية والأوعية الزجاجية والخزفيـة السمراء اللون البديعة المطلية بالرسوم الزرقاء الجميلة ، كل هذه تشهد لمحتويات قصور الفراعنة بعظم القيمة ونفائس الأثاث . وجرت العادة وقتئذ أن تكسى جدر القصور بالبسط البديعة ذات الألوان الزاهية وقد وصفها بعض الأخصائيين بأنها تضـارع أجود المنسوجات الحالية اتقانا . أما الأرض فكانت تحلى برسوم كثيرة تمثـل حياة الحيوان المختلفة (شكل ١٣٨) . وقد حليت الجدر أحيانا ببلاط أزرق جميل لامع ذى رسوم ذهبية بديعة . أما كسوة الأمكنة الفسيحة فلم يستعمل لها إلا البلاط اللامع الملون الموافق للذوق . ولهذه الأسباب قارن الأثريون عصر هذه الفنون الجميلة بعصر لويس الخامس عشر لما كان فيه القصر الملكى مثـال الرقى والتقدم فى الفنون الجميلة .

وخصص أمنحتب الثالث جزءا كبيرا من قصره لزوجته تى (Tiy) حفر بجواره بحيرة كبيرة يقرب طولها من ميل وعرضها من ألف قدم . وقد احتفل الملك فى عيد ميلاده السنوى الثانى عشر بفتح السدود لإرسـال المياه الى تلك البحيرة ثم طاف عليها بمركبه الملكى مصحوبا بملكته تى فى احتفال مهيب يشبه وصفه كثيرا ما ورد فى حكايات ألف ليلة وليلة الخاصة بهارون الرشيد . والمعروف أن الموسيق ارتقت كثيرا وقتئذ عما كانت عليه فى الأزمنة السالفة فكبر حجم الناى حتى قارب طول الانسان واحتوى على عشرين وترا ، ثم أدخل استعمال القيثارة من آسيا فأصبح جوق الموسيق التام مكوّنا من ناى وقيثارة وعود ومزمارين . وأراد الملك أن يقيم تذكارا لفتح بحيرة قصره المذكورة فأمر بصنع عدّة أحجبة بشكل جعل نقش عليها باختصار أخبار هـذا الاحتفال[1] . وقد كثرت الاحتفالات والأفراح فى طيبه وقتئذ حتى أصبحت مضرب الأمثـال فى الفرح والسرور والرفاهية كما كانت روما وبابل فى عهدهما الامبراطورى . ثم ان الأعيـاد الدينية التى كانت تقام فى الشهر السابع كل سنة من حكم أمنحتب الثالث عظمت من حيث الزينة والفرح ، فسمى هذا الشهر "بشهر أمنحتب" وبقى معروفا بهذا الاسم مدّة طويلة بعد وفاة هذا الملك . ولا يزال هذا الشهر معروفا بهذا الاسم المحرّف بين أهالى مصر الحديثين الذين يجهلون نسبة ذلك الى هذا الامبراطور العظيم .

---

(١) ٢ : ٨٦٨ — ٩

ولا بد أن آداب اللغة المصرية بلغت وقتئذ درجة عظيمة من الرقى ومع البحث لم نهتد لنصوص كثيرة منها . وقد ألمعنا سالفا الى مدحة آمون لتحوتمس الثالث وسيأتى الكلام عاجلا على مدحة إخناطون للعبود الشمسى ومنها يمكن القارئ أن يتصور شيئا من أدبيات تلك العصور . ولم نعثر للآن على قصص أو روايات أو أغان لتلك الأزمنة، وكل ما اهتدينا اليه من هذا القبيل يرجع تاريخه الى عهد الأسرة التاسعة عشرة وما بعدها .

واعتاد الملوك أن يستريضوا بالسفر فى رحلات للصيد وقد مارس هذا النوع من الرياضة وأغرم به كثيرا أمنحتب الثالث ، فاذا أبلغه حراسه اقتراب قطيع من الغنم الوحشى من تلال غربى الدلتا فانه يترك قصره فى منف ويركب ليلا سفينته حتى يبلغ محل ذاك القطيع بجرا فيجد فى انتظاره هنالك جنودا عديدين مع أهل القرى المجاورة ، فيحيط هؤلاء القوم بالقطيع ويطاردونه حتى يدخلوه محلا فسيحا محاطا بسور كما هى العادة المتبعة فى العصور السابقة . وقد أحصى عدد الغنم الذى حصر ضمن ذلك السور مرة فبلغ مائة وسبعين حيوانا وحشيا . عند ذلك هجم الملك فى عجلته على القطيع فقتل منه فى اليوم الأول ستة وخمسين وحشا . بعد ذلك بأربعة أيام هجم دفعة أخرى بجندل ما يقرب من عشرين وحشا . وقد اهتم أمنحتب الثالث برحلة الصيد فنقش أخبارها على عدة جعل[1] . وبعد ما أمضى عشر سنوات فى ممارسة صيد السباع وزع الهدايا على رجال قصره المنقوش عليها ما ترجمته "عدد الأسود المفترسة التى اصطادها جلالته برماحه من السنة الأولى الى السنة العاشرة من حكمه ١٠٢"[2] وقد جاء هذا الكلام بعد ديباجة ملكية معتادة حاوية لاسمه واسم زوجته الملكيين ، وقد عثر حديثا على ثلاثين أو أربعين من هذه الهدايا على شكل جعل لا تزال موجودة للآن .

من ذلك يتضح أن فرعون مصر أخذ يظهر لرعيته على غير عادته ، فقد شغلته الملاهى الدنيوية حتى صار القصر الملكى ملكا للرعية وصار اسم الملكة يظهر بجانب اسم الملك على المستندات الرسمية جميعها رغما من انقطاع صلة الملكة بالبيت الفرعونى . ولما توثقت العلاقة بين مصر والبلاد الأسيوية اضطر فرعون مصر أن يعدل عن مركزه الإلهى الدينى الذى لا يتناسب إلا مع الذهن المصرى القديم ، فظهر بمظهر آدمى اعتيادى فى مزاج ملوك بابل ومتانى فاعتبره هؤلاء الملوك "أخا" لهم ولذلك أصبح مركز فرعون مخالفا تماما لمركزه القديم السالف الممتاز بالعكوف عن الرعية . ولا غرابة فى ذلك فصيد الأسود والثيران وغيرها أبعد عنه كثيرا من الصفات الإلهية التى توهمها قومه فيه ، وقد شبه هذا الانتقال المدهش فى صفات الفراعنة بتدوين امبراطور الصين أو حاكم التبت أعمالها الشخصية على عدة "مداليات" تعطى للرعية . لكنه يلاحظ أن أمنحتب الثالث لم يتجرد تماما من العوائد القديمة المتبعة فقد شيد معبدا بمنف كان يعبَد فيه[3] وكبر معبد صلب (Soleb)[4] حيث عبد فيه آمون ، وكانت زوجته تعبد فى معبد سدنجه بالنوبة . لذلك كان أمنحتب الثالث إله النوبة

---

(1) ٢ : ٨٦٢ – ٤ (2) ٢ : ٨٦٥ (3) ٢ : ص ٣٥٤ – ملاحظة (أ) (4) ٨٩٣ ملاحظة



شكل ١٣٠ — عمد صحن معبد أمنحتب الثالث الذى لم يكمل بناؤه . وكان يجب أن يقام على جانبي هذا الصحن صحنان آخران ذوا أعمدة صغيرة . أما الحائط القصير المقام على جانبي هذا الصحن فقد شيده خلفاء إخناطون الذين عجزوا عن اتمام مشروعه العظيم

مع اقلاعه عن الأصول المتبعة القديمة فى القصر الملكى والديانة . ولم نتأكد للآن اذا كان هذا التغير الحديث، الذى لا بد أن يتعارض يوما ما مع حرص البلاد الشرقية على أنظمتها القديمة، أتى قصدا أو عفوا .

والمعروف أن الأمور سارت فى مجراها المريح لكن عوامل النزاع أخذت تعمل طى الخفاء ، كما أن الخطر الخارجى الذى هدد كيان المملكة المصرية أخذ يتجسم على غير علم من فرعون ، ولذلك كان مركز أمنحتب الثالث بطيبه وقتئذ أشبه شيء بمركز القياصرة . وفى السنة الثلاثين من حكمه احتفل بعيد تعيينه وليا لعهد المملكة المصرية وقد وافق هذا التاريخ ميعاد جلوس جلالته على العرش أيضا ، ويظن أن المسلتين اللتين أقيمتا أمام معبده صنعتا خصيصا لذلك الاحتفال . ومما زاد الاحتفال عظمة وجلالا ما قدمه رئيس المالية للملك من المقادير الجسيمة لدخل المستعمرات الممتدة من النوبة الى النهرين وقد نعته الرئيس المالى بقوله " ان الدخل هذا العام أكثر من دخل كل سنة سابقة " وقد قابل الملك هذا الخبر بملء الارتياح . ثم أمر باستعراض موظفى ديوان المالية وأنعم عليهم بالهدايا الجزيلة[1] . ومر احتفال السنة الرابعة والثلاثين بدون اضطراب . بعد ذلك احتفل بعيد السنة السادسة والثلاثين وكانت تتجلى فيه مظاهر الكمال ، ولم تمنعه شيخوخته من الاشتراك شخصيا فى الاحتفال ومقابلة مهنئيه وأعيان مملكته[2] .

فى ذلك الوقت ظهرت اضطرابات فى جهات المملكة الشمالية تتلخص فى أن ملك خيتا (الحيثيين ؟) غزا مملكة متانى ثم ان ملك الأخيرة المدعو دشراتا أرسل قوة الى خيتا حاربتهم وهزمتهم . بعد ذلك أهدى دشراتا جلالة أمنحتب الثالث عجلة وجوادين وأسيرين من الغنيمة التى استولى عليها من جيش خيتا[3] . والمعروف أن الاضطرابات لم تقتصر على ذلك بل شملت أيضا بعض المستعمرات المصرية، فقد ورد أن أكزى (Akizzi) ملك قطنا (Katna) أى حمص ؟ الوالى المصرى أخبر أمنحتب الثالث أن جيوش خيتا توغلوا فى قسمه بوادى الأوزونط واستولوا على تمثال آمون رع المنقوش عليه اسم أمنحتب الثالث وأحرقوا المدينة عند رجوعهم[4] . وجاء أيضا أن ملك مقاطعة نوخاشى الشمالية (حلب ؟ Nukhashshi) المدعو حدد نيرارى (Hadadnirari) أرسل الى أمنحتب الثالث خطابا يستشيره فيه لحماية مصر من هجمات الحيثيين الذين غزوا بلاده معلنا فى الوقت نفسه ولاءه وخضوعه لفرعون مصر[5] . والمعروف أن هذه الاضطرابات كلها حصلت من عدم اخلاص الولاة لمصر لأنهم اتبعوا طرق الخيانة وطمعوا فى أرض المقاطعات المجاورة ليضموها الى مقاطعاتهم كما يستنتج ذلك من أعمال والى مصر المدعو أزيرو (Aziru) ووالده المدعو أبداشيرتا (Abdashirta) فقد كانا رئيسين لحركة ثورية كبيرة زحفت شمالا واستولت على قطنا ونوخاشى من الجنوب ودمرت البلاد التى مرت بها . وقد اشتركت معهما فى هذه الاجراءات المخلة بالنظام مقاطعات أخرى هددت مقاطعة دمشق المعروفة وقتئذ

(١) ٢ : ٨٧٠ – ٨٧٢ (٢) ٢ : ٨٧٣ (٣) خطابات تل العمارنة ١٦ و ٢٠ – ٣٧ (٤) شرحه ١٢٨
على الظهر ٢ : ٥ و ١٨ – ٣١ (٥) شرحه ٣٧

باسم أوبى (Ubi) وسرعان ما أخطر كل من أكزى (Akizzi) ملك قطنا ورب دى (Rib-Addi) ملك بيلوس (چبيل) فرعون مصر بتلك الخيانة . بعد ذلك أرسـل أكزى (Akizzi) خطـابا الى أمنحتب الثالث ملتمسا مساعدته هذه ترجمته :

"كما أن دمشق الواقعة فى مقاطعة أوبى تبتهل الى قدميك لتساعدها كذلك قطنا (حمص؟) تتضرع الى قدميك لتشملها بعنايتك وحمايتك" .

لكن الحالة كانت أخطر مما تصورها فرعون مصر ، فهو لم يتأكد من خبر زحف الحيثيين المذكور لأنه على أثر هذا النبأ أرسل أكزى خطابا الى أمنحتب الثالث هذه ترجمته :

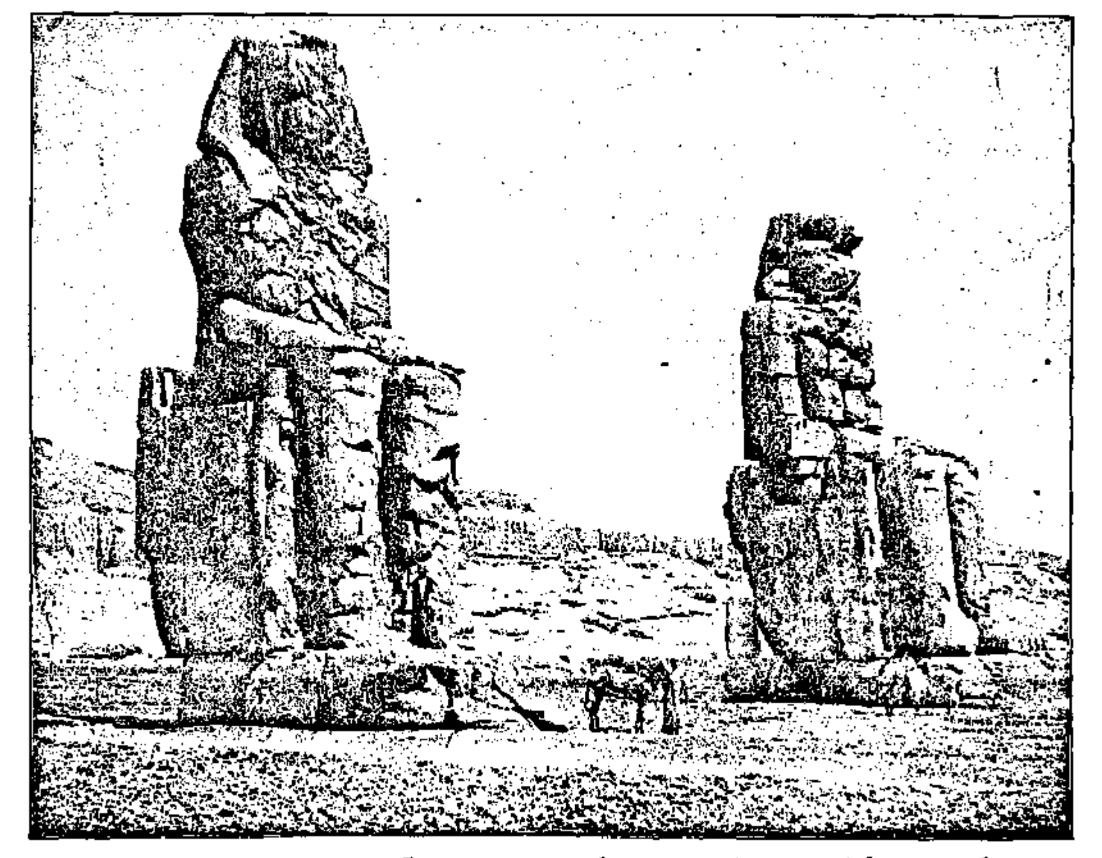
"بقدر محبتى لك أيها الملك . . . . . ان ملوك نوخاشى (حلب ؟) ونى (Niy) وسنزار (Senzar) وكيناتات (Kinanat) تحبك أيضا ، كيف لا وهم كلهم خدم جلالتك" .

أمام هذه الأقوال لم يزحف أمنحتب الثالث بجنوده شخصيا الى تلك الجهات كما فعل تحوتمس الثالث بل اكتفى بارسال جنوده ؛ وقد تمكنت هـذه القوة أولا من اخضاع الثوار بسهولة بمساعدة أهالى البلاد التى كانت تحت الخطر الحيثى[١] . لكن هذه القوات المصرية لم تتمكن من مكافحة الحيثيين بجهـة بلاد النهرين جنوبا حيث استولوا على مركز حربى غاية فى الأهميـة وقت هجومهم على سوريا . ولا يخفى أن طول غياب ملك مصر عن سـوريا قلل كثيرا من هيبته هناك ، زد على ذلك أن الاضطرابات لم تسكن طويلا بل بدأت بالظهور فعلا جهة صيدون (صيدة) بعـد ما تركها أمنحتب الثالث راجعا الى مصر . ومما زاد الطين بلة أن بدو الصحراء الأسيوية المدعوين بالخابيرى (Khabiri) أغاروا على سوريا وفلسطين كعادتهم القديمة لكن غارتهم هـذه المرة كانت سلمية أشبه بهجرة . من ذلك يتضح لنا أن مستعمرات مصر الأسيوية أضحت فى خطر عظيم قبيل وفاة أمنحتب الثالث ، ونستدل على ذلك من خطاب رب أدى (Rib-Addi) والى چبيل (بيلوس) الذى أرسله الى ابن أمنحتب الثالث إخناطون هذه ترجمته :

"منذ رجوع والدك من صيدون (صيدة) — منذ ذلك الوقت — وقعت البلاد فى أيدى البدو الخابيرى (Khabiri)" [٢] .

فى مثل هذه الظروف العصيبة توفى أمنحتب الثالث الذى يحق لنا أن نلقبه "بالملك المجيد" . وقد أرسـل ملك متانى الى خليله تمثـال إشتار (Ishtar) إلٓه نينوى للمرة الثانية يأمل طرد الأرواح الخبيثة الحالة به واسترجاع قوته وصحته السابقتين[٣] . ومن دواعى الأسف أن هذه الطريقة لم تفده فنفذ القضاء ارادته فى "الملك المجيد" حوالى عام ١٣٧٥ قبل الميلاد بعد ما حكم حوالى ست وثلاثين سنة على عرش مصر ودفن مع آبائه الفراعنة العظام بوادى مقابر الملوك بطيبه .

(١) شرحه ٨٣ و ٢٨ — ٣٣ و ٩٤ و ١٢ — ١٨ (٢) شرحه ٦٩ و ٧١ — ٧٣ (٣) شرحه ٢٠



شكل ١٢١ – تمثالان ضخمان من الحجر الرملي يمثلان أمنحتب الثالث ويعرفان الآن بتمثالي ممنون . ويقع هذان التمثالان في سهل طيبه الغربي وكانا محاطين قدما بمعبد كبير خاص لتقديم القرابين واقامة الصلوات لأمنحتب الثالث . لكن لما حكم منفتاح هدم المعبد . وتشاهد خلف التمثالين صخور طيبه الغربية حاوية كثيرا من المقابر القديمة

الفصل الثامن عشر

ثورة إخناطون الدينية

قلما احتاجت أمة فى محنتها الى حاكم قوى احتياج مصر اليه بعد موت أمنحتب الثالث . ومن دواعى الأسف أنها رزقت فى هذه المحنة بملك خيالى فيلسوف لا يليق لمكافحة الخطر الذى يتطلب رجلا ذا شكيمة قوية ومواهب حربية كبيرة مثل تحوتمس الثالث . وليس بخاف أن أمنحتب الرابع ابن أمنحتب الثالث والملكة تى كان قويا شجاعا فى بعض الأمور لكنه عجز عن فهم خطورة الحال فى أمور أخرى . وقد ألمعنا سابقا الى الخطر المحدق الذى اعترض هذا الملك عند ما جلس على العرش المصرى ، ذلك الخطر المركب الذى تطلب خبرة ومهارة بالأمور الأسيوية وأخلاق أهلها وملوكها ، لكنه لم ينظر الى ذلك الخطر الا من الوجهة الفلسفية لأنه كان محاطا وقتئذ بأمه تى وزوجته نفرتتى (Nofretete) — التى يغلب أنها من أصل أسيوى — وكذا الكاهن المحبوب آى (Eye) زوج مرضعه . والمرجح أن الملكتين تى ونفرتتى استعملتا من النفوذ ما جعل لهما مركزا كبيرا فى سياسة الدولة ، فكان أمنحتب الرابع كثيرا ما يظهر لرعيته مصحوبا بزوجته وأمه أكثر مما فعله والده قبله . والظاهر أن آراء هذا الملك الفلسفية وتخيلاته العالية العظيمة التى ميزته على سواه من الملوك قابلت صدرا رحبا من الملكتين تى ونفرتتى ، ومن ذلك يتضح لنا أن المملكة المصرية التى كانت فى أشدّ الحاجة الى رجل سياسى محنك قادر على تسهيل مصاعبها رزئت بملك شاب كثير التعلق بكاهن وبملكتين عظيمتى المواهب الفكرية . ومن دواعى الأسف أن هؤلاء الأخلاء الثلاثة لم يفهموا مليكهم خطورة الحالة وما يقتضيها حلها من الاستعداد والاسراع ، فبدلا من أن يحشد الملك الجيوش ويرسلها الى بلاد النهرين التى كانت فى أشدّ الحاجة اليها انغمس فى الأمور الدينية والفلسفية قلبا وقالبا ظنا منه أن ذلك أهم بكثير من المحافظة على جميع المستعمرات الأسيوية ، ومن ثم أصبح لهذا الملك مركز ظاهر وشخصية بارزة بين ملوك العالم على توالى الأجيال وصار أعظم الفراعنة فلسفة وأكبر الملوك شخصية على مدى التاريخ البشرى .

وبديهى أن علوّ شأن الامبراطورية المصرية وارتفاع منزلتها بين العالم لم يقتصر على مظاهر الحياة الخارجية كالعادات والأخلاق والثروة واتقان الحرف ووسائل الجمال ، بل شمل أيضا رقى الفكر وحدّة الذهن . ومعلوم أن هذا الرقى والتقدّم الفكرى كان متجها غالبا منذ أقدم العصور الى الأمور الدينية لا الى الأمور الدنيوية . وقد شاهدنا أعراض هذا التقدّم بين كهنة مصر قبل غزو مملكتهم للبلاد الأسيوية فقد فسروا معبوداتهم وقتئذ بأساليب خرافية وفلسفية كما فعل اليونانيون فى أواخر تاريخهم وأوجدوا المعانى والمجازات الفلسفية لتلك الخرافات مما لم يكن معروفا فى العصور الغابرة .

فأصبحنا نرى مركز المعبود وصفاته مفهومة ضمنا من قرائن أخبار الخرافة الدينية الخاصة به ، فالمعبود بتــاح (Ptah) مثلا كان معتبرا سابقا إله العمارة والصناعة الذى يرجع اليه فى كل التصميمات البنائية والصناعية تصوّره كهنته بعد ذلك رئيس مصنع معبده بمنف حيث كانت تصنع التماثيل الجميلة والأدوات البديعة وهدايا المعابد العظيمة ، بعد ذلك تخيلوه بمنزلة أكبر من ذلك فتصوّروا المعبد مثالا للعالم فأصبح بتاح فى اعتبارهم رئيسا لصناع العالم أو بعبارة أخرى صاحب كل الترتيبات والتصميمات البنائيــة والصناعية ، ثم علا مركزه فى أعين الكهنة فاعتبروه القوّة الفكرية المحرّكة لكل ما يجرى فى هذا الكون فنسبوا اليه فكرة خلق هــذا الكون وقالوا انه اذا أراد شيئا قال له كن فيكون . بعد ذلك اعتبروا المعبودات والأهالى فى هذا العالم وما يصنعونه نتيجة فى الأصل لوحى هذا المعبود ، وقد أنشأ أحد كهنة هذا المعبود قصيدة قصيرة أوضح بها كيفية رقى هذا الفكر الدينى اليك ترجمتها :

"بتاح العظيم فؤاد ولسان المعبودات ......

بتاح هو المعبود الذى يبدأ منه الحجا والمنطق ،

فكل ما يصدر من ذهن أو فهم المعبودات أو الأهالى أو الحيوانات أو الأفاعى أو جميع المخلوقات المفكرة والآمرة هو نتيجة ارادة هذا المعبود (بتاح) .

....

فالفؤاد هو الذى يخرج كل نتيجة ناجحــة الى حيز الوجود .

أما اللسان فهو الذى يفسر ما يجول بالفؤاد .

وأما المعبودات فقد أوجدها الفؤاد فى زمان كانت كل مملكة مقدّسة يصدرها الفؤاد عن طريق اللسان"[1] .

واستعمل المصريون كلمة "قلب" بمعنى "الفؤاد" كما استعمل ذلك أيضا العرب والعبرانيون وبعض الأوربيين ، لكن هنــاك وجها للخلاف بسيطا يتلخص فى أن المصريين اعتبروا القلب والأمعاء مركز الفؤاد خلافا لسواهم من الأمم . وبديهى أن هــذه الأفكار الدينية والفلسفة العقلية لم تنحصر فى أفراد الكهنة بل ظهرت أيضا بين كبار القوم . خذ مثلا ما أورد إنتف أمين قصر تحوتمس الثــالث على شاهد قبره الحجرى من أن رقيه وعلو منزلته كان نتيجة اطاعته العمياء لما يوحيه اليه ضميره . قال إنتف ان الناس تحدّثوا "بأن ما يجول بالصدر وحى من الإله[2]" وقد استعمل فى هــذا التعبير كلمة "صدر" بمعنى اللب ، وقد يستعمل بدل "صدر" لفظ "البطن" أو "المعى" فى هــذا المقام باعتبار هــذه الأعضاء مركزا للفؤاد ، وعليه فقد اعتقد المصرى بوجود قوّة مدبرة مهيمنة على المخلوقات والمعبودات جميعها وأن هذه القوّة اذا أرادت تغيير الكون تقول له كن فيكون . وبديهى أن هذه الآراء نواة الايمان المعروف عند الغربيين بعقيدة لوجوس (Logos Doctrine) . ويرجح جدا أن فلاسفة اليونان استمدّوا كثيرا من آرائهم الدينية من المصريين . والمعروف أن هذه

(١) راجع مقالة تؤلف بخصوص هذا النص الهام بمجلة Zeitschrift für Aegyptische Sprache XXXIX, 39 ff.

(٢) ٢ : ٧٧٠

التطورات الفكرية لم تقتصر على معبود واحد بل شملت أيضا سائر المعبودات . وأنها أيضا قديمة يرجع تاريخها الى وقت اقتصار المملكة المصرية على وادى النيل لما كانت آراء القوم بمعبوداتهم خاصة بما هو موجود بالقطر المصرى دون سواه . والرأى السائد أن المعبودات حكمت مصر قبل البشر ثم أتى الفراعنة فورثوا الملك عن المعبودات ، لذلك لم تتعد آراء المصريين الخاصة بمعبوداتهم حدود وادى النيل من البحر الأبيض المتوسط حتى الشلال الأول . فلما اتسعت حدود المملكة المصرية فى عهد الامبراطورية اتسعت أملاك المعبودات فى نظر القوم حتى وصلت الى حدود مستعمرات النوبة وسوريا . وبعبارة أخرى أن نفوذ المعبودات المصرية امتد جنبا الى جنب مع سيف فرعون الظافر ، ولذلك اعتبر الأهالى فرعونهم الشخص "الذى يرجع العالم للإله الذى أنعم عليه بالعرش الفرعونى"[1] . وساد الرأى بين الفراعنة والكهنة أن هذا العالم كله ملك خاص للمعبود فكان هذا سببا فى نقش جميع أخبار حروب الفراعنة على جدر المعابد والهيا كل بشكل هندسى وتحيط النقوش الحربية بباب المعبد[2] . وتتلخص العقيدة الدينية الرسمية فى أن "الملك هو الذى يتسلم المملكة من الإله ليسلمها اليه وهو أيضا الذى يطلب الاكثار من المستعمرات لتتسع بذلك أملاك الإله" . بهذه الطريقة امتزجت الآراء الدينية قلبا وقالبا بالتقلبات الدنيوية فاندفعت الحكومة تحت هذا العامل الشديد للتوسع فى الاستعمار والاكثار من الجزية ، وبديهى أن هذه التغيرات هى التى أوجدت فى نفوس القوم وقتئذ فكرة وجود قوة مدبرة خالقة لهذا الكون تتسلم منه جزيته . ولا يخفى أن انتشار النفوذ الفرعونى على الأقطار الأجنبية ساعد كثيرا على إرهاف الديانة المصرية وتوسيع نطاقها ، فبعد ما كان القوم يعتقدون فى عهدهم الخرافى القديم أن معبوداتهم تهيمن على وادى النيل فقط أصبح كهنة عهد الامبراطورية يعتقدون تعميم سيطرة معبودهم على سائر بلاد العالم ، ومن ثم نشأت عقيدة التوحيد . ولا غرابة فى ذلك فقد شاهد هؤلاء الكهنة بلاد العالم خاضعة ومنظمة ومحكومة مائتى سنة تقريبا تحت النفوذ المصرى فنسوا عقيدتهم الدينية القديمة الضيقة وأخذوا يفكرون فى إله عظيم تشمل قوته وسلطته هذا الكون جميعه .

لقد ذكرنا الكثير مما يتعلق باعتقاد الأهالى فى إله الكون لكننا لم نتعرض لذكر اسم ذلك الإله لأن كهنة مصر نحلت صفات هذا الإله لمعبوداتها الكثيرة ، فكهنة منف مثلا اعتقدوا أن بتاح خالق الكون الأعظم ، كما أن كهنة طيبه نسبوا الى معبودهم آمون ألوهية هذا العالم وحجتهم فى ذلك أن آمون معبود الدولة الرسمى ، أما كهنة عين شمس فنسبوا خلق هذا الكون لمعبودهم قائلين ان فراعنة مصر أبناء الشمس (رع) وورثته على الأرض . ولما كانت معبودات أقسام مصر الأخرى معتبرة صورا أخرى لرع نسب كهنة هذه المعبودات المتعددة تأليه هذا الكون لآلهتهم . لكن مركز رع كان أمتن من مركز المعبودات الأخرى خصوصا وأن آمون لم يستول مرة على مركز رع السامى فى القطر . زد على ذلك أن المكاتبات الرسمية لا تزال تبدأ كما كانت من قديم الزمان بالدعاء للمعبود رع حرخوتى (Re-Harakhte) . ويستدل من حكايات القوم وقتئذ أنهم اعتقدوا أن رع حرخوتى

(١) ٢ : ٩٥٩ و ١ و ٣ : ١٠٠٠ (٢) ٣ : ٨٠

هو حاكم هذا الكون . ومع هـذا كله لم يميز معبود فى عهد الامبراطورية على سواه استثناء اللهم الا اذا اعتبرنا أن رع كان له بعض التميز بالنسبة لشدة نفوذ كهنته ، لكنه لما أتى عهد أمنحتب الثالث ظهر على الآثار اسم قرص الشمس القـديم وهو آتون مستعملا بدل رع بعد ما كان مهمل الاستعمال ، وقد شوهد هذا الاسم بكثرة فى نصوص ذلك العهد الدينية ، من ذلك أن أمنحتب الثالث سمى سفينته التى ساح بها على بحيرته الجميلة "أشعة آتون"[١] ومعلوم أيضا أن بعض حرسه الخاص كان ينتسب اسميا الى آتون . ويرجح أن هذا الملك شيد معبدا لآتون بعين شمس وأن بعض معـاصريه اعتبروا آتون (أى قـرص الشمس) "المعبود الواحد" الذى لا شريك له .

ومن المؤكد أن فرعون مصر وقتئذ قاوم مصاعب كبيرة فى نشر مذهبه الدينى ، فقد تحتم عليه أن يخوض غمار معارك دينية هائلة مع طائفة الكهنة القوية ذات التاريخ القديم ، كل هذا حصل فى عصر كانت فيه العقائد الدينية أهم ما يحافظ عليه الانسان فى دنياه . ولقد مضى أمنحتب الرابع فى طريقه بلا تردد ولا وجل فنشر مذهبه تحت اسم آتون مدعيا جهرة أن هذا الاسم هو أحد أسماء المعبود رع واليك ترجمة ما قاله بخصوص هذا المذهب :

"هاهى ذه كلمات رع أمامك . . . . لقد علمنى والدى العظيم معناها الحقيق ففهمها قلبى وعرفها وجهى ففقهتها أنا . . . . . ."[٢] .

بهذه الكيفية أسـند الملك مذهبـه الدينى الى رع مدعيا أنه هو الذى أظهر سر هـذه الديانة وجعل نفسه "كاهن آتون الأكبر" متبعا فى ذلك سنة وجود كاهن رع الأكبر "بعين شمس"[٣] لكن يلاحظ أنه على الرغم من وجود بعض العلاقة بين مذهب إخناطون وعبـادة رع فان الأول تعدى اختصاص الثـانى كثيرا بدليل ما جاء على الآثار من استعمال آتون بمعنى "الإله" أو "المعبود" الذى يقابله فى اللغة المصرية القديمة لفظ "نتر" (Nuter)[٤] . وجاء أيضا أن الإله شىء والكوكب الشمسى شىء آخر ، واليك ترجمة تفسير آتون الوارد على الآثار :

"ان المعبود هو حرارة الشمس (آتون)" .

وجاء فى عبارة أخرى "أن هـذا المعبود سيد آتون أى الشمس" ومنه يتضح أن مذهب الملك كان يشير الى إله الحياة المرموز له بالأشعة المنبعثة من الشمس التى تودع الحياة فى المخلوقات ، لذلك رمز لهذا الإله بقرص الشمس ذى الأشعة المنبعثة نحو الأرض ، تلك الأشعة التى تخيلها إخناطون منتهية بأيد قابضة على رمز الحياة . وقد أنجبت أذهان فلاسفة اليونان مثل هذه الآراء المهمة فى مبدأ مدنيتهم لما اجتهدوا فى تفسير الكون وعلاقته بالخالق . نعم ان إخناطون وفلاسفة اليونان الأقدمين جهلوا تماما التأثير الطبيعى والكيميائى الذى لأشعة الشمس على الكون والذى نعرفه نحن الآن ، لكن

---

(١) ٢ : ٨٦٩ (٢) ٢ : ٩٤٥ (٣) ٢ : ٩٣٤ و ١ : ٢ (٤) ٢ : صحيفة ٤٠٧ ملاحظة (٨)



شكل ١٣٢ — منظر جنازة كاهن عظيم من منف مأخوذ عن مقبرته بمنف ، يرجع تاريخها الى الأسرة الثامنة عشرة ، وهي بارزة الرسوم ، ويشاهد في القسم الأيمن بالجزء الأسفل رجال مشيعون الجنازة وهم خلف النعش . ويرى في الجزء الأعلى الخدم يبنون أكواخ المأتم (دار متحف برلين)

هذا لاينفى أن مذهب إخناطون مؤسس على دعامة صادقة مثمرة . والمعروف أن إله إخناطون كان مخالفا لما اعتقده الأهالى وقتئذ لكنهم لم يصعب عليهم اعتناق المذهب فى سائر أنحاء الامبراطورية وفهم معانيه . وهو فى الحقيقة أيسر فهما من معرفة معانى رموز المعبودات المصرية القديمة الصعبة الادراك للغاية (شكل ١٣٩ و شكل ١٤٠) .

ولم يرق فى نظر إخناطون أن يشيد لإلهه معبدا كالمعبودات المصرية الأخرى فصمم فى أوائل حكمه أن يرسل بعثة الى محاجر السلسلة تحت إشراف عدة أمراء لاحضار الأحجار الرملية الجيدة اللازمة من تلك الجهات[١] . واختار أن يقيم معبد آتون فى حديقة آمون التى أنشأها والده بين معبدى الكرنك والأقصر ، فبنى هناك معبدا كبيرا شامخا وحلاه بالرسوم الزاهية البارزة . ثم أطلق على طيبه اسم "مدينة نور آتون" كما أطلق على المعبد المذكور اسم "نور آتون العظيم" . وسمى قدس الأقداس بذلك المعبد "جم آتون" وهو تعبير لا نزال نجهل معناه للآن[٢] . ومع إباحة عبادة المعبودات الأخرى وقتئذ[٣] أضمر كهنة آمون الحقد والطمع وتملكتهم الضغينة لما رأوا جزءا عظيما من أوقاف معبدهم حول الى معبد آتون الذى يجهلونه والذى أخرجه إخناطون الى الوجود . زد على ذلك أنهم منعوا من التدخل فى شؤون الدولة السياسية بعد ما كان رؤساؤهم يعينون فى عهد أمنحتب الثالث رؤساء لمالية الدولة كرئيسهم المدعو يتاح موس (Ptahmose) الذى عين فى منصب وزير الدولة الأكبر . وقد حصل مثل هذا الرقى لكهنة آمون فى عهد الملكة حتشبسوت لما قام رئيس كهنة آمون المدعو حابوسنب (Hapuseneb) بمركز وزير مع احتفاظه بمركزه الدينى ، ومعلوم أن رئيس كهنة آمون كان معتبرا رئيسا لطائفة كهنة الدولة . ويرجح أن هذا التدخل الكهنوتى العظيم فى شؤون الامبراطورية السياسية هو الذى شدد عزيمة إخناطون على انتزاعه من هذه الطائفة ، وعلى كل حال فان الملك لم يكن البادئ بذلك فقد سبقه والده أمنحتب الثالث اليه بأن عين وزيرا لم يكن رئيسا لكهنة آمون خلفا للوزير يتاح موس ، فلما أتى إخناطون كان هذا الوزير الجديد المدعو رع موس (Ramose) فى مركزه فأغدق إخناطون عليه الهدايا الجزيلة[٤] ، لذلك انضم هذا الوزير الى الملك وفؤاده مفعم بالاخلاص كما انضم اليه غيره من كبار الدولة فعهد اليهم الملك فى الاشراف على بعثة الأحجار اللازمة لبناء معبد آتون . لكن طائفة كهنة آمون كانت قوية وغنية حتى أنها مرة عينت تحوتمس الثالث ملكا على مصر بنفوذها ، فلا يستبعد حينئذ أن يتعين أفرادها مثل هذه الفرصة فيعزلون هذا الفيلسوف الشاب ويكيدون له بلا تردد . قد يكون هذا حقيقيا لكن المعروف أن أمنحتب الرابع لم يكن فردا عاديا بل كان سليل بيت المجد والشرف صعب المراس قوى الشكيمة عنيدا صلب الارادة . وقد وجد له معاضدين كثيرين مثل كهنة منف وعين شمس الذين شجعوه على القضاء على عبادة آمون التى لم تعرف فى شمالى مصر الا منذ عهد المملكة الوسطى . على أثر ذلك تولد النزاع الذى أدى الى حرب انتهت بسحق آمون . واستحال على إخناطون

(١) ٢ : ٩٣٥ (٢) ٢ : صحيفة ٣٨٨ ملاحظة (ب) (٣) ٢ : ٩٣٧ (٤) ٢ : ٩٤٤–٩٤٧

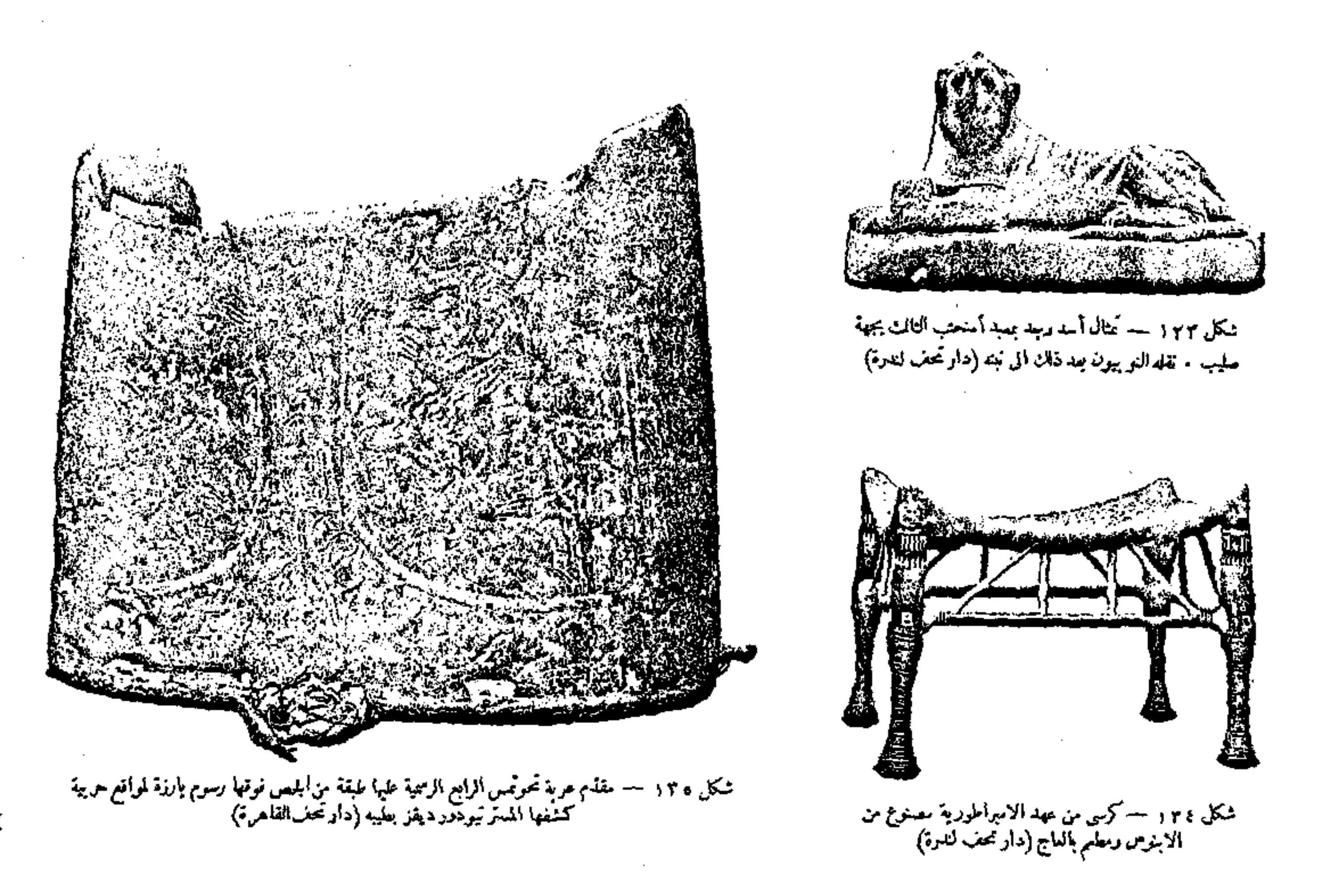
بعد ذلك أن يعيش فى طيبه فصمم بعــد بناء معبده الجديد أن ينفصل تمـاما عن عبادة آمون وأن يجعل آتون إلَه الامبراطورية الوحيـد الحقيق . فأخذ ينفذ تصميمه بسرعة ظـاهرا و باطنا فأمر الحكومة بوضع يدها على أملاك الكهنة جميعا بمـا فيها من أملاك كهنة آمون و بالامتناع عن التدخل فى عبادة المعبودات على اختلافها ومحو جميع أسماء هذه المعبودات من جميع الآثار الموجودة وقتئذ . وقد نفذت هذه الاجراءات بحذافيرها و بالأخص ضدّ آمون ، فمحا اسم هذا المعبود من كل شىء حتى المقابر الملكية القديمة بطيبه وجميع التمـاثيل التى نصبها ملوك الامبراطورية فى عزها ومجـدها حول الكرنك وداخله . ثم محا من تمـاثيل أجداده ووالده كل ما له علاقة بآمون بدون مراعاة لكرامتهم ومنزلتهم السابقـة . ثم محا اسم والده أمنحتب من معابد طيبه كلها لاشتمـاله على اسم آمون وذلك منعا لظهور اسم هــذا المعبود فى الأمكنة الرفيعة بالمعابد . ولا يزال اللوح الحجرى البديع الذى أقامه أمنحتب الثالث[1] فى معبده بطيبه وعليه ذكر العمارات التى شـيدها لآمون شاهدا على شدّة حنق أمنحتب الرابع على هذا المعبود فقد طمس نقوش الحجر بلا رأفة حتى تعسرت قراءتها . ثم أمر بمحو لفظ معبودات من الآثار المصرية كافة ومن جدر معابد طيبــه وبذل مجهودا عظيما فى ذلك[2] ولمـا لاحظ أن اسم "أمنحتب" يعنى "آمون الطيب" كره سماعه وكره نقشه على الآثار فاستبدل به "إخناطون" يعنى "روح آتون" .

على أثر ذلك أصبحت المعيشة بطيبه غير متيسرة لكثرة أتباع مذهب آمون القـديم بالرغم من الاجراءات التى اتخذها إخناطون لابادة هـذا المذهب فكان الملك اذا ألقى بنظره على شاطئ طيبه الغربى وجد مقابر ومحاريب آبائه وأجداده فى حالة دمار وخراب أثر حملته الشنيعة عليها. زد على ذلك أن صروح الكرنك ومسلاته الشامخة كانت تذكره دائما بمذهب أجداده وما فعلوه لاعلاء شأن آمون. وأدهى من هذا وذاك ما كان يجول فى نفس إخناطون من الألم كلما رأى معبد والده العظيم الذى أقامه بالأقصر لاعلاء شأن آمون والذى لم يتم بنـاء صحنه قبل وفاته . كل هــذه العوامل جعلت إخناطون يفكر فى الخروج من هــذا المأزق فصمم على تشييد ثلاثة مراكز لعبادة آتون فى أجزاء الامبراطورية الثلاثة وهى القطر المصرى والنوبة وآسيا ، وأن يكون مركز هذه العبادة بالقطر المصرى حيث يكون عرش فرعون . وقد أنجز الملك هذا المشروع بنجاح رغم ما تطلبه من طول الزمن فأسس معبدا لآتون بالنوبة سماه "جم آتون" بالقرب من الشلال الثالث مقابل بلدة دلجو (Dulgo) الحديثة أى فى وسـط تلك المستعمرة الجنوبيـة[3] وان اسم "جم آتون" يشـير الى وجود بعض الذهـب لمعبد آتون بطيبه . ثم أنشأ بسوريا مركزا لعبـادة آتون لا يزال مجهولا لنا ولا يمكن أن يكون أحط منزلة من معابد أجداده التى شيدوها لآمون هناك . وفى السنة السادسة من حكمه (أى بعد تغيير اسمه الملكى بمدة قصيرة) انتقل الى مركز عبادة آتون بمصر وعاصمة ملكه الجديدة الواقعـة بسفح الجبل

---

(1) ٢ : ٨٧٨ (2) راجع Zeitschrift für Aegyptische Sprache 10, 109-110 and 11 p. 386 note b

(3) ٢ : صحيفة ٢٣٨ ملاحظة (ب) وأيضا كتابى المسمى Monuments of Sudanese Nubia. المطبوع بشيكاجو عام ١٩٠٨ ، صحيفة ٥١ — ٨٢



شكل ١٢٣ — تمثال أسد وجد بمعبد أمنحتب الثالث بجهة صليب . نقله النوبيون بعد ذلك الى نبته (دار تحف لندرة)

شكل ١٢٤ — كرسي من عهد الامبراطورية مصنوع من الابنوس ومطعم بالعاج (دار تحف لندرة)

شكل ١٢٥ — مقدم عربة تحوتمس الرابع الرسمية عليها طبقة من الجص فوقها رسوم بارزة لمواقع حربية كشفها المستر تيودور ديفز بطيبه (دار تحف القاهرة)

على بعــد مائة وستين ميلا جنو بى الدلتا وثلثمائة ميل تقريبا شمــالى طيبــه . فى هــذا المكان تبتعد سلسلة الجبال الشرقية عن نهر النيل بما يقرب من ثلاثة أميال ثم تقترب منه بعد ذلك شمالا وجنوبا بعد مسافة طولها خمســة أميال ، ومن هذا الوصف يتضح لنا أن هذه البقعة كانت محاطة بسلسلة جبال من ثلاث جهات أما الجهة الغربية فكان يحدها نهر النيل. وقد اختار إخناطون هذا المكان مركزا لعبادة آتون وسماه "آخت آتون" (Akhetaton) — أى سماء آتون — ويعرف الآن بتل العمارنة . وأصدر أمره بضم الأراضى القريبة من ذلك المكان شرقى النيل وغربيه الى أوقاف آتون وعين حدود تلك الأراضى بأربعة عشر حجرا لم نهتد إلا على واحد منها (شــكل ١٤٠) وهــذا الحجر لا يقل طوله عن ست وعشرين قدما وهو منحوت فى الصخور الجبلية ومنقوش بنصوص توضح حدود الأراضى المقدســة حول هذه المدينة[1] . يتضح من ذلك أن هذا المكان كان فسيحا يبلغ عرضــه من الشمال الى الجنوب حوالى ثمــانية أميال ويتراوح طوله بين جبال الشرق والغرب بين اثنى عشر وسبع عشرة ميلا،وقد عثر على القَسَم الملكى الخاص بهذا المكان منقوشا على أحجاره الشمالية والجنوبية هذا ترجمته :

"رفع جلالته يده الى السماء نحو خالقه آتون قائلا: هذا قسمى الأزلى وهذا شاهدى الأبدى.هذا الحجر يعين حدود الأرض. . . . . لقد شيدت "آخت آتون" لتكون مسكنا لوالدى . . . . وأظهرت حدود "آخت آتون" الجنوبية والشمالية والغربية والشرقية . ولن أتعدّى حدود "آخت آتون" الجنوبية متجها نحو الجنوب كما أننى لن أتعدى حدود "آخت آتون" الشمالية سائرا نحو الشمال. . . . . لقد صنع الاله دائرته هذه لنفسه وجعل فى وسطها مذبحه الذى أقدم عليه القرابين لأجله[2] .

ولم نعرف للآن معنى عبارة "عدم تعدّى الحدود الجنوبية والشمالية" ويظن البعض أن المقصود بها مجرد الايضاح لحدود المركز الأربعــة وأن هــذا تعبير بينه المــالك اعترافا بعدم تملكه للأراضى الخارجة عن حدوده ، وأجاز بعضهم كون ذلك قسما القصــد منه عدم مغادرة ذلك المركز . وعليه فلا يبعد أن يكون إخناطون قد أمضى باقى حياته فى "آخت آتون" وعلى كل حال فالمعنى الأصلى للعبارة لا يزال غامضا . وليلاحظ أننا لم نعثر للآن على شواهد حجرية مبينة لحدود الأراضى تحتوى على مثل هذه الصيغة القسمية. وقد وقف جلالة الملك ذلك المكان على آتون بأمر ملكى هذا ترجمته:

" هذا الاقليم المبين الحدود الممتد . . . . من سلسلة الجبال الشرقيــة الى سلسلة الجبال الغربية المقابلة "لآخت آتون" تابع لوالدى "آتون" معطى الحياة الى الأزل. وكل الجبال والصخور والمستنقعات . . . . والتــلال والغيطان والمياه والمدن والشواطئ والأهالى والأغنام والأشجار وكل مخلوقات والدى "آتون" قد وقفتها على والدى آتون الى الأزل"[3] . وعثر على نقوش فى حجر آخر ذكر فيها أن هذه الأشياء وقفت لمعبد آتون بمدينة "آخت آتون" كقرابين الى أبد الآبدين[4] . ولم تقتصر وقفية آتون على هــذا بل شملت أيضا بعض الأقاليم السودانية [5] وربما شملت سوريا

(١) ٢ : ٩٤٩ – ٩٧٢ (٢) ٢ : ٩٥٤ (٣) ٢ : ٩٦٦ (٤) ٢ : ٩٧٢ (٥) ٢ : ٩٥٧

أيضا وكان القصد من بناء "آخت آتون" انشاء عاصمة جديدة للامبراطورية المصرية لأن إخناطون قال ما ترجمته :

"سيأتى الى هذا المكان عامة الناس من سائر الجهات . وتكون "آخت آتون" الجميلة عاصمة ثانية أقابل فيها كل الرسل والأقوام الوافدين من الشمال والجنوب والغرب والشرق"[١] .

وقد عهد الملك الى المهندس بك (Bek) مأمورية احضار الأحجار من اقليم الشلال الأول لبناء معـابد آخت آتون[٢] التى لا يقل عددهـا عن الثـلاثة[٣] واحد للوالدة الملكة تى وآخر للأميرة بكت آتون — أى خادمة آتون — وثالث للملك نفسه وهو معبد الحكومة الرسمى[٤] . أما قصر الملك وقصور الأمراء فقد شيدت حول هذه المعابد . ووصف أحد الأمراء مدينة "آخت آتون" بقوله :

"آخت آتون بلدة جميلة جدا فهى سيدة المدن فى الاحتفالات وافرة الثروة . تقدم فى وسطها الهدايا للمعبود رع . اذا رآها القلب سارع اليه الفرح ، كيف لا وهى مدينة بديعة جميلة حتى ليخيل الى ناظرها أنها الجنة كثيرة الأهالى . اذا أشرق عليها آتون أغدق عليها أشعته محتضنا (بأشعته) ابنه المحبوب الأزلى سليل آتون واقف الأقاليم على الذى أجلسه على العرش ومرجع الأراضى لخالقها "[٥] .

ولمـا وصل أول دخل من أوقاف معبد آتون الى مدينة "آخت آتون" احتفل لذلك إخناطون احتفالا عظيما وركب عجلته فى موكب فخم مصحوبا بكريماته الأربع وكبار دولته ، فقابلهم القوم عند معبد آتون بهتاف عظيم وصياح "أهلا وسهلا" ثم امتلأ المذبح العالى بالقرابين الغالية وغصت حجر المخازن بالدخل العظيم[٦] . وقد اشترك جلالته فى الاحتفال شخصيا[٧] وأنشـدت زوجته أنشودة السلام الى المعبود آتون بصوت رخيم وهى قابضة بيديها الجميلتين على آلتين موسيقيتين (Sistrum)[٨] . وأراد إخناطون أن يعين رئيسا لكهنة آتون وأن يمتنع هو عن القيام بأعباء ذلك المركز فعمل احتفالا كبيرا وقف فى أثنائه على شرفة قصره مصحوبا بزوجتـه ثم استقبل الزوار وأعلن اختيار مرى رع (Merire) الضابط الكبير رئيسا لكهنة آتون واليك ترجمة خطابه الرسمى :

"استمع لى يامرى رع ! لقد عينتك بدلا منى رئيسا لكهنة آتون بمعبد آتون بمدينة آخت آتون . لقد أنعمت عليك بهذا المركز قائلا " انك ستعيش من خيرات فرعون سيدك فى معبد آتون"[٩] .

وقد قام مرى رع بهـذه المهمة خير قيام وكافأه الملك على ذلك بالذهب مكافأة علنيـة جريا على عادة الفراعنة الأقدمين نحو خدمهم المخلصين . وقد عثر على نقوش ورسوم فوق أحد أبواب المعابد تشير الى أن الملك كان مصحوبا بزوجته وكريمتيه لمـا أعطى مرى رع مكافأة الأمانة والاخلاص وأن جلالته خاطب الحاضرين وقتئذ قائلا :

---

(١) ٢ : ٩٥٥ (٢) ٢ : ٩٧٣ ملاحظة (٣) ٢ : ١٠١٦ — ١٠١٨ (٤) شرحه (٥) ٢ : ١٠٠٠
(٦) ٢ : ٩٨٢ (٧) ٢ : ٩٩٤ و٢ : ١٧ — ١٨ (٨) ٢ : ٩٩٥ و٢ : ٢١ ملاحظة (٩) ٢ : ٩٨٥



شكل ١٣٦ — تمثال يوضح الهيئة الملكية فى عهد الامبراطورية
(دار تحف القاهرة)



شكل ١٢٧ — صورة لتمثال امنحتب بن حبى
(دار تحف القاهرة)



شكل ١٢٨ — صورة بط عائم بين زهر اللوطس . وهى قطعة من أرض قصر أمنحتب الثالث بقرب طيبه
(مأخوذة من تيتوس)

"أغدقوا عليه الذهب فوق الصدر والظهر والرجلين فقد أطاع كل أوامر فرعون فى الاحتفالات المظيمة التى عقدها جلالته فى هــذه الأمكنة الجميلة بمحراب معبد آتون الذى بناه فرعون بمدينــة "آخت آتون" [١] .

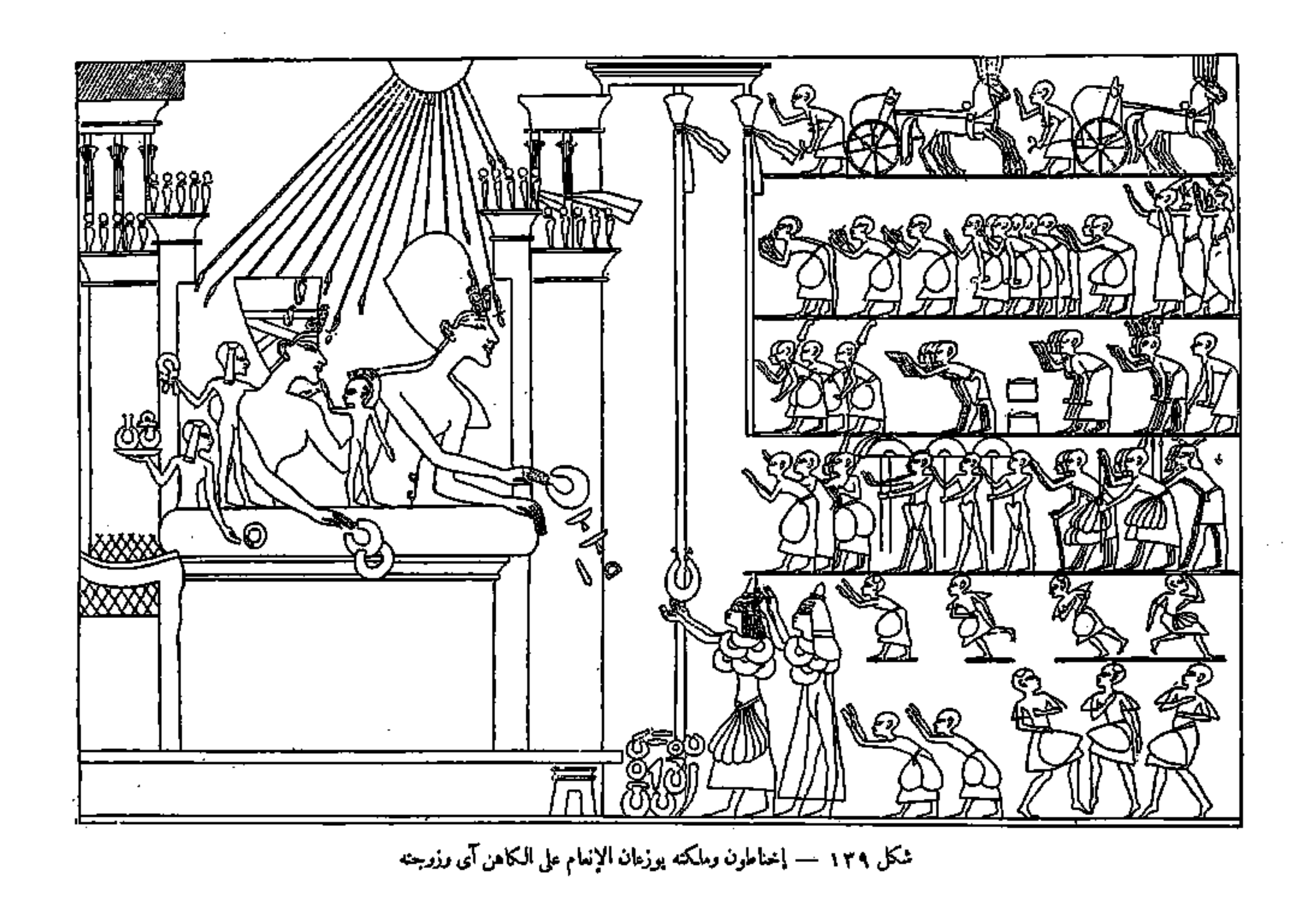
من ذلك يتضح لنــا أن مرى رع أطاع أوامر الملك كلها وقت الصلوات الدينيــة فى "تلك الأمكنة الجميلة" بمعبد آتون . وقد أخذت البراهين الواحد تلو الآخر تدل على أن الترتيبات والمشروعات جميعها التى عملت بمدينة "آخت آتون" والمجهودات التى بذلت لاعلاء شأن آتون الدينى كانت من مبتكرات إخناطون نفســه . ولا غرابة فى ذلك فالملك الذى لا يتأخر لحظة عن محو اسم والده عن آثاره رغبة فى محو عبادة آمون (عدوه اللدود) لا بد أن يكون قوى العزيمة شديد البأس لا يتردد أبدا فى انجاز مشروعاته واجبار أكابر مملكته على الانقياد لأوامره . وقد عرف إخناطون جيدا من تاريخ أجداده أن اســداء العطايا والمكافآت لأمثــال مرى رع أمر ضرورى للتفانى فى خدمته كما يرغب ويشتهى (شكل ١٣٩) [٢] . وجاء فى رواية كاهن آتون المدعو آى الذى كان يعتنى بجياد إخناطون والذى أسعده الحظ بعــد ذلك بالاقتران بمربيــة الملك أن جلالة الملك ضاعف له العطايا الفضيــة والذهبية . وقد خاطب هذا الكاهن جلالة الملك قائلا "ما أكثر سرور الرجل الذى يدين بدينك ، فهو فرح كلما يحظى بمشاهدتك الى الأزل" [٣] . وأغدق جلالته الهدايا أيضا على قائد الجيش المدعو ماى (Mai) بمثــل السخاء الذى جاد به على آى حتى افتخر هــذا القائد قائلا لقد ضــاعف (أى إخناطون) لى الهــدايا بعدد الرمال ، بجعلنى رئيس الموظفين ورئيس الأهالى . لقــد رقانى سيدى لاتباعى سنته واطاعتى كلامه بدون تردد . أى سيدى ! ان عينى تنظر الى محاسنك كل يوم فتبصرك عاقلا مثل آتون متنعما فى العدالة ! ما أسعد المرء المطيع لارشاداتك" [٤] .

لا مشاحة فى أن بعض كبار القوم كانوا يجلون آراء إخناطون تماما ويدينون بها قلبيا . وهناك قوم آخرون تظاهروا بذلك فقط مدفوعين الى ذلك بعوامل "الخبز والسمك" على رأى قدماء المصريين .

ولما كان أعظم ما يهبه فرعون لأفراد رعيته أن يحفر لهم مقابر فى صخور الجبال الشرقية ، أمر إخناطون عماله بحفر مقابر بديعة بالصخور الشرقية لكل فرد من أتباعه المخلصين . زد على ذلك أن إخناطون لم يبطل اجراءات الموتى المتبعة من قديم الزمان ، فكان يحتم على كل فرد أن يدفن نفســه فى قبره أو "بيته الأزلى" كما هو معروف عندهم حيث تقدم اليه القرابين بعد وفاته ليعيش منها فى الآخرة[٥] . وتمتاز قبور هذا العهد بخلوها من الرســوم المفزعة الممثلة للزبانيــة والوحوش الضخمة ومن السحر والتعازيم الخاصة بالانتصار على أعداء الآخرة وغير ذلك ممــا نشاهد كثيرا على جدر مقابر طيبه قبل عهد إخناطون . وبديهى أن هذا الاصلاح النفسانى الشريف كان نتيجة مجهودات إخناطون ، تلك المجهودات التى أخفت من الوجود خرافات الكهنة السخيفة من أذهان المصريين الذين انقادوا لها

---

(١) ٢ : ٩٨٧ (٢) راجع شرح شكل ١٣٩ (٣) ٢ : ٩٩٤ و ٢ : ١٦ — ١٧ (٤) ٢ : ١٠٠٢ — ٣
(٥) ٢ : ٩٩٦



شكل ١٣٩ — إخناطون ومليكته يوزعان الإنعام على الكاهن آي وزوجته

أولا أيما انقياد . وبفحص مقابر عهد إخناطون يرى فيها كثير من مناظر الحياة الدنيوية مرسومة على جدرها وهى عادة خاصة ببلدة آخت آتون . أما مقابر كبار موظفى الحكومة فزدانة بالرسوم البديعة الخاصة بالمقابلات الملكية التى حظى بها أصحابها فى دنياهم . وقد استنتجنا من هذه الرسوم معلوماتنا عن أحوال المعيشة بمدينة "آخت آتون" وعرفنا أيضا أن أمراء تلك العصور كانوا كثيرى الغرام برسم مليكهم وعلاقته الشديدة بمذهب آتون ، لذلك كثيرا ما عثرنا فى مقابر هؤلاء القوم على رسم إخناطون وزوجته يعلوهما قرص الشمس آتون الذى تنبعث منه أشعة عديدة تنتهى بأيد حاضنة لجلالة الملك[1] . ومما يجدر ملاحظته أن المعبودة موت (Mut) لم تعد ترسم على الآثار بشكل نسر مرفوف الأجنحة لدفع الأذى عن رأس فرعون كالعادة المتبعة منذ عهد الأسر الطيبية . وكثيرا ما يشاهد الأمراء مرسومين على جدر هذه المقابر متضرعين الى إلههم ليشملهم الملك برضاه قائلين "ان إخناطون خلق من أشعة المعبود"[2] ومخاطبين المعبود بهذه العبارة "أنت الذى خلقته (أى إخناطون) من أشعتك"[3] . وقد كثر استعمال هذه التعبيرات الخاصة بعبادة آتون على آثار تلك العصور بالطريقة التى استعملت بها التعبيرات والتوسلات الخاصة بالآلهة المصرية العتيقة .

من ذلك يتضح أن هم الحاشية الملكية انحصر فى الاعتقاد بمذهب ملكهم والاجتهاد فى فهم معانيه . أما الحفلات الرسمية فأصبحت خلوا من العوائد القديمة والتوسلات الخاصة بالمعبودات العتيقة ، وقد استعيضت عنها مدحة آتون واجلال مذهب إخناطون وغرام الملك بنشر ذلك المذهب . وقد عمت هذه التغيرات فبلغت رؤساء سوريا الذين أكثروا فى كتاباتهم من الالماع الى مذهب إخناطون متظاهرين باتباعه[4] لما لهذا الملك من التأثير الكبير فيهم . وقد اهتدينا الى تعاليم مذهب إخناطون منقوشة على جدر مقابر تلك العصور[5] . وعثرنا بمقابر سراة القوم على أنشودتين وضعهما إخناطون للعبود آتون لتلاوتهما فى المعابد والتوسل بهما فى خلوته . وتعتبر هاتان الأنشودتان أهم ما خلفه لنا التاريخ من تلك العصور لأنهما يوضحان لنا قيمة مذهب ذلك الملك الفيلسوف الذى ضحى بكثير لأجله . وقد لقب هاتان الأنشودتان "بدعاء إخناطون والملكة نفر نفرو آتون (Nefernefruaton) للعبود آتون" وهما يختلفان فى الأسلوب والمقدار . فالأنشودة الطويلة هى أجمل ذوقا وأعذب كلاما وأجدر أن تحفظ ضمن آداب عصرنا هذا . واليك ترجمة هذه الأنشودة بقدر ما يمكن من الدقة ، وقد جعلت لأجزائها المختلفة عنوانين يتمشيان مع معانيها وقارنتها فى الوقت نفسه بما جاء فى المزامير بالمزمور الرابع والمائة ومنه يتضح للقارئ شدة الشبه بين الاثنين من حيث الآراء وتسلسل المعانى :

جلال آتون

بزوغك جليل فى أفق السماء يا آتون يا حى يا مبدئ الحياة !

اذا ما صعدت فى أفق السماء الشرقى أفضت على الأراضى جمالك .

---

(1) ٢ : ١٠١٢ وشكل ١٣٩ (2) ٢ : ١٠٠٠ و ١ : ٥ و ٩٩١ و ١ : ٣ (3) ٢ : ١٠١٠ و ١ : ٢

(4) خطابات تل العمارنة ١٤٩ و ٦ ملاحظة وغير ذلك . (5) ٢ : ٩٧٧ — ١٠١٨

ما ذلك إلا لأنك جميل عظيم، نير فى السموات العليا، تسطع على الأرض وعلى جميع مخلوقاتك بأشعتك .

أنت رع . أنت الذى أسرتهم وقيدتهم بحبك .

أنت بعيد عن الأرض لكنك على اتصال معها بأشعتك .

أنت عال لكن آثارك واضحة فى ضوء النهار .

الليـــل

اذا ما غربت فى أفق السماء الغربى أظلمت الأرض فأصبحت كالميتة .

فيقصد السكان النوم فى حجراتهم مغطى الرءوس هادئى الأنوف غير مبصرين فتسرق أمتعتهم من تحت رءوسهم دون أن يشعروا .

أما الأســود فتخرج من أجحارها وكذا الثعابين اللداغة .

ويسود الظلام (؟) الكون وتسكن الأرض . وما ذلك إلا لأن خالق هذه الأشياء كلها ذهب ليستريح فى أفقه .

تجعل ظلمة فيصـير ليلا فيه يدب كل حيوان الوعر . الأشبال تزمجر لتخطف ولتلتمس من الله طعامها .

(مزمور ١٠٤ آية ٢٠ و ٢١)

النهار والانسان

اذا ما ظهرت فى الأفق وأشرقت فى النهار كآتون أضاءت الأرض .

اذا ما بزغت أشعتك خفى الظلام وشمل الفرح قطرى مصر .

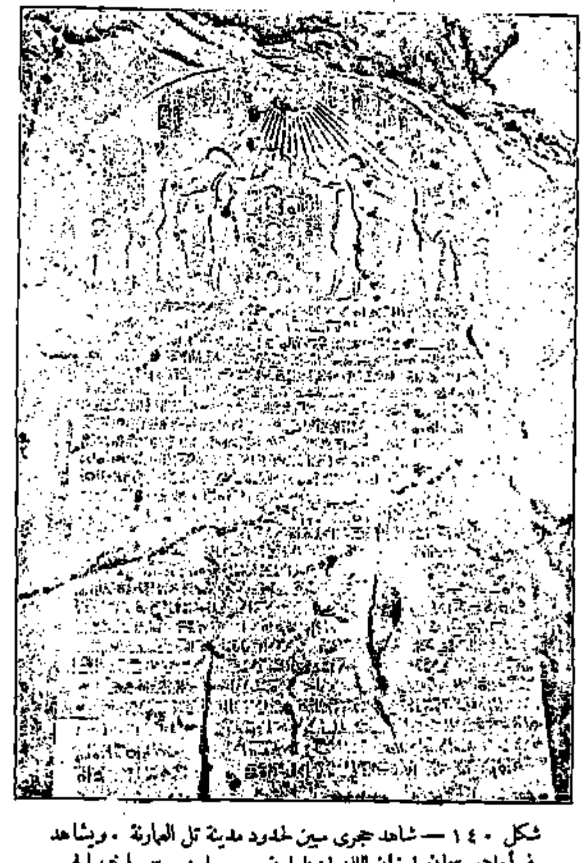
كيف لا وقد أيقظتهـم فيغتسلون ويكتسبون ويبتهلون بأذرعتهـم اليك وقت شروقك ثم يشرع سكان العالم يؤدون أعمالهم .

تشرق الشمس فتجتمع وفى مأويها تربض . الانسان يخرج الى عمله والى شغله حتى المساء .

(مزمور ١٠٤ آية ٢٢ — ٢٣)

النهار والحيوان والنبات

البهائم كلها مستريحة فى مراعيها . والأشجار والنبات جميعها يانعة . والعصافير تخفق فوق المياه ناشرة أجنحتها ابتهالا اليك . والأغنام ترقص على أرجلها . والطيـور تحلق فى الجو تتنسم الحياة اذا ما أشرقت عليها .



شكل ١٤٠ — شاهد حجرى مبين لحدود مدينة تل العمارنة . ويشاهد فى أعلاه رسمان بارزان للملك إخناطون مصحوبا بزوجته وابنتيه الجميع (يعبدون قرص الشمس المنبثة منه أشعة تنتهى بأن تحضن العائلة) الملكية وتقدم لها رمز الحياة



شكل ١٤١ — إخناطون يتقبل الأزهار من زوجته . وأصل هـذا الرسم بارز وملون بالألوان الزاهية . ويستنتج من الرسم أن هيئة رسم الأشخاص التى كانت متبعة فى المملكة القديمة غيرت الآن بالهيئـة الطبيعية الصادقة حتى أنك لترى إخناطون متكئا متا كسلا على عصاه (دار تحف برلين)

النهار والمياه

تسير السفن مع التيار وعلى عكسه . وكل طريق عمومى يصبح مسلوكا لأنك ظهرت فى الأفق . أما السمك فيقفز أمامك فى النهر ، هكذا تخترق أشعتك البحر الخضم .

هذا البحر الكبير الواسع الأطراف ، هناك دبابات بلا عدد . صغار حيوان مع كبار . هناك تجرى السفن . لو ياثان هذا خلقته ليلعب فيه .

(مزمور ١٠٤ آية ٢٥ — ٢٦)

خلق الانسان

أنت خالق الجنين فى أمه . أنت خالق نطفة الانسان . أنت واهب الحياة للجنين فى رحم أمه وملطفه حتى لا يتكدر فيبكى كيف لا وأنت المربى فى الرحم . أنت معطى نفس الحياة كل مخلوقاتك . ... أنت فاتح فم الجنين بالكلام ومعطيه حاجاته يوم تلده أمه .

خلق الحيوان

أنت الذى تهب الحياة للفرخ فى البيضة فيصيح ، فاذا أتممت خلقه ثقب بيضته وخرج منها صائحا جهده واثبا بقدميه .

الخلق عموما

ما أكثر مخلوقاتك التى نجهلها . أنت الإله الأحد ، لا شريك لك فى الملك[1] . خلقت الأرض بإرادتك ، ولما كنت وحيدا فى هذا الكون خلقت الانسان والحيوان الكبير والصغير والمخلوقات التى تدب على الأرض أو تطير بأجنحتها . أنت الذى أحللت كل انسان فى سوريا والنوبة ومصر فى موضعه وأنعمت عليه بحاجاته ، فصار كل منهم يأخذ نصيبه ويعيش أيامه المعدودة . لقد اختلفت ألسنتهم وأجسامهم وجلودهم فسبحانك من مميز لخلقك .

ما أعظم أعمالك يارب . كلها بحكمة صنعت . ملآنة الأرض من غناك .

(مزمور ١٠٤ آية ٢٤)

(١) يغلب فى الأناشيد الأخرى أن تكون هذه الجملة " أنت الإله الأحد الذى لا إله غيره " .

رى الأراضى

أنت خالق النيل فى الدار الآخرة . أنت أوجدته برغبتك فيـه لتحافظ على حياة الأهالى . أنت سيد الجميع لأنهـم ضعاف . أنت سيد كل أسرة لأنك تشرق لأجلها . أنت شمس النهـار المهيب فى الأراضى السحيقة كلها والواهب لها الحياة . خلقت لهم نيلا فى السماء ليسقط عليهم ماؤه فيسيل على الجبال كالبحر الزاخر يروى غيطانهم بين مدنهم .

ما أبدع مشروعاتك أيها السيد الأزلى !

فنيل السماء (مخصص) للغرباء وللدواب من كل البلاد .

والنيل الذى يأتى مصر خاصة يأتيها من الدار الآخرة .

أشعتك تغذى الجنّان . فاذا ما أشرقت أينعت وأنبتت بتأثيرك .

الفصول

جعلت الفصول لتخلق فيها جميع مخلوقاتك ،

فالشتاء يعطيهم البرودة والصيف يهب لهم الحرارة .

أنت الذى رفعت السماء عاليا لتنظر ماخلقت فى وحدتك شارقا حيا كآتون ساطعا متلألئا ثم راجعا ثانية الى حيث ابتدأت .

جمـال الضوء

أنت مبدع الجمال من نفسك .

فالمدن والبلاد والقرى والطرق والأنهر كلها عيون تبصرك أمامها .

كيف لا وأنت آتون النهار فوق الأرض .

تضرعات الملك

أنت فى قلبى ، لا يعرفك سوى ابنك إخناطون الذى جعلته عاقلا بآرائك وقوتك .

العالم كله فى قبضتك كما خلقته .

اذا ما أشرقت (عليه) حيى واذا أفلت مات .

أنت الوجود ومسبب الحياة للانسان .



شكل ١٤٢ — جسم تمثال مصنوع من الحجر الجيرى لابنة إخناطون



شكل ١٤٢ — صورة رأس تمثال لإخناطون جميلة للغاية مصنوعة من الحجر الجيرى أرسلت حديثا الى دار تحف اللوفر بباريس



شكل ١٤٤ — حياة المستنقعات . جزء من رسوم أرض قصر إخناطون بتل العمارنة
(مأخوذة عن بترى)

أعين الخلق تبصر محاسنك كل يوم حتى تغرب . والشعل كله يبطل اذا ما أفلت فى الغرب . فاذا ما أشرقت جعلت كل ذلك ينمو . . . للملك . لقد وهبت العالم منذ خلقته لابنك وسليلك الملك العائش فى الحق سيد الأرضين نفر — خبرو — رع ، وان — رع (ابن رع) (Nefer-khepru-Re, Wan-Re) العائش فى الحق سيد التيجان إخناطون طال أجله . (وأيضا) للزوجة الملكية العظيمة خليلته سيدة القطرين نفر — نفرو — آتون (نفرتتى) (Nefer nefru aton, Nofretete) العائشة والباقية الى أبد الآبدين .

لا شك أن القارئ استنتج من هذا الدعاء أن واضعه كان واسع الاطلاع عالما بالأمور الاجتماعية العالمية من شلالات النوبة الى أقصى حدود سوريا ، معتبرا هذه الأقاليم وحدة لا تتجزأ ، الشيء الذى لم يعتد المؤرخون نسبته الى أهالى القرن الرابع عشر قبل الميلاد . وبديهى أن مثل هذا التغير نتيجة ظهور روح جديدة فى مصر بدل الروح الرجعية العتيقة ، والفضل فى ذلك يرجع طبعا الى إخناطون بدليل ما أوردناه من السطور السالفة التى تشهد له بسمو الذاكرة فى ذلك العهد السحيق . وقد توصل هذا الملك العظيم بثاقب فكره الى معرفة إله العالم خالق الكون والى الايمان برحمته ورأفته بمخلوقاته حتى الحقير منها ، فقد أبصر فى رفرفة أجنحة الطيور بين سيقان اللعلع بالمستنقعات المصرية نوعا من التسبيح لخالقها ، كما تصور قفز السمك فى الغدير حمدا لبارئها . واعتقد هذا الملك أيضا أن الإله الأحد هو الذى يناجى النبات ويغذى الفرخ ويشرف على فيضان النيل الشديد وقد سماه "أب وأم جميع مخلوقاته" ومنه يتضح لنا أن الملك عرف لطف الإله العالمى وحلمه . وأشار الينا إخناطون أن نعتبر بحياة اللعلع ففيها اثبات صدق مذهبه وأن سيادة الإله التامة على كل الشعوب كلها مصحوبة بعطف وحنو أبوى بدون تمييز بين القومية والعنصر . وأظهر جلالته للمصرى المتغطرس رأفة الخالق لشعوبه كلها فذكر سوريا وبلاد النوبة قبل مصر فى تعداد تلك الشعوب . ولا شك أن هذه العقلية الغريبة هى التى جعلت الأثريين يعتبرون إخناطون أقدم رسول معروف فى التاريخ الآدمى . كيف لا وقد كان الملوك السابقون يعتقدون أن الإله الأعظم هو الذى يهب النصر ويسحق الأهالى ويسوقهم حاملين الجزية أمام عجلة فرعون . أما إخناطون فقد رأى فى الإله رأفة ورحمة لخلقه جميعا على السواء ، ويعتبر هذا المذهب أقدم ما عرف من علم التوحيد فى التاريخ . ولا شك أن القارئ لتعاليم هذه العقيدة يتضح له أنها اعتراف صحيح بوحدانية الله وبرحمته ورأفته ووجود سره المكنون فى كل مخلوقاته ، وهذا يتمشى تماما مع الروح الصوفية الموجودة فى هذه العقيدة . واليك ترجمة بعض ما جاء بهذه العقيدة :

"ما أكثر مخلوقاتك المتنوعة ! انها سر مكنون ! أيها الإله الأحد الذى لا شريك له فى الملك !" .

ومع اعتراف إخناطون لحد بعيد بعطف الخالق على مخلوقاته لم ينعته بصفات روحانية وخلقية سوى ما اتصف به آمون من قديم الزمن . زد على ذلك أنه بالرغم من معرفة إخناطون للطف الله بعباده لم يهتد تماما الى معرفة صفة الحق جل شأنه ولا الى رغبته تعالى فى وجود هذه الصفة فى نفوس بنى آدم . وكل ما ذكره إخناطون بهذا الخصوص فى تعاليمه التى وجدت مبعثرة بين الأناشيد ونقوش

مقابر أمراء عصره هو الاصرار المستمر على اتباع "الحق" بمـا لم يكن معروفا سابقا . فقد اعتاد جلالته أن يعقب اسمه بعبارة "العائش فى الحق" مما يشـير الى شدة تعلقه بالحق وهو أمر ثابت من أخبار معيشته اليومية . وامتاز هذا الملك باعتقاده أن المعيشة العادية البسيطة البعيدة عن الكلفة هى أقرب الأمور للحق والصواب وأن كل ما أوجدته الطبيعة هو صواب لا خطأ فيه ، لذلك لم ير هو وأسرته فائدة من الاحتجاب عن رعيته . وكان شفيقا جدا بأطفاله ويظهر فى كل الاحتفالات مصحوبا بزوجته وأعضاء أسرته كأنه كاتب وضيع فى معبد آتون . وقد رسم نفسه وهو يعـامل أعضاء أسرته ببساطة وبدون تكلف . وكان كلما اشترك فى حفلات دينية صاحب زوجته وأطفاله ليشتركوا فيها . كل ذلك لأنه اعتقد أن الطبيعة فطرت على الحق والصواب ، ومن ثم أجهد نفسه فى اعلان صدق هذا الرأى كلما اقتضت الظروف الاقلاع عن عادات أجداده السابقين .

وبديهى أن مثل هـذه التطورات الدينية صحبتها تطورات صناعية فنية . وقد كان إخناطون كثير الاهتمام بالأخيرة ، واليـك ترجمة ما أورده حفـار جلالته المدعو بك (Bek) واصفا نفسـه "بأنه تلقى علومه من جلالة الملك نفسـه" [1] ومنه يتضح أن الحفارين الملكيين تعلموا فنهم على الأسلوب الحديث فى القصر الملكى ، وقد ذكروا هذا معلنين افتخارهم به ، ولذلك بلغت الفنون الجميلة شأوا عظيما فى مشابهتها للطبيعة بمـا لم يكن معهودا سابقا (شكل ١١٩ و ١:٧ و ١:٨) ، فترى الحيوانات مرسومة بحالتها الطبيعيـة الوقتية فالكلب عادٍ والطير محلق فى الجو والثور الوحشى عائم فى المستنقعات (شكل ١٤٤) مما كان يتمشى مع عقيدة إخناطون فى حقيقة الطبيعة وصوابها . ولم يستثن من ذلك التغير فى الرسم جلالة الملك نفسـه فقد رسم جلالته على الآثار حاليا من الكلفة الفرعونية القديمة محافظا على حالته الطبيعية الحقيقية (شكل ١٤١و١٤٢) حتى يخيل الى الناظر فى تلك الرسوم لأول وهلة أنه أمام رسوم من العصر اليونانى (شـكل ١٤٢) . ولم تقتصر هذه الحرية على رسم شخص واحد بل تعدته الى عدة أشخاص فى مجموعة واحدة لأول مرة فى تاريخ الفنون الجميلة المصرية . وقد عثرنا على قطع حجرية بقصر إخناطون بتل العمارنة مرسوم عليها جلالته راكبا عجلته مطاردا أسدا جريحا وهى خطوة صادقة جديدة لم تعرف سـابقا فى فن الرسم لكنها لم تدم طويلا فقد انعدمت من الوجود بسرعة بعد ذلك العهد . وهناك بعض نقط فى رسوم تلك العصور لا تزال غامضة لنا من بعض الوجوه فقد رسمت الأطراف السفلى مثلا متضخمة بهيئة مخصوصة غامضـة المعنى ، وقد فسر ذلك بعض الأثريين بأن إخناطون كان مصـابا بعاهات جسمية كالمرسومة على الآثار ، لكن هذا التفسير لا يوضح جميع أسرار النقط الغامضة . ولا يبعد أن يكون هـذا التغير الجسمى المشاهد فى إخناطون نتيجة مرض ظهرت أعراضه عليه من جراء الانهماك فى أمور الدولة السياسـية . وسنتكلم الآن على نتيجة التطور الفكرى الذى أحدثه إخناطون فى دولته وعلى الرزايا والمصائب التى حلت بالقطر من أجل الاقلاع عن القوانين النافذة القديمة والتقاليد التاريخية العريقة .

---

(١) ٩٧٥:٢

الفصل التاسع عشر

سقوط إخناطون وتفكك عرى الامبراطورية

لشد ما شغل إخناطون بالأمور الدينية والفلسفية مقاوما نفوذ كهنة آمون القوى على توالى الزمن، ثم أدركه العجز عن ممارسة شؤون دولته الخارجية وتقدير التبعة الملقاة على عاتقه، والظاهر أنه لم يحقق خطورة مركزه السياسى الا بعد فوات الفرصة. وتفصيل ذلك أنه لما اعتلى عرش مصر اعترفت مملكة الحيثيين وممالك وادى الفرات بسلطة مصر على آسيا، فأرسل دشراتا ملك أرض متانى خطابا الى والدة إخناطون المدعوة تى طلب فيه منها أن تؤثر فى إخناطون ليحافظ على العلاقات الودية مع متانى كما فعل والده أمنحتب الثالث من قبل[1]. وأرسل دشراتا فى الوقت نفسه الى إخناطون خطابا عزاه فيه بمناسبة وفاة والده أمنحتب الثالث، راجيا فيه أيضا أن يرسل له مقدارا عظيما من الذهب كالعادة المتبعة[2]. وقد أرسل ملك بابل المدعو برابور ياش (Burraburyash) خطاب تعزية أيضا الى إخناطون لكننا لم نعثر عليه، وكل ما اهتدينا اليه هو الاذن بالمرور المعطى لرسول بابل وفيه رجاء من بابل لملوك كنعان بالسماح لحامله بسرعة المرور ببلادهم فى سيره نحو مصر[3]. وكان لبرابور ياش نجل[4] مقيم بقصر إخناطون الملكى اقترن بابنة جلالته فأرسل حموها ملك بابل الى زوجة ابنه كريمة إخناطون هدية ملكية عبارة عن قلادة من الجواهر الثمينة يزيد عدد جواهرها على الألف، وسنرى فيما يلى أن هذا الزواج لم يدم طويلا.

فى تلك الأثناء كانت قوة الحيثيين تنمو وتشتد باطراد فى شمالى سوريا يؤيدها أهالى ذلك الاقليم تحت طئ الخفاء. وللآن لم نعرف أصل الحيثيين بالضبط ولذلك لا يزال أصلهم موضع بحث وتمحيص بين علماء الآثار الشرقية. ويعتبر هذا العهد الذى نحن الآن بصدده أول عهد ظهرت فيه الأمة الحيثية فى تاريخ العالم المتمدين، وقد عثر حديثا على آثار لهؤلاء القوم فى البلاد الممتدة من شاطئ آسيا الصغرى غربا الى نهر الفرات وسهول سوريا شرقا وحماه (Hamath) جنوبا. والمعروف أن هؤلاء القوم غير ساميين مجهولو الروابط العنصرية يرجع تاريخهم الى ما قبل الهجرة الهندية الجرمانيـة التى جلبت معها العنصر الفاريجى (Phrygians) حوالى سنة ١٢٠٠ قبل الميلاد (راجع صحيفة ٣٢٢). ويستنتج من الآثار المصرية أن الحيثيين قوم حلقوا لحاهم وضفروا شعور رءوسهم فلكل ضفيرتان طويلتان مسبلتان أمام أذنيه ومرسلتان الى كتفيه. أما آثارهم فتمثلهم بلحى كثيفة (شكل ١٤٦) لابسين على رءوسهم مغفرة طويلة قصيرة الحافة. أما لباسهم لموافق لبرد

---

(1) خطابات تل العمارنة ٢٢ (2) شرحه ٢١ (3) شرحه ١٤ (4) شرحه ٨ و ٩

بلادهم مصنوع من الصوف الكثيف وهو طويل ضيق ساتر للجسم من الكتفين حتى الركبتين وأحيانا الى الكعبين . ولوحظ أن هؤلاء القوم لبسوا أحذية طويلة بأقدامهم مدببة المقدم . والمعروف عنهم أنهم لم يبرعوا فى حفر الأحجار لكننا عثرنا على كثير منها عظيم الفائدة مبعثرا على تلال آسيا الصغرى (شكل ١٤٥ و ١٤٦) . وأتقن الحيثيون بعض الصناعات المفيدة كصناعة الخزف وعلى الأخص النـوع الأحمر المنقوش الذى انتشر استعماله فى اقليم كابادوسيا (Cappadocia) الى بلاد اليونان غربا وبلاد فلسطين وسوريا شرقا ولاكش (Lachish) وجازر جنوبا . وقد بلغت هـذه المصنوعات جهة جازر حوالى عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد . وامتاز الحيثيون بخطهم الكتابى واهتمامهم به فكان ملوكهم يأخذون معهم كتابهم الخصوصيين فى غدواتهم وروحاتهم [١] ، وتوصل بعض الأثريين الى حل بعض رموز هذا الخط لكنه لا يزال مجهولا فى معظمه . وفى المخاطبات الرسمية كان هؤلاء القوم يستعملون لها الخط المسمارى البابلى ولذلك يرجح أنهم استخدموا عندهم كتبة ومترجمين ماهرين فى خط ولغـة بابل . وقد عثر على كثير من آثار خيتا على شـكل ألواح منقوشـة بالخط المسمارى جهة بوغاز كوى (Boghaz-Köi) وسيأتى الكلام عليها . واشتهر الحيثيون ببسالتهم وعنادهم فى الحرب ، وكانت مشاتهم تحوى الكثير من الأجانب المأجورين وكانوا مسلحين بالقوس والنشاب والسيف والرمح وفى أغلب الأحيان بالبلط أيضـا . وقد أتقن هؤلاء القوم تنظيم وحدات جيوشهم فتمكنوا من اجادة القتال وقت التحامهم بأعدائهم ، لكن أهم فرقهم كانت فرقة العجلات والسبب فى ذلك أنهم أتقنوا صنع العجلات حتى فاقوا المصريين من حيث المتانة . زد على ذلك أن لكل عجلة ثلاثة رجال : سائق ومحارب بالقوس ومدافع بالدرع ، أما عجـلة الحرب المصرية فكان تحوى سائقا ومحاربا فقط . ودلتنا آثار تحوتمس الثالث أن مملكة الحيثيين كانت مقسمة سابقا الى عدة امارات وأن احدى هذه الامارات قويت على سـواها فلقبها تحوتمس "بالمملكة الحيثية الكبرى" وكانت عاصمتها مدينـة خاتى (Khatti) التى كشفت حوالى عام ١٩٠٧ تحت أبنية مدينة بوغاز كوى الحديثة الواقعة شرقى أنقره وشرقى نهر هاليس المعروف باسم كسل إرماك بآسـيا الصغرى الشرقيـة . وقد عثر على آثار أثبتت وجود علاقات تجـارية بين الامبراطورية المصرية ومملكة الحيثيين حوالى ذلك الوقت أو بعده بقليل [٢] ولـما عظمت هذه العلاقة بين المملكتين خاف ملك قبرص على مركزه التجارى أن يتضعضع [٣] . والمعروف أنه لـما جلس إخناطون على عرش مصر أرسـل سبلل (Seplel) ملك الحيثيين تهنئة له على منصبه السامى ، واستدل من لغة هذا الخطاب وأسلوبه أن العلاقة بين مملكة الحيثيين والامبراطورية المصرية كانت حسنة [٤] . لذلك يرجح أن الغارات الأولى التى صدها دشراتا ملك متـانى لم تحصل بعلم ملك الحيثيين ، خصوصا وأن هذا الأخير أرسل هدايا عظيمة الى إخناطون بعد انتقاله الى مدينة آخت آتون بجهـة تل العمارنة [٥] . والظاهر أن إخناطون لم يهتم كثـيرا بعلاقاته الودية مع هؤلاء القوم بدليل ما جاء بخطاب ملك الحيثيين لإخناطون يسأله فيه عن سبب قطع المخاطبات والمراسلات

---

(١) ٣ : ٣٢٧ (٢) خطابات تل العمارنة ٣٥ (٣) شرحه ٢٥ و ٤٩ ملاحظة (٤) شرحه ٣٥ (٥) ٢ : ٩٨١



شكل ١٤٥ – جندى حيثى مسلح بلطة - رسم بارز وجد بجهة سنجرلى بشمالى سوريا (دار تحف برلين)



شكل ١٤٦ – ملك حيثى قابض على رمح وصولجان
رسم بارز وجد بجهة سنجرلى شمالى سوريا
(دار تحف برلين)



شكل ١٤٧ – موظف مصرى يقابل مهاجرين ساميين • رسم بارز فى مقبرة حور محب
(دار تحف ليدن)

الودية التي كان أمنحتب الثالث يهتم بها كثيرا[١] ولا غرابة في ذلك فان إخناطون كان على يقين من أن مملكة الحيثيين عدوه اللدود وأقوى ند للامبراطورية المصرية على حدود سوريا الشمالية . ولا يحتمل أن إخناطون كان قادرا على مقاومة التيار الحيثي الشديد المتدفق ببلاد سوريا من آسيا الصغرى ، وعلى كل حال فانه لم يقم بأقل مجهود في هذه السبيل . ومما زاد الطين بلة أنه لما ولى إخناطون الملك أخذ أهالي آسيا يشقون عصا الطاعة على ولاة مصر هناك بعد ما كان أمنحتب الثالث كابحا جماحهم . واليك ترجمة خطاب أرسله أحد الولاة المصريين بتلك الجهات الى إخناطون متأخرا يظهر حقيقة الحال وخطورة المركز :

"حقيقة أن والدك لم يطف ولم يتفقد أراضي هؤلاء الأمراء . . . .فلما اعتليت عرش والدك وضع أبناء الملك أبداشيرتا (Abdashirta) أيديهم على أرض جلالتك منضمين الى ملوك متاني وبابل وخيتا" [٢] .

بعد ذلك انضم ولاة مصر العصاة الى أبداشيرتا وابنه أزيرو (Aziru) حاكم مقاطعة آمورية (Amorite) بأعالي نهر الأورونط (العاصي) . وفي الوقت نفسه قام وال سوري يدعى إتاكاما (Itakama) فاستولى على كدش وأعلن استقلاله عن مصر . فتبع ذلك استيلاء الحيثيين على اقليم أمكي (Amki) القريب من شمالي أعالي نهر الأورونط فيما بين أنطاقيا و بلاد الأمانوس (Amanos)[٣] . عند ذلك قام ثلاثة ولاة مخلصين لفرعون مصر و جمعوا قوة حربية ساروا بها نحو العصاة لاخضاعهم فقابلهم إتاكاما في قوته الحيثية وهزمهم ، فأرسل هؤلاء الأمراء الثلاثة خبرا سريعا الى إخناطون شاكين له سوء تصرف إتاكاما [٤] . بعد ذلك قام والي آمور المدعو أزيرو فاستولى على بلاد فينيقيا وساحل سوريا الشمالي حتى وصل الى مدينة أوجاريت (Ugarit) عند مصب نهر الأورونط[٥] فقتل حكامها واستولى على خيراتها[٦] أما صميره (Simyra) — بطرون؟ — وبيلوس (جبيل) فقد قاوما أزيرو ولما استولى الحيثيون على — نوخاشي (حلب ؟) بأعالي نهر الأورونط استولى أزيرو على مدينة ني على نهر الفرات وقتل حاكمها[٧] . عند ذلك أصبحت ثونب (بعلبك ؟) في خطر الوقوع بأيدي الأعداء ولذلك أرسل سراتها خطابا مؤثرا الى إخناطون طلبوا فيه النجدة هذا ترجمته :

"الى ملك مصر سيدنا . من أهالي ثونب (بعلبك ؟) خدمك . علك تكون بصحة وعافية . نحن كلنا نسجد تحت قدميك . سيدي ! مدينة ثونب تتساءل الآن قائلة : لم يجرؤ أحد على سلب ثونب في عهد تحوتمس الثالث دون أن يسلبه ذلك الملك . ألا فليعلم سيدنا ملك مصر أن معبودات مصر لا تزال بثونب ويمكن جلالتك أن تتأكد صدق ذلك من كبار قومك . لقد أوشكنا ننفصل من مملكة سيدنا ملك مصر . . . .اذا تأخر عنا وصول الجنود والعجلات من مصر . ان أزيرو سيعاملنا كما عامل مدينة ني وحينئذ يعمنا الكدر كما يصيب جلالة ملك مصر الأسى

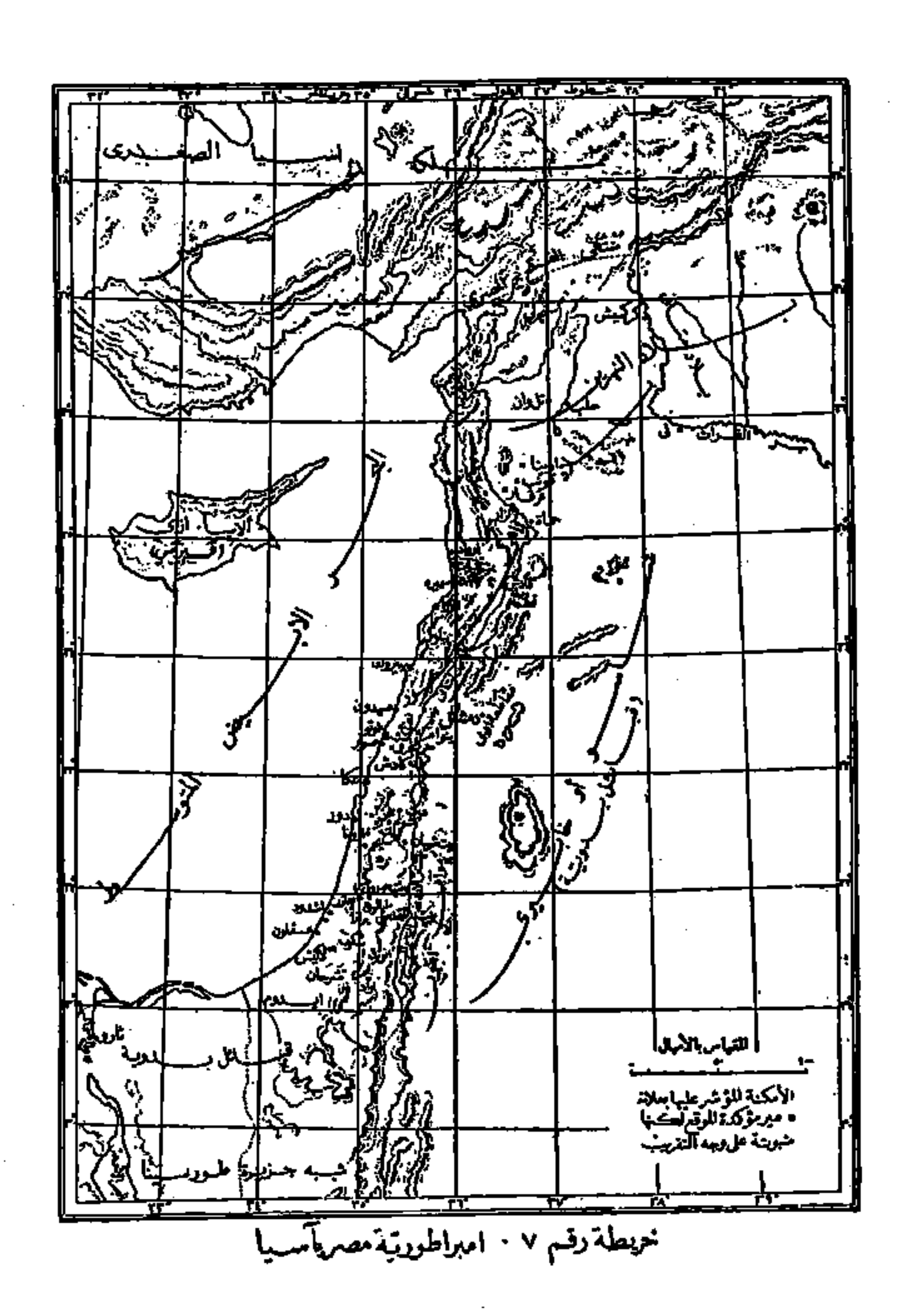
(١) خطابات تل العمارنة ٣٥ و ١٤ ملاحظة (٢) شرحه ٨٨ (٣) شرحه ١١٩ و ١٢٥ (٤) شرحه ١٣١ و ١٣٢
(٥) شرحه ١٢٣ (٦) شرحه ٨٦ و ١١٩ (٧) شرحه ١٢٠

لمـا يأتيه أزيرو . ان هـذا الأخير سيرفع يده فى المستقبل ليقاتل قوات جلالة سـيدنا . اذا دخل أزيرو بلدة صميرة (بطرون ؟) يفعل بنا ما يشاء ونحن فى بلاد جلالة الملك سيدنا . حينئذ يندم جلالة الملك على ذلك كثيرا . أن ثونپ (بعلبك ؟) تبكى يا سيدى بكاء مرا ولا مغيث لها . لقد ثابرنا على ارسال المخاطبات لسيدنا ملك مصر مدّة عشرين سنة فلم تصل الينا منه كلمة واحدة"[1] . بعد ذلك حشـد أزيرو جيوشه بسرعة واسـتولى على صميرة (بطرون ؟) فسلمت له ثونپ (بعلبك ؟) على أثر ذلك نهـائيا .

فى أثنـاء هـذه الثورة العظمى كتب رب أدّى (Rib-Addi) والى ببلوس (جبيـل) المخلص لفرعون مصر خطابا وصف فيـه حالة البلاد الأسيوية المحزنة وما وصلت اليه من العصيان ، راجيا مساعدته السريعة ليتمكن من طرد أزيرو من صميرة لأنه كان متأكدا أن سـقوط هذه المدينة يعنى حتما سـقوط ببلوس[2] . وقد ألمعنا سابقا الى وجود معبد مصرى بمدينة ببلوس . لكن إخناطون لم يرسـل المساعدة فأخذت الحـالة تسوء والولاة يتمـادون فى عصيانهم على مصر ، فسلم زمريدا (Zimrida) والى صيدون (صيدة) بلده الى جنـود أزيرو[3] بعـد ما تحـالف معه على الاستيلاء على بلدة صـور (Tyre) بشرط اقتسـام خيراتهـا . عند ذلك أرسـل أبى ملكى (Abi-Milki) والى صور يسأل ملك مصر النجدة بسرعة[4] . والغريب أن ولاة سوريا المصريين لم يسألوا من إخناطون الا قليلا من المدد ويظهر أن هذا كان كافيا لاخماد الثورة وقتئذ لولا وجود الحيثيين وتحريكهم للفتنة طى الخفاء ، لذلك عجزت الجنود اليسيرة التى ظن أنهـا كافيـة أولا عن مكافحة الخطر . بعد ذلك وردت الأخبار بأن أزيرو استولى على الحصون الخارجية لمدينة صميرة فأرسل رب أدى (Rib-Addi) خطـابا الى إخناطون ألح فيـه بطلب إرسـال المساعدة بسرعة[5] وذكر أنه ذاق المر من غارات الآموريين خمس سنوات منذ عهد أمنحتب الثالث . فعهد إخناطون الى عدة رسـل مصرية فى اجراء التحقيق فى حالة صمـيرة وكان ذلك بلا جدوى لأن المدينـة سقطت فى آخر الأمر فى أيدى الأعداء ، وسرعان ما قتـل أزيرو والى صميرة المصرى فى قصره[6] وأتلف القصر أيضا ثم زحف بجنوده على ببلوس . فأرسل رب أدّى الى إخناطون خطابا سرد له فيه هذه الحوادث الفظيعة معلنا إياه بأن مركز الوالى المصرى فى كوميدى (Kumidi) شمالى فلسطين أصبح فى خطر[7] . أما أزيرو فكان رجلا ماكرا استعمل بعض رجال حاشـية فرعون لأغراضه بآسيا كما يستنتج من خطابه الذى أرسله الى توتو (Tutu) أحد موظفى القصر الملكى ملتمسا فيه أن يستغفر له فرعون عن ذنبه[8] ومتظاهرا فى الوقت نفسه بالطاعة للوالى المصرى المدعو (Khai) خاى المجاور له بآسيا[9] . ولم يكتف أزيرو بذلك بل ذرّ الرماد فى عينى إخناطون إذ بعث اليه بخطاب كله كذب ورياء ادعى فيه أنه لا يمكنه الحضور الى قصر فرعون مصر لسرد الحقيقة عن نفسه على حسب الأمر الفرعونى لأن الحيثيين استولوا على مدينة نوخاشى (حلب) وأنه يخشى على ثونپ

---

(١) شرحه ٤١ (٢) راجع هذا الكتاب صحيفة ٢١٣ (٣) شرحه ١٠٥ (٤) شرحه ١٥١ (٥) شرحه ٨٥
(٦) شرحه ١١٩ و ١٢٠ (٧) شرحه ٩٤ (٨) شرحه ٤٤ — ٥ (٩) شرحه ٤٦



خريطة رقم ٧ · امبراطورية مصر بآسيا

(بعلبك ؟) أن تسقط في يد الأعداء[١] . وقد ألمعنا سابقا الى ما كانت تخشاه ثونپ من حضور أزيرو الى حلب . ولما أرسل إخناطون الى أزيرو أمرا باصلاح كل ما حطمه بمدينة صميرة (بطرون ؟) ردّ هذا عليه قائلا انه أتلف هذه المدينة (صميرة) ليمنع وقوعها فى أيدى الحيثيين وأنه فى حالة ضيق شديد لحماية بلاد فرعون فى نوخاشى (حلب) ضد الحيثيين أيضا ومع ذلك فانه سيقوم بالترميمات المطلوبة فى خلال سنة[٢] . بعد ذلك وردت على إخناطون رسائل مؤكدة بأن البلاد التى استولى عليها أزيرو ستدفع الجزية نفسها التى كانت تدفعها لمصر من قبل[٣] . مثل هذه المراسلات الرسمية التى تعترف بسيادة فرعون على سوريا وفلسطين طمأنت طبعا خاطر إخناطون قليلا على خطورة الحالة مع أن الحقيقة على نقيض هذا بالمرة ، وعليه أرسل إخناطون خطابا الى أزيرو سمح له بالانتظار سنة ليتم اصلاح صميرة على حسب طلبه، لكن أزيرو تجنب مقابلة رسول إخناطون المدعو خانى (Khani) فاضطر الرسول أن يرجع خطاب فرعون ثانيا الى مصر دون تسليمه لأزيرو[٤] . وهذه الحوادث تثبت لنا شدة تساهل إخناطون ومسالمته بعكس ما كان لأجداده من الصلابة والبطش . بعد ذلك أرسل أزيرو الى إخناطون خطابا اعتذر فيه عن عدم امكانه مقابلة رسوله قائلا انه كان مشغولا فى حملة ضد الحيثيين فى الشمال وأنه أسرع بكل قدرته لمقابلة الرسول حالما سمع بوصوله لكنه وجده رجع ثانيا الى مصر ! وقد اعتذر كعادته أيضا عن عدم إمكانه اصلاح صميرة فى المدة التى عينها الملك[٥] .

فى كل هذه المدة كان رب أدّى والى ببلوس يعمل كل ما فى وسعه لمقاومة أزيرو ويرسل الى فرعون مصر الخطاب تلو الخطاب طالبا النجدة ضد أزيرو المذكور . والحق يقال ان الرسائل التى كانت ترد على القصر الفرعونى من ولاة سوريا وفلسطين كانت غامضة المعنى كثيرا يتعسّر على قارئها تمييز الولاة المخلصين لفرعون من العاصين عليه فى الخفاء . خذ مثلا ما حصل من سوء التفاهم وقتئذ فقد أرسل بيخورو (Bikhuru) والى الجليل (Galilee) قوة بدوية قتلت كل رجال رب أدّى ظنا منه أن هذا الأخير كان عاصيا على فرعون فى حين أنه فى الحقيقة كان من أصدق ولاته وآمنهم على أرض مصر . لذلك أصبح رب أدّى فى حالة يرثى لها يتهدّده الضنك والذل ، فأرسل الى إخناطون رسالتين وصف فيهما حالته المحزنة وطلب المساعدة[٦] قائلا ان أهالى ببلوس ثاروا عليه[٧] لأن مندوب الملك هناك تصرف تصرفا معيبا فى اخماد الثورة وأنه (رب أدّى) قاوم حصار بلده ثلاث سنوات وقد أصبح الآن مسنا ومثقل الكاهل بالمرض[٨] . بعد ذلك فر رب أدّى الى بيروت ليحضر من واليها النجدة فلما رجع الى ببلوس وجدها مغلقة ووجد أخاه اغتنم فرصة غيابه فاغتصب مركزه وسلم عياله الى أزيرو[٩] . ثم سقطت بيروت فى يد الأعداء وتمكن رب أدّى على أثر ذلك من الرجوع ثانيا الى ببلوس والاستيلاء على منصة الحكم فيها[١٠] . واتضح لنا بعد ذلك أن أزيرو

---

(١) شرحه ٤٥ و ٤٧ (٢) شرحه ٤٦ و ٢٦ — ٣٤ (٣) شرحه ٤٩ و ٣٦ — ٤٠ (٤) شرحه ٥٠
(٥) شرحه ٥١ (٦) شرحه ٧٧ و ١٠٠ (٧) شرحه ١٠٠ (٨) شرحه ٧١ و ٢٣ (٩) شرحه ٩٦
(١٠) شرحه ٦٥ و ٦٧



شكل ١٤٨ – صورة لحورمحب (Harmhab) تمثله موظفا يكافئه الملك بالذهب ، مأخوذة عن مقبرة حورمحب ويقع الملك فى الرسم خارج الصورة الى اليمين . ويشاهد فى الصورة خدم حورمحب يضعون القلائد حول عنقه وخدم آخرون يحضرون قلائد أخرى الى الشمال . ويرى بالجزء الأيسر للرسم أسرى سود يون يخفرهم حرس مصرى ليقدمهم حورمحب بجلالة الملك ، ولا يبعد أن يكون الاحتفال من أجل ذلك . ويشاهد تكملة هذا الرسم فى الجهة اليسرى فى شكل ١١٩ بهذا الكتاب (دار تحف ليدن)

ذهب الى مصر واضطر أن يذهب أمام إخناطون لكنه مع ذلك لم ترد على رب أدّى أقل مساعدة من مصر . فى ذلك الوقت كانت بلاد الساحل الأسيوى كلها فى أيدى الأعداء وكانت سفنهم مسيطرة على البحار مانعة عنه الغـذاء والمدد الحربى الآتيين من مصر[1] . وقد ألح على رب أدّى زوجتـه وأعضاء أسرته أن يفصم عرى اتصاله مع مصر وينضم الى أزيرو لكنه استمر مواليا لفرعون وأرسل اليه خطـابا طالبا ثلثمائة جندى ليسترد بيروت وليستدر بها الرزق يسـيرا[2] خصوصا وأن الحيثيين ينهبون إقليمه وبدو أزيرو يحشدون تحت أسوار مدينته (جبيل)[3] . بعد ذلك لوحظ أن الرسائل التى كان يرسلها رب أدّى الى إخناطون امتنع ورودهـا فاستنتج من ذلك طبعا أن بيلوس سقطت فى أيدى الأعداء وأن رب أدّى قتل على الأرجح كما قتل غيره من ولاة مصر هناك ، وقد انتهى بموته آخر وال مصرى فى شمـالى مستعمرات مصر الأسيوية .

واستقل كذلك جنوبى مستعمرات مصر الأسـيوية بسبب اشتعال نيران الاضطراب والثورة كالتى التهمت سوريا . وتفصيل ذلك أن بدو الخابيرى (Khabiri) — وهم عراميون ساميون — قادوا الثورة كما فعل الحيثيون شمالا ، ولذلك لوحظ متطوعون منهم ضمن جنود ولاة فلسطين . وقد ألمعنا سابقا الى أن أزيرو أرسل بعض هؤلاء البدو ضد رب أدّى ليقاتلوه بجهة بيلوس ، لكن ذلك لم يمكن الولاة الموالين لفرعون أن يستخدموا البـدو أنفسهم لأغراضهم أيضا . وجاء فى خطاب أرسله الوالى الخائن إتاكاما (Itakama) الى فرعون اتهام شنيع لولاة فرعون بفلسطين بأنهم سلموا كدش ودمشق الى بدو الخابيرى[4] وبهذه الطريقة بسط هؤلاء البدو نفوذهم على فلسطين ، فأرسلت مجدّو وعسقلون وجازر رسائل الى فرعون مستنجدة ضد هؤلاء الثوار . ثم اتحدت جازر وعسقلون ضد أبدخيبا (Abdkhiba) الوالى المصرى ببيت المقدس الحصن المنيع فأرسل هذا الوالى الرسائل الكثيرة السريعة الى إخناطون مبينا الخطر راجيا المساعدة على صد بدو الخابيرى ورؤسـائهم[5] . وبلغت الثورة وسوء النظـام وقتئذ درجة سرقت فيهـا قوافل الملك علنا تحت جدر أيالون (Ajalon)[6] واليك ترجمة خطاب والى بيت المقدس الى إخناطون :

"ستضيع جميع أرض جلالتك التى ثارت علىّ . أما اقليم شيرى (Seir) الواصل الى جنتى — كرمل (Ginti-Kirmil) فقد شق عصا الطاعة على وكذلك أمراؤه . لقد كانت سفن جلالتك الساعد القوى فى بسط سلطتك على بلاد النهرين وكدش ، أما الآن فقد احتل بدو الخابيرى بلاد فرعون . ولم يبق لسيدى وال مطيع فالكل عصاة .... ليحترس الملك على قطائعه و بلاده .... وليرسل المدد .... لأنه اذا لم تصل جنود هذه السنة ذهبت ممتلكات جلالة فرعون سدى ... واذا تعسر ارسال جنود هذه السنة فليرسل جلالة فرعون ضابطا يلازمنى لحضور أنا واخوتى كى نموت مع سيدنا الملك"[7] .

ويظهر أن أبدخيبا كان صديقا لكاتب إخناطون الخبير بالخط المسمارى لأنه ذكر فى آخر خطابه حاشية هذا ترجمتها :

---

(١) شرحه ١٠٤ (٢) شرحه ٦٨ (٣) شرحه ١٠٢ و ١٠٤ (٤) شرحه ١٤٦
(٥) شرحه ١٧٩ — ١٨٥ (٦) شرحه ١٨٠ و ٥٥ ملاحظة (٧) خطابات تل العمارنة ١٨١

"الى كاتب سيدى الملك . أنا أبدخيبا خادمك . أطلع جلالة سيدى فرعون على هذه الكلمات : ان جميع أراضى سيدى فرعون سائرة نحو الضياع" [١] . وأخذ الفلسطينيون يهاجرون رعبا من قطائع بدو الخابيرى فتركوا بلادهم واعتصموا بالجبال . والتجأ بعضهم الى مصر حيث وصفهم الضابط المصرى المنوط بهم بقوله :

"لقد أتلفت أمتعتهم وحطمت مدنهم وأحرقت حاصلاتهم . . . . وضرب الجوع أطنابه فى بلادهم وهم فوق الجبال كالأغنام . . . . . . ها قد جاء بعض الأسيويين الذين لا يدرون كيف يعيشون . لقد أتوا طالبين مأوى عند فرعون ؟ كما حصل أيام آباء آبائك من قديم الزمان . . . . ها قد عهد اليك فرعون فى حمايتهم لتحمى حدود بلادهم" [٢] (شكل ١٤٧) .

ولقد كانت مشكلة هؤلاء الضباط الذين عهد اليهم إخناطون فى حلها مستحيلة ، لأن الضابط بيخورو (Bikhuru) الذى أوفد لإرجاع النظام واخضاع بدو الخابيرى عجز عن القيام بمهمته . وقد ألمعنا سابقا الى أنه أساء فهم حقائق الأمور هناك فأرسل قوة لمحاربة رب أدى أخلص ولاة فرعون . وقد تقدم بيخورو أولا شمالا حتى وصل الى مدينة كوميدى (Kumidi) شمالى الجليل (Galilee) ثم اضطر أن يتقهقر ثانيا كما ظن (رب أدى) [٣] . ثم بلغ هذا الضابط بيت المقدس الا أنه اضطر بعد ذلك أن يتقهقر الى غزة [٤] والغالب أنه أعدم فى آخر الأمر [٥] . وبهذه الكيفية خرجت معظم سوريا وفلسطين من أيدى المصريين ، وقد يئس ولاة مصر فى جنوبى فلسطين من علاج الحالة والاحتفاظ بنفوذ فرعون فقتل بعضهم وانضم الباقون الى الأعداء . ثم زادت الاضطرابات فاعتدى على قوافل ملك بابل المدعو برابورياش (Burraburyash) نهبها ملك عكا (Akko) وأحد جيرانه . فكتب برابورياش مسرعا الى إخناطون راجيا تعويض ما لحق قافلته من الخسارة ومعاقبة الجناة ليستتب الأمن ، والا تصبح تجارته مع مصر معرضة دائما لمثل هذه الأخطار [٦] . وقد حصل ذلك بالفعل لأن المستعمرات المصرية بآسيا ضاعت عن آخرها فى تلك الأزمة .

لقد قام ولاة إخناطون المخلصون بسوريا وفلسطين بما يقتضيه واجبهم بانذاره بالخطر المحدق بمستعمراته الأسيوية ، فأرسلوا له الخطابات الكثيرة والرسل المخصوصة والأبناء والاخوة ليظهروا له حقيقة الخطر الداهم ، لكن إخناطون لم يظهر ما يجب من الاهتمام حتى أنه كان يحجم عن الرد عليهم أو يرسل مددا ضعيفا بقيادة ضابط مصرى ، وأخيرا عجزوا عن مكافحة الخطر الحربى ذلك الخطر الذى كان يستدعى ذهاب إخناطون شخصيا مصحوبا بكل قوى الامبراطورية المصرية . والغريب أنه فى ذلك الوقت العصيب كانت معابد آخت آتون تدوى بالدعوات والصلوات لآتون إله الامبراطورية . وجاء أنه فى السنة الثانية عشرة من حكم إخناطون أقيم احتفال فخم كالمعتاد ، تسلم جلالة الملك فيه جزية مستعمراته فى آخت آتون وهو محمول فى هودجه فوق أكتاف

(١) شرحه ١٧٩ (٢) ٣ : ١١ (٣) خطابات تل العمارنة ٩٤ (٤) شرحه ١٨٢ (٥) شرحه ٩٧
(٦) خطابات تل العمارنة ١١

ثمانية عشر جنديا[1] . وليلاحظ أن أمراء آسيا كانوا دائما يفكرون ويذكرون الغزوات والحملات المصرية السابقة التى قام بها أجداد إخناطون حتى بعد انفصالهم من مصر . لذلك كتب هؤلاء الأمراء الرسائل اليسيرة الى إخناطون مؤكدين له ولاءهم وخضوعهم اسميا فتخيل جلالته أن مستعمراته الأسيوية لم تزل كما كانت عليه ، والحقيقة أن ذلك كله لم يكن الا من طريق ذر الرماد فى العيون . بعد ذلك أخذ الخطر يهدد قصر إخناطون نفسه بدرجة لا تقل فى الشدّة عن الزوبعة التى عصفت بمستعمراته الأسيوية ، لكنه ثبت لها وقاومها واستمر ينشر عقيدته الجديدة بكل جهده ، فأكثر من معابد آتون بسائر أنحاء البلاد فشيد علاوة على المعبد العظيم بطيبه ثلاثة معابد أخرى على الأقل فى مدينتى آخت آتون وجم آتون ببلاد النوبة ومعابد أخرى بمدينة عين شمس ومنف والأشمونين وأرمنت والفيوم[2] . واهتم كثيرا بتحسين الصلوات بالمعابد وابداع التوسلات القديمة لأجل معبوده آتون ، فغير فى صفات معبوده الذى وصفه أولا "بحرارة الشمس" قائلا عنه انه "النار المنبعثة من آتون" فنجم عن ذلك أن كمين النار الذى أحدثته هذه التغيرات الدينية العظيمة استمر يتأجج خفية فى البلاد . وتفصيل ذلك أن عقيدة آتون غيرت كثيرا من عقائد القوم القديمة المحبوبة لديهم وعلى الأخص الجزء المختص منها بالحياة الأخروية ، فبعد أن كان الناس يعتقدون بدفاع أزوريس رأفة بهم فى الآخرة ويستعملون لذلك الوسائل السحرية للوقاية من الأعداء العديدين وقتئذ أصبح اتباع هذا الاعتقاد محظورا . ثم اجتهد بعضهم فى وضع آتون فى مركز الآلهة المصرية القديمة لكنهم لم يفلحوا لأن عقيدة إخناطون فلسفية منطقية عارية عن الخرافات والخزعبلات التى اعتادها القوم ، مثال ذلك نسبتهم معبوداتهم الى بعض النبات أو عين ماء الخ . لهذا كله تعسر على القوم ادراك أسرار عقيدة إخناطون السامية ، وغاية ما وصلوا اليه أن هذا الملك أبطل عبادة معبوداتهم القديمة واستبدل بها معبودا جديدا صعب عليهم تصوره أو معرفته . وبديهى أن مثل هذا التغير الدينى لا يدوم طويلا فى بلاد كمصر . وقد حصل مثل ذلك أيام ثيودوسيس (Theodosius) لما حاول ابطال عبادة الأصنام بمصر واستبدل بها النصرانية بعد وفاة إخناطون بألف وثمانمائة سنة تقريبا ، ولما غاب ثيودوسيس عكف المصريون ثانيا على عبادة أصنامهم مدّة قرون وعلى الأخص أهالى الوجه القبلى . ويتضح من ذلك أن حياة شخص واحد لا تكفى لمناوأة عقيدة متأصلة فى النفوس واحلال غيرها مكانها ، وعليه فقد كانت عقيدة إخناطون قليلة الانتشار بأنحاء الامبراطورية المصرية ومقصورة على إخناطون نفسه وحزبه ، فجاء هذا على نقيض ما صبت اليه نفس هذا الملك وطمع هو فيه .

ومما زاد فى خطورة الجفاء السرى فى نفوس الأهالى نحو مذهب إخناطون بغض كهنة آمون الشديد له أيضا ، وهذا كما لا يخفى عامل قوى لا يستهان به لا سيما أن هؤلاء الكهنة أصبحوا يرون معابدهم الثمانية بطيبه مهجورة ومقفلة وأوقاف معبودهم بسوريا وفلسطين فى يد الحكومة ومسندة

---

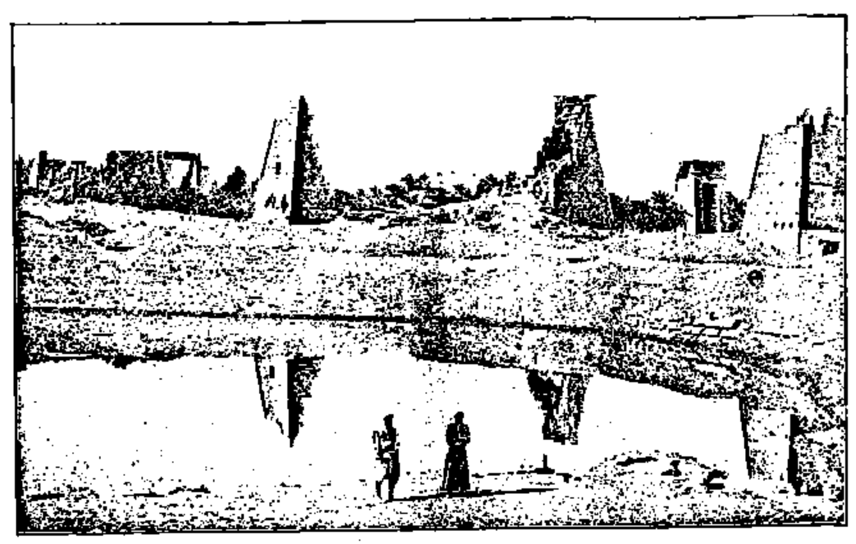
(1) ٢ : ١٠١٤ — ١٥

(2) ٢ : ١٠١٧ — ١٨ وأيضا ملاحظاتى بمجلة Zeitschrift für Aegyptische Sprache, 40, 110-113

الى آتون غالبا . لذلك كانت مدة حكم إخناطون غاصة بمشاحنات ومؤامرات سرية وجهرية من مكايد الكهنة لخلع هذا الملك . ثم ان خسارة مستعمرات مصر الأسيوية قوت حزب الكهنة ضد الملك وسببت انفصال الرجال الأقوياء عن إخناطون والانضمام الى كهنة آمون . ثم زاد البغض فى نفوس الأهالى الذين خدم أجدادهم فى البلاد الأسيوية تحت لواء تحوتمس الثالث خصوصا وأن ذكرى انتصارات وغنائم تحوتمس المذكور كانت كافية لاثارة حزازات الحزب الحربى الامبراطورى ضد إخناطون وتحريضهم على عزل هذا الملك واسناد الملك الى كفء لممارسة الحالة واسترداد ما فقدته البلاد . نعم ان إخناطون عين قوادا حربيين لقيادة جيشه ومكافحة الحالة كما ألمنا سابقا ، لكن عقيدة هذا الملك السلمية كانت عقبة كئودا أمام الأخصاء لصعوبة فهمها وأمام العامة لكراهيتهم لها .
وقد وجد بين ضباط إخناطون قائد يدعى حورمحب (Harmhab) كان محبوبا لدى مليكه[1] فاجتهد هذا القائد فى ضم الحزب الحربى اليه وكذا كهنة آمون الذين كانوا يتوقون الى وجود من ينفذ رغبتهم نحو إخناطون . ومما ساعد على ذلك أيضا أن جميع الأهالى تألموا مما لحق عاداتهم وعقائدهم الدينية القديمة من الاهانة فى عهد هذا الملك ولذا اشترك الأهالى والكهنة والحزب الحربى فى عزل إخناطون الفيلسوف المكروه صاحب الآراء والعقيدة غير المفهومة لمعظم الناس . ومما زاد الطين بلة أن إخناطون لم يرزق ولدا فعاضد صهره المدعو ساكرع (Sakere) زوج ابنته المدعوة مريت آتون (Meritaton) ومعناه محبوبة آتون . والظاهر أن إخناطون لم يكن قوى البنية كما يستدل من نحافة وجهه وأعراض الاستسقاء البطنى — مرضان أصيب بهما لما قاساه من مسئوليات ومصاعب . وانتهى الأمر بجلوس ساكرع على عرش مصر واشتراكه هو وحموه فى الملك . لكن إخناطون لم يدم طويلا ففى عام ١٣٥٨ قبل الميلاد أى بعد ما حكم البلاد سبع عشرة سنة تقريبا قام عليه الأهالى وعزلوه . ودفن هذا الملك فى قبره الذى أعده لنفسه ولأفراد أسرته فى الوادى المنعزل الذى يبعد عن آخت آتون ببضعة أيام . وقد دفنت فى هذا القبر أيضا كريمة إخناطون المدعوة مكت آتون (Meketaton) قبله بمدة[2] . ونقل أصدقاء هذا الملك تابوته الى طيبه بعد وفاته حيث عثر عليه حديثا بمقبرة الملكة تى والدته . وقد فحص الأستاذ اليوت سميث هيكل إخناطون العظمى (لأن التابوت المذكور لم يحو الا عظاما فقط) وقرر أن صاحبه توفى وهو فى سن ثلاثين سنة . لكن المعروف أنه حكم ست عشرة سنة على الأقل ! أما الأستاذ سيته (Sethe) فلا يوافق الأستاذ اليوت سميث فى هذا الرأى . ويوجد تابوت هذا الملك العبقرى فى دار التحف بالقاهرة وعليه نقوش تصف إخناطون بأنه " الطفل الجميل لآتون الحى العائش الى الأزل والمتصف بالحق والعدالة فى السماء وفى الأرض " (مأخوذة باذن الأستاذ برستد من دائرة معارف التاريخ القديم لجامعة كمبردج صحيفة ١٢٧) .

وهكذا انتهى أمر شخص له فى تاريخ الشرق القديم استعداد غريب ، وقد لقبه بنو قومه بعد ذلك "مجرم آخت آتون" [3] . أما نحن فمع لومنا له على تعصبه الدينى الشديد فى نشر عقيدته ومحو

(1) ٣ : ٢٢ ملاحظة (2) نصوص Mes



شكل ١٤٩ – صرح حورمحب بجنوبي الكرنك ، وتشاهد بحيرة الكرنك المقدسة بجزء الصورة الأسفل



شكل ١٥٠ – صورة تمثل حورمحب بالدار الآخرة يقوم بفلاحة الأرض مأخوذة عن مقبرته وفيها يشاهد أن رسم الصل فوق الجبهة حصل بعد الفراغ من الرسم (دار تحف بولونيا)



شكل ١٥١ – الجزء الأعلى لتمثال خونسو . يرجع تاريخه الى آخر الأسرة الثامنة عشرة أو أول الاسرة التاسعة عشرة (دار تحف القاهرة)

اسم والده من الآثار وما نجم عن ذلك من ضياع مستعمرات مملكته لا نزال نذكره بأنه كان فتى شجاعا قابل صعوبات العقائد القديمة بعزيمة صادقة فامتاز بذلك عن سائر الفراعنة الرجعيين ، كل ذلك رغبة منه فى نشر تعاليمه العالية التى نبت عن ادراكها عقول الأهالى . ولم يظهر فى العالم من ماثله بعده الا لما انقضى على وفاته نحو ثمانمائة سنة وذلك بين بنى اسرائيل . لكن هذا لا يمنع عصرنا هذا من تقدير قيمة إخناطون حق قدرها لعبقريته وجرأته فى نشر آرائه الفلسفية الباهرة فى عصر سحيق وفى أحوال سيئة لقى من أجلها الخسارتين خسارة جسمه وخسارة ملكه .

أما ساكرع فلم يكن كفئا لادارة شؤون الدولة ولذلك لم يدم على العرش طويلا . وكل ما عرف عن حكمه أنه عاش مدة يسيرة غامضة فى مدينة آخت آتون ثم تبعه فى الحكم توت عنخ آتون — ومعناه النائب الحى لآتون — وهو صهر ثان لإخناطون تزوج بكريمته الثانية المدعوة عنخ سنب آتون (Enkhosnepaaton) ومعناه العائشة بنفوذ آتون . وفى عهد هذا الملك قوى نفوذ كهنة آمون كثيرا حتى اضطر أن يهجر آخت آتون عاصمة حميه بعد مدة من الزمن وأن ينضم الى الكهنة وينتقل بحاشيته الى طيبه التى استمرت مهجورة من عطف الفراعنة عشرين سنة تقريبا . أما آخت آتون فاستمرت مدة يسيرة بعد ذلك ثم هجرت هى وقصرها الملكى حتى لم يبق فى شوارعها شخص واحد ، فتصدعت أسقف منازلها وتهدمت جدر عماراتها، ثم أتى حزب طيبه فهدم هياكلها انتقاما وتشفيا كما سيتضح للقارئ فيما بعد . وهكذا أضحت مدينة آتون الجميلة قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ، وهى تعرف الآن بتل العمارنة ولا تزال باقية كما تركها عدواها الألدان — الزمن وكهنة آمون ، وأصبح الانسان الآن يجول فى شوارعها القديمة فيرى بعض جدرها بالغا بضع الأقدام فتدور فى مخيلته غدوات وروحات أتباع آتون الأقدمين الذين عمروها من قبل. وقد عثر عام ١٨٨٥ ميلادية فى هذه المدينة المهجورة على ثلثمائة خطاب ذكرنا بعضها عند الكلام على مراسلات ملوك وحكام آسيا وانهيار مستعمرات مصر الأسيوية ، ويوجد بين هذه المراسلات نحو ستين خطابا مرسلة من الوالى التعس رب أدى حاكم ببلوس، وتعرف هذه المراسلات الآن بخطابات تل العمارنة . والمعروف أن مدن آتون لم تدم طويلا بعد ذلك فقد لحقها التلف والدمار ما عدا مدينة جم آتون النوبية فقد استعمل معبدها فيما بعد لعبادة آمون فصار معروفا بعد ذلك باسم "معبد آمون سيد جم آتون" وهكذا حافظت أقصى مدن النوبة على أقدم معبد أقيم للتوحيد معروف للآن[1] .

ولما رجع توت عنخ آتون الى طيبه استمر يعبد آتون وقام ببعض الاصلاح بمعبد آتون هناك ، لكنه اضطر فى آخر الأمر أن يسمح لكهنة آمون باعادة عبادة آمون واستعمال المواقيت القديمة بالأقصر والكرنك ، فافتتح بنفسه أكبر أعياد آمون المعروف "بعيد أوبت" (Opet) ورمم معابده أيضا[2] . وأجبرته الظروف بعد ذلك أن يصلح ما أتلفه إخناطون من محو اسم آمون من الآثار على طول البلاد

---

(١) راجع صحيفة ٢٤٠ ملاحظة (٣)   (٢) راجع نقوش الأقصر البارزة وأيضا شرحه ٢٤ و ١٣٥

حتى مدينة صلب (Soleb) النوبية[١] . ولم تقف الأمور عند هذا الحد بل اضطر أن يغير اسمه الى توت عنخ آمون (Tutenkhamon) أى النائب الحى لآمون — تحت تأثير الكهنة طبعا — بجاء هذا برهانا ساطعا على انقياده لحزب كهنة آمون[٢] .

والمعروف أن الامبراطورية التى حكمها توت عنخ آمون كانت لا تزال كبيرة تمتد من الدلتا شمالا الى الشلال الرابع جنوبا . وقد كانت مستعمرة النوبة مصرية الصبغة وقتئذ فصار رؤساؤها يتزيون بالزى المصرى الذى أدخله هناك تحوتمس الثالث[٣] . أما الثورة المصرية فلم تؤثر كثيرا فى النوبة لأنها استمرت تدفع الخراج سنويا لخزانة فرعون[٤] . وجاء ضمن نصوص مقبرة هوى (Huy) والى كوش وقتئذ ما يثبت ورود جزية الى مصر من بلاد سوريا[٥] وربما كان هذا مبالغا فيه بالنسبة لما ورد فى خطابات تل العمارنة . والمعروف أن أحد خلفاء إخناطون حارب فى معركة حربية بآسيا ويظن أن هذا الخليفة هو توت عنخ آمون[٦] وعليه فيكون هذا الملك قد تمكن من اخضاع بعض بلاد فلسطين أو غنم بعض الغنائم منها على الأقل ، ولا يبعد أن تكون هذه البلاد التى استرجعت اعتبرت جزءا من سوريا من باب المبالغة كما أن الغنائم التى استولى عليها توت عنخ آمون احتسبت جزية .

ولم يعش توت عنخ آمون طويلا فتبعه فى الملك الكاهن آى (Eye) القدير زوج مربية إخناطون المدعوة تى (Tiy) ويقدر حكم توت عنخ آمون بست سنوات على الأقل ولا يحتمل أنه حكم أكثر من ذلك . وفى أكتوبر عام ١٩٢٢ كشف قبر هذا الملك حاويا لأثاثه الكامل تقريبا وبذلك جاء الاستكشاف الأول من نوعه فى علم الآثار . وبفحص محتويات القبر اتضح أنها ذات قيمة عظيمة لا تقدر وأنها تمثل ذلك التقدم الإخناطونى العظيم فى أمور المعيشة والديانة والفنون الجميلة . أما من الوجهة التاريخية فلم نجد بين تلك المحتويات ما يشير بطريق مباشر الى أحوال البلاد السياسية فى تلك العصور المضطربة ، لكن لوحظ أن اللصوص دخلوا القبر بعد دفن صاحبه فيه بقليل وعليه فلا بد أن الأحوال وقتئذ كانت قليلة النظام وأن سياسة القطر الداخلية كانت مضطربة على الأقل . والفضل فى كشف هذا القبر يرجع الى المرحوم الإيرل كارنارفون والمستر هوارد كارتر . وتعتبر محتويات هذا القبر أهم ما كشف الى الآن فى عالم العاديات .

وعثر حديثا جهة بوغازكوى — عاصمة الحيثيين بآسيا الصغرى — على عدة خطابات طينية منقوشة بالخط المسمارى تشير الى الأحوال السياسية المصرية بعد وفاة توت عنخ آمون وقد أخذ الأستاذ زايس (Prof. Sayce.) فى ترجمتها (Ancient Egypt,1922, Part III, pp. 66-7) فوجد فى أحدها وصفا لأحد المعتمدين المصريين جاء عن مليكه أنه توفى حديثا وأن هذا الملك كان يدعى بب — خورو — ياس ، وأن ملكة مصر المدعوة دخامون أرسلت رسولا الى القصر الحيثى

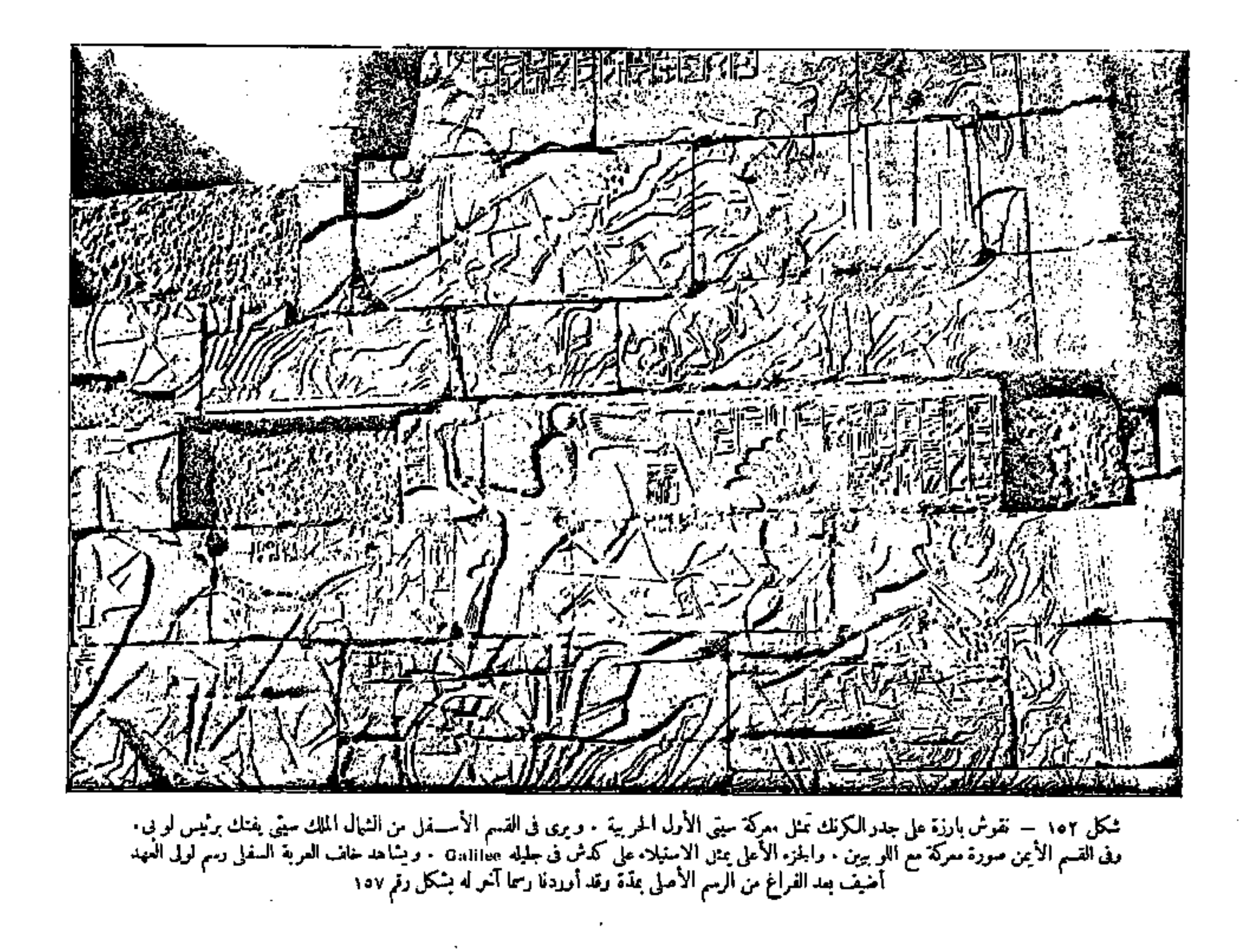
(١) ٢ : ٨٩٦ (٢) ٢ : ١٠١٩ (٣) ٢ : ١٠٣٥ (٤) ٢ : ١٠٣٤ ملاحظة
(٥) ٢ : ١٠٢٧ ملاحظة (٦) ٣ : ٢٠,٢ : ٢,٥٨٥

طالبة الاقتران به . ويرى الأستاذ زايس أن بب خورو ياس هو توت عنخ آمون المدعو أيضا تب خبرو رع ، وأن دخامون هي زوجة هذا الملك المدعوة أيضا عنخس آمون ، لكن لم تثبت للآن صحة هذه المقارنة نظرا لقلة معرفتنا لخط واللغة الحيثية ولذلك يحسن بنا أن نأخذ هذه الاستنتاجات بتحفظ (مأخوذ من دائرة معارف التاريخ القديم بالجامعة كمبردج صحيفة ١٢٩ — ١٣٠ القسم المصرى للأستاذ برستد، أوردتها هنا باذن خاص من المؤلف). وقد شيد هذا الكاهن لنفسه قبرا فى آخت آتون أخذنا منه مدحة آتون المذكورة سابقا. وقد كان هذا الملك متشبعا كثيرا بآراء إخناطون فشيد بعض المبانى بمعبد آتون بطيبه وبقى حافظا مركزه ضد كهنة آمون مدة من الزمن ثم ترك قبره فى آخت آتون وحفر غيره بوادى مقابر الملوك بطيبه ، الا أنه لم يعش طويلا فتوفى . والظاهر أنه اتبع فى الملك بملكين قصيرى العمر لم يتركا من الآثار ما يستحق الذكر ، ويقال انهما حكما قبله بزمن والحقيقة أننا لا نزال نجهل تاريخهما بالضبط .

بعد ذلك قامت فى البلاد حروب أهلية فوقعت طيبه فى أيدى اللصوص الذين نهبوا القبور الملكية . وقد عرفنا الآن أن مقبرة تحوتمس الرابع وقعت فريسة لهؤلاء الأئمة وقتئذ[1] . وهكذا انهار صرح الأسرة الطيبيه المالكة التى امتازت فى العالم بعظمتها ووقارها مدة مائتين وخمسين سنة تقريبا ، فاليها ينسب حسن السياسة وادارة الأمور وطرد الهيكسوس منذ مائتين وثلاثين سنة ثم انشاء أكبر امبراطورية شرقية قديمة معروفة فى التاريخ . وكان آخر تاريخ لحكم هذه الأسرة الثامنة عشرة حوالى عام ١٣٥٠ قبل الميلاد . والظاهر أن عظم صيت هذه الأسرة لم يساعد ملوكها الضعاف على الاستمرار فى الحكم ولذلك انتقل الحكم منها الى أسرة أخرى . قال مانيتو إن حورمحب هو الذى أصلح أحوال المملكة المصرية فى أواخر عهد الأسرة الثامنة عشرة . ويظهر أن هذا الملك لم يكن ذا علاقة دموية بالأسرة الثامنة عشرة ، لذلك يحق لنا أن نعتبره مرجع عبادة آمون ونظام الحكم القديم ومبدئ العهد الجديد الذى سنتكلم عليه فى الفصل التالى .

---

(1) ٣ : ٣٢ ملاحظة (١)



شكل ١٥٢ — نقوش بارزة على جدر الكرنك تمثل معركة سيتي الأول الحربية . ويرى في القسم الأسفل من الشمال الملك سيتي يفتك برئيس لوبي . وفي القسم الأيمن صورة معركة مع اللوبيين . والجزء الأعلى يمثل الاستيلاء على كدش في جليله Galilee . ويشاهد خلف العربة السفلى رسم لولي العهد أضيف بعد الفراغ من الرسم الأصلي بمدة وقد أوردنا رسما آخر له بشكل رقم ١٥٧

الكتاب السادس

الامبراطورية فى عهدها الثانى

الفصل العشرون

انتصار آمون وتنظيم الامبراطورية

ظهر بين أتباع إخناطون رجل كفء ماهر إدارى كثير الشبه بتحوتمس الثالث يدعى حورمحب (Harmhab) وينتمى الى أسرة عريقة من مدينة ألبسترونو بوليس (Alabastronopolis) وقد ألمعنا الى هذا فى آخر الفصل السابق[١] . وقد عهد لهذا الشخص بكثير من المأموريات المهمة فأنجزها بمهارة فائقة وكوفئ عليها بالعطايا الذهبية لخدمه الممتازة[٢] (شكل ١٤٨) . فمن أعماله أنه ندب للعناية بمهاجرى آسيا الذين هربوا الى مصر من قطائع بدو الخابيرى[٣] فأرسل رسلا الى تلك الجهات لإرجاع الأمن الى نصابه . ثم عهد اليه فى جمع الجزية من النوبة فى عهد إخناطون وخلفائه[٤] فأظهر كعادته فى كل مأمورياته همة ومقدرة عظيمتين . وقد أظهر حورمحب أيضا مهارة لما صحب أحد خلفاء إخناطون ويرجح أنه توت عنخ آمون[٥] وقت حملته الحربية بآسيا . وحافظ على مركزه وشرفه فى عهد خلفاء إخناطون الضعفاء وكان وقتئذ قائد الجيش العام ورئيس المستشارين الملكيين ، فلقب نفسه "كبير الكبراء ، وعظيم العظماء ، ورئيس الأهالى الأكبر ، ورسول الملك ، ورئيس جيشه فى الأقطار الجنوبية والشمالية ، ومصطفى الملك والمشرف على ادارة القطرين ليسيرها فى حدود النظام ، وقائد قواد سيد القطرين"[٦] . ولم يعهد أن انسانا نحل مثل هذه الألقاب فى أى عصر كان ، ولم نتأكد بالضبط شخص الملك الذى خدمه حورمحب بهذه الألقاب السامية والثابت أن نفوذ حورمحب جعله مسيطرا على مليكه وقتئذ ، وكان فى الحقيقة حاكم البلاد لأنه "عين بأمر ملكى ليكون رئيس المملكة ووزير العدالة للقطرين كأنه ولى عهد مصر لذلك كان مركزه لا ينازعه فيه أحد . . . اذا دخل القصر الملكى سجد له الحجاب عند المدخل الملكى ، كما كان يستقبله رؤساء المستعمرات الأجنبية (الأقواس التسعة) والبلاد الجنوبية والشمالية ، وكانوا يرفعون اليه أيديهم ويعظمونه ويبجلونه كالإله . . . . وأمور الامبراطورية تجرى بأمره . . . . اذا مر بقوم داخل الرعب نفوسهم فيدعون له بالصحة والعافية ويلقبونه بوالد القطرين"[٧] . واستمرت الحال كذلك عدة سنوات[٨] حتى سنة ١٣٥٠ قبل الميلاد لما ولى هذا القائد العظيم الملك ، وبديهى أنه لم يكن ينقصه ساعتئذ شىء لذلك سوى الألقاب والصفات الفرعونية ، وكان مركزه الادارى متينا فكان حائزا لثقة الجيش وكهنة آمون بطيبه . من أجل ذلك كان اعتلاؤه العرش بطيبه سهلا جدا واليك ترجمة ما ذكره حورمحب نفسه :

---

(١) ٣ : ٢٧ (٢) ٣ : ٥ – ٩ (٣) ٣ : ١٠ – ١٢ (٤) ٣ : ١٢ (٥) ٣ : ٢٠ (٦) شرحه
(٨) ٣ : ٢٥ – ٢٦ (٨) ٣ : ٢٦ و١ و٩

"وبعد مضى أيام عدة أى بعد ما عين ابن حوريس الأكبر (أى حورمحب) رئيسا وولى عهد جميع الأراضى شاء حوريس (معبود البسترونوبوليس) العظيم أن يحمله على عرشه الأزلى .... فذهب حوريس فرحا الى طيبه ..... محتضنا ابنه الى الكرنك ..... ليقدمه لآمون كى يسند اليه الملك"[١] .

ووافق وصوله عند ما احتفلت به كهنة طيبه عيد أوبت (Opet) الذى يحتفل فيه بنقل تمثال آمون من الكرنك الى الأقصر[٢] . حينئذ ظهر حورمحب فى الكرنك حيث أعاد له كهنة آمون حيلتهم التى دبروها لتحوتمس الثالث وقد كان كل شىء جائزا لتنفيذ هذا المشروع . لكنه لما كان واجبا على كل فرعون أن يكون ذا حق شرعى فى عرش مصر ذهب حورمحب الى القصر الملكى وتزوج بالأميرة موتنزمت (Mutnezmet) أخت زوجة إخناطون المدعوة نفر- نفرو- آتون وذلك بعد ما خرج من الكرنك وولى فرعونا وابنا لرع المعبود الشمسى . أما هذه الأميرة فكانت مسنة ورئيسة قسيسات آمون ومن أصل ملكى أيضا وكفى هذا كله لاثبات حق الملك لحورمحب[٣] وحصل هذا القران فكان فى القصر الملكى بالأقصر ولذلك نقل تمثال آمون الى القصر المذكور فاعتمد حورمحب ثانيا فرعونا لمصر[٤] . بعد ذلك أعلن للملأ لقب حورمحب الملكى[٥] وابتدأت حينئذ حياته الملكية .

ولا شك أن الهمة التى أوصلت حورمحب الى مركزه السامى كان لها أثر عظيم فى ادارة الامبراطورية ، فقد بذل كل جهده لارجاع النظام الى نصابه وترتيب الادارة جيدا . وقد لبث بطيبه حوالى شهرين نظم فى أثنائها الادارة وطمأن نفوس الكهنة باشتراكه معهم فى احتفالاتهم الدينية[٦] . ثم أبحر فى سفينة نيلية شمالا ليقوم بالعمل نفسه ..... منظما الأراضى ومحددا إياها كما كانت زمن رع[٧] (أى لما كان رع فرعونا على مصر) . واهتم كثيرا بالمعابد التى أقفلت فى عهد عبادة آتون فقد ورد عنه أنه طهر المعابد من مستنقعات الدلتا شمالا الى بلاد النوبة جنوبا وأصلح التماثيل وزاد فى عددها ومحاسنها .... وشيد معابدها وأقام مائة تمثال كاملة ملبسة بالأحجار النفيسة. وحدد أراضى الآلهة المجاورة للمعابد ورتب لها المعابد كما فعل فى الأزمنة السابقة ونظم لها القرابين اليومية وعين لها كهنة ومساعدين وحامية من زهرة الجيش المصرى . ثم وهب لها الأراضى والأغنام وكل ما يلزم[٨] . ونصب تمثالا لنفسه وزوجته بمعبد حوريس بمدينة ألبسترونوبوليس نقش عليه وصف ارتقائه بوضوح من موظف صغير الى مرتبة الفراعنة[٩] . وهكذا أرجع لآمون كل أوقافه وايرادات معابده وقام أيضا باصلاح هذه المعابد فعكف الناس على آلهتهم القديمة العديدة بعد ما كانوا يعبدونها سرا وقت عبادة آتون . ثم أرسل حورمحب حفاريه الى أنحاء البلاد ليتموا الاصلاحات التى بدأ بها توت عنخ آمون وليثبتوا على الآثار أسماء المعبودات التى أهانها ومحاها إخناطون ، وقد ورد ذكر هذه الاصلاحات كثيرا على جدر الكرنك ولا بد أنها ساعدته كثيرا

(١) ٣ ، ٢٧ (٢) شرحه (٣) ٣ ، ٢٨ (٤) ٣ ، ٣٠ (٥) ٣ ، ٢٩ (٦) ٣ ، ٢٣
(٧) ٣ ، ٣١ (٨) شرحه (٩) ٣ ، ٢٢ — ٣٢



شكل ١٥٢ — سيتي الأول يهدي أوزوريس تمثال الصدق . رسم بارز مأخوذ من معبده بالعرابة

على نشر نفوذه فى أنحاء الامبراطورية لأنها ضمت اليه طائفة الكهنة . أما عبادة آتون فلم تبطل لكنها وقفت أحيانا بسبب تلف معابده فى بعض الجهات . ففى طيبة مثلا هدم حورمحب معبد آتون هدما تاما وشيد بأحجاره صرحين عظيمين موسعا بذلك معبد آمون نحو الجهة القبلية (شكل ١٤٩). وقد استعمل خلفاؤه ما تبقى من أحجار معبد آتون فى اقامة أمثال هذه الأبنية ، ولا يزال بين أحجار وصروح آمون المهدمة بالكرنك من النقوش ما يشير الى سبق استعماله فى بناء معبد آتون . وورد على هذه الأحجار أسماء الملوك الذين عبدوا آتون والذين صاروا وقت حكم حورمحب محتقرين عند الرعية[1] . ولم يكتف حورمحب بذلك بل أرسل بعثة الى آخت آتون لهدم معبد آتون هناك واحضار أحجاره لبناء عمارات أخرى . بعد ذلك عومل اسم إخناطون بالاضطهاد نفسه الذى عامل به أسماء المعبودات سابقا، فهدمت مقبرة هذا الملك بآخت آتون ونحتت نقوش جدرها البارزة . وعوملت مقابر أتباعه العظام بالطريقة نفسها . وقصارى القول ان حورمحب صرف جهده فى محو آثار إخناطون . وبلغت كراهية هذا الملك حدا عظيما فاذا اقتضت المعاملات القضائية أحيانا مراجعة نصوص أو مواد من عهد إخناطون كان إخناطون ينعت "بمجرم آخت آتون"[2] .

ومع شدّة حملة حورمحب على اسم وعقيدة إخناطون واصراره على اصلاح المعابد القديمة وارجاع النظام العتيق الى أصله لم يدخر جهدا فى ارضاء أعدائه بقدر الامكان، خذ مثلا أنه عين أحد أصحاب إخناطون الأقدمين المدعو پاتون إم حب (Patonemhab) — على الأرجح — رئيسا لكهنة عين شمس لكنه أشرك معه أحد أتباعه ليتمم اتلاف آثار إخناطون هناك ويعرقل مساعى پاتون إم حب هناك[3] . بهذه الطريقة كمل انتصار آمون على آتون ، فبعد ما كان إخناطون وأتباعه ينشدون الدعوات لآتون معدّدين محاسنه وأعماله أصبح حجاب حورمحب يتلون فضائل آمون بالكيفية نفسها . واليك ترجمة ما قاله الأخيرون فى آمون :

"ما أجمل عقيدة الشخص المؤمن بهبات آمون ملك المعبودات، لا شك أن كل من يعرفه عاقل وأن كل من يخدمه سعيد الحظ لأن كل من يتبع هذا المعبود يحميه"[4] .

هكذا فاه كاهن آمون المدعو نفرحوتب (Neferhotep) الذى غمره حورمحب بالعطايا الجزيلة لأجل ذلك[5] . ولا يخفى أن أمثال هذا الكاهن هم الذين ساعدوا الملك على التنكيل بأعداء آمون. واليك ترجمة انذار لهم :

"الويل لمن يعتدى عليك يا آمون. ان بلدك يحتمل كل شىء الا المعتدى عليك فانه يذله . . . . النقمة على كل من يسىء اليك فى أى مكان . . . . كل من يعرفك تبق شمسه شارقة ، أما من يجهلك فشمسه آفلة . لقد أصبحت معابد من اعتدى عليك فى ظلام وعم النور أنحاء المعمورة"[6] .

---

(١) صحيفة ٢٨٣ ملاحظة (ا 6 ب) (٢) نقوش مس (Mes) (٣) ٢٢١٣ (٤) ٧٢١٣ (٥) ٧١١٣

(٦) Birch, Inscr. in the Hier., XXVI, see Erman, Handbuch.

ولم تقتصر همة حورمحب على تنظيم طائفة الكهنة الذى كان نتيجة مباشرة لرد فعل ثورة إخناطون بل شمل أيضا أمورا أخرى مهمة صعبة المراس . وتفسير ذلك أن ادارة القطر أيام إخناطون وخلفائه كانت مهملة تحت اشراف حكام الأقسام ولذلك اعتراها السوء وعظمت فيها عوامل الفساد التى تحصل فى مثل هذه الظروف . وقد كانت البلاد الشرقية أكثر الأقاليم وقوعا فى هذا الخلل الادارى ، والسبب فى ذلك أن الموظفين أمنوا اشراف رؤسائهم الشديد عليهم باستعمال نفوذهم فى ابتزاز الأموال من الفقراء ظلما وعدوانا فانتشرت بذلك الرشوة وعمت الخيانة بأنواعها كل أنظمة الحكومة المتباينة . فلما تولى حورمحب الملك أراد علاج هذه العلل فدرسها أولا بدقة ثم دعا كاتبه الخاص بمكتبه وأملى عليه مواد قانونية للعمل بمقتضاها فى كل ماظهر له من النقص[١] وقد وقعت هذه المواد فى تسعة أقسام[٢] تناولت منع اضطهاد الموظفين الماليين والاداريين للفقراء عقابا صارما للقسوة . من ذلك ما ورد أن صيرفا اضطهد فقيرا وجاوز بمعاملته حدود القانون فحكم عليه بجدع أنفه وبالنفى الى مدينة ثارو (Tharu) بجوار القنطرة وهى فى بقعة منعزلة على حدود مصر الأسيوية[٣] . وليلاحظ أن هذا الاهمال فى الواجب لم يكن قاصرا على ادارة القطر الداخلية بل شمل أيضا الجيش وضباطه وهو ما يحصل عادة فى الشرق حيث الاضطهاد والظلم يتزلان على الفقراء . خذ مثلا ما ورد من أن بعض رجال الشرط المعهود اليهم فى حفظ السلام والنظام فى جنوبى الامبراطورية المصرية وشماليها اغتصبوا جلود أغنام الملك من الرعاة الموكول اليهم أمر الاحتفاظ بها، ولم يكتف هؤلاء اللصوص بذلك بل فتشوا بيوت الرعاة واحدا واحدا وأخذوا كل ما وجدوه من جلد دون أن يتركوا منها شيئا[٤] . لمثل هذه الأسباب سن حورمحب قانونا سحب بمقتضاه مسئولية هذه الجلود من الرعاة وألقاها على الجنود ، واليك ترجمة هذا القانون :

"كل شرطى علم عنه أنه دخل المساكن لأجل سرقة الجلود يحكم عليه ابتداء من هذا اليوم بمائة جلدة وبجرحه فى خمسة مواضع ثم تسترجع منه الجلود المسروقة"[٥] .

لكن الصعوبة لم تكن فى ذلك فقط بل فى ايجاد مفتشين صادقى الذمة طاهرى الأخلاق ليخطروا الرياسة بكل اثم أو جريمة يكشفونهما، وجاء عن هؤلاء المفتشين أنهم شاركوا فى السرقة رجال الشرط بدون مراعاة لسبب رحلتهم الطويلة التى قصد بها معرفة الجناة وابطال الفساد . والمعروف أن هذا الفساد الادارى كان منهيا عنه تقريبا أيام تحوتمس الثالث الشديد الرقابة لكنه عاد ثانيا بعد وفاته . فلما أتى حورمحب اتبع طريقة تحوتمس الثالث فى ابطال ذلك الضرر[٦] فسن قانونا لمنع الاختلاس والتهريب وقت جمع الضرائب ، ثم طاف فى انحاء امبراطوريته متفقدا كيفية تطبيق قانونه المذكور[٧] وباحثا عن الأشخاص الأكفاء الذين يمكن أن يأتمنهم على أمور الحكم والعدل والقضاء بين الرعية . ولا يخفى أن العدالة كادت تكون مفقودة فى البلاد منذ

(١) ٣ : ٥٠ (٢) ٣ : ٤٥ — ٤٧ (٣) ٣ : ٥٤ (٤) ٣ : ٥٦ (٥) شرحه (٦) ٣ : ٥٨
(٧) ٣ : ٦٣

ثورة آتون ، وقد وقع اختيار الملك على وزيرين أعجب بهما كثيرا وعهد اليهما فى مهمة القضاء ، فعين أحدهما بمدينة طيبه وأقام الثانى بعين شمس أو منف ، وقد وصفهما بقوله :

"ان هذين القاضيين صادقان كريما الأخلاق شريفا الذمة مطيعان لأوامر القصر الملكى وقانون المحكمة.لقد عينتهما قاضيين على وجهى مصر (القبلى والبحرى) وجعلت مركزهما المدينتين العظيمتين بالوجه القبلى والبحرى"[١] وقد حذرهما جلالته من الرشوة قائلا :

" لا تأخذا الرشوة من أحد . . . . والا فكيف يمكنكما أن تحكما بالعدل اذا كنتما أنفسكما جناة على القانون"[٢] .

وأراد جلالته أن يبطل الرشوة بين القضاة الفرعيين فأعفى كل موظفى الحقانية من دفع الضرائب ذهبا وفضة وسمح لهم بالاحتفاظ بكل دخلهم من وظيفتهم[٣] حتى لا يكون لهم عذر فى اتباع الوسائل غير الشريفة ، وهذه خطوة جديدة لم يسبق لأحد قبل حورمحب أن يخطوها . ولم يقتصر جلالته على ذلك بل نظم المحاكم الفرعية فى كل البلاد[٤] وسن عقابا صارما لكل عضو فى هذه المحاكم يرتكب جريمة الرشوة . واليك ترجمة ما ورد فى شأن هذا العقاب :

"كل موظف أو كاهن يقال عنه انه عين فى القضاء ليحكم بين القضاة وهو يجنى على القانون يحاكم بتهمة الخيانة العظمى . هكذا رأت ارادة جلالتى بقصد تحسين القانون المصرى"[٥] .

وأراد جلالته أن يوطد صلته بموظفيه الاداريين ويبعدهم عن الرشوة فزاد مرتباتهم كثيرا ، وصار هؤلاء يتفقدون الادارة فى أنحاء البلاد عدة مرات كل شهر ، واعتاد الملك أن يحتفل بهم فى قصره قبل سياحتهم أو بعدها مطلا عليهم من شرفته الملكية ومغدقا عليهم هداياه والعطايا الجزيلة مناديهم كلا باسمه ، وقد أجزل جلالته العطايا لهم من القمح والشعير حتى لا يحتاج أحد منهم الى شئ ما[٦] .

كل هذه المعلومات نقشها حورمحب على شاهد حجرى عظيم[٧] يبلغ طوله ست عشرة قدما وعرضه عشر أقدام نصبه أمام الصرح الذى شيده بالكرنك من أحجار معبد آتون كما ألمعنا سابقا. وقد ذكر جلالته ملاحظة على الأثر هذا ترجمتها :

" لقد سنت جلالتى هذا القانون لضمان رفاهية أهالى مصر "[٨] وختم نقوش الأثر مخاطبا قومه بهذه العبارة :

"استمعوا لأوامرى التى سننتها لأول مرة فى التاريخ لأحكم بها جميع الأراضى نظرا لما شاهدته من الظلم الصارخ بهذه البلاد "[٩] .

وبديهى أن هذه الاصلاحات جعلت لحورمحب مركزا عظيما فى تاريخ الحكومات العادلة . وقد رزئت هذه البلاد بالظلم والاستبداد بعد ذلك بدرجة صعب مراسها وعلاجها حتى

---

(١) ٣ : ٦٣ (٢) شرحه (٣) شرحه (٤) ٣ : ٦٥ (٥) ٣ : ٦٤ (٦) ٣ : ٦٦
(٧) ٣ : ملاحظة ٤٥ (٨) ٣ : ٦٥ (٩) ٣ : ٦٧

أتى الاحتلال الانجليزى الحديث فضرب عليه بيد قوية ، ولا تزال ذكرى هذا الظلم باقية فى أذهان جميع القراء .

اذا لاحظنا عظم مجهودات حورمحب فى اصلاح داخلية البلاد وتنظيم ادارتها وابطال القحط الذى حل بمستعمراتها استبعدنا عليه القيام بفتوحات أجنبية لضيق الوقت . والحق يقال ان هذا الملك كان خبيرا بالأمور السياسية الأسيوية عالما بالمصاعب هناك ولذلك يظهر أنه فقد الرجاء فى اصلاح تلك المستعمرات الخارجية ما دامت داخلية مصر سيئة بالكيفية التى شرحناها للقارئ . وقد عثر على عدة أسماء لمدن و بلاد أسيوية منقوشة على الجدر قرب شاهد حورمحب الحجرى المذكور آنفا تشير الى انتصارات حربية حازها هناك ، لكن هذا بعيد الاحتمال وعليه فيستحسن أن تدون تلك الأخبار بتحفظ[1] خصوصا وقد ورد ضمنها ذكر الحيثيين . والمعروف من أحوال وأخبار البلاد التى ورد ذكرها على تلك الجدر أن حورمحب عجز بعد ذلك الوقت عن تثبيت قدمه تماما والاحتفاظ بسلطته المطلقة على بلاد سوريا . ولا يبعد أيضا أن تكون الحقيقة على نقيض ذلك إذ من الجائز أن تكون المعاهدة التى ذكرها رمسيس الثانى (بعد حورمحب بخمسين سنة) كمعاهدة قديمة كانت من أعمال حورمحب[2] . أما فى جنوبى المملكة فلم تحصل فى عهد حورمحب اضطرابات ذات بال وكل ما روى عن تلك الجهات أنه قامت بها ثورة اعتيادية تطلبت ذهاب حورمحب شخصيا اليها لقمعها[3] . وقد أرسل جلالته بعثة الى بلاد الصومال أحضرت خيرات تلك الجهات المعهودة[4] . والمعروف أن مشاكل الامبراطورية الداخلية كانت كثيرا ما تتعارض مع القيام بفتوحات أجنبية كالتى تاقت نفس حورمحب اليها ، ولا غرابة فى ذلك فقد تولى جلالته البلاد وهى فى أشد الحاجة لهمته ونشاطه لينتشلها من الادارة السيئة التى كانت فى عهد أسلافه . واذا لاحظنا ذلك علمنا السبب فى بذل جلالته للمجهودات التى صرفها حبا فى ترقية داخلية مملكته ، تلك المجهودات التى تعادل فى أهميتها وفوائدها أعظم أعمال الفاتحين . وقد أظهر جلالته رفقا وشفقة على رعيته لم يفقه فيها حاكم مصرى بعده حتى وقتنا هذا . ومع ذلك فقد تربى جلالته تربية حربية شرقية لكنه قال مرة لما تولى الملك "اسمعوا ان جلالتى تصرف كل وقتها لاعلاء مصلحة مصر"[5] .

ولم تتأكد للآن كم من السنين حكم حورمحب بالضبط لكنه فهم ضمنا من سجلات احدى القضايا التى حصلت فى عهد رمسيس الثانى ما يشير الى "سنة التاسعة والخمسين من حكم حورمحب وهذا تاريخ مبالغ فيه غالبا ولا يبعد أن يكون قد أضيف اليه حكم إخناطون وخلفائه أيضا . فاذا كان الرأى الثانى هو الصواب كان حكم حورمحب أقل من التقدير الأول بنحو خمس وعشرين سنة أو بعبارة أخرى يكون قد حكم حوالى ثلاثين سنة[6] . وقد شيد حورمحب لنفسه قبرا بديعا جدا بجهة منف لما كان موظفا فى الحكومة أى قبل توليه الملك (شكل ١١٩ و ١٤٧ و ١٤٨ و ١٥٠) .

---

(١) ٣ : ٣٤ (٢) ٣ : ٣٧٧ (٣) ٣ : ٤٠ ملاحظة (٤) ٣ : ٣٧ ملاحظة (٥) ٣ : ٥٠

(٦) نقوش مس (Mes)



شكل ١٥٤ — رسم لسيتى الأول فى شبابه يمثله مهديا تمثال الصدق ، رسم بارز مأخوذ من مقبرته بطيبه .
راجع شكل رقم ١٠٩

ولم يهجر هـذا الملك قبره المنفى فلم ينشئ له قبرا آخر بوادى الملوك بطيبه . ثم ان جلالته حافظ على ألقابه الرسمية كقائد الجيوش وغيرها المنقوشـة على صدر قبره المنفى كما ألمعنا سابقا فلمـا تولى الملك أضاف الى تلك الألقاب أسماءه وألقابه الفرعونية . ثم رسم الصِّل فوق كل رسومه (شكل ١٥٠) مظهرا بذلك صفته الفرعونية[١] ولا تزال هذه الرسوم واضحة جلية الى وقتنا هذا .

وجنى خلفاء حورمحب ثمـار أعماله العظيمة لمـا تملكوا زمام الملك فى البلاد، ولكننا لم نتأكد للآن اذا كان حورمحب قد نجح فى تأسيس أسرة ملكية لأنه يستحيل علينا الآن كشف أى علاقة بينه و بين رمسيس الأول الذى عقبه فى الملك عام ١٣١٥ قبل الميلاد . ولمـا كان رمسيس الأول كهلا وقت توليـه الملك فهم ضمنا أنه كان ذا حق فى إرث العـرش الفرعونى لأنه ليس من السهل الاستيلاء على الملك فى سن الشيخوخة فى تلك الأوقات . والمعروف عن رمسيس الأول أنه لم يقم بأى عمـل هام لمملكته ولم يجن ثمـار ما غرسـه حورمحب قبـله وذلك لتقدمه فى السن . وكل ما نعرف عنـه أنه وضع رسم قاعة العمد العظيمة بالكرنك وبدأ بتشييدها لكنه توفى عاجلا فأتمها خلفاؤه بعده . وفى السنة الثانية من حكم هذا الملك أحس بالكهولة والعجز عن ادارة شؤون دولته فأشرك معه فى الملك ابنه سيتى الأول ، وكانت سنه ثلاثين سنة تقريبا[٢]. ويظن أن جلالته تمكن بمساعدة ابنه من شن غارة على النوبة لأن آثار هذه السنة تشير الى "العبيد الذين أسرهم" جلالته وأهـداهم الى معبد وادى حلفا بالنوبة[٣] . وليلاحظ أن هذه النقوش الخاصة بالمعبد المذكور[٤] هى النقوش الواحدة المؤرخة المعروفة عن هـذا الملك للآن . لكن لوحظ ورود اسم سيتى بآخر هذه النقوش ولذلك يرجح أنه هو الذى قام بتلك الأعمال ونصب حجره الأثرى بالنوبة قبل إيابه منها وقتئذ . ودلتنا الآثار أن رمسيس الأول توفى قبـل نصب الأثر المذكور بأقل من ستة أشهر (أى فى سنة ١٣١٣ قبل الميلاد) وأن سيتى الأول استقل وقتئذ بالملك[٥] .

ويظهر أن سـيتى الأول وضع تصميماته وقام باسـتعدادته الحربية لاسـترجاع المستعمرات الأسيوية وقت اشـتراكه مع والده فى الحكم الذى يقرب من السـنة . ودليلنا على ذلك أنه أصلح طريق فلسطين الممتـد من حصن ثارو (على حدود مصر والذى استعمله حورمحب منفى لمجـرميه المجدوعى الأنوف) ورمم وقوى القلاع المشيدة لحراسـة آثار وصهاريج المياه على ذلك الطريق[٦] . والمعروف أن المسـافة بين ثارو وغزه كانت تقطع وقتئذ فى عشرة أيام سـيرا على الأقدام[٧] ومنه يتضح لنا شدة احتياج المسافرين الى المـاء على طول ذلك الطريق . ولا يبعد أن كانت مصر وقتئذ محافظة على بعض نفوذها بفلسطين لكن المعروف أن الأحوال السيئة التى حلت بتلك البـلاد أيام إخناطون لم تعد لهـا العدة المناسـبة . نعم ان إخناطون أرسل الى تلك الجهات حملة بقيادة ضابط مصرى ولكن هذه القوة انهزمت وفشلت فى مهمتها تماما . والثابت أن المعلومات التى تلقاها

---

(١) ٣ : ١١ — ٢١ (٢) ٣ : ١٥٧ (٣) ٣ : ٧٨ (٤) ٣ : ٧٤ ملاحظة (٥) ٣ : ١٥٧
(٦) ٣ : ٨٤ و ٨٦ (٧) ٢ : ٤٠٩

سيتى الأول عن حالة مستعمرات مصر الأسيوية اتفقت تماما هى وما ورد فى خطاب أبد خيبا (Abdkhiba) والى بيت المقدس الذى أرسله الى إخناطون[١]. ويذكر القارئ أن هذا الخطاب ذكر أن بدو الصحارى المجاورة لفلسطين زحفوا واستولوا على مدن فلسطين لكننا لم نتأكد بالضبط هل حصل ذلك بايعاز من حكام تلك الأقاليم أو من تلقاء أنفس هؤلاء البدو . ومما يعزز مضمون هذا الخطاب ما وجد من الرسوم على الآثار المصرية الممثلة هروب الفلسطينيين فى ذعر من أعدائهم الى مصر . واليك ترجمة ما وصل الى سيتى الأول من الأخبار الخاصة بهؤلاء البدو ومنها يتضح لك شدة موافقتها لما ذكرناه سابقا :

"لقد اتحد رؤساء البدو معا وأخذوا يضعون أيديهم على فلسطين ، وهم الآن يفتكون بالناس ويلعنونهم ويضربونهم ، فصار كل منهم يقتل جاره غير مكترثين لقوانين القصر الملكى"[٢] .

فى أثناء هذه الغارات البدوية أخذ الاسرائيليون يستعمرون فلسطين وكانوا يدفعون الجزية لفرعون ويطيعون أوامره ولذلك لم يهتم بهم . أما الآن فتغيرت الأحوال وامتنع هؤلاء القوم عن ذلك .

وفى السنة الأولى من حكم سيتى الأول قاد جلالته جيشه وزحف على آسيا مبتدئا من ثارو ومتبعا طريق سينا الذى أصلحه مارا بقلاعه وحصونه التى رممها[٣] حتى بلغ جنوبى فلسطين المعروف وقتئذ باسم نجب (Negeb) فقابله هناك بدو تلك الجهة المعروفون بالشاسو أو الشوس فشتت شملهم[٤] ثم بلغ حدود كنعان (وهو اسم أطلقه المصريون على غربى فلسطين وسوريا) فاستولى هناك على مدينة محصنة محاطة بسور فى آخر الاقليم الذى حصلت فيه مشاحنته مع البدو[٥] . وبعد ذلك زحف شمالا فاستولى على بلاد سهل مجدّو المعروف بيزرل (Jezreel) وعبر وادى نهر الأردن ونصب هناك حجرا أثريا ذكر فيه انتصاراته التى حازها بجهة حوران (Hauran) [٦] . ثم زحف سيتى الأول غربا حتى بلغ جنوبى بلاد لبنان فاستولى على مدينة يانوام (Yenoam)[٧] المحاطة بالغابات الكثيرة والتى وقفها تحوتمس الثالث بعد غزوته لها على معبد آمون وذلك منذ مائة وخمسين سنة تقريبا . فى ذلك الوقت أقبل على جلالته وفد من حكام تلك البلاد أظهر له الخضوع والولاء لمصر وقدّم له ما يطلب من الخدم . وليلاحظ أن هؤلاء الحكام مضى عليهم حوالى خمسين سنة بعد ترك أمنحتب الثالث لمدينة صيده لم يشاهدوا فى أثنائها فرعونا مصريا قائدا لجيشه كما اعتادوا سابقا[٨] ، ولذلك أراد سيتى الأول أن يختبر ولاءهم فكلفهم احضار كل خشبية من الأرز ليتم بها بناء سفينة آمون المقدّسة فى طيبه وليصنع منها أيضا سوارى طويلة لنصبها أمام صروح معبد ذلك المعبود[٩] عند ذلك أسرع هؤلاء الحكام فى حضرة سيتى بجمع تلك الكتل، وقد راقب جلالته شخصيا شحنها من الموانى البحرية التى أخضعها كما فعل سلفه تحوتمس الثالث . ويظن أن سيتى الأول وصل فى حملته هذه الى شمالى صميره أولازا (Ullaza)[١٠] . وقد قدّم ملك قبرص الى جلالته وقتئذ

(١) راجع من صحيفة ٢٥٧ الى صحيفة ٢٥٨ (٢) ٣ : ١٠١ و ٢ : ٣ – ٩ (٣) ٣ : ٨٣ ملاحظة
(٤) ٣ : ٨٥ ملاحظة (٥) ٣ : ٨٧ – ٨ (٦) ٣ : ٨١ (٧) ٣ : ٨٩ – ٩٩ (٨) راجع صحيفة ٢٣٤
(٩) ٣ : ٩١ – ٩٤ (١٠) ٣ : ٨١ و ٩٢

هدايا جزيلة جريا على عادة حكام تلك الجزيرة نحو ملوك مصر . والثابت أن مدينتي صور (Tyre) و أثو (Othu)[١] خضعتا لسيتي وقتئذ وأن ساحل فلسطين أصبح آمنا وأن الطريق البحرى بين مصر وفلسطين أعد للقيام بحملات حربية فى المستقبل .

بعد ذلك رجع سيتي الأول وكانت الاستعدادات والاحتفالات قائمة على قدم وساق انتظارا لوصول جلالته ظافرا من آسيا كما كان يفعل لفراعنة مصر الفاتحين منذ جيلين . وذاع انتصار سيتي هذا فى أنحاء البلاد فبلغ مصر قبل وصوله اليها ولذلك هب رجال الحكومة لمقابلة جلالته على حدود مصر ، فاجتمعوا هناك بجهة ثارو (Tharu) على رأس الجسر المشيد على القناة العذبة الموصلة نهر النيل بالبحيرات المرة (راجع صحيفة ١٢١) فأبصروا هناك الجيوش المصرية قادمة يعلوها الغبار وتبدو عليها علامات التعب يتقدمهم فرعونهم راكبا عجلته الحربية وسائقا أمامه أسراه من أمراء فلسطين وسوريا ، عند ذلك صاح موظفو الحكومة بصوت واحد شق عنان السماء هاتفين هتاف التحية والتبجيل[٢] . ولما وصل جلالته الى طيبه أقيمت له احتفالات عظيمة أخرى عرضت فيها الأسرى والغنائم الحربية الجزيلة أمام آمون كما فعل أيام ملوك عهد الامبراطورية الأولى . وليلاحظ أن أهالى طيبه مضى عليهم نيف وخمسون سنة تقريبا لم يشاهدوا فى أثنائها مثل تلك الاحتفالات[٣] . وقد ضحى سيتي فى ذلك الاحتفال ببعض الأسرى أمام المعبودات قربانا لهم[٤] .

وظهر الآن أن هذه الحملة الأسيوية كانت كافية لاخضاع جنوبى فلسطين لمصر ، ويرجح أن معظم شمالى فلسطين ضم أيضا وقتئذ الى الامبراطورية المصرية . ثم أراد سيتي الأول أن يقوم بحملة ثانية بآسيا لكن حصل وقتئذ اضطراب كالذى حدث فى مبدأ الأسرة الثانية عشرة اضطر جلالته أن يخضعه أولا . وتفصيل ذلك أن الليبيين القاطنين غربى مصبات النيل تحينوا فرصة ضعف مصر فهاجروا الى الوجه البحرى وأخذوا يضعون أيديهم على كل ما يمكن تملكه فهددوا حدود الدلتا الغربية . ودلتنا قائمة ايرادات سيتي الأول أن جلالته أمضى سنته الثانية كلها فى الدلتا[٥] ويرجح جدا أنه قام وقتئذ بقمع الليبيين . وجاء أن جلالته التقى بهؤلاء الأعداء فى مكان غربى الدلتا[٦] لا يزال مجهولا لنا وانتهى الأمر بانتصار جلالته انتصارا باهرا فأقيم له احتفال كبير بطيبه[٧] أمام المعبود آمون حيث قدم له الغنائم الجزيلة والأسرى العديدين . والظاهر أن جلالته لم يذهب الى طيبه بعد انتصاره على الليبيين مباشرة بل قصد آسيا بعدئذ لإكمال انتصاراته وتوطيد سلطته بسوريا . وعلى كل فالمعروف أنه بلغ أرض الجليل (Galilee) واستولى عنوة على مدينة كدش المحاطة بسور حصين . وهذه المدينة الأخيرة غير كدش التى على نهر الأورونط (العاصى) . وليلاحظ أن هذه الأقاليم كانت تعرف وقتئذ بمملكة آمور وقد ألمعنا سابقا أن أبد شيرتا (Abdashirta) و أزيرو (Aziru) هما اللذان أسسا هذه المملكة كما جاء فى خطاب رب أدى (Rib-Addi)[٨] والآن تذكر القارئ أن هذه المملكة الصغيرة المحتوية على كدش وأرض الجليل كانت بمثابة حد فاصل منيع بين شمالى فلسطين جنوبا

(١) ٣ : ٨٩ (٢) ٣ : ٩٨ — ١٠٣ (٣) ٣ : ١٠٤ — ١١٢ (٤) ٣ : ١١٣ (٥) ٣ : ٨٢ و ٢
(٦) ٣ : ١٢٠ — ١٢٢ (٧) ٣ : ١٢٣ — ٩ (٨) راجع سابقا من صحيفة ٢٥٤ الى ٢٥٧

ووادى نهر الأورونط المكوّن لحدود مملكة الحيثيين الجنوبية شمـالا . من ذلك يتضح أنه اذا أراد سيتى الأول أن يهجم على الحيثيين وجب عليه أولا أن يخضع مملكة آمور وهذا هو ما قام به جلالتـه فقد اسـتولى على تلك المملكة بمـا فيها كدش (على الأرجح)[١] . بعـد ذلك زحف جلالته شمـالا على الحيثيين فاتضح لهم أن ملكها المدعو سـپلل (Seplel) الذى تحالف مع مصر فى أواخر الأسرة الثـامنة عشرة توفى منـذ مدة طويلة وأن ابنه المدعو مراسـار (Merasar) كان قائمـا بالملك بدله[٢] . فى ذلك الوقت التحمت جيوش مصر بجيوش خيتـا لأول مرة فى التـاريخ القـديم وكان ذلك فى مكان مجهول وعلى نهر الأورونط فدارت رحى القتال بين الفريقين بشـدة ركب فى أثنائهـا سيتى الأول عجلتـه الحربية وحارب أعداءه مع جيوشـه حتى انتصر عليهم تمـاما[٣] . ويستدل من قرائن الأحوال أن هذه المعركة لم يشترك فيها جيش الحيثيين الرئيسى لأن سيتى لم يزعزع مركز أعدائه بسوريا فقد بقيت كدش (التى على نهر العاصى) بأيديهم . وعليه فالغالب أن كل ما أحدثه سيتى حينئذ هو ارجاع حدود الحيثيين يسيرا الى الشمال ووقف زحفهم وتدخلهم فى شؤون فلسطين جنوبا . بعد ذلك رجع جلالته الى طيبه فقابلته رعيته بالحفاوة والاكرام وهناك قدم جزيته وأسراه هدية لآمون معبود الامبراطورية الأعظم بالكرنك[٤] . ويتضح من ذلك أن حدود مستعمرات مصر الأسـيوية وصلت وقتئذ بوجه التقريب الى حدود فلسطين الشمالية بمـا فى ذلك من مدينـة صور (Tyre) وساحل فينيقيا جنوبى نهر ليطانى (Litâny) . وليلاحظ أن هذه الفتوحات لم ترجع لمصر إلا ما يقرب من ثلث مستعمراتها السابقة ولذلك كان طبيعيا أن يستمر سيتى فى فتوحاته السورية . لكنه مع ذلك لم يظهر جلالته هناك بعد ذلك لسبب لا نزال نجهله ويظن أنه اقتنع وقتئذ بعدم فائدة نضال الحيثيين لشدة رسـوخ قدمهم بسوريا . زد على ذلك أن مركز مصر بسوريا أضحى مخالفا لمركز الحيثيين الذين احتلوا تلك البلاد احتلالا ملكيا وحربيا ، أما الفراعنة فلم يعبأوا كثيرا بتثمير تلك الجهات بل كل ما عنوا به هو أخذ الجزية السـنوية منها ، ولذلك كان منتظرا أن الاسـتعمار المصرى الضعيف لا يقوى على قلب استعمار الحيثيين القوى . ثم ان مملكة الحيثيين أصبحت مائجة بالسكان بأكثر ممـا تسع فكان هؤلاء يهجرون وطنهم نازحين الى سوريا ومنه يتضح أنه لو فرض ونجح المصريون فى طرد الحيثيين من جنوبى سـوريا فان شمالى سوريا يبقى دائمـا فى حالة حرب مع المصريين . والظاهر أن سيتى اقتنع حينذاك بأن أحوال البلاد تغيرت كثيرا عما كانت عليه أيام تحوتمس الأول فصمم حوالى ذلك الوقت أن يبرم معاهدة ودية مع ملك الحيثيين المدعو متلا (Metella) الذى تولى الملك بعد أبيه مراسار (Merasar)[٥] .

ولمـا آب سيتى الى وطنه جعل همه توطيد السلام فى المملكة وتشييد المعابد . وقد ألمعنا سابقا الى أن حورمحب أصلح كثيرا ممـا أتلفـه أتباع مذهب آتون . والآن نذكر القارئ أنه لمـا تولى

---

(١) ٣ : ١٤٠ — ١٤١ (٢) ٣ : ٣٧٥ (٣) ٣ : ١٤٢ — ١٤٤ (٤) ٣ : ١٤٥ — ١٥٢
(٥) ٣ : ٣٧٧



شكل ١٥٥ — تفقد أحوال البهائم · رسم فى مقبرة طيبية فى عهد الامبراطورية

والد سيتي الأول الملك لم يتمكن من عمل شيء يذكر بالنسبة لكبر سنه ، فلما تولى بعده ابنه سيتي وجد كثيرا من هذه الآثار فى حاجة الى الاصلاح ، فقام بهذه المسألة بكل احترام وورع. وتوجد على كل معابد آمون المنتشرة على النيل من عمارة بالنوبة جنوبا الى تل بسطه بالدلتا شمالا نقوش أثرية تشير الى "الاصلاحات التى قام بها سيتي الأول لهذه الأماكن المقدسة"[١] . وقد أرسل جلالته البعثات لقطع الأحجار من محاجر مصر بجهة أسوان والسلسلة و جبلين (Gebelen)[٢] واستخدم فى ذلك أسرى حروبه كما فعل أسلافه . وفى حالة استخدام المصريين فى ذلك كان جلالته يفتخر بمعاملتهم بسخاء ورفق ، خذ مثلا ما ورد عن الألف من العمال الذين استخدموا فى قطع الأحجار الرملية من محاجر السلسلة ، فان كلا منهم كان يتقاضى أربعة أرطال خبزا وحزمتين من الخضراوات وقطعة من اللحم المشوى كل يوم وثوبا من الكتان النظيف مرتين كل شهر[٣] . وبلغت العمارات التى شيدها سيتي الأول فى جميع المعابد القديمة درجة فاقت أبنية أرض عصور الامبراطورية ، ومنه استدل أن دخل الخزانة المصرية وقتئذ كان عظيما وكافيا للقيام بهذه المصاريف الباهظة على صغر حجم الامبراطورية . ولا يخفى أن الامبراطورية المصرية وقتئذ كانت تلك الأقاليم التى بين الشلال الرابع جنوبا ونهر الأردن شمالا .

ومن عمارات سيتي الأول القاعة ذات العمد العظمى التى أسسها رمسيس الأول أمام صرح أمنحتب الثالث بمعبد الكرنك ، وقد فاقت هذه القاعة فى العظم قاعة أمنحتب الثالث ذات العمد التى لم يتم بناؤها فى معبد الأقصر . ثم كسى سيتي نقوش أمنحتب الثالث الحربية التى على صرحه بالأحجار من الخارج وأكمل بناء عمد صحن المعبد الشمالى وكذا حائطه الشمالى الذى نقش عليه حفاروه من الخارج نقوشا عظيمة تمثل انتصاراته (شكل ١٥٢) وتبلغ مساحة الحائط المنقوشة من الجدار الى الافريز حوالى مائتى قدم وتجتمع هذه النقوش نحو باب الدخول فى الوسط والمرسوم حوله الملك سيتي راجعا الى مصر مقدما الهدايا والأسرى والغنائم لآمون ومضحيا فى نهاية الأمر بالأسرى الى المعبود المذكور . والمشاهد لهذه الرسوم يرى أن جلالة الملك يستعد للدخول والاشتراك فى الاحتفال الدينى[٤] . ومثل هذه الآثار والرسوم كانت تعمل لملوك الأسرة الثامنة عشرة لكنها بادت الآن فلم يبق منها الا ما ذكرناه خاصا بأمنحتب الثالث . من ذلك يتضح لنا ما فى رسوم سيتي الأول الحربية من الفوائد . وعاجلت سيتي الأول منيته قبل أن يتم القاعة العظمى ونقشها بالرسوم البديعة فأتمها خلفاؤه من بعده . وقد اتبع سنة آبائه ملوك الأسرة الثانية عشرة فشيد لنفسه معبدا بالسهل الغربى بطيبه فى الطرف الشمالى لسلسلة معابد الملوك الأقدمين . ولما كان والد سيتي قد توفى قبل أن يشيد له معبدا جعل سيتي معبده هذا مشتركا بينه وبين والده ، ويعرف هذا المعبد الآن بمعبد القرنه (Kurna) والمعروف أن سيتي توفى قبل اتمامه أيضا[٥] .

---

(١) ٣ : ٢٠٠ (٢) ٣ : ٢٠١ — ٢١٠ (٣) ٣ : ٢٠٧ (٤) ٣ : ٨٠ — ١٥٦
(٥) ٣ : ٢١١ — ٢٢١

وشـيد أيضا معبدا جميلا بالعرابة لمعبودات مصر العظمى (وهى معبودات تثليث أزوريس وسيتى أيضا) ومحرابا صغيرا أيضا مجاورا له لاقامة الدعوات لملوك مصر الأقدمين وبالأخص ملوك الأسرة الأولى والثانيـة الذين دفنوا خلف المحراب المذكور بالصحراء[١] ونقش على جدر معبـده هذا قائمة بأسماء ملوك مصر الأقدمين ابتداء من مينا الى عهده ولا تزال هذه القائمة معتبرة من أهم المستندات التاريخية التى نستمد منها معلوماتنا عن تواريخ هؤلاء الملوك . وقد تلف صرحا هذا المعبد ومع ذلك فان البقية البـاقية منه لا تزال تعتبر أنفس الآثار التى أبدعتها أيدى المصريين المهرة . وسنتناول الكلام عليها من وجهة الفنون الجميلة فيما بعد . وجاء عن سيتى الأول أنه شيد أيضـا معبدا بمنف وآخر بعين شمس ومعابد أخرى بالدلتا لم نعرف عنها الا القليل . ويوجد بأبى سـنبل معبد عظيم شيده سيتى لكنه توفى قبل اتمـامه[٢] فأتى بعده رمسيس الثانى وأتمه .

لا يخفى أن هذه المشروعات تطلبت أموالا عظيمة،ثم انه أراد أن يحبس أوقافا ثابتة على معبد العرابة فاضطر الى البحث عن موارد مالية أخرى فاتجه ذهنه الى استخراج الذهب من مناجم جبل الزبارا على ساحل البحر الأحمر . والعقبة الكئود التى كانت دائمـا تحول دون تثمير تلك المناجم هى صعوبة الطريق الموصل اليهـا الذى يبتدئ من وادى النيل جنوبى ادفو بعدة أميال ، فأراد الملك أن يذلل تلك الصعوبة فذهب شخصيا الى ذلك الطريق ووضع الخطط لتمهيـده . ولمـا بلغ تلك الجهة اضطر أن يتوغل فى الصحراء سبعة وثلاثين ميلا تقريبا حتى وصل الى محطة استعملت قديما أيام الأسرة الثامنة عشرة للاستراحة وهى تبعد عن النيل بمسيرة يومين تقريبا[٣] ، وهناك أمر بحفر بئر تحت اشرافه فنبعت منـه المياه بغزارة[٤] وفى الحال أصدر أمره بتشييد معبد بجوار ذلك البئر وتأسيس قرية أيضا[٥] . والظـاهر أن الملك أسس عدة محطات أخرى على طول الطريق الى منـاجم الذهب المذكورة كما يسـتدل من أنشودة الرحّالة الظماء التى كانوا يترنمون بها وقتئـذ واليك ترجمتها :

"أيتها المعبودات السا كانت هذا البئر أمنحن سيتى العمر الأزلى لأنه شق لنا الطريق لنسير فيها بعد ما كانت مهجورة فأصبحنا نسير فيها سالمين ونصل أحياء وأضحى الطريق الصعب سهلا جميلا"[٦] .

ولمـا تم مشروع هذه المناجم وقف سيتى ايراد هذا المشروع على معبد العرابة وصب اللعنات الشديدة على كل من يعطل هذه الأوقاف وينقض ارادته[٧] . والغريب أن هذه الأوقاف عطل تنفيذها بعد وفاته بمدة فلما تولى ابنه رمسيس الثـانى الحكم أرجعها الى أصلها[٨] . وأراد سيتى أن يستغل مناجم ذهب النوبة على الطريقة السالفة فأمر بحفر بئر عمقه مائتا قدم تقريبا على الطريق المبتدئ من جنوبى شرق كوبان بالنوبة الى وادى علاكى لكنه لم يهتـد فى آخره الى المـاء فبطل المشروع وحرم الملك من استغلال ذهب ذلك الاقليم[٩] .

---

(١) ٣ : ٢٢٥ — ٢٤٣ (٢) ٣ : ٤٩٥ (٣) ٣ : ١٧٠ (٤) ٣ : ١٧١ (٥) ٣ : ١٧٢ — ٤
(٦) ٣ : ١٩٥ (٧) ٣ : ١٧٥ — ١٩٤ (٨) ٣ : ٢٦٣ (٩) ٣ : ٢٨٩

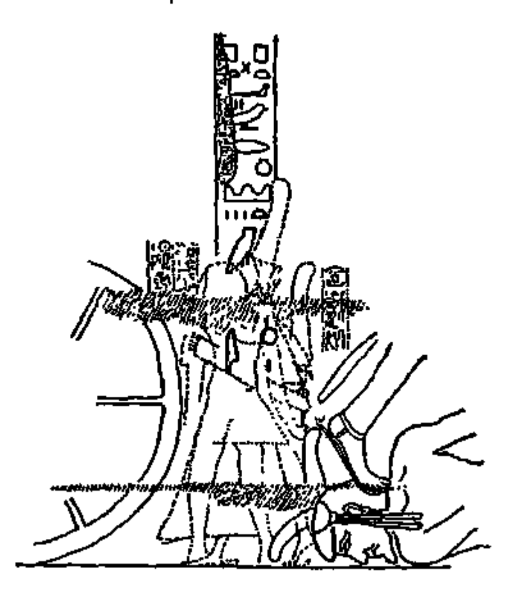


شكل ١٥٦ — الصيد فى قارب من الغاب فوق مياه البرك ، رسم فى مقبرة بطيبة فى عهد الامبراطورية وترى أمام الصائد هرة ورد شرحها بصلب الكتاب

لقد حافظت الفنون الجميلة فى عهد سيتى على درجتها التى حازتها أيام الأسرة الثامنة عشرة من حيث التأثير والدقة والجمال ، لأن العزيمة ورد الفعل اللذين ظهرا على الامبراطورية أثر انتعاشها من ضعفها السابق لم يقللا كثيرا من درجتهما السابقة ، خذ مثلا قاعة الكرنك العظمى السابقة الذكر فانها لم تقم بالدقة المعهودة فى ملوك الأسرة الثامنة عشرة ومع ذلك فهى معتبرة من أعظم آثار المملكة المصرية من حيث الفن ولا تزال فى نظر الأثريين معتبرة من أعظم الآثار المصرية المدهشة بناء وفخامة رغم ما بها من الأغلاط الواضحة . وتعتبر مجموعة رسوم ونقوش عهد سيتى من أعظم أمثلة الاجتهاد والدقة اللذين اشتهرت بهما الأسرة الثامنة عشرة . وهذا الوصف ينطبق عليها اجمالا لكننا لو فحصنا كل جزء من هذه الرسوم على حدة لوجدنا فيه أغلاطا تخطيطية عديدة . وهناك بعض رسوم جاءت غاية فى الدقة والجمال كرسم سيتى الأول الرافع رمحه الطارد الأمير الليبى أمامه الموجود على حائط الكرنك الشمالى (شكل ١٥٢) . أما أجمل الرسوم البارزة المصنوعة فى عهد سيتى فهى التى بمعبد العرابة (شكل ١٥٣) ففيها تجتمع الرقة والدقة مع معالم الحياة والشجاعة والمهارة . وتعادل هـذه الرسوم فى الاتقان الرسوم التى على جدر قبر سيتى البديع بطيبه (شكل ١٥٤) . ولا تزال الصور الملونة تنم عن تقدم واتقان عهد تل العمارنة ، بجدر مقابر طيبه حاوية كثيرا من أمثال هذه الصور البديعة ، مثال ذلك منظر تفقد قطعان الأغنام (شكل ١٥٥) ومنظر القنص فى المستنقعات الذى تتجسم فيه وحشية الحيوان كما تشاهد ذلك فى (شكل ١٥٦) الذى يمثل قطا ثائرا قافزا بأرجله على طائرين وحشيين ومسلطا أنيابه على جسد فريسة ثالثة فى الوقت نفسه .

ولم ترد لنا معلومات عن تاريخ سيتى الأول بعد السنة التاسعة من حكمه ويرجح أنه قضى باقى حياته فى اقامة العمارات الضخمة وحفر مقبرته المعتبرة أكبر مقبرة عملت بوادى الملوك الى عهده ، وتشاهد فيها طرق وحجرات متشعبة آخذة فى الانحدار بما ينيف على أربعمائة وسبعين قدما (شكل ١٠٩) . وبعد ثلاثين عاما من تعيينه وليا لعهد المملكة أخذ يحضر المسلات لذلك وأعلن فى الوقت نفسه ابنا له لا تزال نجهل اسمه وليا لعهد الامبراطورية ، ثم أراد هذا الأمير أن يشترك هو ووالده فرسم نفســه وهو يحارب الليبيين على حائط الكرنك الشمالى لقاعة والده . ولمـا لم يكن منتظرا رسم هذا الأمير فى هـذا المحل من الحائط اضطر الحفارون أن يمحوا بعض النقوش الأصلية ليتمكنوا من رسم هـذا الأمير . ولمـا بادت الألوان التى كانت تكسو هـذه الرسوم اتضحت لنا اشارات لحوادث تاريخية كانت خافية للعيان ، وتتلخص هـذه الحوادث فى أن رمسيس الثانى أحد أبناء سيتى الأول من زوجته المدعوة تويا (Tuya) تآمر فى الخفاء على اغتصاب مركز أخيه ولى العهد ، وقام آخر أيام والده بحركة حكومية بخائية استولى بها على العرش . وسيتى الأول توفى قبل الاحتفال بمرور ثلاثين عاما على توليه عهد المملكة المصرية (حوالى عام ١٢٩٢ قبل الميلاد) فلم يتمكن من نصب مسلتين عملهما لذكرى هـذا التعيين . ومنه يتضح أن سيتى حكم أكثر من عشرين سنة مستقلا بالملك ، ودفن فى تابوت مرمرى بديع داخل قبره الفخم الذى حفره بالوادى الغربى بطيبه . وقد أسعدنا الحظ فحفظ لنا جثة هذا الملك الى يومنا هذا ولا تزال تبدو عليها ملامح العظمة والأبهة والجلال التى امتاز بها هذا الفرعون وقت اعتلائه العرش المصرى (شكل ١٥٨) .

ونفذ رمسيس الثانى كل اجراءاته فى اغتصاب الملك من أخيه الوارد رسمه بالحائط المذكور . وللآن لم نتأكد اذا كان رسم هـذا الأمير نقش فى عهد سيتى الأول أو أنه تسلم الملك مدة قصيرة بعد والده قبل أن يغتصب منه رمسيس الملك . والمعروف على كل حال أن رمسيس اغتصب الملك من أخيه بدون تردد واعتلى العرش فورا ثم محا اسم أخيه ولقبه ورسمه من على الحائط المذكور (شكل ١٥٢) ورسم نفسـه مكانه واضعا اسمه بدله وملقبا نفسه بولى عهـد المملكة كذبا وبهتانا (شكل ١٥٧) . كل هذه الأسرار تشاهد واضحة فى رسوم الحائط بعد ما بادت الألوان التى كانت



شكل ١٥٧ — بعض رسوم بارزة لسيتى الأول على جدر الكرنك . يشاهد فى هذا الشكل الابن الأول لسيتى الأول مرسوما بخطوط متقطعة . وقد استنتج فى استمرار النصوص الهيرغليفية الرأسية الى أعلى الرسم المذكور أن هذا الابن رسم نفسه هنا بعد الفراغ من الرسم الأصلى . أما الشخص المرسوم بخطوط نقطية فيمثل رمسيس الثانى وقد رسم نفسه كذلك فوق رسم أخيه الكبير الذى خلعه واغتصب الملك منه

تكسوها، ومن هذه المستندات علمنا خبر المشاحنات التى حصلت بين الأخوين الأميرين المصحوبة غالبا بمنافسات نسوية ونزاع بين أفراد البلاط الملكى . ولا تزال هذه الرسوم باقية شاهدة على تلك الحوادث وموضحة لكيفية اعتلاء رمسيس الثانى عرش مصر . ولمـا استولى هذا الأخير على العرش الملكى اتبع طرق التضليل المعتادة ليقنع الرعية بحقه فى العرش فخطب فى أمراء قصره مشيرا الى يوم أجلسه والده أمام الأمراء وليا لعهد المملكة[1] . وبديهى أن الأمراء كانوا على علم تام بحقائق الأمور لكنهـم تظاهروا ساعتئذ بجهلها وأخذوا يمدحون رمسيس كثيرا حتى فاقوا على المعقول ،

(1) ٣ : ٢٦٧ — ٨

واليك مثلا من مديحهم اياه : قالوا ان قوة جلالته وشهامته بلغتا الذروة وقتما قاد جيشه العظيم فى السنة العاشرة من عمره ![1] . ولا شك أن هذا الاطراء صعب التصديق جدا لسخافته من جهة ولبعده عن الصواب من جهة أخرى ، لكن الحق يقال ان رمسيس الثانى أظهر شجاعة عظيمة فى شبو بيته محا بها كل أثر لمجهودات أخيه المعزول فى المطالبة بالعرش .

ووطد رمسيس الثانى دعائم ملكه بسرعة فى طيبه عاصمة البلاد فأسرع حالا من بلاد الدلتا (على الأرجح) الى طيبه ليحتفل بعيد أوبت (Opet) السنوى العظيم بمعبد آمون الرسمى[2] . وهناك حاز جلالته تعضيد الكهنة فبدأ باقامة الاحتفالات الدينية لوالده بهمة لا تعرف الملل . ثم أبحر فى النيل شمالا من طيبه الى العرابة[3] ولا يبعد أن يكون نزل بها وقت رجوعه الى طيبة ، فوجد معبد والده فى حالة سيئة . وتفصيل ذلك أن سيتى توفى قبل اتمامه ولذا كانت القاعات بلا سقوف وكانت أحجار العمد والجدر مبعثرة لم يشيد منها الا اليسير . وأدهى من هذا وأمر أنه وجد الأوقاف التى حبسها والده على هذا المعبد قد أساء التصرف فيها من وكل اليه رعايتها[4] على الرغم من اللعنات التى أوردها سيتى فى وقفيته على من يبددها . كل هذا حصل ولم يمض على وفاة سيتى أكثر من سنة واحدة . ومما لاحظه رمسيس الثانى أيضا وقتئذ أن مقابر ملوك الأسرة الأولى الذين حكموا مصر نحو ألفى سنة أصبحت فى حالة تستدعى الالتفات والعناية[5] . لذلك جمع جلالته رجال قصره وقص عليهم رغبته فى اتمام هذه الأعمال وعلى الأخص اتمام بناء معبد والده[6] . وقد أتم جلالته معبد والده على حسب رغبته وجدد أوقافه ونظم ادارته وزاد عليها باهدائه الأغنام العديدة وضرائب مربى الطيور والصيادين . وأهدى للعبد أيضا سفينة تجارية بالبحر الأحمر وعدة سفن نيلية أخرى وعبيدا وخدما وعين أيضا كهنة وموظفين لادارة أملاك المعبد المذكور[7] . كل هذه اجراءات اعتبرها القوم نتيجة احترام رمسيس لوالده ، لكنها فى الحقيقة عادت عليه بالفائدة والنفع بدليل ما نقشه جلالته من الرسوم الضخمة بمعبد والده من أن هذه الأفعال جلبت له رضا سيتى وجعلت سيتى خليل المعبودات يرجوهم ليطيلوا عمر رمسيس ويقووا حكمه[8] . ومناجاة الأموات لمصلحة الأحياء عقيدة قديمة وجدت على آثار المملكتين القديمة والوسطى ، غيرما ذكره رمسيس سابقا على معبد والده الذى أتمه رمسيس بعده[9] .

والظاهر أن الأوقاف التى حبسها سيتى الأول على الأموات كانت كثيرة حتى أثقلت كاهل مالية رمسيس الثانى فاضطر جلالته أن يبحث عن موارد أخرى للمال . ودلتنا آثار منف أن جلالته اجتمع فى السنة الثالثة من حكمه مع وزرائه وشاورهم فى تمير مناجم وادى علاكى الذهبية بالنوبة واصلاح الطريق الموصل لذلك الوادى وقد عجز والده عن انجازه[10] . وكان المندوب السامى لكوش حاضرا ذلك الاجتماع فشرح لجلالته صعوبة المشروع وفشل والده فى الوصول الى مياه بحفر الآبار فى ذلك الطريق وزاد على ذلك قوله : " ان الحالة هناك أصبحت سيئة للغاية ، فالأشخاص

---

(1) ٣ : ٢٨٨ و ١ : ١٧ (2) ٣ : ٢٥٥-٦ و ٢٦٠ (3) ٣ : ٢٦١ (4) ٣ : ٢٦٣ (5) ٣ : ٢٦٢ (6) ٣ : ٢٦٤-٥
(7) ٣ : ٢٧٤-٧ (8) ٣ : ٢٥١-٢٨١ (9) ٣ : ٢٧٩-٢٨١ (10) ٣ : ٢٨١ و ١ : ١٠٣ ملاحظة

الذين يعبرون ذلك الطريق يموت منهم ما يقرب من النصف ظمأ ،وكانت الحمير تموت أيضا للسبب نفسه"[١] . لذلك وجب على كل مسافر الى تلك المناجم أن يأخذ كية من المياه معه تكفيه لذهابه وإيابه ، "ولهذا السبب وقف احضار الذهب من تلك الجهات"[٢] . بعد ذلك أشار والى كوش وأعضاء المجلس على جلالته بطريقة غير مباشرة يستحثونه على أن يقوم بتجربة أخرى للبحث عن مياه بذلك الطريق[٣] . وعهد الى والى كوش فى ذلك فقام ، هذا بمأموريته خير قيام ثم بعث لرمسيس خطابا أنبأه فيه بأنه عثر على كية غزيرة من المياه على عمق عشرين قدما تقريبا[٤] . وأمر رمسيس والى كوش أن ينصب بجهة كوبان — مبدأ طريق وادى علاكى — حجرا أثريا منقوشا عليه تاريخ هذا المشروع[٥] . ويلاحظ أن هذه الأعمال الداخلية كانت مقدمة لمشروعات عظيمة أخرى صمم عليها رمسيس للستقبل لأنه كان طموحا نحو العلا مشرئبا نحو استرداد مستعمرات آسيا التى فتحها قبله فراعنة الأسرة الثامنة عشرة .

---

(١) ٣ : ٢٨٢ – ٢٩٣ (٢) ٣ : ٢٨٦ (٣) ٣ : ٢٨٨ – ٩ (٤) ٣ : ٢٩٢ (٥) ٣ : ٢٨٢ – ٢٩٥

الفصل الحادى والعشرون

حروب رمسيس الثانى

ذكرنا سابقا أنه لما تولت الأسرة التاسعة عشرة الحكم كانت مستعمراتها الأسيوية محفوفة بالمخاطر ، وأن رمسيس الأول كان هرما قصير الحكم عاجزا عن القيام بحروب هناك . فلما تولى ابنه سيتى الأول عجز عن اختراق أقاليم الحيثيين وطردهم الى آسيا الصغرى واسترجاع ما فتحه ملوك الأسرة الثامنة عشرة . ثم أتى رمسيس الثانى فوجد الحيثيين واضعين أيديهم على تلك الأقاليم مدة عشرين سنة تقريبا منذ حربهم مع سيتى الأول . والظاهر أن المعاهدة التى أبرمت بين سيتى ومتلا (Metella) ملك الحيثيين ساعدت الأخيرين على بسط نفوذهم على مستعمراتهم وتحصينها جيدا ، ولذلك زحف متلا على وادى الأورونط (العاصى) واستولى على كدش مركز نفوذ سوريا أيام تحوتمس الثالث ، وقد قاومت وقتئذ أكثر من أية جهة بسوريا فلم تخضع إلا بعد كثير عناء . وقد أوردنا سابقا ميزات هذا الحصن الحربية والجغرافية ولا شك أن هذه الميزات استرعت أنظار ملك الحيثيين بجعلها عقبة كئودا فى وجه المصريين هناك .

واتبع رمسيس الثانى طريقة تحوتمس الثالث فى غزو الحيثيين فبدأ أولا باخضاع الشاطئ البحرى ليتخذه قاعدة حربية لحركاته المقبلة ، لأن المواصلات البحرية كانت أسهل وأسرع من البرية . وللآن لم نعرف ما فعله رمسيس فى رحلته الحربية الأولى لما نفذ الشطر الأول من مشروعاته وكل ما نعلمه أنه نصب لوحا من الحجر الرملى على نهر الكلب قرب بيروت بليت تقرشه تقريبا ولكنه يمكننا أن نميز عليه بصعوبة اسم رمسيس الثانى ، وذكر "السنة الرابعة من حكم جلالته" (شكل ١٥٩) . ومنه استدل أن تلك الحملة حصلت فى السنة الرابعة من حكمه وأن آخر مكان بلغه جيشه هو ذاك المكان على الساحل الفينيقى[1] . ولكن هذه الحملة كانت لسوء الحظ انذارا كافيا لمتلا لحروب فى المستقبل ، فأخذ هذا يجمع قواته ويستعد بكل جهده ويجبر جميع ولاته أن يشتركوا معا فى الدفاع عن كيانهم ضد مصر[2] .وقدعثر على نقوش مسمارية ببوغازكوى (عاصمة الحيثيين القديمة) تشير الى أن متلا نفسه كان يحارب رمسيس الثانى شخصيا فى معركة كدش (مأخوذة باذن الأستاذ برستد من دائرة معارف التاريخ القديم لجامعة كمبردج صحيفة ١٤١) ناانضم اليه ملوك النهرين وأرواد وكاركاميش (Carchemish) وكود (كثمان) وكدش ونوج وأوجاريت (Ugarit) وحلب وملوك آسيا الصغرى مثل ملك كزودن (Kezweden) و بدس (Pedes)[3] . ولم يكتف متلا

---

(١) ٣ : ٢٩٧ (٢) ٣ : ٣٠٦ (٣) شرحه

بذلك بل أنفق أموالا باهظة فى استئجار جنود كثيرة من جزر البحر الأبيض المتوسط وشواطئه كالليسيين الذين أغاروا مرة على الدلتا وقبرص أيام الأسرة الثامنة عشرة وكذا الميسيين (Mycians) والكليسيين (Cilicians) والدردانيين (Dardanians) و بلاد إرونت (Erwenet) المجهولة[١] . كل هؤلاء اندمجوا فى سلك جيش الحيثيين فكان أقوى من القوات المصرية فى أى وقت مضى ، والظاهر أن عدده بلغ وقتئذ عشرين ألف جندى وهو مقدار لا يستهان به فى تلك الأزمنة .

أما رمسيس الثانى فلم يكن أقل اجتهادا من ملك الحيثيين فى استئجار الجنود الأجنبية بالجيش المصرى. وليلاحظ أن جنود النوبة كانت معتبرة جزءا من الجيش المصرى منذ عهد المملكة المصرية القديمة فأهالى الماوزى مثلا قاموا بأعمال الشرط بعاصمة إخناطون . وهناك أمثلة عديدة مثل هذه قام بها النوبيون نحو الفراعنة. والمعروف من خطابات تل العمارنة أن جنود الشردينين (Sherden) استعملوا للمحافظة على النظام بسوريا قبل زمن رمسيس الثانى بستين سنة . فلما أتى رمسيس أدخل منهم عددا عظيما فى جيشه وكوّن منهم وحدة حربية كبيرة ولذلك كان الجيش المصرى مقسما الى ثلاثة أقسام : قسم المشاة وقسم العجلات الحربية وقسم الشردينين (شردن)[٢] وقال رمسيس انه أسر هؤلاء الشردينين فى حروبه السابقة والغالب أنه حقيقة فعل هذا مع بعضهم لما سطوا على ساحل الدلتا الغربى للنهب والسرقة[٣] . ويرجح أن عدد جيش رمسيس كان حوالى العشرين ألفا مع جهلنا عدد الجنود المأجورة فيه . وقسم جلالته جيشه الى أربعة فيالق هى فيلق آمون وفيلق رع وفيلق بتاح وفيلق سوتخ واختار جلالته أن يقود فيلق آمون شخصيا[٤] .

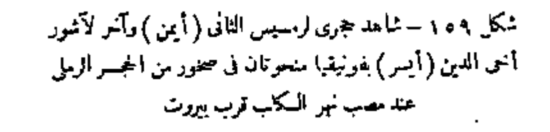
فى أواخر أبريل للسنة الخامسة من حكم جلالته (حوالى عام ١٢٨٨ قبل الميلاد) زحف جلالته بجيشه العرمرم من مدينة ثارو (Tharu) على حدود مصر الشمالية الشرقية وكان متوليا قيادة فيلق آمون بمقدّمة الجيش تتلوه فيالق رع و بتاح وسوتخ بهذا الترتيب. أما الطريق الذى سلكه رمسيس الثانى فى زحفه وقتئذ على فلسطين فلا نزال نجهله ، انما المعروف أنه لما بلغ لبنان كان زاحفا على شاطئ فينيقيا الذى أخضعه فى السنة السابقة . وجاء عن جلالته أنه أسس هناك مدينة سميت باسمه لاستعمالها قاعدة لأعماله الحربية فى المستقبل على الأرجح ، وللآن لم نعرف موضع هذه المدينة بالضبط ويرجح أنها قريبة من مصب نهر الكلب بالقرب من الشاهد الحجرى السابق الذكر . فى تلك المدينة جمع جلالته قواده وجنوده البواسل ثم زحف (على الأرجح) فى طريق وادى نهر الكلب . ومما هو جدير بالذكر فى هذا المقام أنه كان هناك طريق آخر أقل خطرا من هذا الى الجنوب على طريق نهر لتانى (Litâny) لكن رمسيس لم يتبعه لسبب لا نزال نجهله . بعد ذلك يمم جلالته نحو نهر الأورونط متبعا اياه وذلك فى أواخر شهر مايو أى بعد مرور تسعة وعشرين يوما على مغادرته حصن ثارو. وضرب جلالته خيامه فوق آخر قمة شمالى الوادى المرتفع بين سلسلتى جبال لبنان ،

---

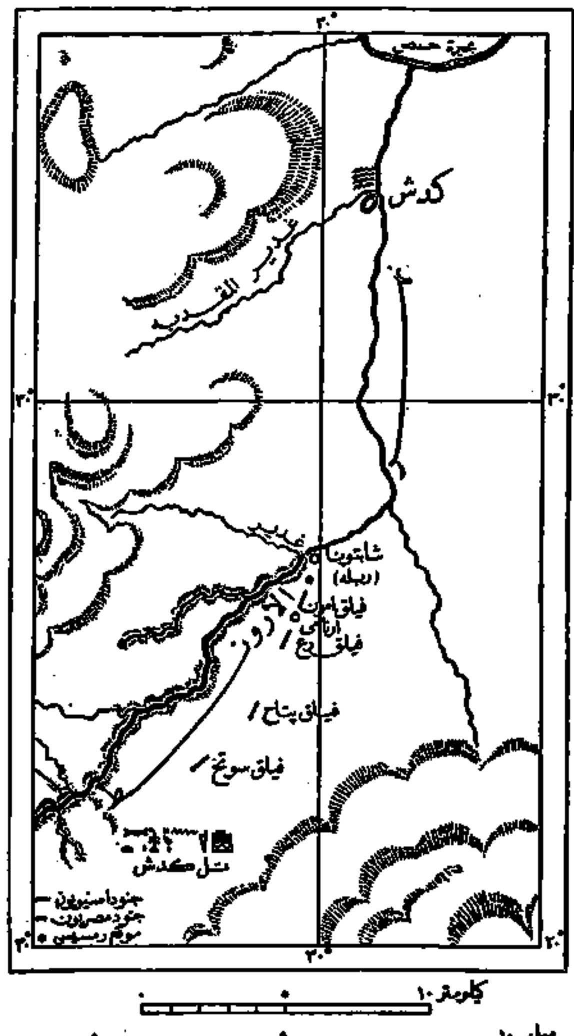
(١) ٣ : ٣٠٧ (٢) شرحه (٣) ٣ : ٤٩١ (٤) لمراجعة أصول الكلام التالى لهذا راجع ٣ : ٢٩٨ – ٣٤٨ وأيضا كتاب بخصوص معركة كدش طبع جامعة شيكاجو سنة ١٩٠٤

شكل ١٥٨ — رأس مومياء سيتى الأول
مأخوذ من موميائه بدار تحف القاهرة





شكل ١٥٩ — شاهد حجرى لرمسيس الثانى (أيمن) وآخر لآشور أخى الدين (أيسر) بفونيقيا منحوتان فى صخور من الحجر الرملى عند مصب نهر الكلب قرب بيروت



خريطة رقم ٨ مركز كدش الجغرافى
تبين موقع تل كدش حيث أمضى رمسيس الثانى ليله قبل المعركة
ومراكز جنوده فى صبيحة يوم القتال

وهـذا المكان يشرف على كدش ويبعد عنها بمسيرة يوم واحد ولذلك يجوز أن حصون هذه المدينة كانت ظاهرة لجنود رمسيس فى الأفق حيث يحوّل نهر الأورونط مجراه مخترقا ذلك الوادى .

فلما طلع نهار اليوم التالى حل رمسيس خيامه وزحف فى مقدّمة فيلق آمون تتبعه الفيالق الأخرى وانحدر بقواته على المنحدر الأخير نحو فرع نهر الأورونط القريب من مدينة شابتونا (Shabtuna) المعروفة عند اليهود باسم ربله (Ribleh) . واذا أمعن القارئ فى جغرافية تلك الجهات يجد أن نهر الأورونط يخترق منذ الآن أرضا سهله بعد خروجه من الوادى العميق بين سلسلتى الجبال الشاهقة . وسار رمسيس ثلاث ساعات ثم جهز عدّته لأن يعبر نهر الأورونط الى الغرب متجها نحو كدش وبهذه الطريقة تمكن جلالته من عبور هذا النهر الواسع قبل أن يهجم على كدش من الجنوب (خريطة رقم ٨) . واقتضى نظام الجيش أن يقدّم ضباطه أخبارهم كل يوم لجلالة الملك فكانوا يخبرونه بعدم عثورهم على جيش العدو قائلين له انهم يرجحون وجوده شمالى الجهة التى احتشدوا فيها . عند ذلك ظهر بدويان أدعيا أنهما هربا من جيوش الحيثيين وقالا ان ملك الحيثيين انسحب بقواته شمالا الى اقليم حلب شمالى تونب (بعلبك) فصدّق رمسيس هذه القصة لانطباقها على عدم عثور طلائع المصريين عن موقع الحيثيين . حينئذ عبر جلالته النهر مسرعا مصحوبا بفيلق آمون وزحف شمالا متبوعا بفيالق رع وبتاح وسوتخ سائرة الهوينى على هذا الترتيب ورغب جلالته فى حصار كدش ذلك اليوم، فأسرع مصحوبا بحرسه الخاص فقط غير مسبوق بعجلة واحدة تاركا خلفه فيلق آمون يتبعه ، فبلغ جلالته كدش وقت الظهيرة وكان متلا حاشدا جيشه فى الشمالى الغربى لكدش . وأصبح مركز رمسيس حرجا للغاية لأن الفيالق المصرية الأربعة كانت متفرقة على مسافة ثمانية أو عشرة أميال من الطريق وكان ضباط فيلق رع وبتاح يستريحون فى ظلال الغابات المجاورة اثر سيرهم الحثيث المتعب . ثم اتضح لمتلا أن رمسيس صدّق كلام البدويين اللذين أرسلهما لخداعه فأعدّ عدّته لاغتنام الفرصة فلم يهجم على رمسيس حالا بل سحب قوّاته الى شرق الأورونط ولكن رمسيس استمر سائرا شمالا غربى كدش وحينئذ أخذ متلا ينسحب جنوبا شرقى المدينة خلسة جاعلا المدينة فاصلا بينه وبين رمسيس كى لا يراه . بهذه الكيفية أحرز متلا موقعا حربيا يمكنه اذا أحسن استعماله أن يسحق به رمسيس وجميع قوّاته بغاية السهولة .



خريطة رقم ٩ : معركة كدش
مراكز القوات المحاربة وقت هجوم الاسيويين

فى هذا الوقت العصيب كانت القوات المصرية مجزأة تقريبا الى جزأين : جزء قريب من كدش مؤلف من فيلق آمون ورع، وجزء آخر مؤلف من بتاح وسوتخ جنوبى كدش لم يعبر فرع شابتونا (ربله) عند مصبه فى الأورونط (خريطة رقم ٩) . ولبعد فيلق سوتخ كثيرا عن حومة الوغى لم يسمع عنه شىء ولم يشترك فى العراك ذلك اليوم . ثم أراد رمسيس أن يستريح فى الشمالى الغربى لكدش وهو على الأرجح المكان الذى حشدت فيه قوات الحيثيين فى طليعة اليوم .

فى هذا الموضع ضرب رمسيس خيامه للاستراحة وقت القيلولة . بعد ذلك بزمن قصير وصل فيلق آمون وضرب خيامه حول السرادق الملكى وأقام الاستحكامات الخارجية حول المعسكر . ثم أخذت عجلات المؤونة ترد تباعا ففصلت منها الثيران وجمعت القالات ذات العجلتين فى مكان منفرد ضمن الاستحكامات المذكورة . وكانت الجنود المصرية المتعبة تتلكأ وتسق خيلها وتجهز غذائها ، فظهر وقتئذ جاسوسان أسيويان أحضرتهما الطلائع المصرية الى خيمة رمسيس الملكيـة فلما ضربا ضربا مؤلمـا أقرا بأن متلا خبأ جميع قواته خلف المدينة . فاستشاط رمسيس غيظا لذلك واستدعى حالا قواده وموظفيه ووبخهم كثـيرا على إهمـالهم فى عدم معرفتهم موقع العدو ودنوه منهم ثم أمر وزيره فى الحـال باحضار فيلق پتـاح بغاية السرعة ، ويرجح جدا أن الوزير نفسـه هو الذى قام بهـذه المأمورية شخصيا تخلصا من إهمـاله وصونا لشرفه . ويستدل من طلب رمسيس لفيلق پتاح فقط أن فيلق سوتخ كان بعيدا لا يمكنه الحضور والاشـتراك فى القتال لأنه لم يعبر حتى ذلك الوقت غدير شابتونا (ربلة) . ويستنتج أيضا من رسالة الملك أنه كان عالمـا بقرب فيلق رع منه واستعداده للقيام بأوامره ، ولكنه لم يدر بخلد رمسيس وقتئذ مقدار خطورة مركزه ولا عظم النكبة الموشـكة أن تسقط على فيلق رع التعس . " وبينما كان جلالته يوبخ أمراءه على إهمالهم اذا بملك الحيثيين عبر نهر الأورونط جنوبى كدش قائدا جيشـه العرمرم المسـتجمع من ممـالك عديدة ، وكان ظهور هؤلاء الأعداء من جنوبى كدش فشطروا فيلق رع شـطرين وهو سـائر على غرة غير مستعد للدفاع " .

هكذا وصف المكاتب الحربى تلك الحادثة المؤلمة وهو غاية فى الإيجاز والوضاحة مما يصعب على مكاتبى الحروب الحديثة أن يأتوا بأبلغ منه .

وكانت جميع قوات الحيثيين راكبة عجلاتها أما فيلق رع فكان مكونا من المشـاة فقط ولذلك سهل شطره وتشتيته . والظاهر أن القسم الجنوبى لهذا الفيلق أبيد كله ، أما الباقى فهرب نحو خيام رمسيس مذعورا تاركا عدوه وأدواته مبعثرة فى الطريق ، فأسر الحيثيون منهم عددا عظيما .

وكان أول ما فعـله ضـباط فيلق رع أن أرسلوا رسـولا الى رمسيس رأسا ليخبره بالكارثة ويظهر لنا أن أول نذير وصل الى جلالته كان دخول وحدات فيلق رع عليه مذعورين هـاربين بينهم نجلا جلالته ، فألقى هؤلاء أنفسهم داخل معسكر آمون لكنهم كانوا متبوعين بعجلات الحيثيين . عند ذلك أسرع حرس رمسيس المشاة فى تخليص وحدات رع من الأعداء ولكن الخطر كان شديدا فعجلات الحيثيين كانت تنيف على الألفين والخمسمائة . ثم اقترب الحيثيون من المصريين واتسعت مقدمتهم حتى طوقت المعسكر المصرى تماما .



خريطة رقم ١٠ : معركة كدش
تبين كيفية فصل قوات رمسيس الثانى عن بعضها واحاطة العدو به فى الدور الثانى للمعركة

وبديهى أن فيلق آمون تلق جنود رع المذعورين بصدمة كالصاعقة لأنه لم يكن مستعدا للقتال بل كان يحاول الراحة من عناء السفر ولذلك كان أعزل من السلاح عديم الضباط . وهكذا انتشر الذعر بين وحداته فهربت هذه شمالا نحو خيام رمسيس ودب الذعر أيضا فى معظم قوات الملك التى حوله . أما قواته الأخرى الجنوبية فكانت بعيدة تفصلها عنه قوات الحيثيين ولذلك لم يكن هناك أمل فى مساعدتها . من ذلك يتضح للقارئ أن هزيمة رمسيس أوشكت أن تكون تامة لا مناص منها (خريطة رقم ١٠) .

فى تلك البرهة الرهيبة لم يتردد رمسيس لحظة فيما يجب عليه أن يفعله على قصر الوقت الذى لديه ، فحاول جلالته أن يخترق صفوف أعدائه المحيطة به ليلتحق بقواته الجنوبية فاعتلى عجلته التى كانت بانتظاره وقاد بنفسه حرسه الخاص وبعض الضباط والجنود القريبين منه وهجم بشجاعة نادرة على الحيثيين المتدفقين عليه غربا ، فاتضح له أن قوات العدو فى الغرب والجنوب عظيمة جدا لا أمل فى اختراقها فعاد جلالته الى معسكره ، وتأكد أن عجلات الحيثيين فى الشرق أضعف قوة لعدم وجود الوقت الكافى لديها للاستعداد فيه . عند ذلك صوب جلالته قوته المستميتة وشدته الفرعونية نحو تلك القوات الشرقية فأوقع بينهم الرعب والذعر وألقاهم فى النهر تحت أعين متلا الواقف على الشاطئ المقابل مصحوبا بثمانمائة الآف من المشاة . فى تلك اللحظة رأى ملك الحيثيين ضباطه العديدين وكاتبه الخصوصى وقائد عربته الشخصية وقائد حرسه الخاص وأخاه يلقون جميعا فى النهر تحت هجمات فرعون الشديدة . فأخذ جنود متلا على الشاطئ ينجون رجالهم الغرقى وكان بينهم ملك حلب الذى أسعف من الغرق بصعوبة . وقد ضاعف رمسيس مجهوده على تلك الجهة باستمرار حتى شتت شمل أعدائه هناك .

فى تلك الساعة حصل أمر كثير الحصول بين جنود الشرق نجى رمسيس من الهلاك الكلى . وتفسير ذلك أن الحيثيين الذين اقتفوا أثر المصريين من الجنوب والغرب وجدوا أدوات وأمتعة المصريين مبعثرة أمامهم بكثرة فأخذوا يسلبونها بدلا من الاستمرار فى مطاردة المصريين والقضاء عليهم . والحقيقة أنهم لو فعلوا ذلك لكسروا المصريين شر كسرة وتمكنوا من أسر رمسيس نفسه . واتفق فى الوقت الذى كان هؤلاء الأعداء يسلبون أمتعة المصريين أن وصلت امدادات حربية مصرية آتية من الشاطئ غير الفيالق الأربعة السابقة الذكر للالتحاق بجيش رمسيس ، فانقضت هذه القوة على الحيثيين على غرة وأبادتهم عن آخرهم .

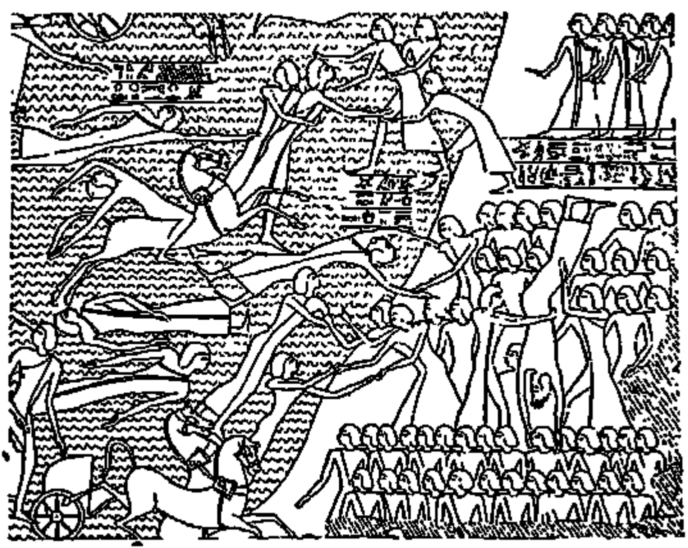
ولا شك أن هجوم رمسيس الشديد بجهة نهر الأورونط والمذبحة العظمى غير المنتظرة التى قامت بها تلك " الامدادات " الآتية بين الشاطئ أضعفا كثيرا من عزيمة الحيثيين وقللا من همتهم وأعطيا رمسيس فى الوقت نفسه مدة كافية لم شعث جيشه . وأخذت بعد ذلك وحدات آمون الهاربة تعود الى معسكرها وتنضم الى " الامدادات " فقل بذلك خطر مركز رمسيس الحربى وبق جلالته منتظرا فيلق بتاح .

والمعروف أن المصريين دافعوا عن أنفسهم دفاع الأبطال حتى اضطر متلا أن يمد جنده بآخر رديف عنده وهو المكون من ألف عجلة حربية مسلحة . وبالرغم من هجوم رمسيس على أعدائه ست مرات فان متلا لم يرسل جنده المشاة الثمانية الآلاف الذين كانوا معه على شاطئ النهر الشرقى، ولذلك لم يحارب من الحيثيين إلا قسم العجلات الحربية أما المشاة فلم يشتركوا فى الكفاح . وليلاحظ أن مقاومة رمسيس دامت حوالى ثلاث ساعات كان يراقب بشغف فى أثنائها وصول قواته الجنوبية القريبة من شابتونا (ربله) . ولما مالت الشمس للغيب لاحت فى أفق السماء رءوس حراب فيلق بتاح لامعة مسرعة مكفهرة فابتسم لها محيا رمسيس إذ علم بقرب نجاته ، فوقع الحيثيون بين قوتين مصريتين واضطروا بحكم مركزهم أن ينسحبوا الى كدش بعد ما تكبدوا خسائر جسيمة على الأرجح . والحق يقال اننا لا نزال نجهل كثيرا عن هذه الحوادث انما الثابت أن الليل لم يجيء حتى نجا رمسيس من ورطته واحتمى عدوه داخل كدش . بعد ذلك أحضر الأسرى أمام جلالته فذكر تابعيه أن الفضل فى أسر هؤلاء يرجع اليه وحده دون سواه .

وقد طفحت الآثار المصرية بوصف رجوع جنود رمسيس الهاربة اليه ثانيا وما رأى هؤلاء من القتل والفتك الذريع الذى حل بالحيثيين وبالأخص حاشية متلا الخصوصية والحكومية . ولا مراء فى صدق هذه الروايات لأنه من المؤكد أن الحيثيين خسروا كثيرا اثر هجوم رمسيس عليهم بجهة النهر شمالى كدش وأثر وصول فيلق بتاح . لكن خسارة رمسيس كانت جسيمة أيضا وعلى الأخص خسارة فيلق رع ولذا لا يبعد أن يكون المصريون خسروا أكثر من الحيثيين . ومن هذا يتضح للقارئ أن فوز رمسيس فى هذه المعركة ينحصر فى نجاته من الهلاك المحدق به ، أما احتفاظ جلالته بمركز دفاعه مدة القتال وبعده فلا قيمة له بجانب النتيجة المذكورة .

وجاء فى احدى الروايات المصرية عن هذه المعركة أن رمسيس كرر هجومه على الحيثيين بشدة عظيمة فأرسل متلا خطابا الى جلالته رجا فيه الصلح فوافق رمسيس على هذا الطلب ثم رجع منتصرا الى مصر . ولم تذكر باقى الروايات شيئا عن حوادث اليوم التالى ولكن يستدل منها أن هم رمسيس كان موجها للتخلص من ورطته وقيادة جنوده المشتتة ثانية الى مصر . ولم يرد فى رواية واحدة خبر استيلاء جلالته على كدش ومع ذلك فقد ذكر كثير من الأثريين حصول هذا الأمر بدون دليل تاريخى .

ويعزى نجاة رمسيس من الخطر الذى جرّه اليه طيشه أخذ يباهى بفعله للتخلص من هذا المأزق ، فنقش على جميع عماراته الضخمة المهمة أخبار هذه الموقعة الحربية باسهاب ما اعتبره هو ورجال حاشيته جديرا بالذكر . وتشاهد أخبار هذه المعركة منقوشة نقوشا بارزة زاهية على جدر معبد أبى سنبل والدر والرماسيوم معبد جلالته بطيبه ومعبد الأقصر والكرنك والعرابة وغير ذلك من العمارات التى بليت الآن . ومن أهم الاستكشافات الحديثة التى عملت فى بوغاز كوى بآسيا الصغرى العثور على نص هذه المعاهدة مكتوبا بالخط المسمارى . وعثر أيضا على نصوص مسمارية أخرى بتلك الجهة استدل منها أن النفوذ الحيثى كان مبسوطا على مملكة آمور وواصلا الى شمالى فلسطين (مأخوذة باذن من الأستاذ برستد من دائرة معارف التاريخ القديم لجامعة كمبردج صحيفة ١٥ طبعة سنة ١٩٢٥) .



شكل ١٦٠ — منظر من مناظر النقوش البارزة لمعركة كدش يشاهد فيه الأسيويون هاربين نحو نهر الأورونط واخوانهم على الجهة الأخرى للنهر ينتشلونهم منه . ويرى أيضا ملك حلب مقلوبا ورأسه الى أسفل بواسطة جنده لاخراج ما ابتلعه من المياه

واهتم حفار هذه النقوش برسم المعسكر المصرى ورجوع أنجال رمسيس بعد هربهم وهجوم رمسيس بشدة على الحيثيين جهة الأورونط ووصول الامدادات المصرية التى أسعفت المعسكر فى آخر الأمر . وقد أكثر أمام رمسيس من رسم قتلى الحيثيين ونقش جوار عظمائهم اسم كل منهم ومنه استدل أن بعضهم كانوا أمراء ومن أسر ملكية . ويرى الشاهد على شاطئ الأورونط الشرقى جنودا حيثيين رافعين شخصا مقلوبا رأسه الى أسفل محاولين اخراج ما تجرع من مياه النهر وبجوار هذا الشخص نقوش ترجمتها : "الحاكم اللعين والى حلب قلبه جنده جاعلين أعلاه أسفله بعد ما ألقاه جلالة الملك رمسيس الثانى فى الماء" (شكل ١٦٠) . وهذه النقوش أكثر الآثار المصرية تعلقا بأذهان زوّار مصر .

وعثر على روايتين لهذه المعركة مستهلتين بديباجة ملكية يظهر منها أن الروايتين كانتا بمثابة بلاغين رسميين عن سير المعركة . وقد وضع أحد شعراء ذلك العصر قصيدة رنانة ضمنها أخبار تلك المعركة سيأتى الكلام عليها ، ومما يستلفت النظر فى نصوص روايات هذه المعركة عبارة "انفراد رمسيس فى القتال ودفاعه وحيدا بلا جيش معه" فقد وردت مكررة كثيرا .

ونحن مدينون الى النصوص القديمة فى معارفنا عن معركة كدش المعتبرة أقدم المعارك الحربية المعروفة بالضبط ، وهذا هو السبب فى اسهابنا فى وصفها أكثر من سواها ، فاتضح للقارئ أن أهالى القرن الثالث عشر قبل الميلاد كانوا ملمين بميزات المواقع الحربية وتقسيم القوات المحاربة قبل القتال ، وأن الحيثيين برعوا فى القيام بحركات خفية دون معرفة المصريين وأنهم قسموا جيشهم الى قلب وجناحين ، ولذلك كانت معركة كدش أقدم معركة تاريخية استعمل فيها هذا التقسيم الحربى . وبناء عليه تكون سهول سوريا شاهدت أقدم أنواع هذه الحركات الحربية التى أتقنها نابليون وفاق فيها سواه والتى تعرف الآن "بفن الانتصار قبل العراك" .

ولما وصل رمسيس الثانى الى طيبه أقيم له احتفال عظيم بمعبد الحكومة وكان معه أبناؤه الأربعة ، فقدّم هناك جلالته للمعبودات "أسراء الشماليين الذين أرادوا هزيمة جلالته ففتك بهم وأحضر أسراهم ليخدموا فى مخازن أبيه آمون"(١) ثم نحل رمسيس لنفسه الألقاب الآتية : "مذل الأراضى والبلدان وحيدا دون سواه" (٢) .

وبالرغم من مباهاة رمسيس بهذا المديح واعجابه ببسالته فقد أيقن أن الحالة التى تركها بآسيا خطيرة بالنسبة للجيوش المصرية هناك ، لأن تأثير معركة كدش المعنوى فى حكام فلسطين وسوريا كان ضعيفا رغم ما أظهره رمسيس من الشجاعة والاقدام ثم ان رمسيس رجع الى مصر بسرعة دون أن يحاصر كدش . زد على ذلك أنه خسر هناك فيلقا من جيشه . كل هذه أسباب قللت كثيرا من هيبة المصريين بآسيا وعرضت جيوشهم فى المستقبل للخاطر . ثم ان الحيثيين اتخذوا عدم الفصل فى معركة كدش مجالا للتحرش فوطدوا نفوذهم بآسيا وبثوا الفتن والقلاقل بالمستعمرات الأسيوية . وقد قلنا فيما سبق أن سيتى الأول استرجع شمالى فلسطين فتاخمت امبراطوريته مملكة الحيثيين فسهل على الأخيرين اشعال الفتنة والثورة فى مستعمرات مصر هناك . وقد حصل فعلا أن شبت نيران الثورة تدريجيا حتى بلغت الشمال الشرقى للدلتا فاضطر رمسيس أن يبنى امبراطوريته من جديد وأن يسترجع ما فتحه والده . ومعلوماتنا عن تلك العصور يسيرة جدا ، زد على ذلك أن ما ورد الينا من أخبار تلك الحوادث مشكوك فى صحته . وكل ما يمكننا ذكره هنا أن رمسيس جدّد حملاته الحربية على آسيا مبتدئا بمدينة عسقلون التى استولى عليها عنوة (٣) واستمر كذلك الى السنة الثانية من حكمه

(١) ٣ : ٣٥١ (٢) معركة كدش صحيفة ٤٧ (١) ٣ : ٣٥٥

حيث وردت الأنباء بأنه زحف على شمالى فلسطين جائلا فى مدن جليله (Galilee) الغربية[١] ، وهناك التق مع حراس الحدود الحيثيين الذين زحفوا جنوبا بعد معركة كدش ، وكان هذا الالتقاء بالقرب من مدينة دبر (Deper) المعروفة عند العبرانيين باسم طابور (Tabor) فاستولى على هذه المدينة عنوة وساعده فى ذلك أنجاله[٢] وذلك بعد ما أقام بها الحيثيون مدة يسيرة. ويرجح أنه أغار أيضا على اقليم حوران (Hauran) واقليم جليله شرقى البحر حيث ترك هناك حجرا أثريا أثبت عليه غزوته[٣] .

ولم تمض ثلاث سنوات على ذلك حتى بلغ رمسيس الثانى حدود مستعمراته الأسيوية التى تركها منذ أربع سنوات . والحق يقال ان نتائج أعمال هذا الملك بآسيا تشهد له بكبر الهمة وعظم الكفاءة الحربية ، فقد جاء عنه أنه كرر زحفه على وادى الأورونط وطرد الحيثيين منه ، وأن قواته حاربت شمالى كدش فاستنتج ضمنا أنه استولى على هذه المدينة . بعد ذلك زحف على تونپ فى بلاد النهرين فاستولى عليها ونصب فيها تمثالا لنفسه[٤] . والمعلوم أن هذه الجهات النائية لبثت مدة طويلة منشقة من الحكم المصرى فلم يكن اخضاعها بعد ذلك أمرا هينا. ثم انها كانت آهلة بالحيثيين الذين رضوا أن يكونوا تحت حكم رمسيس على الأكثر . لهذه الأسباب لم تستتب السكينة هناك طويلا بل شبت نار الفتنة بسرعة فاضطر رمسيس الثانى أن يذهب الى تونپ ثانية ويطرد الحيثيين منها ، وقد تعرض وقتئذ لمخاطر جمة فقد اضطر أن يحارب بدون درع يقيه من السهام . ولما كانت أخبار هذه المعركة قليلة جدا نجد أنفسنا عاجزين عن الخوض فى تفاصيلها[٥] ولكن يستدل من قائمة البلاد التى أخضعها اثرها أنه استولى على بلاد النهرين وشمالى سوريا (الرتنو السفلى) وأرواد وسكان أرخبيل اليونان (خفتيو) وقطنه (حمص) التى بوادى الأورونط[٦] . وقد أثبتت هذه النتيجة مهارة رمسيس الحربية والسياسية لأنه قوض مملكة الحيثيين فى سوريا تماما ، ومع ذلك فاننا لا نزال غير متأكدين من صحة اخضاع رمسيس لجميع هذه الجهات الأسيوية الشمالية .

وثابر رمسيس الثانى على حروب آسيا خمس عشرة سنة تقريبا ثم حصل حادث داخلى هام بمملكة الحيثيين وقف حروبه هناك بغتة الى الأبد . ويتلخص هذا الحادث فى أن متلا ملك الحيثيين توفى فى معركة حربية (أو قتل بيد عدوله) فتبوأ أخوه خيتاسار (Khetasar) الملك بعده[٧] . ولشدة حاجة هذا الأخير الى حفظ مركزه واسكات معارضيه عرض على رمسيس الثانى مشروع معاهدة لإبطال الحروب وتوطيد السلام بينهما بآسيا . وفى السنة الحادية والعشرين من حكم رمسيس الثانى (أى حوالى سنة ١٢٧٢ قبل الميلاد) وصلت رسل خيتاسار الى القصر الفرعونى وكان وقتئذ بالدلتا كما سيتضح فيما يلى. ولا بد أن يكون الطرفان اتفقا سابقا على صورة هذه المعاهدة بمساعى ممثليهما لأن الآثار دلتنا أن الرسل لم يرسلوا وقتئذ إلا للموافقة النهائية على المعاهدة . وقد نقشت هذه المعاهدة على لوح فضى وتشمل ثمانى عشرة مادة رسم أعلاها المعبودة سوتخ محتضنة ملك الحيثيين وبجوارها المعبودة عينها محتضنة ملكة الحيثيين المدعوة پوتوخيپا (Putukhipa) زوج خيتاسار .

(١) ٣ : ٣٥٦ (٢) ٣ : ٣٥٧ و ٣٥٩ — ٣٦٠ (٣) ٣ : ٣٥٨ (٤) ٣ : ٣٦٥ (٥) ٣ : ٣٦٤ — ٥
(٦) ٣٦٦ (٧) ٣ : ٣٧٥ و ١ : ١٠

وبجوار هـذه الرسوم وضعت أختام سوتخ معبودة الحيثيين ورع معبود إرنين (Ernen) ورمسيس وخيتاسار . ويرجح أن ملك الحيثيين احتفظ بنسخة أخرى من هـذه المعاهدة ، وتعتبر هذه أقدم معاهدة دولية معروفة واليك ترجمة ديباجتها :

"معاهدة منقوشة على لوح فضى بين ملك الحيثيين خيتاسار الشجاع بن ميراسار ملك الحيثيين الشجاع ابن ابن سپلل ملك الحيثيين الشجاع (طرف أول) ورمسيس الثانى الملقب أسر معارع استپن رع (Usermare-Setepnere) حاكم مصر الأعظم الشجاع ابن سيتى الأول حاكم مصر الأعظم الشجاع ابن ابن رمسيس الأول حاكم مصر الأعظم الشجاع (طرف ثان) .

هذه المعاهدة الطيبة محمات لحفظ السلام والإخاء واستتباب السكينة بين الطرفين الى الأزل"[1] .

يلى ذلك سرد الأحوال والعـلاقات القديمة بين مصر ومملكة الحيثيين ثم وصف العـلاقات والمعاملات الحديثـة ثم الشروط الواجب مراعاتها فى المستقبل وأهمها وقوف غزوات كل فريق لأراضى الآخر وارجاع العـلاقات الودية الى أصلها ومساعدة كل فريق للآخر فى حالة هجوم دولة ثالثة أجنبية عليه والتعاون فى عقاب أشقياء الطرفين فى سوريا (غالبا) وطرد الفـار بين السياسيين والمهاجرين التابعين لكل فريق الى بلاده . يعقب ذلك ملحق يحض على استعمال الرأفة فى معاملة هؤلاء الأشخـاص والاستشهاد بألف معبود ومعبودة من مملكة الحيثيين وألف معبود ومعبودة من مملكة مصر لهـذه المعاهدة ، وقد علمنا منها عدّة معبودات حيثية ومحل عبادتها . وتنتهى المعاهدة بصب اللعنات على كل من يخالف شروطها وبطلب الرحمة والسلام لكل من يحترمها . والظاهر أن الملحوظة الأخيرة صيغت فى آخر الأمر .

وقد أمر رمسيس بنقش صورتين من هذه المعاهدة بسرعة على جدار معبدين له بطيبه ديجهما بوصف وصول رسل الحيثيين وأورد بعد ذلك رسم المعبودات والأشخاص الوارد ذكرهم فى اللوح الفضى المذكور[2] . وقد عثر وينكلر (Winkler) على صور مبدئية لهـذه المعاهدة منقوشة بالخط المسمارى على قالب لبن فى بوغاز كوى بآسيا الصغرى .

ولم يرد بهذه المعاهدة بيان حدود المملكتين الحيثية والمصرية بآسيا ولكن يرجح أنها عينت فى معاهدة سابقا . ومن الصعب وصف هذه الحدود بالضبط . ولكنه يستدل من النقوش المسمارية التى عثر عليها وينكلر (Winkler) فى بوغاز كوى منذ عام ١٩٠٦ وهى التى أشرنا اليها سابقا (صحيفة ٢٥٢) أن الحيثيين استمـروا حاكمين آمورا بأعالى الأورونط . لذلك لم يثبت تمـاما اذا كان رمسيس الثـانى وسع حدود مستعمراته كثيرا عن حدود والده ولكن الظاهر أنه أبعدها جهة الشاطئ قرب بيروت لأنه أقام حجرين أثريين غير الحجر الذى ذكرناه فى السنة الرابعة من حكمه[3] . ويفهم من نصوص المعاهدة أن رمسيس الثانى تواضع فساوى نفسـه بملك الحيثيين ، وهذا لم يمنع رمسيس أن يدّعى لنفسه الفوز والنصر وينحل لقب "قاهر الحيثيين" كما هى العادة بالبلاد الشرقية[4] .

(١) ٣: ٣٧٢ (٢) ٣: ٣٦٧ - ٣٩١ (٣) راجع صحيفة ٢٨٣ (٤) ٣: ٣٩٢

منذ ذلك الوقت انتهت الحرب وخيم السلام على المملكتين ، فوقف رمسيس الثانى بآسيا عند حدّه . والظاهر أن شروط المعاهدة جاءت فى مصلحة الطرفين كثيرا لأنه بعد ابرامها بثلاث عشرة سنة (حوالى سنة ١٢٥٩ قبل الميلاد) زار ملك الحيثيين مصر وحضر الاحتفال بتأهيل كريمته الكبرى برمسيس الثانى . ودلتنا الآثار أن مجيء ملك الحيثيين الى مصر استدعى اقامة احتفال عظيم بالقصر الملكى تقدّمته كريمة جلالته متبوعة بالهدايا الجزيلة ثم جلالة خيتاسار نفسه ثم ملك كود (Kode)[1] . واختلط وقتئذ حرس الحيثيين بالجنود المصرية بعد ما كانوا ألد الأعداء ثم سميت الأميرة الحيثية باسم مصرى هو معات نفرو رع (Matnefrure) أى الناظرة محاسن رع واحتلت مكانا مبجلا فى القصر الملكى .

وتشاهد رسوم هذه الزيارة على مدخل معبد رمسيس بأبى سنبل[2] ، وقد أقيم للأميرة بعد ذلك تمثال بجوار تمثال بعلها بتنيس (Tanis)[3] . ووصف الشعراء الملكيون هذه الاحتفالات فى قصائد رنانة أوضحوا بها طريقة ارسال ملك الحيثيين الى ملك كود ملتمسا مرافقته لمصر لتقديم واجبات الاحترام لفرعونها[4] . ومما جاء فى هذه القصائد أن المعبود پتاح كان وسيلة هذا الفرح وقد وضعت الأشعار مقولة عن لسان هذا المعبود واليك ترجمة ما جاء فى هذا الصدد :

"لقد جعلتُ مملكة خيتا خاضعة لقصرك ،وألقيت الرعب فى قلوب أهلها فحضروا اليك وجاءوا حاملين هداياهم ، التى غنمها بسراتهم ، وما يملكونه جزية لصيتك الذائع . لقد أحضرتُ كريمة ملك خيتا الكبيرة فى مقدّمتهم لأطيب بها قلب سيد القطرين"[5] .

وكان لهذه الحادثة تأثير كبير فى نفوس المصريين فبنى عليها العوام قصة تداولها الأهالى مدّة طويلة ولم تنقش على الآثار إلا فى عهد اليونان . وتبدأ نقوش هذه القصة بوصف الزواج يلى ذلك طلب حمى رمسيس الثانى ارسال تمثال المعبود خونسو بطيبه الى مدينة بختن (Bekhten) ويظن أنها باكتريا (Bactria) وذلك لطرد الأرواح الخبيثة الحالة بجسم أخت زوجة رمسيس . ولا يبعد أن يكون حصول مثل هذه الأمور أمرا حقيقيا[6] ، إذ من الثابت أن العلاقات الحسنة بين الحيثيين ورمسيس استمرت بدون انقطاع ، ويحتمل أن رمسيس تزوج بكريمة أخرى من ملك الحيثيين[7] . وقد بقى السلام مخيما بين الطرفين ضاربا أطنابه ، والمعاهدة نافذة المفعول طوال حكم رمسيس الثانى وفى بعض حكم منفتاح (Merneptah) الذى أتى بعده .

ولا شك أن استمرار رمسيس الثانى فى حروبه مع الحيثيين خمس عشرة سنة أو ست عشرة سنة أعلى كثيرا من مكانته وأذاع من صيته الحربى . والمعركة الواحدة التى نعلم تفاصيلها بالضبط تشهد له حقيقة بالبسالة والشجاعة دون المهارة فى القيادة الحربية . والمعروف أنه لما أعان صلحه مع خيتاسار امتنع عن الحروب امتناعا كليا . وقد حصلت فى النوبة مشاغبات فى السنة الثانية من

---

(١) ٣ : ٤١٠ و ٤٢٠ و ٤٢٤ (٢) ٣ : ٣٩٤ – ٤٢٤ (٣) ٣ : ٤١٦ – ٤١٧ (٤) ٣ : ٤٢٥ – ٦
(٥) ٣ : ٤١٠ (٦) ٣ : ٤٢٩ – ٤٤٧ (٧) ٣ : ٤٢٧ – ٨

حكمه لكنها أخضعت[١] ثم تجددت هذه الى ما بعد صلح الحيثيين[٢] ولأنها لم تكن ذات بال لم يذهب اليها رمسيس شخصيا بل عهد فى اقماعها الى غيره من الضباط . ودلتنا الآثار أن رمسيس الثانى حارب الليبيين ويرجح أن هذا كان نتيجة اتحاد الشردينيين (Sherden) مع الليبيين لنهب غربى الدلتا . ولا تزال معلوماتنا عن هذه الحرب قليلة تكاد تكون معدومة[٣] .

وتعتبر حروب رمسيس الثانى بآسيا آخر مجهودات مصر الحربية التى بدأ بها أحمس الأول لما طرد الهيكسوس . بعد ذلك قام المصريون ببعض الحملات الحربية لاسترجاع المستعمرات الفلسطينية والسورية المفقودة ولكن ذلك كان بمساعدة جنود مأجورة غير مصرية أو نتيجة امتزاج الدم الفرعونى بدم أجنبى . وأصبح الجيش المصرى منذ ذلك الوقت آلة دفاع لصد هجوم الأجانب ، ثم عجز الفراعنة عن قيادته ، ولم يحصل ذلك إلا بعد انتهاء حكم الفراعنة المنتسبين الى المعبود رع .

---

(١) ٣ : ٤٧٨ (٢) ٣ : ٤٤٨ - ٤٩٠ (٣) ٣ : ٤٩١

الفصـــل الثـانى والعشرون

امبراطورية رمسيس الثانى

لـما بسطت مصر سيادتها على آسـيا اضطرت بحكم الظروف أن تنقل عاصمة ملكها من طيبه الى الوجه البحرى . وأول من نقل العاصمة فى عهد الامبراطورية هو إخناطون الذى اختار مدينة آخت آتون لهذا الغرض . فلما جاء حورمحب — وهو القول الأرجح — أرجع الحكم ثانيا الى طيبه . وقد ألمعنا سـابقا الى أن الظروف الادارية اضطرت سيتى الأول أن يمضى بضعة أشهر بالدلتا[1] . والآن نعلم القارئ أنه لـما تولى رمسيس الثانى الملك وأخذ يشن غاراته على آسيا التزم أن ينقل مركز حكومته الى الدلتا ، ومن ثم أضحت طيبه مركزا دينيـا فقط لا يؤمها فرعون إلا وقت الاحتفالات الدينية الكبرى . وبديهى أن اقامة فرعون بالدلتا رقت كثيرا من حالة مدنها وعظمت من شأنها ، فمدينة تنيس (Tanis) مثلا صار لها مقام عظيم فكبر حجمها وأقيم بها معبد شامخ مصبوغ بالصبغة الرمسيسية نصب على صرحه تمثال عظيم لرمسيس مصنوع من صخرة جرانيتية واحدة . أما ارتفاع هذا التمثال فينيف على تسعين قدما وتقرب زنته من تسعمائة طن وكان يبدو للعيان على مسافة أميال عديدة[2] . وقد اعتنى رمسيس كثيرا بوادى طميلات وهو على الأرجح فى طريق القناة الموصلة وقتئذ النيل بالبحيرات المرة ، لأنه كان ممرا هاما بين القطر المصرى وآسيا ، فشيد فى منتصفه مدينة بيتوم (أو فيثوم) (Pithum) — ومعناها معبد آتوم — وجعلها مخزنا للحبوب وشيد أيضا مع سيتى الأول مدينة أخرى غربى بيتوم وشمالى عين شمس تعرف الآن بتل اليهودية . وأنشأ رمسيس مدينة ثالثة أيضا شرقى الدلتا سمـاها پررمسيس (Per-Ramses) — أى بيت رمسيس — لم نهتد للآن الى موقعها بالضبط ولكن يظن البعض أنها تنيس (Tanis) ، والغالب أنها واقعة على حدود مصر الشرقية لأن بعض شعراء ذلك الوقت وصف محاسنها بأسلوب يفهم منه أنها بين مصر وسوريا . ومما جاء عن هذه المدينة الأخيرة أيضا أنها كانت على اتصـال بالبحر الأحمر . وقد أصبحت پررمسيس مقر الحكومة وعاصمة البـلاد فحفظت بهـا المكاتبات الرسمية وعبد فيها رمسيس كأحد آلهتها . أما وزير الدولة فكان يقطن عين شمس[3] .

ولـما ارتقت أقاليم متوسـط شرقى الدلتا وكثرت أعمـال ومآثر رمسيس بهـا أطلق عليها اسم "اقليم رمسيس". وقد ثبت الآن بصفة قطعية أن هذا الاقليم هو الوارد ذكره فى رواية بنى اسرائيل أيام سيدنا يوسف ، تلك الرواية التى يرجع تاريخ حوادثها الى ما قبل الرمامسة بمدة .

---

(1) ٣ : ٨٢ و ٢ (2) Petrie, Tanis, I, 22-4. (3) نقوش مس Mes

وليعلم أن فتوحات رمسيس الأسيوية لم تكن وحدها سبب رخاء ورقى شرق الدلتا، بل الفضل في ذلك يرجع أيضا الى نشاطه وهمته والى أنه نشر لواء العز على البلاد وأفاض عليها السعادة والرفاهية. وقد بليت كل آثار رمسيس بعين شمس ولم يبق من آثاره بمنف إلا النادر[1] . وقد ألمعنا سابقا الى مآثره بالعرابة لما تكلمنا على معبد والده هناك. والآن نذكر القارئ أنه لم يكتف بأعماله هذه هناك بل شيد لنفسه معبدا قريبا من معبد سيتي. وقد أنفق كثيرا على معبد والده بطيبه وفى بناء معبد لنفسه هناك يعرف الآن بالرمسيوم (Ramesseum) وفى انشاء حوش عظيم وصرح شامخ بمعبد الأقصر. أما القاعة الكبيرة ذات العمد العظمى بالكرنك التى بدأ بها سيتى الأول وأتمها رمسيس الثانى فتعد من أعظم عمارات العالم القديمة والحديثة.

وقصارى القول أن اسم رمسيس الثانى لا يزال منقوشا على جميع معابد مصر العظيمة فوق الحجرات والأحواش والعمد والصروح الى يومنا هذا. وقد استعمل فى بناء عماراته أحجار مبانى أسلافه بلا رأفة ولا مبالاة، فهدم مثلا معبد تتى (Teti) أحد ملوك الأسرة السادسة واستعمل أحجاره فى تشييد معبده بمنف[2] ، كما أتلف أيضا هرم سيزوستريس الثانى باللاهون ونزع ما حوله من البلاط وهشم آثاره البديعة ليستعمل أنقاضه فى بناء معبده فى إهناس (هراكليوبوليس)[3] . أما فى الدلتا فلم يظهر أدنى عناية أو اهتمام بآثار المملكة الوسطى. وورد عنه أيضا أنه وسع معبد الأقصر بأحجار المعبد الجرانيتى البديع الذى شيده تحوتمس الثالث، جاعلا وجه الأحجار المختومة بختم تحوتمس من الداخل حتى لا ترى من الخارج.

وكتب اسمه على كثير من آثار سلفه ونحلها لنفسه زورا وبهتانا، ومع ذلك فقد شيد آثارا فاقت عمارات سلفه حجما وشكلا، وملأ معابده بتماثيله وبالمسلات الشامخة المنقوشة وغير ذلك من الأحجار. والرأى السائد الآن أن تماثيل هذا الملك هى أضخم التماثيل المصرية، خذ مثلا التمثال الذى ألمعنا اليه قبلا عند الكلام على مدينة تنيس، ونزيد فنذكر القارئ أن رمسيس صنع تمثالا آخر لنفسه وضعه على صرح الرمسيوم بطيبه أقل حجما وارتفاعا من تمثال تنيس لكنه يزن حوالى ألف طن (شكل ١٦١). والمعهود فيه كثرة نصبه للمسلات فى كل عيد طوال حياته ولذلك بلغت مسلاته عددا كبيرا، فقد شيد بتنيس مثلا ما ينيف على أربع عشرة مسلة تهشمت كلها الآن. ويوجد فى روما الآن ثلاث مسلات على الأقل لرمسيس وفى باريس احدى المسلتين اللتين نصبهما فى الأقصر[4] .

وليلاحظ أن النفقات الباهظة التى أنفقها رمسيس لم تقتصر على نصب المسلات واقامة العمارات، بل شملت أيضا الأوقاف الكثيرة التى حبسها على مستخدمى تلك العمارات. قال جلالته عن معبد العرابة انه شيده من الحجر الجيرى الجميل، وجعل أفاريز أبوابه من الجرانيت، وأبوابه

---

(1) ٣ : ٥٢٠ – ٢٧

(2) Annales, III, 29.

(3) Petrie, Illahun, p. 4; Kahun, p. 23; Naville, Ahnas, pp. 2, 9-11, pl. I.

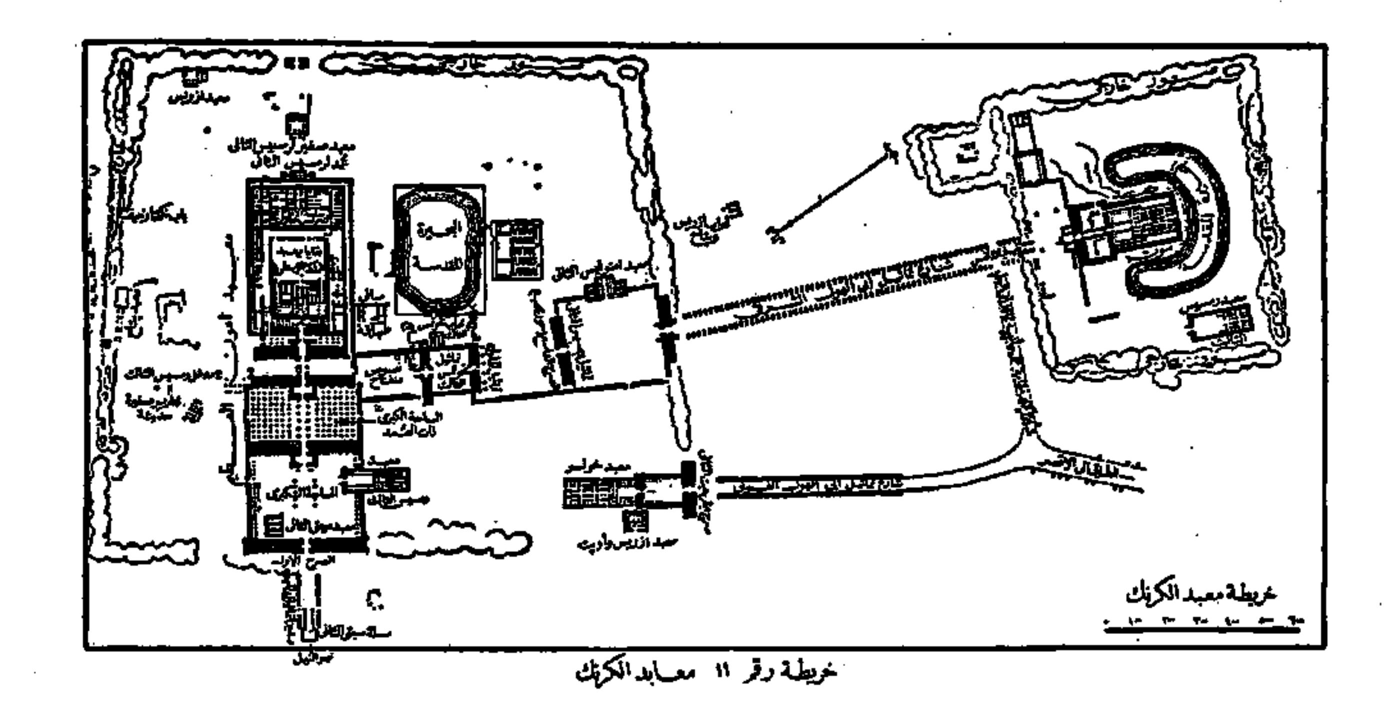
(4) ٣ : ٥٤٣ – ٩



شكل ١٦١ — بعض أجزاء تمثال رعمسيس الثاني العظيم البالغ وزنه ألف طن تقريبا
وهو مصنوع من الجرانيت من جزيرة إلفانتين ويمثل الملك جالسا وكان منصوبا
أمام الصرح الثاني بالرمسيوم بطيبه



شكل ١٦٢ — مخازن مدينة بيثوم وقد ورد ذكر هذه المدينة
في الأخبار العبرية بأنها شيدت بواسطة العبرانيين
(مأخوذة عن أندروود وأندروود بنيويورك)



خريطة رقم ١١ معابد الكرنك

من النحاس الملبس بخليط الذهب والفضة ، وحبس لمعبوده أوقافا يومية عديدة فى ابتداء كل فصل وفى كل عيد على توالى الأيام . وملأ المعبد بكل ما يحتاج اليه من مأكل وخزين وبهائم وعجول وثيران وأوز وخبز ونبيذ وفاكهة ، كما وظف فيه أيضا كثيرا من العبيد المزارعين وضاعف مساحة أراضيه الموقوفة وزاد من قطعان غنمه وطفحت شونه بالحبوب فبلغت اهراؤها عنان السماء . . . كل هذه القرابين قدمها لمعبوده المقدس بعد ما استولى عليها بسيفه الظافر . ولم يكتف بذلك بل ملأ خزانة ذلك المعبد بالأحجار الكريمة وسبائك الذهب والفضة وكدس مخازنه بما دفعته المستعمرات من الجزية ثم زرع أيضا حدائقه الكثيرة بالأشجار المتنوعة الزكية الواردة من الصومال[١] .

واذا تصورنا أن كل هــذه الأوقاف حبست على معبد واحد فقط ولاحظنا أن معابد رمسيس الأخرى كانت عديدة وكبيرة ومماثلة لهذا المعبد ، علمنا أن نفقاتها كانت كثيرة جدا واستنزفت أموال الخزانة المصرية[٢] .

ورغم انتقال عاصمــة الملك من الجنوب الى الشمال لم يهمل رمسيس اقليم الصعيد على الاطلاق بل وجه اليه عنايته واهتمام حكومته . فكانت يعبد فى النوبة كالهها وقد شيد هناك ستة معابد لمعبودات مصر العظمى وهى آمون ورع وبتاح وكان جلالته يعبد فى كل منهــا كاله عظيم . وقد عبدت زوجته نفرتارى (Nefretiri) بأحد هذه المعابد . ويعتبر معبد أبى سنبل أهم وأجمل آثار رمسيس الثانى بالنوبة ويؤمه الكثير من الزوار فى وقتنا هــذا . والمعروف أن النوبة انصبغت فى عهد رمسيس الثانى بالصبغة المصرية تماما ، وبالأخص اقليمها الذى هو بين الشلال الأول ، والثانى فقد انتزع منه الحكام النوبيين واستبدل بهم مصريين ، كما شكلت هناك أيضــا محكمة مصرية للنظر فى الدعاوى والشكايات تحت اشراف المندوب السامى المصرى بالنوبة[٣] .

وبديهى أن العمارات الشامخة التى شيدها رمسيس الثــانى تطلبت مجهودات عظيمة وعمالا كثيرين . والمعروف أنه صعب عليه جلب الأسرى من آسيا (لوقوف الحرب هناك) كما فعل أسلافه من ملوك الأسرة الثامنة عشرة ليسخرهم فى هذه العمارات ، ونؤكد أن هذه الأبنية شيدت بوسائل السخرة والعسف ، ولذلك لا ريب فى صدق رواية العبرانيين من أن رمسيس الثانى استعمل الضغط والقسوة على أجدادهم حتى بنوا له مدينتى بيثوم (شكل ١٦٢) ورمسيس . ولمــا زاد الضغط عليهم هربت احدى قبائلهم تخلصا من العذاب .

أما معاملات مصر مع فلسطين وسوريا فكانت متينة ثابتة أكثر من أى وقت سالف . وقد جاء فى خطاب ضــابط مصرى كان مرابطا على حدود مصر أيام خلف رمسيس الثانى أن جماعة من بدو إدوم (Edom) مروا بوادى طميلات ليرعوا أغنامهم فى مراعى بيثوم كما فعــل العبرانيون سابقا أيام يوسف عليه السلام[٤] . وعثر على مذكرة أخرى غير مرتبة لكاتب أحد القواد المصريين

(١) ٣ : ٥٢٦ — ٧ (٢) ٣ : ٤٩٢ — ٥٠٤ (٣) Erman, Life in Ancient Egypt, 504.
(٤) ٣ : ٦٣٦ — ٣٨

المرابطين على حدود مصر بقلعة ثارو ببرزخ السويس وجد بها قائمة بالأقوام الذين سمح لهم بالمرور هناك وهى تشمل الرسل الذين أرسلوا ببلاغات رسمية الى ضباط حصون فلسطين والى ملك صور (Tyre) والى الضباط الذين صحبوا منفتاح فى غزوته السورية وكذا أسماء الضباط الذين حملوا المراسلات الرسمية أو المسرعين الى سوريا ليلتحقوا بخدمة فرعون (منفتاح)[1] . ومع أن الطريق الموصل مصر بفلسطين لم يكن محكم التحصين فقد كان محروسا بعدة حصون مهمة على مسافات مختلفة ، مثال ذلك حصنا ثارو ورمسيس على طول الطريق فى القسم الشمالى لبرزخ السويس فيما بين بحيرة التمساح والبحر الأبيض المتوسط ، ومن ثم ينحنى خط الدفاع حول بحيرة التمساح غربا الى وادى طميلات . وقد أخبرنا بنو اسرائيل أن خروجهم من مصر كان عن طريق الجزء الجنوبى لبرزخ السويس لخلوه من الحصون العائقة . أما التجارة عن طريق برزخ السويس فكانت عظيمة جدا فاقت ما كانت عليه أيام الأسرة الثامنة عشرة . زد على ذلك أن السفن المصرية التجارية بالبحر الأبيض المتوسط كانت تقوم بجزء كبير من التجارة .

ولنتكلم الآن على الحياة الشخصية فى تلك العصور وما حوته من الخيرات ليتصور القارئ عز الامبراطورية المصرية وقتئذ فنقول :

ان مائدة فرعون حوت أندر الزينات وأدوات الترف من قبرص وخيتا وآمور و بابل والنهرين . وكان فى حوزته كثير من العجلات الثمينة وعدد وافر من الأسلحة والسياط والسوارى ذات الرءوس الذهبية من صناعة فلسطين وسوريا . وقد حوت الاصطبلات الملكية جياد الخيل الواردة من بابل وأحسن الغنم الوارد من مملكة الحيثيين[2] . وصار لكل وجيه مصرى سفينة شراعية بالبحر الأبيض المتوسط تحضر له حاجاته من آسيا[3] كما أعطى لمعبد سيتى الأول بالعرابة سفن خاصة وهبها له رمسيس لجلب دخله من البلاد الشرقية[4] . وما أكثر الأثاث الأسيوى الجميل الذى اشتملت عليه قصور أعيان المصريين . وليلاحظ أن هذه المصنوعات الأسيوية أثرت كثيرا فى الصناعة المصرية فأكسبتها رونقا أسيويا . وكثر بالقطر العبيد الأسيويون من شاميين وغيرهم ، ودوت البلاد بالتجار الفينيقيين والأجانب فصار لهم حى مخصوص بمنف تعبد فيه معبوداتهم نحو بعل (Baal) وأستارته (Astarte) ومنذ ذلك الوقت أخذت تلك المعبودات تندمج تدريجا ضمن المعبودات المصرية ، وأخذ الدخيل من الكلمات والعبارات السامية (عبرية كانت أو غيرها) يندمج فى اللغة المصرية ، وصار كتاب تلك العصور يحلون كتاباتهم بها . وقد عثر على كثير من هذه الكلمات الدخيلة فى أوارق البردى التابعة للأسرة التاسعة عشرة ، وذلك قبل ظهور كتاب العهد القديم بنحو أربعمائة أو خمسمائة سنة تقريبا . وبلغ استعمال الكلمات الدخيلة القصر الملكى فسمى رمسيس الثانى كريمته التى كان شديد الولوع بها "بنت أنات" (Bint-Anath) — أى ابنة أنات وهى معبودة سورية — كما سميت الخيل الفرعونية "أنات حرت" (Anath-herte) — ومعناه أنات المتطية .

(1) ٣ : ٦٢٠ - ٦٢٥

(2) Pap. Anast., IV, 16, 2-17=III, 6.

(3) Ibid., IV., 8, 10,11.

(4) ٣ : ٢٧٤

وعظم الاختلاط الدموى بين المصريين والأسيويين فى هـذه العصور وقد كان فى بدايته أيام الأسرة الثامنة عشرة ، فاقترن أهالى تلك البلاد بعضهم ببعض وأصبح للعنصر الأسيوى مقام عظيم بالقصر الملكى والحكومة المصرية . خذ مثلا أن أحد السوريين المدعو ابن عوزن (Ben-'Ozen) رقى فى عهد منفتاح الى رئيس شرط القصر الملكى[1] لكنه لم يشترك قط فى ادارة البلاد كما ادعى بعض الأثريين . ثم ان علاقة مصر التجارية مع البلاد الأجنبية عادت بالغنى والجاه الجزيلين على الأجانب الموجودين بمصر فتمكن أحدهم وهو ضابط بحرى سورى يدعى ابن أنات(Ben-Anath)من تأهيل كريمته بأحد أنجال رمسيس الثانى[2] ، وفتحت سبل الرقى والتقدم أمام الأجانب الملتحقين بالجيش المصرى ما عدا مراكز الضباط فانها كانت مقصورة على الغربيين والجنوبيين دون الأسيويين ،



شكل ١٦٣ — اثنان من الحرس الملكى لرمسيس الثانى المكون من سودانيين مأجورين

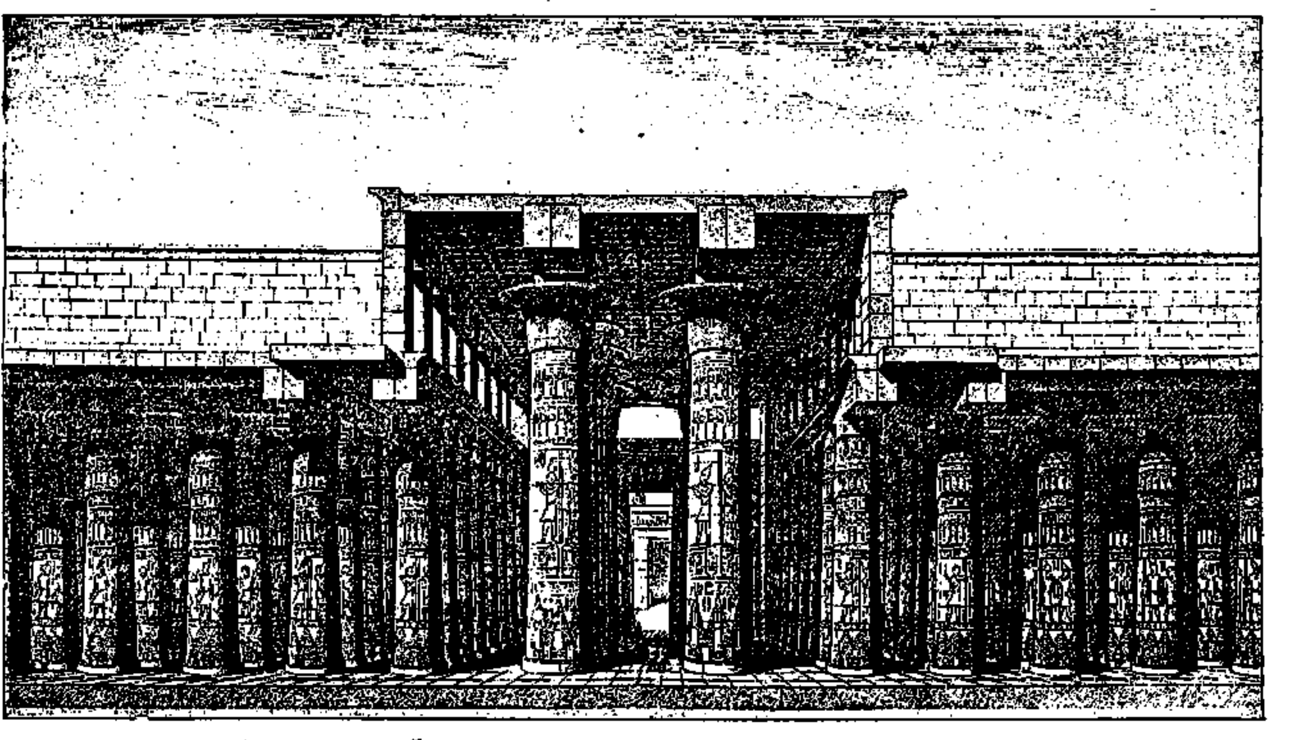
فالتجريدة التى أرسلها رمسيس الثانى مثلا الى وادى الحمامات لقطع الأحجار كانت مكونة من خمسة آلاف جندى منها ما ينيف على أربعة آلاف سردينيين وليبيين والباقى زنوج ، ولم تشتمل هذه البعثة على مصرى واحد .

ويرجع تاريخ خدمة الأجانب بالجيش المصرى الى الأسرة السادسة[3] لكن هـذا الانخراط الأجنبى فى الجيش المصرى هدد كيان الامبراطورية المصرية حتى عجز فرعون ذاته عن ملافاة هذا الخطر . ثم ان الحماس الحربى الذى دب فى نفوس المصريين بعد طرد الهيكسوس اضمحل تدريجا بعد مرور بضعة أجيال ، فعكف القوم على عاداتهم الفطرية السلمية وهبطت نخوتهم ، وفى هذا الوقت

(١) Mar. Ab. II, 50; Cat. gen. d'Ab., No. 1136, p. 422; RIH, 32; BT, VI, 487.

(٢) Ostracon, Louvre, Inv. 2262, Devér. Cat., p. 202; Rec. 16, 64.

(٣) Battle of Kadesh, 9.



شكل ١٦٤ – منظر ساحة الكرنك العظمى بعد الترميم ، وهى الساحة ذات العمد بمعبد آمون ، يرجع تاريخها الى زمن الأسرة التاسعة عشرة (مأخوذ عن پيروشيپيه)

أظهر الليبيون وأهـالى شرقى البحر الأبيض المتوسط استعدادهم للانخراط فى سلك الجيش المصرى والدفاع عن مصالح مصر نظير أجر معين . أمام هـذه الحالة لم يتردد فرعون مصر فى الانتفاع بهذه الفرصة السانحة وهذا هو السر فى زيادة العنصر الأجنبى فى الجيش المصرى .

ولا يخفى أن خلفاء تحوتمس الثالث عجزوا عن استرجاع مستعمراته ، وأن نفوذ رمسيس الثانى كان مبسوطا على فلسطين وجزء من شمالى سـوريا ، الذى كان يدفع له الجزية سنويا على الأرجح . أما حدود مصر الجنوبية فكانت واصلة الى مدينة نبته (Napata) أسفل الشلال الرابع . واعتاد رمسيس الثانى فى عنفوان شبابه أن يحتفل بوفود عظماء دولته العديدين من ولى العهد الى العمدة ، وهؤلاء كانوا يفدون عليه لابسين حللهم ومتخذين أجمـل زيناتهم تتقدمهم جزياتهم من بلدانهم المتباينة الممتدة من جنوبى النوبة الى حدود مملكة الحيثيين بآسيا[1] . وقد صرفت هذه الأموال فى المنافع العمومية كالصناعة التى بلغت أعظم درجاتها فى هـذه العصور . وهـاك تمثال رمسيس الثانى محفوظا بدار التحف بتورين يمثل جلالته فى عنفوان شبابه لا يزال ناطقا ببراعة الحفار المصرى فى تلك العصور . ويعتبر هذا التمثال أثمن قطعة محفوظة بدار التحف المذكورة (شكل ١٦٨) ، ويكاد هذا التمثال يشبه التماثيل الموجودة بأبى سنبل فى المهارة والاتقان (شكل ١٦٧) . وادعى البعض أن الفنون الجميلة فى عهد رمسيس الثانى أخذت تنحط ولكنه يستدل من تمثال بنت أنات كريمـة رمسيس المحبوبة ما يشـير الى وجود حفارين مهرة وقتئذ ، لأن معالم وجه ذلك التمثال الطبيعية واضحة بشكل جميل واتقان هائل ، وهناك نقادون لا يشاطروننا هذا الرأى .

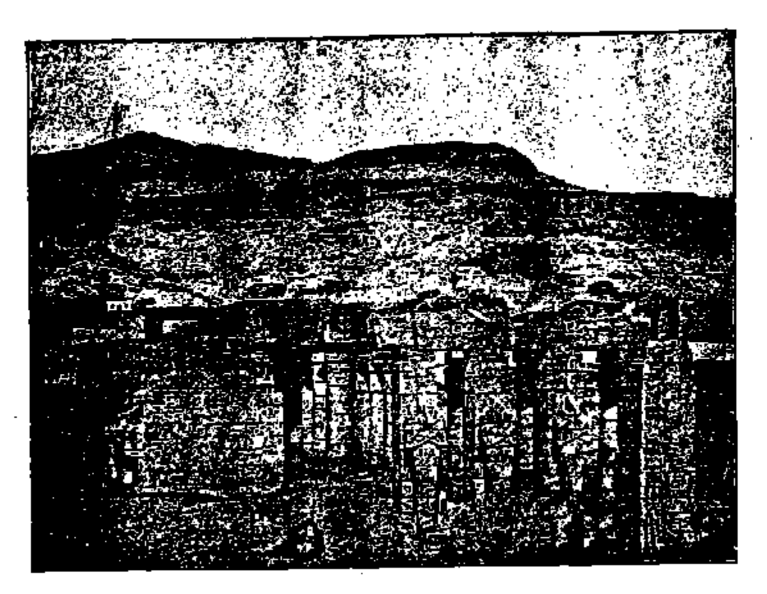
حقيقة ان عمارات الأسرة الثامنة عشرة ناقصـة شيئا من حيث الكمال والجمـال كما يتضح من قاعة الكرنك العظمى (شكلى ١٦٤ و ١٦٥) لكنه ممـا لا مراء فيـه أن هـذه القاعة أعظم العمارات تأثيرا فى النفوس . وقد وافق على هذا الأستاذ رسكن (Ruskin) حيث قال "ان أقل ما يقال عن هذه القاعة أنها ضخمة شاهقة لدرجة تؤثر كثيرا فى نفس ناظرها . فاذا وقفت بجوار عمدها وألقيت بنظرك على تلك العمد العديدة الشامخة المعتبرة أعظم أعمال البشر ، وأمعنت فى رءوسها الباسقة الحاملة لصحن المعبد ، تقول إذا لاحظت أن مسطح قمة كل عمود يسع ما يقرب من مائة رجل وأن جدر هذه القاعة تسع فيما بينها كنيسة نوتردام (Notre Dame) ويبقى منها مكان فسيح ، واذا نظرت الى باب ذلك المعبد العظيم البالغ طول عتبته أربعين قدما وزنتها مائة وخمسين طنا تقريبا ، لا يسعك إلا الإعجاب والافتخار بأعـمال ذلك العصر الذى شيد رجاله أعظم قاعة ذات عمد أقامها البشر على ظهر البسيطة الى الآن" .

واذا كان تأثر السائح من ضخامة هـذه القاعة أكثر من تأثره بجمالها ورونقها فليذكر أن العمال الذين شيدوها قد شيدوا أيضا معبد رمسيس المعروف بالرمسيوم الذى لا يقل فى الجمـال والكمال عن أحسن عمارات الأسرة الثامنة عشرة (شكل ١٦٦) .

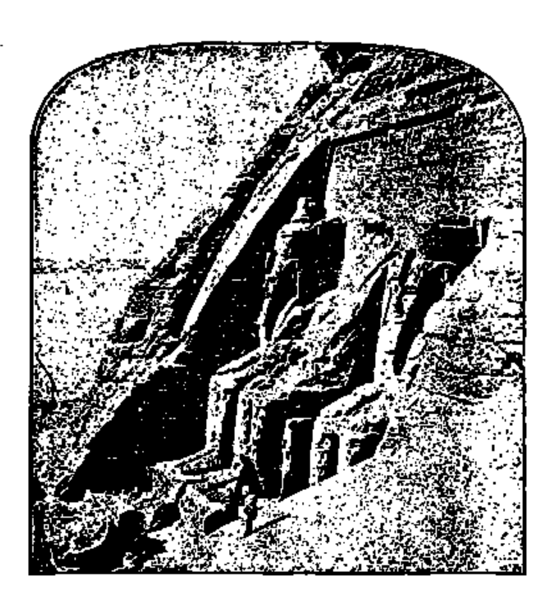
[1] ٣ : ٤٨١ – ٤

ورغم قصر مساحة أراضى النوبة بين النيل والجبال فقد قطع رمسيس الثانى فى صخور تلك الجهات معابد تشهد من حيث الجمال بتقدّم فن العمارة كثيرا فى عهده . وما علينا إلا أن نذكر القارئ بمعبد رمسيس العظيم الذى شيده بأبى سنبل ولا تكاد تمحى ذكراه من ذهن كل من رآه، ففيه تجسم العظمة وهو مشرف على النهر بين صخور تلك الجهة الصامتة (شكل ١٦٧) . نحن لا ننكر أن عمارات رمسيس الثانى لم تكن كلها غاية فى الاتقان وقد ألمعنا الى ذلك سابقا إذ يوجد بينها ما هو بسيط لا يسترعى النفوس وما هو ضخم اعتيادى قليل الاتقان كالمشيد بمعبد الأقصر . وقد زينت عمارات رمسيس الثانى كلها بالنقوش والألوان الزاهية المثبتة لأعماله وشجاعته الحربية وعلى الأخص دفاعه العظيم بجهة كدش (شكل ١٦٩)، ويتضح من هذا أن الحفار المصرى أجاد أكثر من سواه فى رسم معركة كدش ، وبالأخص لما رسم منحنى النهر وما حول كدش من الخندق وهرب العدو وما حول ملك الحيثيين من المشاة واجتنابه بمهارة الاشتراك فى حومة الوغى على عكس فرعون مصر الذى تبدو عليه ملامح القوة والشجاعة . كل هذه الرسوم جاءت ظاهرة واضحة مع عدم مراعاة حافرها بأصول الزمان والمكان ، وهذا النقص الأخير يقلل كثيرا من قيمة الرسوم المصرية خصوصا والشرقية عموما . وهذا لا يمنعنا أن نقول إن الرسوم البارزة التى من هذا النوع بلغت شأوا كبيرا فى عهد رمسيس الثانى إلا أن وحداتها غير واضحة ولا متقنة من حيث النقش والنحت . والحق يقال ان الناظر الى هذه الرسوم اجمالا على العموم يجدها تشهد بطول الباع لصانعها المصرى الذى بقى محتفظا بزعامة الحفر فى البلاد الشرقية نحو ستمائة سنة بعد عهد رمسيس الثانى .

ولم يقتصر تأثير معركة كدش على ترقية الفنون الجميلة من حيث الرسم والحفر، بل شمل أيضا شعراء القصر الملكى فنظموا القصائد الرنانة عن تلك المعركة وأجادوا فى وصفها ، ويعتبر هذا الوصف من أحسن أدبيات ذلك العصر، ففيه شبهت جنود العدوّ الكثيرة المرابطة على التلال بالصراصير، ثم ذكر باسهاب أسباب انحدار القوات المصرية أول المعركة ، ثم وصف انفراد فرعون مصر مقاتلا أعداءه وتضرعه الى آمون على بعده من طيبه طالبا مساعدته ، ثم اجابة هذا المعبود دعاءه بتقوية ذراع رمسيس وشد أعصابه وقوته مما جعله يقوم بما لا مثيل له من ضروب الشجاعة والإقدام . من ذلك يتضح للقارئ أن تلك القصائد حوت وصفا لمواقف متباينة مؤثرة للغاية، وقد نعت الشاعر قائد عجلة ملك الحيثيين بالجبن والفزع على عكس رمسيس الذى بدت عليه الشجاعة وكان يحمس رجاله على القتال غير مبالين ولا وجلين ويوبخهم على اهمالهم . ومما يسترعى نظر القارئ لهذه القصائد ما ورد فيها من أنه لما انتهت المعركة وزال الخطر أقسم جلالته يمينا بأنه سيتولى بنفسه اطعام خيله التى حملته ظافرا على أعدائه . وقد وصلت الينا صورة من قصيدة وضعت لهذه المعركة نسخها كاتب مصرى قديم يدعى بنتاءور (Pentewere "Pentaur") على قرطاس بردى ظنها الأثريون أولا من بنات أفكاره واتضح بعد ذلك أنه (على الأرجح) ناسخها فقط . ولا تزال هذه القصيدة تعرف باسم قصيدة بنتاءور خطأ بين الناس .



شكل ١٦٦ — أرمسيوم وهو معبد قبر رمسيس الثانى ، وترى خلفه صخور وادى النيل الغربية مثقوبة فى عدة مواضع ، وهذه الثقوب هى مداخل مقابر الجبانة القديمة



شكل ١٦٧ — صورة لمعبد أبى سنبل الصخرى
مأخوذة فى اتجاه مستو عرضى لمدخل المعبد



شكل ١٦٨ — تمثال رمسيس الثانى مصنوع من الجرانيت الأسود
(دار تحف تورين)



شكل ١٦٩ — منظر لمعركة كدش العظيمة التى حاربها رمسيس الثانى . وجدت هـذه الصورة مرسومة رسما بارزا على جدر الرمسيوم ويرى فى هذا المنظر رمسيس الثانى وحده (مع أنه كان مرافقا لحاشيه بالتأكيد) محاطا بعربات الحرب الأسيوية (أعلى وأسفل) وأمامه رؤساء جيش ملك الخيثيين ساقطين وبجوار كل منهم اسمه ولقبه منقوشين على الحجر . ويمثل المنظر هجوم رمسيس الثانى وإلقاءه جناح العدو الأيمن فى النهر (راجع خريطة رقم ١٠) . ويرى الهاربون سابحين فى النهر ينتشلهم أصحابهم من الشاطئ المقابل (انظر ملك حلب شكل رقم ١٦٠) وإلى يمين ملك حلب حيث الحائط المهدم يشاهد ملك الخيثيين واقفا فى عربته بين ثمانية آلاف من المشاة الأسيويين . ويرى فى القسم الأعلى والأيمن للصورة رسم مدينة كدش محاطة بخندقين مائيين

والقارئ لهـذه القصيدة يتضح له أن واضعها أخذ يضرب على نغمة جديدة هى تشجيع القوم وتحميسهم ليقتدوا بأفعال ملكهم ، لكن هذا التشجيع أتى بعـد أوانه فقد أخذت الروح الاستعمارية تتضاءل فى نفوس المصريين ، فلم تحدث تخيلات وأوصاف هذه القصيدة ما كان منتظرا منها اذا ما وضعت فى الزمن السابق . والظاهر أن هذه القصيدة حوت حقائق الأمور بلا تغيير ولا تبديل فجاءت برهانا على صدق روايات الأسرة التاسعة عشرة . قارن هذا بروايات المملكة الوسطى المحشوة خرافات وخزعبلات والمكتوبة باللغة الدارجة بدون ترتيب ولا سلامة ذوق . وقد اهتدينا الى عدة روايات وقصص من الأسرة الثامنة عشرة تماثل قصص الأسرة التاسعة عشرة لكنها أقل عددا منها . من ذلك القصة الخاصة بالنزاع بين ملك الهيكسوس المدعو أبوفيس (Apophis) وفرعون مصر بطيبه المدعو سكننرع ، وقد استنتجنا من هذه القصة غرضها الأصلى رغم فقد بقيتها ألا وهو وصف طرد الهيكسوس من القطر المصرى . وقد ذكرنا هـذه القصة سابقـا عند الكلام على الهيكسوس[1] وكثيرا ما تداول الأهالى فى عهد الأسرة التاسعة عشرة حكايات عن أفعال ضباط تحوتمس الثالث مثل تحوتى واستيلائه على مدينة يافا (Joppa) وتخبئته لجنده داخل زلع كبيرة محملة على حمير ، ويظن أن هذه القصة الأخيرة هى أصل حكاية على بابا واللصوص الأربعين المعروفة لدى عامتنا اليوم . وهناك قصص أخرى لذيذة لكنها لم تتناول حوادث تاريخية كالسابقة .

وجاء فى احدى الروايات أن أميرا شابا حكمت عليه المعبودات حاتحورات (Hathors) وقت ميلاده أن يموت بتمساح أو بثعبان أو بكلب ، فسافر الى سوريا حيث وجد قصرا تسكنه ابنة ملك النهرين وحوله الشبان يحاولون تسلقه ، وذلك لأن والدها وعد أن يزوجها بمن يتسلق جدار القصر ، فحاول الأمير المصرى ذلك ونجح وبلغ الأميرة لكنه ادعى أولا أنه ابن ضابط مصرى مخفيا بذلك حقيقته فلما علم ملك النهرين بخبره اغتاظ وامتنع من اعطائه ابنته حتى كاد يقتله ؛ حينئذ أقسمت الأميرة أنها ستنتحر اذا أعدم الأمير فتكدر والدها من هذا القسم وأخيرا سمح لها باقترانه . وجاء أن الأمير نجى من الموت من تمساح ثم من ثعبان وفقدت بقية القصة بعد ذلك ، والمظنون أنها انتهت بموت الأمير من كلب تبعه من مصر طول رحلته الأسيوية . ويلاحظ أن هذه الرواية تحوى أقدم مثال للعقيدة العالمية بأن كل شاب يحتم عليه قبل الاقتران بزوجته أن يظهر لها ضروب الشجاعة كى يستميل قلبها ، وكثيرا ما تشاهد مثل هذه الأعمال المحزنة فى القصص اليونانية المعينة مثل رواية أوديب (Œdipus) وأبى الهول (Sphinx) وسوفلكيس (Sophocles) .

ومن قصص هذا العصر أيضا ما تناولت أمور الفلاحة وهى تعرف بقصة الأخوين تتلخص فى أن أخوين عاشا معا فى كوخ بأحد الحقول وكان أكبرهما متزوجا وقابضا على زمام البيت أما الأصغر فكان عائشا معه كابن له ، فصبت نفس زوجة الكبير الى الصغير فرفض طلبها . عندئذ أرادت أن تكيد له فوشت فى حقه عند أخيه الكبير فصمم على الاقتصاص من أخيه وأراد قتله خلسة فتحفز

(١) راجع صحيفة ١٤٠ وصحيفة ١٤٥ من هذا الكتاب

له وراء الباب . وفى مساء اليوم عاد الأخ الصغير بالبهائم ليدخلها اصطبلاتها فلحظت احدى هـذه الحيوانات الأمر وأسرت الى راعيها بما يضمره له أخوه الكبير . فلما علم ذلك فرهاربا خوفا من القتل ثم حصلت بين الاثنين حوادث خرافية لا تمشى مع ما جاء أولا من مطابقتها للواقع . وبالتأمل لهـذه الحكاية يجد القارئ فى جزئهـا الأول شبها بقصـة سيدنا يوسف الغراميـة التى رواها لنـا بنو اسرائيل .

وكثرت هذه القصص فى العهد اليونانى فتفرعت منها عدّة حكايات يونانية اعتبرها المؤرخون اليونانيون ومانيتو أيضا مراجع تاريخية يعتمد عليها .

أما شعر ذلك الوقت (الامبراطورى) فكان جيدا معنى وروحا ، لكنه كان ناقصا أسلوبا بدرجة أقل من قصائدنا الحديثة . وتوجد بعض قصائد عن تلك العصور جيدة الأسلوب لا بأس بها يمكننا مقارنتها ببعض القصائد العصرية أحيانا .

وكثرت روايات الحب والغرام عند أهالى ذلك العصر ، و بالرغم من خلوها من التخيلات الفكرية فقد أخذت بمجامع قلوب قرائها فى عصرنا هذا . وعثر على كثير من القصائد الدينية والأغانى والدعوات لوحظ على بعضها مسحة أدبية واضحة وسيأتى الكلام عليها عند البحث فى ديانة ذلك العصر . ووجدت عدّة خطابات لكتاب وموظفين ، وعدّة تمرينات مدرسية قام بها تلاميذ المدارس ، وعدّة صكوك ومستندات ومذكرات عن المعابد وحساباتها مما اهتم به الأثريون كثيرا وصرفوا فيه طويلا من وقتهم حتى فهموا مضمونها وعرفوا محتوياتها .

وأغلب أدبيات تلك العصور دينية وحكومية ، وهى ليست من مبتكرات الأهالى ولذلك لا يجد القارئ فيهـا ما يفيده من عقائد العوام . وليلاحظ أن عزل إخناطون وعكوف الأهالى بعده على عقيدة آمون القديمة حالا دون تقـدم ورقى الآراء الدينية . والسبب فى ذلك أن الكهنة أصبحوا شديدى المحافظة على كليات وجزئيات عقائدهم العتيقة ، ولكنه بالرغم من هذه الحركة الرجعية التى حالت دون تقدم الدين من الوجهة الفلسفية قد تقدّمت الآراء الدينية بطريق آخر غير السابق . وتفصيل ذلك أن المصريين أخذوا يعتقدون أن مملكتهم عبارة عن معهد دينى عام تقدّس فيه معبوداتهم فى شخص فرعون ، لأنهم اعتبروا الديانة والحكومة جزأين لا ينفصلان . وهكذا بعد ما كانت المعابد تعرف بأسمـاء " أحسن المحاسن " و " أحسن الآثار " و " هبة الحياة " الخ ، اصبحت الآن تسمى "مأوى سيتى فى معبد آمون" و "مأوى رمسيس بمعبد بتاح". وأول ما ظهر هذا الاعتقاد الأخير كان أيام المملكة الوسطى لكنه أصبح الآن عاما فصار القوم يعتقدون بأن جميع معابدهم عبارة عن أمكنة شيدت لعبادة فرعون ، وهذا يعنى طبعا أنهم اعتبروا فرعون إله مصر الأعظم ، واعتبروا مصر مملكة المعبودات تحت رياسـة فرعونها الذى هو رئيس كهنتها أيضـا . ولـما تضعضعت مالية الحكومة تدريجا بزيادة أوقاف المعابد — لأن أملاك المعابد كانت معفاة من الضرائب — زاد الارتباك المـالى

كما ألمنا الى ذلك فى عهد سيتى الأول ورمسيس الثانى ، ولم تقف الحال على ذلك بل استمرت هذه الأوقاف تكثر حتى شملت معظم موارد القطر فأصبح أكثر أملاك القطر معفى من الضرائب ، ثم أصبحت المصانع ذات أهمية ثانوية .

ولما كثرت ايرادات المعابد (وبالأخص معبد آمون) عظمت منزلة رئيس الكهنة . وقد تقدم لنا أن رئيس كهنة آمون أصبح بحكم القانون رئيسا على جميع كهنة المملكة ، فصار مركزه بذلك عظيما لا يستهان به ، وقد تمكن هذا الرئيس الكهنوتى بعظيم نفوذه فى عهد الملك منفتاح من تعيين ابنه خلفا له فى وظيفته ، وهكذا تمكن من وضع أعظم طائفة وأقوى حزب فى المملكة تحت نفوذ أسرته[1] . ويقال ان هـذا المشروع بدئ به فى عهد رمسيس الثانى لكن ذلك لم يتأكد للآن . ولا شك أن القارئ قد لاحظ أنه فى حالة اعتزال الأسرة الملكية الحكم يكون رئيس كهنة آمون أقوى رجل فى المملكة وأكفأ شخص للقيام بأمور الدولة . وهذا ما وقع تماما بعد مضى مائة وخمسين سنة من العهد الذى نحن بصدده ، وفى هذه المدة اجتهد رئيس الكهنة أن يؤثر فى فرعون ليزيد دخل وأوقاف آمون ، فلم ينته حكم الأسرة التاسعة عشرة حتى أصبح آمون يملك مناجم الذهب النوبية خاصة ؛ ولما وضعت هذه المناجم تحت إشراف والى كوش لقب هذا "بحاكم أرض آمون الذهبية"[2] . وهذا بيان موجز لأصل حكم الكهنة الذى لقبه كهنة المصريين فى عهد ديودور الصقلى "بالحكم الذهبى" . ولا يخفى أنه كلما زاد دخل الكهنة انتشر نفوذهم وعظمت مظاهرهم وعلا قدرهم ، ولذلك كانت منزلة فرعون بين رعيته وحبهم إياه مترتبين طبعا على مقدار ميله نحو الكهنة ودرجة استعداده لإجابة طلباتهم .

وجرت العادة أن يكون اظهار شعائر الدين فى المملكة اجباريا ، لكن الفراعنة اختلفوا كثيرا فى تقديرهم للدين ومظاهره كما اختلفوا أيضا فى تقديرهم للأخلاق . خذ مثلا الملك حورمحب ، فقد وقف جهوده على تركيز الأمانة والصداقة بين موظفى حكومته ، كما اشتهر تحوتمس الثالث بحبه للعدالة ودفاعه عنها . ونقش رمسيس الثالث على معبده بطيبه ما يفيد أنه لم يهدم مقابر قديمة ليستعمل أحجارها فى تشييد عماراته[3] ، كما أعلن للملأ أنه اعتلى العرش بحق وجدارة لا عن طمع واغتصاب[4] . أما رمسيس الثانى فلم يظهر أقل احترام نحو آثار أجداده كما يتطلبه الواجب وتقتضيه العادات . ومن هـذا يتضح للقارئ أن معظم فراعنة العهد الذى نحن بصدده لم يهتموا الا بتحقيق أغراضهم بصرف النظر عن مراعاة الاخلاق . واليك ترجمة ما ورد عن رمسيس الرابع فى دعواته لأزوريس :

"هب لى الصحة والحياة والعمر الطويل والحكم المديد والأزلية لأعضائى والإبصار لعينى والسمع لأذنى والفرح لقلبى . هب لى هذه الأشياء جميعا كل يوم. أطعمنى حتى أشبع وأشربنى الخمر حتى أسكر واجعل ذريتى ملوكا الى أبد الآبدين . أجب رغباتى ولب طلباتى اذا ما طلبتها منك وليكن ذلك عن رغبة منك . هب لى نيلا كثير المياه والفيضان لأتمكن من تقديم القرابين لك ولكل معبود

---

(1) ٣ : ٦١٨ (2) ٣ : ٦٤٠ (3) ٤ : ٤ (4) ٤ : ١٨٨

ومعبودة فى الجنوب والشمال ولتعيش الثيران المقدسة وليعيش كل الناس على اختلاف أوطانهم وكذا بهائمهم وزرعهم الذى أنبته أرضهم . أنت خالق كل هذه الأشياء فاذن ليس لك أن تتركها لتنفذ فيها قرارات أخرى مخالفة للعدل" (١) .

ووجدت بين الأهالى وقتئذ طائفة نظرت الى الديانة من وجهتها الفلسفية الظاهرة، خلافا لما هو واضح فى الدعاء الملكى السابق ، فكانت هذه الطائفة تتوسل الى آمون بتوسلات تحوى كثيرا من الآراء الفلسفية العالية والنظريات الراقية كالتى حوتها عقيدة آتون . ومن ذلك علمنا أن أفراد هذه الطائفة كانوا أقرب اتصالا ومعرفة برأفة ورحمة معبودهم ودفاعه عنهم . واليك ترجمة ما ورد فى دعاء بعضهم :

"يا آمون أنا أحبك وحبك فى قلبى . . . . . . لقد ابتعدت عما تفرحنى به نفسى ، لأن كل من يطيع أوامرك يفوز" (٢) .

وجاء أيضا فى عبارة أخرى ما ترجمته أن آمون يسمع كلام الشخص الذى لا ناصر له وقت المحاكمة(٣) . ولما انتشرت الرشوة بالبلاد اعتقد الفقير أن آمون وزيره ينصره ويدافع عنه(٤) . ودلتنا دعوات القوم أنهم أخذوا يقدّرون خطأهم وما أتوه من ذنوب ، فقد قال أحدهم مناجيا معبوده آمون ما ترجمته : "لا تعاقبنى على ذنوبى"(٥) وهذا أمر كثير الوجود بين توسلات أهالى تلك العصور.

وهكذا تغيرت الحال ، فبعد ما كانت الدعوات تتلى لإصلاح الأخلاق صارت الآن تتلى للإقلاع عن السوء واجتناب المعاصى ، وأضحت الصلوات تنحدر من القلوب ولا تكون مجرد ألفاظ . واليك ترجمة ما قاله بعض الأهالى مناجيا المعبود تحوت :

" أيها المعبود ! أنت البئر العذبة للظمآن فى الصحارى، أنت البئر التى تقفل فى وجه المتكلم والتى تفتح لمن يلزم السكوت، حقيقة أن كل صامت يأتى يجد البئر"(٦) . لكن كهنة تلك العصور سمموا عقول الرعية بخرافاتهم السحرية ، ومن دواعى الأسف أن هذه الآراء الساذجة وجدت مكانا خصبا فى أذهان الطبقة الوسطى انبتت فيها وأينعت وأودت بكثير من تعاليم الديانة الراقية وارشاداتها الشريفة . وبديهى أن هذه التعاليم وهذه الارشادات هى البقية الباقية من رقىّ الديانة المصرية ، ولذلك كان هذا العصر أحسن الأزمنة لدرس عقائد الأهالى الدينية . واليك بيان ذلك بالايجاز :

لما وضعت الحكومة يدها على المعابد لتولى شؤونها دون العامة أبعد هؤلاء بطبيعة الحال وصاروا غير لائقين للخدمة بالمعابد لفقرهم وعدم قدرتهم على تقديم القرابين المناسبة ، فامتنع الفقراء من التدخل فى شؤون المعابد الكبرى وأمور المعبودات الرسمية العظمى ، وعكفوا على معبوداتهم الصغرى كآله الفرح والطرب ومعبودات الأخطاط، لأنهم اعتقدوهم سماعين لأقوالهم مساعدين لهم فى أعمالهم اليومية.

(١) ٤ : ٤٧٠
(٢) Birch, Inscr. in the Hier. Char., pl. XXVI.
(٣) Pap. Anast., II., 8, 6.
(٤) Ibid., 6, 5–6.
(٥) Erman, Handbuch.
(٦) Pap. Sallier, I, 8. 2 ff.

لهذا السبب أيضا عبد الفقير كل شيء توهم فيه صفات الألوهية . خذ مثلا ما جاء بخطاب أحد أهالى طيبه أرسله الى صديق له أوصى به آمون وموت وخونسو آلهة قسم طيبه العظام وأيضا "باب بكى (Beki) الكبير والثمانية القردة التى فى الحوش الأمامى" والشجرتين[1] . وجاء أيضا أن أهالى طيبه عبدوا أمنحتب الأول وزوجته نفرتارى (Nefretiri) إلهين لتلك المدينة . ووضع أحدهم يده فى جحر مختبئ به ثعبان عظيم ثم أخرجها منه فلما لم يلدغه الحيوان نصب حجرا تذكارا أثبت عليه هذه الحادثة شاكرا فيه أمنحتب الأول الذى كانت قوته سبب نجاته الوحيد[2] . وروى أحد الأهالى مرة أنه أساء الى احدى المعبودات التى كانت تقطن تلا بطيبه فأصابه مرض شديد ثم منت عليه المعبودة بالشفاء فأقام لذلك حجرا للذكرى أثبت لها فيه الشكر واعترافه بفضلها . وكتب ضابط خطابا الى روح زوجته المتوفاة أودعه يد شخص حديث الوفاة ليسلمه لها فى الآخرة رجاها فيه أن تمتنع عن تعذيبه وأن تصطلح معه ، ومن ذلك استنتجنا أن بعض أهالى ذلك العصر اعتقدوا بتعذيب الموتى للأحياء .

ولم تقتصر عبادة الفقراء على آلهة الخطط وما شاكلها بل شملت أيضا معبودات سوريا وغيرها مما عبدها الأسرى الأسيويون . ودلتنا الألواح الحجرية لتلك العصور أن الدعوات وقتئذ اشتملت على الآلهة الأسيوية الآتية وهى : بعل (Baal) وكدش (Kadesh) وأستارته (Astarte) ورشب (Reshep) وأناث (Anath) وسوتخ (Sutekh) وليلاحظ أن سوتخ هو معبود مصرى قديم وهو فى الوقت نفسه صورة أخرى للعبود ست (Set) أدخل فى سوريا ثم انتشرت عبادته هناك ، فلما غزا الهيكسوس مصر أرجعوه معهم فصار محبوبا بين الأهالى واختصه أهالى مدينة رمسيس الثانى بعديتهم . وأخذت تظهر فى هذا العصر أيضا عبادة الحيوانات بين الأهالى والموظفين الحكوميين .

سارت هذه التغيرات الدينية ببطء مطرد فى عهد رمسيس الثانى ، ولقلة معلوماتنا عن أعماله فى هذا الصدد استنتجنا أنه لم يقم غالبا بأعمال ذات بال لصد ذلك التيار الدينى الجديد . زد على ذلك أن نصوص جلالته صبغت بالصبغة الدينية الواضحة ، وكلها أساليب كهنوتية مصحوبة بالثناء والمديح الاعتياديين بدرجة يتبهم على قارئها فهم الغرض الأصلى لكتابة هذه النصوص . ومما يساعدنا على معرفة مقدار اخلاص هذا الملك الدينى تمثاله الذى بدار التحف بتورين (شكل ١٦٨) ومومياءه المحفوظة بدار التحف بالقاهرة (شكل ١٧٠) فهما يدلان أنه كان طويل القامة مترهفا تبدو عليه ملامح نسوية جذابة مما لا يتناسب تماما مع شدته وبأسه المشهور بهما ، ومع ذلك فان معارك كدش تصفه بأنه شهم قادر على ملاقاة الكوارث الشديدة . واستنتج من زحفه الثانى على آسيا ومحاربته ثانيا مع الحيثيين وتوسيعه مستعمراته السورية — لمدة من الزمن على الأقل — أنه كان صلب الرأى ماضى العزيمة . زد على ذلك أنه حارب بآسيا خمسة عشر عاما قام فى أثنائها بأعمال حربية عظيمة غطى بها ما لحقه من سوء الحظ فى معركة كدش الأولى واستحق بعدها أن يمضى باقى حياته فى راحة وسكينة . ومما لا جدال فيه أنه كان كثير الفخار شديد التظاهر بحروبه وانتصاراته على الآثار أكثر

(1) Erman, Handbuch. (2) Turin Stele.

من تحوتمس الثالث بمراحل . وكان ميالا أيضا للفرح والسرور ولم يمنع نفسه من الانغماس فيهما فأكثر من زوجاته ورزق منهن ذرية كثيرة جدا بلغت ما ينيف على المائة من الذكور وما يقرب من الخمسين من الإناث ، وقد تزوج هو بكثير من بناته . ويتضح من ذلك أنه أعقب ذرية حافظت على اسمه بين أحفادها نحو أربعمائة سنة حتى صار اسم رمسيس مرادفا لألقاب الامارة وعلو الشأن . ولما عجز رمسيس عن العثور على زوجات يلقن للاقتران بأنجاله زوج أحدهم بكريمة ربان سفينة سورية كما ألمعنا الى ذلك سابقا . والمعروف أنه كان يفتخر كثيرا بأسرته فرسم أفرادها على جدر المعابد ذكورا وإناثا صفوفا صفوفا ، ورافقه أولاده فى حروبه الأولى كقواد لفرق الجيش كما رواه ديودور الصقلي[1] ، وكان أحب أنجاله اليه المدعو خامويس (Khamwese) الذى عين رئيس كهنة بتاح بمنف ، لكن هذه المحبة شملت أيضا جميع أفراد الأسرة لأنه رسمهم جميعا حتى الزوجات والكريمات على آثاره .

ولما مضى على توليته ثلاثون عاما أقام لذلك احتفالا عظيما عهد ادارته الى نجله المحبوب خامويس الذى كان وقتئذ رئيس سحرة وكهنة بتاح . واستمر القوم يتحدثون برمسيس الثانى فى حكاياتهم مدة ألف سنة تقريبا بعد وفاته . وقد عاش بعد الاحتفال السابق عشرين سنة أخرى أقام فى أثنائها ما لا يقل عن تسع احتفالات بين كل واحد والآخر مدة تتراوح بين سنة وثلاث سنوات ، ولذلك كانت أعياد هذا الملك أكثر عددا من أعياد أى فرعون سابق[2] . وقد أشرنا الى كثرة المسلات التى أقامها فى احتفالاته ، وهذه أذاعت صيته كثيرا فى جهات القطر من مستنقعات الدلتا شمالا الى الشلال الرابع جنوبا . وقد عظمت مكانته ففاقت مكانة أمنحتب الثالث ، والحق يقال ان جلالته كان آخر الفراعنة النشيطين العاملين الذين شرفوا تاريخ مصر القديم بمآثرهم العظيمة .

وتوفى أنجال هذا الملك بمرور الزمن الواحد بعد الآخر ومن بينهم النجل العزيز خامويس الذى كان يشرف دائما على نظام احتفالات والده ، ولم يتمكن الا الثالث عشر من أنجاله من إرث أبيه . ولكهولة جلالته وقتئذ وقلة نشاطه اجترأ الليبيون واتحدوا مع أهالى البحر الأبيض المتوسط من لبسيين وسردينيين ويونانيين وتوغلوا غربى الدلتا حيث سحقهم جلالته سابقا وأجبرهم على الخدمة فى جيشه . والمعروف أن الليبيين بلغوا فى زحفهم أبواب منف وعبروا رأس الدلتا الجنوبى حتى بلغوا أسوار مدينة عين شمس حيث يقطن وزير الدولة . ولشيخوخة رمسيس واضمحلال همه عجز عن مقاومة أعدائه ولم يحرك ساكنا ضد هذا الخطر الذى هدد كيان دولته من الغرب ، واستمر عائشا بعاصمة مملكته شرقى الدلتا قليل العناية بأمور دولته الحربية حتى توفى وقد بلغ من العمر نيفا وتسعين سنة (وذلك حوالى عام ١٢٢٥ قبل الميلاد) ، وكانت وفاته فى السنة السابعة والستين من حكمه وقد ترك مملكته مهددة بأشد المخاطر . أما مومياء هذا الملك فتظهر عليها علامات العز والبذخ وقرب الشبه بتمثال صباه المحفوظ بدار التحف بتورين .

(1) Diod., I, 47; comp. Battle of Kadesh, p. 31.

(2) ٣ : ٥٤٣ — ٥٦٠

وقد استمر عشرة من الفراعنة يسمون أنفسهم باسمه بعد وفاته بربع قرن تقريبا وتمنى أحدهم أن يعمر فيحكم مصر سبعة وستين سنة مثل حكم سلفه المظيم[1] ، وتمثلت فى كل أعمال ذريته الشجاعة والعزة بدرجات متباينة . والحق يقال ان ذريته جرت على أثره مدة مائة وخمسين سنة تحتم فى أثنائها على كل فرعون أن يسمى رمسيس . لكن الأمة المصرية أخذت تضمحل ولذلك كانت همة هؤلاء الرمامسة غير كافية لإرجاع شأوها المظيم القديم وتوسيع ممتلكاتها ،وهكذا اقتصر هؤلاء الملوك على أحياء الشعائر الدينية التى أصبحت مطمح أنظار القوم ، وأخذت الامبراطورية المصرية فى آخر عهد الرمامسة تضمحل لأن معظم المالية أصبح وقفا على المعابد . ومما زاد الطين بلة أن معظم الجيش المصرى كان من الجنود الأجنبية المأجورة فى وقت كانت مصر أحوج ما تكون الى الاقتصاد فى المصروفات والانتفاع بمواردها جهد الاستطاعة .

---

(1) ع : ٤٧١

الفصل الثالث والعشرون

اضمحلال الامبراطورية النهائى : منفتاح ورمسيس الثالث

انقلبت الأمور فأضحت الامبراطورية المصرية مدافعة بعد أن كانت مهاجمة وقد حصل هذا تحت تأثير تغيرات داخلية وخارجية . وقد ألمعنا سابقا أن الامبراطورية المصرية نبذت فكرة الاستعمار جانبا وفقدت الدافع لذلك الذى اكتسبته منذ نحو ثلثمائة وخمسين سنة اثر طرد الهكسوس. وبقى الأهالى يترنمون بأعمال قواد تحوتمس الثالث ويتحدثون عنها رغبة فى الاحتفاظ بالروح الاستعمارية التى أكسبتهم المستعمرات الأسيوية لكن ذلك جاء على غير جدوى . هذا وصف مختصر لما أصاب داخلية القطر المصرى من التغيرات . أما ما انتابه خارجا فيتلخص فى انتشار الفوضى والمنازعات المستمرة على حدود المملكة المصرية ، فقد أخذ سكان البحر الأبيض المتوسط يزحفون على شواطئ مصر للنهب والاستيطان ، ثم اتحدوا مع الليبيين وأهالى آسيا فضغطوا باستمرار كأمواج البحر الزاخر على حدود الامبراطورية المصرية ، ولذلك لم يبق لمصر وسيلة إلا الدفاع عن كيانها وهكذا انقضت أيام استعمارها. وقد مكثت كذلك حوالى ستمائة سنة لم تقم فى أثنائها بمحاولة جدية نحو توسيع حدودها . وسنرى فيما يلى أن الفراعنة الذين حكموا القطر مدة ستين سنة بعد وفاة رمسيس الثانى بذلوا جهدهم للمحافظة على كيان مملكتهم بدلا من توسيعها كما فعل أجدادهم العظام سابقا . ولا بد أن القارئ يتذكر ما قلناه سابقا من أن هذه العوامل السيئة التى حلت بالقطر المصرى أخذت تسرى سمومها فيه أثناء السنوات العشرين الأخيرة من حكم رمسيس الثانى ، لما أخذ هذا الملك يتقدم فى السن ويفقد من قوته . ولما توفى كانت مملكته فى أشد الحاجة الى حاكم شاب قوى نشيط يأخذ بناصرها ويخرجها من الأخطار المحيطة بها ، لكنها رزئت فى تلك الآونة بابن رمسيس الثالث عشر المدعو منفتاح المسن الفاقد لجزء كبير من قوته ونشاطه ، وهكذا انتقل الملك من هرم الى هرم ، ولا يخفى أن لهذه الحوادث نتيجة واحدة لا ثانى لها ألا وهى الضعف والكسل والإهمال فى مقاومة المخاطر . لهذا نرى أن زحف الليبيين وأهالى البحر الأبيض المتوسط كان كالسيل الجارف يتغلب على مصر من الغرب بدون مقاومة تذكر . أما المستعمرات الأسيوية فلم تحصل فيها ثورات اثر وفاة رمسيس الثانى ، وكانت الحدود المصرية وقتئذ واصلة الى أعالى الأورونط وشاملة جزءا من مملكة آمون على الأقل وهذا الجزء يحوى مدينة تعرف باسم منفتاح ، ويظن أن هذه المدينة كانت مسماة باسم رمسيس الثانى ، فلما حكم منفتاح سماها باسمه . وبقيت علاقة منفتاح مع الحيثيين ودية والفضل فى ذلك يرجع الى المعاهدة التى عقدها والده مع هؤلاء القوم منذ نحو ست وأربعين سنة . ودلتنا الآثار أن جلالته أرسل الى الحيثيين سفنا مشحونة حبوبا لدرء المجاعة التى حلت بهم ، ويرجح أنه قبض ثمنها رغم ما يفهم

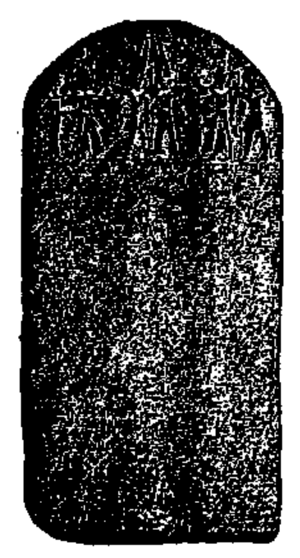
من الأسلوب الذى دوّنت به تلك الأعمال من أن جلالته تبرع بها جودا وسخاء[1] . وهذا الود وهذا السلام لم يدوما طويلا ففى نهاية السنة الثانية من حكمه نقض ما اعترف به والده فى معاهدة الحيثيين وندم على ما أظهره والده نحوهم من العطف والرأفة. والمرجح أن جلالته تحقق أن الحيثيين الذين حاربوا المصريين بكدش سابقا أخذوا الآن يساعدون أهالى البحر الأبيض المتوسط من ليسيين ودردانيين، وهم الذين اتحدوا مع الليبيين فى غاراتهم على غربى الدلتا . والظاهر أن الحيثيين حقيقة ساعدوا هؤلاء الأقوام أدبيا على الأقل ان لم يكن ماديا،ثم زادوا على ذلك فأوقدوا نار الفتنة فى مدن مستعمراته الأسيوية رغبة منهم فى ضمها الى أملاكهم . وعلى أى حال ففى السنة الثالثة من حكم منفتاح (حوالى سنة ١٢٢٣ قبل الميلاد) هبت ثورة عامة بمستعمرات مصر الأسيوية بلغت عسقلون على حدود مصر وجازر التى بنهاية وادى أيالونا (Ajalon) الموصل الى بيت المقدس ومدينة ينوام (Yenoam) بطرابلس الشام ، والتى حبسها تحوتمس الثالث على المعبود آمون منذ مائتين وستين سنة ، واشترك فى هذه الثورة قبائل بنى اسرائيل وأهالى غربى سوريا وفلسطين التى كانت خاضعة لمصر . أما سير حوادث هذه الثورة وكيفية إخمادها فلا نعلم عنهما شيئا، وكل ما وصل الينا خاصا بها أنشودة النصر التى وضعت لأجل فوز منفتاح على هؤلاء العصاة فى هذه الثورة . والظاهر أنه ذهب شخصيا هنالك فى السنة الثالثة من حكمه وأقمع الاضطرابات على الرغم من كبر سنه[2] ، ولا يبعد أن يكون قد اقتص تماما وقتئذ من الحيثيين ، وأن كل ما عمل لإخضاع الثورة لم يتعد نهب أو سلب مدينة أو مدينتين على الحدود . ولقد كانت الصدمة التى وجهها منفتاح للعصاة شديدة للغاية تمكن بها من إذلال فلسطين إذلالا تاما ، وكانت قبائل بنى اسرائيل ضمن المعاقبين الذين وقع عليهم القصاص ، والمعروف عن هذه القبائل أنها استوطنت فلسطين فى أواخر حكم الأسرة الثامنة عشرة وأوائل الأسرة التاسعة عشرة كما ألمعنا سابقا ، ولا بد أن هذه القبائل اتحدت أيام منفتاح وكوّنت قوما عرفوا باسم "اسرائيل" وقد جاء ذكرهم فى التاريخ لأول مرة فى عهد هذا الملك . وقد دافعت مدينة جازر عن نفسها كثيرا فى هذه الثورة ضد منفتاح حتى اضطر أن يحاصرها فسلمت له أخيرا فنحل لنفسه بعدئذ لقب "محاصر جازر"[3] وكان له فى اخضاعها الشرف . وقد شغله حصار جازر عن محاربة أعدائه غربى الدلتا مدة طويلة فلم يتمكن من قتال هؤلاء إلا فى السنة الخامسة من حكمه . والثابت أن جلالته لم يرجع من آسيا إلا بعد أن قمع ثورتها وأرجع الأمن الى نصابه ، ولا يحتمل أن يكون وسع حدوده هنالك عما كانت عليه أيام والده .

فى تلك الأحيان أخذت الحال فى غربى الدلتا تتغير من سيء الى أسوأ لأن الليبيين التحنو (Tehenu-Libyans) استمروا يزحفون على مصر بطريق مستعمراتهم على شاطئ البحر الأبيض المتوسط ، ويحتمل أن تكون طلائعهم وصلت وقتئذ الى قناة عين شمس[4] . أما معلوماتنا عن الليبيين فى تلك العصور فقليلة جدا ، والمعروف أن اقليم التحنو متاخم لحدود مصر الغربية ، ويلى ذلك غربا القسم المعمور بقبائل ليبو (Lebu) أو ريبو (Rebu) المعروفين عند اليونانيين بالليبيين .

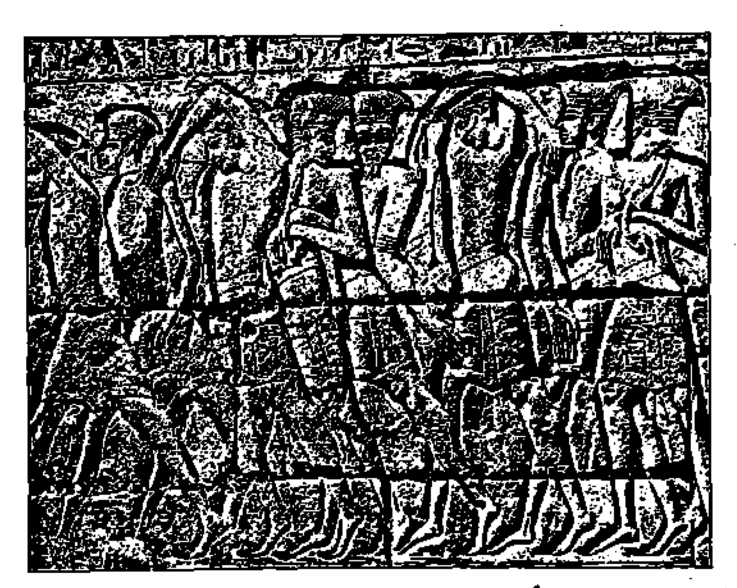
(1) ٣ : ٥٨٠ و ١ : ٢٤ (2) ٣ : ٦٢٩ — ٣٥ (3) ٣ : ٦٠٦ (4) ٣ : ٥٧٦



شكل ١٧٠ — رأس مومياء رمسيس الثانى
(دار تحف القاهرة)



شكل ١٧١ — نشيد النصر للملك منفتاح
(مرنبتاح) ، ويحوى هذا النشيد أقدم
ذكر لبنى اسرائيل على الآثار



شكل ١٧٢ — بعض الأسرى الفلسطينيين (بلست Peleset) الذين استولى عليهم رمسيس الثالث ،
رسوم بارزة على الصرح الثانى لمعبد مدينة هابو

أما قدماء المصريين فكانوا يطلقون اسم ليبو على سكان البادية الغربية . وغربى بلاد الليبيين قوم يقال لهم المشواش (Meshwesh) قطنوا الصحراء المجهولة الحد وقتئذ ، وقد ذكر هيردوت هؤلاء القوم تحت اسم ماكسيز (Maxyes) وهم بلا جدال أصل البربر الذين استعمروا شمالى افريقية . والمشواش قوم متمدينون نوعا ماهرون فى الفنون الحربية مسلحون جيدا قادرون على القيام بحركات هجومية ضد فرعون مصر ، وقد أخذت قبائلهم فى هذا الوقت تتحد تحت سلطة أمير منهم فكوّنوا مملكة قوية طمحت نحو الاستعمار وتبعد عن مأوى فرعون شرق الدلتا بمسيرة عشرة أيام . وليلاحظ أن جهات غربى الدلتا امتزجت بالدم الليبى وكثرت فيها الأسر الليبية . وتقدم الليبيون غربى مصر حتى بلغوا الشاطئ الغربى لفرع النيل الكنوپى (Canopic) المعروف وقتئذ بالنهر الكبير ، ثم ستوطن ليبيون آخرون الواحتين اللتين هما جنوبى وغربى الفيوم . ووصف منفتاح هؤلاء القوم "بأنهم يمضون أوقاتهم محاربين ليملئوا بطونهم كل يوم ، وقد أتوا الى مصر ليحصلوا على ما تحتاج اليه أفمامهم"[١] . ولما زاد عدد الليبيين بالدلتا تجاسروا وتطاولوا على فرعون مصر فجمعوا شملهم وكوّنوا قوة نظامية للاستيلاء على أرض مصر ، وكانوا وقتئذ تحت قيادة ملكهم المدعو مريى (Meryey) وهذا أجبر بدو التحنو أن ينضموا اليه ، ثم استعان بقرصان البحر الأبيض المتوسط وأحضر زوجته وأولاده[٢] كما فعل ذلك أيضا حلفاؤه[٣] وأخذوا يزحفون على مصر للاستيلاء عليها والاستيطان بها . أما حلفاؤه من قرصان البحر الأبيض المتوسط فكانوا مكوّنين من سردينيين (Sherden) وشكلاشيين (Sheklesh) من صقلية وآشيين أو الليسيين المعروفين باسم (Ekwesh) وهم الذين سطوا على مصر أيام أمنحتب الثالث والاترسكيين (Etruscans أو Tyrsenians)[٤] المعروفين على الآثار باسم ترش (Teresh) وهؤلاء الأقوام هم أقدم من أتوا الى مصر من سكان أوربا وكانوا ينهبون البلاد بالسطو وقد ورد ذكرهم فى نصوص عهد المملكة الوسطى . لكن هؤلاء الأقوام ليسوا أول الأوربيين الذين أتوا الى مصر لأن المعروف عنهم أنهم عبروا البحر الأبيض المتوسط كثيرا فيما مضى واليهم يعزى أصل الليبيين البيض البشرة . ويظهر من عدد الأسرى والقتلى الليبيين الذين أصيبوا فى معركتهم مع منفتاح أن عدد جيشهم كان لا يقل عن عشرين ألف مقاتل .

وعلم منفتاح بالخطر المهدد لكيان مملكته فحصن قلاع عين شمس ومنف[٥] . وفى آخر مارس من السنة الخامسة من حكمه بلغه خبر زحف الليبيين على مصر فاستدعى موظفيه بسرعة وأمرهم بحشد جيوشه وتجهيزها للقتال فى ظرف أربعة عشر يوما[٦] . ورأى فى المنام المعبود پتاح فى هيئة شيخ عظيم أهدى اليه سيفا وطلب منه أن يبطل الخوف والوجل[٧] . فلما حل منتصف أبريل كانت الجيوش المصرية معسكرة غربى الدلتا وبالغة صفوف الأعداء وذلك وقت المغيب[٨] بالقرب من پريرع (Perire) وهى مدينة مجهولة الموقع بالضبط لكنها تبعد عن القلاع التى على رأس الطريق الموصل الدلتا بصحراء ليبيا بعدة أميال[٩] . وكان لمنفتاح بالقرب من پريرع قصر عظيم وسط كروم

(١) ٣ : ٥٨٠ . (٢) ٣ : ٥٧٩ . (٣) ٣ : ٥٩٥ . (٤) ٣ : ٥٧٩ . (٥) ٣ : ٥٧٦ .
(٦) ٣ : ٥٨١ . (٧) ٣ : ٥٨٢ . (٨) ٣ : ٥٨٣ . (٩) ٣ : ٦٠٠ .

كثيرة ، وشرق ذلك تمتد حقول الدلتا الجميلة الجزيلة الخيرات والتى كان مزارعوها فى ذاك الوقت يحصدونها بهمة ونشاط . فلما وقع نظر الليبيين على هذه الخيرات العظيمة ازدادت همتهم واشرأبت أعناقهم اليها فاخترقوا صفوف القلاع الغربية وهناك التحموا بجيش منفتاح بالقرب من قصره فى صباح الخامس عشر من أبريل ، واستمرت المعركة دائرة بشدة مدة ست ساعات انتهت بطرد الليبيين بعد ما تكبدوا خسائر فادحة ، فتعقبهم منفتاح بخيله كما تفعل الجيوش الحديثة ومزقهم شر ممزق واستمر فى اقتفائهم حتى بلغ "جبل قرون الأرض" وهو آخر حدود الدلتا الغربية ومنه هرب الليبيون[1] . أما مرى (Meryey) فقد فر الى بلده يائسا من النصر تاركا جميع أسرته وأثاث منزله فى أيدى المصريين[2] . وقد استولى المصريون فى اقتفائهم أثر أعدائهم على أسرى عديدين كما قتلوا منهم أيضا عددا يماثل ذلك ، وتقدر خسارة الأعداء بتسعة آلاف قتيل ثلثهم تقريبا من سكان البحر الأبيض المتوسط ، أما الأسرى فيقرب عددهم من هذا المقدار أيضا ، وقد وقع بين القتلى أنجال ملك الليبيين الستة[3] . وغنم المصريون من هذه المعركة أشياء كثيرة منها تسعة آلاف سيف نحاس وعدد كبير من أدوات الحروب المختلفة البالغ عددها مائة وعشرين ألفا وأسلحة جميلة أخرى وأثاث بديع وجد فى خيام ملك الليبيين ورؤساء بلاده ينيف على ثلاثة آلاف قطعة[4] . ولما نهب المصريون خيام الأعداء تماما أضرموا فيها النار فالتهمتها كلها[5] .

ورجع الجيش المصرى الى قصر منفتاح شرق الدلتا فأتت اليه الحمير مثقلة بأيدى الأسرى وأمتعتهم[6] ثم أحضرت الغنيمة وعلائم الانتصار تحت شرفة القصر الملكى فتفقدها الملك واستقبل جمهور رعيته الجذل[7] ، وبعد ذلك جمع أمراء مملكته فى القاعة الكبرى من قصره وألقى عليهم خطابا عظيما . وبينما كان جلالته يوجه كلامه نحو أمرائه وصل اليه نبأ من قائد قلاع غربى الدلتا يفيده أن ملك الليبيين هرب مخترقا خط الدفاع المصرى ليلا وأن قومه يئسوا منه فخلعوه وملكوا عليهم غيره من خصومه[8] . وهكذا سقط الحزب الحربى فى ليبيا ووقف كل هجوم من تلك الجهة على مصر فى عهد منفتاح على الأقل .

ويستدل من شدة الفرح الذى عم أهالى القطر اثر هذا النصر الحربى أن هذا الجذل لم يكن لمجرد الفوز العسكرى بل كان أيضا لخلاص مصر من الوقوع فى أيدى هؤلاء الأعداء ، فقد وقف بذلك سلب غربى الدلتا الذى استمر جيلا تقريبا من هؤلاء الليبيين . لذلك لم يكن هذا النصر درءا لخطر داهم هدد الامبراطورية المصرية فقط بل كان فرجا وخلاصا من كابوس أثقل كاهل الأهالى وأذاقهم مرارة الحياة ، واذا لاحظنا هذا اتضح لنا سر شدة فرح المصريين وترنمهم بالأنشودة الآتية :

"شمل مصر فرح عظيم وصعدت من بلاد الدميرة (مصر) أصوات السرور ، فأصبح الكل يتحدثون بنصر منفتاح على التحنو قائلين ما أحب هذا الملك المنتصر! وما أعظمه بين المعبودات!

---

(1) ٣ : ٥٨٤ و ٦٠٠ (2) ٣ : ٥٨٤ (3) ٣ : ٥٨٨ (4) ٣ : ٥٨٩ (5) ٣ : ٥٨٩ و ٦١٠ .
(6) ٣ : ٥٨٧ (7) شرحه . (8) ٣ : ٥٨٦ و ٦١٠

وما أسعد هذا القائد الحاكم ! اجلس مسرورا وتكلم أو امش بعيدا حيثما أردت فلا خوف الآن فى قلوب الخلق . القلاع تركت وشأنها والآبار فتحت من جديد . وأصبحت الرسل تنتظر حول القلاع مستريحين فى ظل جدرها من حرارة الشمس حتى يتنبه الحراس من الداخل . أما الجنود فصارت تنام مستريحة البال ، وأضحى حرس الحدود يشتغل فى حقوله كالعادة ، وأصبحت قطعان الأغنام ترعى بدون راع وتعبر نهر النيل فى منتهى فيضانه وقتما تريد . لا أثر الآن لأصوات مثل "قف ! ها قد أتى أحد ! ها قد أتى شخص يتكلم بلهجة أجنبية ! " بل صار الانسان يروح ويغدو مغنيا وانعدم الترح بين الأهالى وأخذت المدن تشيد العمارات من جديد وكل انسان جنى ثمار أتعابه . حقيقة ! لقد رجع رع الى مصر ! كيف لا فقد ولد ليدافع عنها ويحميها فى شخص الملك منفتاح ! " .

"لقد خضع الملوك صائحين سلام ! فلم يرفع رأسه فرد من القبائل التسع ذات الأقواس .

"لقد أتلفت أرض تحنو ، وأرض الحيثيين أسكتت كذلك ، أما أرض كنعان فسلبت بأشد قسوة ،

"وأما عسقلون فأخذت وكذا جازر استولى عليها جلالته . وقد انعدم أثر مدينة ينوام .

"لقد أبيدت اسرائيل واستؤصلت وأصبحت فلسطين أرملة (ضعيفة) لمصر . واتحدت البلاد وخيم السلام على الجميع وأصبح الملك منفتاح يوثق بحباله كل من يثور على النظام" [١] .

لا شك أن القارئ لاحظ أن الجزء الأخير من هذه الأنشودة يلخص لنا كل انتصارات منفتاح بآسيا وهو للآن مرجعنا الوحيد فى حروبه الأسيوية وقد جاء موضعه فى الأنشودة خير ختام لها .

بهذه الطريقة تمكن منفتاح على كبر سنه من درء أول زوبعة من سلسلة الزوابع التى أخذت تهب على بناء الامبراطورية المصرية . والمعروف أنه عاش فى الدلتا بعد ذلك خمس سنوات خيم السلام فى أثنائها على مملكته . ومما ورد عنه أنه حصن حدوده الأسيوية بقلعة سميت باسمه [٢] وأخضع ثورة نوبية فى الجنوب أيضا [٣] .

قال بعض الأثريين ان أحد السوريين المدعو ابن عوزن والذى كان موظفا فى القصر الملكى قبض فى آخر الأمر على منفتاح وأدار أمور المملكة لكننا لم نجد أساسا لذلك . والظاهر أن سبب سوء هذا الفهم يرجع الى عدم معرفة معنى الألقاب الكثيرة التى أغدقت على هذا السورى وقتئذ ، وقد ألمعنا الى ذلك فيما تقدم [٤] .

وليعلم أن طول حكم رمسيس الثانى واسرافه فى الأموال وحبه الشديد لتشييد العمارات الضخمة منع منفتاح من انجاز كل ما صبت اليه نفسه . زد على ذلك أن أيامه كانت على طولها خاصة بالحركات الحربية والفتوحات فلم يكن لديه وقت لقطع الأحجار وتشييد معبد له بطيبه تقدم اليه فيه

(١) ٣ : ٦١٦ — ٦١٧ (٢) Pap. Anast, VI, pl. 4, l. 18–pl. 5, l. 5. (٣) ٣ : صحيفة ٢٥٩

ملاحظة (١) (٤) راجع صحيفة ٣٠٢

القرابين بعد وفاته كما فعل أسلافه ، ولهذا السبب أخذ منفتاح يهدم آثار أجداده بقسوة عظيمة فهدم معبد أمنحتب الثالث فى السهل الغربى لطيبه وحطم جدره وكسر تماثيله ليستعمل من أجزائها أحجارا لبنائه الجديد . فمن هذه الأحجار التى احتكرها هذا الملك لنفسه شاهد جرانيتى ينيف طوله على عشر أقدام مكتوب عليه بيان العمارات التى شيدها أمنحتب الثالث[1] (شكل ١٧١) وقد أمر منفتاح بوضع هذا الحجر فى عمارته الجديدة مديرا نقوش أمنحتب الثالث الى الحائط ثم نقش على الوجه الآخر أنشودة انتصاره على الليبيين السابقة الذكر[2] ، ولهذه الأنشودة قيمة أثرية عظيمة لاحتوائها على أقدم ذكر لإسرائيل[3] . ولم يقتصر اتلاف منفتاح لآثار أجداده بل شمل أيضا آثار والده الذى سبق أن وضع له مثالا لمثل هذا الاعتداء قبل وفاته . والغريب أن رمسيس الثانى مع ما أتلفه من آثار أجداده نقش على جدر معبد العرابة رجاء لخلفائه أن يحترموا أعماله وأبنيته ويحفظوها من التبديد ، ولما أتى ابنه بعده لم يظهر أقل احترام لهذا الرجاء الأبوى[4] بل استمر يضع اسمه على آثار والده طول حياته .

وتوفى منفتاح عام ١٢١٥ قبل الميلاد بعد ما حكم عشر سنوات ودفن بطيبه بالوادى الذى دفن فيه أجداده ، وقد عثر على جثته هناك حديثا فظهر بذلك خطأ الرأى القائل بغرقه بالبحر الأحمر لما ورد على الآثار من علاقته ببنى اسرائيل .

والحق يقال ان هذا الملك وان عيب عليه اتلاف آثار أسلافه فانه يستحق الإعجاب والمديح لما أتاه من الشهامة والإقدام على ضعفه وتقدم سنه لصدّه الأجانب عن مصر وهم الذين أوشكوا أن يستولوا عليها تماما .

ولا يخفى أن حكم رمسيس الثانى ومنفتاح الطاعنين فى السن صحبه ضعف وتهاون فى ادارة القطر مع تدخل وتآمر على دوائر الحكومة ، لذلك لما توفى منفتاح حصل نزاع داخلى على العرش الملكى دام عدة سنوات نجح فيه اثنان أولهما امنمسس (Amenmeses) ومنفتاح سپتاح (Merneptah-Siptah)[5] . أما الأول فكان ضعيف الحق فى المطالبة لأنه ارتكن فى دعواه على علاقة قرابة بعيدة تربطه بالبيت المالك ، وكان أيضا معاديا لمنفتاح ولذلك لم يدم طويلا فحل محله منفتاح سپتاح الذى وضع يده بسرعة على آثاره وهشم قبره بوادى طيبه الغربى . وسنرى منذ الآن أن النوبة امتد اليها لهيب الثورة فكانت ميدانا للحركات الثورية ضد العرش الملكى ، وقد تكرر هذا الأمر أيضا فى عهد الرومان وذلك لبعد النوبة عن العاصمة المصرية ولسهولة العمل هناك ضد العرش الفرعونى وسهولة تأسيس حزب كبير يعاضد الحركات الثورية . ولا يبعد أن يكون سپتاح توصل الى الملك عن طريق النوبة حيث توج ملكا على مصر ، وعلى كل حال فالمعروف أنه ذهب الى النوبة فى أول سنة من حكمه وعين مندوبه السامى هناك وأرسل رسله لتوزيع الهبات على الأهالى[6] . بهذه الطريقة وباقترانه بالأميرة تاوسرت (Tewosert) التى يغلب أنها من أصل فرعونى عريق ، تمكن سپتاح من الاستقلال بالملك ست سنوات أرسلت

---

(١) ٢ : ٨٧٨ ملاحظة (٢) ٣ : ٦٠٢ — ٦١٧ . (٣) راجع صحيفة ٣١٧ (٤) ٣ : ٤٨٦
(٥) ٣ : ٦٤١ (٦) ٣ : ٦٤٢ — ٤

فى أثنائها بلاد النوبة جزيتها السنوية بانتظام[1] وسارت المعاملات الاعتيادية مع امارات آسيا أيضا فى مجراها الطبيعى[2] . أما المندوب السامى الذى عينه سبتاح فى النوبة فكان يدعى سيتى وقد لقب كما ألمنا سابقا "حاكم أرض آمون الذهبية"[3] . وليلاحظ أن هذه الوظيفة الأخيرة وطدت العلاقة بين المندوب السامى وكهنة آمون بطيبه ولذلك لا يبعد أن المندوب السامى اتبع طريقة سبتاح للحصول على عرش مصر مستعينا على ذلك بنفوذه بالنوبة . وقد حصل فعلا أن الذى أعقب سبتاح فى الحكم هو ملك يقال له سيتى اعتبره القوم الشخص الوحيد ذا الحق الشرعى فى العرش الفرعونى من بين خلفاء منفتاح الثلاثة . والظاهر أن هذا الملك كان قويا ناجحا نوعا ما فقد شيد معبدا صغيرا بالكرنك وآخر بالأشمونين (هرمو پوليس) ، ثم وضع يده على مقبرة سنتاح وتاوسرت ، ثم شيد لنفسه أخيرا قبرا خاصا له . وظهرت فى البلاد عوامل داخلية شديدة أسقطته من الحكم لأن البلاد كانت فى حاجة الى حاكم قوى شديد ماهر حاذق ، وهذه العوامل تتلخص فى ظهور أمراء البلاد بشىء من الغطرسة والكبرياء والإكثار من الأجانب فى الحاشية الملكية ، وشدة نفوذ الكهنة وتعدد المطالبين بالعرش . ولما كان سيتى الثانى ضعيف الشكيمة بالنسبة لهذه الاعتبارات وقع ضحيتها ، ولا غرابة فى ذلك فتيار العوامل المذكورة يكفى لأن يذهب بعدة رجال يفوقون سيتى هذا قوة وذكاء .

ولما ترك سيتى الثانى الحكم عجز مسقطوه عن القيام بأعباء الحكم فشبت فى البلاد حرب أهلية جزأت القطر وانقسم تحت تأثيرها الى عدة أجزاء مستقلة ، فعم البؤس وسوء النظام سائر أنحاء المملكة وهو ما نشاهد كثيرا فى مثل هذه الأحوال بالبلاد الشرقية . واليك ترجمة ما جاء بالآثار فى هذا الصدد :

"لقد فقد كل انسان متاعه فلم يبق هنالك حاكم يرد الحق الى نصابه عدة سنوات . وسقطت مصر فى أيدى أمرائها وحكام مدنها ، فصار الجار يقتل جاره قويا كان أو ضعيفا[4] .

ولم نهتد للآن الى مدة هذه الاضطرابات لكن الثابت أن الامبراطورية المصرية كانت سائرة بسرعة نحو التفكك والانحلال بالكيفية التى وصفها لنا كتاب العرب أيام المماليك . وما أقوى الشبه بين ما وصفه كتاب العرب أيام القرن الرابع عشر بعد الميلاد وما ورد فى قرطاس هريس (Harris) المدون أيام رمسيس الثالث حيث سردت أخبار تلك المجاعة والثورة بالإيجاز[5] .

وصادف فى ذلك الوقت توظف أحد السوريين فى القصر الملكى فرأى البلاد فى حالة انحطاط شديد واضطرابات كثيرة فاغتصب الملك وساس القطر بالقسوة والجبروت مستوليا على جميع ايراد البلاد . ثم جمع رفقاءه وسلب أموالهم وعامل المعبودات كالآدميين فلم يقدم لها قرابين بالمعابد[6] ، فضاع الحق وأبطلت أوقاف المعابد .

وبديهى أن الليبيين كانوا وقتئذ على علم تام بما حصل بالقطر المصرى من الدمار والجوع ، فأخذوا يهاجرون الى غربى الدلتا وصار جناتهم ولصوصهم يعبثون فى البلاد بين منف والبحر الأبيض

(1) ٣ : ٦٤٤ (2) ٣ : ٦٥١ (3) ٣ : ٦٤٠ (4) ٤ : ٣٩٨ (5) شرحه . (6) شرحه .



خريطة رقم ١٢ تظهر علاقة مصر الجغرافية مع العالم القديم
مذكور بها بعض أسماء حديثة للمواقع وغيرها تسهيلا لمهمة القارئ

المتوسط ثم استولوا على الحقول واستوطنوا شاطئ فرع النيل الكانوبى[1] ، عند ذلك ظهر بين المصريين رجل قوى الشكيمة مجهول الأصل يدعى ستنخت (Setnakht) حوالى عام ١٢٠٠ قبل الميلاد يرجح أنه من سلالة سيتى الأول ورمسيس الثانى نجح فى الاستيلاء على العرش الفرعونى واثبات حقه ضد كل مدع رغم كثرة أعداء مصر خارجا وداخلا ، واستعمل فى ذلك حنكة ومهارة سياسيتين استحق عليهما جزيل الثناء . بعد ذلك بسط ستنخت النظام ووطد الأمن والسكينة فى البلاد وأرجع القوانين الفرعونية الى ما كانت عليه سابقا . ومن دواعى الأسف أن الأخبار التى وردت الينا عن هذه الأزمة قليلة جدا تتلخص فيما أورده رمسيس الثالث بن ستنخت حيث قال ما ترجمته :

"ولما اتفقت كلمة المعبودات على السلم وأجمعت رأيها على العمل معا لما فيه مصلحة البلاد كالعادة ولت ابنها من سلالتها المدعو ستنخت حاكما على كل الأراضى ...... فأرجع النظام فى جميع البلاد الثائرة وقتل العصاة الذين كانوا بمصر وطهر العرش المصرى العظيم .... فعرف كل انسان أخاه بعد ما كان مضطرا الى المعيشة بين جدر المنازل (للحماية من العبث). ثم أعاد القربان الى المعابد كما كانت من قديم الزمان"[2] .

يتضح من هذه العبارة أن الرجل السورى الذى اغتصب الملك أغضب الكهنة بابطال أوقافهم ، أما ستنخت فاتخذ ارجاع أوقاف الكهنة لأصلها وسيلة للوصول الى العرش لأن طائفة هؤلاء القوم كانت أغنى وأقوى حزب فى البلاد .

وسنرى أن المشاق التى صادفها ستنخت فى حكمه كانت صعبة منعته من تشييد المعابد والحيا كل كسلفه بل حالت أيضا دون انشائه قبرا له بطيبه . لذلك وضع يده على قبر سيتاح وتاوسرت الذى اغتصبه سيتى الثانى سابقا ولم يستعمله . والظاهر أن حكم ستنخت كان قصيرا لأن كل الآثار التى عثرنا عليها لهذا الملك ترجع الى السنة الأولى من حكمه . وأقصى تاريخ اهتدينا اليه من حكم هذا الملك هو الوارد على ظهر درج بردى خطه كاتب مصرى كان يجرب قلمه وهو يشير الى السنة الأولى من حكم الملك ستنخت . وقبل أن يتوفى هذا الملك (عام ١١٩٨ قبل الميلاد) عين ابنه رمسيس الثالث شريكا له فى الملك وولى عهد حكومته .

اعتبر مانيتو رمسيس الثالث مؤسس الأسرة العشرين رغم ما ذكرناه من انقطاع الصلة الدموية بين الحكام بعد وفاة منفتاح وفى عهد ستنخت . أما الظروف التى اعتلى فيها رمسيس الثالث الحكم فكانت كثيرة الشبه بظروف منفتاح وقت توليته الملك ، ونظرا لحداثة سن أولها وشجاعته تمكن من علاج المصاعب التى اعترضته أحسن من منفتاح ، فأخذ رمسيس الثالث يصلح قوته الحربية بسرعة ويقسمها الى طبقات على حسب لياقة الأفراد للخدمة ، وزيادة على ذلك فقد أدخل على جيشه فرقة السردينيين المأجورين التى لا نزال نجهل عدد أشخاصها — وقد كانت وقت رمسيس الثانى — وفرقة ككك (Kehek) وهى قبيلة ليبية[3] . وبديهى أن هذه الجنود المأجورة كانت تخدم ما دامت

(1) ٤ : ٤٠ و ٢٠٠:٢ — ٢٢ و ٤٠٤ (2) ٤ : ٣٩٩ (3) ٤ : ٤٠٢

تتسلم أجورها . أما الجنود المصرية فكانت كثيرة التغير والتبدل بدخول طبقة بعد أخرى ولذلك كان معظم اعتماد فرعون على جنوده الأجنبية المأجورة . وقد شغل نظام القطر الداخلى وقت رمسيس الثالث كله فلم يتمكن من علاج الخطر الليبى إلا مكرها كما حصل لمنفتاح . ومما زاد الطين بلة أن سكان شواطئ البحر الأبيض المتوسط أخذوا يفدون بكثرة على مصر ، وأخصهم قومان قطيعان يعرفان بالتكاليين (Thekel) و البلست (Peleset) — المعروفين عند اليهود بالفلسطينيين (شكل ١٧٢) — اشتهرا باحداث القلق والاضطراب[١] . أما أهالى بلست وهم الفلسطينيون فأصلهم من جزيرة كريت ، وأما التكاليون فالغالب أنهم يونانيو الأصل من جزيرة صقلية . وقد اتحد التكاليون وأهالى بلست مع الدناويين (Denyen) والسردينيين والوشاشيين والشكالاشيين وجمعوا كلمتهم على الهجوم على مصر ، وزحف القومان الأولان جنوبا وشرقا تحت ضغط الباقين من حرب هذا الاتحاد . ولقلة معرفتنا للغة هؤلاء القوم ومجتمعاتهم وما وصل الينا من رسومهم على الآثار المصرية ؛ تلك الرسوم الخاصة بملابسهم وأسلحتهم وسفنهم وعددهم ، لا نزال نجهل أصلهم بالضبط . والظاهر أن هجرتهم الجنوبية هذه جاءت دليلا على سبق حصول مثل هذه الهجرات قديما . وقد اتخذ هؤلاء الأعداء طريقين فى هجرتهم أحدهما طريق سوريا فأعالى الأورونط ومملكة آمور[٢] ، والثانى طريق أساطيلهم التى سيرها رجال جسورون منهم عن طريق شاطئ الدلتا ، وقد اتبع هؤلاء الأخيرون أساليب النهب والقرصنة حيثما حلوا[٣] . ولما وصل الفريق الثانى إلى شاطئ إفريقية وجد فيه الليبيين الذين أظهروا استعدادهم للاتحاد معهم على نهب الدلتا واحتلالها . وسبق القول أن الليبيين عزلوا ملكهم المدعو مريى (Meryey) بعد ما هزمه منفتاح ، والآن نذكر القارئ أنهم ملكوا عليهم ملكا ندعى ورمر (Wermer) ، ولما مات هذا تولى بعده الملك تيمر (Themer) ، وهذا الأخير هو الذى قاد الليبيين ضد مصر فى عهد رمسيس الثالث . وكان الهجوم على مصر من غربى الدلتا بطريق البر والبحر ، والتقت الأعداء بجنود رمسيس الثالث بجوار مدينة "رمسيس الثالث معاقب أهل التمحو (أى ليبيا)"[٤] ، وهناك هزمهم رمسيس وحطم جانبا من سفنهم وأسر الجانب الآخر ، فرجع الأعداء بعد ما خسروا كثيرا لأن قتلاهم بلغوا اثنى عشر ألفا وخمسمائة نسمة ، وأسراهم ألف نسمة على أقل تقدير ، وأغلب القتلى كانوا من القرصان[٥] .

واحتفل رمسيس الثالث بهذا النصر احتفالا كبيرا كالعادة فقابل فى شرفة قصره أعيان بلاده الفرحين واستعرض الغنيمة الحربية[٦] ووهب كثيرا من الأسرى لآمون[٧] كالعادة المتبعة ، وعم البلاد وقتئذ الأمن والسلام واليك ترجمة ماقاله الملك :

"لقد أمكن كل امرأة الآن أن تسير خارج منزلها كما تريد زانعة قناعها بلا خوف ولا وجل لأنه لم يعد أحد يتعرض لها"[٨] .

---

(١) ٤ : ٤٤ (٢) ٤ : ٣٩ (٣) ٤ : ٤٤ (٤) ٤ : ٥٢ (٥) ٤ : ٥٢ — ٤
(٦) ٤ : ٤٢ و ٥٢ — ٥ (٧) ٤ : ٥٧ — [illegible] (٨) ٤ : ٤٧ [illegible] ٧٣

وحصن حدود مملكته الغربية ضدّ الليبيين فشيد قلعة ومدينة على رأس الطريق الممتد من غربي الدلتا الى الصحراء وذلك في مكان مرتفع يعرف " بجبل قرون الأرض " الوارد ذكره ضمن أخبار منفتاح السابقة[١] .

وأخذت سحب المخاطر تتجمع وتتلبد في سماء الامبراطورية الشمالية وقد أشرنا الى بوادر هذه الزوبعة لما تكلمنا على الهجوم السابق على سواحل الدلتا . والظاهر أن السفن الوارد ذكرها قبلا والامدادات البرية التى أمد بها هؤلاء البحارة الأهالى الليبيين وقت هجومهم على مصر فى السنة الخامسة من حكم رمسيس الثالث لم تكن سوى تمهيدات أولية لهجوم شديد داهم آت عن طريق سوريا . وتفصيل ذلك أن هؤلاء الأجانب (أهالى البحر الأبيض المتوسط) أخذوا يفدون مع أسرهم على سوريا فى عجلات ضخمة ، كل واحدة لها عجلتان تجرها ثيران ، وفى سفن عديدة تطوف الشاطئ السورى ، ولحسن تسلح هؤلاء الأقوام عجز أهالى مدن آسيا عن مقاومتهم ولذلك سهل عليهم الاستيلاء على جميع بلاد الحيثيين شمالى سوريا حتى كاركاميش (Carchemish) على الفرات . بعد ذلك زحفوا مخترقين أرواد (Arvad) على ساحل فينيقيا ثم ساروا جنوبا حتى مملكة آمون متبعين طريق نهر الأورونط ناهبين ومتلفين كل ما وقعت عليه أيديهم . والظاهر أن مستعمرة الحيثيين بسوريا انقطعت صلتها بهؤلاء منذ مدة فلم يعد لهم هناك سلطة مطلقا .

وزحف أسطول سكان البحر الأبيض المتوسط على جزيرة قبرص المعروفة قديما باسم الاسا (Alasa) فلم يجد فيها مقاومة تذكر فاحتلها . بعد ذلك " أقبل هؤلاء الاقوام والنار تتأجج أمامهم مولين وجوههم نحو مصر . وكانوا وقتئذ مكونين من أهالى بلست (كريت) وثيكل (صقلية) وشكلش ودنان ووشواش . كل هؤلاء اتحدوا معا وأخذوا يستولون على الأراضى حتى بلغوا " افق الأرض " [٢] . وقد دلتنا الآثار أن "هؤلاء الأقوام أتوا من جزرهم فى وسط البحر الأبيض المتوسط معتمدين على أسلحتهم ووجهتهم القطر المصرى " [٣] ، فلما بلغوا آمورضربوا خيامهم ولبثوا بها مدة وجيزة[٤] .

أما رمسيس الثالث فقد أخذ يتجهز ويستعد بكل قوته لصد هجوم أعدائه فحصن حدوده السورية وجمع أسطولا ضخما بسرعة ووزعه على المواني الشمالية[٥] وراقب من شرفة قصره تجهيزات مشاته[٦] . ولما كمل استعداده قاد بنفسه قواته الى سوريا ليصد زحف أعدائه . وللآن لم نهتد الى مكان المعركة التى نشبت بين الطرفين بالضبط . لكنه لما كان الأعداء وصلوا الى آمور فمن المحتمل جدا أن يكون العراك قد حصل بتلك الجهات . ولم يخبرنا رمسيس الثالث عن سير المعركة إلا خبرا مجملا فقال إنه انتصر على أعدائه وهزمهم ، ويستدل من صور تلك المعركة أن جنوده السردينيين شقوا صفوف أعدائه واستولوا على عجلاتهم ، ولما كانت قوات الأعداء تشمل أيضا بعض السردينيين اضطر هؤلاء الأخيرون أن يحاربوا أبناء وطنهم المنتمين الى الطرف الثانى . وقد

(١) ٤ : ١٠٢ و ١٠٧ و ٣ : ٥٨٨ و ٦٠٠ (٢) الى يحيطها الأقيانوس (٤ : ٦٤) (٣) ٤ : ٧٧
(٤) ٤ : ٦٤ (٥) ٤ : ٦٥ (٦) ٤ : ٧٠ — ٧١

تمكن رمسيس الثالث من الوصول الى ميناء على شاطئ فينيقيا راقب منها سير المعركة البحرية التي دارت رحاها بين أسطوله وأسطول أعدائه وأدار حركة الدفاع من الشاطئ . أما الأسطول المصرى فكان مزودا بخيرة البحارة المصريين المسلحين جيدا ولذلك ألحقوا الهزيمة والتلف بسفن الأعداء قبل أن تصل الى الشاطئ . ومما زاد الطين بلة أن رمسيس وضع على الشاطئ المقابل لمكان المعركة قوة برية مصرية مسلحة بالسهام صوبت أسلحتها الفتاكة نحو رجال أسطول العدو فأصلتهم نارا حامية ، واشترك فى القتال فرمى أعداءه بسهامه . بعد ذلك تقدم الأسطول المصرى نحو الأسطول الأجنبي ليحتل وحداته و يفتك برجاله ، فانتشر الذعر بين الأعداء وانعدم النظام بينهم (شكل ١٧٣) فغرق من سفنهم ما غرق ، ثم دب الرعب فى نفوسهم فوجموا لما أصابهم وألقوا أسلحتهم فى البحر ، وكانت سهام جلالته تصيب جسم كل من يصوبها نحوه فترديه فى الماء قتيلا "[1] .

بعد ذلك سحبت السفن مقلوبة الى الشاطئ وكانت القتلى كومات مكدسة على ظهر السفن من مقدمها الى مؤخرها ، وألقيت جميع أمتعة الأعداء فى البحر تذكارا لمصر[2] ، ومن حاول من الأعداء الهرب عائما نحو الشاطئ تأسره القوات المصرية هناك .

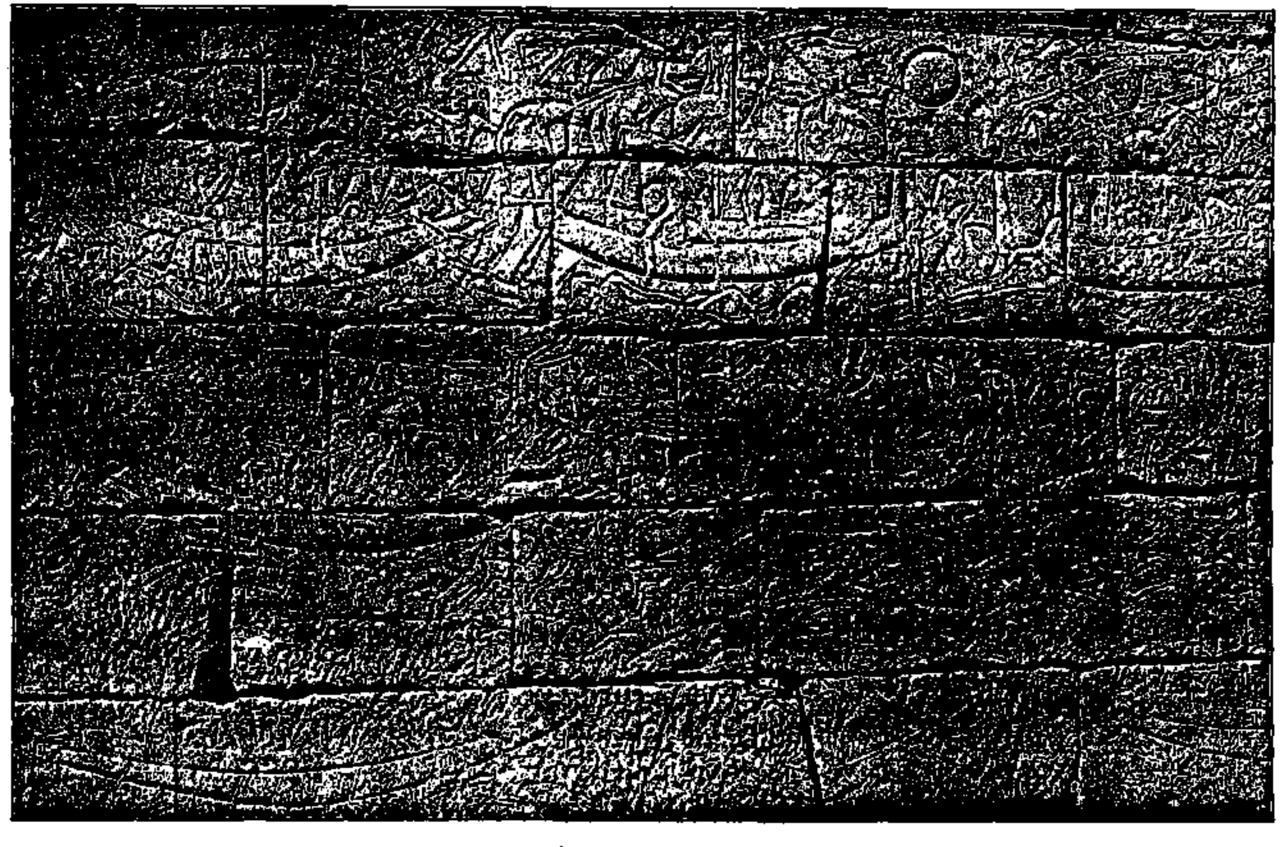
والظاهر أن هاتين الضربتين اللتين صوبهما رمسيس الثالث نحو أعدائه كانتا كافيتين لبسط نفوذه على بلاد آسيا كلها حتى آمور ، وقد اعترف له أعداؤه بذلك ، وأخذ بعض هؤلاء الأعداء يهاجرون بعد ذلك الى سوريا لكنهم كانوا يطيعون الأوامر المصرية ويدفعون الجزية لفرعون .

بهذه الكيفية نجت الامبراطورية المصرية بآسيا للمرة الثانية من الخطر الأجنبي ، ثم رجع رمسيس الثالث الى مقره بالدلتا ليشترك فى احتفالات النصر العظيمة التى أقيمت له عن جدارة واستحقاق .

ومضت على جلالته مدة قصيرة لم تحصل فيها مشاكل ولا اضطرابات، ومع ذلك فقد أمضاها فى الاستعداد للطوارئ . وقد حصل فعلا ما كان يحتاط له جلالته وخلاصة ذلك أن سكان الغرب الأقصى بدءوا بهجرة عظيمة ثانية الى غربى الدلتا ، و يرجع السبب فى هذه الهجرة الى قوم المشواشين القاطنين غربى الليبيين . ولما كان الليبيون قد عوقبوا بقسوة فى السنة الخامسة لحكم رمسيس الثالث لم يعد لهم غرض فى غزو الدلتا ، ولكن المشواشين غزوا بلادهم وأتلفوها[3] ثم اضطروهم أن يتحدوا ويحاربوا مصر[4] . بعد ذلك انضم الى هؤلاء الأعداء قوم آخرون ، ثم تولى قيادة الحملة المدعو مششر (Meshesher) ابن ملك المشواشين المدعو كپر (Keper) وكان غرض هؤلاء الأعداء الأول الهجرة والاستيطان بالدلتا ، وقد "صمم هؤلاء الأقوام أن يعيشوا فى مصر ويستولوا على تلالها وسهولها"[5] فصاحوا بصوت واحد "لنستوطن مصر! ثم عبروا الحدود المصرية باستمرار"[6] . كل ذلك حصل فى الشهر الثانى عشر من السنة الحادية عشرة من حكم رمسيس الثالث .

ثم أخذ القوم يغزون مصر من الطريق الغربى كما فعلوا أيام منفتاح فحاصروا قلعة هاتشو (Hatsho) التى تبعد عن حدود الدلتا بنحو أحد عشر ميلا وتقع بقرب ترعة "مياه رع" . فى تلك الجهة وتحت

(1) ٤ : ٧٥ (2) ٤ : ٦٦ (3) ٤ : ٨٧ (4) ٤ : ٨٦ و ٩٥ (5) ٤ : ٩٥ (6) ٤ : ٨٨



شكل ١٧٣ — صورة معركة بحرية انتصر فيها رمسيس الثالث على أهالى شمالى البحر الأبيض المتوسط • رسوم بارزة على الجدار الشمالى لمعبد مدينة هابو • وترى السفن المصرية الى الشمال صالية العدو نارا حامية حتى أجبرته على الهرب (الى اليمين) وأوقعته فى الهرج والمرج • ونشاهد احدى سفن العدو مقلوبة •

أسوار قلعة هاتشو هجم رمسيس الثالث مع جيشه على أعدائه هجوما مرا وأخذت حامية القلعة المذكورة تمطر الأعداء فى الوقت نفسه نارا حامية حتى دخل رعب فرعون فى قلوبهم وعجزوا عن المقاومة ودب الذعر بينهم ففروا هاربين ، لكن قلعة ثانية أصلتهم نارا حامية وقت هربهم قضت عليهم بقسوة عظيمة[1] . بعد ذلك تعقبهم رمسيس بجيوشه لمسافة أحد عشر ميلا الى حدود الدلتا حتى تأكد من خروجهم تماما من أرض مصر[2] ، ثم استراح فى حصن هناك يعرف بحصن "مدينة رمسيس الثالث" الذى سبق أشرنا اليه بأنه شيده على قمة "جبل قرون السماء" .

وانتهت هذه المعركة بقتل مششر (Mesheaher) قائد المشواشيين وأسر والده ملكهم المدعو كپر (Keper)[3] ، وقتل ما يبلغ ألفين ومائة وخمسا وسبعين نسمة وأسر ما يبلغ ألفين واثنين وخمسين نسمة بينهم نساء يزيد عددهن على ربع هذا المقدار[4] . واليك ما قاله رمسيس عن معاملته لهؤلاء الأسرى : " لقد اعتقلت رؤساءهم فى قلاعى باسمى ، ووسمت قوادهم ورؤساءهم الذين وهبتهم لتلك القلاع كعبيد باسمى ، وعاملت نساءهم وعيالهم المعاملة نفسها"[5] .

وبلغ عدد الأسرى المشواشيين الذين سخروا عبيدا لخدمة قطيع المعبد المسمى "رمسيس الثالث المنتصر على المشواشيين بجوار مياه رع" [6] ألف نسمة تقريبا . واعتبر جلالته هذا النصر العظيم عيدا احتفل به سنويا وسماه "عيد قتل المشواشيين" [7] . ولقب جلالته نفسه بعد ذلك بالألقاب الآتية : "حامى مصر والمدافع عن الأقطار وغازى المشواشيين ومتلف أرض التمحو" [8] .

هذه هى المرة الثالثة التى صدّت فيها القبائل الغربية عن الدلتا ولم يعد عند رمسيس الثالث بعد ذلك مجال للخوف من تلك الجهة ، انما يلاحظ أن قوة الاستعمار عند الليبيين لم تنعدم بالمرة . والمعروف أن هؤلاء القوم لم تتحد لهم كلمة بعد ذلك ، لكنهم أخذوا يهاجرون مسالمين الى القطر المصرى كما فعلوا قبل حكم الأسر ، وقد فعلوا ذلك تدريجيا وبنفر قليل لم يقاومهم فرعون مصر ولم يهتم بهم كثيرا لعلمه بضعفهم وعجزهم .

ولقد أحدثت فتنة أهالى شمالى البحر الأبيض المتوسط بالشام تأثيرا سيئا فى ولاة مصر رغم انتصار رمسيس الثالث وصدّه للغزاة . وللآن لم يثبت ان كان ملك آمور اتحد مع الغزاة ضد مصر وقتئذ كما فعل أيام الضغط الحيثى أم لا ، لكن المعروف أن رمسيس الثالث حالما انتهى من صدّه الليبيين سافر توا فى جيشه الى آمور ، ولم يصل الينا من أخبار هذه الحملة الا اليسير[9] ومنه استدل على أن جلالته استولى عنوة هناك على خمس مدن على الأقل : واحدة فى آمور ، وثانية يظن أنها كدش لكونها محاطة بالماء ، وثالثة واقعة على تل لا نزال نجهلها . أما الاثنتان الباقيتان فتسمى احداهما إرث (Ereth)[10] والأخرى مجهولة الاسم ، وقد دافع الحيثيون عنهما . والظاهر أن رمسيس الثالث لم يتوغل كثيرا فى الأقطاع الحيثية رغما من ضعف مملكة الحيثيين وما انتابها من غارة أهالى بجزر البحر الأبيض

---

(١) ٤ : ١٠٢ و١٠٧ (٢) ٤ : ١٠٢ (٣) ٤ : ٩٠ و٣ : ١١ — ١٢ و٩٧ و١٠٣ و٣ : ١١ — ١٢ و١١١
(٤) ٤ : ١١١ (٥) ٤ : ٤٠٥ (٦) ٤ : ٢٢٤ (٧) ٤ : ١٤٥ (٨) ٤ : ٨٤ (٩) ٤ : ١١٥ — ١٣٥
(١٠) ٤ : ١٢٠

المتوسط عليها ، وتعتبر هـذه الغزوة الأخيرة من نوعها بين فرعون مصر والحيثيين إذ بعدها انحطت مملكتا مصر والحيثيين بسرعة فلم نسمع بعدئذ فى تاريخ مصر شيئا عن الحيثيين بسوريا .

وقد ورد ضمن جداول البلاد[١] التى غزاها رمسيس الثالث ذكر لعدة مدن فى شمالى سوريا وعلى نهر الفرات كانت فيما سبق تحت حكم الامبراطورية المصرية أيام عزها ومجدها ، ولما كانت هذه الجداول منقولة عن جداول أسلافه لم يعلق عليها الأثريون أهمية كبيرة . والمعروف أن رمسيس الثالث أخذ ينظم مستعمراته الأسيوية بعد ذلك ويرجح أنه لم يبعد حدوده عما كانت عليه أيام منفتاح ، لذلك كانت مملكة آمور على أعالى الأورونط وأقصى مستعمراته الأسيوية . وأراد أن يزيد اطمئنانه من عدم حصول اضطرابات فى المستقبل بسوريا وفلسطين فشيد حصونا كثيرة بتلك الجهات فى المواقع الهامة[٢] . وشيد أيضا معبدا لآمون ببعض جهات سوريا نصب فيه تمثالا عظيما لهذا المعبود الحكومى ، وأجبر أمراء آسيا أن يعلنوا ولاءهم لجلالته بأن يقدموا جزيتهم السنوية أمام ذلك التمثال[٣] . ثم مهد وسائل النقل بين مصر وسوريا بحفر بئرا عظيما فى صحراء أيان (Ayan)[٤] شرق الدلتا ، متمما بذلك موارد المياه التى أسسها سيتى الأول هناك من قبل .

بعد ذلك لم تحدث اضطرابات تذكر الا ثورة صغيرة قام بها بدو صير (Seir) ، وقد أخضعت بسهولة ثم عاد النظام والسلام الى نصابهما حتى توفى رمسيس الثالث[٥] .

وأثرت معاملات مصر التجارية والادارية بآسيا كثيرا فى وسائل التخاطب والمراسلة ، فقبل تلك العصور كانت الخطابات عبارة عن ألواح طينية ينقش عليها مضمون الكلام . أما الآن فقد استبدلت بهذه الألواح الثقيلة أدراج بردية ، وأصبح حكام فينيقيا يقيدون حساباتهم فى هذه الأدراج ، ولذلك كثرت كمية البردى الذى كان يصدر من مصانع الدلتا بمصر مقابل مصنوعات فينيقية أخرى[٦] . ولما استحال على الفينيقيين كتابة حسابهم على الأدراج البردية بالخط المسمارى أخذوا يقيمون الخط المصرى مقامه تدريجيا . وفى القرن الحادى عشر قبل الميلاد كانت فينيقيا تستعمل أحرف الهجاء المصرية فى مخطوطاتها بشكل أحرف ساكنة ، ومن ثم انتشرت هـذه الأحرف الى اليونان ومنها الى سائر ممالك أوربا .

ولا يخفى أن أهم ما يهتم به حكام الشرق هو جمع الجزية فوجه رمسيس الثالث لها فى أيامه مزيد اهتمامه ، وقد قال جلالته : "لقد فرضت الخراج على وارداتهم كلها فأصبحت كل مدينة تجمع جزيتها وترسلها كتلة واحدة"[٧] . وقد حصلت فى عهده اضطرابات بسيطة بالنوبة لكنها لم تعكر صفو السلام فى الامبراطورية[٨] ، لأنه قال : "لقد جعلت المرأة المصرية تذهب كما تشاء مكشوفة الأذنين فلا يتعرض لها أجنبى أو غيره . لقد جعلت مشاتى ورجال عجلاتى الحربية يعيشون بمنازلهم مدة حكمى ، وصار جنودى السردينيون والكهاكيون يسكنون مدنهم نائمين على ظهورهم بلا وجل ، ولم يعد يبدو

---

(١) ٤ : ١٣١ و ١٣٥ (٢) ٤ : ١٤١ (٣) ٤ : ٢١٩ (٤) ٤ : ٤٠٦ (٥) ٤ : ٤٠٤
(٦) ٤ : ٥٧٦ و ٥٨٢ (٧) ٤ : ١٤١ (٨) ٤ : ١٣٦ — ٨

عدو من بلاد كوش ومن سوريا ، ولذلك كانت أقواس وأسلحة هذه القوات مكدسة فى مخازنهم ، أما هم فكانوا مزودين بالمأكولات والمشروبات وقلوبهم طافحة بالسرور ، وكانت زوجاتهم وأولادهم عائشين معهم فلم ينظروا خلفهم لأن قلوبهم كانت مطمئنة ، ولأنى كنت أحميهم وأدافع عن أعضائهم . لقد أحييت سكان الأراضى كلها ، أجانب ووطنيين ، ذكورا وإناثا . لقد فرجت همّ البائس وأرجعت له الأمل والحياة ونجيته من ظالمه القوى . لذلك صار كل انسان آمنا ببلده ، وكل شخص له دعوى فى المحاكم أنلته حقه كاملا . لقد أصلحت الأراضى التالفة وساد الأنس أثناء حكمى" [١] .

وبلغت المعاملات والتجارة بين مصر والبلاد الأجنبية منتهى كمالها كما كانت فى أزهى أيام الامبراطورية . وكان لمعابد آمون ورع وبتاح أساطيل تجارية تمخر مياه البحر الأبيض المتوسط أو البحر الأحمر ، حاملة دخل تلك المعابد من فينيقيا وسوريا والصومال (بونت)[٢] . واستخرج رمسيس الثالث النحاس من مناجمه فى أتيكا (Atika) بشبه جزيرة طورسيناء ، فأرسل الى تلك الجهة أسطولا كبيرا أقلع من احدى موانئ البحر الأحمر وعاد بكيات عظيمة من النحاس عرضت تحت شرفة قصر رمسيس ليراها جميع رعيته[٣] . وأرسل بعثة أخرى لاستخراج معدن الملاشيت الكريم من سيناء فأحضرت كميات عظيمة منه أهدى جزءا كبيرا منها للمعبودات[٤] . وأعظم من هذا وذاك الأسطول التجارى الضخم الذى أرسله الى بلاد الصومال . والظاهر أن القناة التجارية التى كانت مخترقة وادى طميلات وواصلة النيل بالبحر الأحمر (راجع صحيفة ١٢١) عطلت فانعدمت التجارة ، ولذلك لما رجع الأسطول المذكور من بونت رسا بميناء بالبحر الأحمر تجاه قفط (Coptos) ، حيث أنزل بضاعته . وقد نقلت هذه البضاعة على ظهور الحمير برا الى قفط ثم شحنت هناك فى سفن نيلية الى مقر رمسيس الثالث بشرق الدلتا[٥] . وكانت التجارة البحرية فى ذلك العصر أكثر مما كانت فى كل أزمنة الأسرة الثامنة عشرة ، خذ مثلا ما رواه رمسيس الثالث نفسه من أنه شيد لآمون بطيبه فى مصنعه سفينة مقدّسة طولها مائتان وأربعة وعشرون قدما من كتلة عظيمة من خشب الأرز الوارد من لبنان[٦] .

وبديهى أن هذا التضخم المالى الكبير أعان فرعون كثيرا على القيام بالأعمال النافعة العمومية ، فأكثر من غرس الأشجار فى أنحاء القطر كله وعلى الأخص بطيبه ومقر جلالته بالدلتا ، فارتاح لذلك الأهالى كثيرا لأن القطر المصرى كما لا يخفى عديم الغابات شديد القيظ فى زمن الصيف[٧] . وجدّد جلالته أيضا عهد العمارات التى كانت عطلت بعد وفاة رمسيس الثانى ، فشيد فى سهل طيبه الغربى معبدا كبيرا بديعا لآمون يعرف الآن بمدينة هابو[٨] بدأ بتشييده فى أوائل حكمه (شكلى ١٧٤ و ١٧٥) واستمر على توالى السنين يوسعه من الأمام والخلف ويسجل على جدره أعماله الحربية كل سنة حتى أصبحنا الآن نجد أخبار هذا الملك كلها مدونة على هذا المعبد . وتبتدئ هذه النقوش التاريخية من أقدم قاعاته بالخلف وتستمر تدريجيا حتى تنتهى بأحدث صرح وساحة من الأمام . وتشاهد على جدر هذا المعبد رسوم أهالى البحر الأبيض المتوسط يحاربون جنود رمسيس الثالث السردينيين

(١) ٤ : ٤١٠ (٢) ٤ : ٢١١ و ٢٧٠ و ٣٢٨ (٣) ٤ : ٤٠٨ (٤) ٤ : ٤٠٩ (٥) ٤ : ٤٠٧
(٦) ٤ : ٢٠٩ (٧) ٤ : ٢١٣ و ٢١٥ و ٤١٠ (٨) ٤ : ١ — ٢٠ و ١٨٩ — ١٩٤

الذين اخترقوا صفوفهم واستولوا على عجلاتهم ذات الثيران كما تقدم القول . وتشاهد أيضا على جدر هذا المعبد رسوم أقدم معركة حربية بحرية حصلت فى المياه المالحة معروفة للآن ، ومنها يتضح للباحث كيفية تسليح البحارة الشماليين وقتئذ ، وكذا أنواع ألبستهم وسفنهم الحربيــة وأمتعتهم مما لا تخفى أهميته على أحد . والمعروف أن هؤلاء القوم أقدم أوربيين اشتركوا هم والعالم القديم فى معترك الحياة[1] .

وحفر رمسيس الثالث بحيرة مقدّسة كبيرة أمام معبده بمدينة هابو وأنشأ له أيضا حديقة غناء وأكثر من العمارات المجاورة والمخازن، وشيد لنفسه قصرا عظيما متصلا بالمعبد المذكور له أبراج هائلة مقامة بالأحجار الضخمة . ثم أقام سورا عظيما حول ذلك البناء المركب المشرف على الجزء الجنوبى لسهل طيبه الغربى،فأصبح الواقف فوق صرح ذلك المعبد يرى جميع المعابد المشيدة بالجهة البحرية بسهل طيبه الغربى التى أقامها فراعنة مصر العظام . ويعتبر معبد مدينة هابو آخر المبانى الشامخة التى شيدها فراعنة مصر الكبار من حيث الموقع والقيمة التاريخية . والحق يقال ان رمسيس الثالث هو آخر امبراطور مصرى عظيم فى تاريخ مصر القديم . وقد شيد عمارات أخرى غير هذا المعبد بليت كلها تقريبا ،منها المعبد الصغير الذى أقامه لآمون بالكرنك، ومنه استدل أن رمسيس كان متيقنا بأنه لا يمكنه أن يشيد من المبانى ما يناظر ساحات الكرنك العظمى لضخامة الأخيرة وما تتطلبه من تعب وعناء ، ودليلنا على ذلك أنه جعل معبده الصغير المذكور مستعرضا لمحور الكرنك الأصلى، لكنه فى الوقت نفسه جاء مثالا لحسن ذوق رمسيس الثالث فى هذا الموضوع (شكل ١٨٣)[2] . وغير ذلك شيد أبنية صغيرة أخرى بالكرنك[3] ،عدا ما أقامه بمعبد موت (Mut) جنوبى الكرنك[4] . وبدأ جلالته أيضا ببناء معبد صغير لخونسو[5] وكذا بعض هياكل صغيرة بمنف وعين شمس لم يبق منها إلا النزر اليسير[6] . وهناك هياكل عديدة أخرى أقامها رمسيس الثالث لمعبودات مصر فى جهات القطر كلها لم يبق منها إلا القليل[7] . ومن آثره أيضا الحى الجميل الذى شيده لآمون بمقر اقامته بالدلتا، وقد وصفه جلالته بأنه كان محلى بالحدائق العظيمة والمماشى الكثيرة وأنواع النخيل كافة، غير الطريق المقدّس الذى أنشأه وحلاه بالأزهار من جهات القطر كلها[8] . وقد خصص لخدمة هذا الحى ثمانية آلاف عبد[9] وشيد فى المدينة نفسها معبدا لسوتخ فى الأراضى الموقوفة لمعبد رمسيس الثانى[10] .

ودلتنا أبنية تلك العصور أن فن العمارة أخذ فى الانحطاط ، فالخطوط والساحات ذات العمد فقدت عظمتها وأبهتها اللتين امتازت بها ساحات العهد القديم واللتين كانتا تسترعيان نظر كل متطلع . فالناظر مثلا الى الآثار القديمة يتجه نظره من دون شعور الى قممها ليرى ماذا ينتهى هذا البناء المدهش الآخذ بالألباب . أما بناء رمسيس الثالث فقليل الزهو والإتقان . وبمقارنة نقوش معبد مدينة

---

(١) ٤: ٦٩ — ٨٢ (٢) ٤: ١٩٥ (٣) ٤: ١٩٧ - ٢١٣ (٤) ٤: ١٩٦ (٥) ٤: ٢١٤
(٦) ٤: ٢٥٠ - ٢٦٥ و ٣١١ - ٣٢٨ (٧) ٤: ٣٥٥ - ٣٦١ (٨) ٤: ٢١٥ (٩) ٤: ٢٢٥
(١٠) ٤: ٣٦٢ و ٣٦٩

هابو البارزة بنقوش معبد سيتى الأول بالكرنك يشاهد أن الأولى أقل اتقانا واعتناء من الثانيـة ، لكن هذا لا يمنعنا أن نعترف بوجود بعض نقوش بمعبد مدينة هابو لا تقل من حيث الاتقان والجمال عن رسوم معبد سيتى المذكور التى تمثل منتهى التقدّم فى فن الحفر القديم . خذ مثلا ما جاء من رسم رمسيس الثـالث وهو يصطاد ثورا وحشيا ، فمع تصوّر عدّة غلطات فيه من حيث الدقة والاتقان فانه يستحق المديح والإعجاب من حيث الجمع بين الشعور والمناظر المتعددة ممـا يسترعى النظر (شكل ١٧٦) . وليلاحظ أن رسم المعركة الحربية التى حصلت بالقرب من شاطئ سوريا فى عهد رمسيس الثالث والتى تقدم الكلام عليهـا جاء مثلا واضحا على الذكاء الفطرى والتصوّر القوى عند راسمها وبرهانا آخر على البراعة وتأثير الرسم فى النفوس ، ولذلك اعتبر هذا الرسم أوّل خطوة جديدة فى الحفر أظهرت ابتكارا وشجاعة (شكل ١٧٣) .

وقد راعى رمسيس الثالث فى فنونه الجميـلة قواعد العصور السالفة فسجل أخباره بمـا يشـبه تسجيل أخبار العصور القديمة رسما وشكلا . ولمـا أراد كاتب نقوش جدر معبد مدينة هابو أن يسرد أعمال رمسيس الثالث اتبع الطريقة والأسلوب القديمين، فأكثر من تكرار الجمل والعبارات الدالة على الشجاعة والإقدام والمهارة الحربية والحنكة السياسية كما فعل كتاب الملوك الأقدمين . فاذا طالع الباحث مثلا نصوص بعض حروب هـذا الملك على جدر معبد مدينة هابو يجد كثيرا من الجمل والعبارات القديمة مكررة بدون مناسبة لمسافة بضعة آلاف من الأقدام المربعة، بينما القليل من الأخبار التى هى للباحث لب الموضوع ، ولذا كانت نصوص هذا المعبد صعبة الوضوح عسرة الفهم معتلة التراكيب .

والظاهر أن رسوم رمسيس الثالث التى تمثله وهو يقود جيوشه بجرأة فى ساحة قتال، أو هازما أعداءه باستمرار وقت هجومهم الشديد على مصر، لم تثر فى نفس الكاهن الذى نقش تلك الرسوم حماسة لأنه استرسل فى ذكر الأساليب القديمة بقصد نقشها فقط . والظاهر أن الكاتب كان متبحرا فى الدعوات والأغانى وأساليب الكلام القديمة فاستعملها هنا ليظهر مقدرة وشجاعة مليكه الحقيقيتين . ولعل اللوم فى ذلك لا يقع على الكاتب لأن المعروف عن رمسيس الثـالث أنه كان ميالا بطبعه الى عوائد وأعمال وأساليب رمسيس الثانى ، ودليلنا على ذلك أنه اختار لنفسه اسما مكونا من جزأين: الجزء الأول اسم رمسيس الثانى الملكى والجزء الثانى اسم رمسيس الثانى الشخصى، ثم انه سمى أولاده وخيله بأسمـاء أولاد وخيل رمسيس الثانى ، واسترسل فى تقليده فاستصحب معه أسدا مستأنسا فى حروبه بجوار عجلته . والمعروف أن أعمـال رمسيس الثالث كانت نتيجة اجبارية لظروف حكمه، لأنه لمـا تولى الحكم وجد نفسه أمام عدّة صعوبات ليس من الهين تذليلها ، وأهمها الخطر الأجنبى الذى هدّد كيان المملكة من الخارج ، وأنه وان درأ هذا الخطر لم يستطع حماية الأمة من الهاوية التى أشرفت عليها . وقد كان رمسيس الثالث رجلا قويا وكفـءًا لمكافحـة الخطر الخارجى، لكنه كان ضعيفا فى معالجـة مشاكله الداخلية التى امتاز بها بعض الحكام وأظهروا فيها كفاية عظيمة أحيانا . ودليلنا على ذلك موقفه تجاه المسائل الدينية الموروثة عن الأسرة التاسعة عشرة ، فقد ذكرنا سابقا أن

ستنخت والده تولى الملك بمساعدة الكهنة كما فعل الفراعنة قبله ، ولما تولى رمسيس الثالث الملك لم يتخلص من نفوذ الكهنة على العرش المصرى بل ترك المعابد والكهنة تهدد كيان الحكومة سياسيا وماليا، واتبع سياسة سلفه أيضا فأغدق على الكهنة الأموال الطائلة والخيرات الجزيلة ،واليك ترجمة ما قاله جلالته فى ذلك :

"لقد فعلت أفعالا كبيرة وقدمت من الإحسان كثيرا لآلهة وإلآهات الجنوب والشمال . لقد موهت تماثيلهم بالذهب فى المصانع ورممت معابدهم المهدمة وأقمت المنازل والمعابد فى أحواشهم وغرست لهم حدائق غناء وحفرت لهم البحيرات ورتبت لهم الخيرات المقدسة من شعير وقمح ونبيذ وبخور وفاكهة وغنم وطيور . لقد شيدت الهيا كل المعروفة باسم "ظلال رع" فى أقسامهم وملأتها بالقرابين المقدسة كل يوم" [١] .

هذا وصف لما فعله جلالته للمعابد الصغيرة بالأرياف . أما معابد المعبودات العظيمة كآمون ورع وبتاح فقد عمل لها أكثر من هذا بمراحل .واليك ترجمة ما قاله جلالته فى هذا الموضوع مخاطبا المعبود آمون :

"لقد صنعت لك مائدة للقرابين من الفضة المطرّقة المموّهة بالذهب الجميل والمرسوم عليها مناظر ملبسة بذهب كيتم (Ketem) حاملة تماثيل الملك المصنوعة من الذهب المطرّق . كيف لا يكون ذلك وهى مائدة قرابينك المقدسة التى تقدم أمامك ! لقد عملت لك حمالة كبيرة لأوانى حوش معبدك مموهة بالذهب الجميل ومرصعة بالأحجار الكريمة . أما أوعيتها فمن الذهب وهى تحوى النبيذ والجعة اللذين يقدمان لك كل صباح . . . . . . لقد صنعت لك موائد كبيرة من الذهب المطرق منقوشة باسم جلالتك الأعظم مع دعائى لك . لقد صنعت لك موائد أخرى من الفضة المطرقة محفور عليها اسم جلالتك الأعظم وكل أوقاف معبدك" [٢] .

بهذا الإسراف العظيم كان رمسيس الثالث يقدم لمعبوده الهدايا الثمينة[٣] . أما فيما يختص بالسفينة المقدسة التى بناها جلالته لمعبوده فقد وصفها قائلا :

" لقد شيدت لك سفينتك المسماة أسرحت (Userhet) طولها مائة وثلاثون ذراعا مصريا (حوالى ٢٢٤ قدما) على النهر، من خشب الأرز المستحضر من الأملاك الملكية، فكان حجمها (أى حجم السفينة) عظيما جدا . وكانت مموّهة بالذهب الى سطح الماء كسفينة الشمس وقت ظهورها من المشرق وفيما يحى كل انسان برؤيتها . وقد صنعت لك فى وسطها ناووسا عظيما من الذهب الجيد مرصعا بالأحجار النفيسة كالقصر الملكى ، ونصبت على السفينة رءوس خرفان ذهبية من المقدمة الى المؤخرة تعلوها التيجان والأصلال" [٤] .

ولما أراد رمسيس الثالث أن يصنع ميزانا عظيما يزن به الهدايا المقدمة للمعبود رع بعين شمس استعمل لذلك حوالى مائتين واثنى عشر رطلا ذهبا وحوالى أربعمائة وواحد وستين رطلا من الفضة[٥] .

(١) ٤ : ٣٦٣ (٢) ٤ : ١٩٩ و ٢٠٢ (٣) ٤ : ١٩٨ — ٢١٠ (٤) ٤ : ٢٠٩
(٥) ٤ : ٢٥٦ و ٢٨٥

ويجد القارئ وصفا مسهبا لهذه الأعمال فى درج هريس البردى[١] الذى سيأتى الكلام عليه . ولكننا نستدل من هذه الهدايا والثروة أن الامبراطورية المصرية كانت وقتئذ غنية جدا ومواردها كثيرة من الأراضى والعبيد والدخل ، ونستنتج منهـا أيضا أن أوقاف المعابد الأخرى كانت جسيمة أيضا مثـال ذلك ما ورد عن المعبود خنوم بجهة جزيرة الفيل بأسوان، فان رمسيس الثالث حبس لأجله أوقافا أرضية على شاطئ النيل تبتدئ مساحتها من تلك الجزيرة الى مدينة تاكومپسو (Takompso) وهى مسافة يقرب طولها من سبعين ميلا وتعادل بالمقاسات اليونانية اثنى عشر شونيا لذلك سمـاها اليونان دوديكا شينوس (Dodekaschoinos)[٢] .

وتمكنّا بهذه الطريقة لأول مرة فى تاريخ مصر القديم أن نقدّر دخل المعابد بالضبط ، والفضـل فى ذلك يرجع الى ما ورد بدرج هريس البردى فانه يحوى قائمة يستدل منها أن دخل معابد الامبراطورية كان يبلغ وقتئذ حوالى مائة ألف وسبعة آلاف عبد[٣] وهذا يعنى أن خدمة المعابد كانت تتطلب ما يتراوح بين $\frac{1}{50}$ و $\frac{1}{80}$ من أهالى القطر ، أو بعبارة أخرى أن نسبة العبيد المسخرين لخدمة المعابد وقتئـذ كانت حوالى ٢ ./. من سكان القطر . أما الأراضى الموقوفة على المعابد فكانت حوالى ثلاثة أرباع مليون من الأفدنة أو سبع أراضى القطر المزروعة وهى نسبة تعادل ١٤,٥ ./. من الأراضى المزروعة . ولمـا كانت أوقاف المعابد الصغيرة كمعبد خنوم مثلا لم تدرج ضمن قائمة درج هريس، فلا يبعد أن تكون نسبة الأراضى المحبوسة على جميع معابد القطر حوالى ١٥ ./.[٤] . ولا يخفى أن هذه المعلومات تمكننا على صغرها من تقدير مالية الامبراطورية المصرية ودخلها وقتئذ، ولا ريب أن هذا التقدير غير تام . والمعروف أن تعداد الأغنام والبهائم التى حبست على المعابد كان قريبا من نصف مليون، وأن عدد السفن كان ثمـانيا وثمـانين سفينة ما بين كبيرة وصغيرة، وأن عدد المصانع كان حوالى ثلاثة وخمسين مصنعا تستهلك فيها المواد الخام الواردة الى المعابد لتعمل منها المصنوعات . أما المدن المحبوسة على معابد مصر فكانت تبلغ مائة وتسعة وستين مدينة فى سوريا وكوش ومصر[٥] . واذا لاحظنا أن مساحة الأرض المزروعة بمصر وقتئذ كانت حوالى عشرة آلاف ميل مربع ،وأن تعداد سكان القطر كان حوالى خمسة ملايين أو ستة من النسمات ، لا يسعنا إلا أن نجزم بأن الأوقاف المذكورة أثرت كثيرا فى ميزانية البلاد لأنها كانت معفاة من الضرائب للخزانة المصرية[٦] .

ومـما زاد الطين بلة أن الهبـات والأوقاف لم توزع على معبودات مصر بنظام واحد أو نسـبة مخصوصة . والمعروف أن معظم هذه الهبات كانت تعطى لآمون ،ولذلك أصبح لكهنة هذا المعبود تأثير عظيم وكلمة كبيرة مسموعة وسلطة واسـعة على الخزانة المصرية . وليـلاحظ أن نفقات كهنة آمون لم تكن قاصرة على معابد هـذا المعبود بطيبـه بل شملت أيضا محاريبـه وتمـاثيله بكل أنحاء القطر[٧] ، مثال ذلك معبد آمون بسوريا الذى تقدّم الكلام عليه[٨] ومعبده بالنوبة الحديث[٩] ، وذلك غير المعابد التى شيدها رمسيس الثانى هناك .

---

(١) ٤ : ١٥١—٤١٢ (٢) ٤ : ١٤٦—١٥٠ (٣) ٤ : ١٦٦ (٤) ٤ : ١٦٧ (٥) ٤ : صحيفة ٩٧
(٦) ٤ : ١٤٦ (٧) ٤ : ١٨٩—٢٢٦ (٨) ٤ : ٢١٩ (٩) ٤ : ٢١٨

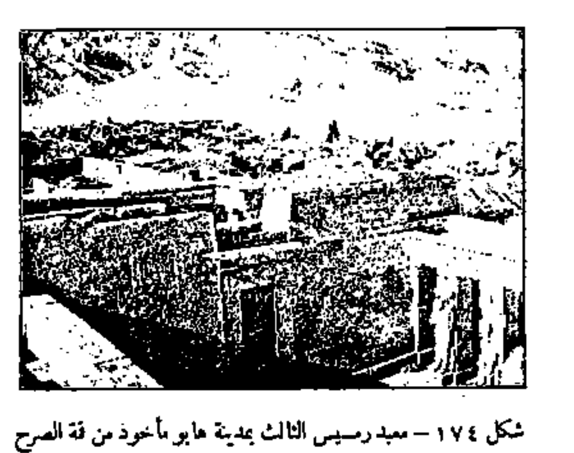
ولما انتهى رمسيس الثالث من حروبه فى السنة الثانية عشرة من حكمه أتم بناء معبد آمون بمدينة هابو ونقش على أحد جدره أخبار الأعياد التى أقامها جلالته واحتفل بها[١] ، ومما ورد فيها أن عيد آمون الكبير المدعو أوبت الذى احتفل به تحوتمس الثالث أحد عشر يوما بلغ فى عهد رمسيس الثالث أربعة وعشرين يوما . ودلتنا هذه النقوش أيضا أن آمون كان يقام له كل ثلاثة أيام عيد غير الأعياد الشهرية[٢] . وبالرغم من هذا كله فقد أطال رمسيس الثالث مدة عيد أوبت بجعلها سبعة وعشرين يوما ، كما جعل عيد تتويجه السنوى عشرين يوما بعد ما كان يوما واحدا[٣] . واذا كان الأمر كذلك فلا غرابة اذا سمعنا أن احدى طوائف عمال طيبه أيام أحد خلفاء رمسيس الثالث تعطلت عن الشغل أياما بقدر أيام العمل لأجل الأعياد الطويلة[٤] ، وبديهى أنه كلما كثر عدد الأعياد وطالت مدتها ناءت الخزانة المصرية بالنفقات الباهظة ، ودليلنا على ذلك ضخامة خزائن معبد مدينة هابو وسمك جدرها وارتفاع سقفها مما تطلب ملؤها أموالا طائلة[٥] . واليك ترجمة ما قاله رمسيس الثالث عن هذا المعبد :

"لقد ملأت خزائنه بخيرات مصر من ذهب وفضة وأحجار كريمة بما يعد بمئات الألوف ، أما الشون فكانت طافحة بالشعير والقمح ، وأما أراضيه وأغنامه فكانت عديدة كرمال الشاطئ . لقد فرضت الجزية لهذا المعبد على أراضى الجنوب والشمال وسوريا والنوبة بما يقدر بعشرات الألوف . . . . لقد ضاعفت القرابين أمامك يا آمون من خبز ونبيذ وجعة وشحم إوز وثيران كثيرة وعجول وأبقار ووعول بيض وغزلان ، مما يقدم لك منه ذبائح على مذبحك"[٦] .

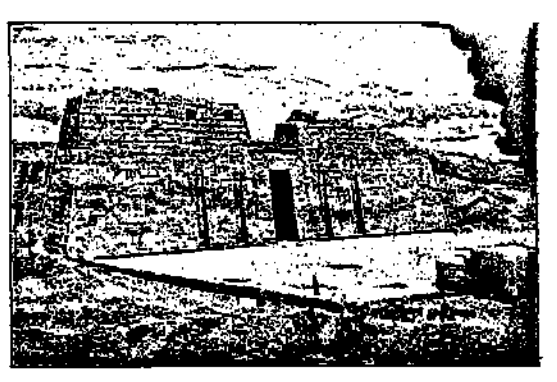
وجريا على عادة اباطرة الأسرة الثامنة عشرة وهب رمسيس الثالث غنائمه الحربية الى خزانة آمون[٧] ، فنجم عن ذلك أن آمون ملك ما ينيف على خمسمائة وثلاثة وثمانين ألفا من الأفدنة من بين ثلاثة أرباع المليون من الأفدنة الموقوفة على سائر معبودات مصر ، ولذلك أصبح آمون أغنى من رع معبود عين شمس بما يقرب من خمسة أضعاف ، لأن الأخير كان يملك حوالى مائة ألف وثمانية أفدنة . أما أملاك بتاح معبود منف فكانت تقرب من تسع أملاك آمون[٨] . وهكذا كانت حصة آمون تنيف على الثلثين من حصص جميع المعبودات التى تقدر بحوالى ١٥ ٪ من أراضى مصر المزروعة . وقد قلنا فيما سبق أن عدد عبيد معبودات مصر كان يقرب من ٢ ٪ من سكان القطر ، والآن نخبر القارئ أن ١,٥ من هذه النسبة كان خاصا بآمون ، وعليه فكان عدد عبيد آمون ينيف على ستة وثمانين ألف وخمسمائة نسمة ، أى سبعة أضعاف عبيد رع[٩] . وليلاحظ أن هذه النسبة العظيمة وهذا الفرق الشاسع كانا مرعيين أيضا فيما يتعلق بالخيرات الأخرى مع سائر المعبودات ، خذ مثلا البهائم الصغيرة والكبيرة التى كانت مقسمة خمسة قطعان فقد كان نصيب آمون منها ينيف على أربعمائة وواحد وعشرين ألفا ، فى حين أن نصيب المعبودات الأخرى من هذه البهائم كان أقل من نصف مليون . وتملك

---

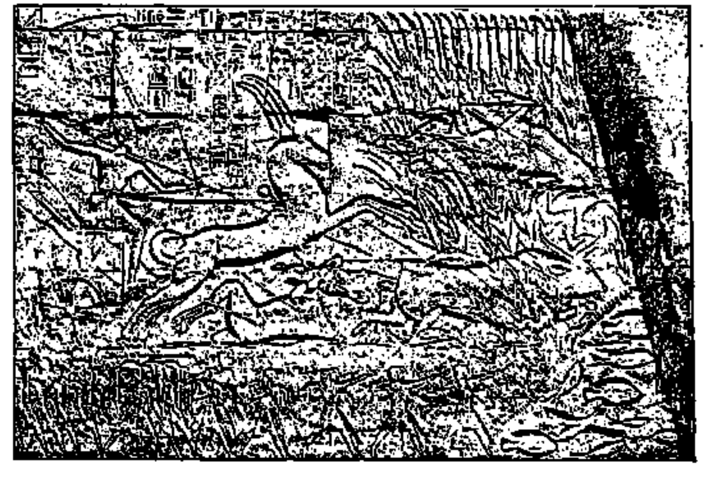
(١) ٤ : ١٣٩ — ١٤٥ (٢) ٤ : ١٤٤ (٣) ٤ : ٢٣٦ — ٧
(٤) Erman, Life in Ancient Egypt. (٥) ٤ : ٢٥ — ٣٤ (٦) ٤ : ١٩٠
(٧) ٤ : ٢٢٤ و ٤٠٥ (٨) ٤ : ١٦٧ (٩) ٤ : ١٦٥



شكل ١٧٤ – معبد رمسيس الثالث بمدينة هابو مأخوذ من قمة الصرح الأمامى . ويرى جزء من الساحة الأولى للمعبد ثم الصرح الثانى



شكل ١٧٥ – معبد رمسيس الثالث بمدينة هابو . صورة للصرح الأول مأخوذه من مدخل القصر المشيد بمقدم المعبد



شكل ١٧٦ — رمسيس الثالث يصطاد ثورا وحشيا . رسوم بارزة خلف الصرح الأول بمعبد مدينة هابو

آمون أربعمائة وثلاثا وثلاثين حديقة وغابة من بين حدائق وغابات جميع المعبودات البالغ مجموعها خمسمائة وثلاث عشرة حديقة وغابة. أما عدد السفن الخاصة بمعبودات مصر كلها فكان ثمانيا وثمانين سفينة كانت كلها موقوفة لآمون ما عدا خمس سفن كانت وقفا للعابد الأخرى . أما المصانع التابعة لآمون فكانت ستة وأربعين مصنعا وذلك من ضمن ثلاثة وخمسين مصنعا خاصا بمعبودات القطر كلها[1] . وكان آمون المعبود الوحيد المالك لمدن سوريا وكدش وعددها تسع . أما فى مصر فكان رع يملك مائة مدينة وثلاث مدن مقابل ست وخمسين مدينة لآمون فقط . ولجهلنا حجم وأهمية تلك المدن لا يبعد أن تكون مدن آمون الصفوة المختارة من ذلك المجموع ، أو على الأقل أحسنه وأكبره زماما ، اذا راعينا الأفضلية الظاهرة فى الأملاك السابقة . أما دخل آمون السنوى من الذهب الخالص فكان ستا وعشرين ألف قمحة وهو مقدار لم تستول عليه سائر معبودات القطر ، وبديهى أن هـذا الذهب كان يستخرج من مناجم الذهب بالنوبة التابعة لآمون منذ أواخر الأسرة التاسعة عشرة والمعروفة وقتئذ "بأرض آمون الذهبية" كما سبق القول . واليك بيان ما خص هذا المعبود بالنسبة للمعبودات الأخرى فى مواد غير المذكورة هنا :

كان ايراد آمون من الفضة سبعة عشر ضعفا ومن النحاس واحدا وعشرين ضعفا ومن الغنم سبعة أضعاف ومن النبيذ تسعة أضعاف ومن السفن عشرة أضعاف[2] ، ومن ذلك يتضح لك أيها القارئ أن أملاك آمون أصبحت تلى أملاك الملوك من حيث العظم ، وأن نفوذ كهنة آمون وسلطتهم أصبحتا لا يستهان بهما حتى عند فرعون . لذلك كان كل ملك لا تتفق آراؤه وآراء كهنة آمون لا يستمر فى الحكم طويلا ، ولهذا السبب أيضا ظن بعض الأثريين أن كهنة آمون اغتصبوا العرش الفرعونى فيما بعد بثروتهم الطائلة . لكن يلاحظ أن هـذا الرأى الأخير لا يتفق تماما هو وما استنتجناه سابقا ، لأن هذه النتيجة أتت من عدة أسباب فيها بسط نفوذ آمون على المعابد الأخرى وعلى دخلها ، وترؤس عظيم كهنة هذا المعبود على كهنة القطر منذ الأسرة الثامنة عشرة ، وجعل هذا المركز وراثيا تتوارثه الأبناء عن الآباء منذ أيام الأسرة التاسعة عشرة ، وصيرورة معبد آمون بطيبه مركزا عاما لحفظ سجلات المعابد الأخرى ، أو بعبارة أخرى جعله عاصمة الامبراطورية الدينية ، ثم اعطاء كهنته بعض الحق فى الإشراف على ادارة الأوقاف الدينية[3] ، مما سبب امتداد سلطة آمون على جميع أوقاف المعابد بالقطر .

ومن الخطأ القول بأن رمسيس الثالث كان المبدع لهذه الأمور بالقطر كما يدعيه كثير من الأثريين ، إذ من المحال على جلالته أن يبدأ هباته للمعبودات بهذا المنوال بالتبذير العظيم ، سواء أكان ذلك خاصا بمعبد آمون أم بسواه من المعابد ، لأن الغالب أن مجرد ذكر هبة السبعين ميلا من شاطئ النيل النوبى المعروفة عن اليونان باسم دوديكا شينوس (Dodekaschoinos) الى المعبود خنوم لم يقصد به إلا تسجيل وتأكيد من ناحية رمسيس الثالث لحق كهنة خنوم فى تلك الأرض ، كما أن الهبات الجزيلة الواردة فى درج هريس

---

(1) ٤ : ١٦٥ (2) ٤ : ١٧٠ — ١٧١ (3) ٤ : ٢٠٢

البردى العظيم بأنها من أعمال رمسيس الثالث لا يمكن اعتبارها إلا مجرد سرد لما قدم الى تلك المعاهد الدينية قبل عهده وأن الغرض من ذلك اعتراف جلالته بمشروعية ما تم[١] . وقد استنتجنا من قائمة درج هريس البردى أن الاحصائيات السالفة للهبات الدينية المذكورة كانت أمرا واقعيا ووراثيا منذ حكم الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة . وقد وهب تحوتمس الثالث الى آمون ثلاث مدن بسوريا ، ولما أتت الملوك بعد تحوتمس الثالث سارت على منواله فى ذلك كما أن الطمع الكهنوتى استمر يزداد بلا زاجر ولا رادع حتى أتى عهد رمسيس الثالث فوجد نفسه أمام أمر واقع لم يستطع التخلص منه . ومما زاد الطين بلة أن جلالته كان مضطرا بحكم الظروف أن يستميل اليه الكهنة ليكتسب معاضدتهم فلم يجد بدا من إجزال العطاء اليهم جريا على عادة أسلافه . وهكذا عظم عبء الخزانة المصرية فأخذت تضعف تدريجيا نتيجة هذا التبذير وعدم الاقتصاد ، ولذلك أصبحنا نرى أن العمال الذين اشتغلوا بجبانة طيبه تحت حكم رمسيس الثالث استمروا مدة محرومين فى آخر كل شهر من أن يتناولوا رواتبهم الشهرية وهى خمسون كيسا قمحا ، وقد عزا بعضهم ذلك الى البطء فى دفع مرتبات الموظفين ، الأمر الذى كان حاصلا الى زمن قريب بالقطر ، الا أن هذا لا يمنعنا أن ننظر الى المسألة أيضا من وجهة الإفلاس المالى الذى أصاب الخزانة المصرية . وكيف يمكننا أن نغض النظر عن هذا الأمر وقد ورد عن هؤلاء العمال أنهم استمروا بهذه الحالة عدة أشهر اضطروا بعدها الى اتخاذ أقصى الوسائل فتسلقوا جدر الجبانة مدفوعين بعامل الجوع ومهددين فى الوقت نفسه سكان المعابد بنهب شونهم ان لم تصرف لهم استحقاقاتهم . وقد أخبرهم الوزير أحيانا أن سبب تأخير دفع أجرهم هو إفلاس الخزانة ، وأخبرهم أحد الكتبة مرة أخرى أن أجورهم سيعطونها بعد مدة قصيرة وبذلك رجعوا فى اليوم التالى الى أشغالهم ، لكنهم لم يلبثوا أن تيقنوا عدم صرف أجورهم فعمدوا الى مكتب رئيسهم صارخين طالبين أجورهم الشهرية[٢] . وهكذا بينما كان الفقراء يموتون جوعا من إفلاس الخزانة كانت شون ومخازن المعابد تملأ لآخرها بالخيرات ، لأن دخل آمون وحده وقتئذ كان لا يقل عن مائتين وخمسة آلاف مكيال قمحا فى أعياده السنوية فقط[٣] .

لم تكن لدى رمسيس الثالث ومعاصريه حيلة يقاومون بها نفوذ الكهنة الا الأسرى الأجانب التابعين للملك رأسا والموسومين باسمه ، وقد ضم جلالته هؤلاء الى جنوده المأجورة فزادت بذلك قوته وعظم نفوذه[٤] . وقد ألمعنا سابقا الى أن معظم قوات رمسيس الثالث التى صدّ بها أعداءه كانت أجنبية ، والآن نذكر القارئ أن نسبة هؤلاء الأجانب بالجيش أخذت تكبر بمرور الزمن وبزيادة المصاعب والمشاكل الكهنوتية الداخلية ، وقد تحرج مركز جلالته لدرجة اضطر فيها أن يكون حرسه الخاص من الأجانب .

وجرت العادة منذ عهد المملكة الوسطى أن يكون لدى الملوك والأمراء طائفة "حجاب" يخدمون سادتهم وقت تناول الطعام ويحافظون على مخازن أغذيتهم ، فلما جاء عهد رمسيس الثالث

(١) ٤ : ١٥٧ — ٨ (٢) Erman, Life in Ancient Egypt, 124-126.
(٣) ٤ : ١٧٤ (٤) ٤ : ٤٠٥

كانت طائفته الملكية مكونة من سوريين وأناضوليين وليبيين، وكان الأولون أكثر عددا من الآخرين، واتضح لجلالته وقتئذ فائدة هؤلاء الأقوام ونشاطهم فى أداء أشغالهم فعينهم فى الوظائف العالية بالحكومة والقصر الملكى على الرغم من أنهم عبيد وأسرى حروب ، وبهذه الكيفية أصبحت حاشية فرعون مماثلة تماما لحاشية سلاطين مصر فى القرون الوسطى كما أشار اليه الأستاذ إرمن (Erman). ودلتنا الآثار على وجود أحد عشر "حاجبا" فى خدمة رمسيس الثالث منهم خمسة أجانب ارتقوا فى الوظائف والرتب الحكومية حتى صار لهم شأن كبير ونفوذ قوى كما سيتضح ذلك فى أخبار المؤامرة التى دبرت لاغتيال رمسيس الثالث[١] . وهكذا بينما كانت البلاد مكسوة بحلة الفخار والسكون محتفلة بمليكها الذى أنقذها من مصائبها، اذا عوامل الضعف والانحلال تنخر عظام الامبراطورية المصرية وتزج بها تدريجيا الى مواطن الدمار ، وكيف لا يكون ذلك وشره الكهنة لا حدّ له ولا يعرف للقناعة معنى كما أن معظم ثروة البلاد أصبحت فى أيدى رجال تلك الطائفة . زد على ذلك أن معظم وحدات الجيش المصرى كانت أجنبية مستعدة لخدمة كل من يجزل لها العطاء، وهذا علاوة على صيرورة حاشية الملك من العبيد الأجانب التى تترتب قيمة أمانتهم وصداقتهم على ما يتناولونه من أجر . هذه هى عوامل السوء الخطيرة التى كان يكافحها رمسيس الثالث مستعملا بعضها ضدّ بعض كى يتمكن من بلوغ مآربه وتنفيذ أوامره . ومما زاد الحالة تعقدا واضطرابا كثرة تعدّد أفراد الأسرة المالكة كما سيتضح لنا فيما بعد .

ولا شك أن هذه العوامل السيئة كانت تحز فى جسم الامبراطورية المصرية وقد أخذت نتائجها تظهر تدريجيا فكانت أولى هذه النتائج عصيان وزير رمسيس الثالث وجمعه لقوة كبيرة وتحصنه ببنها (Athribis) ، لكن هذه القوة لم تكن كافية فسلمت بسرعة لقوات رمسيس الثالث الذى استولى على أتريب (بنها)[٢] وأرجع النظام الى أصله .

ولما قرب حلول السنة الثلاثين من حكم جلالته أخذت الامبراطورية تستعدّ لإقامة الاحتفالات، فأرسل جلالته وزيره الجديد المدعو تا (Ta) الى الجنوب فى السنة التاسعة والعشرين من حكمه لجمع تماثيل المعبودات كى تشترك فى الاحتفال العظيم المزمع اقامته بمنف[٣] . لكن بعد ما مرّ ما ينيف على السنة حدثت فى القطر فاجعة مؤلمة أشدّ خطرا من السابقة كان جلالته وقتها شيخا هرما ؛ أما أصل هذه الحادثة فيرجع الى تدبير نسوى فى القصر الملكى وهى عادة كثيرة الحصول فى بلاد الشرق . وخلاصة ذلك أن احدى الحرم الفرعونى المدعوة تى (Tiy) اعتقدت أن ابنها المدعو بنتاورع (Pentewere) أحق بالملك من ابن حماتها الذى كان معينا وليا للعهد وقتئذ[٤] . فدبرت هذه السيدة مؤامرة لاغتيال رمسيس الثالث تحت رياستها أشركت فيها "الباش أغا" المدعو بيك كامن (Pebkkamen) و"حاجبا ملكيا" يدعى مسدسورع (Mesedsure) . وأخذ بيك كامن يستعمل

(١) ٤ : ٤١٩ ملاحظة (٢) ٤ : ٣٦١ (٣) ٤ : ٣٥٥ و ٤١٣ — ٤١٥ (٤) كل الكلام التالى مأخوذ من ٤ : ٤١٦ — ٤٥٦

السحر ليمنع حرس القصر من العلم بهذه المؤامرة ويسهل المخابرات بين أعضاء المؤامرة الثلاثة داخل القصر وزملائهم خارجه . وأحضر بيك كامن لذلك تماثيل صغيرة من الشمع تمثل معبودات وآدميين واجتهد الباش أغا والحاجب الملكى فى حض غيرهم على الاشتراك فضموا اليهم عشرة موظفين من مختلف المراتب من الحرم الفرعونى وأربعة حجاب ورئيس خزانة وقائدا يدعى بيس (Peyes) وثلاثة كتاب مختلفى الدرجات ومساعد بيك كامن وغيرهم من المرءوسين ، ولا يخفى على القارئ خطورة مثل هذه المؤامرة ولا سيما أن معظم أعضائها من رجال البلاط الملكى . ثم انضم الى هذه المؤامرة ست زوجات لضباط حرس باب الحرم فى القصر وهذا سهل كثيرا مبادلة المراسلات والمخاطبات بين الحرم وأصدقائه داخل القصر وأقاربهم ومعارفهم خارجه . وكانت من ضمن أصدقاء الحرم الفرعونى أخت قائد فرقة الرماة بالنوبة فأرسلت هذه خطابا الى أخيها دعته فيه الى الانضمام الى مؤامرتهم ففعل ذلك .

ولما تم الاستعداد للقضاء على حياة رمسيس الثالث داخل القصر واحداث ثورة وضجة خارجه فى الوقت نفسه ليتمكن المتآمرون فى تلك الأثناء من تمليك الأمير بنتاورع على العرش وتنفيذ مشروعهم ، بلغت أخبار تلك المؤامرة حزب الملك ففشلت حركة الاغتيال ووقفت رسائل الثورة وقبض على أفراد المؤامرة وأرسلوا الى القضاء . وبالرغم مما اعترى هذا الملك المسن من الصدمة العصبية ، ولا يبعد أن يكون قد أصابه من الاعتداء الجسمانى من جراء ذلك ما أصابه ، فان جلالته أصدر أمرا بتشكيل لجنة خاصة لمحاكمة المتهمين . ويستدل من الأمر الملكى القاضى بذلك أن جلالته لم يكن آملا فى المعيشة طويلا بعد تلك الصدمة وان كان فى الوقت نفسه شدد على المحققين ليتبعوا العدل فلا يظلموا شخصا بل يوقعون العقاب على مستحقيه . ويعتبر هذا مثالا ساطعا لعدالة ذلك الملك الذى كانت بيده مقاليد الأمور يفعل بها كيف يشاء ، مع العلم أيضا أن شخص جلالته كان المقصود بالقتل . واليك ترجمة بعض ما جاء فى هذا الأمر الملكى :

"أنا آمر القضاة (وهنا ترد أسماء حضراتهم ووظائفهم) قائلا أما من خصوص الكلام الذى يدور على ألسنة الناس فلا علم لى به ، فاذهبوا وافحصوا الأمر ، فاذا حققتم وتبينتم المتهمين فأمروهم أن ينتحروا بأيديهم بدون اخطارى . ووقعوا العقاب على كل من يستحقه بدون استشارتى أيضا . . . . . . احترسوا من عقاب البرىء . هأنذا أكرر لكم أن كل شخص ارتكب أو اشترك فى هذه الجناية يجب أن ينال نصيبه من العقاب . أنا أمين ومحروس الى الأبد ، لأننى ضمن الملوك العادلين أمام آمون رع ملك المعبودات وأمام أزوريس حاكم الأزلية" . ولما كان أزوريس اله الأموات لا يبعد أن رمسيس الثالث اعتقد بجواز وفاته قبل انتهاء التحقيق فى هذه الجناية [1] .

وكانت المحكمة مكونة من سبعة عشر عضوا بينهم سبعة "حجاب" . ومن هؤلاء السبعة كان أحدهم ليبيا وآخر ليسيا وثالث سوريا يقال له مهر بعل (Maharbaal) — أى بعل السريع — ورابع

(1) ٤٢٤ : ٤

أجنبيا يغلب أنه أسيوى . ويعتبر هـذا الخلط فى الجنسـية برهانا على شدّة اعتماد فرعون على أمانة الأجانب حتى فى أحرج الظروف. وحصلت فى أثناء التحقيق حادثة شنيعة أظهرت اهمالا شديدا من القضاة وقت تأدية أعمالهم مع شدّة عداد المتهمين ، وخلاصة ذلك أن القائد المدعو بيس (Peyes) اتحد هو وبعض النسوة المتهمات وأرضوا رجال الشرط المحافظين عليهن فتوجهن الى منزلى قاضيين من المحققين حيث قضيا فيهن المنكر رغبة فى اكتساب رأفة القضاة بهن، ووجد مع هذين القاضيين قاض ثالث لا علاقة له بالفسـق . فلما اتضح هـذا الخبر أجرى تحقيق فى ذلك حكم بمقتضاه على القاضيين المجرمين وعلى شرطيين بجدع أنوفهم وآذانهم وببراءة القاضى الثالث، وقد انتحر أحد هذين القاضيين بعد ذلك بقليل لمـا اعتراه من الخزى وضـياع الشرف[1] . واستمر التحقيق فى المؤامرة الأصلية يسير بنظام ويستدل من سجلات ثلاثة تحقيقات[2] أن اثنين وثلاثين موظفا مختلفى المراتب وجدوا مذنبين ومن ضمنهم الأمير بنتاورع الذى لم يكن فى الحقيقـة سوى آلة فى أيدى المجرمين وكذلك القائد الجرىء بيس (Peyes) الذى أغرى القاضـيين السابقين . ولم نعثر للآن على أوراق قضية الملكة تى ولذلك لا نعلم ماذا تم فى أمرها ، لكن المعروف أنها لم تعامل بأقل ممـا عومل به سواها الذين أجبروا على الانتحار طوعا لأمر رمسيس الثالث .

فى ذلك الوقت حل ميعاد الاحتفال بعيد مرور اثنين وثلاثين عاما على جلوس رمسيس الثالث، فأقيمت لذلك الزينات والأفراح عشرين يوما جريا على عادة جلالته الذى اتبعها منذ السنة الثانية والعشرين من حكمه[3] . بعـد ذلك بعشرين يوما توفى رمسيس الثـالث (حوالى عام ١١٦٧ قبـل الميلاد) قبل أن يعدم المتهمون فى مؤامرة اغتياله ، وعليـه فيكون جلالته حكم مدة احدى وثلاثين سنة وأربعين يوما .

---

(1) ٤ : ٤٥١ — ٣ (2) ٤ : ٤١٦ — ٤٥٦ (3) ٤ : ٢٣٧

الكتاب السابع

دور الاضمحلال

الفصل الرابع والعشرون

سقوط الامبراطورية

تبع رمسيس الثالث فى الحكم تسعة ملوك ضعاف سموا كلهم باسم رمسيس الكبير لكنهم لم يستحقوا ذلك الاسم العظيم ، وقد أخذت سلطة هؤلاء الملوك تقل بسرعة فبلغت الحضيض فى مدة يسيرة . نعم ان نجل رمسيس الثالث وهو رمسيس الرابع اجتهد فى مكافحة الظروف السيئة التى أحاطت به بعد وفاة والده حوالى عام ١١٦٧ قبل الميلاد لكنه لم يفلح فى مسعاه . والمعروف عن هذا الملك أنه بمجرد جلوسه على العرش المصرى دوّن جميع أعمال والده فى الدنيا فى درج بردى مستعطفا بذلك الآلهة لأجل والده ظنا منه أن هذا العمل ينال رضا والده أيضا عن طريق المعبودات . ويعتبر هذا الدرج البردى الذى دوّن فيه جلالته أعمال والده من أهم السجلات التاريخية التى عثر عليها للآن وهو يحوى قائمة بالأعمال الخيرية الكبيرة التى فعلها رمسيس الثالث للمعبودات العظمى آمون (معبود طيبه) ورع (معبود عين شمس) وبتاح (معبود منف) وكذا المعبودات الأخرى الصغيرة والأعمال الحربية والعطايا والهبات التى أغدقها على الرعية . ويبلغ طول هذا الدرج مائة وثلاثين قدما وهو يحوى مائة وسبعة عشر نهرا من الكتابة طول كل نهر اثنتا عشرة بوصة تقريبا . ويعرف هذا الدرج الآن بقرطاس هريس (Harris) وهو أكبر قرطاس وصل الينا من العهد الشرقى القديم [1] . ولما كانت الأملاك والأوقاف المذكورة بهذا القرطاس والمحبوسة على معبودات مصر عظيمة جدا أيام تولى رمسيس الثالث على مصر استنتج أن جلالته لم يجد بدا من الاعتراف وقتئذ بها كما استنتج أيضا أن معابد مصر استنزفت جزءا عظيما من ثروة مصر كما ألمعنا الى ذلك سابقا . وقد وضع هذا القرطاس العظيم الحاوى لأعمال رمسيس الثالث الخيرية مع مومياءه بمقبرة منفردة بوادى الملوك . ولا مراء فى أن الغرض الأصلى من كتابة هذا القرطاس استجداء الشفقة والرأفة من المعبودات الى رمسيس الثالث ، فالدعوات الكثيرة الواردة بالدرج البردى المذكور مقولة على لسان رمسيس الرابع لأجل والده تكفى لاستدرار رحمة المعبودات للوالد واطالة مدة حكم الابن كثيرا فى مقابلة هـذا العمل الخيرى . ولا يبعد أبدا أن يكون السبب الأخير من أقوى العوامل لكتابة ذلك السجل العظيم ، خصوصا وأن فراعنة مصر وقتئذ كانت تتكل كثيرا على تأثير مثل هذه السجلات أكثر من اتكالهم على أنفسهم . وعليه فالقرطاس المذكور كان هاما جدا وقتئذ . ومما يثبت ما استنتجناه الدعوات التى نقشها رمسيس الرابع لأزوريس بالعرابة فى السنة الرابعة من حكمه واليك ترجمتها :

---

(1) ١ : ر ٤ : ١٥١ — ٤١٢

"اجعلنى (أيها المعبود) طويل الحكم بقـدر ضعف حكم رمسيس الثانى المعبود العظيم . كيف لا وقد فقته فى الأعمال والخيرات العظيمة لمعبدك حيث قدمت لك القرابين والهدايا المختلفة كل يوم، فأصبحت الهدايا التى قدمتها لك فى الأربع السنوات من حكمى أكثر من التى قدمها رمسيس الثانى المعبود العظيم فى مدة حكمه البالغ سبعا وستين سنة" (١) .

بهذه الطريقة تمكن الكهنة من ابتزاز ما رغبوه من الفراعنة مؤكدين لهم فى الوقت نفسه أن معبودهم سيهب لهم حكما طويلا وأن المعبودات ستشملهم برعايتها .

أما الحمية التى تولدت فى نفوس المصريين أثر غزو الهيكسوس فقد انعدمت بل صارت فى خبر كان واستعيضت الآن بعقائد فاسدة دينية وسحرية، وهكذا تغلب الجهل والضعف على الحكمة والروية . ومن ذلك الوقت سارت سـفينة السياسة المصرية فى طريق أعوج خطير يفضى الى الدمار ، لأن السلطة التنفيذية أخذت تخضع تدريجا للسلطة الدينية فلم تعد هناك صعوبة على رئيس كهنة آمون أن يغتصب الملك وينفرد بالحكم اذا ما سنحت الفرص .

اذا كان الأمر كذلك فليس بالغريب أن يكون كل ما نعرفه عن أعمـال رمسيس الرابع يتعلق بارضاء المعبودات فقط . ففى السنة الثانية من حكمه توجه جلالته شخصيا الى محاجر وادى الحمامات مع بعثة للبحث عن أحجار جيدة لتشييد معبده . وقد استغرقت هذه الرحلة مسير خمسة أيام تقريبا فى الصحراء من وادى النيل . وبعد ذلك بسنين أرسل جلالته الى تلك الجهة أيضا تجريدة عظيمة مؤلفة من تسعة آلاف رجل للغرض نفسه ، ودلتنا الآثار أنه مع الاحتياطات العظيمة التى اتخذت لهذه البعثة من حملة للأمتعة واستعمال عشر عجلات يجر كل منها سـتة ثيران فقد توفى منها ما ينيف على تسعمائة نسمة من شدة القيظ والتغيرات الجوية، وبذلك تكون الخسارة ١٠ ٪ تقريبا من عدد الأنفس(٢) . ولم نهتد للآن الى المحل الذى استعملت فيه الأحجار المقطوعة من وادى الحمامات والتى سببت هذه الخسارة الآدمية الجسيمة ، وكل ما بقى من آثار رمسيس الرابع هو امتداد الحجر الخلفية لمعبد خونسو بطيبه، وكذا القاعات الصغيرة ذات العمد التى بدأ والده ببنائها قبل ذلك بمدة يسيرة(٣) . ودام حكم هـذا الملك ست سنوات تقريبا لم يقم فيها بأعمال تذكر ثم تولى بعـده رمسيس الخامس (وهو ابنه على الأرجح) وذلك عام ١١٦١ قبل الميلاد . وفى عهد هـذا الملك وقف العمل فى محاجر ومناجم طورسيناء ، لأن آخر اسم فرعونى وجد هناك هو اسم رمسيس الرابع . وتوفى هذا الملك بعد حكم قصير فتبعه فى الملك رمسيس السادس الذى يغلب أنه حفيد رمسيس الثالث من ابن آخر .

ويظن أن رمسيس السادس اغتصب الملك من نجل رمسيس الخامس لكن هذا الملك لم يعش طويلا فتبعه فى الملك رمسيس السابع ثم رمسيس الثامن وهذان أيضا لم يحكما طويلا . وقد حفر هؤلاء الفراعنة مقابرهم بوادى الملوك بطيبه وفوق ذلك لا نعلم شـيئا عن أعمالهم(٤) ، وكل ما وصلنا من أخبار تلك العصور يشير الى اضمحلال عام بكيان الدولة، لكن نقوش مقبرة پنو(Penno) مندوب

(١) ٤ : ٤٧١ (٢) ٤ : ٤٥٧ — ٤٦٨ (٣) ٤ : ٤٧٢ (٤) ٤ : ٤٧٣ ملاحظة

رمسيس السادس بابريم ببلاد النوبة تشير الى أن الحكم المصرى هناك كان يانعا وطيدا بفضل مهارة الحكام المصريين الذين أقالوا السودانيين من الوظائف وانفردوا بالحكم من آخر عهد الأسرة الثامنة عشرة . وقد عين پنو أفراد أسرته فى الوظائف الكبيرة هناك والظاهر أن كثيرا من الأسر المصرية نزحت وقتئذ الى النوبة لمصرتها . وكان پنو رجلا ثريا فنصب تمثالا لرمسيس السادس بمعبد رمسيس الثانى بالدر وحبس عليه ايراد ست قطع أرض، فكافأه الملك على ذلك بهدية ثمينة عبارة عن آنيتين فضيتين باهى بهما پنو ونقش خبرهما على قبره[1] .

والمعروف أن العرش المصرى انتقل بين أيدى الرعامسة عدة مرات فى ظرف ٢٥ أو ٣٠ سنة بعد وفاة رمسيس الثالث وأن آخر ملك فى تلك المدة هو رمسيس التاسع . وحصلت كل هذه التغيرات فى العرش فى حياة رئيس كهنة مدينة الكاب الذى كان موظفا فى الأعياد التى أقامها رمسيس الثالث[2] . أما رئيس كهنة آمون بطيبه أيام رمسيس التاسع فكان يدعى أمنحتب وهو ابن رئيس كهنة آمون فى عهد رمسيس الثالث والرابع المدعو رمسيس نخت[3] . ولا يخفى أنه فى عهد الرئيسين أمنحتب ورمسيس نخت تولى عرش مصر ستة رعامسة ضعاف لم يستمروا طويلا وكان همهم المحافظة على مركزهم . وزادت ثروة أمنحتب رئيس الكهنة فى تلك المدة كثيرا فأصلح مائدة الطعام والمطبخ بمعبد الكرنك الذى شيده سيزوستريس الأول منذ ثمانمائة سنة تقريبا[4] ، وصرف أمنحتب على هـذا الاصلاح بسخاء وكرم أظهراه كبيرا فى أعين الناس . واستعمل أمنحتب فرعون مصر آلة لجمع الخيرات والهدايا، ففى السنة التاسعة من حكم رمسيس التاسع دعا جلالته أمنحتب هذا الى الساحة الكبرى الأصلية بمعبد آمون بطيبه فحضر هـذا الكاهن مصحوبا بأعوانه وأقرانه وتسلم من مليكه هدايا عظيمة من أوان ذهبية وفضية وحلى وأدهان ثمينة قدمها اليه صف طويل من الجنود الملكية . قارن ذلك بتلك الأيام التى كانت تقدم فيها أمثال هذه الهدايا مكافأة على الإقدام والشجاعة فى الحروب السورية ، وهكذا انقلبت الحال فأصبحت هـذه الهدايا تعطى للكهنة لضمان سلامة العرش المصرى واطالة الحكم الفرعونى . والأغرب من هـذا ما قاله رمسيس التاسع الى أمنحتب وقت اغداقه بالهدايا فقد خاطبه بصيغة كلامية لا تقال الا من شخص وضيع الى سيد كبير . وأخبر الملك رئيس كهنته أن هناك أموالا كانت تجمعها الخزانة الملكية لتدفعها الى معبد آمون فيجب من الآن فصاعدا أن تورد مباشرة الى خزانة آمون بدلا من توريدها أولا الى خزانة الدولة . وهـذه العبارة فى الحقيقة غامضة لكن يفهم من مضمونها أن جلالته سمح لكتبة معبد آمون أن يجبوا أموال المعبد بأنفسهم بدون تدخل الحكومة ، وبعبارة أخرى أن جلالته سمح لنفوذ كهنة آمون بأن يمتد الى بعض شؤون الدولة . وسجل أمنحتب المذكور هـذه الانعامات الملكية السابقة مرتين على جدر الكرنك وزاد عليها ما شيده من العمارات[5] وشمل هذه النقوش برسوم بارزة تمثله بحجم كبير كالملك الذى ينعم عليه بالهدايا والهبات . ويعتبر هـذا أول رسم من نوعه فى التاريخ المصرى القديم اذ لم يسبق لأى

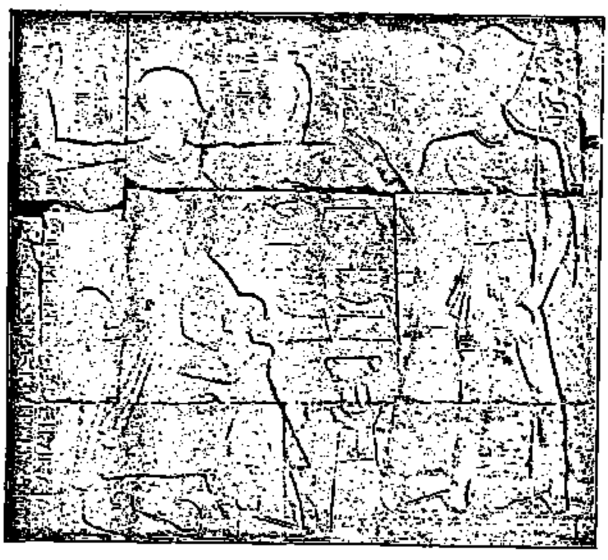
(1) ٤ : ٤٧٤ — ٤٨٣ (2) ٤ : ٤١٤ — ١٥ (3) ٤ : ٤٨٦ ملاحظة (4) ٤ : ٤٨٨ ملاحظة
(5) ٤ : ٤٨٦ — ٤٩٨

موظف مصرى أن يمثل بهذه الكيفية ، لأن العادة المتبعة من قديم الزمان أن أفراد الرعية يرسمون دائما صغار الحجم بالنسبة لفراعنتهم ، أما الآن فقد ساوى نفوذ أمنحتب نفوذ الملك دينيا وسياسيا ولذلك رسم مساويا له حجما . ومعلوم أن رئيس كهنة آمون كان له جنود خاصة ، فلما تدخل تدريجيا فى المالية المصرية وصار له نفوذ عليها تجاسر على مقارنة نفسه بالملك . وطبيعى أننا لا نعثر فى الآثار على ما يشير الى وجود حزازات ومشاحنات بين هذا الكاهن وفرعون مصر، وكل ما بلغنا عن ذلك ما جاء فى رواية أفضت بها امرأة مصرية وقت التحقيق معها فى سرقة حصلت بمنزل والدها فى عهد رمسيس التاسع حيث قالت ان تلك السرقة "حصلت وقت الثورة التى أشعلها رئيس كهنة آمون" (١) .

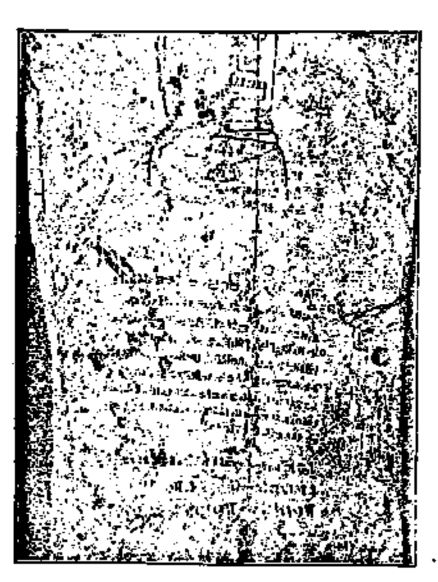
وتدلنا المكاتبات الرسمية الخاصة بجبانة طيبه التى وصلت الينا من عهد رمسيس التاسع على مقدار انحطاط نظام القطر الداخلى وقتئذ(٢) . وقد سبق أن قلنا أن الفراعنة هجروا طيبه واتخذوا الوجه البحرى مركزا لإقامتهم منذ مائتى سنة تقريبا ، لكنهم استمروا رغم ذلك على دفن موتاهم بطيبه . وجرت العادة أن القوم كانوا يدفنون مع موميات فراعنتهم الحلى التى كان يتزيا بها هؤلاء الحكام فى دنياهم . وقد ألمعنا سابقا الى أن كبار ملوك الامبراطورية اختاروا الوادى الغربى لطيبه وهو فى وسط الصخور الجبلية جبانة لجثثهم المحلاة بما عاد عليهم من الثروة من المستعمرات الأسيوية ، فلما ضعفت القوة الحاكمة وعجزت عن صيانة هذه القبور ومحتوياتها من أيدى اللصوص كثر نهبها وسلبها، ففى السنة السادسة عشرة من حكم رمسيس التاسع سلب اللصوص أمتعة بعض المقابر الملكية المقابلة لصخور طيبه الغربية كمقبرة الملك سبك إم ساف (Sebekemsaf) أحد ملوك الأسرة الثالثة عشرة(٣) فاقتحمها هؤلاء الجناة وسرقوا أمتعتها وأثاثها وعبثوا بمومياء الملك وزوجته بحثا وراء حليهما الملكى . وقد ضبط اللصوص وقتئذ وعوقبوا على ذلك لكن يتضح لنا من مجرى التحقيق أن المحققين أنفسهم لم يكونوا عفاف النفس . بعد ذلك بثلاث سنوات (أى لما أشرك رمسيس التاسع ابنه رمسيس العاشر معه فى الملك قبض على ستة أشخاص بتهمة نبش قبرى سيتى الأول ورمسيس الثانى ، وهذا يدل على أن اللصوص ازدادوا جرأة فتركوا مقابر سهل طيبه الغربى وولوا وجوههم نحو مقابر الوادى الغربى ، وهكذا وقع قبر رمسيس الثانى فريسة السلب والنهب كما فعل صاحبه بأهرام سيزوستريس الثانى باللاهون . بعد ذلك نهبت مقبرة إحدى ملكات سيتى الأول ثم مقبرة أمنحتب الثالث العظيم . وخلاصة القول أنه لم تمض عشرون سنة على هذه الحالة الا وأصبحت جميع المقابر الملكية بطيبه من ابتداء الأسرة الثامنة عشرة الى آخر الأسرة العشرين منهوبة تقريبا ، ولم نعثر للآن على جثة واحدة نجت من تلك الجرائم الا جثة أمنحتب الثانى التى وجدت فى تابوتها الأصلى رغم نهب قبرها . وهكذا صارت موميات ومقابر ملوك مصر العظام تسلب وتنهب بلا شفقة ولا احترام ، فى الوقت الذى كانت تتصدع فيه أركان الامبراطورية المصرية التى شيدها هؤلاء الحكام .

ولم تصل الينا معلومات ما عن تاريخ رمسيس العاشر سوى ما تعلق بسرقة المقابر الملكية . أما رمسيس الحادى عشر فنجهل كلية جميع أخباره . ولما تولى رمسيس الثانى عشر الملك هوى العرش

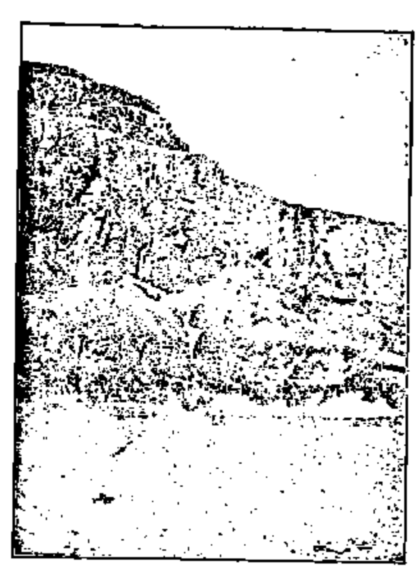
(١) ٤ : ٤٨٦ (٢) ٤ : ٤٩٩ — ٥٥٦ (٣) راجع اعترافات اللصوص السابقة صحيفة ١٣٨



شكل ١٧٧ — أمنحتب رئيس كهنة آمون يقبل انعام رعمسيس التاسع .
يلاحظ أن رسم هذا الكاهن (الى اليسار) يتبادل فى الحجم مع رسم الملك
(الى اليمين) الأمر المخالف للعادات القديمة المرعية



شكل ١٧٨ — ملاحظات كاتب على تابوت سيتى الأول تشير الى تنقلات المومياء حتى وضعها الأخير فى مخبأ الدير البحرى فى عهد حكم الكهنة ملوك الأسرة الحادية والعشرين



شكل ١٧٩ — مخبأ الدير البحرى وترى فتحة هذا المخبأ كنقطة سوداء فى آخر الطريق المبتدئ من الحجر
(أنظر صفحة ٢٥٥)

الفرعونى وحصل فى البلاد انقلاب حكومى عظيم لا يزال تحت البحث والاستيضاح . واليك بيان ما وصلنا الى معرفته منه :

قبل أن يتم رمسيس الثانى عشر خمس سنوات على عرش مصر استقل الوجه البحرى بأجمعه تقريبا تحت سلطة أحد أعيان تنيس المدعو نسوبانبدد (Nesubenebded) المعروف عند اليونان بسمنديس (Smendes)[١] . وقد كانت حركة انفصال الدلتا كبيرة وكثيرة الشبه بما عمله وزير رمسيس الثالث المجهول الذى شق عصا الطاعة على مليكه جهة بنها (Athribis)، لكن رمسيس الثالث كان يقظا فأخضع الثائر بسرعة وأنزل به القصاص[٢] . أما رمسيس الثانى عشر فكان ضعيفا قليل النفوذ كما أن أحوال البلاد تغيرت كثيرا عما كانت عليه أيام رمسيس الثالث ولذلك لم يجد جلالته بدا من التقهقر الى طيبه والاحتفاظ بالوجه القبلى . ويرجح جدا أن انتقال جلالته الى طيبه حصل قبل انفصال الدلتا عنه ، وعلى كل حال فاستقلال الوجه البحرى فصل طيبه عن البحر الأبيض المتوسط وحال بينها و بين آسيا وأوربا ، وبديهى أن الوجه البحرى أصبح معاديا للوجه القبلى وقتئذ . ثم اننا أشرنا الى أن رئيس كهنة آمون بطيبه كان ذا نفوذ عظيم وثروة طائلة جعلاه بمثابة حاكم قسم طيبه الأعظم دينيا وسياسيا ، ولذلك لما عاد رمسيس الثانى عشر الى طيبه اتحد هو ورئيس كهنة آمون وتعاونا معا فى بسط نفوذ جلالته على الوجه القبلى وبلاد النوبة .

وقد عرفت سورية بسرعة تغير أحوال البلاد الداخلية المصرية حتى قبل انفصال الوجه البحرى بمدة . لذلك أخذ الثكاليون وأهالى كريت يشنون الغارة ثانية على سوريا بعد ما وقفهم رمسيس الثالث بهجماته وقسوته مدة من الزمن ، فزحف هؤلاء القوم جنوبا طاردين أمامهم أهالى آمور وما بقى من أهالى الحيثيين حتى بلغوا فلسطين حيث التقى بهم بنو اسرائيل بعد ذلك بمدة . وهكذا تمكن الثكاليون من تشكيل مملكة مستقلة جهة دور (Dor) جنوبى كرمل بعد ما هزمهم رمسيس الثالث بنحو خمس وسبعين سنة[٣] . ولما لم ترد عن هؤلاء القوم اشارة فى أخبار بنى اسرائيل لا يبعد أنهم تفرقوا واختلطوا مع أهالى فلسطين القاطنين بالأراضى الممتدة من بيت شين (Beth-Shean) بوادى الأردن الى الغرب والجنوب بما فى ذلك من سهل يزرل ومجدو حتى ساحل البحر الجنوبى ، فقطعوا بذلك حلقة الاتصال بين قبائل بنى اسرائيل الجنوبية والشمالية . واستدل من أوانى هؤلاء القوم الخزفية التى عثر عليها بجهة لاكش (Lachish) وجازر أنها من كريت ، فثبت بذلك صحة رواية اليهود من أن الفلسطينيين قوم أتوا من جزيرة كريت[٤] . ثم ازدادت هجرة الفلسطينيين من كريت فأخذوا يتأهبون لسحق الاسرائيليين كما فعلوا بأهالى آمور ، وذلك قبل أن يتمكن رؤساء الاسرائيليين من جمع كلمة أهالى فلسطين وانشاء أمة سامية منهم . ويرجح جدا أن هؤلاء الفلسطينيين الحربيين الذين أتوا من شمالى البحر الأبيض المتوسط امتنعوا عن دفع الجزية لمصر بعد وفاة رمسيس الثالث بقليل (حوالى سنة ١١٦٧ قبل الميلاد) لأنهم وصلوا وقتئذ الى حدود مصر تقريبا .

---

(١) ٤ : ٥٥٧ و ٥٨١ (٢) راجع صحيفة ٣٣٥ (٣) ٤ : ٥٥٨ (٤) أرميا ٤٧ : ٤ وعاموس ٩ : ٧

ومما يثبت لنا تغير الأحوال بآسيا أنه فى عهد رمسيس التاسع (سنة ١١٤٢ — ١١٢٣ قبل الميلاد) اعتقل حاكم ببلوس (چبيل) رسلا مصرية لمدة سبع عشرة سنة دون أن يسمح لهم بالرجوع الى مصر حتى ماتوا [١] . ومن ذلك يتضح لنا أن أمراء سوريا لم يعودوا يظهرون أقل احترام لنفوذ فرعون مصر بعد وفاة رمسيس الثالث بعشرين أو خمس وعشرين سنة . وليلاحظ أن هؤلاء الحكام كانوا يقدّمون الهدايا والضرائب لآمون فى المعبد الذى شيده هذا الفرعون العظيم بسوريا وقت حياته ، أما الآن فقد أصبح كل ذلك فى خبر كان .

وبلغنا وصف لأحوال سوريا أيام رمسيس الثانى عشر يقول عن لسان رسول مصرى يدعى وينامون (Wenamon) أوفد باذن من المعبود الى ببلوس جنوبى لبنان لإحضار خشب الأرز اللازم لبناء سفينة آمون المقدّسة . وكان هذا الرسول خاوى الوفاض لا يملك سوى دراهم ذهبية وفضية معدودة أعطاها إياه رئيس كهنة آمون المدعو حريحور (Hrihor) ، ولقلة هذه النقود أرسل الكاهن مع الرسول تمثالا للمعبود آمون يدعى " آمون الطريق " ليؤثر به فى حاكم چبيل بأنه يطيل عمره ويهب له الصحة والعافية فيجمع بذلك الأموال اللازمة لإحضار الخشب المطلوب . وزوّد حريحور رسوله المذكور بخطاب الى ملك الوجه البحرى المدعو نسوبانبدد ليسهل له السفر ويجهز له سفينة ربانها سورى لتنقله الى سوريا . ولا يمكن أن يتصوّر القارئ مثلا أوضح من قصة هذا الرسول وينامون التى تثبت بلا نزاع ما وصلت اليه مصر وقتئذ من الضعف والانحطاط . واليك بيان تلك القصة :

لما أوفد وينامون للقيام بالمهمة المذكورة كان وحيدا لا يملك أوراقا رسمية أو سفنا مصرية رسمية ، كما أنه كان قليل المال لا يعتمد فى مهمته الا على مجد مصر التالد وعزها السابق . وظن وينامون أن مجرد ذكر ذلك الى حاكم مدينة چبيل يكفى لإقناعه بوجوب مساعدته لتنفيذ مهمته ، لكنه لما وصل وينامون الى مدينة دور سرقت نقوده فعمد الى حاكم المدينة الثكالى الأصل وقص عليه ما حصل له فرفض مساعدته واضطر وينامون أن يمكث بدور مدّة تسعة أيام بلاجدوى . بعد ذلك سافر الى چبيل بطريق صور وقد أخذ معه كيسا مملوءا بالنقود الفضية من الثكاليين نظير ما لحقه من الضرر بدور ، لكنه لم يكد يهبط چبيل حتى أمره حاكمها المدعو زكربعل (Zakar Baal) بتركها دون أن يراه . اعتبر هذه المقابلة الجافة المزرية لرسول مصر فى بلاد فينيقيا ولم يمض على وفاة رمسيس الثالث خمسون أو ستون سنة . وقد هم وينامون بالعودة الى مصر ثانيا لكن أحد أمناء زكربعل دفعته النخوة الدينية فقام بين قومه وحثهم على معاملة هذا الرسول بالشرف وباعطائه ما يطلبه وترحيله الى وطنه . ويعتبر هذا أقدم مثل للعاملات الدينية الواردة بسفر العهد القديم من الكتاب المقدّس التى تمكن بها وينامون من مقابلة زكربعل . واليك ترجمة ما قال وينامون عن مقابلته لذلك الحاكم :

" لما حل الصباح أرسل الىّ يطلبنى للمثول بين يديه ، وكان ذلك وقت تقديم القربان بالقلعة الكائنة على شاطئ البحر ، فوجدته جالسا فى القاعة العليا ساندا ظهره الى نافذة الحجرة وأمواج البحر

(١) ٤ : ٥٨٥ .

السورى العظيم تتلاطم خلفه على الشاطئ . فسلمت عليه قائلا "سلام من آمون !" فأجابنى "كم يوما أمضيتها فى سفرك مُنذ تركت معبد آمون" فقلت له "خمسة أشهر ويوما واحدا الى الآن" .

ثم سألنى : " اذا كنت صادقا فأين كتاب آمون ؟ هل هو فى يدك ؟ هل عندك كتاب من رئيس كهنة آمون ؟ "

فأجبته : " انى قد أعطيت ذلك نسوبانبدد . . . " فاستشاط غيظا وقال بحنق : "ليس معك خطاب ولا مكاتبة ! أين هذه السفينة المصنوعة من خشب الأرز التى أعطاها اياك نسوبانبدد وأين رجالها السوريون ؟ ان نسوبانبدد لا يمكن أن يسمح لك بأن تؤدى هذه المهمة مع قبطان سورى يجوز جدا أن يقتلك أو يرميك فى البحر ! خبرنى من أين اذن يمكنهم احضار تمثال معبودك هذا ؟ ثم أين كانوا يعثرون عليك ؟ "

فأجبته : " ان لدى نسوبانبدد سفنا مصرية وبحارة مصريين لكن ليس لديه بحارة سوريون " .

فأجابنى : " عندى حقيقة بهــذه الميناء عشرون سفينة تتبع نسوبانبــدد وأيضا بميناء صيدا حيث يحتمل أن تذهب اليهـا عشرة آلاف سفينة تتبع بركت إل (Berket-El) يغلب أنه تاجر من مدينة تنيس بالوجه البحرى — وهذه ستسافر الى منزله" .

فسكت فى تلك الساعة الرهيبة ولم أدر بمــاذا أجيب . ثم سألنى "لمــاذا أتيت الى هنا ؟ "

فأجبته : "أتيت لآخذ خشبا لسفينة آمون رع العظيمة ملك المعبودات وقد عمل والدك ذلك من قبل . وأنت أيضا ستقوم بالعمل نفسه " .

فأجابنى : " حقيقة لقد عمــل مثل هذا العمل سابقا . أما الآن فلا أعمــل شيئا ما لم تأجرنى عليه . أن عمالى هم الذين يديرون أشغالى . لقد أرسل الىّ فرعون مصر ست سفن مشحونة بضائع مصرية أفرغت كلها بالمخــازن . فاذا أردت أنت شيئا منى فلتعطنى أجرة أيضا " .

بعد ذلك أمر باحضار سجل أعمال والده فقرئ أمامى فوجد أن والده أرسل ألف دبن (Deben) (أى ٢٤٤ رطلا) من كل نوع من الفضة الى مصر ثم قال لى : " اذا كان حاكم مصر هو مالك ثروتى وكنت أنا خادمه فلا يمكن أبدا أن يرســل لى الذهب والفضة ويقول لى أنجز مطالب آمون ! ان النقود التى أرسلها والدى الى مصر سابقا ليست جزية ! وأنا على يقين بأنى لست خادمك ولا خادم من أرسلك . اعلم أنى لو طلبت شــيئا من لبنان تنفتح السماء فتجد الأخشاب التى ترجوها على الشاطئ ! أرنى القلاع التى أحضرتهــا معك لتسير السفن التى تحمل الأخشاب لمصر ! أرنى الحبال التى أحضرتها لتوثق بها كل الأخشاب التى أسقطها لك حتى لا تتبعثر منك ! ما ذا تعمل اذا رعد آمون فى السماء وقامت فى البحر عليك عاصفة تغرقك وخشبك . . . . ! أنا أقر بأن آمون هو المنعم على الأراضى كلها ، وهو الذى أنعم على مصر قبل كل البلاد ، ومنها أتيت الى هنا ، فصناع مصر أتوا الىّ وكذا العلوم والمعارف أتت الى محل اقامتى من مصر . فمــا معنى هذا السفر السخيف الذى أمروك بالقيام به ! "

فأجبته : "يا آثم ! سفرى هذا ليس سخيفا . اعلم أنه لا توجد سفينة على نهر الا ويملكها آمون. واعلم أن هذا البحر ملكه أيضا . ولبنان كذلك رغما مما تدعيه بأنها ملكك ! فأشجارها تنبت لأجل سفن آمون المقدّسة رب كل سفينة . لقد قال آمون رع الى سيدى حريحور رئيس الكهنة "أرسلنى" فأرسلنى سيدى حاملا هذا التمثال "آمون الطريق" . اسمع ! لقد جعلتنى أمكث بهذه المدينة تسعة وعشرين يوما مع علمك بوجود هذا المعبود هنا . ان هذا المعبود لا يزال كما كان رغم معارضتك لإرادته وهو سيد لبنان . أما قولك ان ملوك مصر الأقدمين أرسلوا الذهب والفضة ثمنا لما طلبوه منك ، فاعلم أنهم فعلوا ذلك بدلا من الإنعام عليك "بالحياة والصحة" ، اذ لو كانوا وهبوا لك " حياة وصحة " ما أرسلوا اليك ذهبا وفضة . أما آمون رع فهو إله الحياة والصحة وهو سيد أجدادك الذين أمضوا حياتهم يقدمون له القرابين والهدايا . وأنت أيضا خادم لآمون ، فاذا قلت لآمون سأنجز رغبتك ! سأنجز رغبتك ! ونفذت ذلك تماما فانك تفلح وتعيش طويلا وتنعم بصحة جيدة وتكون محبوبا فى بلدك وعند كل رعيتك . لا تحفظ لنفسك شيئا هو ملك آمون رع ملك المعبودات . حقيقة ! ان الأسد ليذود عن أملاكه ! احضر لى كاتبى وأنا أرسله الى نسوبا نبدد وزوجته تنت آمون(Tentamon) اللذين أعطاهما الوجه البحرى وهما يجيبان طلبى قائلين "ليحضر له كل ما يطلبه" فاذا ما وصلت الى الوجه القبلى سدّدت لك كل ما علىّ من الديون" هكذا أجبته .

لابد أن القارئ استنتج أشياء كثيرة من هذه القصة الغريبة . من ذلك اعتراف الحاكم الفينيقى بجلاء ووضوح ما تدين به بلده من العلوم والحضارة لمصر وما كان لمصر عليها من السلطة والنفوذ . لكن يلاحظ أن هذا الحاكم رفض فى الوقت نفسه الاعتراف بسلطة مصر عليه وتنصل جهارا من كل سلطة لفرعون على بلده . ومما يجدر ملاحظته أيضا أن زكربعل تكلم عن " حاكم مصر " ولم يستعمل لفظ " فرعون " اذا أراد الحاضر أما اذا عنى الماضى فانه يستعمل اللفظ الأخير . فما معنى هذا ياترى ؟ لا شك أن القارئ أدرك السر فى هذا الأسلوب الكلامى لكن هذا لا يمنعنا أن نشرحه له حتى يكون على إلمام بجميع مباحثه .

معلوم أن مصر ليست بلادا حربية بطبيعة حالها وقلما يوجد بين أهلها من يحب الكفاح والنضال . فلما حكم القطر فراعنة أقوياء مدفوعون بعامل الفتح والاستعمار أثر الضغط الأجنبى اضطرت الرعية أن تنفذ ارادة حكامها . لكنه لما انقضى جيل هؤلاء الفاتحين خمدت الروح العسكرية بالبلاد ورجعت المياه الى مجاريها وأصبح القوم يفتخرون بأعمال أجدادهم بشكل يبعث فى النفوس الشفقة والرأفة لما أصاب وطنهم من المحن . ومما يجدر ملاحظته أيضا أن وينامون لم يرتكن فى محادثته مع حاكم ببلوس الا على الأمور الدينية المحضة ، فلم يتعرض لأمر سياسى قط مما يتفق هو وعلاقة مصر بآسيا وقتئذ وما آلت اليه أحوال القطر المصرى . وبهذه الكيفية صار الرسول المصرى يطلب من الحاكم الفينيقى ما يلزمه من الخشب شفهيا قائلا له ان تمثال آمون الذى معه "يطيل عمره ويهب له الصحة" اذا هو أنجز مأموريته . قارن هذا بما كانت عليه الحال أيام تحوتمس الثالث وسيتى الأول لما كانت كلمة واحدة منهما كافية لإحضار ما يشاءان، والسر فى ذلك يرجع الى

وجود الجيوش الجرارة المستعدة لتنفيذ أوامر فرعونها بلا تردد ولا تذلل . وبديهى أن تمثال "آمون الطريق" كان أقل تأثيرا فى نفس زكربعل من الجيوش الفرعونيــة فى نفوس أسلافه . وليلاحظ أيضا أن هــذا الحاكم الفينيقى لم يعط ويناموں خشبا الا بعد وصول رسل من مصر بناء على طلب ويناموں حاملين بعض أوان فضية وذهبية وبعض أقمشة جميلة وأدراج بردية وجلود وحبــال . والظاهر أن زكربعل أراد أن يظهر حسن نيته لويناموں فوضع بعض الأخشاب الثقيلة فى قرار السفينة قبل مجىء رسل مصر .

ولمـا هم ويناموں بالرحيل الى طيبه وشحن الخشب فى سفينته ذكره زكربعل بمـا حصل للرسل المصريين سابقا لمـا حجزوا حوالى سبع عشرة سنة فى ببلوس حتى توفوا . ولم يكتف الحاكم الفينيقى بذلك بل عرض على ويناموں أن يطلعه على قبورهم فرفض ويناموں طبعا هذه الدعوة خوفا ووجلا ثم أجاب قائلا :

"اعلم أيها الحاكم أن تلك الرسل أتت من قبل آدميين . أما أنا فأتيت من قبــل المعبود آمون الذى أصبح الآن راضيا عنك ومعظما إياك لكرمك" .

بعد ذلك وعد ويناموں بدفع الباقى عليه وسار بالسفينة نحو مصر ، لكنه ما كاد يترك الشاطئ حتى اعترضته احدى عشرة سفينة تكالية معها أوامر بالقبض عليه لا لسبب سوى استرداد الفضة التى أخذها من التكاليين وقت مروره بمدينة صور على طريقه لببلوس . عندئذ فقد ويناموں كل رجاء وألقى بنفسه على الشــاطئ باكيا فأشفق القوم عليــه حتى زكربعل نفسه الذى أخذ يطمئنه وأرسل اليه نبيذا وطعاما وغانية مصرية تفرج عنه الهموم . وفى اليوم الثانى حجز أمير ببلوس سفن التكاليين حتى هرب ويناموں فى سفينته ، لكن عاصفة هبت على البحر أضلت الرســول المصرى الطريق وقذفت بسفينته على شاطئ قبرص ، فاجتمع عليه أهــالى الجزيرة وهموا بقتله بجوار قصر الملكة هاتيبا (Hatiba) حاكمة قبرص . ومن حسن حظ ويناموں أن صادف انتقال هذه الملكة وقتئذ من قصرها القريب من الحــادثة الى قصر آخر فاعترضها ويناموں فى الطريق ووجد شخصا قريبا يجيد المصرية فرجاه ويناموں أن يفهم الملكة حاله قائلا : "قل لسيدتى أنه بلغنا حتى فى طيبه أن الظلم والحيف حاصل فى كل بلد ما عدا قبرص (Alasa) . لكننى تحققت الآن أن الظلم يحصل هنا أيضا كل يوم" فأجابته الملكة فى دهشة "هل هذا صحيح ؟ ماذا تقول أيها الرجل ؟" فأجابها ويناموں قائلا : "كنت مسافرا بالبحر فهبت على عاصفة قذفت بى الى هــذه الجزيرة فأراد أهلها قتلى وأنا رسول آمون ولن يدخر قومى جهدا للبحث عنى وتخليصى . أما بحارة حاكم ببلوس الذين معى فى السفينة فانى أؤكد أن ذلك الحاكم لا يعدم وسيلة فى إيجاد عشرة من بحارة قبرص يقتلهم تشفيا وانتقاما اذا ما تعرض سكان جزيرتك لهم" . بعد ذلك طلبت الملكة مقابلة بحارة سفينة ويناموں وأمرته بالذهاب والنوم مستريحا .

الى هنا انتهت معلوماتنا عن هذه الرحلة ومنها يلاحظ أن الرسول المصرى عجز عن صيانة نفسه. وقد كان فراعنة مصر السابقون يحققون مع ملك قبرص (الذى كان تابعا لهم) عن كل تعد يحصل على أى مصرى بتلك الجزيرة . ويلاحظ أيضا أن وينامون لم يذكر لملكة قبرص شيئا عن فرعون مصر فى حين أنه هددها بانتقام أمير بيلوس ومصر معا .

ان الانسان لا يكاد يصدق حصول هذه التغيرات فى مدة يسيرة لا تتجاوز أربعين سنة بعد وفاة رمسيس الثالث ذلك الفرعون الذى هزم أساطيل سكان البحر الأبيض المتوسط مجتمعين فى معركة بحرية هائلة فى المكان نفسه الذى أهين فيه وينامون . وتعتبر رواية وينامون هذه أكبر برهان على اضمحلال النفوذ المصرى فى تلك الجهات الأجنبية[١] وعلى سرعة انحطاط الدولة الداخلى فى المدة اليسيرة التى حكمها خلفاء رمسيس الثالث الضعاف. ويرجح بعض الأثريين أن ملك آشور المدعو تجلات بليسر (Tiglath-pileser) اقترب من مصر وقتئذ (حوالى عام ١١٠٠ قبل الميلاد) فخاف منه نسوبانبدد ملك مصر وأرضاه بهدية وتسامح كى يبتعد عنه ولا يمسه بسوء. هكذا انعدم نفوذ مصر بسوريا تماما أما نفوذها على فلسطين فلم يكن الا اسميا تتناقله ألسنة رجال حاشية الملك فقط . وسنرى أن ملوك مصر حاولوا استرداد تلك البلاد عدة دفعات بعد ما تألفت بها المملكة اليهودية .

لا يخفى أن الانقلابات الداخلية فى القطر ألقت بطيبه فى طريق لا مناص من ولوجه . أما هذه الانقلابات فعديدة ، منها ارسال رئيس كهنة آمون المدعو حريحور رسوله وينامون لإحضار خشب الأرز من فينيقيا للمعبود آمون بعد ما كانت الرسل ترسل باذن فرعون . ثم زاد نفوذ هذا الكاهن فى السنة التالية فأرسل بعض رجاله لإصلاح ما أفسدته أيدى النهابين بجثتى سيتى الأول ورمسيس الثانى فى السنة الأولى من حكم رمسيس العاشر[٢] . وأكمل حريحور بناء معبد خونسو (شكل ١٨٣) الذى بنى فيه رمسيس الثالث قدس الأقداس وبعض الحجرات الخلفية . أما عمارات حريحور التى شيدها بالمعبد المذكور فعبارة عن حوش وإيوان ذى عمد وصرح، ولا تزال جدر هذه العمارات تشهد بتغيير أحوال مصر الداخلية الادارية ، فالنقوش والدعوات المكتوبة على أعالى جدر إيوان هذا المعبد الكبير سجلت على الطريقة القديمة وعلى الأسلوب المعهود للملكة القديمة . واليك ترجمة بعضها :

"ليحى الملك رمسيس الثانى عشر ! لقد شيد لوالده خونسو المتطيب بطيبه هذا الإيوان لأول مرة المسمى حامل التيجان واستعمل فى ذلك الأحجار الجيرية الجميلة فازدان بها المعبد الى أبد الآبدين . ولم لا يكون ذلك وقد شيده رمسيس الثانى عشر ابن الشمس لهذا المعبود"[٣] .

أما أسفل جدر هذا الإيوان فيحوى نقوشا لم يسبق وجود مثلها فى عهد فرعونى واليك ترجمتها :

"رئيس كهنة آمون رع ملك المعبودات قائد قوات جيوش الوجه القبلى والبحرى الرئيس حريحور الظافر ، لقد شيد هذا الأثر لأجل خونسو المتطيب بطيبه فعمل له بذلك أول معبد من نوعه فى أفق السماء . . . ."[٤] .

---

(١) ٤ : ٥٥٧ — ٥٩١ (٢) ٤ : ٥٩٢ — ٤ (٣) ٤ : ٦٠٢ (٤) ٤ : ٦٠٩

لا مراء اذن فى أن هذا القائد لجيوش الوجه القبلى والبحرى هو الذى شيد هذا الإيوان . ومن غرائب هذا البناء أيضا أن النقوش البارزة على حافتى الباب الموصل ذلك الإيوان بحوش المعبد تمثل المعبود محتفلا به وأمامه رئيس الكهنة حريحور يقود الاحتفال ويحرق البخور للعبود ، وهو مركز كان يقوم بأعبائه فرعون مصر دون سواه ، ولذلك جاء رسم حريحور بالصفة المذكورة مخالفا العادة المتبعة على الآثار المصرية منذ آلاف السنين . والأدهى من هذا أن الدعوات والتوسلات الاعتيادية التى كان يقولها المعبود لفرعون مصر ذكرت على جدر معبد خونسو مقولة على لسان المعبود وموجهة الى الكاهن حريحور[1] . وهذه حادثة تذكرنا تماما بما حصل أيام ذهبت سلاطين مصر الى بغداد وأحضرت الخليفة الى القاهرة وأبقته بها مدة قصيرة . وقد عثر على نص خطاب أرسله رمسيس الثانى عشر الى والى النوبة فى السنة السابعة عشرة من حكمه استدل منه على أنه كان محتفظا بنفوذه هناك[2] . لكن الرسمين الموجودين على باب معبد خونسو السالف الذكر يمثلان الكاهن حريحور فى مركز وال فى عهد رمسيس الثانى عشر فجاء هذا اثباتا لاحتكار هذا الكاهن لسلطة الملك على السودان أيضا[3] . وقد سبق أن ذكرنا عند الكلام على تاريخ أواخر أيام الأسرة التاسعة عشرة أن آمون وضع يده على مناجم الذهب بالنوبة[4] والآن يتضح لنا أن حريحور رئيس كهنة هذا المعبود بسط نفوذه على أعالى النيل أيضا . وعثرنا أيضا على نقوش بمعبد خونسو تشير الى أن حريحور شغل وظيفة "مدير مخازن غلال الوجه القبلى والبحرى" وهو المركز الوحيد الذى يلى فى الأهمية مركز رئيس المالية لأن القمح كما لا يخفى أهم مصادر الثروة فى مصر .

يتضح من ذلك أن رئيس كهنة آمون وضع يده على كل الأمور الادارية والدينية تقريبا ولم يبق أمامه شىء يستحق الذكر لأنه أصبح الان قائدا لقوات مصر وواليا على كوش ورئيسا للخزانة ومشرفا على عمارات المعبودات . وبعد مضى سبع وعشرين سنة على حكم رمسيس الثانى عشر الاسمى كان كل شىء تقريبا ناضجا لتسلم حريحور رئيس كهنة آمون تاج العرش المصرى ، ففى احدى الحفلات الدينية اعترف المعبود خونسو بتولية حريحور ملكا على مصر ثم أيده فى ذلك آمون فأصبح هذا القرار أمرا واقعيا .

هذه القصة منقوشة باختصار وغموض على باب معبد خونسو[5] المذكور آنفا وتعتبر هذه النقوش الآن برهانا ساطعا على انتقال السلطة الحاكمة من فرعون الى رئيس كهنته . والزائر الآن لمعبد خونسو يمر فى الإيوان الداخلى فيجد اسمى حريحور ورمسيس الثانى عشر منقوشين على جدره ، ثم يمر بالحوش الأمامى فلا يجد فيه أثرا لفرعون مصر بل يشاهد حريحور مرسوما بوضوح وجلاء مكتوبا اسمه فى خانة ملكية مسبوقة بالألقاب الفرعونية . ومنذ ذلك الوقت بقى اسم رمسيس مستعملا بين الرعية اثباتا لقرابة حامله بالرعامسة العظام دون اشارة الى سلطة أو نفوذ كما كانت الحال فى الزمن السابق .

---

(1) ٤ : ٦١١ (2) ٤ : ٥٩٥ — ٦٠٠ (3) ٤ : ٦١٥ (4) ٤ : ٦٤٠ (5) ٤ : ٦١٤ — ٦١٨

الفصل الخامس والعشرون

الكهنة والجنود المأجورة : سيادة الليبيين

أثر استقلال طيبه الديني كثيرا في كيان الامبراطورية المصرية لأنه جاء بمثابة انهيار صرح مجدها وانفكاك عرى مملكتها ، وأصبح كهنة آمون يحكمون بأنفسهم لكن لم تتعد سلطتهم قسم طيبه وما حوله . وبالنسبة لبسط نفوذ الكهنة على جميع أنحاء القطر نشأت منازعات ومشاكسات داخلية نجم عنها انقسام القطر وانحلاله ، وقد بدأ التغير منذ عهد نسو بانبدد و حريحور في أواخر القرن الحادي عشر قبل الميلاد واستمر نحو أربعمائة وخمسين سنة . وتمادى حريحور في ادعاءاته فقال انه أصبح ملكا ذا سيادة مطلقة، لكن هذا القول بعيد عن الصواب كثيرا[1] . ولم يكتف بذلك بل ازداد تبجحا وادعى أن نفوذه امتد الى سوريا حتى سجد أمراء تلك الجهات له كل يوم خوفا من سلطته و بأسه العظيمين[2] . وقد أفادتنا الأخبار الواردة ضمن قصة ويناموون الشجاع الخاصة بسياحته الى مدينتي دور وبيلوس أشياء كثيرة عن أحوال تلك العصور . والمعروف أن حريحور لم يتبع سياسة الشدة والحزم ليخضع بها أمراء سوريا بل اكتفى بحكومة زمنية وروحية بسيطة جدا .

لقد تدخل آمون في شؤون الامبراطورية المصرية أيام حتشبسوت وتحوتمس الثالث فملك الأخير عرش مصر كما أنه كلف حتشبسوت اقامة المسلات وارسال البعثات الى الصومال لإحضار الخيرات له ، لكن هذا التدخل حصل بصفة استثنائية فلم يكن مطردا ولا كثيرا . فلما تولى حريحور الحكم تدخل هذا المعبود في أمور الدولة بشدة لدرجة تحتم أخذ رأيه في كل شؤون المملكة ، فالأمر الذي يوافق عليه آمون كان يحرك له رأس تمثاله الى الأمام بقوة ويشفع ذلك بالنطق الإلهي . وزاد تدخل آمون فصارت وصايا ومواريث أفراد الأسر لرؤساء كهنة آمون تسجل بناء على طلب هذا المعبود[3] ، وبهذه الكيفية انصبغت الأمور الأهلية بالصبغة الدينية .

ثم اتسع الخرق فأصبح آمون يصدر أمره بارجاع المعتقلين السياسيين الى وطنهم ويفصل في الجنايات ويحكم بالإعدام على المجرمين . من ذلك أن موظفا بأحد المعابد اتهم بتبديد أموال معبده فحوكم أمام آمون ودون الحكم في سجلات ذكر بأحدها أن الموظف المذكور مذنب وكتب في آخر أنه برىء وترك الأمر للمعبود ، فأصدر هذا حكمه بتناول السجل الواردة فيه براءة المتهم وبذا برئت ساحة الموظف . والسبب في ذلك أن رئيس الكهنة كانت له مصلحة في الأمر فدبر هذا التدبير[4] . من ذلك يتضح أن رئيس كهنة آمون حكم البلاد بالشعوذة بلا اعتبار العدل والقانون مستندا في تنفيذ أوامره الى مساعدة آمون .

---

(1) ٤ : ٦٢٠ (2) ٤ : ٦٢٣ (3) ٤ : ٧٩٥ (4) ٤ : ٦٧٠ — ٦٧٤

ولما كان حريحور طاعنا فى السن وقت توليه عرش مصر (عام ١٠٩٠ قبل الميلاد) لم يعش طويلا بعد رمسيس الثانى عشر، فتبعه فى الحكم ابنه باى عنخ (Payonekh) الذى كان أيضا طاعنا فى السن فلم يجسر على الانفراد بالحكم ضد نسو بانبدد الذى أخذ يبسط نفوذه لمدة قصيرة على القطر المصرى . قال مانيتو ان نسو بانبدد التنيسى هو المؤسس للأسرة الحادية والعشرين ، لكن هذا خطأ تاريخى يرجع سببه الى جهل هذا المؤرخ باستقلال طيبه وقتئذ[١] .

وتوفى باى عنخ فتبعه فى الملك باى نزم (Paynozem) الأول[٢] الذى حكم فى طيبه واستقل بها . فى ذلك الوقت توفى نسو بانبدد فتبعه فى حكم تنيس پسيب خنو (Pesibkhenno) الأول وهو على الأرجح ابنه . والمعروف أن باى نزم عجز عن استرجاع العرش المصرى الذى استولى عليه جده، لكنه استعمل الشدّة فى حكمه بطيبه فأكمل معبد خونسو وأصلح بعض المعابد القديمة[٣] وجمع جثث ملوك مصر المدفونة بجبانة طيبه الغربية بمقبرة سيتى الأول حفظا لها من عبث اللصوص[٤] والسبب فى ذلك أنه عجز عن ابعاد اللصوص عن تلك المقابر فلجأ الى ما لجأ اليه أخيرا .

وركن باى نزم بعد ذلك الى طريقة سياسية ماهرة فاقترن بكريمة ملك تنيس المدعو پسيب خنو الأول فلما توفى هذا عام ١٠٦٧ قبل الميلاد اعتلى باى نزم عرش مصر مستعملا فى ذلك حقه المكتسب عن طريق زوجته، فضم بذلك الوجهين القبلى والبحرى تحت سلطته . ثم عين ابنه رئيسا لكهنة آمون بطيبه ، لكن هذا النجل توفى فعين ابنا آخر مكانه . وكان لباى نزم ابن ثالث يدعى من خپر رع (Menkheperre) عينه فى السنة الخامسة والعشرين من حكمه رئيسا لكهنة آمون[٥] بعد نضال شديد مع خصومه . ودليلنا على وجود هذا النضال أنه لما عين من خپر رع رئيسا لكهنة آمون أصدر آمون أمره بالعفو عن بعض المعتقلين السياسيين باحدى الواحات . ولم نهتد للآن عن سر هؤلاء المعتقلين ويظهر أن العفو صدر ارضاء لأهالى طيبه الذين ظهروا وقتئذ بمظهر الثورة والعصيان كما حصل أيام البطالسة[٦] .

وحكم باى نزم أربعين سنة تقريبا متخذا تنيس مركزا له . وكان ابنه من خپر رع رئيسا لكهنة آمون بطيبه طول هذه المدة . فلما توفى باى نزم نحل ابنه بعض الألقاب الفرعونية وذلك عام ١٠٢٦ قبل الميلاد[٧] لكن هذا الابن لم يعتل عرش مصر لأن شخصا آخر يدعى أمن إم أوپت (Amenemopet) اغتصب منه العرش . ويرجح كثيرا أن هذا الأخير لم يكن متصلا بعلاقة دموية مع باى نزم والحقيقة أننا لا نعلم شيئا من أعمال باى نزم الذى حكم حوالى نصف قرن . انما الثابت أن هؤلاء الملوك التنيسيين لم يكونوا عظماء ولا محبين للعمارات الضخمة ، مع استثناء ما شيده پسيب خنو من الجدار الشامخ البالغ سمكه ثمانين قدما والقائم حول معبده بتنيس[٨] . ويرجح جدا أن القرن ونصف القرن الذى حكم فيه هؤلاء الملوك التنيسيون كان مقرونا باضمحلال الصناعة

---

(١) ع : ٦٢٧ و ٦٣١ (٢) ع : ٦٣١ (٣) ع : ٦٣٣ — ٥ (٤) ع : ٦٤٢ (٥) ع : ٦٥٠
(٦) ع : ٦٥٠ — ٥٨ (٧) ع : ٦٦١ (٨) Petrie, Tanis I, 19

وتقهقر حالة البلاد الاقتصادية لأن هؤلاء الحكام لم يظهروا استعدادا الى الرق والتقدم والنشاط . ورغم جهلنا بأحوال البلاد الاقتصادية فى تلك العصور وقبلها لنتمكن من مقارنتها فاننا متيقنون أن ثمن الأراضى كان وقتئذ منخفضا جدا ، فقد بيعت قطعة أرض مساحتها ستة أفدنة ونصف تقريبا بجهة العرابة بمبلغ ألف وأربعمائة قمحة فضة[1] . ومن مآثر نسوبانبدد أنه أرسل الى طيبه عددا عظيما من المال لإصلاح التلف الذى لحق بمعبد آمون أثر فيضان النيل وقتئذ[2] لكنه لم يعمل هو ولا أقرانه شيئا يذكر فى تنيس عاصمة المملكة المصرية التى كانت تنتقل باطراد من سيء الى أسوأ . وكل ما فعله ملوك تنيس أنهم باهوا وافتخروا بأعمال أجدادهم العظام وتباروا مع رؤساء كهنة آمون فى حفظ جثث هؤلاء الأجداد .

ثم توفى أمن إم أوبت وتولى بعده سيامون (Siamon) فنقلت فى مدته موميات رمسيس الأول وسيتى الأول ورمسيس الثانى من مقبرة سيتى الأول الى مقبرة الملكة إن حاپى (Inhapi)[3] . أما اضطراب الأمن وانعدام النظام فقد استمرا سائدين . ولما تولى پسيب خنو الثانى آخر الملوك التنيسيين على مصر أسرع فى نقل الموميات الملكية الى مقبرة حفرها أمنحتب الأول لنفسه ولم يستعملها (على الأرجح) بالقرب من الديرالبحرى (شكل ١٧٩) وبقيت هذه الموميات مدفونة بتلك المقبرة حتى عثر عليها حديثا . وكتب الكتاب الذى تعهدوا نقل هذه الموميات قديما ملاحظات على توابيتها ذكروا فيها تاريخ النقل كما فعل من سبقهم من الكتاب وقت نقل الموميات السابقة الذى حصل قبل ذلك الوقت بمائة وخمسين سنة تقريبا (شكل ١٧٨)[4] . ولا تزال هذه النقوش الباقية على الموميات الملكية وتوابيتها التى كتبت على مدة دفعات وقت النقل من مقبرة لأخرى حفظا لها من عبث اللصوص برهانا ساطعا على انحطاط الأمن والنظام فى تلك العصور المتأخرة . وآخر مرة ختمت فيها هذه المقبرة يرجع تاريخها الى السنوات الأخيرة من حكم الأسرة الثانية والعشرين (أى حوالى سنة ٩٤٠ قبل الميلاد) . وبقيت موميات هؤلاء الملوك العظام بتلك المقبرة محفوظة مدة ثلاثة آلاف سنة تقريبا حتى عام ١٨٧١ أو ١٨٧٢ ميلادية لما توصل اليها بعض لصوص المقابر بالأقصر، وهم سلالة أجدادهم الذين احترفوا باللصوصية قبلهم أيام رمسيس التاسع ، وقد ألمعنا الى ذلك سابقا لما تكلمنا على محاكمة هؤلاء الأئمة المجرمين . ومما هو جدير بالذكر أن الحكومة الحالية أجبرت الجناة على الاعتراف بجرمهم بالطريقة نفسها التى اتبعتها حكومة رمسيس التاسع سابقا . وهكذا ظهرت للعالم تلك الموميات بعد ما خبئت لمدة تسعة وعشرين قرنا . وتقدر المدة التى مضت على أقدم هذه الجثث المحنطة بحوالى ثلاثة آلاف سنة . ويمكن القارئ الآن أن يرى هذه الموميات الملكية (لأنها معروضة للزائرين بدار التحف المصرية بالقاهرة) وعند ذلك يتذكر ما قام به أصحابها من الأعمال الخالدة التى ذكرناها والتى يرجع تاريخها الى حوالى ثلاثة آلاف سنة تقريبا .

---

(1) ٤ : ٦٨١ (2) ٤ : ٦٢٧ ملاحظة (3) ٤ : ٦٦٤ — ٧ (4) ٤ : ٦٩١ — ٢

وكانت السياسة الخارجية أيام الأسرة الحادية والعشرين ضعيفة كسياسة الأسرة العشرين والظاهر أن مصر حافظت على نفوذها فى النوبة . أما فى سوريا فكانت علاقتها تنطبق تماما على الوصف الوارد فى قصة ويناموں التعس عند مقابلته لحاكم بيلوس . ولم يكن لمصر سيادة على فلسطين إلا بالاسم تلوكها ألسن رجال القصر الفرعونى وقد استمرت كذلك مدة قرن تقريبا .

ويلاحظ أنه فى الوقت الذى انحط فيه نفوذ مصر بفلسطين أخذت قبائل بنى اسرائيل تجمع كلمتها وتبسط نفوذها على البلاد المجاورة فكونت لها وطنا بفلسطين تحت ادارة شاول (Saul) وداود (David) . وللآن لم نتأكد اذا كان هذا الأمر تم بمساعدة المصريين بقصد اخضاع أعدائهم المستوطنين بشواطئ تلك الجهات ، والسبب فى هذا الجهل قلة ما لدينا من الأخبار التاريخية المنبئة بعلاقة مصر السياسية بآسيا وقتئذ . أما أخبار أهالى البحر الأبيض المتوسط فقد انعدم ذكرها على الآثار المصرية فلم نسمع عنهم شيئا . وأما الليبيون فقد بسطوا نفوذهم بسهولة على الوجه البحرى بطريق المهاجرة السلمية ، ومما ساعد على ذلك زيادة الجنود الليبية المأجورة بالجيش المصرى باطراد . ولما كان جزء الجيش المعسكر بالدلتا لحفظ النظام هناك تحت ادارة رئيس كهنة آمون وتحت قيادة ضباط مشواشيين قابضين على قلاع تلك الجهة فقد قوى نفوذ المشواشيين هناك . وحصل فى عهد الأسرة الحادية والعشرين هناك أن أحد الليبيين (التحنو) المدعو بيواوا (Buyuwawa) استوطن مدينة إهناس (Heracleopolis) فرزق ولدا يدعى موسن (Musen) عين بعد ذلك فى وظيفتى معبد إهناس وقائد حرس تلك المدينة . بعد ذلك صارت هاتان الوظيفتان وراثيتين مقصورتين على أفراد هذه الأسرة[1] . ثم رزق موسن هذا بنجل يدعى شيشُنق (Sheshonk) لقب "رئيس المشواش العظيم" وكان قويا ثريا حتى أنه لما توفى ابنه المدعو ناملوت (Namlot) دفنه فى العرابة باحتفال عظيم ووقف له خيرات كثيرة من أراض وحدائق وعبيد وخدم وقرابين يومية . بعد ذلك اتضح له حصول تلاعب من الرؤساء الموكول اليهم تنفيذ هذه الخيرات فتوسط لدى ملك (لا نزال نجهل اسمه) من ملوك الأسرة الحادية والعشرين ليعاقب المهملين وليصدر بذلك أمرا من آمون بطيبه[2] . ويرجح كثيرا أن يكون القواد الليبيون بالدلتا جروا على هذا المثال حتى أصبح لهم نفوذ يجارى نفوذ شيشُنق المذكور ، أو بعبارة أخرى حتى استأثروا بالسلطة فى أيديهم تدريجا . واستمرت الأسرة الحادية والعشرون فى الضعف المطرد مدة حكمها البالغة مائة وخمسين سنة تقريبا كانت فى أثنائها ذرية بيواوا بمدينة إهناس تظهر وتعظم ، فتمكن أحد أفرادها وهو شيشُنق حفيد شيشُنق السالف من قيادة أسرته الليبية ونشر نفوذها (على الأرجح) على الأراضى المجاورة الى قسم منف شمالا وقسم أسيوط جنوبا . وفى عام ٩٤٥ قبل الميلاد تمكن رئيس هذه الأسرة من الاستيلاء على عرش مصر والتربع فيه بمدينة تل بسطه شرقى الدلتا[3] . ويعتبر هذا التغير الملكى إما نتيجة ضعف آخر ملوك الأسرة الحادية والعشرين ، وأما نتيجة وفاته وانقراض ذريته .

---

(1) ٤ : ٧٨٥ — ٧٩٢ (2) ٤ : ٦٦٩ — ٦٨٧ (3) ٤ : ٧٨٥ ملاحظة .

واعتبر ما نيتو شيشُنق هذا مؤسس الأسرة الثانيـة والعشرين ، ومن ذلك يتضح أن الليبين تمكنوا هـذه المرة من التربع على العرش المصرى بلا تعب ولا حاجة الى امتشاق الحسام بعد مضى مائتى سنة تقريبا من وفاة رمسيس الثالث الذى سحقهم سحقا لمـا علم بنواياهم الخبيثة نحوه . وبديهى أن انتقال العرش تدريجيا من أيدى الفراعنة الى أيدى ضباط أجانب صحبه أيضا انتقال تدريجى فى ادارة الحكومة الى أيدى الكهنة . لكن حكم الأخيرين تقوض بسرعة أما حكم الضباط الأجانب فدام مدّة أطول ، بالرغم من أن نفوذ هاتين الطائفتين كان موطدا فى البلاد بدرجة متعادلة تقريبا منذ أيام الأسرة الثامنة عشرة .

وبمجرد جلوس شيشُنق على عرش مصر حصر هـذا الشرف الرفيع فى أفراد أسرته ، وتوصل الى ذلك بأن زوّج نجله بكريمة پسيب خنو الثانى التنيسى آخر ملوك الأسرة الحـادية والعشرين ، بذلك منح ابنـه حقا شرعيا لتولى عرش مصر بعد وفاته وذلك عن طريق زوجته[1] . والمعروف عن شيشُنق هـذا أنه كان حاكما قويا شجاعا نهض بمصر وعزم على استرجاع عزها القديم وتاريخها المجيد . ولـما كانت البلاد فى حالة سيئة كان مجهود هذا الملك أشبه بمن يبنى عمارة عظيمة بأنقاض عتيقة . زد على ذلك أن القطر كان تحت نفوذ حكام المشواش المثيرين للفتن والقلاقل . ومما حسن الحالة نوعا أن هؤلاء كانوا يهابون شيشُنق ويعرفون أصله وكيفية توصله للملك ، لكنهم كانوا أيضا على يقين من أنهم لو اتبعوا خطة شيشنق هذا ربما توصلوا الى العرش المصرى أيضا . ولم نهتد للآن الى معرفة الأقاليم التى كانت تحت حكم قواد المشواش ، إنمـا يظن أن معظمها كان بالوجه البحرى وأن علاقتهم بفرعون مصر وقتئذ كانت أشـبه بعلاقة المماليك بسلاطين مصر المسلمين . أما الوجه القبلى فكان منقسما الى إمارتين : إمارة إهناس الواصلة الى أسيوط جنوبا ، وإمارة طيبه الممتـدة من أسيوط شمالا حتى الشلال الأول جنوبا ويرجح أنها كانت تشمل النوبة أيضا .

من ذلك يتضح أن القطر المصرى انقسم وقتئذ الى ثلاث إمارات أشـبه بما حصل فى عهد البطالسة والرومان[2] . أما نفوذ شيشنق فكان مبسوطا على قسم إهناس لكنه كان على وفاق ووداد مع رؤساء كهنة پتـاح بمنف . وقبل انتهاء السنة الخامسة من حكمه انضمت طيبـه تحت لوائه[3] لكنها كانت أشبه بمستقلة قادرة على مقاومة الأسرة الحـاكمة بالوجه البحرى ، وأراد شيشنق أن يستفيد بمساعدة هذه المدينة فعين ابنه رئيس كهنة آمون هناك[4] والمعروف أن طيبه كانت معفاة من الضرائب كما أن موظفى مالية حكومة الدلتا الاداريين لم يزوروا تلك المدينة رسميا[5] . وعليه فقطر هـذه حاله يسهل شبوب الفتن فى إماراته الثلاث فى أى وقت بمجرد زوال سلطة قائده الأعلى الشديد ألا وهو شيشنق الأول .

وأخذ شيشنق الأول يبسط نفوذ مصر على فلسطين حتى جعل سيادته هناك فعلية بعد أن كانت اسمية . والظـاهر أن سليمان الحكيم كان واليا وقتئذ تحت النفوذ المصرى هناك ويرجح أنه تزوج

(١) ٤ : ٧٣٨ (٢) ٤ : ٧٤٥—٧ (٣) ٤ : ٧٠٠ (٤) ٤ : ٦٩٩ (٥) ٤ : ٧٥٠

بكريمة فرعون الذى أوسع له الأقاليم تحت اشرافه يضم مدينة جازر المهمة اليه[١] ، وقد ألمعنا سابقا الى هذه المدينة لما تكلمنا عن الملك منفتاح قبل العصر الذى نحن بصدده بحوالى ثلثمائة سنة . فى ذلك الوقت عجز بنو اسرائيل عن اخضاع هذه المدينة ، لكن لما شق أميرها الكنعانى عصا الطاعة على شيشنق الأول استولى جلالته عليها عنوة وأحرقها ثم أهداها الى سليمان الذى شيدها من جديد[٢] . وبديهى أن مثل هذا العمل لا يمكن نسبته الى ملوك الأسرة الحادية والعشرين الضعفاء ، بل المرجح كثيرا أن الذى استولى على مدن عظيمة بفلسطين مثل جازر وأحرقها هو ملك قوى شجاع عظيم ، ولم يتصف بذلك فى تلك العصور سوى شيشنق الأول .

ولما انقسمت مملكة اليهود فى عهد رحبعام (Rehoboam) الذى خلف سليمان رأى شيشنق أن الوقت حان لبسط نفوذه على فلسطين كلها . وفى ذلك الوقت التجأ يربعام (Jeroboam) العدو الشمالى لرحبعام الى شيشنق الأول طالبا حمايته ، فتوجه شيشنق الى فلسطين وغزاها وكان ذلك فى السنة الخامسة لحكم رحبعام (حوالى عام ٩٢٦ قبل الميلاد) . والمعروف أن جلالته لم يذهب الى أبعد من حد شاطئ بحر الجليل شمالا وماهنايم (Mahanaim) التى هى بوادى الأردن شرقا (على الأرجح)[٣] . وليلاحظ القارئ أن الجنود المصرية مضى عليها الى ذلك الوقت مائتان وسبعون سنة لم تطأ أقدامها الأرض الأسيوية ، فلما وصل شيشنق الى آسيا أرسل قواته الليبية لتنهب مدن سهل يزرل (Jezreel) بادئة برهوب (Rehob) شمالا ومخترقة حفرايم (Hapharaim) ومجدو وتناخ وشونم (Shunem) حتى بيت شين (Beth-Shean) شرقى وادى الأردن . أما فى الجنوب فسلبت الجنود برازا (Yeraza) وبيت حورن (Beth-Horon) وأيالونا (Ajalon) وجبيون (Gibeon) وسكو (Socoh) وبيت أنوت (Beth-Anoth) وشرحان (Sharuhen) وأراد (Arad) ، والموقعان الأخيران يحددان منتهى ما بلغه الليبيون وقتئذ جنوبا .

جاء فى كتاب الملوك الأول بالإصحاح الرابع عشر بالآية الخامسة والعشرين أن شيشنق ملك مصر صعد الى أورشليم وأخذ خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك وأخذ كل شىء وأخذ جميع أتراس الذهب التى عملها سليمان[٤] . لكن يستدل من قرائن الأحوال أن حملة شيشنق كانت موجهة الى المملكتين الأسيوتين فلم يقصد بها مملكة يهوذا (Judah) وحدها[٥] . وادعى شيشنق (شيشق) أنه بلغ أرض متانى (Mittanni) لكن ذلك لا بد أن يكون من قبيل الغلو والفخر فقط ، والسبب فى ذلك أن مملكة متانى انعدمت من الوجود فلم يعد لها أثر وقتئذ[٦] . ومما ادعاه شيشنق أيضا أنه استولى على الجهة المعروفة "بحقل ابراهيم" وهذا الاسم هو أقدم عبارة ورد بها اسم ابراهيم علم بنى اسرائيل (شكل ١٨٠) . وعاد شيشق (شيشنق) بعد غزوته بغنائم عظيمة بجدد بذلك عهد

---

(١) ١ ملوك ، ٩ : ١٦ (٢) ١ ملوك ، ٩ : ١٥ — ١٧

(٣) ٤ : ٧٠٩ ملاحظة وأيضا مقالى فى : Amer. Jour. of Sem. Lang., XXI, 22-36

(٤) ١ ملوك ، ١٤ : ٢٥ (٥) ٤ : ٧٠٩ — ٧٢٢ (٦) ٤ : ٧١٠

فراعنة مصر الأقدمين، ونقش جلالته على جدر الكرنك بطيبه الجزية التي تقاضاها من فلسطين والنوبة (اللتين خضعتا له وقتئذ) بالقرب من نقوش ملوك مصر العظام[١] ثم عين جلالتـه حاكما لليبيا على الواحة الكبرى وعهد الى أحد الرؤسـاء الليبيين فى الإشراف على غربى الوجه البحرى وطرق مواصلاته البرية مع الواحات[٢] . وهكذا رجع لمصر لأمد قصير بعض مجدها القديم الذى شاهدته زمن الامبراطورية فى عهد الأسرة التاسعة عشرة لما أخذت ترد على خزائنها جزية الأقاليم الواسـعة الممتدة من شمالى فلسطين شمالا الى أعالى النيل جنوبا، ومن الصحارى الغربية غربا الى البحر الأحمر شرقا . ولمـا ضخمت المـالية شيد شيشنق العمارات الشـامخة كما فعل فراعنة مصر الأقدمون منذ مائتى سـنة تقريبا ، فاختط تل بسطه مقره ووسع الكرنك بطيبـه . وكان لشيشنق نجل يدعى يوبيت (Yewepet) عين رئيسا لكهنة آمون بطيبه ، وقد أرسل هذا الابن بعثة الى جبال السلسلة لقطع الأحجـار اللازمة ليشيد بها حوشا عظيما وصرحا شامخا بالجهة الغربية للكرنك كى يتم بناء هـذا المعبد ويكسوه شكلا بديعا من جهة النيل . وليلاحظ أن جدر جانبي الحوش وعمده أسست سابقا بعد انقراض الأسرة التاسعة عشرة بمدة، أما الصرح فلم يبدأ ببنائه الا فى عهد شيشنق . ولا يزال هذا الحوش أكبر أحواش المعابد للآن، يبلغ طوله ثلثمائة وأربع عشرة قدما وعرضه مائتين وتسعا وستين قدما . أما الصرح فشيد أمام وجهة هذا الحوش وهو أكبر صرح من نوعه فى القطر يبلغ سمكه ستا وثلاثين قدما وارتفاعه مائة وخمسين قدما ووجهته ثلثمائة وسـبعا وخمسين قدما (خريطة رقم ١١) .
وقصد شيشنق أن يحتفل ببناء هذا الصرح فى عيد مرور ثلاثين عاما على حكمه لكننا لم نهتد للآن اذا كان أنجز ذلك أم لا . والمعروف أنه لم يعش طويلا ليراه كاملا لأن الألواح الخشبية وأدوات البناء لا تزال مكدسة تحت كومات التراب والأحجار الساقطة بجوار الصرح . ومن الثابت أيضا أن حلية هـذا الصرح لم تتم فى عهد شيشنق . ووجدت نقوش بارزة على الباب الجنوبى للكرنك المعروف "بباب تل بسطه" للملك شيشنق قلد فيها ملوك العهد القديم ، فرسم نفسه فاتكا بالأسيويين أمام آمون ، ورسم معبود طيبه هذا وزوجته معبودة طيبه يقدمان له عشرة صفوف من الأسرى يبلغ عدد أفرادها مائة وستة وخمسين فلسطينيا رمز بكل منهم لمدينة من المدن التى استولى عليها جلالته وكتب تحت كل رجل منهم اسم المدينة التى يمثلها[٣] ، ووردت بين هـذه الأسمـاء بعض أعلام لمدن جاء ذكرها بالكتاب المقدس ألمعنا الى أهمها سابقا .

وفى سنة ٩٢٠ قبل الميلاد توفى شيشنق الأول وتولى بعده ابنه أوسركن الأول (Osorkon) زوج ابنة الملك بسيبب خنو آخر ملوك الأسرة الحادية والعشرين . وكان اعتلاء هذا الملك للعرش مطابقا للقوانين والعادات المتبعة، وكانت المملكة التى ورثها هذا الملك عن والده غنية واسعة الثروة حتى تمكن جلالته أن يتبرع لمعابد مصر فى السنوات الثلاث الأولى من حكمه تقريبا بما ينيف على أربعمائة وسبعة وثمـانين ألف رطل فضة ، ولما أضيف هذا المقدار الى ما تبرع به من الذهب بلغ المجموع خمسمائة وستين ألف رطل من المعدنين النفيسين[٤] ، وتعتبر هذه الهبات أعظم برهان على الغنى وبحبوحة الحيـاة بالقطر المصرى فى مبدأ الحكم الليبي . وأراد أوسركن أن يدعم حكمه بامارة إهناس فشيد

(١) ٤: ٧٢٢ – ٤ (أ) (٢) ٤: ٧٨٢ – ٤٠ (٣) ٤: ٧٠٩ – ٧٢٢ (٤) ٤: ٧٢٩ – ٣٧

قلعة حصينة عند مدخل الفيوم[١] واتبع سياسة والده فعين ابنه رئيسا لكهنة آمون بطيبه وقد توفى له نجلان عينا فى هذه الوظيفة وأخيرا عين نجله الثالث المدعو شيشنق أيضا فى هذه الوظيفة عينها . وقد ظهر هـذا النجل بمظهر الأبهة والجلال ونحل لنفسه الألقاب الفرعونية واحتفظ بمركز رئيس كهنة آمون لابنه[٢] . وفى سنة ٨٩٥ قبل الميلاد توفى أوسركن بتل بسطه فورثه فى الملك ابنه تاكلوت الأول (Takelot) . فلما اعتلى الأخير العرش وجد أخاه شيشنق بطيبه قويا شديد البأس معاديا له ، ثم توفى تاكلوت الأول بعـد مدّة يسيرة فتبعه فى الملك ابنه أوسركن الثـانى الذى بسط نفوذه على طيبه ثانيا وأصلح التلف الذى أصاب معبد الأقصر أثر فيضـان النيل العظيم وقتئذ[٣] . ويستدل من دعوات منقوشة على تمثال لأوسركن الثـانى بتنيس أن حالة مصر الداخلية كانت وقتئذ خطيرة للغاية ، فقد جاء فى هذه الدعوات أن جلالته تضرع الى المعبود ليخلد ذريته فى الحكم ويمنحهم السلطة على رؤساء كهنة آمون رع ملك المعبودات وعلى رؤساء المشواش العظام . . . . . . أو كهنة هرسافيس (Harsaphes)[٤] ، وهؤلاء الأخيرون هم أمراء ليبيون استوطنوا إمارة إهناس واليهم ينتمى أوسركن الثانى . ومما جاء أيضا فى هذه الدعوات العبارة الآتى ترجمتها :

"اجعل أولادى فى الوظائف التى عينتهم بها . ولا تجعل قلب أخ يتكبر و يعظم على قلب أخيه"[٥] ، ومنها يستنتج أن أفراد الأسرة الحاكمة كانوا يومئذ منشقين بعضهم على بعض ومتنافسين ، وأن قواد الجنود المأجورة كانوا دائما على استعداد لإثارة الفتن اذا أصابهم حيف أو رأوا فى أنفسهم القوة الكافية لتحسين مركزهم .

ولا جدال فى أن الحكام الليبيين تطبعوا تماما بالطباع المصرية ، فجد شيشنق الأول دفن ابنه بالعرابة واتبع العادات المصرية نحو الموتى فوقف على قبر ابنه الخيرات على حسب ما تقتضيه الديانة المصرية[٦] . وبالرغم من احتفاظ الحكام الليبيين بأسمائهم الأصـلية فانهم حافظوا على الألقـاب والعادات الفرعونية التى ألفها المصريون لمدة تقرب من ألف وخمسمائة سنة . أما القواد الليبيون فحافظوا على ألقابهم الليبية (كرئيس المشواش الأكبر) ، وقد اختصر هذا اللقب بعد ذلك فورد على الآثار بكثرة كرئيس مى (Me) الأكبر . وعبد الليبيون المعبودات المصرية وقدموا لها القرابين كالمصريين[٧] وذلك رغم أنهم من البربر وأنهم شديدو المخـالفة للمصريين . وليس أقوى برهانا على تطبع هؤلاء القوم بالطباع المصرية من الحوش العظيم الذى شـيده أوسركن الثـانى بتل بسطه احتفالا بمرور ثلاثين عاما على تعيينه وليا لعهـد المملكة المصرية جريا على عادة المصريين الأقدمين[٨] ، لكن هـذا لا ينسينا الخطر الداخلى الذى أخذ يهدد الليبيين فى تل بسطه ، فأحرج كثيرا من مركزهم . وأشرك أوسركن الثانى ابنه شيشنق الثانى معه فى الحكم لكنه لم يعش طويلا[٩] فاشرك معه ابنه الآخر تاكلوت لمدة سبع سنوات توفى بعدها فورثه تاكلوت وذلك عام ٨٦٠ قبل الميلاد ، وعرف هذا بعدئذ بالملك تاكلوت الثانى .

---

(١) ٤ : ٨٥٣ (٢) ٤ : ٧٣٨ (٣) ٤ : ٧٤٢ — ٤ (٤) ٤ : ٧٤٧ (٥) شرحه
(٦) ٤ : ٦٦٩ ملاحظة (٧) ٤ : ٧٨٢ — ٤ (٨) ٤ : ٧٤٨ — ٥١ (٩) ٤ : ٦٩٧ رقم ١٣ و ٧٧٢

من هذا التاريخ أخذت الأسرة الثانية والعشرون تضمحل تدريجيا كما يشاهد ذلك على آثار امارة طيبه التى تظهر بوضوح ما حصل بين حكام أقسام القطر وقتئذ من مشاحنات واضطرابات، من ذلك أن رئيس كهنة آمون المدعو أوسركن لما وصل الى طيبه فى السنة الحادية عشرة من حكم تاكلوت الثانى نقش على جدر الكرنك أعماله وعطاياه للعبد باسمه الخاص[1] . لكن بالرغم من محاولته إرضاء أهل طيبه وكهنتها وما صرفه عليهم من الهبات والعطايا بمعبد تلك العاصمة الدينية فان أهالى طيبه قاموا عليه قيامة انتشرت بعد ذلك فى الوجه القبلى والبحرى هرب على أثرها هذا الرئيس الكهنوتى ولم يرجع الا بعد مضى عدة سنوات أمضاها فى حروب ونزاع حتى اصطلح مع بعض أعوان والده، وبذلك تمكن من الرجوع الى طيبه وسط أسطول نيلى عظيم . عند ذلك قابله تمثال آمون فى احتفال عظيم ثم أصدر أمره اللاهوتى بالعفو عن أهالى طيبه لما أتوه من ثورة وعصيان. وبعد ذلك قام رئيس الكهنة بالإصلاحات والترميمات لمعبد آمون .

هذه المعلومات وردت مدونة باختصار بين نقوش رئيس كهنة آمون المذكور على جدر الكرنك[2] وهى تشير الى أن حكم الثلاثة الملوك الليبيين الآخرين الحاكمين من تل بسطه كان مشحونا بالانقلابات والاضطرابات مدة مائة سنة تقريبا . وقد تلفت تل بسطه تماما فلم نعثر فيها على أخبار تتعلق بهؤلاء الملوك . وليلاحظ أن الاضطرابات الداخلية لم تحصر وقتئذ على ما أوردناه سابقا بل تعدت ذلك، فان إمارتى إهناس وطيبه تشاحنتا أيضا بعضهما مع بعض، كما تشاحن أيضا بعض القواد الأجانب بالوجه البحرى مع بعض[3]، وهكذا أصبح القطر المصرى وقتئذ فى حالة أشبه بما كان عليها أيام المماليك لما كانت الضرائب تفرض على أهالى كل بقعة وتجبى بالقوة فيثور القوم ثم يمتشق الحسام بمعونة الجنود المأجورة فيرجع الأمن الى نصابه. ومن المؤكد أن نفوذ مصر بفلسطين وقتئذ انعدم. ودلتنا الآثار أن ظهور مملكة نينوى الغنية العظيمة أفزع أحد ملوك تل بسطه ، وهو تاكلوت الثانى على الأرجح، فأرسل هذا ألف مقاتل مددا الى اتحاد آسيا الغربى لمقاومة آشور ، لكن هذا الاتحاد ضعضعه شالمنصر (Shalmaneser) الثانى جهة قرقار (Qarqar) على نهر الأورونط وذلك عام ٨٥٤ قبل الميلاد .

ولم نهتد للآن الى معرفة نوع العلاقة التى ربطت الثلاثة الملوك الآخرين الذين حكموا فى تل بسطه بعد تاكلوت الثانى. أما هؤلاء الملوك الثلاثة فهم شيشنق الثالث وبمو (Pemou) وشيشنق الرابع ، والظاهر أنهم لم يرتبطوا بصلة ما بتاكلوت الثانى، والمعروف عنهم أنهم احتفظوا بمنف وطيبه وأن أسماءهم وجدت فوق بعض الآثار فى عدة جهات بالقطر . وقد هشم هؤلاء الملوك آثار مصر العظيمة بقسوة شديدة ، فحطم شيشنق الثالث تمثال رمسيس الثانى الضخم الذى كان بتنيس واستعمل أجزاءه أحجارا لتشييد صرحه العظيم بتنيس. ولا حاجة بنا أن نذكر أن أمراء الوجه البحرى سعوا فى الاستقلال بالحكم فى عهد هؤلاء الملوك ، وأن عددا كبيرا منهم قطع علاقته السياسية معهم قبل وفاة شيشنق الرابع آخر ملوك الأسرة الثانية والعشرين (حوالى عام ٧٤٥ قبل الميلاد) .

(1) ٤ : ٧٥٦ — ٧٠ (2) ٤ : ٧٦٣ — ٩ (3) ٤ : ٧٩٠

ولما توفى شيشنق الرابع ظهر بالدلتا أمير يدعى بدبست (Pedibast) بسط نفوذه على الأمراء الآخرين وانتزع الحكم من ملوك تل بسطه ، وقد اعتبره مانيتو مؤسس الأسرة الثالثة والعشرين . قال مانيتو ان هذه الأسرة الجديدة حكمت من تنيس لكن اسم بدبست يشير بلا مراء الى تل بسطه عاصمة الأسرة المعزولة ، زد على ذلك أن هناك أسبابا تجعلنا نحكم بأن بدبست حكم من تل بسطه كما سيأتى الكلام بعد ، وعليه فلا يبعد أن تل بسطه كانت عاصمة القطر وقتئذ . والمعروف أن بدبست قبض على ناصية الحال بطيبه حتى السنة الثالثة والعشرين من حكمه ، لكنه ورد أنه اضطر فى السنة الرابعة عشرة من حكمه أن يقتسم الحكم هناك مع أحد حكام شرقى الدلتا المدعو يوبت (Yewepet)[1] .

وبدار التحف بفينا درج بردى فيه حكاية تشير الى حدوث قلاقل واضطرابات داخلية كالمذكورة ، سببها أمراء مصريون مثل بدبست ويوبت . ومما جاء فيه أن أمير تمى الأمديد المدعو كا أمنحتب (Kaamenhotep) ناضل أمير عين شمس الأجنبى المدعو بمو (Pemou) لأن الأخير استولى على درع حديدى ثمين ملك الأول . وقد عجز بدبست عن حقن الدماء بين أمراء الدلتا الذين أخذوا ينتمون الى أحد هذين الأميرين على حسب ما تراءى لهم[2] .

ولما تولى أوسركن الثالث الملك بعد بدبست أخذت داخلية القطر تسوء فانقسمت البلاد الى عدة إمارات صغيرة مستقلة من الوجه البحرى شمالا الى الأشمونين جنوبا . وقد اهتدينا للآن الى أسماء ثمانية عشر أميرا[3] تقاتلوا ، فتدهورت مصر وانقسمت البلاد بذلك الى عدة أقسام صغيرة كما كانت عليه قبل حكم الأسر ، أى قبل انشاء حكومة ثابتة وطيدة بالقطر المصرى .

لذلك شلت القوة المصرية وانعدم وجودها فلم يعد فيها رجاء لمساعدة بنى اسرائيل ضد آشور . والحق يقال ان نبوءات أنبياء بنى اسرائيل وقتئذ عن مصر لم تكن فى حاجة الى كثير تفكير لأن ضعف القطر المصرى وانحلاله كانا واضحين جليين .

وبلغ من شدة انشقاق أمراء مصر بعضهم على بعض أنه لما اقتربت جنود تجلات بليسر (Tiglath-pilaser) الثالث الآشورى من حدود مصر فيما بين عامى ٧٣٤—٧٣٢ قبل الميلاد عجز هؤلاء الأمراء عن اسداء أى معاونة لبنى اسرائيل ، كما أنهم لم يفكروا مطلقا فى قرب ميعاد مجىء جيوش آشور وجواز عبورهم الصحراء الفاصلة مصر عن فلسطين واحتمال ضم مملكة وادى النيل الى آشور . ولكن شاء القادر أن يعتلى عرش مصر قوم أجانب آخرون قبل أن تضرب آشور ضربتها القاضية على بلاد الفراعنة الأماجد .

---

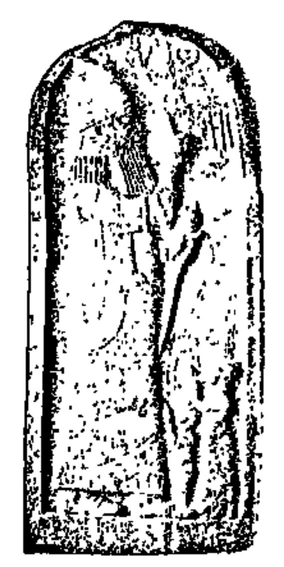
(١) ٤ : ٧٩٤ و ٨٧٨ رقم ٢

(٢) Wiener Zeitsch. für die Kunde des Morgenlandes, XVII, sequel to Mitth. aus der Samml. der Pap. Erzherzog Rainer, VI, 19 ff.

(٣) ٤ : ٧٩٦ ملاحظة و ٨٣٠ و ٨٧٨



شكل ١٨٠ – "حقل ابراهيم" اسم لمكان جغرافى وارد فى قائمة شيشنق الأول على جدار الكرنك وهذا النص هو أقدم ذكر لاسم ابراهيم فى الآثار



شكل ١٨١ – شاهد حجرى سنجرلى لآشور أخى الدين يمثل هذا الملك قابضا على بعل مدينة صور وعلى طهراقه الجاثى على ركبتيه . وتشاهد على الأخير ملامح الزنوج (دار متحف برلين)



شكل ١٨٢ – شاهد حجرى للملك بسامتيك الأول وجد بالسرابيوم مذكور عليه تاريخ وفاة العجل أبيس وذلك فى السنة الحادية والعشرين من عهد بسامتيك الأول . وكان عمر هذا العجل احدى وعشرين سنة وتاريخ ميلاده السنة السادسة والعشرون من حكم طهراقه

الفصل السادس والعشرون

سيادة إثيوبيا على مصر وانتصار آشور

استمرت مصر تحكم النوبة مدة تنيف على ألف وثمانمائة سنة . أما ما بين الشلالين الأول والثانى فبقى تحت الإدارة المصرية مدة تقرب من ألف سنة . وقد تقدم القول الى أن تلك البلاد انصبغت بالصبغة المصرية تماما فشيد بكل مدينة فيها معبد مصرى عظيم وعبدت بها المعبودات المصرية فى عهد رمسيس الثانى . وبالرغم من محافظة أهالى النوبة على لغتهم فان اللسان المصرى صار اللغة الرسمية وقتئذ بتلك البلاد وازداد انتشارا بين الأهالى بزيادة هجرة المصريين اليها .

منذ ذلك الحين فقه النوبيون الى أهمية بلادهم وكثرة خيراتها خصوصا لما رأوا المصريين يثرون أعالى النوبة الخصبة ويستغلون مناجم الذهب بأسفل النوبة . زد على ذلك أن موقع بلادهم الجغراف على الطريق التجارى العظيم بين مصر والسودان أوضح للنوبيين مع الأسباب السالفة عظم شأن بلادهم فأخذوا يبحثون عن حقوقهم الشرعية فيها . وليلاحظ أن الغارات العرضية التى شنها زنوج إفريقية وغربى الصحراء الشرقية على النوبة لم تؤثر مطلقا فى نمو البلاد ورقيها اقتصاديا .

والمعروف أن شيشنق الأول حافظ على النوبة[1] كما ورد أن رئيس كهنة آمون فى النصف الأخير لحكم تاكلوت الثانى وهب الى آمون ذهب النوبة[2] ولذلك يرجح أن اقليم الشلالات استمر تحت النفوذ المصرى حتى منتصف حكم الأسرة الثانية والعشرين (أى حوالى سنة ٨٥٠ قبل الميلاد) . وقد ذكرنا فيما سبق أن النوبة كانت على اتصال تام بطيبه ومعبد آمون مدة طويلة من الزمن ، مثال ذلك أن معبد آمون كان صاحب الحق فى مناجم الذهب النوبية التى سميت وقتئذ "أرض آمون الذهبية" ابتداء من نهاية حكم الأسرة التاسعة عشرة . وفى أواخر الأسرة العشرين أصبح رئيس كهنة آمون حاكما على النوبة . وفى عهد الأسرة الحادية والعشرين كانت الإمارة الدينية بطيبه تشغل هذه الوظيفة الرفيعة أيضا[3] . بهذه الطريقة أخذ حكام طيبه يبسطون نفوذهم على النوبة مائة سنة منذ أواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد . بعد ذلك وضع المصريون يدهم بقوة على ذلك الإقليم مائتين وخمسين سنة . ولبعد النوبة عن مصر اتخذت منفى للعصاة وذلك فى عهد الأسرة الحادية والعشرين التنيسية لما أبعدوا اليها أمراء طيبه المنافسين لهم والذين أفرجوا عنهم بعد ذلك . وفعل تاكلوت الثانى[4] هذا العمل أيضا مع ثوار طيبه ثم عفا عنهم بناء على طلب آمون . من هذا يتضح أن شلالات النوبة كانت حاجزا حصينا لكل من يلتجئ اليها من طائفة كهنة طيبه وأفراد أسرهم فرارا من قسوة وعسف المصريين .

(١) ٤ : ٧٢٤ (٢) ٤ : ٧٧٠ (٣) ٤ : ٧٩٦ (٤) ٤ : ٧٦٤ ملاحظة

وبما أن مثل هذا الفرار لا يسجل عادة على الآثار نستبعد حصولنا على معلومات بصدده . والمعروف أنه فى القرن الثامن قبل الميلاد ظهرت فى أفق التاريخ بالنوبة مملكة كاملة عاصمتها نبته (Napata) الواقعة أسفل الشلال الرابع بقليل . وبديهى أن نبته كانت حصنا من حصون حدود مصر الجنوبية أيام أمنحتب الثانى — أى قبل العصر الذى نحن الآن بصدده بسبعمائة سنة تقريبا — وقد كانت قبل ذلك الوقت محطة تجارية عظيمة على الطريق الموصل مصر بالسودان، لذلك كانت نبته أبعد المراكز فى المملكة المصرية وآمنها من هجمات الشمال .

وليلاحظ أن المملكة النوبية المذكورة جاءت مطابقة تماما لما ذكرناه عن أصلها فقد كانت بمثابة صورة طبق الأصل لإمارة آمون الطيبية وكان آمون معبود هذه المملكة الرسمى شديد التدخل فى شؤون حكومتها بخطبه الخاصة وبدرجة فاقت تدخله فى مصر حتى صار يعزل الملوك ويولى غيرهم، ولا يخفى أن مثل هذا النظام حصل تدريجا . واعتقد اليونانيون خطأ أن إثيوبيا سبب حضارة مصر لأنهم شاهدوا كهنة مصر كثيرى الاعتبار والإعجاب بالنوبة . ومما هو جدير بالذكر أيضا أن ملك إثيوبيا نحل لنفسه جميع الألقاب الفرعونية "كسيد القطرين" مع أنه لم يحكم مصر، كما أنه أطلق على نفسه اسما مصريا ، لكن ذلك لم يدم طويلا لأنه استبدل به بسرعة اسما نوبيا صميا وبقى الاسم الرسمى الملكى والألقاب الفرعونية مستعملة مدة طويلة . وشيد ملوك إثيوبيا معابدهم على الطراز المصرى وزينوها بالرسوم المصرية والنقوش الهيروغليفية وقدموا فيها قرابين وهدايا كما فعل قدماء المصريين . ثم انهم زخرفوا جدر المعابد بالدعوات كمعبد طيبه ، فثبت بذلك بلا مراء أن هذه المملكة النوبيسة مصرية الأصل مصبوغة بالصبغة الطيبيه . وبالرغم من ذلك فهناك بعض الأثريين لا يشاطروننا هذا الاستنتاج .

وأول من عرف من ملوك هذه المملكة هو كاشتا (Kashta) ويرجع تاريخه الى أوائل القرن الثامن قبل الميلاد[1] . ولا نعرف شيئا من حكم هذا الملك ولا منتهى نفوذه شمالا . والظاهر أن بيعنخى (Piankhi) نجل هذا الملك حكم حوالى عام ٧٤١ قبل الميلاد وأخذ يستعمر مصر . وسواء أكان هذا صحيحا أم غير صحيح فالثابت أن بيعنخى استولى حوالى عام ٧٢١ أو ٧٢٢ قبل الميلاد على صعيد مصر حتى مدينة إهناس جنوبى الفيوم ووضع جنوده النوبية فى المدن المهمة . وفى هذا الوقت كانت سلطة أوسركن الثالث المستوطن بتل بسطه منحصرة فى إمارته ومحاطة بأعداء كثيرين من أمراء الوجه البحرى أهمهم تفنخت (Tefnakhte) أمير صا الحجر غربى الدلتا[2] .

وفى السنة الحادية والعشرين من حكم بيعنخى بلغه أن تفنخت أخضع كل أمراء غربى الوجه البحرى كلهم وشاطئ الصعيد الى مدينة بنى حسن و بسط نفوذه أيضا على أمراء شرق الدلتا ووسطها فأصبح بذلك ملكا على جميع الوجه البحرى والجزء الأسفل من الوجه القبلى .

---

(١) ٤ : ٩٤٠ (٢) الكلام التالى مأخوذ من حجر بيعنخى (٤ : ٧٩٦ – ٨٨٣)

ولم يقاومه في الوجه القبلي الا إمارة إهناس التي أشرنا الى قوتها وسلطانها ، فحاصرها تفنخت بجنوده و بامدادات حربية من أمراء الدلتا تحت قيادتهم الشخصية ، فاتضح لبيعنخى وقتئذ أن ميزان القوى بالوجه القبلي اضطرب فصمم جلالته أن يستدرج عدوه جنو بى مستنقعات الدلتا الحصينة الصعبة .

بعد ذلك بلغ بيعنخى أن ناملوت (Namlot) أمير الأشمونين سلم الى تفنخت فأرسل بيعنخى جيشا قويا تحت قيادة ضباط الى الجهات الشمالية بقصد وقف تقدم تفنخت جنوبا وحصار الأشمونين . فنفذ جيشه هذه الأوامر . ثم أرسل الملك جيشا ثانيا الى الشمال لمساعدة قواته هناك فوصل الى مدينة طيبه ثم سار شمالا فتقابل مع أسطول تفنخت النيلي واشتبك الفريقان في معركة حربية انتهت بهزيمة المصريين وأسر كثير من سفنهم ورجالهم . بعد ذلك زحف النوبيون شمالا متبعين فى سيرهم بحر يوسف (على الأرجح) حتى بلغوا مدينة إهناس فوجدوا قوات تفنخت منهمكة فى حصارها فهزموا تلك القوات واضطروها للفرار شمالا برا وبحرا . وقد فر جنود تفنخت الشماليون عن طريق بحر يوسف فاقتفى أثرهم الجيش النوبى فى الصباح التالى واضطرهم للفرار الى الدلتا .

وكان ناملوت منضما الى قوات تفنخت فلما انهزم هذا الأخير انفصل عنه وصمم على الذهاب الى الأشمونين مدينته والدفاع عنها ضد النوبيين . فبلغ هذا الخبر القوات النوبية فعادت هذه ثانية عن طريق بحر يوسف الى الأشمونين وحاصرتها .

ولما بلغت بيعنخى هذه الأخبار استشاط غيظا خصوصا لما علم بهرب جيش الوجه البحرى الى الدلتا . ولما كان وقتئذ آخر السنة عزم جلالته على الاحتفال بعيد رأس السنة فى بلده ثم الذهاب الى طيبه للاحتفال بها بعيد أوبت وذلك فى الشهر الثالث ثم الزحف شخصيا على مصر . فى أثناء ذلك كان قواد النوبيين يستولون على مدن مصر الواحدة تلو الأخرى وأهم هذه المدن البهنسه (Oxyrhyncus) ولم تقاومهم الا مدينة الأشمونين التى استمرت فى عنادها كثيرا .

ونفذ بيعنخى خطته السالفة فزحف بجنده شمالا فى أوائل السنة واحتفل بعيد أوبت بطيبه فى الشهر الثالث ، ثم ولى وجهه شطر الشمال وسار نحو الأشمونين فوجد جنده يحاصرونها مدة أربعة أشهر أو خمسة ، وشدد جلالته عليها الحصار وأمطرها وابلا من السهام والحجارة من فوق الاستحكامات والبروج حتى تصاعدت الروائح الكريهة من موتاها فأخذت تسلم الى جلالته . وأراد أميرها أن يرضى قلب بيعنخى نحوه فأرسل اليه هدايا ثمينة ضمنها تاجه الملكى لكن بيعنخى كان صلب الرأى فأرسل ناملوت زوجته الى زوجة بيعنخى لتسترحمه لزوجها ونجحت هذه الحيلة وسلم ناملوت على أثرها المدينة وجميع خيراتها الى الفاتح النوبى نظير السماح له بالبقاء حيا . بعد ذلك تفقد بيعنخى قصر ناملوت وخزائنه وتفقد الخيل فرآها جائعة فقال جلالته "أقسم برع الذى يحبنى لئن أرى خيلى جائعة ليكونن هذا أصعب على من كل جرم ترتكبه"[1] . بعد ذلك سلم ناملوت كل أملاكه الى خزائن بيعنخى وآمون المقدس .

(1) ٤ : ٨٥٠

ووصل بيعنخى الى إهناس بعد ما ذاقت الأمرين من حصار تفنخت لها فخرج أميرها المدعو بف نف دبست (Pefnefdibast) وحيا بيعنخى ومدحه كثيرا على تخليصه من تفنخت. ثم زحفت القوات النوبية بحرا بطريق بحر يوسف الى الدلتا واستولت فى طريقها على المدن المهمة الغربية التى كانت تسقط بمجرد رؤية بيعنخى . ولم تتجاسر مدينــة على مقاومة النوبيين الا مدينــة كيان فارس فى الفيوم (Crocodilopolis) ومنه استنتجنا أن بيعنخى عدّل خط سيره فزحف غربا مارا باللاهون بمضيق الفيوم ولم يذهب الى مدينة أطفيح (Aphroditopolis) شرق النيل والبعيدة عن الطريق الموصل الى ميدوم و إتتوى ومنف . وقدم ملك النوبة القرابين لكل مدينة مرّ بها وأخذ معه كل ثمين لتقديمها الى خزانة آمون .

وبلغ بيعنخى منف فوجدها محصنة جيــدا بقوات تفنخت الذى اعتبرها جزءا من مملكته منذ زمن بعيد والذى اعتبر نفسه كاهن معبودها الأكبر بتاح ، فطلب بيعنخى من المدينة أن تسلم نفسها لكنها أقفلت أبوابهــا ثم قامت حاميتها بحركة هجوم خارجا فــلم تنجح . بجنّ الليــل ودخل تفنخت المدينة وحث حاميتها على الدفاع والاعتماد على جدرها ومئونتها الكثيرة وارتفاع مياه فيضان النيــل شرق المدينــة . وطلب من جنــده هناك أن يستمروا على الكفاح حتى يذهب شمالا ليحضر اليها امدادات أخرى .

ولــا وصــل بيعنخى شمالى منف دهش لمتانة حصونها ، فأشار عليه حينئذ بعض ضــباطه أن يحــاصرها وحبذ الآخرون الهجوم والاستيلاء عليهــا عنوة وذلك باقامة استحكامات وطرق خصوصية . لكن بيعنخى صمم أن يهجم عليها عنوة بلا استحكامات وابتكر لذلك فكرة صائبة تشهد له بالبراعة فى الفنون الحربية . وتفسير ذلك أن جلالته لاحظ أن سور المدينة الغربى رفع عن مستواه حديثا وأن السور الشرقى مهمل نوعا ومحاط بمياه الفيضان . أما ميناء البلد ففى جهتها الشرقيــة وفيها سفن الأسطول مثبتة بجدر المنازل نظرا لارتفاع منسوب المياه وقتئذ. فأرسل بيعنخى أسطوله بسرعة الى الميناء واستولى على سفنها عنوة وضمها الى أسطوله ثم قاد هذه القوة البحرية بنفسه وهاجم أسوار المدينة الشرقية وتسلقها رجاله فاستولوا على المدينة قبل أن يتمكن أهلها من تعزيز حصونها. بعد ذلك حصلت فى المدينــة مذبحة عظيمة روعيت فى أثنائهــا حرمة المعابد وانتهت بنبذ تفنخت بواســطة المعبود بتاح والاعتراف ببيعنخى ملكا على مصر كما كان منتظرا .

هكذا خضع اقليم منف بأجمعه الى بيعنخى وعلى أثر ذلك أتى أمراء الدلتا الى جلالته بالهــدايا معترفين له بالسلطة والسيادة ، وجزأ جلالته خيرات منف بين خزائن آمون وبتاح. ثم عبر النهر وأدى الصلاة بمعبد قديم بجهة خريحا بابل (Khereha-Babylon) ثم اتبع الطريق المقدّس من هناك حتى بلغ مدينة عين شمس حيث استراح بمرفئها . وجاء فى أخبار جلالته الرسمية أنه دخل قدس الأقداس بمعبــد عين شمس وهناك اعترف به رع بأنه ابنه من سلالته الجالس على عرش مصر كالعادة المتبعة منذ حكم الأسرة الخامسة . ووفد على جلالته فى ذلك المكان أوسركن الثالث (أمير تل بسطه)

المنتمى الى الأسرة الثالثة والعشرين وقدّم الطاعة لبيعنخي واعترف له بسيادة النوبة على مصر . ثم زحف بيعنخي الى شرق بنها (أتريب) بالقرب من مدينة تعرف باسم كهنى (Keheni) وهناك أقبل عليه أمراء الدلتا مظهرين له الولاء والخضوع وكان عددهم خمسة عشر أميرا وهم أوسركن الثالث (وكان موجودا من قبل) والأمير يو يت المسيطر على اقليم تنت رمو (Tentremu) بشرق الدلتا والمشترك سابقا مع بدبست سبق أوسركن الثالث فى حكم طيبه وتسعة أمراء مسيطرين على أقاليم تمى الأمديد (Mendes) وسمنود (Sebennytos) وسفط الحنة (Saft el-Henneh) وأبو صير (Busiris) وحسبكا (Hesebka) (وهى القسم الحادى عشر للوجه البحرى) وبفرور يوپوليس (Phagroriopolis) وخريحا بابل (Khereha-Babylon) وغير ذلك من مدن الدلتا المجاورة التى لم نعرف مواقعها للآن بالضبط . بعد ذلك حضر قائد قوات الأشمونين الأجنبي المدعو پارڤا (Parva) ابن أمير تمى الأمديد وكذا كاهن المعبود حوريس الذى أسس إمارة وسيم (Letopolis) كما أسس كهنة إهناس الأسرة الثانية والعشرين . وامتاز بين هؤلاء الأمراء أمير بنها المدعو بديس (Pediese) فأظهر احتراما وإكراما عظيمين لبيعنخي ودعاه لزيارة بنها واضعا كل أملاكه تحت تصرف جلالته ، فذهب جلالته على أثر ذلك الى بنها وتسلم هدايا بديس مختارا لنفسه أجودها ، ثم دعاه الأمير لتفقد اصطبلات أجود خيله لعلمه بحب بيعنخي للخيل . وسمح بيعنخي هناك لأمراء الدلتا بالذهاب الى أقاليمهم (الا أمير بنها طبعا) واحضار الهدايا لجلالته ليتباروا فى ذلك مع ما قدمه بديس .

أما تفنخت البائس فتحصن فى مدينة صغيرة مجهولة المركز تعرف باسم مسد (Mesed) يظن أنها على حدود قسم صا الحجر . وخاف تفنخت من وقوع سفنه وخيراتها فى أيدى النوبيين فحرقها فأرسل بيعنخي قوة حربية الى مسد فتكت بحاميتها كلها واضطر تفنخت اثر ذلك أن يلجأ الى جزيرة بعيدة بأحد أفرع النيل الغربية حيث تفصله عن بيعنخي أميال عديدة من المستنقعات والترع فكانت كأنها محصنة . ثم أرسل تفنخت من هناك هدايا ورسالة الى بيعنخي أظهر له فيها الخضوع وطلب منه أن يرسل رسولا من قبله يذهب معه الى معبد مجاور يحلف فيه يمين الطاعة لجلالته ، فسر بيعنخي من ذلك كثيرا وهكذا اعترف تفنخت بسلطة بيعنخي طائعا مختارا . ثم ظهر أمير الفيوم وأمير أطفيح (Aphroditopolis) (اللذين لم يتعرض لهما جلالته بأذى وقت زحفه شمالا) وأحضرا معهما الهدايا لبيعنخي ، فأصبح هذا الأخير فرعون مصر النوبى الذى خضعت له جهات القطر كلها والذى نزع الملك من أيدى الليبيين ، وبعبارة أخرى أضحى بيعنخي حاكم مصر المطلق .

وتشرف أمراء الوجه البحرى بزيارة بيعنخي لآخر مرة ثم شحن جلالته سفنه بالهدايا والغنائم العظيمة قاصدا عاصمته الجنوبية فى وسط تحيات الأهالى وهتافهم العالى .

لقد أطلنا الكلام على هذه الغزوة لأنها تظهر لنا بأجلى وضوح أحوال مصر وقتئذ وهى سنة طبيعية لتمزيق شمل مصر كلما ضعفت سلطة حكومتها المركزية وزاد نفوذ حكام أقسامها ، ومثل هذه الظروف تنتهى غالبا باستقلال الأقسام واغتصاب العرش .

ولما وصل بيعنخى نبته نصب بمعبدها شاهدا جرانيتيا بديعا [١] نقش على جهاته الأربع أخبار هذه الرحلة تفصيلا ، وأظهر نفسه فيه كابن آمون ومذل أعدائه الشماليين ، ويعتبر هذا الوصف أتقن وأصح بيان تاريخي وحربي قديم بعد أخبار حروب تحوتمس الثالث ووصف معركة كدش لرمسيس الثانى . ويتضح من وصف الحجر المذكور أن حالة مصر كانت سيئة للغاية . ولما كان النص الهيروغليفى المكتوبة به نقوش هذا الحجر خاليا من الأسلوب الجاف المتبع عادة فى مثل هذه الظروف فان القارئ يجد سهولة عظيمة فى فهم ومتابعة معانى الأثر وادراك أفعال أشخاصها ، كما تتضح له أيضا شهامة بيعنخى وحبه للخيل وظهوره بمظهر الرجال خلافا للعادة القديمة التى تظهر الملوك بمظهر الآلهة . وهذا الحجر الجرانيتى هو مرجعنا الوحيد وأصل معلوماتنا عن غزوة بيعنخى للقطر المصرى .

لم يخضع تفنخت لبيعنخى الا اسميا لأنه ترقب رحيل ذلك النوبى ليجدد عداءه ، فأنشأ فى الوجه البحرى مملكة مستقلة ونحل لنفسه الألقاب الفرعونية وبقى حاكما على أمراء الدلتا ثمانى سنوات كما فعل أسلافه وقت حكم الأسرة الثانية والعشرين . وكان تفنخت هذا معاصرا لآخر أيام الأسرة الثالثة والعشرين المستوطنة تل بسطه والتى يرجح أنها خضعت لإرادته وحكمه .

والمعروف عن تفنخت أنه كان رجلا عظيما ذا ميزات كثيرة على أمراء الوجه البحرى ولذلك رفع منزلة صا الحجر كثيرا . فلما توفى ورثه فى الملك ابنه بوكوريس (Bocchoris) مؤسس الأسرة الرابعة والعشرين الصاوية وذلك حوالى عام ٧١٨ قبل الميلاد .

أما فى الصعيد فقد استمر حكم بيعنخى مبسوطا مدة قصيرة أقام فى أثنائها بعض عمارات طفيفة بمعبد موت بطيبه ونقش رسوما تمثل أسطوله فى النيل مبديا فرحه بالانتصارات التى حازها على الأرجح فى الجهات الشمالية ، وتشاهد بين وحداته سفينة تفنخت الصاوية الرسمية التى أسرت فى تلك الحرب ، ومنه يتضح أن نفوذ بيعنخى استمر باقيا على صعيد مصر الى مدينة إهناس . ودلتنا النقوش السالفة أن حاكم إهناس كان قائد الأسطول النيلى لبيعنخى [٢] .

وطمع بيعنخى فى خيرات آمون فحاول الاستيلاء عليها بطريق شرعى ، فعين أخته وزوجته المدعوة أمنارديس (Amenardis) بدل ابنة أوسركن الثالث المدعوة شب نوبت (Shepnupet) أميرة طيبه الدينية وقتئذ [٣] ، والظاهر أن هذه الحيلة لم تكن الأولى من نوعها لجواز تعدد حصول أمثالها سابقا . ولما انسحبت قوات بيعنخى اجتهد أوسركن الثالث فى ارجاع سلطة أسرته الثالثة والعشرين فبسط نفوذه على طيبه مدة يسيرة وأشرك معه فى ذلك حاكما يدعى تاكلوت الثالث . والظاهر أن حكم بيعنخى وما قام به من الأعمال حصل فى عهد أوسركن الثالث . لكن أمراء صا الحجر أخذوا يتنافسون تل بسطه فى الحكم فاغتصب بوكوريس بن تفنخت الصاوى عرش مصر السفلى حوالى عام ٧١٨ قبل الميلاد وأسس بذلك الأسرة الرابعة والعشرين ، وصار بعد ذلك الملك الوحيد لهذه الأسرة بقدر

(١) ٤ : ٧٩٦ — ٨٨٣ (٢) ٤ : ٨١١ (٣) ٤ : ٩٤٠

ما تسمح لنا به معلوماتنا عن تلك العصور . أما الآثار المصرية فلم تفدنا كثيرا عن حكم هذا الملك القصير وكل ما وصل الينا هو لوح حجرى وجد بالسرابيوم يرجع تاريخه الى السنة السادسة من حكم بوكوريس أقيم وقت الاحتفال بدفن ثور آبيس بتلك المقبرة[1] . وجاء فى رواية يونانية لا شك فى صحتها أن هذا الملك كان عادلا مجتهدا فى تنقيح القانون ساهرا على الحق بكل قواه ، ولا غرابة فى ذلك فأحوال البلاد الداخلية وقتئذ كانت سيئة للغاية تتطلب أمثال هذه المجهودات . ومن غرائب تاريخ هذا الملك ما ورد فى قرطاس بردى مؤرخ فى السنة الرابعة والثلاثين من حكم الامبراطور الرومانى أوغسطس من أنه فى السنة السادسة من حكم الملك بوكوريس نطق كبش متنبئا بغزوة آشور لمصر قائلا ان المحن ستظل حالة بمصر تسعمائة سنة[2] ، ويعتبر هنا التنبؤ آخر ما عرف من مثله فى التاريخ القديم ، أما أقدم تنبؤ ورد لنا من هذا القبيل فهو ما أشرنا اليه سابقا لما تكلمنا على إيبور (Ipuwer) أيام المملكة الوسطى[3] . وعلق مانيتو على حادثة هذا الكبش أهمية كبيرة واعتبرها شيئا مدهشا فى تاريخ الملك بوكوريس .

لا يخفى على القارئ أن مصر ظلت محكومة بأمراء الأقسام العديدين مدة تزيد على قرن ونصف تقريبا . وبديهى أن انحلال السلطة المركزية الحكومية صحبه اضمحلال عظيم فى المالية فانعدمت بذلك تجارة مصر مع البلاد الأجنبية وانحطت الزراعة والصناعة وأصبحت موارد الخيرات فى أيدى الأمراء يبترونها لأغراضهم الشخصية . ثم أخذت أنظمة الزراعة تتلف تدريجيا وكذا الطرق والجسور وانعدم الأمن فى المدن والحقول وهكذا انتقلت موارد ثروة البلاد من سيء الى أسوأ . وبديهى أنه لا ينتظر أن نعثر على اثبات تاريخى لهذه الأحوال لعدم جواز تسجيل مثل ذلك وقتئذ ، ونحن نستنتج ما قلناه مما لحق القطر فى العصور التالية . وأصدق رواية لذلك ما جاء بالكتاب المقدس عن حال مصر وقتئذ ، فقد جاء فى الاصحاح التاسع عشر من سفر أشعيا ما يأتى :

(١) وحى من جهة مصر . هو ذا الرب راكب على سحابة سريعة وقادم الى مصر فترتجف أوثان مصر من وجهه ويذوب قلب مصر داخلها .

(٢) وأهيج مصريين على مصريين فيحارب كل واحد أخاه وكل واحد صاحبه مدينة مدينة ومملكة مملكة .

(٤) وأغلق على المصريين فى يد مولى قاس فيتسلط عليهم ملك عزيز يقول السيد رب الجنود .

(١٠) ان رؤساء صوعن (تنيس) أغبياء . حكماء مشيرى فرعون مشورتهم بهيمية .

(١٣) رؤساء صوعن (تنيس) صاروا أغبياء . رؤساء نوف (نبته ؟) انخدعوا . وأضل مصر وجوه أسباطها .

---

(١) ٤ : ٨٨٤ صحيفة ١٣١ (٢) Krall, in Festgaben für Büdinger, Innsbruck, 1898. (٣) راجع سابقا

(١٤) مزج الرب فى وسطها روح غىٍّ فأضلوا مصر فى كل عملها كترنح السكران فى قيئه .

(١٥) فلا يكون لمصر عمل يعمله رأس أو ذنب ، نخلة أو أسلة .

بديهى أن هذا الوصف لا يمكن أن يؤتى بأصدق منه دقة ومتانة .

فى أثناء هذه الاضطرابات الداخلية أخذ فنّ الحفر فى مصر يتقدّم فى طريق جديد بدرجة مدهشة. ومثل هذا التقدّم فى الفنون الجميلة حصل فى أيام الاضطرابات فى عهد أسرة مديسى فى ايطاليا فعم هذا التقدّم ايطاليا عموما وفلورنس خصوصا حتى استرعى الألباب . ثم ان القارئ الذى تتبع تاريخ المماليك بمصر يجد أن عهدهم المصحوب بفوضى اضطرابات وجنايات من قتل وسلب وحيف عمومى بأنحاء القطر، كان أيضا مقرونا بتقدّم عظيم فى عمارة المساجد . والحقيقة أن العمارات النوبية تحدث الناس بجمالها وقتئذ . ففى ظروف كهذه فى العصر الذى نحن الآن بصدده تقدّم فنّ الحفر تدريجيا حتى بلغ أعظم درجاته فى عهد الاصلاح الذى تلاه بعد مضى خمسين سنة تقريبا ذاقت مصر فى أثنائها مرارة حكم الأجنبى وعسفه . وبديهى أنه لم يبق من هذه العمارات الا القليل كالهيكل الصغير الذى شيده أوسركن الثالث بطيبه حيث يحوى رسوما بارزة لا ينقصها الا رقى الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية حتى تصبح أعظم وأرقى ما تخرجه أيدى الصناع الشرقيين .

فى ذلك الوقت عصفت ريح التغيرات الأسيوية المذكورة آنفا بسرعة وصارت مصر من أجلها محفوفة بأعظم المخاطر . وتفصيل ذلك أن مملكة الفرات القوية بذلت جهدها لتحتفظ بسيادتها على غربى آسيا . وقد ألمعنا سابقا أن نسو بانبدد الذى يرجع تاريخه الى حوالى سنة ١١٠٠ قبل الميلاد كان أول فرعون تنيسى أرسل الهدايا الى تجلات بليسر الأول لما اقترب هذا الأخير من حدود مصر . وبعد مضى مائتين وخمسين سنة تقريبا أمدّ فرعون مصر اتحاد ولايات آسيا الغربية بمساعدة حربية لسحق قوى شالمنصر (Shalmaneser) الثانى جهة قرقار (Qarqar) وذلك حوالى عام ٨٥٤ قبل الميلاد . فلما أتى دور تجلات بليسر الثالث فى الحكم بآشور جمع موارد مملكته وشن الغارة على غربى آسيا فأخضع سوريا وفلسطين فيما بين سنة ٧٣٤ وسنة ٧٣٢ قبل الميلاد ووصلت جنوده الى حدود مصر . وقد سقطت وقتئذ مملكة دمشق العرامية فأصبح غربى آسيا تابعا لآشور بأجمعه . وتوفى تجلات بليسر الثالث فتبعه فى الملك شالمنصر الرابع الذى حكم مدّة قصيرة ثار فى أثنائها بنو اسرائيل وغيرهم بمساعدة ملك سوا (Sewa or So)[1] ، الوارد ذكره فى الآية الرابعة بالإصحاح السابع عشر من سفر الملوك الثانى . ولا يبعد أن يكون سوا هذا أحد أمراء الوجه البحرى المجهولين أو حاكما لولاية موصرى (Musri) شمالى بلاد العرب واسمها شبيه باسم مصر ، ولذلك حصل كثير من سوء الفهم لنصوص تلك الأزمنة ، ولا يبعد أن يكون قد وقع فى هذا الخطأ كتّاب النصوص المسمارية السابقة الذكر . وقاومت مدينة السامره (Samaria) عدّة سنوات قبل غزوة آشور ، لكن لما جلس سرجون (Sargon) الثانى العظيم عام ٧٢٢ قبل الميلاد على عرش آشور بعد شالمنصر الرابع استولى على هذه

---

(١) ٢ ملوك ١٧ : ٤

المدينة ثم نفى رؤساء بنى اسرائيل فلحقت الأمة اليهودية وقتئذ الذلة والمسكنة ، وفى تلك اللحظة أيقن أمراء مصر الصغار بعجزهم عن مقاومة آشور فأوقدوا نار الثورة والاضطراب ضد آشور فى ولايات سوريا وفلسطين لجعلها حاجزا بينهم وبين آشور . وفى سنة ٧٢٠ قبل الميلاد ظهر سرجون للمرة الثانية غربى آسيا وأخضع ثورة هناك كانت لمصر يد فيها على الأرجح ، ثم أكمل انتصاره شمالا ثم زحف جنوبا نحو رفح (Raphia) حيث هزم جنود أعدائه وكانت بينهم وحدات مصرية تحت قيادة الضابط سبعى (Sab'i) [1] . وهذه هى المرة الثانيـة لوصول الآشوريين الى حدود مصر ولذلك أيقن أمراء مصر وقتئذ بالمهالك . والظاهر أن تجلات بليسر الثالث وسرجون الثانى لم يستوليا على مصر لما لهذه الأخيرة من التاريخ القديم المجيد ، كانت آشور فى أثنائه تقدّم الهدايا لمصر رغبة فى التخلص من حكمها . لكن حالة مصر الداخلية السيئة أصبحت أظهر من أن تكتم فانقلبت الأحوال السياسية عندئذ . وجاء فى نصوص آشور أنه فى عام ٧١٥ قبل الميلاد أرسل فرعون مصر (يرجح أنه بوكوريس) هدية عظيمة الى سرجون الثانى طالبا بذلك رضاء آشور وتحويل مطامعها عن القطر المصرى [2] . وبعد ما مضى على رجوع بيعنخى الى النوبة عشر سنوات أخذ ملوك نبتـه يسترجعون سلطتهم على الوجه البحرى الذى كان فى حالة بؤس وشقاء . والمعروف أنه لما توفى بيعنخى ورثه فى الملك أخوه شاباكا (Shabaka) الذى اقترن بابنته [3] فصار له بذلك حق شرعى فى السدّة الملكية علاوة على حقـه الطبيعى من حيث مولده . ولم نهتد الى أخبار تاريخية مصرية تثبت غزو شاباكا لمصر ، لكن ما يتوذكر أن هذا الملك أحرق بوكوريس حيا وبسط نفوذه على الوجه البحرى بأجمعه وقوى مركزه حتى أسس الأسرة الخامسة والعشرين الإتيوبية . واتضح لشاباكا خطورة مركز مصر ازاء آشور فأرسل الى سوريا وفلسطين من أوقد الثورة ضد آشور ، ووعد ولاة سوريا بالمساعدة اذا هم ثاروا على سـيدهم النينوى ، فانصاع له ولاة يهوذا (Judah) وموآب (Moab) وإدوم (Edom) [4] ، ارتكانا منهم على مجد مصر القـديم جاهلين انحطاطها الداخلى وقتئذ ومؤملين التخلص من الحكم الآشورى الشديد . ولم يفقه من هؤلاء الولاة خطورة الحالة الا النبى السياسى أشـعيا حاكم ولاية يهوذا ، فقـد أكد أن الاعتماد على مصر لا طائل تحتـه لأنه اعتقد أن آشور ستستولى على مصر يوما ما [5] . ولما علمت آشور بهذه المحالفة ضدّها أدركتها بسرعة فانفك المتحالفون وأظهروا ولاءهم لها فى الحال . وقد نجح سرجون فى توطيد مركزه رغم ثورات بابل واضطرابات الأقاليم الشمالية ، ثم توفى عام ٧٠٥ قبل الميـلاد فتبعه فى الملك ابنه سناشريب (Sennacherib) فوجد نفسه حاكما على أول مملكة سامية معروفة لنا فى التاريخ مدعمة الأساس قوية الأركان .

ولما تولى سناشريب الملك اشتبك فى اخمـاد اضطرابات بابل المعتادة التى سببها أحد أمرائها المدعو مردوق باليدن (Mardukhbaliddin) . وتفصـيل ذلك أن هذا الأمير طالب بعرش بابل وسبب لوالد سناشريب متاعب جمة ، فلما عجز عن بلوغ مآربه أرسل رسله الى أعداء آشور الغربيين

(١) Winckler, Unters. zur Altoriental. Geschichte, p. 92.
(٢) Winckler, Ibid., p. 94.
(٣) ٤ : ٩٢
(٤) Winckler, Ibid
(٥) أشعيا : ٢٠

يحرضهم على الثورة والعصيان ، فانصاع اليه ملك صور النشيط المدعو لولى (Luli) وحزقيال (Hezekiah) ملك يهوذا وأمراء إدوم وموآب وعمون (Ammon) ورؤساء العرب المجاورين لهم . بهذه الكيفية انضمت جميع مستعمرات آشور الأسيوية الغربية بعضها الى بعض ،ثم دخلت مصر هذا التحالف وقر قرارهم أخيرا على محاربة نينوى . لكن قبل أن يبدأ هذا التحالف هجومه ظهر سناشريب بغتة بالغرب مارا بفينيقيا مستوليا على قلاعها ما عدا صور ثم زاحفا جنوبا على مدن فلسطين العامة، فعاقب عسقلون على عصيانها ثم زحف على ألتاكو (Altaqu) حيث التقى بجيش التحالف الذى جمعه شاباكا من الولاة الشماليين الذين عبر عنهم سناشريب بملوك موصرى، ولم نهتد للآن الى معرفة عدد هؤلاء الجنود وقتئذ لكن سناشريب وصفها بأنها تفوق الحصر ، والمحتمل أنها لم تكن قوية جدا . أما الجنود المصرية التى اشتركت فى المعركة فلم تكن بأى حال من الأحوال جديرة بقتال جيش آشور لعدم وجود السلطة المركزية بالقطر ولتفرق كلمة أمراء الوجه البحرى وعدم اعتنائهم بأمورهم الحربية . أما الجيش الآشورى فكان مدربا محنكا لدرجة جعلت آشور الشغل الشاغل فى آسيا الغربية .

والحق يقال ان الجيوش المصرية لم تلتق للآن مع جيوش آشور فى معركة كبيرة . أما الامدادت التى أرسلتها مصر الى سوريا وفلسطين ضد آشور فكانت ضعيفة لا يعبأ بها . ولما التقت القوتان السالفتا الذكر كان سناشريب يقود شخصيا قواته، وكان طهراقه (Taharka) ابن بيعنخى[1] موكلا من شاباكا لقيادة القوات المصرية . ولصيرورة طهراقه فيما بعد ملكا على إثيوبيا نعته اليهود فى هذه المعركة بملك[2] . وبديهى أن المعركة التى دارت رحاها انتهت بهزيمة المصريين كما هو منتظر، وقد تم هذا بسرعة، ثم عقبه حصار بيت المقدس وتخريب مقاطعة يهوذا . بهذه الكيفية وقف سناشريب كل مشاحنات الغرب وشتت شمل أعدائه . وبينما هو يحاصر بيت المقدس فشا بين قواته وباء ذريع أتى اليهم من مستنقعات الدلتا الموبوءة بالملاريا لحصد من جيش آشور عددا عظيما . وفى أثناء تلك المحنة وردت على سناشريب أنباء سيئة من بابل تفيد حصول اضطرابات خطيرة هناك ولذلك أسرع الى نينوى قبل أن يستولى على بيت المقدس . وهنا تحققت نبوءة أشعيا بنجاة هذه المدينة وقد عللتها بعد ذلك رواية مقدسة بمساعدة ملاك السيد الرب .

ولا يخفى أن رجوع سناشريب جاء بمثابة انفراج للكُرْبة الحالة ببيت المقدس ومصر معا . ولا بد أن القارئ قد فقه الآن أن جيش آشور وصل للمرة الثالثة الى حدود مصر ثم رجع ثانيا مضطرا لظهور حوادث اجبارية لم تكن فى الحسبان . أما فلسطين وسوريا فقد انعدمت ثقتهم باثيوبيا حتى صموا آذانهم عن كل مشروع أشارت به هذه الأخيرة عليهم، والسبب فى ذلك أنهم عرفوا حقيقة الحال كما عرفها الاسرائيليون قبلهم، ودليلنا على ذلك ما جاء بخطاب ضباط سناشريب الذى أرسلوه لنواب بيت المقدس التعساء واليك ترجمته :

"لقد اتكلت على عكاز هذه القصبة المرضوضة، على مصر، واذا توكأ أحد عليها دخلت فى كفه وثقبتها . هذا هو فرعون مصر وهذا شأن المتكلين عليه "[3]

(1) ٤ : ٨٩٢ (2) ٢ ملوك ١٩ ، ٩ : ٩ (3) ٢ ملوك ١٨ ، ٢١ : ٢١

ويظهر أن شاباكا ظل حاكما أمراء القطر المصرى طول حياته ، ويرجح أنه اتفق مع سناشريب فى محالفة بدليل وجود ختمى هذين الملكين يجاور أحدهما الآخر على قالب لبن بجهة كيونجيك (Kuyunjik) . وأظهر شاباكا عطفا ومساعدة نحو طائفة الكهنة والمعابد . ومن مآثر هذا الملك ترميمه لنقوش دينية قديمة على جدر معبد بتاح[1] تعتبر الآن أهم القطع الأدبية القديمة المعروفة ، ثم أرجع أخته أمنارديس فى وظيفتها السابقة بمعبد آمون بطيبه بعد ما طردها أوسركن الثالث لمدة قصيرة . ثم اتحد مع أخته هذه وشيد معبدا بالكرنك وأرسلا لذلك بعثة لقطع الحجر اللازم من محاجر وادى الحمامات . وتوجد بطيبه نقوش تشير الى اصلاح شاباكا للمعابد هناك[2] ولذلك يظهر أنه أظهر عطفا واحتراما لمعابد مصر كما فعل فراعنة مصر قبله . أما أمنارديس فحكمت فى طيبه مستقلة استقلالا كبيرا . والظاهر أنه بالرغم من المساعدة التى أسداها شاباكا لكهنة مصر فانه شل نفوذ رئيس كهنة طيبه كما سيجىء الكلام على ضعفه وعجزه بعد .

وتوفى شاباكا عام ٧٠٠ قبل الميلاد بعد ما حكم اثنتى عشرة سنة تقريبا، ويرجح أنه حكم أطول من ذلك فى النوبة . وتبعه فى الملك ملك نوبى يدعى شاباتاكا (Shabataka) لا نزال نجهل علاقته بالبيت المالك النوبى بالضبط ، رغم ما أورده مانيتو من أنه ابن شاباكا ، وقد سماه مانيتو فى تاريخه سبيكوس (Sebichos) . وبقى شاباتاكا حاكما فى هدوء وسكينة لأن مستعمرات آسيا الغربية بقيت ساكنة لا تحرك ضد آشور، زد على ذلك أن سناشريب كان مشغولا فى حروبه مع مستعمراته الشرقية . ولم نعثر للآن على اسم شاباتاكا على الآثار المصرية إلا نادرا، وانما يستدل من الحوادث التى تلت حكمه أنه كان ضعيفا غير كفء لمكافحة أمراء أقاليم مصر وجمع قوتهم كى يستعد لقتال آشور الذى كان ينتظر حصوله آنا فآنا .

لقد وضح للعيان أن الإثيوبيين ليسوا أكفاءا لاستلام مقاليد الحكم، وقد زاد هذا وضوحا فى أواخر حكم شاباتاكا الذى انتهى حوالى عام ٦٨٨ قبل الميلاد .

ويجدر بنا فى هذا المكان أن نستقصى أخبار الأمير طهراقه بن بيعنخى الذى ترك نبته شابا بالغا من العمر عشرين سنة وتوجه الى مصر مع الملك شاباكا على الأرجح —[3] فنقول : ان طهراقة هذا ابن امرأة نوبية وتبدو على وجهه ملامح الزنوج . والحق يقال ان هذا الأمير قام بأعمال عظيمة تناسب علاقته ببيعنخى ، من ذلك ما ذكرناه آنفا من أنه قاد الجيوش المتحدة ضد سناشريب . أما كيفية جلوس هذا الأمير على العرش فلا نزال نجهلها لكن مانيتو أخبرنا أنه قاد جيشا جرارا من إثيوبيا وقتل شاباتاكا ثم اغتصب العرش الفرعونى . أما الآثار المصرية فلم يعثر على ما يشير الى مثل هذا الانقلاب فيها، وكل ما وجد على آثار تنيس أن الملك طهراقه طلب من أمه أن تحضر الى مصر من نبته بعدما غاب عنها عدة سنوات ودعاها لتسلم مركزها السامى بمصر كالأم الملكية[4]. من ذلك يستنتج أن المصريين كانوا فى انتظار غزوة آشور للدلتا وأن الإثيوبيين اتخذوا تنيس عاصمة لقربها من آشور .

(١) راجع سابقا صحيفة ٢٣٦ (٢) ٤ : ٨٨٦ و ٨٨٩ (٣) ٤ : ٨٩٢ و ٨٩٥ (٤) ٤ : ٨٩٢ — ٦

واستمر طهراقه يحكم بلا منازع من جهة آسيا لمدة ثلاث عشرة سنة شيد فى أثنائها عمارات صغيرة بتنيس ومنف وأخرى أكبر حجما بطيبه ، وأيقن قرب هجوم آشور عليه فأخذ يعد عدته لذلك . وليلاحظ أن آسيا الغربية مضى عليها حوالى عشرين عاما لم ترفيها سناشريب الذى قتله أولاده عام ٦٨١ قبل الميلاد . بعد ذلك تولى ابنه آشور أخى الدين (Esarhaddon) الملك فأخذ يستعد لغزو مصر والقضاء على فرعونها كى يستريح من تدخلها المستمر فى شؤون مستعمراته الفلسطينية والسورية ، فوصل بجيشه العرمرم الى حدود الوجه البحرى عام ٦٧٤ قبل الميلاد[1] وهناك التقى بقوات طهراقه الذى كان أكثر شجاعة واقداما من سلفيه . ودارت رحى القتال بين الطرفين وانتهى الأمر بفوز المصريين على آشور كما ورد على الآثار عام ٦٧٣ قبل الميلاد .

بعد ذلك أخذ آشور أخى الدين يستعد طى الخفاء لغزو مصر . وفى ذلك الوقت انضم بعل ملك صور الى المصريين ضد آشور ، وذلك على أثر علمه بهزيمتها الأخيرة على الأرجح ، وفى عام ٦٧٠ قبل الميلاد ظهر آشور أخى الدين ثانيا فى غربى آسيا قائدا جيشه وحاصر صور وانضم اليه بعض العرب فدلوه على طريق الصحراء الى مصر ، وقد استخدم جمالهم لحمل مياه الشرب وقت اختراق الطريق . بعد ذلك التقى بجنود طهراقه الذى لم يكن مستعدا جيدا لهذا الكفاح ، فدارت رحى القتال بين الطرفين وانتهت بفوز آشور وتمزيق شمل المصريين . على أثر ذلك تقهقر طهراقه نحو منف لكن آشور أخى الدين تتبعه بشدة وبسرعة لا تعرف الملل فاستولى على منف وسلبها من كل ثمين ، ثم فر طهراقه جنوبا تاركا الوجه البحرى فى أيدى آشور أخى الدين الذى نظمه وضمه الى أملاكه ، وذكر آشور أخى الدين أسماء عشرين أميرا عينهم ملوك النوبة على الدلتا وقال عنهم انهم أتوا اليه وحلفوا له يمين الطاعة فسمح لهم بالبقاء فى مراكزهم بشرط أن يستمروا موالين له . وقد لاحظنا أن فى هذه الأسماء المكتوبة بالخط المسمارى ما يشير الى تكرار بعضها أو الى انتماء بعض هذه الأسماء المتشابهة الى أسرة واحدة ، وقد سبق ليبعنخى أن عامل أمثال هذه الأسر سابقا كما ألمحنا . وجاء بين هذه الأسماء اسم الأمير نيخاو (Necho) بن تفنخت نعت بأنه أمير صا الحجر ومنف . وورد ضمن هذه القائمة أيضا اسم أمير طيبه لكن هذا القول يستبعد تصديقه لأن آشور أخى الدين لم يحتفظ إلا بالسلطة الاسمية على الوجه القبلى . ورجع آشور أخى الدين الى وطنه متبعا طريق الساحل البحرى شمالا مارا بصخور نهر الكلب فنقش عليها لوحا أثريا أثبت عليه انتصاراته الحربية ، وهو يجاور الأثر الحجرى الذى تركه رمسيس الثانى المذكورة فيه انتصاراته أيضا (شكل ١٥٩) . ولما بلغ آشور أخى الدين شمال سنجرلى (Samal or Senjirly) شمالى سورية نصب فيها أثرا عظيما يمثله قابضا على أسيرين يغلب على أحدهما أنه بعل ملك صور وعلى الآخر أنه طهراقه المسكين لما تبدو عليه من ملامح الزنوج (شكل ١٨١) .

وهكذا يتضح للقارئ أن القطر المصرى حكمه الأجنبى فى عهد الليبيين ثم فى عهد النوبيين ثم أتت آشور بعد ذلك فبسطت نفوذها على مصر . وبديهى أن القوة الثالثة الأجنبية متباينة تماما عن

(١) راجع مصادر الغزوات المقبلة لآشور أخى الدين بكتاب ونكلر ، شرحه ، صحيفة ٩٧ — ١٠٦

السابقتين وأن الليبيين والنوبيين تمصروا وحكموا مصر كأنهم فراعنة . أما آشور فحكمت الدلتا من دون مراعاة شفقة أو عطف نحو المصريين وعاداتهم ولذلك لم يحتمل الأمراء المصريون ذلك العسف الأسيوي، فحنثوا في يمين ولائهم الذي أقسموه لآشور وأخذوا يتحدثون سرا مع طهراقه ليستعيد الحكم في الدلتا . على أثر ذلك أتى طهراقه الى الوجه البحري بعد ما رجع جيش آشور الى وطنه، فاضطر آشور أخي الدين أن يعيد الكرة على مصر ، لكنه توفي في أثناء زحفه عليها عام ٦٦٨ قبل الميلاد .
فلما تولى الملك بعده ابنه آشور بانيبال (Ashurbanipal) اتبع خطة والده بسرعة وعهد الى أحد ضباطه بقيادة الحملة الى مصر، فلما التحمت جيوش آشور مع جيوش طهراقه فيما بين منف وشرقي الدلتا انهزم طهراقه الذي لم يتحصن بعد ذلك بمنف كما فعل سابقا بل فر نحو طيبه حيث تحصن . لكن الآشوريين جمعوا المدد من الوجه البحري وزحفوا أربعين يوما حتى بلغوا طيبه فاضطر طهراقه أن يغادرها وأن يتحصن بأعالي النيل . عند ذلك لم يتعقبه جيش آشور بل تركه وشأنه . ولم يثبت للآن اذا كانت آشور استولت على طيبه وقتئذ أم لا ؛ لكن الثابت أن سلطة آشور بانيبال لم تمتد الى الوجه القبلي . ولما أراد آشور توطيد نفوذه بالدلتا أخذ ولاته هناك يتراسلون سرا مع طهراقه لينقذهم من نير آشور . وكانت هذه العصابة برياسة نيخاو الذي ولاه آشور أخي الدين على صا الحجر وشارولوداري (Sharuludari) والى تنيس و پاكورو (Pakruru) ، والى سفط الحنة (Persepet) وأرسلت عيون آشور بمصر خبر هذه المؤامرة الى آشور بانيبال فأمر بارسال هؤلاء الرؤساء مصفدين بالأغلال الى نينوى . عند ذاك احتال نيخاو بدهائه حتى استمال عطف آشور بانيبال عليه فصفح عنه وأغدق عليه النعم ثم أرجعه الى مركزه بصا الحجر وعين ابنه واليا على أتريب (بنها) لكنه أرسل معه موظفين آشوريين لمراقبته . وقد نجحت هذه الحيلة جيدا فلم يظهر طهراقه ثانيا بالدلتا لعدم مساعدة ولاة الوجه البحري له ، لكنه بالرغم من ذلك قد أرّخ كهنة پتاح بمنف تاريخ وفاة عجل من عجول آبيس سرا باحدى الطرق المحفورة تحت الأرض بمدفن تلك العجول المعروفة بالسرابيوم فكتبوا عليه السنة الرابعة والعشرين من حكم طهراقه (عام ٦٦٤ قبل الميلاد)[1] .

ومضى على هذه الحال عدة سنوات كان الوجه القبلي في أثنائها تحت سلطة طهراقه الفعلية . أما رئيس كهنة آمون بطيبه فقد أصبح الآن قليل النفوذ ضعيف السلطة ، والسبب في ذلك أن النفوذ كان هناك في يد شخص يدعى منتمحت (Mentemhet) الملقب "أمير طيبه" أو "حاكم الجنوب ورئيس كهنة مصر" وذلك رغم كونه الرابع في ترتيب طيبه الكهنوتي ، والظاهر أن زهرة طيبه ذبلت وقتئذ، والمعروف عن هذا الأمير أنه كان قويا ثريا صرف أموالا طائلة في اصلاح ما تلف من المعابد بعد الذي أحدثه الآشوريون (على الأرجح) بالرغم من فقر مصر وبؤسها[2] . واستولى طهراقه على دخل آمون بطيبه بأن عين أخته المدعوة شپنوپت (Shepnupet) بدل الأميرة أمنارديس أميرة طيبه الدينية التي عينها پيعنخي بطريقة مماثلة[3] . ويعزى الى طهراقه أنه شيد أو أصلح معبدين عظيمين بنبته عاصمة إثيوبيا[4] التي عظمت وصار لها منزلة كبيرة تتناسب مع مقام مملكتها السامي وقتئذ.

(1) ٤ : ٩١٧ ملاحظة (2) ٤ : ٩٠١ ملاحظة (3) ٤ : ٩٤٠ (4) ٤ : ٨٩٧ ملاحظة

وبعد ما حكم طهراقه خمسا وعشرين سنة أشرك معه فى الملك ابن شاباكا المدعو تانوت آمون (Tanutamon) — بدواع اجبارية على الأرجح — وعينه حاكما على صعيد مصر وذلك عام ٦٦٣ قبل الميلاد. والظاهر أن تانوت آمون استمر فى طيبه وقتا كان منت محت أمير طيبه محافظا على سلطته هناك، أما طهراقه فرجع الى نبته متعبا من كفاحه مع آشور واستقر هناك حتى توفى، وذلك قبل أن تنقضى سنة تقريبا على تولية تانوت آمون (أى عام ٦٦٣ قبل الميلاد) . عند ذلك أسرع تانوت آمون الى نبته وتسلم عرش النوبة[1]. وقبـل ذلك بقليل رأى تانوت آمون فيما يرى النائم حلما فسر بأنه سيستولى يوما ما على وجهى مصر[2]، فبدأ حال توليته الملك بتحقيق المنام وذلك سـنة ٦٦٣ قبل الميلاد . ولعب على مسرح الحياة مثل الرواية التى مثلها طهراقه ، فلما بلغ الوجه القبلى حيته الأهالى بالمديح والتصفيق، لكنه لما بلغ منف قابلته قوات آشور ومدن أمراء الدلتا الوجلين من آشور، فتغلب عليهـم واستولى على منف[3] . والظاهر أن نيخاو خر صريعا فى هـذه المعركة وقال هيردوت ان ابنه المدعو پسامتيك (Psamatik) فر الى سوريا ، ففرح تانوت آمون بنصره كثيرا وأرسل بعض غنائمه الى نبته ليشيد بهـا معابد جديدة[4] . أما ولاة الوجه البحرى فانهم لم يسلموا بلادهم لتانوت آمون لخوفهم من آشور، فلم يتمكن تانوت آمون من الالتقاء بجيوشهم أو القبض على بلادهم[5] فرجع الى منف وقابل هناك أمراء الوجه البحرى الذين أظهروا له الود والخضوع بشكل لا يفهم منه أنهم قطعوا صلتهم مع آشور[6] .

واقتصر تانوت آمون على سـيادته على الوجه البحرى فاتخـذ منف مقرا له محققا بذلك منامه، لكن ولاة آشـور بالوجه البحرى كانوا قد طـيروا خبرا على جناح السرعة الى آشور بانيبال فى نينوى حالمـا غادر تانوت آمون نبته ، ولذلك أتى جيش آشور عام ٦٦١ قبـل الميلاد الى مصر وطرد الإثيوپيين من الوجه البحرى نهائيا ففر تانوت آمون بشكل مخز الى الصعيد ، لكن الآشـوريين تعقبوه حتى طيبه وسلبوا عاصمة القطر فلم يتركوا فيها ثمينا الا سلبوه، فاستولوا مثلا على التماثيل البديعة والأثاث الجميل والأدوات الغاليـة التى أهداها الأمير منت محت الى المعابد . وأخذ الآشوريون خلاف ذلك مسلتين فضيتين زاهيتين زنة كل منهما ٢٥٠٠ تالنت (التالنت يقرب من ٥٧ رطلا) كانتا منصوبتين على مدخل أحد المعابد[7] وقد نقلوهما الى نينوى . ومن هذا يتجلى لنا أن معابد طيبه المهمة كانت محتفظة بثروة عظيمة حتى فى ذلك العهد . وانتشر نبأ خراب طيبه فى الآفاق فبقى ثابتا فى ذهن النبى ناحوم وقتا تنبأ بخراب نينوى بعـد مضى خمسين سـنة على هذه المحنة . واليك نص ما جاء بالكتاب المقدّس بسفر ناحوم بالإصحاح الثالث آية ٨ — ١٠ :

"(٨) هل أنت أفضل من نو آمون (طيبـه) الجالسة بين الأنها رحولها الميـاه التى هى حصن البحر ومن البحر سورها ؟ (٩) كوش قوتهـا مع مصر وليست نهاية فوط ولوبيم كانوا معونتك . (١٠) هى أيضا مضت الى المنفى بالسبى وأطفالها حطمت فى رأس جميع الأزقة وعلى أشرافها ألقوا القرعة وجميع عظمائها تقيدوا بالقيود" .

(١) ٤ : ٩٢٣ ملاحظة (٢) ٤ : ٩٢٢ (٣) ٤ : ٩٢٥—٨ (٤) ٤ : ٩٢٩
(٥) ٤ : ٩٣٠ (٦) ٤ : ٩٣١ (٧) Winckler, op. cit.



شكل ١٨٣ — منظر عام لمعبد الكرنك مأخوذ بآلة التصوير الشمسي من جهة الجنوب من صرح معبد خونسو الذي أسسه رمسيس الثالث .
وتشاهد حجر معبد خونسو في الجزء الأسفل للصورة . وتشاهد وسط الظلال القائمة بقعة بيضاء هي عبارة عن ضوء داخل المعبد عن
طريق الباب الوارد ذكره في صلب الكتاب في صحيفة ٣٥١

منذ ذلك الوقت أخذت طيبه تضمحل وتندثر بعد ما كانت مضرب الأمثال فى الغنى والجاه ، ولا تزال الى الآن حاوية أعظم الآثار والأطلال من تلك العصور القديمة .

وكان رجوع تانوت آمون الى نبته نهاية الحكم الإثيوبى بمصر . أما حياة هـذا الملك فملوءة بالضعف وقلة الكفاية كأصله . ولا يخفى أن الإثيوبيين بدءوا ملكهم بوسـط إفريقية ثم رغبوا فى منافسة سياسة غربى آسيا فى الوقت الذى كانت فيه آشور مسيطرة على الشرق ، ولم يكن فى وادى النيل المـاجد التاريخ من يعارضها فى الحكم سـوى الإثيوبيين الذى لم يحوزوا أقل كفاية فى مقاومة ومكافحة آشور . وعجز الإثيوبيون عن ضم سلطة أملاكهم لمكافحة آشور وحاولوا كثيرا مقاومتهـا لكنهم أظهروا فى كل محاولة مثالا من الضعف وعدم الكفاية . ونحن لا ننكر أن طهراقه نجح فى صد هجوم آشور أخى الدين وحافظ على كيان مملكته مدة يسيرة ، لكن ذلك لم يدم طويلا لأن آشور سرعان ما أرسلت اليه قوة حربية قضت عليه وأقصته بشكل مخز الى أعالى النيل . وقصارى القول أن كفاح آشـور فى عزها مع إثيوبيا لم يكن بحال من الأحوال كفاح النـد للند من حيث المقدرة والقوة والكفاية .

ولما رجع الإثيوبيون الى بلادهم لم يحاولوا الإياب الى مصر بل صرفوا همهم فى ترقية النوبة ثم أخذ عدد المصريين فى تلك الجهات يقل بمرور الزمن ، فتلاشت تدريجا الصبغة المصرية بها ثم تدلت البلاد ودخلت فى طور البربرية وانتقلت سلطتها تدريجا من الملوك الى الكهنة فأصبحت سلطة الملك اسمية .

ثم قويت شوكة الكهنة فكانوا يأمرون الملوك أحيانا بالانتحار ويعينون غيرهم بدلهم . وبعد ما كان الملوك يستوطنون نبته ويشيدون بها العمارات ويزينونها اضطر خلفهم أن ينتقل الى أعالى النيل ، ولهذا الانتقال عدة أسباب أولها غزوة بسامتيك الثانى للنوبة فى القرن السادس قبل الميلاد . والمعروف أن النوبة أخذت تتسع من ذلك الوقت جنوبا فانضم اليهـا وادى النيل الأزرق الخصب المعروف عنـد العرب باسم ألوا (Aloa) فانفصلت بذلك نبته عن اقليم الشلالات النيلية ، ثم أخذت تجارة النوبة مع الأقاليم الجنوبية تزداد كما كثرت أيضـا مستعمراتها بتلك الجهة ولذلك لم يحل عام ٥٦٠ قبـل الميلاد حتى كان ملوك النوبة مستوطنين عاصمتهم الجـديدة المعروفة عند اليونان باسم مروة (Meroe) .

وبديهى أن انتقال العاصمة جنوبا قطع عنهـا الصلة بالعالم الشمالى وأدخل إثيوبيا تدريجا عالم الجهل والخيال مع أن اليونان اعتبروها منبع الحضارة .

بعد ذلك امتنع ملوكها من استعمال الخط المصرى القديم واللغة المصرية القديمة فلم تبزغ شمس عهدنا حتى صار أهالى تلك البلاد يستعملون خطا مخالفا لخط الهيروغليفى كلية وللآن لم تحل رموز هذا الخط .

ولما غزا الرومان تلك البلاد تحطمت أركان المملكة الإثيوبية ولم يمض على ذلك قرن أو اثنان حتى احتل الأقوام المعروفون باسم بلميس (Blemmyes) الآتون من الشرق جزءها الشمالى ، أما الجزء الجنوبى فقد احتكرته مملكة الحبش المسيحية التى نشأت حول منـابع النيل الأزرق فى القرن الرابع بعد الميلاد واحتكرت لنفسها الآن اسم الوطن الأصلى إثيوبيا .

الكتاب الثامن

دور الإصلاح ــ النهاية

الفصل السابع والعشرون

دور الإصلاح

يرجح كثيرا أن نيخاو أمير صا الحجر توفى فى كفاح مع تانوت آمون وأن ابنه المدعو پسامتيك هرب الى الآشوريين كما سبق القول ، وعلى أثر ذلك عينه آشور بانيال أميرا على اقليم والده الأصلى وأضاف اليه أيضا اقليم منف . ومنذ ذلك الوقت صارت مصر فى حالة بؤس وخضوع تحت حكم الآشوريين الذين شجعوا هجرة الأجانب اليها ونظموا ترتيب ولاتهم .

ومعلوم أن الوجه البحرى كان تحت رحمة أمرائه الأجانب المأجورين منذ الأسرة الحادية والعشرين. أما الصعيد فلم يكن واضح النظام والتبعية ، لكن المعروف أن منت محت استمر محافظا على سيطرته هناك . وفى وسط هذه الظروف السيئة لم يتصور أحد ما قدّر لمصر فى عالم الغيب من أيام البشر والسرور فى القريب العاجل ، والفضل فى فك هذه الكربة يرجع الى پسامتيك الذى بذل كل جهده للاستيلاء على موارد القطر ليحقق بذلك آمال أسرته من الاستقلال بمصر والجلوس على عرشها . ولا غرابة فى ذلك فهو من سلالة تفنخت الصاوى الشديد رئيس إمارة صا الحجر فى عهد پيعنخى الذى امتاز على كل أفراد أسرته بالقوة والحنكة السياسية كما ظهر لنا من تاريخهم .

وأول خطوة خطاها پسامتيك كانت الخلاص من سلطة ولاة آشور بمصر . والظاهر أنه كان عالما بقرب حصول نزاع شديد بين آشور بانيال وأخيه ملك بابل واشتراك بلاد. عيلام (Elam) فى الأمر. وفى سنة ٦٥٢ قبل الميلاد قامت الحرب المنتظرة فأرسلت بلاد العرب مددها الى بابل ضد آشور فاضطرت هذه الأخيرة الى ارسال جيش قوى لعقابها . ثم حصلت اضطرابات فى البلاد شمالى نينوى تطلبت ارسال قوات أخرى من آشور لإخضاع أهالى السميريين (Cimmerians) بقليقيا (Cilioia) واستمرت رحى الحرب الآشورية العظمى دائرة مدة اثنتى عشرة سنة فلم تهدأ إلا فى سنة ٦٤٠ قبل الميلاد لما كانت حركة پسامتيك بلغت حدا بعيدا لم يجرؤ آشور بانيال بعد ذلك على ما يظهر أن يخاطر باخضاعها .

لقد ترك لنا اليونانيون عدة حكايات عن عهد پسامتيك اعتبروها صادقة، وهى فى الحقيقة تحوى كثيرا من الحوادث الواقعية . من هذه ما رواه هيرودوت عن كيفية جلوس پسامتيك على عرش مصر حيث قال: "ان پسامتيك كان واحدا من اثنى عشر أميرا مصريا اقتسموا مصر فيما بينهم . ففى يوم من الأيام أخبر أحد الكهنة أمراء مصر أن أحدهم لا بد أن يشرب الشراب ذات يوم للتقرب الى

المعبود بتاح فى قدح من البرنز، وبهذا يصير ملكا على الأقاليم المصرية. فلما كان هؤلاء الأمراء مجتمعين للمنادمة على الشراب تقربا الى تمثال بتاح ولم تكن أقداح الذهب المعروضة بينهم على قدر عددهم اذ كانت تنقص كأسا لسهو حصل من الكاهن المكلف تقديم الأقداح اليهم، فبقى أحدهم وهو بسامتيك بدون قدح فنزع مغفره[1] من رأسه وكان من البرنز وشرب فيه الشراب فتذكر رفقاؤه بشرى الكاهن السابق فأكرهوه على أن يهاجر الى بعض أجمات الوجه البحرى خشية أن يستبد بالملك دونهم.

وأقام ببعض الأجمات وبعد وصوله اليها أحضر كاهنا من الكهان وسأله عما سيقع له فأخبره أنه لا بد أن يستبد وحده بملك مصر وأن ينصره على أقرانه رجال من البرنز يقدمون عليه من جهة البحر الأبيض المتوسط، فانتظر وعده. واتفق أن ألقت عاصفة بحرية سفنا بتلك الجهة فيها رجال أشداء من ملاحى اليونان (كاريين وأيونيين) مسلحين بأسلحة من البرنز فخرجوا فى البر وأخذوا ينهبون الوجه البحرى. وتذكر بسامتيك خبر الكاهن فبادر الى الملاحين الوافدين وأكرم نزلهم وتحالف معهم على أن ينصروه فدخلوا فى خدمته واستعان بهم على شن الغارة على اخوانه فظفر بهم واستبد بالملك وحده.

اذا استثنينا ما جاء بهذه الرواية من المبالغات فان القارئ يجد بها حقائق هامة عن أعمال بسامتيك الأولى. فالأمراء الاثنا عشر هم أمراء الوجه البحرى السابق الكلام عليهم. أما الجنود الأيونيون والكاريون فقد خبرنا عنهم ماير (Meyer) بأنهم أرسلوا من قبل جيجس (Gyges) ملك ليديا الى مصر بقصد الاتفاق معها على التخلص من حكم نينوى بعد ما تخلص من أعدائه السميريين بالتجائه الى آشور سابقا. وجاء فى الآثار الآشورية أن هذا الملك أرسل مساعدة حربية الى مصر، وعلى كل فلا بد أن يكون لبسامتيك يد فى الاضطرابات ضد آشور وأنه اغتنم تلك الفرصة فانتصر على أقرانه أمراء مصر واعتلى العرش الفرعونى.

وأسرع بسامتيك الى لم شعث مملكته ففى سنة ٦٥٤ قبل الميلاد لما كانت الجيوش الآشورية زاحفة على بابل كان بسامتيك قد استولى على طيبه واعترف به متمحت صديق طهراقه[2]. أما إمارة طيبه فقد تشتت وتفرقت اثر الغزوات الإثيوبية ولذلك لم تعترض بسامتيك هناك اضطرابات أو مشاغبات. وأراد بسامتيك أن يستولى على ما بقى من دخل آمون فعين أخته نيتقريس (Nitocris) بدل شب نوبت سيدة كهنة طيبه وأخت طهراقه المتوفى. وقد عثرنا على المرسوم الملكى القاضى بذلك وهو النص الوحيد الطويل الذى عثر عليه للآن من آثار بسامتيك الأول. وجاء فى هذا المرسوم أن شب نوبت تنازلت عن أموالها وأمتعتها الى نيتقريس[3]، ومنه يتضح أن هبوط كهنة آمون كان سريعا، ففى ظرف ستين سنة تقريبا تغير رؤساء كهنة آمون الأقوياء الأشداء واستبدل بهم أميرات مقدسات وهكذا أصبح رئيس كهنة آمون امرأة![4].

---

(1) المغفر برنز المبطن زرد ينسج على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة (2) ٤: ٩٣٧ و٩٤٠

(3) ٤: ٩٣٩ — ٩٥٨ (4) ٤: ٩٨٨ ملاحظة (د)

ان قضاء پسامتيك على أمراء مصر جاء رحمة ونعمة على القطر الذى كان من أمد يتلظى بنار الفوضى ، وبهذه الكيفية نجت مصر من حكم هؤلاء الأمراء وأتباعهم الحربيين الذين جروا على وطنهم الذل والهوان مدة أربعمائة سنة تقريبا، وصار پسامتيك بفضل هذه الأعمال من أعظم أكفأ فراعنة مصر. ولقد واجهته مشاكل عديدة خطيرة زيادة على الآفات التى كانت متغلغلة بالقطر من قديم الزمن ، ومع ذلك فقد نجح پسامتيك فى حلها وأرجع النظام الى نصابه، فساوى پسامتيك فى الشرف والمنزلة أمنمحعت الأول مؤسس الأسرة الثانية عشرة وأحمس الأول طارد الهيكسوس . وبالرغم من الأعمال التى قام بها پسامتيك فانه لم يتمكن من استئصال الأمراء كما يدعيه البعض لأن بعضهم انضم اليه فلم ينله الضرر . وقد عثرنا على أخبار هؤلاء الأمراء على الآثار مثل الأمير منت محت بطيبه فقد سمح له پسامتيك أن يبقى حاكم الجنوب[1] وكذا أمير إهناس المدعو هور (Hor) القائد فقد سمح له پسامتيك أيضا بالبقاء فى امارته حيث شيد معبدا عظيما باسمه بعد وفاة پسامتيك الأول بجيل تقريبا[2] . وعثر على مقبرة بطيبه لشخص يدعى پدى امناوپت (Pediamenemopet) غاية فى الجمال والرونق مما يؤكد أن صاحبها كان عظيم النفوذ فى مصر فى عهد پسامتيك . ومما يسترعى النظر أن الأمير منت محت بطيبه طلب منه أن يدفع الضرائب الى نيتقريس كريمة پسامتيك الأول[3] . وأهم من هذا وذاك أن منت محت لم يرثه ابنه المدعو نسو پتاح (Nesuptah) بل تبعه رجل يقال له پدى حور (Pedihor) لقب "أمير طيبه وحاكم الجنوب"[4] . ولا يبعد أن تكون هذه نتيجة سياسة پسامتيك التى كانت ترمى الى التخلص من نفوذ أمراء مصر ومحو توريث المراكز الحكومية .

يتضح من ذلك أن پسامتيك سمح لبعض الأمراء أن يحتفظوا ببعض نفوذهم، لكن هؤلاء كانوا قليلى العدد مقيدى السلطة ، فجاء عمله هذا مشابها تماما لما فعله أمنمحعت الأول أيام المملكة الوسطى ، وبهذه الكيفية زال خطر انحلال الأمة المصرية .

وكان من أصعب الأمور على پسامتيك إنشاء قوة حربية ففكر فى الأمر فوجد أمامه الليبيين الذين عاشوا بمصر عدة قرون حتى كثر عددهم وهم كما لا يخفى حربيون لكنهم أصبحوا الآن عديمى الخطر على العرش المصرى . وقد غلا هيرودوت فى مقدار عددهم والحقيقة أننا لا نزال نجهل ذلك بالضبط مما المعروف عنهم أنهم كانوا مستوطنين بالدلتا . وقد قسمهم هيرودوت الى قسمين قسم يدعى هرموتيبيس (Hermotybies) وقسم يقال له كالاسيريس (Calasiries) وهؤلاء لم تستفد منهم الأمة المصرية شيئا من الوجهة الاقتصادية بل كانوا عقبة كئودا فى سبيل پسامتيك، لذلك لم يحدجلالته بدا من تسليط الجنود اليونانية والكارية (Carians) عليهم . وهكذا بعد ما قطعت مصر شوطا بعيد المدى فى الحياة الحربية أصبحت الآن تستخدم لحمايتها جنودا أجانب مأجورين تابعين لدول متباينة . فألف پسامتيك جيشه من يونانيين وكاريين وسوريين من جهة، ومن ليبيين وغيرهم من الأجانب

(1) ٤ : ٩٤٩ (2) ٤ : ٩٦٧ — ٩٧٣ (3) ٤ : ٩٤٩ (4) ٤ : ٩٠٢ (الآتى) .

المتمصرين من جهة أخرى ، وحشد عسكره الأيونيين والكاريين بالقرب من دفنه (Daphnæ) وهى على حدود مصر الشمالية الشرقية التى يخترقها فرع النيل . أما غربى الدلتا فكان محميا بقوة حربية أخرى من هذا النوع بجهة قلعة مريا (Marea) القريبة من الاسكندرية . ووضع پسامتيك حامية أخرى بجزيرة الفيل بأسوان لمنع غارات النوبة من الجنوب .

قال هيرودوت ان مائتين وأربعين ألفا من جنود مصر هجرت معسكرها جهة أسوان وعرضت مساعدتها لملك إثيوپيا لاستيائها من لبث ثلاث سنوات بمعسكرها بدون تنقل ، ولا يخفى أن هذا العدد مبالغ فيه كما هى العادة عند هيرودوت ، لكن الرواية فى حد ذاتها تحوى شيئا من الحقيقة لأنها تمشى مع معلوماتنا عن أحوال القطر فى عهد پسامتيك الأول . وقد اختار الملك ألفا من جنود الهرموتيبيس وألفا من الكاليسيريس ليكونوا ضمن حرسه الخاص . أما الجنود الأجانب التى كانت لدى جلالته فكانت كثيرة جدا على حسب ما اقتضته الظروف .

ان رقى مصر وحضارتها فى هذا العهد الذى نحن بصدده يختلفان كثيرا عنهما فى العصور السالفة ، لأن الأمة المصرية فقدت تلك الروح العسكرية التى دبت فيها اثر غزوة الهيكسوس فاستحال على پسامتيك جعلها أمة حربية وصرف مجهوده فى توطيد حالة البلاد الاقتصادية ، واتكل لنيل غرضه على الجنود الأجانب المأجورة التى صارت ضرورية لكل حاكم شرقى . لكن پسامتيك كان كثير الاهتمام بانشاء مملكة حربية بعد ما حسن حالة وطنه الاقتصادية وحشد لها جيشا مصريا عظيما وان كان معظمه أجنبى الأصل . وبديهى أن دخول العنصر الأجنبى فى الجيش كان أمرا لا يمكن التخلص منه . ومعلوم أن الاحتفاظ بجيش كامل فى مثل هذه الظروف تطلب ترقية مالية المملكة المصرية بازدياد ايرادها لأن وجود أحد هذين الأمرين يحتم وجود الآخر . لذلك كان مركز پسامتيك وقتئذ أشبه كثيرا بمركز عمر والخلفاء الأول . وهكذا يتضح أن رقى القطر فى مثل هذه الظروف يتعلق كثيرا بكفاية حاكمه ومقدرته فى استعمال القوى التى لديه كالجيش والعمال كى ينتظم بذلك دولاب الأمور ويسير نحو النمو والتحسين . ولقد كان پسامتيك اليد المحركة والرأس المدبرة ، أما الأهالى فكانوا يقومون بالأعمال بحرية حيثما يوجههم ، لكنهم كانوا فاقدى الحماسة والغيرة (على عكس ما كانت عليه الحال أيام الخلفاء) . فلما انتظم دولاب الحكومة تبعه عهد الرخاء وانغمس القوم فى الرفاهية وعكفوا على التنعم الذى شمل أسلافهم أيام الأسرة الثالثة والعشرين . وبدلا من بذل المجهود فى ابتكار الطرق الجديدة لتحسين حال القطر كما فعل أهالى الامبراطورية رجع الأهالى الى اتباع نظام الحكم القديم السابق لعهد الامبراطورية والذى يرجع تاريخه الى ما ينيف على ألف سنة . لذلك عبد القوم ملوك منف الأقدمين وجددوا القربان والهدايا التى كانت توزع على أرواحهم ورمموا أهرامهم العظيمة واستعملوا الألقاب والرتب التى تحلى بها أمراء عهد الأهرام فى القصر الملكى والحكومة وبذلوا جهد طاقتهم فى صبغ حكومتهم بصبغة حكومة أجدادهم الأقدمين . ولم يكتفوا بذلك بل استعملوا الخط الهيروغليفى فى مكاتباتهم وفى احتفالاتهم الرسمية ، ولا بد أن كتابهم لقوا صعوبة عظيمة للرجوع الى ذلك . أما الديانة فقد عمل فيها كل ما يمكن لتطهيرها من العقائد الأجنبية والبدع الحديثة ، فأبطلت عبادة

ست المعبود الأجنبي الذى كان يرمز به للخراب والدمار . وهكذا انفردت الأمة المصرية بنظام عام صعب التغيير كالذى حل بالأمة الاسرائيلية بعد ذلك بقليل . ثم أخذ القوم يستعملون نصوص الأهرام القديمة من جديد وينقشونها على توابيتهم الحجرية الضخمة رغم جهلهم بمعانيها فى أغلب الأحيان . ثم نظموا نصوص كتاب الموتى لآخر مرة فصار طوله ستين قدما من الورق البردى، ومنه تتضح لنا شواهد عديدة لإحياء أدبيات الموتى القديمة. وصار الانسان يشاهد على جدر المعابد والمقابر رسوم أحوال المعيشة فى البرارى والحقول وكذا رسوم المعامل ومصانع السفن . وقد أخذت هذه المناظر فى الحقيقة من مصاطب عهد المملكة القديمة بدقة يخيل لناظرها من أول وهلة أنها من العهد السحيق ، فقد جاء فى الآثار أن رجلا من طيبه يدعى أبا (Aba) أرسل حفاريه الى مقبرة بأسيوط من مخلفات المملكة القديمة ليرسموا له نقوشها على قبره لشبه فى اسمه باسم صاحب تلك المقبرة القديمة.

ولا يخفى أن عودة الديانة وأحوال المعيشة والحكومة الخاصة بالعهد القديم لازمتها مصاعب ظاهرة وخفية لأن هذا التغير شمل حياة القوم وأحوالهم السياسية والاقتصادية ، وهذا أمر لا يحتاج الى بيان لأن التغيرات التى اعترت القوم مدة ألفى سنة بعد المملكة القديمة ليس من الممكن القضاء عليها بسهولة ، ولذلك ترى أنه مع صبغ الأحوال الخارجية بالصبغة الوطنية القديمة فان الحقائق الثابتة الحديثة لا تزال بادية من وراء ذلك الثوب الخارجى ، وهذه الحالة تشابه تماما حالة بنى اسرائيل لما أرادوا الرجوع الى أحوال المعيشة والنظام التى كانوا عليها أيام سيدنا موسى ، فكانت نتيجة هذه المجهودات كلها أن القطر انتعش منها نظريا أكثر منها عمليا . ولم يكن هذا الانتعاش بالصعب فى العهد الصاوى لأن المصريين اعتادوا من قديم الزمان أن ينسبوا معظم نصوصهم الدينية وعلاجاتهم الطبية المحبوبة والأمثال والحكم الى عصورهم العتيقة . وبديهى أن هذه النسبة كانت صائبة أحيانا فى بعض أمور عهد الامبراطورية ، أما فى عهد الأسرة السادسة والعشرين فلم تكن كذلك .

وكان الرجوع الى الذوق القديم فى الفنون الجميلة من أصعب الأمور ، والسبب فى ذلك أن هذه الفنون ارتقت كثيرا فى العهد الإثيوبى فكان الذوق السليم فى العهد الصاوى يقظا لكل تغير يعتريه كالذى نحن الآن بصدده . وبالرغم من أن نصوص ورسوم العهد الصاوى كانت تؤخذ من المقابر المصرية القديمة فان الباحث بعد دقة الفحص والإمعان كثيرا ما يميز رسوم العهد الصاوى من العهد القديم ، والسبب فى ذلك أن الأولى تحوى بعض الحرية فى اتقان جزئياتها كالتعاريج الدقيقة والانحناءات البديعة مما ينقص رسوم المملكة القديمة ، لذلك تجد أن رسوم العهد الصاوى استعاضت عن النقص فى النقل سلامة الذوق وطول باع صناعها من حيث الاتقان والعناية بدقائق الأجزاء . ويجد الباحث أحيانا أن رسوم الأشخاص فى العهد الصاوى مع دقة مراعاتها للأصول المرعية فى العهد القديم فانها تحوى أحيانا رسما تتصل فيه راسمه من ذلك القيد كرسم الشخص متناسب الكتفين خاليا من تحفظات المملكة القديمة البعيدة عن الصواب . وبديهى أن هذه الحرية فى الرسم والكفاية فى إظهار تناسق وتناسب أجزاء الصور أعلت كثيرا من منزلة رسوم العهد الصاوى على أمثالها من العهد القديم . ومثل هذا الأمر يشاهد كثيرا فى رسوم مقابر العهد الصاوى ، فالناظر اليها يجد

صور الأشخاص مطابقة تماما لصور العهد القديم، لكنه يعثر أحيانا على رسم شخص يخالف لما جاوره ويمتاز عما حوله من الرسوم بتناسب أعضائه واعتدال رأسه وظهور معالم الحياة عليه (شكل ١٨٦).

ولم يقتصر هذا التقدم فى رسم المسطحات فقط بل شمل أيضا التماثيل والأجسام، ففى هذه الأخيرة يجد الناقد مهارة كبيرة فى اظهار معالم الوجه وبروز عظام الرأس وتجاعيد المحيا بشكل تشريحى دقيق لم يعثر على مثله فى أى عصر سابق . لذلك كثيرا ما يجد الباحث شبها عظيما بين تماثيل هذا العصر وأمثالها فى العهد اليونانى ، ففى الاثنين تتجسم دقة الصنع ومهارة الإنجاز .

أما صناعة البرنز فقد بلغت فى العهد الصاوى منتهاها من حيث الدقة فقد عمل القوم القوالب الفارغة للحيوانات الكبيرة (شكل ١٨٥) وللانسان بشكل بديع ولبسوها بالذهب والفضة وخليط هذين المعدنين (Electrum) مما ينطق لهم بطول الباع فى هذا الفرع . وانتشرت صناعة البرنز وقتئذ كثيرا ولذلك تجد بمعظم آثار البرنز المصرية المحفوظة بدور التحف الآن يرجع تاريخها الى هذا العهد .

أما المصنوعات الأخرى ففاقت أمثالها فى أى عهد سابق من حيث الدقة لدرجة جعلت الصانع المصرى فى ذلك الوقت عديم النظير فى العالم ، فصناعة الخزف بلغت أعلى أوجها وتوجد منها الآن أنموذجات فى جميع دور التحف . ومن الأسف أن عمارات تلك العصور انعدمت تقريبا لكن نستدل من رسوم الحفار المصرى أن فن البناء فى العهد الصاوى تقدم تقدما عظيما وأن خسارتنا بعدم العثور على شىء منها كبيرة لا تقدر . ويرجح أن عمد معابد البطالسة البديعة الجميلة ترجع فى الأصل الى العهد الصاوى .

وفى الوقت الذى كانت فيه الفنون الجميلة تتقدم بسرعة مع المحافظة على مشابهتها لفنون العهد القديم ، كانت ادارة الحكومة أقرب الى النظام الحديث وأقل انصباغا بالأنظمة العتيقة . ولا نزال نجهل أسلوب ادارة الحكومة فى العهد الصاوى بالضبط لأن آثار ذلك الزمن الباقية لا تحوى شيئا يذكر من ذلك . أما من الوجهة الجغرافية فالوجه البحرى كان دائما مفضلا من حيث الأهمية على الوجه القبلى ، لأن التجارة مع العالم الشمالى واتصال القطر بالبلدان الشمالية إستلزما أن تكون للدلتا أهمية تجارية . وقد استوطن بسامتيك هو وخلفاؤه مدينتهم صا الحجر التى اتسع نطاقها وقتئذ وازدانت بالمعابد والقصور على عكس طيبه التى فقدت منزلتها السياسية والدينية ، فنستدل من ذلك أن وادى النيل أصبح تابعا فى ادارته وكل شؤونه للوجه البحرى .

سبق أن ذكرنا أن وراثة المراكز الحكومية أبطلها بسامتيك الأول لكنه سمح لبعض أمراء مصر الأقدمين مثل منيت محت أمير طيبه بالاحتفاظ بمراكزهم طوال حياتهم فقط ، وفيما عدا ذلك كانت أراضى القطر كلها ملكا للملك يسخر فيها الأهالى بشرط أن يدفعوا له ٢٠ ٪ من ايرادها ، أما طائفتا الكهنة والجنود فكانتا معفاتين من الضرائب . وربما كان نظام الحكومة وقتئذ شبيها بنظامها فى عهد الامبراطورية ، ويتلخص ذلك فى وجود ادارة مركزية يتبعها موظفون لجمع الضرائب وتنفيذ نصوص القانون . والظاهر أن الموظفين نحلوا لأنفسهم ألقابا قديمة لا تتمشى تماما مع أشغالهم

الرسمية ، وأن ترتيبهم وتمرينهم كانا على نقيض ما كان عليه كتبة الامبراطورية بجهلهم غالبا بالخط الهيروغليفي القديم ، والسبب في ذلك أن كتبة العهد الصاوى استعملوا اختزال الخط الهيراطيقى (الذى ظهر من العهد الإثيوبي) لسهولة كتابته وكثرة موافقته للاعمال الادارية والتجارية ، وقد سمى هذا الخط المختزل وقتئذ بالخط الديموطيقى ولا يزال يعرف بهذا الاسم للآن . واستعمل القوم الخط الديموطيقى فى كتابة لغتهم بالأسلوب الدارج وقتئذ واقتصروا فى استعمال الخط الهيروغليفي على النصوص القديمة التى يرجع تاريخها الى مدة قرون سابقة ، وبديهى أن مثل هذا الاختزال الكتابي صحبه اصلاح وتغيير فى نظام الحكومة . أما من الوجهة الاجتماعية فكان القوم ينقسمون الى عدة طوائف على حسب المهنة ، لكن هذا التقسيم لم يكن واضح الحدود ولا تام الانفصال كما هى الحال فى التاريخ المصرى القديم .

كان الكهنة الصاويون أكثر نجاحا فى الرجوع الى العادات والاعتقادات القديمة من طائفة الموظفين ، والحق يقال ان الفضل فى اصلاح ذلك العصر يرجع الى الكهنة . ولا يخفى أن المركز الدينى انتقل من مقره الأصلى كما انتقل المركز السياسى لأن طيبه فقدت أهميتها الدينية العظمى وفاقتها مدن الوجه البحرى مثل صا الحجر وبوتو وأتريب (بنها) من حيث ثروة المعابد . وتختلف طبقة الكهنة الصاوية عن نظيرتها فى المملكة القديمة بامتيازها وانفراد وحدتها وانتقال وظائفها بالوراثة لأفرادها ، ولما كانت هذه الطائفة موضع احترام الرعية اقتضت ضرورة السياسة أن يمرح الكهنة فى بحبوحة النعيم ويعيشوا فى كنف الحكومة . والمعروف أن هذه الطائفة لم يعد لها نفوذ سياسى كأيام الامبراطورية لكننا مع ذلك نجد على الآثار ما يناقضه ، خذ مثلا ما ورد من أن الحكومة انتزعت من أمير طيبه (القريبة من العرابة) دخله القديم من الواحات ومعبر النهر وأضافته الى دخل المعبود أزوريس[1] . والظاهر أن الحادثة جاءت مستثناة لأن العادة كانت على عكس ذلك كما سيتضح للقارئ فيما يلى ، والسبب فى ذلك أن القوم اعتقدوا أن الآلهة لا تحيا من جديد ثم استثنوا من هذه القاعدة أزوريس الذى امتاز بشدة تعلق الأهالى به . أما زوجته إزيس فقد عظم اعتبارها فى نظر القوم حتى أصبح لها مذهب خاص ساد عليها فى العصور التالية بتبجيل واحترام عموميين . ومن التغيرات الدينية الحديثة وقتئذ أن الحكيم إمحتب وزير الملك زوسر الذى يرجع تاريخه الى ٢٥٠٠ سنة قبل العهد الصاوى اعتبر ضمن المعبودات كابن بتاح ، على جهل الكهنة الصاويين بحقيقة أمره . ولا يخفى أن الديانة الصاوية جاءت نتيجة مباشرة لديانة أواخر عهد الامبراطورية ، فهى بعبارة أخرى تتلخص فى الاحتفاظ بالدين ومراعاته فى الأعمال الظاهرية وشدة الحرص عليه فيما يتعلق باحتفالاته كما حصل تماما للعقيدة اليهودية التى نشأت فى مثل هذه الظروف ، ولهذا السبب أصبحنا نجد الأمراء والموظفين يشيدون المعابد للمعبودات فى كل جهات القطر[2] ، وصرنا نجدهم بعد ما كانوا يحترمون فردا من طائفة حيوانية أضحوا الآن يقدسون كل أفراد جنسه .

---

(1) ٤ : ١٠١٦ و ١٠٢٤ (2) ٤ : ٩٦٧ ملاحظة و ٩٨٩ ملاحظة و ١٠١٥ ملاحظة

الطائفة . وزاد اعتقاد القوم واحترامهم للعجل آبيس — أحد أشكال بتاح — فعبدوه بعناية كبيرة وصاروا يدفنون جثته باحتفال مهيب فى جبانة السرابيوم الخاصة بذلك بجوار منف ، أما تقديس هذا العجل فكان فى بدايته فى عهد المملكة القديمة، لكنه أصبح له الآن شأن عظيم لدرجة بلغت حد التعصب الدينى بين أهالى الاسكندرية فى العهد الرومانى . والظاهر أن كهنة العهد الصاوى فسروا هذه المظاهر الخارجية بالفلسفة التى فسروا بها خرافاتهم الدينية ، فأوجدوا بذلك شيئا لم يكن موجودا ولا منسوبا لها سابقا ، ويجد القارئ مثالا لذلك عند الكلام على عهد الامبراطورية[1] . والحقيقة أننا لا نعلم تماما اذا كان كهنة العهد الصاوى علموا الأهالى كل المعلومات التى نسبها اليهم اليونانيون ، انما الثابت أن التعاليم الدينية كانت فى عهد الامبراطورية متمشية مع أحوال العالم ، أما فى العهد الصاوى فقد اضطر القوم أن يتعلموا لغة وخطا جديدين وأن يفهموا أدبيات قديمة تركها العالم منذ مدد طويلة ، ولهذا السبب اعتقد الأهالى أن الخط الهيروغليفى مقدّس فنسبوه الى الآلهة واعتقدوا أيضا أن كل نص مقدس يجب أن يسطر بالخط الهيروغليفى ، وهذا هو السبب فى اطلاق هذا الاسم عليه لأن لفظ "هيروغليفى" يعنى باليونانية "الخط المقدّس" .

هذه التعاليم الدينية حوّلت أذهان الكهنة الى العالم القديم من حيث حكمه ومعارفه ، والسبب فى ذلك أن أهالى العهد الصاوى اعتقدوا أن أهالى العصر القديم بلغوا من العلم ذروة لا يمكن تعدّيها ، ومثل هذا النظام الرجعى شوهد فى تاريخ الصينيين والمسلمين فى عصورهم المتأخرة . ومن هذا السبب يتجلى للقارئ السر فى شدّة ولوع الصاويين بالبحث عن النصوص والقراطيس البردية القديمة التى علاها تراب الأجيال العديدة وفى جمعها وفحصها ثم تنظيمها . ومنه أيضا يتضح للباحث سبب انتصار الماضى على الحاضر وسبب جهل الكهنة المعاضدين لهذه الحركة الرجعية بما هو سائر حولهم فى العالم . ويجد القارئ مثالا صادقا لهذا التطوّر الرجعى فى تاريخ مملكة بابل أيام الملك نبوخذ رصار (Nebuchadrezzar) . وقصارى القول أن الباحث فى أحوال العالم الصاوى يتخيل له شخص مسن يكر راجعا فى أعماله الى ما قام به وقت صباه البعيد الأمد .

ومع أن الإصلاح الداخلى فى العهد الصاوى كان رجعيا فى معظمه كما تشير اليه كلمة "الإصلاح" الا أن سياسته الخارجية كانت على النقيض ، والسبب فى ذلك أن بسامتيك اهتم كثيرا بالخارج خلافا لما ساد الأمة من الحركة الرجعية وقتئذ ، فزاد ثروة البلاد بتنظيم سلطتها المركزية وتحسين مشروعات الرى كما كانت سابقا ، واستعمال تجاربه التى اكتسبها فى أوائل حياته ولما شاهده من كثرة التجارة بين أنحاء امبراطورية آشور . وقد كان جلالته متيقنا تماما بأن التجارة والتعامل مع الأمم الأجنبية من أهم الدعائم لتقدّم البلاد الاقتصادى ، فضرب الضرائب المتنوعة على البضائع المختلفة الأمر الذى عاد على مالية القطر بالغنم الجزيل . وأرجع بسامتيك العلاقات التجارية القديمة بين مصر وسوريا كما كانت سابقا فتقاطرت السفن الفينيقية على مصبات النيل وكثر التجار الساميون

(١) راجع سابقا صحيفتى ٢٣٥ — ٢٣٦ .



شكل ١٨٤ — تمثال من المرمر للاميرة أمنارديس أخت بيعنخى بدار تحف القاهرة

الذين صاروا فيما بعد أجدادا للآراميين وكثر عديدهم فى العهد الفارسى . واستخدم بسامتيك اليونانيين أيضا فى ترقية تجارة مصر فأفادوه كثيرا فى ذلك كما أفادوه فى الشؤون الحربية التى تقدم الكلام عليها .

وقد ذكرنا سابقا أن الأقوام الأجانب المعروفين بأهالى البحر الأبيض المتوسط أخذوا يهاجرون الى مصر جنوبا منذ القرن الثامن قبل الميلاد[1] . وأقدم ذكر لهؤلاء القوم يرجع تاريخه الى خمسمائة سنة تقريبا قبل العهد الصاوى . أما الهجرة اليونانية فقد ابتدأت أولا من أقاصى شمالى أوربا الى شبه جزيرة اليونان ثم الى الأرخبيل المجاور ومراكزه الصناعية . ولما جاء العهد الصاوى ظهر اليونانيون أمة راقية غنية بحرية تمخر أساطيلها مياه البحار وتنافس مراكبها السفن الفينيقية . بعد ذلك انتشرت المستعمرات والمصنوعات اليونانية بسرعة فعمت سواحل البحر الأبيض المتوسط حتى وصلت الى البحر الأسود ، والظاهر أن بسامتيك هو أول حاكم مصرى شجع فى أثناء حكمه هذه المستعمرات التجارية فى القطر ، والمعروف أنه لم تمض مدة طويلة على انشائها حتى عم القطر التجار اليونانيون فصارت مصنوعاتهم ترد على مصر وبالأخص غربى الدلتا حيث توجد صا الحجر المقر الملكى . ثم أصبح فى منف حى خاص لليونانيين وآخر للكاريين ولا يبعد أن تكون المدن الكبيرة الأخرى حاوية لمثل هذه الأحياء الخاصة بمعاملة التجار الأجانب .

ولما توطدت التجارة بين مصر والولايات اليونانية توثقت عرى الصداقة بين هذين القطرين فكثر عدد الجنود اليونانية باطراد فى الجيش المصرى عدا الذين استعملهم بسامتيك فى غزواته ، واختلط هؤلاء الجنود مع تجار بلادهم النشيطين كثيرا فشرحوا لهم خيرات مصر ونعيمها فنقل هؤلاء التجار هذه المعلومات الى اليونان حيث نشأت الحكايات الخرافية الكثيرة الخاصة بالعالم المصرى الغريب ، ووصلت أخبار عجائب طيبه الى الأغانى الهومرية فى آخر عهدها وظهرت المعبودات المصرية فى الخرافات اليونانية الدينية .

وقد عرف اليونانيون تماما فى آخر الأمر مظاهر الحضارة المصرية لكنهم لم يدرسوا الخط الهيروغليفى جيدا ليفهموا به نقوش المصريين القدماء الباقية ويعرفوا حقيقة تاريخهم . ثم ظهر بعد ذلك مترجمون كثيرون عالمون باللغة المصرية واليونانية صار لهم شأن بعدئذ فتكونت منهم طائفة مخصوصة تأثرمنها المؤرخون كثيرا أمثال هيرودوت الذين زاروا القطر المصرى ووضعوا عنه المصنفات . وقد دهش اليونانيون لثبات المصريين وادعاءاتهم اللانهائية ، ومما زاد ذلك ما سمعه هؤلاء القوم من عجائب مصر وعماراتها الشامخة ومعابدها المكنونة السر ومنظر الخط الهيروغليفى الغريب الشاغل لمسطحات جدر تلك العمارات ووجود نهر النيل الفرد وديانة مصر المدهشة وقوانينها الغريبة التى ظهرت لهم مبنية على أصول صادقة وكذا كثرة الآثار العظيمة المؤثرة فى كل أنحاء البلاد حولهم . كل هذه الأمور وعدم امكان معرفة أصل المصريين وقتئذ وتاريخهم القديم حال بين اليونانيين ومعرفة

(١) راجع سابقا من صحيفة ٣٢٢ الى ٣٢٥

أحوال القطر المصرى الحقيقية مع ذكائهم المفرط وحرصهم الكبير . لذلك لم يفهم اليونانيون حقيقة المصرى ومدنيته فكتاباتهم فى هذا الموضوع غير مطابقة للصواب على ما أظهره كاتبوها من الهزء بعادات المصريين . وبديهى أن اليونانى أدق كثيرا من المصرى من حيث اتباع الصدق والبحث وراء الحقيقة مع أنه كان شديد الاحترام والتبجيل للمصرى . ولما دارت الأيام وأخذت البلاد تمر فى طريقها السياسى تحت أعين اليونانيين أخذ هؤلاء القوم يرقبونها جيدا فعرفوا حقيقة القطر المصرى . وقد عثرنا على عدة روايات يونانية شهيرة يرجع تاريخها الى عهد بسامتيك الأول لو فحصت جيدا لاستنتج منها معلومات قيمة عن الأسرة السادسة والعشرين التى حكمت بالدلتا ، ذلك الاقليم المهلك للتاريخ والمدمر للآثار .

ووقف المصرى موقف الحزم والرفعة والطهارة والثبات أمام الجموع الأجنبية التى تدفقت على بلاده تدريجا على كرهه الشديد لهم ورغبته الصادقة فى طردهم ، لكنه كان مضطرا لأن يعاملهم بالحسنى لاستدراره الخير من هذه المعاملة ، وهذا الموقف يشبه تماما مركز الصينى فى الوقت الحاضر . من ذلك يتضح أنه فى الوقت الذى كان فراعنة العهد الصاوى يعجبون باليونانيين وأخلاقهم كانت الرعية المصرية لا تألف هؤلاء القوم ولا تصبو اليهم . وبديهى أن اليونانيين كسبوا كثيرا من اختلاطهم بحضارة القطر المصرى ماديا وأدبيا ، وتفسير ذلك أن اليونانيين لما أتوا الى القطر المصرى وجدوا فيه العلوم والمعارف مزدهرة فقدحوا أذهانهم الوقادة فيها فنجمت عن ذلك حضارة أرقى منزلة وأرفع مقاما من الحضارة المصرية . ولا مشاحة فاليونانيون تعلموا فى مصر أيضا كثيرا من الفنون السياسية ، وأن وادى النيل أثر كثيرا فى مصنوعاتهم منذ عهد الأسرة الثانية عشرة (سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد) على الأقل ، فالناظر مثلا الى تماثيل المعبود الشمسى اليونانى أبولو (Apollos) يجدها جارية على المثال المصرى واقفة وقدمها اليسرى مقدمة على اليمنى . وقد يتضح لنا أن اليونانيين تعلموا كثيرا من حضارى العهد الصاوى حتى فى أرقى عصورهم . أما من حيث العلوم والمعارف فالبراهين التى لدينا قليلة كالسابقة ولذلك لا يمكننا أن نجزم بالضبط بمقدار ما اكتسبه اليونانيون من المصريين ، والظاهر أن الرواية اليونانية القائلة أن اليونانيين استمدوا فلسفتهم من مصر تحوى بعض الصدق . ولا غرابة فى صدق هذه الرواية لأن الديانة المصرية القديمة تحوى البذور الكافية لنشوء الفلسفة اليونانية فى أذهان أصحابها . والمعروف أن علماء اليونان تأثروا كثيرا بآراء المصريين الخاصة بالكون قبل الخليقة وفى زمنها قبل أن يتأثروا بشىء من هذا القبيل فى بلادهم [1] ولا شك أن القارئ يعلم أن قدماء المصريين فى عهد الأسرة الثامنة عشرة كانوا يفكرون فى كيفية خلق هذا الكون . أما ثبات المصرى فى الرأى واعتقاده فى الحياة الأخروية وما ترتب عليها من استعدادات القبر فقد أثر كثيرا فى آراء اليونانيين والرومانيين كما يستدل من انتشار الديانة المصرية وقتئذ فى سائر أنحاء العالم . ولا تزال آثار هذه الديانة تكتشف الى وقتنا هذا تحت أكوام التراب على شواطئ البحر الأبيض المتوسط ، ويرجع تاريخ انتشار

(١) راجع سابقا صحيفتى ٢٣٥ و ٢٣٦

الحضارة والديانة المصريتين فى العالم الغربى الى عهد پسامتيك الأول . ومن دلائل اعجاب اليونانيين بالمصريين أن پرياندر (Periander) حاكم كورنث (Corinth) باليونان سمى وارثه وابن أخيه باسم پسامتيك (Psammetichos) ولم يستعر هذا الاسم إلا لمكانة هذا الفرعون المصلح العظيم .

وفى سنة ٦٤٠ أحس پسامتيك بقدرته على تجديد غزوات أجداده بآسيا فأراد أن يسترجع سلطة مصر بسوريا وفلسطين وينتزع تلك الأقاليم من آشور ، فبدأ بغزو فلسطين وحاصر مدينة أشدود (Ashdod) مدة سنوات لكنه اضطر أن يقف مشروعاته بالنسبة لغزوة السيثيين (Scythians) الذين أتوا من الشمال بعد ما زحفوا الى آشور ثم اقتربوا من حدود مصر . قال هيرودوت ان پسامتيك أرجع هؤلاء الغزاة ببعض النقود والهدايا ونجى وطنه بهذه الطريقة لكن المرجح أنه قهرهم حقا . وتوفى پسامتيك بعد ما حكم أربعا وخمسين سنة نجى فى أثنائها بلاده من الانحطاط والاضمحلال اللذين خيما عليها عدة قرون ، وترك جلالتــه القطر المصرى فى رخاء ونعيم لم ير مثلهما من وفاة رمسيس الثالث أى منذ خمسمائة سنة تقريبا .

الفصل الثامن والعشرون

الكفاح النهائى : بابل وفارس

توفى بسامتيك الأول عام ٦٠٩ قبل الميلاد فتولى الملك بعده ابنه نيخاو الذى لم يجد أمامه ما يمنعه من استرداد الامبراطورية المصرية بآسيا ، لأنه فى الوقت الذى كانت فيه الامبراطورية المصرية آخذة فى التقدم والرقى كانت مملكة نينوى ساقطة مضمحلة . ويرجع ضعف آشور هذا الى غارات السيثيين (Scythians) الآتين من شمالى آسيا ، والى اتحاد بابل وأهالى الغرب وأهمهم النبى ناحوم الاسرائيلى الذى تنبأ بسقوط آشور وهو فرح مسرور . وقد كانت آشور ضعيفة جدا فلم يتردد فى مهاجمتها نيخاو حال توليه الملك ولذلك أخذ يحقق مشروعات والده الاستعمارية فشيد أسطولا بحريا ضخما فى البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر . وبدأ بغزوة فلسطين فى السنة الأولى من حكمه فاستولى على غزة وعسقلون عنوة وفرض عليهما العقاب[1] ثم زحف شمالا وبلغ مقاطعة يهوذا فوجدها تحت حكم الأسرة النبوية وقد مضى على تحريرها من آشور مدة طويلة . عند ذلك ظن ملوك يهوذا أنهم سيتمكنون من صد مصر كما تخلصوا من سناشريب منذ قرن تقريبا ، فجمع ملكهم المدعو يوشيا (Josiah) جيوشه وهجم على القوات المصرية بسهل مجدو حيث وقعت أول معركة حربية منذ تسعمائة سنة تمكن بها المصريون من اخضاع آسيا . وانتهت هذه المعركة الأخيرة بهزيمة يوشيا التامة أصيب هو فيها بجرح توفى منه ببيت المقدس . ثم ظن نيخاو أن آشور ستحاول استرداد أملاكها الضائعة فزحف مسرعا ميمما نهر الفرات ، لكن آشور كانت فى حالة الاحتضار ولذلك لم يجد قوة تقاومه هناك ففضل الرجوع الى مصر ولم يهجم على نينوى لعدم استعداده تماما وقتئذ . بهذه الكيفية تمكن من استرجاع سوريا كلها وجميع مستعمرات مصر التى كانت تابعة لها أيام الامبراطورية فى غزوة واحدة ، وقد بلغ وقتئذ مدينة ربله (Ribleh) على نهر الأورونط بعد ما حارب بمعركة مجدو بثلاثة أشهر ، ثم أرسل الى يهوحاز (Jehoahaz) ابن يوشيا الذى عينه اليهوديون (Judeans) ملكا عليهم بعد وفاة والده وكبله فى الحديد وولى مكانه إلياقيم (Eliakim) أحد أبناء يوشيا أيضا وسماه يهوياقيم (Jehoiakim) ثم فرض عليه الجزية وقدرها مائة مثقال (تالنت والتالنت يساوى ٥٧ رطلا) فضة وتالنت واحد من الذهب . أما يهوحاز فأرسل الى مصر حيث توفى . ثم أراد نيخاو كعادات تلك العصور أن يظهر شعوره وسروره لخدمات الميليزيين(Milesians) فى أثناء انتصاراته الحربية فأهدى اليهم درعه الذى لبسه وقت حروبه . وسرعان ما يتبادر الى ذهن القارئ مناقضة هذه الحادثة لما اعتاده قدماء المصريين الذين نسبوا كل انتصاراتهم لآمون وحده ، فان الحال تغيرت الآن واعتقد القوم أن النصر والفوز يأتيان عن طريق مساعدة الجنود الأجنبية . وعثر فى صيدا

---

(١) أرميا ٤٧ : ٥

على أجزاء شاهد حجرى يرجع تاريخه الى عهد نيخاو، عليه نقوش هيروغليفية خاصة به لما كان مسيطرا على سوريا[1] .

لم تدم امبراطورية نيخاو الأسيوية طويلا ففى أقل من سنتين تمكن نابوبلاصر (Nabopolassar) ملك بابل بمساعدة سياكسارس (Cyaxares)، ملك ميديا من القضاء على آشور وتحطيم نينوى وشل نفوذها السياسى . بعد ذلك اقتسم ملكا بابل وميديا أملاك آشور فاستولى ملك ميديا على الأملاك الشمالية والشمالية الشرقية واكتفى ملك بابل بالمستعمرات الجنوبية والجنوبية الغربية، وهكذا وقعت سوريا ضمن نصيب نابوبلاصر لكنه كان مسنا فأرسل ابنه المدعو نبوخذرصار (Nebuchadrezzar) لقتال نيخاو. فلما سمع بذلك فرعون مصر جمع قواته وأسرع لملاقاته على الحدود الشمالية على نهر الفرات ، وذلك عام ٦٠٥ قبل الميلاد ، فالتحم الفريقان بجهة كركيش (Carchemish) حيث انهزم الجيش المصرى المختلط . بعد ذلك لم يتمكن نيخاو من مقاومة بابل مرة أخرى ولا من الدفاع عن فلسطين فتقهقر مسرعا نحو الدلتا يعقبه نبوخذ رصار . وقد تقهقر نيخاو بسرعة فى فلسطين فتأثر أهالى مقاطعة يهوذا منه كثيرا ، وكان اذ ذاك النبى أرميا يفهم أهالى دمشق أحوال الأمم فأخذ يصب على المصريين المتقهقرين هزؤه وسخريته[2] وكان منتظرا بل مؤكدا وقتئذ أن اذلال مصر أو غزوتها بأمير كلده الشاب أمر محتم ، لكن وفاة والده ببابل أجبرت نبوخذرصار أن يتفق هو ونيخاو على فض المشاكل التى بينهما خوفا من بقائه مدة طويلة بعيدا عن بابل لأنه أراد أن يحضر هناك حفلة تتويجه ، وبهذه الطريقة انضمت سوريا وفلسطين الى بابل منذ ذاك الوقت .

لا يخفى أن اتفاق نيخاو وبابل حدد طمع المصريين بآسيا ولذلك صمم ملك مصر على الاحتفاظ بمملكته دون أن يبدى أية حركة حربية بتلك الجهات، وقد جاءت فى التوراة هذه الرواية "ولم يعد أيضا ملك مصر يخرج من أرضه لأن ملك بابل أخذ من نهر مصر الى نهر الفرات كل ما كان لملك مصر"[3]. ولم تقتصر الحال على ذلك بل أن نيخاو لم يتجاسر أن يتدخل فى حصار نبوخذ رصار لبيت المقدس واستيلائه عليه ونفى أسر يهوذا الشريفة عام ٥٩٦ قبل الميلاد . ومنذ ذلك الوقت اكتفى نيخاو بترقية تجارة مملكته وتوسيع مشروعات والده فى هذه السبيل، فأعاد حفر القناة التى كانت موصلة فرع النيل الشرقى بالبحر الأحمر . قال هيرودوت ان مائة ألف نسمة هلكت فى تنفيذ هذا المشروع حتى اضطر نيخاو أن يقفه قبل انجازه . وروى ديودور الصقلى أن المهندسين نصحوا بعدم حفر تلك القناة خوفا من غرق مصر لعلو سطح مياه البحر الأحمر عن سطح الدلتا وهو الأقرب الى الصواب . وبديهى أن اتصال الملاحة بين البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط عاد على مصر بالمكسب التجارى العظيم كما أنه ساعد كثيرا من الوجهة الحربية . ويستدل على شدة رغبة نيخاو فى ترقية الملاحة ببعثته الفينيقية التى قال عنها هيرودوت أنه أرسلها لارتياد سواحل افريقية المعروفة وقتئذ باسم ليبيا (Libya) . وكان اعتقاد المصريين قديما أن الأرض تحيط بها المياه من جميع الجهات وهذه المياه تسمى عند اليونان أوكيانوس وأن مياه النيل متصلة بتلك المياه جنوبا وهذه البعثة الفينيقية استغرقت من الوقت ثلاث سنوات .

(1) Proceedings Soc. of Biblical Arch., XVI (1894), pp. 91 f.

(2) أرميا ٤٦ ، ١ — ١٢ (3) ٢ ملوك ٢٤ ، ٧

وتوفى نيخاو عام ٥٩٣ قبل الميلاد فتبعه فى الملك ابنه بسامتيك الثانى الذى وجد أن القيام بحركات استعمارية بآسيا أمر مستحيل ولذلك لا يبعد أنه فضل المحافظة على نصوص معاهدة والده مع بابل . ولما أيقن باستحالة الاستعمار شمالا وجه همه جنوبا فحاول استرجاع النوبة التى انفصلت عن مصر منذ تأسيس مملكة إثيوبيا فغزا ذلك الإقليم وبلغت مقدمة جيوشه اقليم الشلال الثانى حيث تركت جنوده نقوشا يونانية على أحد تماثيل رمسيس الثانى العظيمة أمام معبد أبى سنبل أثبتوا فيها زيارتهم لتلك الجهة . وقد أشرنا فيما سبق الى أن هذه الغزوة كانت من أسباب انتقال عاصمة النوبة الى أعالى الشلالات (أى مروه) ومع ذلك فان الاستعمار المصرى هناك لم يدم طويلا فلم ينضم أسفل النوبة مطلقا الى المملكة الصاوية . واستمرت علاقات المودة والصفاء سائدة بين المصريين واليونانيين حتى روى هيرودوت أن الإليين (Eleans) أرسلوا وفدا الى بسامتيك الثانى يحكمونه فى ادارة الألعاب الأولمبية وقتئذ . أما فى داخل المملكة فقد بسط بسامتيك الثانى نفوذه على طيبه بأن عين ابنته إنخنس نفراب رع (Enekhnesnefribre) رئيسة دينية بدل عمته المسنة ابنة بسامتيك الأول المدعوة نيتقريس . ثم أنعم بلقب " رئيس كهنة آمون " على ابنته فتسلمت دخل نيتقريس التى توفيت بعد ذلك بتسع سنوات . أما كريمته فبقيت حاكمة لطيبه مدة تقرب من سبعين سنة حتى غزوة فارس[1] .

وتوفى بسامتيك الثانى فتبعه فى الملك نجله أبريس (Apris) عام ٥٨٨ قبل الميلاد ويقال له بالمصرية حعبرع (Ha'abre') وباليهودية هوفرع (Hophra) . وورد عن هذا الملك أنه تطلع الى آسيا وأخذ يحقق آمال أسرته القديمة لاسترداد مستعمرات مصر هناك بسرعة . وقد سبقت الإشارة الى حصار نبوخذنصار لبيت المقدس فى سنة ٥٩٧ قبل الميلاد أيام نيخاو ، والآن نرجح أن هذا الأخير كانت له يد خفية فى إيقاد تلك الفتنة . والمعروف أن هذه المدينة التعسة سلمت لعدوها فى السنة التالية فعقب ذلك نفى ما يتراوح بين تسعة وعشرة آلاف نسمة راقية الى بابل حتى لم يبق ببيت المقدس "إلا مساكين شعب الأرض "[2] . بعد ذلك عين نبوخذ رصار صدقيا (Zedekiah) عم يهوياكين (Jehoiachin) ملكا على تلك الأرض الخربة فمكث بها تسع سنوات ثم شق عصا الطاعة على بابل . والسبب فى هذه السياسة الخرقاء ظاهر واضح فتاريخ هذا العصيان يوافق يوم تولية أبريس ملك مصر الذى أخذ يؤثر فى صدقيا للاتحاد معا تخلصا من بابل . وكان صدقيا تحت تأثير رسل صور وصيدا وموآب وآمون الذين كانوا ولا يزالون يحرضونه على ذلك ويعدونه بالمساعدة ، فانصاع صدقيا فى آخر الأمر الى نصائح أبريس لكنه أصابه من بابل ما أصاب عصاة حكم آشور لأن محالفى صدقيا لم يساعدوه بسرعة فى الوقت المناسب . ولا غرابة فى ذلك فقد جعل أبريس هذه المساعدة مستحيلة لأنه هجم على صور وصيدا بأسطوله رغبة منه فى محاربة نبوخذ رصار على نهر الفرات كما فعل جده نيخاو سابقا . وتفصيل ذلك أن أبريس حارب أولا أسطول صور وقبرص وانتصر عليهما ثم أنزل جنده بصيدا فسلمت له مدن فينيقيا على أثر ذلك[3] . والظاهر أن أبريس قصد بهذه الحركة ابعاد اهتمام نبوخذ رصار

(١) ٤ : ٩٨٨ A-988 J. (٢) ٢ : ملوك ٢٤ : ١٥ (٣) ديودور ١ : ٦٨

عن الولايات الجنوبية التى أرسل اليها جيشا فى أوائل عام ٥٨٧ قبل الميلاد، وربما أراد بهذا العمل قطع خط الرجعة على جيش بابل الذى كان محاصرا بيت المقدس وقتئذ . فاذا كان هذا هو الواقع كانت هـذه الفكرة غاية فى الحكمة وسداد الرأى . لكن الحملة التى قام بها أبريس لم تتوغل ببلاد آسيا كثيرا لدرجة أقلقت بال بابل ، كما أن نبوخذنصار اختار ربله التى هى الى الشمال على نهر الأورونط قاعدته الحربية ، فتمكن بذلك من مراقبة حركات جيش مصر بتلك الجهات بدون خوف ولا وجل . زد على ذلك أن أعداء نبوخذنصار كانوا يضعفون كل يوم بتزاعهم الداخلى ولذلك لو فرض أن أبريس زحف على ملك بابل وقتئذ فان هـذا الأخير كان بوسعه وقف ذلك الزحف بسهولة بقوة من ربله . والظاهر أن الآثار الصاوية التى عثر عليها رنان[1] فى أرواد وصور وصيدا يرجع تاريخها الى هذا العهد القصير الذى كانت فيه فينيقيا تحت حكم فرعون. ويرجح أن فرعون مصر كان مسيطرا وقتئذ أيضا لمدة قصيرة على أحد أقاليم لبنان[2] .

وفى ربيع عام ٥٨٦ قبل الميلاد ظهرت جيوش أبريس أخيرا فى جنوبى فلسطين. فهددت قوات بابل المحاصرة لبيت المقدس وبذلك نجت تلك المدينة مدة قصيرة ، لكن الجيوش المصرية أظهرت وقتئذ عدم كفايتها لمكافحة جيوش آسيا ويرجح كثيرا أن أبريس تخلى وقتئذ عن فلسطين ، بجاء هـذا تأكيدا لتنبؤات أرميا الذى نصح دائما بالتخلى وعدم الاعتماد على مصر ورمى كل من يقوم بذلك بالغباوة وقصر النظر . وهذا الرأى السياسى أتعب أرميا وعرضه لمخاطر كثيرة اضطر فى آخرها أن ينجو منها بحياته . وفى صيف عام ٥٨٦ قبل الميلاد سقط بيت المقدس فخربه جيش بابل تخريبا وأسر الذليل صدقيا الى معسكر نبوخذنصار بربله حيث شاهد مصرع ولديه قبل فقء عينيه . بهذه الطريقة ذلت الأمة اليهودية تماما . أما مصر رأس هذه الاضطرابات فلم توجه اليها الضربة القاضية والسبب فى تأخير ذلك أن نبوخذنصار صمم أولا على عقاب صور التى استمرت مستقلة ثلاث عشرة سنة الى أن سلمت له عام ٥٧٣ قبل الميلاد .

وبالرغم من سوء حظ أبريس بآسيا فقد كان عائشا فى رفاهية ونعيم لأن مملكته كانت محافظة على رقيها وثروتها كما كانت أيام جده الأكبر مؤسسها . وورد أن الصحراء الغربية كانت تدفع جزيتها لمصر وأن حاكم الصحراء الشمالية المدعو وح إب رع نوفر (Wahibrenofer) شيد معبدا فى تلك الجهة[3] ومع كثرة هذا النعيم فقد كتب على أبريس أن يتوفى فى ظروف محزنة غير منتظرة وتفصيل ذلك أنه عجز عن التوفيق بين أفراد جيشه المتباين الوحدات، فقد تمردت الجنود الليبية واليونانية والسورية ثم هجرت الجيش المصرى رغبة فى الانضمام الى النوبة كما حصل أيام بسامتيك الأول . ولا نعرف عدد الهاربين بالضبط وان كان عظيما حتى جاء بأخبار تلك العصور الرسمية أن الملك قلق لذلك . ووصل الهاربون

(1) Rougé, letter to Renan, Revue arch. n. s., VII, 1863¹, pp. 194-8.

(2) ع : ٩٧٠

(3) Steindorff, Berichte der phil.-hist. Classe der Königl. Sächs. Gesellschaft der Wissenschaften zu Leipzig, 1900, p. 226.

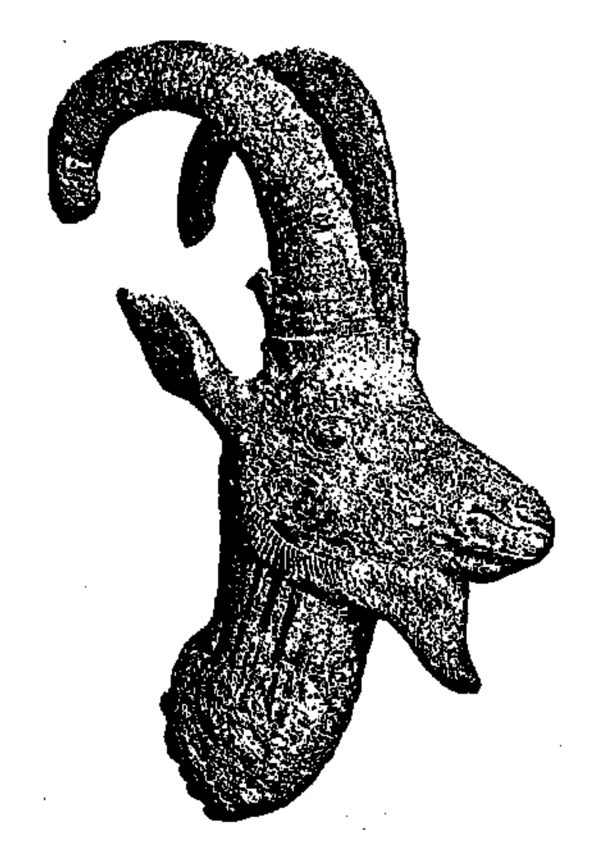
الى الشلال الأول فقابلهم هنـاك حاكم ذلك الإقليم المدعو نسوحور (Nesuhor) فأقنعهم بخطئهم وأخيرا أرسـلهم الى الملك أبريس الذى عاقبهم على هـذا الذنب(١) . ثم تألبت وحدات الجيش المصرى مرة ثانية ولكن هذا العصيان لم ينته بسلام كالسابق، وسببه أن بعض اليونانيين استوطنوا جهة سيرين (Cyrene) حيث أسسوا مستعمرة غنية راقية أخذت تنمو وتزداد على حساب ليبيا التى هى بينهـا وبين مصر . ورأى أبريس أن يصدّ نمو مستعمرة سيرين فأرسـل الى ليبيا قوة حربية خاليـة طبعا من العنصر اليونانى لمكافحة سيرين . وسـار المصريون مستهزئين ومستهترين بأعدائهم لكنهم لمـا التقوا مع يونانيى سـيرين فى آخر الأمر دارت رحى القتال بين الطرفين وانتهت بهزيمة المصريين ، فاغتاظ الجنود المصريون من هذا الأمر وظنوا أن أبريس أرسلهم الى سيرين ليتخلص منهم فقامت الثورة بين وحدات الجيش المصرى وأرسـل أبريس على أثرها أحد أقربائه المدعو أحمس الذى سمـاه هيرودوت أمازيس (Amasis) ليخمد الهيـاج . وكان أحمس هـذا زكيا وسياسيا محنكا فتمكن من انقاذ أبريس من خطر الموقف واستمال الجنود العصاة نحوه فاختاروه ملكا عليهم . وأرسل أبريس رسولا الى أمازيس يطلبه لكن الرسول ردّ باحتقار وسخرية، فاستشاط أبريس غيظا من ذلك وأنزل شدّة غضبه على الرسول المنكود الحظ على كبر مرتبته وأمر بجـدع أنفه وقطع أذنيـه . ورأى أتبـاع أبريس من نبلاء ومساعدين ما حل بزميلهم ظلما فهجروا أبريس وانضموا الى أمازيس . قال هيرودوت ثم نشبت معركة حربية بين الطرفين انتصر فيها أمازيس بجنوده المصريين العـديدين على أبريس وجنوده اليونانيين المأجورين وانتهى الأمر بأسر أبريس . والظاهر أن هيرودوت أخطأ فى فهم الموقف بالضبط فخلط بين هـذا النزاع والحرب التى حصلت بين هذين الطرفين بعد ذلك بقليل كما تشير الى ذلك آثار تلك العصور . ومهما كان الأمر فقد استمر أمازيس يعامل أبريس بالحسنى فلم يعزله لكنه وضـع يده على زمام الحكم وناصية الحـال مقتسما بذلك الحكم مع أبريس لكن الأول كان طبعا أقوى من الثـانى . وقد عثرنا على بعض آثار يرجع تاريخها الى عهد تضامن هـذين الحاكمين وقد كتب أمازيس اسمه داخل خانة ملكية لكنه استمر مستعملا أيضا ألقابه القديمة التى هى أقل اعتبارا بجانب الخانة المذكورة(٢) . وفى السـنة الثالثة من تضامن هـذين الملكين قامت مشاحنة بينهما فاستمال أبريس الى جانبه الجنود اليونانيـة (كما رواه هيرودوت) واستعان بأسطول بحرى ثم زحف فى الشمال على صـا الحجر ، لكن أمازيس أسرع فى الوقت نفسه بجمع جنـده وهجم على أبريس وشتت شمل جيشه ومكث أبريس مع جنده بالوجه البحرى ينهبون البـلاد ويقطعون السبيل فأرسـل اليهم أمازيس حملة وكان أبريس ظاهرا وقتئذ بمظهر الهارب العاصى ، والمعروف أن أمره انتهى بقتله وهو على ظهر احدى سفن أسطوله الباقية ، واحتفل أمازيس بجنازته على الوجه اللائق بالملوك ودفنـه بين أجداده العظـام بصا الحجر وقدّم له الهدايا والقرابين بسخاء(٣) .

---

(١) ٤ : ٩٨٩ (٢) ٤ : ٩٩٩ ملاحظة (٣) ٤ : ٩٩٦ ملاحظة

وربما يخيل الى القارئ أن أمازيس الذى نال مركزه السامى بتهييج الشعور الوطنى العام ضد اليونانيين أخذ لنفسه خطة ضد النفوذ الأجنبى بمصر، لكنه لم يفعل ذلك لأنه كان أحرص وأعقل من الوقوع فى هـذه المهوة . والحقيقة أنه كان يتظاهر باخضاع النفوذ اليونانى لكنه كان يعطيه فى الحقيقة كل ما يلزمه ، مثال ذلك أنه أصدر أمره الى اليونانيين الا يتزلوا بضائعهم فى أية جهة من الوجه البحرى يرغبون فيها وقصرهم على جهة معينة هى مدينة نقراتيس (Naurcatis) على فرع النيل الكنوبى فى الدلتا . والراجح أن هذه المدينة كانت مستعمرة يونانية صغيرة فى بادئ الأمر فأصبحت بفضل تأسيس أمازيس لها من جديد و بفضل ورود البضائع اليونانية عليها أهم مركز تجارى بمصر بل بها وبالبحر الأبيض المتوسط .وكانت هذه الميناء يونانية بكل صفاتها كما أن مصنوعاتها كانت مصبوغة بالصبغة اليونانية غالبا وليس عليها الا القليل من المسحة المصرية . والمعروف أيضا عن هذه المدينة أن حركتها التجارية والصناعيـة وتنسيقها وادارتها اليومية كانت كالمراكز الصناعية والتجارية ببلاد اليونان، فعلوا ذلك لأن ارتياح اليونانيين بمصر كان موقوفا على نجاح وثروة هذه المدينة . لذلك لما أريد انشـاء معبد كبير بمدينـة نقراتيس وردت لأجله التبرعات من مدن أيونيا (Ionia) الشهيرة مثل كيوس (Chios) وتيوس (Teos) وفوسيا (Phocæa) وكلازوميني (Clazomenæ) وجزيرة رودس (Rhodes) وسنيدس (Cnidus) وهاليكارناساس (Halicarnassus) وفاسليس (Phaselis) الدورية (Dorian) ومديله الأيوليـة (Æolian Metylene) ، كل هـذه الجهات اشتركت معا فى تشييد معبـد نقراتيس المدعو هيلينيام (Hellenium) فكان بناء ضخما شاهقا حوله حوش كبير يحيط به سور عظيم . ثم ان كلا من أقاليم أيجينا (Ægina) وميليتس (Melitus) وساموس (Samos) القوية كان له معبد خاص بمدينة نقراتيس . ويبدو لنا من ذلك أنه بالرغم من القيود التى فرضت على اليونانيين فقد كانوا يتمتعون بامتيازات عظيمة . وتدلنا قوانين أمازيس أن جلالته لم يعتبرهم خطرا ولا أعداء لمصر، فقد ورد أنه قدم عليه وفد من الدلفانيين (Delphians) ملتمسين مساعدته فى تشييد معبد بدلا من الذى التهمته النيران عام ٥٤٨ قبل الميلاد، فقابلهم مرحبا وتبرع لهم ببدرات الأموال . زد على ذلك أنه أرسل الهـدايا الى معابد لينـدوس (Lindos) وسـاموس (Samos) وسيرين (Cyrene) كما أهدى أيضا درعا جميلا الى الاسپارتيين (Spartans) . هكذا وطد جلالته معاملته مع اليونانيين بأوربا وآسيا وزاد فى مودته مع پوليكراتيس (Polycrates) حاكم ساموس الثرى حتى يخيل أنه عقد معه معاهدة . هـذه الأعمال كلها جعلت أمازيس محبوبا جدا عند اليونانيين داخلا وخارجا فكثرت الحكايات عن أخلاقه ومعاملته مع اليونانيين .

ومن دواعى الأسف أن معظم معلوماتنا عن أمازيس تنحصر فى معاملته مع اليونانيين . والمعروف أنه لم يهمل مصـالح مصر بدليل حسن تصرفه وقت المصيبة التى لحقت أپريس وكاد شررها يتطاير الى أنحاء القطر . ومن مآثر هذا الملك أنه شيد بعض ملحقات جميلة بمعابد صا الحجر ومنف وأحضر محرابا جميلا مصنوعا من صخرة واحدة من محاجر الشلال الأول نصبه بمدينة صا الحجر وقد أعجب به هيرودوت كثيرا . أما أهالى القطر فكانوا فى رخاء عظيم حتى قال هيرودوت "ان القطر وقتـئـذ كان



شكل ١٨٥ — رأس تيتل من البرنز كان موضوعا بمقدم سفينة
يرجع تاريخه الى العهد الصاوى — راجع صحيفة ٣٨٦
(دار تحف برلين)



شكل ١٨٦ — رأس حجرى لشخص من العهد الصاوى مصنوع
من حجر نارى أخضر — راجع صحيفة ٣٨٦
(دار تحف برلين)

يحوى عشرين ألف مدينة" . وأصلح أمازيس القانون المدنى "فحتم على كل ساكن أن يخبر حاكم مدينته كل سنة بموارد الثروة التى يعيش منها" وقد أخذ سولون (Solon) هذه المادة عن المصريين وقت زيارته لهم ونفذها فى أثينا عند عودته اليها . والظاهر أن ميل أمازيس نحو اليونانيين لم يخف على المصريين لأنه اضطر أن ينقل حامية مدينة دفنه اليونانية (أحد حصنى مصر شمالى وشرق الدلتا)[1] الى منف القوية النفوذ الكبيرة ، ليرتاح فؤاده من تألبها ويأمن شرها فقد كان قلقا منها لقربها كثيرا من محل اقامته . لكن أمازيس اضطر فى آخر الأمر أن يظهر بثوبه الحقيق لأنه لم يجد بدا من صرف ايراد المعابد على جيشه اليونانى وأسطوله[2] ، فاستحال بذلك على كهنة القطر أن يستنزفوا خيرات البلاد كسابق العهد . ولا غرابة فى ذلك فأسطول مصر وقتئذ وكثرة جنودها المأجورة كلفت أمازيس أموالا جزيلة حتى اضطر أن يستعين بدخل المعابد . وقد صارت هذه الحركة مبدأ لأمثالها فيما بعد فى عهد فارس والبطالسة لما ضعفت ثروة الكهنة تدريجا وفرضت الضرائب على أملاك المعابد ، ولما كانت طائفة الكهنة فاقدة النفوذ السياسى وقتئذ خضعت لتلك الظروف التى شملت أيضا طوائف البلاد الراقية ، لكن أمازيس مضرب الأمثال فى الحكمة والتروى تمكن بمواهبه الفكرية من القبض على ناصية الحال والاحتفاظ بقوّاته حتى اضطر المصريون أن ينصاعوا لرغباته وأوامره .

ومما وطد مركز أمازيس على سواحل البحر الأبيض المتوسط حسن تفاهمه مع اليونانيين . أما فى الغرب فكان نفوذه مبسوطا على الواحات وقد شيد معبدا فى الواحة البحرية[3] . ولم يكن حسن الحظ فى تعامله مع الشرق . ثم ان اغتصابه للعرش شجع نبوخذنصار على اذلال مصر لأنه علم بطبيعة الحال أن مثل هذا الاغتصاب لا يحصل الا من انشقاق واضطراب داخليين ، ففى سنة ٥٦٨ قبل الميلاد — أى قبل وفاة أبريس بقليل — ظهر جيش كلده على حدود الدلتا الشرقية ، لكنا لا نعلم ما ذا تم فى أمره . والظاهر أن نبوخذنصار أراد وقتئذ غزو مصر فوجدها مخالفة تماما لما كانت عليه تحت الحكم الإثيوبى المضطرب لما التهمتها آشور طعمة باردة . والثابت أنه لم يغز مصر وقتئذ ، وطبيعى أن أرميا[4] وحزقيال[5] اللذين كانا يتوقان الى سقوط فرعون مصر المبغض تكدرا كثيرا لأن الطامة التى انتظراها وتنبآ بها لم تحصل . ونجم من حملة نبوخذنصار أن امتنع أمازيس من التدخل فى استعمار سوريا وفلسطين ، لكنه تمكن بأسطوله القوى من اخضاع قبرص وقهرها على دفع الجزية . وليلاحظ أن قوة هذا الملك البحرية كانت نواة قوة مصر البحرية فى عهد البطالسة لما سيطرت مصر على سواحل البحر الأبيض المتوسط .

---

(١) ٤ : ١٠١٤ (٢) Revillout, Revue égyptologique, I, 59 ff., III, 105.

(٣) Steindorff, Berichte der phil.-hist. Classe der Königl. Sächs. Gesellschaft der Wissenschaften zu Leipzig, 1900, p. 226.

(٤) أرميا ٤٣ ، ٨ — ١٣ (٥) حزقيال ٤٠ ، ١٠ — ١٨

وتوفى نبوخذرصار عام ٥٦٢ قبل الميلاد فاختفى بذلك نفوذه العظيم وضعفت هيبة بابل فقامت فيها الاضطرابات الداخلية واستحال بقاء المعاهدة مع ميديا كما كانت . وفى عام ٥٥٠ قبل الميلاد أسقط كيروس (Cyrus) ملك أنشان (Anshan) الفارسى الأسرة المالكة بميديا وعزل ملكها المدعو أستياجيس (Astyages) فضعف بذلك مركز بابل كثيرا وأحاطت به المخاطر . وظهر كيروس بعد ذلك فى العالم الغربى بشكل يدعو الى الإعجاب مع الوجل ، فتحقق أمازيس خطر هذا الملك الفارسى نحو مصر وكافة أمم الغرب . لذلك اتحد أمازيس عام ٥٤٧ قبل الميلاد هو وكريسوس (Crœsus) ملك ليديا والاسپارتيين فى الغرب ، وملك بابل المدعو نابو نعيد (Nabuna'id) لصد نفوذ كيروس . وقبل أن يتم هذا التحالف العظيم كان كريسوس هزم وخلع (٥٤٦ — ٥٤٥ قبل الميلاد) فاتجهت بعد ذلك قوات فارس نحو الاستعمار والغزو بعد ما قضت قرونا عديدة بين تلال مملكتها ، وأول غرض لفارس وقتئذ كان اخضاع بابل التى سلمت لها عام ٥٣٩ قبل الميلاد . عند ذلك عجز أمازيس عن صد زحف فارس التى بزغت شمسها الآن فى أفق التاريخ على أطلال المملكتين الساميتين اللتين نشأتا ببلاد النهرين وأيضا على أطلال ممالك آسيا الصغرى . وكان ضروريا أن يتجه نظر هذه الدولة الجديدة نحو مصر ، وكان الحزن والكدر يخالجان قلب أمازيس وهو فى آخر أيامه كلما فكر فى سيادة كيروس المطلقة . لكنه توفى قبل موت كريسوس وذلك بآخر عام ٥٢٦ قبل الميلاد أو أوائل عام ٥٢٥ قبل الميلاد قبل مجيء الطاقة الكبرى المنتظرة الى مملكته .

لقد تمكن أمازيس مدة حكمه الطويلة البالغة أربعا وأربعين سنة من إثبات كفايته السياسية العظيمة للملأ ، ويلاحظ أن هذه المواهب السامية والهمة التى لا تعرف الملل كانتا نتيجة المدنية اليونانية والأصل اليونانى . وامتاز هذا الملك بعدم اهتمامه بالعادات والأصول الدينية العتيقة التى راعاها فراعنة مصر فى سابق الزمان ، والتى تجسمت فى آثارهم والتى صبغتهم بصبغة واحدة وأزالت من بينهم الفروق لاعتبارهم فى نظر الرعية من أصل مقدس . كل هذه الاعتبارات الكهنوتية والعادات الدينية الرسمية التى تحلى بها فراعنة مصر الأقدمون لم يعرها أمازيس اعتبارا كبيرا ، فقد اعتاد مثلا أن يبدأ يومه بانجاز أعماله العمومية ، ثم يدعو الى مائدته بعض خلانه فيرفع عنهم حجاب الكلفة ويدعوهم لمنادمته من دون حشمة ويشرب معهم أحيانا الخمر . ولم يكن كثير الرفاهية بل كان كثيرا ما يضع نفسه تحت المؤثرات والأفراح بدون أن يحرج مركزه ، فكان هذا سببا فى رفع منزلته فى العالم السياسى كثيرا . وما أكثر الحكايات التى رواها اليونانيون عنه بشأن دهائه ومزاحه اللذين تمكن بهما من سياسة الناس وتصريف الأمور بدرجة أدهشت العالم . ولا بد أن القارئ قد لاحظ من أخلاق وسياسة أمازيس أن حالة القطر المصرى وقتئذ كانت مناقضة تماما لحالته القديمة التى انعدمت من الوجود ، وأن وميض تلك الحضارة القديمة الذى لمع فى العهد الصاوى لم يلبث أن انطفأ بسرعة والى الأزل . والسبب فى ذلك أن الحكومة الصاوية كانت فى الحقيقة هيكلا اصطناعيا شيده وحافظ عليه حكام مهرة ، أما الحياة القومية والشعور الوطنى اليقظ فكانا معدومين فى نفوس الأهالى . لذلك كان سقوط مصر وختام تاريخها الفريد ظاهر القرب قبل وصول قمبيز بجيشه الجرار الى أبواب پلوسيوم (Pelusium) بمدة طويلة .

وامتاز الملوك الصاويون ببعد نظرهم فى المستقبل وحبهم للإنشاء والتجديد ومقتهم للأخلاق الرجعية ، ولذلك لم يكن هؤلاء الملوك ولا البطالسة الذين حكموا مصر بعد الفرس مصريى الطباع تماما . ولم يكن الغزو الفارسى الذى حصل عام ٥٢٥ قبل الميلاد والذى اغتصب الملك من بسامتيك الثالث نجل أمازيس سوى تغير فى الهيئة الحاكمة ، أو بعبارة أخرى لم يكن سوى تغير ظاهرى . أما المحاولات المصرية التى حصلت عدة مرات للتخلص من الحكم الفارسى وارجاع الحكم المصرى فكانت أشبه شىء بتشنجات وقتية تعترى أحد أعضاء الانسان بعد فقدان صوابه بمدة طويلة . و بسقوط بسامتيك الثالث دخلت مصر فى عالم جديد كانت لها فى انشائه اليد الطولى ، لكنها أصبحت وقتئذ عاجزة عن القيام بأى عمل جدى . وقد أتمت مصر مأموريتها الكبيرة بنجاح لكنها عجزت عن الاحتجاب عن العالم كنينوى وبابل فبقيت عائشة فى حياتها الاصطناعية تحت حكم الفرس والبطالسة ، ثم أخذت تضمحل حتى صارت فيما بعد مزرعة للملكة الرومانية يؤمها سياح اليونانيين والرومانيين لمشاهدة آثارها الضخمة . وقد كتب هؤلاء أسماءهم على تلك الآثار كما يفعل السياح الحديثون لشدة اعجابهم بها ، ومع ذلك فان أهلها المسالمين بطبيعتهم ما زالوا عاكفين على الفلاحة جاعلين وطنهم حديقة العالم دون أن تبدو عليهم علامات اليقظة والانتباه ، فتحققت بذلك حرفيا نبوة حزقيال الرئيس الاسرائيلى حيث قال "ولا يكون بعد رئيس من أرض مصر"[1] .

---

(1) حزقيال ٣٠ : ١٣

قائمة بأسماء ملوك مصر ومدد حكمهم

(راجع " نصوص مصرية قديمة " الجزء الأول من الفقرة ٣٨ الى الفقرة ٧٥)

ملاحظة : التواريخ التى عليها اشارة كالنجمة مضبوطة فلكيا

	سنة	
استعمال السنة فى التوقيت	٤٢٤١	قبل الميلاد
تولية مينا ومبدأ حكم الأسر	٣٤٠٠	قبل الميلاد

الأسرتان الأولى والثانية : ٣٤٠٠—٢٩٨٠ قبل الميلاد

عدد ملوكهما ثمانية عشر ملكا مدة حكمهم ٤٢٠ سنة

الأسرة الثالثة : ٢٩٨٠—٢٩٠٠ قبل الميلاد

المدة من حكم زوسر الى سنفرو تبلغ ٨٠ سنة

الأسرة الرابعة : ٢٩٠٠—٢٧٥٠ قبل الميلاد

مدة حكم خوفو	٢٣	سنة
« ددف رع	٨	«
« خفرع	س[1]	«
« منكاورع	س	«
« —	س	«
« —	١٨	«
« شبسسكاف	٤	«
« —	٢	«
المجموع	٥٥	

أقل مدة معروفة لعهد هذه الأسرة هى ١٥٠ سنة

(١) س = مجهول .

الأسرة الخامسة : ٢٧٥٠ – ٢٦٢٥ قبل الميلاد

مدة حكم	أوسركاف	٧	سنة
»	ساحورع	١٢	»
»	نفرريكارع	س	»
»	شپسسكارع	٧	»
»	خانفررع	س	»
»	نوسررع	٣٠ (+ س)	»
»	منكوحور	٨	»
»	ددكارع إسيسي	٢٨	»
»	أونيس	٣٠	»
	المجموع	١٢٢ (+ ٣ س)	

أقل مدة معروفة لعهد هذه الأسرة هي ١٢٥ سنة

الأسرة السادسة : ٢٦٢٥ – ٢٤٧٥ قبل الميلاد

مدة حكم	تتي الثاني	س	سنة
»	أوسركارع	س	»
»	ببي الأول	٢١	»
»	مرنرع الأول	٤	»
»	ببي الثاني	٩٠ (+ س)	»
»	مرنرع الثاني	١	»
	المجموع	١١٦ (+ ٣ س)	

والمعروف أن هذه الأسرة حكمت لمدة ١٥٠ سنة

الأسرتان السابعة والثامنة : ٢٤٧٥ – ٢٤٤٥ قبل الميلاد

مدة حكم هاتين الأسرتين هي ٣٠ سنة

الأسرتان التاسعة والعاشرة : ٢٤٤٥ – ٢١٦٠ قبل الميلاد

تشملان حكم ثمانية عشر ملكا إهناسيا ، قدرت مدد حكمهم بـ ٢٨٥ سنة

الأسرة الحادية عشرة

مدة حكم حوريس وح إنخ إنتف الأول... ... ... ٥٠ (+ س) سنة
» حوريس نخت نب تپ نفر إنتف الثانى ... ... س »
» حوريس سنخيب توى منتو حوتپ الأول... ... ... س »
» نب حاپت رع منتو حوتپ الثانى... ... ... س »
» نب تاورع منتو حوتپ الثالث ... ... ٢ (+ س) »
» نب حاپت رع منتو حوتپ الرابع ... ... ٤٦ (+ س) »
» سنخ كارع منتو حوتپ الخامس ... ... ٨ (+ س) »
المجموع ... ... ١٠٦ (+ س) سنة

مدة حكم هذه الأسرة ١٦٠ سنة

الأسرة الثانية عشرة : ٢٠٠٠ — ١٧٨٨ قبل الميلاد

مشاركة الحكم

أمنمحت الأول (٣٠ سنة) ٢٠٠٠ * — ١٩٧٠ * { ٢٠٠٠ — ١٩٨٠ قبل الميلاد منفردا
١٩٨٠ — ١٩٧٠ » مع ابنه

سيزوستريس الأول (٤٥ سنة) ١٩٨٠ * — ١٩٣٥ * { ١٩٨٠ — ١٩٧٠ » مع والده
١٩٧٠ — ١٩٣٨ » منفردا
١٩٣٨ — ١٩٣٥ » مع ابنه

أمنمحت الثانى (٣٥ سنة) ١٩٣٨ * — ١٩٠٣ * { ١٩٣٨ — ١٩٣٥ » مع والده
١٩٣٥ — ١٩٠٦ » منفردا
١٩٠٦ — ١٩٠٣ » مع ابنه

سيزوستريس الثانى (١٩ سنة) ١٩٠٦ * — ١٨٨٧ * { ١٩٠٦ — ١٩٠٣ » مع والده
١٩٠٣ — ١٨٨٧ » منفردا

سيزوستريس الثالث (٣٨ سنة) ١٨٨٧ * — ١٨٤٩ * مدة اشتراكه مع ابنه مجهولة

أمنمحت الثالث (٤٨ سنة) ١٨٤٩ * — ١٨٠١ * { مدة اشتراكه مع أبيه مجهولة
مدة اشتراكه مع ابنه مجهولة

أمنمحت الرابع (٩ سنوات) ١٨٠١ * — ١٧٩٢ * مدة اشتراكه مع أبيه مجهولة

سبك نفرو رع (٤ سنوات) ١٧٩٢ * — ١٧٨٨ *

المجموع ... ... ٢٢٨ سنة
١٥ » مدد الاشتراك فى الحكم بالتقريب
المجموع الحقيق ٢١٣ سنة

من الأسرة الثالثة عشرة الى الأسرة السابعة عشرة : ١٧٨٨ * — ١٥٨٠ قبل الميلاد

مدة هذا العهد بما فيه من عهد الهيكسوس ٢٠٨ سنة

الأسرة الثامنة عشرة : ١٥٨٠ — ١٣٥٠ قبل الميلاد

أحمس الأول ... ... ٢٢ (+ س) سنة ١٥٨٠ — ١٥٥٧ * قبل الميلاد

أمنحتب الأول : ١٠ (+ س) سنة } ٥٦ » ١٥٥٧* — ١٥٠١ * »
تحوتمس الأول : ٣٠ (+ س) »

تحوتمس الثالث ... ... ٥٤ »
من ٣ مايو ١٥٠١ * الى ١٧ مارس ١٤٤٧ *
قبل الميلاد (بما فى ذلك حكما تحوتمس
الثانى وحتشپسوت) .

أمنحتپ الثانى ... ... ٢٦ (+ س) » ١٤٤٨* — ١٤٢٠ »

تحوتمس الرابع ... ... ٨ (+ س) » ١٤٢٠ — ١٤١١ »

أمنحتپ الثالث ... ... ٣٦ » ١٤١١ — ١٣٧٥ »

أمنحتپ الرابع ١٧ (+ س) سنة
(أو إخناطون ١٣٧٥-١٣٥٨ قبل الميلاد)
ساكرع ... ... س سنة } ٢٥ » ١٣٧٥ — ١٣٥٠ »
توت عنخ آمون س »
آى ... ... ٣ (+ س) »

المجموع ... ... ٢٢٧ (+ ٤ س) سنة

أقل مدة معروفة لعهد هذه الأسرة ٢٣٠ سنة

الأسرة التاسعة عشرة ١٣٥٠ — ١٢٠٥ قبل الميلاد

حرمحب : ٣٤ (+ س) سنة ... ... ١٣٥٠ — ١٣١٥ قبل الميلاد

رمسيس الأول : ٢ » ... ... ١٣١٥ — ١٣١٤ »

سيتى الأول : ٢١ (+ س) » ... ... ١٣١٣ — ١٢٩٢ »

رمسيس الثانى : ٦٧ » ... ... ١٢٩٢ — ١٢٢٥ »

منفتاح : ١٠ (+ س) » ... ... ١٢٢٥ — ١٢١٥ »

أمن مسيس : س » ... ... ١٢١٥ »

سپتاح : ٦ (+ س) » ... ... ١٢١٥ — ١٢٠٩ »

سيتى الثانى : ٢ (+ س) » ... ... ١٢٠٩ — ١٢٠٥ »

المجموع ... ... ١٤٢ (+ ٦ س) سنة

أقل مدة معروفة لعهد هذه الأسرة ١٤٥ سنة

فـــترة

فوضى وحكم غاصب سورى : ٥ (+ س) سنة : ١٢٠٥ — ١٢٠٠ قبل الميلاد

الأسرة العشرون : ١٢٠٠—١٠٩٠ قبل الميلاد

الملك	المدة			
ستنخت	١	(+ س)	سنة	١٢٠٠ — ١١٩٨ قبل الميلاد
رمسيس الثالث	٣١		»	١١٩٨ — ١١٦٧ »
رمسيس الرابع	٦		»	١١٦٧ — ١١٦١ »
رمسيس الخامس	٤	(+ س)	»	١١٦١ — ١١٥٧ »
رمسيس السادس ... س سنة رمسيس السابع ... س » رمسيس الثامن ... س »	١٥		»	١١٥٧ — ١١٤٢ »
رمسيس التاسع...	١٩		»	١١٤٢ — ١١٢٣ »
رمسيس العاشر	١	(+ س)	»	١١٢٣ — ١١٢١ »
رمسيس الحادى عشر	س		»	١١٢١ — ١١١٨ »
رمسيس الثانى عشر	٢٧	(+ س)	»	١١١٨ — ١٠٩٠ »
المجموع	١٠٤	(+٥س) سنة		

أقل مدة معروفة لعهد هذه الأسرة ١١٠ سنة

الأسرة الحادية والعشرون : ١٠٩٠—٩٤٥ قبل الميلاد

الملك	المدة			
نسوبانبدد حريحور	س		سنة	١٠٩٠ — ١٠٨٥ قبل الميلاد
پسيب خنو الأول	١٧	(+ س)	»	١٠٨٥ — ١٠٦٧ »
پاى نزم الأول	٤٠	(+ س)	»	١٠٦٧ — ١٠٢٦ »
أمنم أوپت	٤٩	(+ س)	»	١٠٢٦ — ٩٧٦ »
سيامون	١٦	(+ س)	»	٩٧٦ — ٩٥٨ »
پسيب خنو الثانى	١٢	(+ س)	»	٩٥٨ — ٩٤٥ »
المجموع	١٣٤	(+٦س) سنة		

أقل مدة معروفة لهذه الأسرة ١٤٥ سنة

الأسرة الثانية والعشرون : ٩٤٥–٧٤٥ قبل الميلاد

الملك	المدة		الفترة	
شيشنق الأول	٢١ (+ س)	سنة	٩٤٥ — ٩٢٤	قبل الميلاد
أوسركن الأول...	٣٦ (+ س)	«	٩٢٤ — ٨٩٥	«
تاكلوت الأول	٢٣ (+ س)	«	٨٩٥ — ٨٧٤	«
اسركن الثانى	٣٠ (+ س)	«	٨٧٤ — ٨٥٣	«
شيشنق الثانى	—		(توفى عام ٨٧٧ قبل الميلاد فى أثناء اشتراكه فى الملك مع أوسركن الثانى).	
تاكلوت الثانى ... ... (اشترك سبع سنوات فى الملك مع أوسركن الثانى).	٢٥ (+ س)	سنة	٨٦٠ — ٨٣٤	قبل الميلاد
شيشنق الثالث	٥٢	«	٨٣٤ — ٧٨٤	«
بمو	٦ (+ س)	«	٧٨٤ — ٧٨٢	«
شيشنق الرابع	٣٧ (+ س)	«	٧٨٢ — ٧٤٥	«
المجموع	٢٣٠ (+ س)	سنة		
مدة الاشتراك فى الحكم بالتقريب...	٣٠	«		
المجموع الحقيقى	٢٠٠ (+ س)	سنة		

أقل مدة معروفة لهذه الأسرة ٢٠٠ سنة

الأسرة الثالثة والعشرون : ٧٤٥–٧١٨ قبل الميلاد

الملك	المدة		الفترة	
بديبست	٢٣ (+ س)	سنة	٧٤٥ — ٧٢١	قبل الميلاد
أوسركن الثالث	١٤ (+ س)	«		
تاكلوت الثالث	س	«		
المجموع	٣٧ (+ ٣ س)	سنة		
مدة الاشتراك فى الحكم بالتقريب ...	١٠	«		
المجموع الحقيقى	٢٧ (+ س)	سنة		

أقل مدة لهذه الأسرة ٢٧ سنة

الأسرة الرابعة والعشرون : ٧١٨ — ٧١٢ قبل الميلاد

بكنرأنيف (بوكوريس) ... ... ٦ (+ س) سنة ٧١٨–٧١٢ قبل الميلاد

أقل مدّة معروفة لهذه الأسرة ٦ سنوات

الأسرة الخامسة والعشرون : ٧١٢—٦٦٣ قبل الميلاد

شاباكا ... ... ١٢ سنة ٧١٢ — ٧٠٠ قبل الميلاد

شاباتاكا ... ... ١٢ « ٧٠٠* — ٦٨٨ «

طهراقه ... ... ٢٦ « ٦٨٨ — ٦٦٣ «

المجموع ... ... ٥٠ سنة

أقل مدة معروفة لهذه الأسرة ٥٠ سنة

الأسرة السادسة والعشرون : ٦٦٣ — ٥٢٥ قبل الميلاد

پسامتيك الأول... ... ... ٥٤ سنة ٦٦٣ — ٦٠٩ قبل الميلاد

نيخاو ... ... ١٦ « ٦٠٩ — ٥٩٣ «

پسامتيك الثانى ... ... ٥ « ٥٩٣ — ٥٨٨ «

أپريس (هوفرا) ... ... ١٩ « ٥٨٨ — ٥٦٩ «

أحمس الثانى... ... ... ٤٤ « ٥٦٩ — ٥٢٥ «

پسامتيك الثالث ... ... بضعة أشهر ٥٢٥ «

المجموع ... ... ١٣٨ سنة

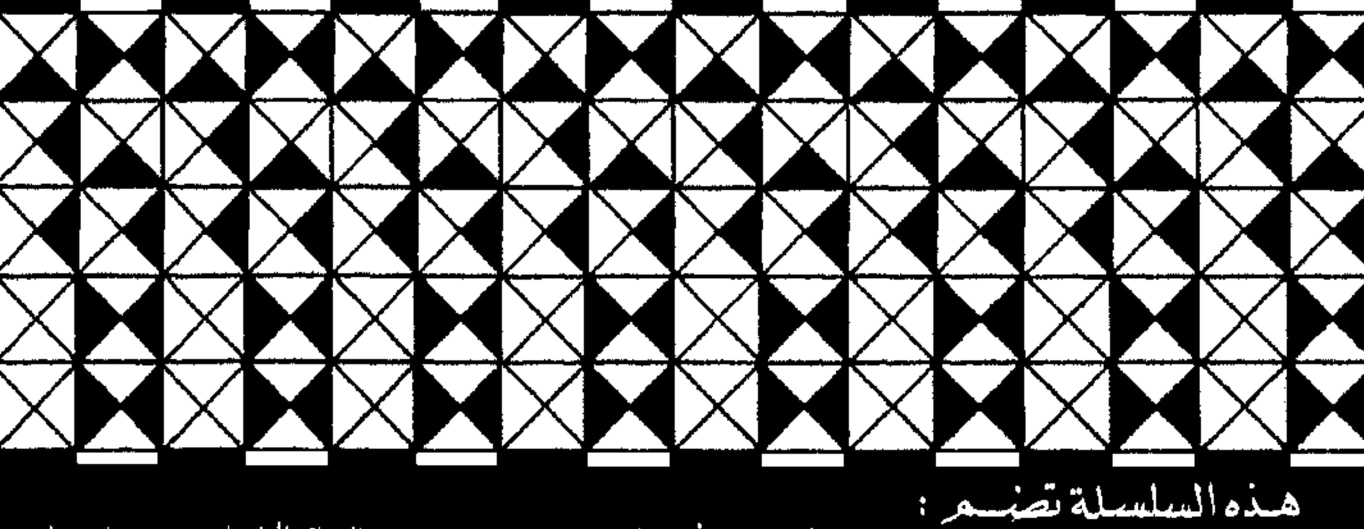
الغزو الفارسى (الأسرة السابعة والعشرون) : ٥٢٥ قبل الميلاد

صارت مصر بعد ذلك ولاية فارسية ثم حاول بعض حكام قصيرى العمر من أهلها تأسيس عدة أسر (من الأسرة الثامنة والعشرين الى الأسرة الثلاثين) ٥٢٥ — ٣٣٢ قبل الميلاد

استيلاء الاسكندر الأكبر على مصر : ٣٣٢ قبل الميلاد

مصر فى عهد الاسكندر وخلفائه البطالسة... ... ... ٣٣٢ — ٣٠ قبل الميلاد

صارت مصر ولاية رومانية : ٣٠ قبل الميلاد



هـذه السلسلة تضـم :

١ ـ فتح العرب لمصر
٢ ـ تاريخ مصر إلى الفتح العثماني
٣ ـ الجيش المصري البري والبحري في عهد محمد علي
٤ ـ تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي
٥ ـ تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل
٦ ـ تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر
٧ ـ ذكرى البطل الفاتح إبراهيم باشا
٨ ـ تاريخ مصر في عهد الخديو إسماعيل باشا (مجلد أول)
٩ ـ تاريخ مصر في عهد الخديو إسماعيل باشا (مجلد ثاني)
١٠ ـ فتوح مصر وأخبارها
١١ ـ تاريخ مصر الحديث مع فزلكة في تاريخ مصر القديم
١٢ ـ قوانين الدواوين
١٣ ـ تاريخ مصر من محمد علي إلى العصر الحديث
١٤ ـ الحكم المصري في الشام
١٥ ـ تاريخ الخديوي محمد باشا توفيق
١٦ ـ آثار الزعيم سعد زغلول
١٧ ـ مذكراتي
١٨ ـ الجيش المصري في الحرب الروسية المعروفة بحرب القرم
١٩ ـ وادي النطرون ورهبانه وأديرته ومختصر البطاركة
٢٠ ـ الجمعية الأثرية المصرية في صحراء العرب والأديرة الشرقية
٢١ ـ الرحلة الأولى للبحث عن ينابيع البحر الأبيض (النيل الأبيض)
٢٢ ـ السلطان قلاوون (تاريخه ـ أحوال مصر في عهده ـ منشآته المعمارية
٢٣ ـ صفوة العصر
٢٤ ـ المماليك في مصر
٢٥ ـ تاريخ دولة المماليك في مصر
٢٦ ـ سلاطين بني عثمان

مكتبة مدبولي
MADBOULI BOOKSHOP
٦ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ ت: ٥٧٥٦٤٢١
6 Talat Harb SQ. Tel.: 5756421